

شوقى ضيف



سيرة وتحفه

دراسات فى الأدب والنقد واللغة والتراث

إعداد وتقديم:

طه وادى

بقلم :

مجموعة من أساتذة الجامعات العربية



شوقى ضيف

سيرة وتحية

دراسات في الأدب والنقد واللغة والتراث

إعداد وتقديم
د.طه وادى

بقلم

مجموعة من أساتذة الجامعات العربية

مكتبة لسان العرب
www.lisanarab.com



المجلس الأعلى للثقافة

اسم الكتاب : شوقي ضيف

اسم المؤلف : طه وادى

الطبعة الأولى - القاهرة ٢٠٠٣ م .

حقوق النشر محفوظة للمجلس الأعلى للثقافة

شارع الجبلية بالأوبرا - الجزيرة - القاهرة ت ٧٣٥٢٢٩٦ فاكس ٧٣٥٨٠٨٤

El Gabalaya St., Opera House, El Gezira, Cairo

Tel : 7352396 Fax : 7358084



شوقى ضيف
سيرة وقيبة

ما قبلَ الْبَعْدَ ... !!

تلك هي الطبعة الثالثة من كتاب "شوقي ضيف - سيرة وتحية". أقدمها بعد أن حصل أستاذنا العظيم ... وأستاذ الجيل في الدراسات الأبية واللغوية والإسلامية - على "جائزة مبارك في الآداب" في يونيو ٢٠٠٣ ، وفي العام السابق نال - عن جدارة واستحقاق - "جائزة جامعة القاهرة" في البحث العلمي سنة ٢٠٠٢ : بهذا يكون ذلك الأستاذ الجليل والإنسان النبيل قد حصل على أهم الجوائز العلمية الكبرى في مصر والعالم العربي . وإنْ كان قد حاز - قبل ذلك - على ما هو أعزُّ وأبقى ، وهو حبُّ وتقدير الوسط الثقافي والمحيط الأكاديمي في مصر والعالم العربي ... وفي كل مكان يُدرُّس فيه التراث العربي : قديمه وحديثه وتاريخ أدبه وعيون تراثه ، لأنَّه يُعدُّ - بحقِّ - أمين التراث العربي .

وقد أضفت بعض الدراسات والمقالات إلى هذه الطبعة (الجديدة) ، حتى تعكس بعض معالم السيرة وبعض جوانب العظمة ... فينتاج ذلك العالم الفذ ، الذي يُعدُّ نموذجاً للأستاذ الفاضل والإنسان الكامل ، ورمزاً دالاً على ما تمثله الجامعة من عطاءٍ ونقاءٍ ووفاءٍ .

ولعل في هذه السيرة المشرقة ما يشكلُ القدوة والتنموذج لجيل جديد من شباب الجامعات المصرية والعربية ، ولمثل ذلك فليتนาفس المتنافسون .

فتشبُهوا بالرجالِ إِنْ لَمْ تَكُنُوا
مِثْلَهُمْ إِنَّ التَّشْبِهَ بِالرِّجَالِ فَلَاحَ
أَسَأَ اللَّهُ عَلَى الْقَدِيرِ أَنْ يَمْدُّ فِي عُمْرِهِ ، وَأَنْ يَنْفَعُنَا بِعَمْلِهِ ، وَيَهْبِطْ لَنَا مِثْلَ صَفَاتِهِ
وَأَخْلَاقِهِ ، إِنَّهُ عَلَى مَا يَشَاءُ قَدِيرٌ .

سبتمبر ٢٠٠٣

رجب ١٤٢٤

د. طه وادي

خطبة الطبعة الثانية

ذلك هي الطبعة الثانية من كتاب الوثائق "شوقى شريف - مسيرة وتحية" ، الذى صدرت طبعته الأولى - عن دار المعارف بالقاهرة سنة ١٩٩٢ . وبعد أن نفذت فكرت فى إعادة طبعه بمنظور جديد ، ويتمثل فى أن تكون الأبحاث المشكلة له كلها فى إطار دراسة جهود ذلك العالم الجليل ، حيث قدمت لى دراسات أخرى عنه ، لم يتب لها النشر فى الطبعة الأولى ، لهذا اضطررت - أسفًا - إلى تحية الأبحاث المهدأة إليه ، التي كانت تشكل "القسم الثاني" من الكتاب فى طبعته الأولى .

إن أستاذنا الجليل الدكتور شوقي عالم أجمعوا الأمة على حبه وتقديره . وبذل كل ما حدث من تكريم له - فى يوم الأربعاء ٢٠ أبريل ١٩٩٤ ، حين أقامت كلية الآداب - جامعة القاهرة حفلًا لتكريمه فى ساحه مدرجها العريق (٧٨) ، الذى ضاق - رغم سعته - بالحضور من كل فجٍ بعيد ، فقد حضره السيد الاستاذ الدكتور حسنين محمد شهاب رئيس الجامعة ... وقدم له درع الجامعة هو والاستاذ الدكتور حسنين محمد حمدى إبراهيم ربيع نائب رئيس الجامعة ، كما حضره السيد الاستاذ الدكتور محمد حمدى إبراهيم عميد كلية الآداب ووكيلها : أ. د. محمود فهمي حجازى ، أ. د. سيد الصسينى ، أ. د. عبد الستار الطوجى ، وكوكبة من أساندة الكلية وطلابها من كل الأقسام والشخصيات ، كما حضره جمعٌ غير من أساندة كلية دار الطوم ... ومجمع اللغة العربية بالقاهرة ... وبعض أساندة الجامعات العربية والإقليمية ... وممثلون لدار المعارف ورجال الإعلام ... وأخص بالذكر من هؤلاء وأولئك : د. كمال بشر ، د. أحمد ميكيل ، د. عبد الصبور شاهين ، د. محمد حسن عبد العزيز ، د. محمد نايل ، د. محمد حسن يوسف ، د. محمود حافظ ، د. ماهر حسن فهمي ، د. محمد أبو الفتوح شريف ، د. ماهر شفيق فريد ، أ. أحمد سويلم ... وغيرهم كثيرون .

وقد ألقى في الحفل كلمات كثيرة^(*) ... كما قدمت أشعار متعددة ألقاها الشعراء عبد المنعم عواد يوسف ، صلاح عيد ، محمد الحضيري (ليبيا) ، ممتاز سلطان ، سعد ظلام ، عبد الفتاح الشطبي ... وغيرهم .

ومما قيل في تكريمه ... ما ذكره أ. د . مفيد شهاب - رئيس جامعة القاهرة :

"لقد بذل شوقى ضيف سيرته العلمية فى عصر عمالقة الثقافة المصرية ، من أمثال طه حسين ، والعقاد ، وأحمد أمين ، ومحمد حسين هيكل - وتمكن بمثابرته المعهودة ، ومنهجه العلمي الرصين أن يحفر لنفسه اسمًا بارزًا فى قائمة مؤلاء العظام . وما ليث أن تجاوز أثره العلمي نطاق الجامعة ، إلى المثقف العادى ، فزاد عدد قرائه ، وتعددت طبعات مؤلفاته ، وأصبح اسمه مقترنًا بمعانى الجدية ، والأصالة ، والتوثيق .

ولأنه مما يزيد من سعادتى أن يباشر تلاميذ هذا الأستاذ الرائد إلى الاحتفاء به فى حياته - التى ندعو الله تعالى أن تكون مديدة - حتى يشاهد بنفسه ثمرة من ثمار غرسه ، ويطمئن قلبـه إلى أن وفاء أبناء مصر لمن علمهم حرقاً ... خلق ثابت ، وقيمة دائمة .

في شخصية شوقى ضيف جوانب كثيرة ومتعددة . ومن الواضح أنه لا يمكن الإحاطة بها فى كلمة واحدة محدودة . ولكننى سوف أقتصر هنا على الإشارة فقط إلى جانب واحد منها ، وهو جانب الأستاذ الجامعى ... الذى قدم له شوقى ضيف نموذجًا على أرفع مستوى من الكفاءة والخبرة .

فبعد دراسة جامعية متقدمة عُين شوقى ضيف معيداً بكلية الآداب سنة ١٩٣٦ ، ولازم التدريس بها على مدى نحو ستين عاماً حتى اليوم ... وقد ظل فيها وفيها لأصول الهيئة ، ملتزمًا بأدابها السامية ، محافظاً على ميثاق شرفها . وقسم جهده بين البحث

(*) أصدرت كتيباً بعنوان "في رحاب شوقى ضيف" سنة ١٩٩٦ . ط . دار النشر الجامعات - القاهرة .

العلمى ، فأنصدر ما يقرب من خمسين كتاباً قيماً . وبين التعليم الجامعى ، سواء فى مرحلة الليسانس ، أو الدراسات العليا ، فتخرج على يديهآلاف الطلاب ، وتبغ بفضل إشرافه ورعايته عدد من كبار الباحثين فى الوطن العربى ... وهكذا قدم شوقى ضيف النموذج الأمثل للأستاذ الجامعى : فى علمه وسلوكه ، فى عطائه وإنسانيته .

إن من حق قسم اللغة العربية أن يفخر بابنه البار ، ومن حق كلية الأدب أن تتهنئ لتكريمه والاحتفاء به ، ومن حق جامعة القاهرة كلها أن تعزز بشوقى ضيف : رائداً من روادها الكبار ، وواحداً من أبرز من أسهموا فى إرساء تقاليدنا العربية ، والتقدم بمسيرتها العلمية الموفقة .

وفي الختام اسمحوا لي أن أتقدم باسمى شخصياً ، وبالنيابة عن جامعة القاهرة بأنصدق آيات التحية والتقدير للأستاذ الكبير الدكتور شوقى ضيف ... أطال الله فى عمره ، وتقع مصرنا الحبيبة بعطائه وعلمه . كما أرجو أن يتقبل منا درع الجامعة ... تقديرأً لعطائه الخصب المتتنوع .

* * *

أما أ . د . حسين ربيع - نائب رئيس الجامعة ، فقد ذكر عنه :

ـ كانما خاق الأدب العربى بمختلف عصوره وبيئاته وفتوته عن أن يستوعب عبقرية شوقى ضيف ، أو أن يستند طاقاته الإبداعية ، فمضى يؤرخ للبلاغة العربية ، والنقد الأدبى ، والمدارس النحوية ، بل ماضى إلى ما هو أكثر من ذلك حين كتب عن (تجديد النحو) وعن (التسيسيرات اللغوية) . وجتن بخل مجال التحقيق أرسى فيه تقاليد راسخة ، وأخرج فيه أعمالاً رائدة مثل كتاب (الرد على النحاة) لابن مضاء القرطبي .

ولم تقف جهود شوقى ضيف عند علوم اللغة والنحو والأدب ، ولم يقتصر عطاؤه على هذه المجالات ، وإنما تجاوزها إلى آفاق أرحب ، فكتب عن (سورة الرحمن

وسور قصار) ، وحق (البر فى اختصار المغازي والسير) لابن عبد البر ، وشارك فى تحقيق (المقرب فى حل المغرب) لابن سعيد الأندلسى ، و (جريدة القصر وجريدة العصر) للعاد الأصفهانى .

ويكفى أن تُحصى مُنْتَفَعَاتِ شُوقي ضيف ، وأن تنظر في المجالات المتعددة التي غطتها ، وفي الطبعات الكثيرة التي صدرت منها ، لتدرك أنك أمام محيط يصعب اجتيازه وإدراك أعماقه ، ويحول من العلم والفضل والأدب لا ترك سلطته ، ولا تحصى جواهره ولاته ، ونهر يتدفق بالخير والخصب والنماء في عنوانة ويسر ، بحيث لا تستغني عن منه ، ولا تشبع من خيراته

* * *

وقال عنه أ. د . حمدى إبراهيم - عميد الكلية :

ـ لقد تخطى أستاذنا أ. د . شوقي ضيف حدود قسمه وحدود كليته وأصبح ملكاً لجامعته بل لجامعات مصر كلها ، أصبح ملكاً في الحقيقة لدولتنا بأسرها ولأمانتنا كلها .

ومن هنا أصبح تكريمه واجباً ولزاماً على الجميع ، فالحقيقة أنه ما من شخص هنا إلا ونال منه حظاً من الفضل ، سواء تعلمذ على يديه ، أو عرفه عن قرب ، أو زامله ، أو قرأ له ، ونهل من فضل علمه العزيز .

كل تكريم إذن هو حق له وواجب علينا نحوه ، وأعتقد أن الأمة التي تكرم أصحاب الفضل فيها والعظماء من أبنائها إنما تبرهن بذلك على أنها أمّة صحيحة البناء متقددة العطاء .

وفي ختام كلمتي هذه ، أرجو - يا أستاذى الجليل - أن تقبل باسم كلية الآداب - جامعة القاهرة ، خالص الحب والتقدير ، وأصدق مشاعر الامتنان لشخصك العظيم ، وأخلص الدعوات لك بصحبة موفورة وعمر مدید . ولتعلم - يوماً يا أستاذى الجليل -

أن الذى مازال كامنا بالنفس أوفر ، وأن ما عجز اللسان عن الافصاح به أكثر ، وأن ما جاش بالقلب واستعصى عن البيان ... لم تنطق به بعد الشفتان .

* * *

وقد قال عنه أيضاً د. أحمد هيكل :

ـ لا يوجد فرع من فروع اللغة العربية والدراسات الإسلامية إلا وقد اقتحمه شوقي ضيف العالم المتخصص في هذا الفرع أو ذلك . ليس شوقي ضيف عالم موسوعياً بمعنى الأخذ من كل فن بطرف ، ولكنه عالم موسوعي متخصص في كل الفروع ، وكاتب على أعلى مستوى في كل هذه الفروع . وهذه الظاهرة لا علم لها يماثلها عند غيره : هو مع النحويين نحوئي متفرد ومجددي يكتب نظريات في التجديد ، ويكتب في التفسير ، ويحقق ابن مضاء القرطبي ، وهو في تاريخ الأدب يكتب تاريخاً وشخصيات ويكتب فنوناً ، ويكتب في البلاغة ، ويكتب في النقد ، ويكتب في مناجع البحث الأدبي . وهو بين المؤرخين على أعلى مستوى ، وهو بين النقاد على أرفع مستوى ، وبين اللغويين لغوي على أعظم مستوى ، وبين الكاتبين في علوم القرآن كاتب على أعلى مستوى ، وهو محقق من طراز فريد : حق الكبير ، لا من المخطوطات المشرقية فقط ، وإنما تجاوزها إلى المخطوطات الاندلسية مثل كتاب (المغرب) لابن سعيد الاندلسي ، وأثار - ونحن في إسبانيا ، والدكتور مكي يذكر هذا - حتىّاً وضيقاً من بعض المستشرقين ، ولكنهم لم يستطيعوا أن ينتصروا من علمه شيئاً ، بل أكبروه وأجلوه : لأنّه فعل ما لم يفعلوه .

شوقي ضيف ظاهرة مصرية ، شوقي ضيف متفرد بالعصرية ، إنه فخر ومجد للجيل الثاني بعد جيل الرواد ، الجيل الأول كان طه حسين وأحمد أمين والعبادي والشيخ الخولي ، والجيل الثاني يتصدره شوقي ، وفي كثير من مناقبه يقتدي أفراداً من الجيل الأول في هذه الموسوعية التخصصية ، وعهدنا بالموسوعية أنها الأخذ من كل فن

بطرف - شوقي ضيف موسوعي متخصص في نفس الوقت ، وهو ظاهرة فريدة لا أظن أنها تكرر كثيراً ، وهو في رأيي معلم من معالم مصر والأمة العربية .

وهو من تشرف به الأمة العربية والإسلامية ، وما من بلد عربي سافرت إليه إلا وجدت فيه تلاميذ من عشاق شوقي ضيف الذين يجلونه ويقبلون يده من قرب أو من بعد ، وأنا واحد من هؤلاء الذين يسعون ويسعون بتقدير يده كلما التقى به ، أطال الله عمره ، وشرف به أمتنا أكثر وأكثر .

* * *

أما أ . د . كمال بشر ... فقد ذكر في كلمته أن هناك مجموعة من القيم أرساها شوقي ضيف ، يلخصها في اثنتين :

"القيمة الأولى": إنه ليس قدّيما ولا حديثا لكنه أتى بأعمال قديمة في صورة حديثة ، تبين لنغير العارفين أن هناك عقولاً راشدة ، تستطيع أن تجمع بين هذا وذاك ، بحيث تسكت هذه الأصوات العالية ، التي تريد أن تجرنا إلى مزالق فكرية أيديولوجية لسنا في حاجة إليها ، وما أكثر المصطلحات التي تسيء إلى موقعنا العربي الإسلامي في هذا الوقت بالذات ، مصطلحات كثيرة لا أريد أن أذكرها ، ولكن قراءة فاحصة واعية في أعمال شوقي ضيف ترد على هذه الأصوات العالية ، الذين ينادون بها خدمة لأيديولوجيات معينة ، أو لهدف معين ، وأنا أعلم بعض هذه الأهداف .

"القيمة الثانية": كما قلت - هي القيمة القومية العربية ، هذا الرجل يمثل القومية العربية في أجلى صورها ، ابتداء من كونه أستاذًا للقادرة العلماء في البلاد العربية ، وإلى أعماله التي كتبها في خدمة اللغة العربية ، وإن كانت بعض أعماله لم تصل أعمقها إلى كثير من الناس : إما جهلا ، وإما عدم معرفة بما يجري . وفي الواقع الكلام كثير وكثير ، ولكنه في النهاية اقترح شيئين :

الاقتراح الأول : أن تعقد ندوة علمية كبيرة - يقوم بها قسم اللغة العربية أو أقسام اللغة العربية ودار العلوم وكلية اللغة العربية بالأزهر الشريف - لدراسة أعمال هذا الرجل دراسة علمية أكاديمية : لاستخلاص المبادئ والقيم التي انتظمتها هذه الأعمال ، وأن يعد لهذه الندوة إعداداً جيداً طيباً ، وأن يدعى إلى المشاركة فيها أساتذة متخصصون في كل فرع من فروع المعرفة ، أو المعارف التي سيطر عليها شوقي ضيف .

الاقتراح الثاني : أن أنتعه - إن قبل وإن وافقت - بأمين المعارف العربية ،
ولا أقول المعرفة ، لاحظوا أنتي قلت أمين المعارف العربية ، أرجو أن يكون هذا لقبا
لشوقى ضيف ، وأن يقبل أستاذنا هذا اللقب من تلميذ متواضع . إنتي عندما أجلس
إليه إنما أجلس إلى واحد من أمناء الفكر ، فيه عبق الأصالة ، وعبق الشمعون ، و Ubiquity
التواضع ، التواضع العجيب الذى يتحلى به شوقى ضيف من أين أنتي به هذا الرجل
فى هذا الزمن الردىء ، وكيف يتحمل كل ذلك فى هذا الزمن الردىء . ولكنه هو
البرم ، وهو الجبل الذى يمكن أن يصد كل ريح عاتية .

* * *

وبعد . فإن ذلك بعض ما قيل عن شوقى ضيف : الإنسان والاستاذ والعالم .
وما الأبحاث التي يشتمل عليها هذا السفر الوثائقى إلا تكيد لنور ن لكم العالم الجليل ،
الذى أجمعت الأمة على حبه واحترامه .. والاعتراف بقدرته ومكانته .

أخيراً ... تحية عرفان بالفضل وعظامه القدر لذاك العالم المتبلى والاستاذ الزاهد ...
وشكرًا جزيلاً لكل من قال كلمة ، أو قدم دراسة .

والله أنسأّل أن يوفّقنا جمعيّاً إلى طریق الخیر والعلم والرشاد ... إنه نعم المولى
ونعم النصیر !!

۱۸ جمادی الاولی ۱۴۱۷ھ

أول أكتوبر ١٩٩٦م

الموكِّلُ عَلَى اللَّهِ أَبُو مُحَمَّدٍ

د . طه عمران وادی

مقدمة الطبعة الأولى

هذا الكتاب ... وذلك الرجل

﴿ يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أَوْتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَيْرٌ ﴾

[سورة المجادلة : الآية ١١]

هذا الكتاب شوقي ضيف : سيرة وتحية - كتاب تذكاري ومجلد وثائقى عن أستاذنا الجليل ... أستاذ الأساتذة ... وكبير العلماء ، وهو كتاب يؤكّد وفاء جيل من دارسى الأدب العربى ، نحو أستاذ عظيم المكانة ، جليل القامة ، وهب حياته كلها للبحث والدرس ، والعلم والتعليم ، غير متطلع إلى منصب أو طالب لعرض من أعراضه الدنيا . إن الحديث عن شوقي ضيف ... حديث عن رجل كالسيف ، صور بسيرته ، وشكل بمسيرته ، مثلاً أعلى يحتذى ، وقدوة حسنة بها يهتدى ، ولمثل ذلك فليعمل العالمون ، وليتنافس المتنافسون .. !!

وقد نشأت فكرة تكريم الأستاذ وإصدار هذا الكتاب عنه ، فى إطار القسم الذى تعلم فيه ... وعلم - قسم اللغة العربية فى كلية الآداب ، جامعة القاهرة - حين بلغ - أطال الله عمره - سن السبعين . وقد تحمسـت - بصفة شخصية - لهذا المشروع الجليل ، وقد لقيت الدعوة - للمشاركة فى الكتاب - قبولاً حسناً لدى كل من يعرفه عن قرب أو يُبعد ... ومن عاصره ، أو تتلمذ على يديه . وقد وصلت إلى - خلال أربع سنوات - أبحاث متنوعة ودراسات عديدة ، يصعب جمعها بين دفتى مجلد واحد ؛ لذلك أثرت - فى القسم الأول - نشر كل ما كتب - من مقالات ودراسات - حول سيرة

الأستاذ ، ومجالات تراثه ، وتقديره لأعماله ، أما القسم الثاني - الذي يضم البحوث المهدأة إليه - فقد وردت فيه بحوث كثيرة وأعمال مطولة ، لدرجة أن بعضها كاد يشكل - من حيث الكم والكيف - كتاباً مستقلاً . وخشية تضخم حجم الكتاب أو نشره في جزعين متصلين ، اضطررت إلى انتخاب نماذج مختلفة من تلك البحوث المهدأة ، تكون قريبة - إلى حد كبير - من المجالات التي تدور فيها دراساته ، وتشعب إليها مؤلفاته ، هذا من ناحية ... ومن ناحية أخرى تكون دالة على جهود بعض الباحثين ، الذين تلقوا العلم على يديه في مختلف الأقطار والمعاهد .

بناءً على هذا الاختيار الصعب أقدم شديد أسفى ، وخالص اعتذاري ، إلى من لم تنشر أبحاثهم من الزملاء والأصدقاء ، كما أعبر لهم ... ولن نشرت دراستهم عن عظيم تقديرى وعاظر ثانى : لحرصهم على المشاركة في الكتابة ، والإسهام في تكريم الأستاذ ، وفاءً لما يؤمنون به من قيم ، والتزاماً بما يصدرون عنه من مبادئ .

هذا فيما يتصل بالكتاب ... أما أستاننا الطليل شوقي ضيف ، فلا أدرى حين أتحدث عنه : من أين أبدأ ... وكيف أتحدث ... وماذا يمكن أن أقول .. ؟ !! إن شوقي ضيف نموذج إنسانى فريد ، ومثال علمي رصين ، فهو مجموعة من الخالل الحميدة ، والصفات العلمية الجادة ، التي ينذر أن تتحقق - مجتمعة - في واحد من البشر ، إن فضائله الأخلاقية جديرة بأن تملأ قلب كل من يعرفه محبة وتقديرًا ... وإعزازًا وتوقيراً ، أما ذلك الرجل العالم فهو مدرسة في إهاب دارس ، وأمة في رداء فرد ، فقد ألف في أكثر من ميدان ، وراد أكثر من مجال ، فشملت كتبه ودراساته وبحوثه مجالات عدّة ، مثل : التفسير القرآني ... وتحقيق التراث ... وكتابة السيرة ... والأدب الشعبي ... واللغة والنحو ... والبلاغة والنقد ، ثم يأتي قبل ذلك كله جهوده الرائدة والرائعة في الكتابة عن الأدب العربي : شعره ونشره ، قديمه وحديثه ، إذ رسم بعيقرمه وإقتدار خريطة أدبية شاملة لكل مراحل تاريخ الأدب العربي منذ العصر الجاهلي حتى اليوم ، ذلك الأدب الخالد ، الذي يعد أطول الأداب الإنسانية عمرًا ، وأغزرها مادة ، وأثارها قيماً ، ولسوف تظل مسيرة ذلك الأدب العربي مستمرة ومطردة - بإذن الله - لأن أينا

مرتبط بلغتنا ، ولغتنا مرتبطة بكتاب الله وسنة رسوله !! . ويقدر ما كان أديباً الخالد بحراً متذفلاً بغير ضفاف ... فقد كان أستاذنا ملحاً ماهراً في إطار علماء عصره وكتاب جيله .

ومما هو جدير بالذكر أن جهود الأستاذ ليست فيما ألفَ وكتب فحسب ، لكنها ممتدة أيضاً ... ومتصلة ... ومتواصلة في الآف من الطلاب ، الذين جلسوا أمامه مجلس التلميذ من الأستاذ ، وفي ملايين الدارسين والمتلقين ، الذين تعلموا على ما كتب في حقول العلوم الأدبية والتقدمة واللغوية ، وفي مئات من الأساتذة والباحثين ، الذين أشرف على دراساتهم العليا ، أو شارك في مناقشة رسائلهم الجامعية ، أو أسهم في فحص نتاجهم العلمي خلال مراحل ترقیهم في سلم العمل الجامعي ، ناهيك بجهوده في التدريس زائراً في جامعات مختلفة ، بالإضافة إلى أعماله المخلصة الجادة في مجمع اللغة العربية بالقاهرة ، وفي غيره من المجاميع العلمية العربية .

خلاصة القول - حتى لا أحول بين القاريء والكتاب - إن هذا العمل - الذي تقدمه اليوم تحية لأستاذنا ... ورمزاً لوفاته ، هو - في الحقيقة - بطاقة مودة ... ووسام تقدير ، يضاف إلى ما حازه من قلائد التقدير وأيات العرفان في مصر ، والعالم العربي ، وفي كل مكان يدرس فيه الأدب العربي ... واللغة العربية .

أخيراً ... ندعوا الله - مخلصين - أن يمد في عمره ... وينفعنا بعلمه ... ويهب لنا مثل خلقه ... ويوفقنا للقيام ببعض ما عمله ... ويعينا على المضي في طريق صعب وطويل سلمه ... ويوفقنا لتكون أوفي خلف لأعظم وأفضل سلف ، إنه على كل شيء قادر ... وهو نعم المولى ونعم النصير !!!

الدقى : ١٢ ربيع الأول ١٤١١هـ

أول أكتوبر ١٩٩٠

د . طه عمران وادى

أستاذ الأدب والنقد العربي الحديث

كلية الأداب - جامعة القاهرة

١ - شوقي ضيف

سيرة عالم ... ومسيرة إنسان

د . طه وادى

(١)

شوقي ضيف عالم موسوعي جليل ، وأستاذ جامعي رصين ، يندر أن تجد مثيلاً له في جيله : عطاء وثراء وحسن خلق ، ولا تعود أهميته إلى كثرة ما ألف فحسب ، بل إنه أيضًا أستاذ لأجيال مختلفة من أساتذة الأدب واللغة ، على امتداد الوطن العربي كله ، ومن لم يتلهم على بيته مباشرة في قاعات الدرس ورسائل البحث ، فقد تلهم على كتبه ودراساته - التي تكاد تستوعب معظم مجالات التراث العربي : في إطار الدراسات الأدبية ، واللغوية ، والبلاغية ، والنقدية ، والإسلامية ، وتحقيق التراث .

وقد ولد أحمد شوقي بن الشيخ عبد السلام ضيف في قرية " أولاد حمام " - التي تقع بالقرب من شاطئ بحيرة المنزلة ، التابعة لمحافظة دمياط سنة ١٩١٠ م - لأبوين فرحا به فرحاً كبيراً : لأنهما رزقا ولدين قبله ، لكن الموت اختطفهما سريعاً . ولعل ذلك ما جعل أمه تبالغ في رعايتها له ، وعطفها عليه عطفاً لم يبرح ذاكرته يوماً .^(١) ، وكان أبوه الشيخ عبد السلام ضيف قد أتم مرحلة التعليم الأزهرى في دمياط ، لكنه عزف عن أن يقلد وظيفة من وظائف رجال الدين ، فعاد إلى قريته قبيل اقترانه مكتفيًا بمزرعة صغيرة (ورثها عن أبيه) تعلوه هو وأسرته . وكان (الطفل) يرى أباه كل صباح يقرأ شيئاً من كتاب الله . وبعضاً الأوراد في كتاب " دلائل الخيرات " . وكان الآب سمح النفس محبوبًا من أهل القرية لا لدروسه الدينية فحسب ، ولكن أيضًا لسعيه لهم ، بقدر ما يستطيع في قضاء مصالحهم .^(٢) .

(١) شوقي ضيف : مقى ، ط . دار المعرفة ، ١٩٨١ ، ص ١٣ .

(٢) المصدر السابق ، ص ١٤ .

وسط جمال الطبيعة ويسر الأسرة ، نشأ "أحمد شوقي" في جو يحترم تقاليد الريف ، ويقدس المشاعر الدينية . وقبل أن تستطرد في تصوير حياة أستاذنا الجليل أتوقف عند حادثة فقد عينه اليسري ، حيث "فقد عينه وهو في المهد" ، فلم يذهب به أبوه إلى طبيب عيون ، إذ لم يكن في دمياط طبيب عيون ، فذهب إلى طبيب ، كان يذهب إليه كثيرون من أهل القرية لفحص جميع أمراضهم ، وكان على هذا الطبيب - حين رأى عين الصبي الرمدا أو المريضة ، وأن سحابة هبطة عليها - أن ينصح أباً باستشارة طبيب عيون ، لكنه بدلاً من ذلك أجرى للصبي عملية في عينه ، وظن الأب أنها نجحت وهي لم تنجح ، فقد ظلت السحابة تحجب نظر العين ، وفقد الصبي عينه اليسري إلا بصيغة ضئيلاً .^(١)

وقد أدت هذه الحادثة إلى ضعف إحدى عينيه وهو صبي في المهد ... ومع ذلك فقد واصل رحلة علمية شاقة ، تنوء بإنجازها أمة من الناس ، وأشهد أني خبرتُ أستاذنا وعاشرته حوالي ثلث قرن ، لكنني لم ألحظ على عينيه هذه الملاحظة إلى أن قرأت عنها في سيرته ، وكان هذا سبباً يضاعف من احترام الرجل ، ويزيد من الإعجاب بصبره ومثابرته .

وقد التحق في السادسة من عمره بالمدرسة "الأولية" بالقرية . وبينما كان يخطو إلى التاسعة ترك أبوه القرية واتخذ دمياط دار مقام له ، وكانت أمنية أبوه أن يصبح "شوقي" شيئاً ، وكانا يرددان على سمعه أنهما وهباه للعلم ، وكلمة العلم عندهما إنما تعنى العلم الديني ، الذي يحمله في صدورهم شيوخ الأزهر الشريف ، ولذلك لم يتردد أبوه في أن يدخله كتاباً يحفظ فيه القرآن الكريم .^(٢)

وبعد أن حفظ القرآن الكريم على "مقرئ جامع البحر" بدمياط ... التحق الصبي بالمعهد الديني سنة ١٩٢٠م ، وقد وصف صاحب السيرة حياته بتفصيل واضح في كتاب "معى" خلال هذه المرحلة ، حيث بدأ يقرأ الصحف اليومية ، ويتتابع أخبار السياسة والأدب ، وبدأ يتعرف - من خلال الصحف - على طه حسين ، ومحمد حسين هيكل ، وعباس محمود العقاد ، ومصطفى صادق الرافعى ، وعلى عبد الرانق .

(١) المصدر السابق ، ص ٢٩ .

(٢) المصدر السابق ، ص ٤٠ .

ومما يلفت النظر أنه - وهو لا يزال تلميذاً في معهد دمياط الابتدائي - **الف كتاباً في النحو**، يعد تلخيصاً لكتاب "قطر الندى" لابن هشام المصري ، وربما كان هذا الكتاب هو الذي ألقى في وعي الفتى مبكراً حاجة النحو الخاص بالناشرة إلى التيسير والتبسيط ، مما جعله فيما بعد ينشط لوقفاء بهذه الحاجة^(١). ومن المعروف أن أستاذنا شوقي ضيف برغم تخصصه في مجال الدراسات الأدبية فقد اهتم بالتأليف في النحو أيضاً ، حيث ألف فيه : أربعة كتب مهمة هي : (الرد على النحاة) و- (المدارس النحوية) و (تجديد النحو) و (تيسير النحو) قديماً وحديثاً مع نهج تجديده .

(٢)

في صيف ١٩٢٦م أنهى دراسته الابتدائية بدمياط ، ثم انتقل إلى معهد الزقازيق الثانوي ، ليكمل دراسته الأزهرية ، وكانت هذه أول غربة له بعيداً عن أبوه وأسرته ... ومن عجب أن حياء الرجل لا يفارقه حتى وهو يكتب سيرته ، لذلك تجده بدلاً من أن يعبر عن مشاعر الغربة في الزقازيق ، يمضى ليحدثنا عن أمور سياسية وثقافية عامة ، مثل الحديث عن أزمة كتاب "في الشعر الجاهلي" لطه حسين (١٩٢٦) ، ومبادعه أحمد شوقي (١٩٢٧) بamarاة الشعر ، واستقالة وزارة عدل ي يكن سنة (١٩٢٧) ... ثم وفاة سعد زغلول ، ثم وضع حجر الأساس للجامعة المصرية (جامعة القاهرة الآن) في فبراير (١٩٢٨) ، وهذا أود أن أشير إلى سمة مهمة من سمات ذلك الرجل العظيم ... وهي الحياء الشديد ، المترن بعفة القلب واليد واللسان : لذلك لم يشتراك - طوال عمره - في أية خصومة ، ولم يتدخل في أية عداوة ، ولم يسع - أبداً - بنمية ، ولم تتطرق إليه يوماً ريبة ، وقد رأيت خصومات وخلافات كثيرة ، وكان الرجل على مرمى حجر منها ، لكنه ظل محافظاً على حياده المذهب ، يشكوا إليه هذا أو ذاك من المخاصلين ، فلا ينقل كلمة ولا يشعل فتنة ، وإنما يسعى إلى المصلحة والإصلاح ما استطاع إليهما سبيلاً ، لذلك ظل الأستاذ الإنسان محايضاً وموضع ثقة كل زملائه وتلاميذه ، وكان في رأيه لا يصدر عن هوئ ، وفي مسيرته لم يحاول قط أن يأخذ حقاً ليس له ، يؤكد ذلك أيضاً أنى درست الأدب العربي القديم على يديه طوال ثلاث سنوات ، ولم يتختلف فيها

(١) المصادر السابق من ٥٩.

يوماً عن محاضرة ، ولم يفلت منه زمام الدرس ، فيحكي طرفة أو نادرة أو يستطرد ليتحدث عن ذاته أو بعض مواقف حياته .

ويعد أن أنهى تعليمه في معهد الزقازيق الثانى فكر في الالتحاق بدار العلوم وترك الطريق الذى اختاره أبواه - طريق التعليم الدينى فى الأزهر ، وكانت لدار العلوم مدرسة ثانوية بالقاهرة تسمى " التجهيزية " ، التى تعد الطلاب للالتحاق بها ، وكان ذلك فى العام资料 ١٩٢٨/١٩٢٩ ، ومنذ ذلك العام ترك النزى الأزهرى إلى النزى الأقرننجى ، وهذا التحول فى النزى رمز لتحولات فكرية وعلمية فى حياته ، وكان ذلك إرهاصاً لتحوله من التعليم الأزهرى القديم إلى التعليم الجامعى الحديث فى كلية الآداب ، وقبيل آخر العام الدراسي资料 ١٩٢٠ ، علم أن " كلية الآداب ستفتح أبواب قسم اللغة العربية لقبول طائفة من خريجى التجهيزية " ، وطائفة من حملة الثانوية الأزهرية ليكملوا دراستهم فيه ، إذ رأى طه حسين - عميد الكلية - وزملاؤه أن يتاحوا لمجموعة من حفظوا القرآن الكريم واستظهروه فى صباهم ، ثم درسوا العلوم الدينية وعلوم العربية فى شئء من التوسيع أن يتبعوا الدراسة فى القسم ^(١) .

(٣)

وفي العام الدراسي ١٩٢١/١٩٢٠ التحق بالسنة الأولى بقسم اللغة العربية فى كلية آداب القاهرة ، وبدأ يدرس بجوار علوم العربية : الإنجليزية (لغة أجنبية أولى) ، والفرنسية (لغة ثانية) ، وكان يدرسهما مدرسوون أجانب من مدرسي أقسام اللغات الأجنبية بالكلية ، وكان تعلم الإنجليزية أسهل عليه من تعلم الفرنسية : لصعوبة نبراتها وكثرة الحروف الصامتة فى كلماتها .

وقد تتمىز - فى كلية الآداب - على أيدي مجموعة من الأساتذة الأفضل الذين كانوا يدرسون فى ذلك القسم العربى - قسم اللغة العربية - وهم : دكتور طه

(١) كتاب " معي " ، ص ١٠٢ .

حسين - الأستاذ أحمد أمين - الأستاذ إبراهيم مصطفى - الشيخ أمين الخولي - الشيخ أحمد الإسكندرى - دكتور عبد الوهاب عزام - الشيخ مصطفى عبد الرزاق - د. خليل نامي - الأستاذ مصطفى السقا .

وقد نشر - في مجلة "الرسالة" سنة ١٩٣٤ - أول مقال له حول "الوضوح والغموض في الشعر" ... وهكذا بدأ العالم الشاب يخطو أولى خطوات مسيرته العلمية عن طريق بعض المقالات ، التي كان ينشرها في مجلة "الرسالة" ، وكان يرأس تحريرها حينئذ أستاذة أحمد أمين ، وحول ذلك يقول : " وكان عجب الفتى شديداً حين عاد إلى هذه المقالات في سن متاخرة ، ليرى بواكيير كتاباته ، إذ رأها بنفس الصورة التي يكتب بها حين علت سنها : صورة الأسلوب الرصين ، الذي يعني صاحبه فيه باختيار الألفاظ ، وحسن موقعها في الأسماع ، مع اهتمام من حين إلى حين بالصور والأخيلة ، يريد أن يجعلها أسلوبياً سائغاً . وكان يظن أن رصانة أسلوبه أنته - بمرّ الزمن - من قراءاته الكثيرة فيما بعد للجاحظ وإعجابه بروعة أسلوبه ، ويبدو حقاً ما قاله بعض النقاد الفرنسيين من أن الأسلوب هو الشخص ، وأنه يوجد معه حين يمسك بالقلم حتى الأنفاس الأخيرة " (١) .

هكذا يضع ذلك الأستاذ الجليل أيدينا على سمة من أهم سماته الأسلوبية ، وهي العناية بجمال التركيب اللغوى . إن الدراسة الأدبية غير الأدب ذاته ، ومع ذلك ينبغي أن يكون دارس الأدب ، أو ناقده ، متاثراً إلى حدٍ كبير بطبيعة المادة الأدبية التي يدرسها ويحلل عناصرها ، وهذه الخاصية الأسلوبية تلمسها عند كل من تصدى لدراسة الظاهرة الأدبية ، منذ محمد بن سلام الجمحي ، وإنتها ببطء حسين ، والتدليل على هذه السمة عند شوقى ضيف قد يحتاج إلى دراسة خاصة ، ومع ذلك نكتفى للتدليل عليها بهذه الفقرة من كتابه " التطور والتجديد في الشعر الأموى " الذي يعد من أهم دراساته الأدبية ، وقد صدرت طبعته الأولى سنة ١٩٥١ ، حيث يقول مُحلاً طبيعة " النقائض الشعرية " بين جرير والفرزدق : " ليست النقائض إنما أهاجي بالمعنى القديم ، الذي كان يفهمه العرب في الجاهلية للهجاء ، وإنما هي مناظرات أدبية

(١) دمعى ، ص ١١٠ .

أوجدتها ظروف عقلية ، وأخرى اجتماعية لعصر بنى أمية ، ولعل من الطريف أنها اقترنت عند جرير والفرزدق بمسألة شكلية نلاحظها في مناظراتنا الحديثة ، فنحن إذا تساءلنا أين كان يقف جرير في مناظراته مع الفرزدق ، كان الجواب الطبيعي أنه يقف في صفوف قومه تميم ، فإن أبي تميمًا كان عليه ألا يقف في صفوف خصومها ، ولكن الذي حدث فعلًا أن جريراً لم يقف دائمًا في صفوف تميم ، ولا في صفوف أنصارها من كانت تعاهدهم في الجاهلية والإسلام ، مثل قبيلة كلب ، وإنما وقف في الصفوف المقابلة مع خصومها وأعدائها : صفوف قيس وفروعها وغضونها ، وطبعاً كان ينصر قومه كليباً أمام عشيرة الفرزدق مجاشع ، غير أنه كان يدافع أيضًا عن قيس ضد دفاع الفرزدق عن تميم ، بالضبط كما يقف المناظر في عصرنا الحديث ، ليدافع عن وجهة نظر معينة في موضوع من الموضوعات ، وليس من الضروري أن يكون مؤمناً بها ، بل قد يكون من خصومها ، ويأتي به من أعنوا المناظرة للإغراب على الناس وجمهور النظارة .

على هذا النمط جلت قيس جريراً ليندو عنها أمام الفرزدق وتميم ، فتَمَ بذلك صورة بعض مناظراتنا الحديثة ، حين يدخل شخص في مناظرة وهو غير مقتنع بفكرة من الأفكار ، فيوضع للدفاع عنها ، وبذلك تصبح المسألة لعبة عقلية لا أقل ولا أكثر ، يراد بها تسلية السامعين ، والمران على الجدل والحوار والسائل أيًا كان الوضع وأيًّا كانت الغاية .

الست إذن في نقائض جرير والفرزدق بيازء مناظرات أدبية حقيقة ؟ فهذا جرير يقف في المريد ، ليدافع عن قيس ، وما عهدنا في الجاهلية ولا في الإسلام شخصًا يتنازل هذا التنازل عن قبيلته ، ويحلق بقبيلته أخرى يتغصب لها ، ويتسبّع لأهلها وأبنائها على ما يتسبّع ويتغصب جرير لقيس أعداء تميم في الجاهلية والإسلام^(١) .

على هذا النحو من إشراق العبارة ووضوح المنطق وجلا드 الفكرة ، كان أستاذنا يكتب دراساته ، ويعرض أفكاره ، ويحلل الظواهر الأدبية التي يكتب عنها .

(١) شوقى ضيف: التطور والتجميد فى الشعر الاموى . ط . دار المعارف - القاهرة ، السبعـة ، ١٩٨١ ، ص ١٨٧ .

وقد أمضى الطالب شوقى ضيف فى قسم اللغة العربية أربع سنوات (١٩٢١ - ١٩٢٥) ، وكان خلالها مثال الطالب الجاد الملزם ، وقد لفت نظر كل أساتذته مع اختلاف تخصصاتهم ومدارسهم الفكرية ، واتجاهاتهم النقدية ومساهماتهم فى حركة المجتمع . وهم : طه حسين ، وأحمد أمين ، ومصطفى عبد الرانق ، وإبراهيم مصطفى ، وأمين الغولى ، وأحمد السكتنرى ، وعبد الوهاب عزام . كما ظهر تفوّقاً فى دراسة المواد غير التخصصية وفي دراسة اللغات الأجنبية ، لذلك صار أول بحثه فى التخرج ، ونال شهادة الليسانس بامتياز سنة ١٩٢٥ م .

(٤)

وقد عُيّن بعد تخرجه فى وظيفة " محرر " بمجمع اللغة العربية ، وفي سنة (١٩٣٦) عين معيضاً بالقسم ، حيث كان طه حسين قد انتخب عميداً لكلية الآداب ، ورأى أن تأخذ الكلية بنظام المعدين لأول مرة في تاريخها الجامعى .^(١)

ومنذ ذلك التاريخ (١٩٣٦) لا يزال الرجل - أطال الله عمره - ينهض بمهمة التدريس فى قسم اللغة العربية ، وفي سنة ١٩٣٩ تألّف درجة الماجستير ، وكان موضوعها " النقد الأدبى فى كتاب الأغانى لأبى الفرج الأصفهانى " ، وساعدته هذا الموضوع الخصب على أن يسيطر - منذ وقت مبكر فى حياته الجامعية - بقوه وإتساع على المادة الأدبية ، والنقدية الخاصة بأشعار الشعر العربى القديم ، منذ العصر الجاهلى حتى القرن الثالث الهجرى ، وقد أعد الرسالة بإشراف الاستاذ أحمد أمين . وفي تقديرى أن أحمد أمين لعب دوراً كبيراً فى تشكيل المنظور الفكري الذى يكتب من خلاله شوقى ضيف ، فقد ذكرت من قبل أنه نشر مقالاته الأولى (سنة ١٩٢٤) فى مجلة " الرسالة " ، ولا شك أن الاستاذ كان يراجعها لتلميذه ، ويناقشه فيها ، فقد كان أحمد أمين فى ذلك الوقت ، شخصية أدبية كبيرة لا فى قسم اللغة العربية ، وكلية الآداب - التى تولى عمارتها - فحسب ، بل فى الحياة الثقافية بصفة عامة ، ثم جاءت التلميذة الحقيقة المباشرة من خلال رسالة الماجستير ، ونعلن ظنناً لا يبعد عن اليقين أن

(١) «معي» ، ص ١٢٣ .

أحمد أمين ترك بصمات فكرية واضحة في فكر شوقي ضيف ، والذى لا ريب فيه أن التلميذ حينما كتب سلسلة كتب " تاريخ الأدب " فيما بعد ، كان يجاري أستاذه ، الذى سبق أن كتب " تاريخ الإسلام " فى : فجر الإسلام ، وضحي الإسلام ، وظهر الإسلام ، وربما كانت هذه التاحية - ناحية التأثير بين أحمد أمين وشوقى ضيف حقيقة جديدة ، تستحق وقفة خاصة عند من سوف يتوقفون فيما بعد ، ليتحدثوا بالتفصيل عن منهج شوقي ضيف الأدبي ، ومنظوره النقدى وتكوينه الفكري .

وفي سنة ١٩٤٢ م نال درجة الدكتوراه بمرتبة الشرف المتازة (الأولى) ، وكان موضوعها " الفن ومذاهبة فى الشعر العربى " ، وكان المشرف عليه فى هذه الرسالة الثانية (الدكتوراه) أستاذه الثاني الدكتور طه حسين ، الذى قال فى تقدمة الرسالة : " إنى لسعيد بأن أقدم إلى القراء آية على أن فى الشباب الجامعيين من يعملون مخلصين للعمل والدرس ، وعلى أن فى الشيوخ الوعادين النابهين (١) ، من يمنحون هؤلاء الشباب ودهم وحبهم ، سواء أعرفهم أم لم يعرفهم : لأنهم يفكرون فى مصر وفى ثقافتها ، التى تحىى ماضيها ، وتفتح الطريق لمستقبلها باسم أكثر مما يفكرون فى أنفسهم .

ولإذا كنت حريصاً على أن أقول شيئاً فى هذه التقدمة فإنما هو : تسجيل الشكر الخالص للجامعة ، التى أنتجت الدكتور شوقي ، وللأستاذ شوقي الذى أنتج هذه الرسالة

وفي سنة ١٩٤٥ تزوج من السيدة الفاضلة أم عاصم ، وهى كريمة مُربٌّ فاضل ، وكانت تلميذته فى كلية الآداب - قسم اللغة الإنجليزية - وقد أنجبت له طفلين هما عاصم ورندة ، اللذان صارا فيما بعد : الدكتور عاصم ، الاستاذ فى كلية هندسة القاهرة ، والطبيبة الدكتورة رندة الاستاذة فى كلية طب القاهرة .

(١) المقصود عبد العزيز فهمي باشا ، الذى كان عضواً فى مجمع اللغة العربية ، ونشر الكتاب على نفقته .

لم تتوقف جهود الأستاذ المعلم - شوقي ضيف - عند التأليف والتحقيق فحسب ، وإنما تتلذذ عليه مجموعة من الأساتذة ، يدعون اليوم من أهم أعلام الدراسة الأدبية في كل الجامعات العربية ... ومن أهمهم :

- ١ - في مصر : يوسف خليف - مصطفى الشكعة - أحمد كمال زكي - محمد مصطفى هدارة - سيد حنفى حسنين - النعمان القاضى - عادل سليمان - شوقي رياض - صابر أبو السعود - عبد الحكيم راضى - عبد الوارق أبو زيد - عبد الله الطلاوى - مى يوسف خليف - عبد الفتاح الشطري - محمد إبراهيم مخلوف - عرفة حلى عباس .
- ٢ - في فلسطين : إحسان عباس - محمد يوسف نجم .
- ٣ - في سوريا : أحمد راتب النفاخ - إحسان النص - مازن المبارك - شاكر الفحام - عصام قصبيجي .
- ٤ - فيالأردن : ناصر الدين الأسد - حسين عطوان - عصمة عبد الله غوشة .
- ٥ - في العراق : أحمد عبد الستار الجواري - نورى حمودى القيسى - محسن غياض .
- ٦ - في السودان : محمد فوزى مصطفى .

هؤلاء بعض الأعلام الذين واصلوا دراساتهم العليا على يدى شوقي ضيف ، وصعب - إن لم يكن يستحيل - حصر أولئك الذين جلسوا منه مجلس الطالب فى قاعات الدرس ، وأولئك الذين ناقش رسائلهم الجامعية ، أو شارك فى ترقياتهم العلمية . إن شوقي ضيف ياختصار شديد : أستاذ معظم أستاذة الأدب واللغة فى الوطن العربى كله ، ولا نغالى إذا قلنا إن الذين فاتتهم اللذة المباشرة على يديه الكريمتين ، لم يفلتوا من القتلذذ والدرس على كتبه ومؤلفاته ، إنه ياختصار متواضع

أستاذ كل من يدرسُ ، أو يدرس الأدب العربي ، في كل مكان من أرجاء المعمورة ، تردد فيه أصداء لغة الضاد وأدابها .

(ظل شوقي ضيف حريصاً على وظيفته " عضو هيئة تدريس " في قسم اللغة العربية ، بل إنه رفض سنة ١٩٥٢ أن ينتقل إلى وظيفة دبلوماسية في وزارة الخارجية) ، وأثر أن يبقى في عمله إلى أن صار أستاذًا سنة ١٩٥٦ ، والوظيفة التي قبلها ، هي رئاسة مجلس القسم في المدة من سنة ١٩٦٨ إلى ١٩٧١ ، وإذا كان شوقي ضيف عزوفاً عن المناصب العامة ، فإن مؤلفاته العلمية وسيرته العطرة ، قد رشحاه ليكون عضواً في هيئات علمية كثيرة داخل مصر وخارجها ... ومن أهمها :

- عضو مجمع اللغة العربية بالقاهرة ... ورئيس له سنة ١٩٩٦ .

- عضو المجالس القومية المتخصصة بالقاهرة .

- عضو المجمع العلمي المصري .

- عضو شرف في المجمع اللغوي الأردني .

كذلك نال سيادته الجوائز العلمية التالية :

- جائزة مجمع اللغة العربية سنة ١٩٤٧ م .

- جائزة الدولة التشجيعية في الآداب سنة ١٩٥٥ م عن كتاب " شوقي شاعر العصر الحديث " .

- جائزة الدولة التقديرية في الآداب سنة ١٩٧٩ م .

- جائزة الملك فيصل العالمية للأدب العربي سنة ١٤٠٣ - ١٩٨٣ م .

- جائزة مبارك في الأدب العربي سنة ١٤٢٣ - ٢٠٠٢ م .

قائمة ببلاوجرفية ... تاريخية

- ١ - **الفن ومذاهبه في الشعر العربي** .
ط . لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ، ١٩٤٢ .
- ٢ - **الفن ومذاهبه في القثر العربي** .
ط . لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ، ١٩٤٦ .
- ٣ - تحقيق "الرد على النهاة" : لابن مضاء القرطبي .
ط . دار الفكر العربي ، القاهرة ، ١٩٤٧ .
- ٤ - رسائل الصاحب بن عباد (بالاشتراك) .
ط . لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ، ١٩٥١ .
- ٥ - خريدة القصر للعماد الأصفهانى (قسم شعراء مصر) .
ط . لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ، ١٩٥١ .
- ٦ - المغرب في حلى المغرب لابن سعيد الأندلسى .
ج ١ (تحقيق بالاشتراك) . ط . دار المعرف ، القاهرة ، ١٩٥١ .
- ٧ - نقط العروض في تواریخ الخلفاء لابن حزم الأندلسى .
نشر في : فصلة من مجلة كلية الآداب - جامعة القاهرة ، ١٩٥١ .
- ٨ - **التطور والتجدد في الشعر الأموى** .
ط . لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ، ١٩٥٢ .

- ٩ - **الشعر والفناء في المدينة ومكة لعصر بنى أمية .**
 ط . دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٥٢ .
- ١٠ - **المغرب في حل المقرب لابن سعيد الاتدلسي .**
 ج ٢ (تحقيق ... بالاشتراك) ، ط . جامعة القاهرة ، ١٩٥٣ .
- ١١ - **براسات في الشعر العربي المعاصر .**
 ط . مكتبة الخانجي ، القاهرة ، ١٩٥٣ .
- ١٢ - **شوقي شاعر العصر الحديث .**
 ط . دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٥٣ .
- ١٣ - **ابن زيدون (أعلام العرب) .**
 ط . دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٥٤ .
- ١٤ - **التقد (فنون الأدب العربي) .**
 ط . دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٥٤ .
- ١٥ - **المقامة (فنون الأدب العربي) .**
 ط . دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٥٤ .
- ١٦ - **الرياء (فنون الأدب العربي) .**
 ط . دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٥٥ .
- ١٧ - **المغرب في حل المقرب لابن سعيد .**
- ج ٢ (تحقيق بالاشتراك) ، ط . دار المعرف ، القاهرة ، ١٩٥٥ .

- ١٨ - الترجمة الشخصية (فنون الأدب العربي) .
 ط . دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٥٦ .
- ١٩ - الرحلات (فنون الأدب العربي) .
 ط . دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٥٦ .
- ٢٠ - الأدب العربي المعاصر في مصر (مترجم إلى الصينية) .
 ط . دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٥٧ .
- ٢١ - تاريخ أداب اللغة العربية ... جرجي زيدان (نشر وتعليق ... أربعة أجزاء) ط . دار الهلال ، القاهرة ، ١٩٥٧ .
- ٢٢ - الفكاهة في مصر (اقرأ) .
 ط . دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٥٨ .
- ٢٣ - العصر الجاهلي .
 ط . دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٥٨ .
- ٢٤ - في النقد الأدبي .
 ط . دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٦٢ .
- ٢٥ - العصر الإسلامي .
 ط . دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٦٣ .
- ٢٦ - مع العقاد (اقرأ) .
 ط . دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٦٤ .

٢٧ - البارودى رائد الشعر الحديث

ط . دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٦٤ .

٢٨ - البلاغة : تطور وتاريخ

ط . دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٦٥ .

٢٩ - البر فى اختصار المفانى والسير لابن عبد البر (تحقيق)

ط . دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٦٦ .

٣٠ - العصر العباسى الأول

ط . دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٦٦ .

٣١ - المدارس النحوية

ط . دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٦٨ .

٣٢ - البطولة فى الشعر العربى (أقرأ)

ط . دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٦٩ .

٣٣ - فصول فى الشعر ونقده

ط . دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٧١ .

٣٤ - سورة الرحمن وسور قصوار (عرض ودراسة)

ط . دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٧١ .

٣٥ - البحث الأنبي : طبيعته ومتاهجه وأصوله ومصادره

ط . دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٧٢ .

٣٦ - العصر العباسى الثانى

ط . دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٧٣ .

٣٧ - الشعر وطوابعه الشعبية على مر العصور

ط . دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٧٧ .

٢٨ - عصر الدول والإمارات (الجزيرة العربية - العراق - إيران)

ط . دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٨٠ .

٢٩ - معنى (سلسلة أقرأ) ج ١

ط . دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٨١ .

٤٠ - تجديد النحو

ط . دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٨٢ .

٤١ - عصر الدول والإمارات : (مصر والشام)

ط . دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٨٤ .

٤٢ - مجمع اللغة العربية في خمسين عاماً

ط . مجمع اللغة العربية ، القاهرة ، ١٩٨٤ .

٤٣ - تيسير النحو التعليمي قديماً وحديثاً مع نهج تجديده

ط . دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٨٦ .

٤٤ - في التراث والشعر واللغة (تحقيق)

ط . دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٨٧ .

ط . دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٨٨ .

٤٦ - عصر النول والإمارات : (الأندلس)

ط . دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٨٩ .

٤٧ - تيسيرات لغوية

ط . دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٨٩ .

٤٨ - عصر النول والإمارات ج٤ : (ليبيا - تونس - صقلية)

ط . دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٩٢ .

٤٩ - الوجيز في تفسير القرآن الكريم

ط . دار المعارف ، ١٩٩٥ .

٥٠ - عصر النول والإمارات : (الجزائر - المغرب - موريتانيا - السودان)

ط . دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٩٥ .

٥١ - عالمية الإسلام (مترجم إلى الفرنسية)

ط . دار المعارف ، ١٩٩٦ .

٥٢ - تعريفات الفصحى للعامية

ط . دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٩٧ .

٥٣ - الحضارة الإسلامية من القرآن والسنّة

ط . دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٩٨ .

٥٤ - محمد ... خاتم المرسلين

ط . دار المعارف ، القاهرة ، ٢٠٠٠ .

٥٥ - القسم في القرآن الكريم

ط . دار المعارف ، القاهرة ، ٢٠٠١ .

٥٦ - معجزات القرآن

ط . دار المعارف ، القاهرة ، ٢٠٠٢ .

(٨)

يعدّ شوقى ضيف أكثر علماء جيله عطاءً وإنتاجاً ، ومؤلفاته حتى الآن (٢٠٠٢) ستُ وخمسون كتاباً بين مؤلف ومحقق : لأنّه عاش طوال عمره - أمد الله فيه - مع المكتبة ومن أجل الكتابة ، ولم يتّخذ لنفسه صديقاً سوى الكتاب . وإذا ما حاولنا أن نحدد الإطار العام لجهوده في مجال الدراسة والبحث والتحقيق ، فيمكن أن نصنّفها في أربعة مجالات كبرى ، هي :

- الدراسة الأدبية .

- الدراسة البلاغية والنقدية .

- الدراسة النحوية .

- الدراسة الإسلامية وتحقيق التراث .

أولاً - مجال الدراسة الأدبية :

كان شوقي ضيف وفياً - بدرجة رفيعة - لتخصصه الأول ... وهو دراسة الأدب العربي القديم ، وإن كانت جهوده في مجال الدرس الأدبي قد تجاوزت القيم إلى الوسيط والحديث ، بدرجة يمكن معها القول إنه نوس كل مراحل تاريخ الأدب العربي على امتداد عصوره وتعدد أماكنه وأعلامه ، والكتب التي صدرت له في هذا المجال هي :

- ١ - التطور والتجديد في الشعر الأموي ، ١٩٥٢ .
- ٢ - الشعر والغناء في المدينة ومكة لعصر بنى أمية ، ١٩٥٢ .
- ٣ - دراسات في الشعر المعاصر ، ١٩٥٢ .
- ٤ - شوقي شاعر العصر الحديث ، ١٩٥٢ .
- ٥ - ابن زيدون ، ١٩٥٤ .
- ٦ - الأدب العربي المعاصر في مصر ، ١٩٥٧ .
- ٧ - الفكاهة في مصر ، ١٩٥٨ .
- ٨ - مع العقاد ، ١٩٦٤ .
- ٩ - البارودي رائد الشعر الحديث ، ١٩٦٤ .
- ١٠ - البطولة في الشعر العربي ، ١٩٦٩ .
- ١١ - العصر الجاهلي ، ١٩٦٠ .
- ١٢ - العصر الإسلامي ، ١٩٦٢ .
- ١٣ - العصر العباسي الأول ، ١٩٦٦ .
- ١٤ - فصول في الشعر ونقده ، ١٩٧١ .

- ١٥ - العصر العباسى الثانى ، ١٩٧٣ .
- ١٦ - الشعر وطوابعه الشعبية على مر العصور ، ١٩٧٧ .
- ١٧ - عصر الدول والإمارات ، ١٩٨٠ .
- (الجزيرة العربية - العراق - إيران) .
- ١٨ - عصر الدول والإمارات .
- (مصر - الشام) ، ١٩٨٤ .
- ١٩ - عصر الدول والإمارات .
- (الأندلس) ، ١٩٨٩ .
- ٢٠ - عصر الدول والإمارات .
- (ليبيا - تونس - صقلية) ، ١٩٩٢ .
- ٢١ - عصر الدول والإمارات .
- (الجزائر - المغرب - موريتانيا - السودان) ، ١٩٩٥ .

ومن خلال هذه الكتب نستطيع القول : إن الأستاذ المعلم قد رسم (خريطة) أدبية شاملة للأدب العربي ، منذ الميلاد والنشأة حتى المرحلة المعاصرة ، مروراً بكل عصور الأدب ، سواء أكانت عصور ازدهار وقوة ، مثل العصر الجاهلى ، والإسلامي ، والع Abbasى ، أم مراحل ضعف وتفرق في عصور الدول والإمارات في كل الأقطار العربية ، بعد أن تقطعت أوصال الدولة وانفصلت أوطان الأمة .

وهو يصرح - واعينا - بالهدف الجليل الذي كتب من أجله ، هذه السلسلة المتراقبة للطلقات لتاريخ الأدب بقوله : " لا أبالغ إذا قلت إن تاريخ أدبنا العربي يفتقر إلى طائفة من الأجزاء المبسوطة ، تبحث فيها عصورة من الجاهلية إلى عصرنا الحاضر ، كما تبحث شخصياته الأدبية بحثاً مسهباً ، بحيث ينكشف كل عصر

انكشافاً تماماً ، بجميع حبوده وبيئاته ، وأثاره وما عمل فيها من مؤثرات ؛ ثقافية وغير ثقافية ، ويحيث تكشف شخصيات الأدباء انكشافاً كاملاً بجميع ملامحها وقسماتها النفسية والاجتماعية والفنية .

وقد حاولت أن أنهض بهذا العباء ، وأنا أعلم تقل المونة فيه ، فإن كثيراً من الآثار الأدبية القيمة لا يزال مخطوطاً لما ينشر ، وكثيراً مما نشر في حاجة إلى أن يعاد نشره نسراً علمياً ، وهناك بياتات أدبية يغمرها غير قليل من الظلام ؛ إما لقلة ما بين أيدينا من تراثها الأدبي ، وإما لأن الباحثين لم يكتشفوا دروبها ومناجمها كثيراً كافياً . يضاف إلى ذلك أن تحليل آثار الأدباء وتقويمها ليس عملاً سهلاً ، لكثرة ما يدخلها من عناصر الحياة والفن المشابكة ، ولأنها تتألف من معان وأساليب جميلة ، وهي لا تخضع خصوصاً مطلقاً لقواعد العلم وقوانينه . حقاً تخضع للطريقة العلمية ، ولكن باستمرار تظل فيها جوانب خاصة للنوق ، ونفاد البصيرة والإحساس المرهف ، وذلك كلما يضاعف الجهد على من يريد تاريخ أدبنا العربي ، تاريخاً مفصلاً دقيقاً على اختلاف عصوره ويتناول بيئاته ، غير أنه يضاعف في الوقت نفسه لذته فيه ، إذ يرى أمنيته في إنقاذ عمله بعيدة عسيرة ، لا يمكنه بلوغها إلا بشق النفس ، فيجد وليع ، ويمضي في الجد والإلحاح ، حتى يظفر بما يريد ، مؤمناً بأنه لا يقول الكلمة الأخيرة فيما يبحثه ، إذ البحث الأدبي لا يعرف الكلمة الأخيرة في مسألة من مسائله .^(١) .

وقد أنجز عالم فذ ما وعد ، وأكمل الدائرة ، وأتم رسم الصورة العامة لأدبنا العربي العريق - الذي يعد أطول الأداب الإنسانية عمرًا وأشدتها تلاحماً ولكن الرجل - مثل كل العلماء العظام - وقليل ما هم - رغم ما بذل من جهد تنوع به عصبة من أولى العزم ، لا يفارقه تواضع العالم وحرص الخبير ، حين يؤكد أن ما كتبه ليس خاتمة المطاف ، أو فصل النهاية فيما قدم الأسلاف ، ومعنى هذا أن العالم الحق ، ليس من يزعم أنه قادر على إغلاق باب الإجتهاد ، وإنما هو ذلك الذي يشير من الأفكار والأراء ما يفتح مجالات البحث ، وينير دروب التأمل ، وهو يؤكد هذا الرأى في نهاية الجزء الأول ، من سلسلة كتب تاريخ الأدب العربي ، بقوله :

(١) شوقي خليف : العصر الباهلي . ط . دار المعارف - القاهرة ، السابعة ، ١٩٧٦ ، ص ٦ .

ومعنى ذلك أن هذا الجزء من تاريخ أدبنا العربي ، الخامس بالعصر الجاهلي - والذى ستنلأه أجزاء أخرى ، تتناول بقية عصور هذا التاريخ - لا أزعم أنه يحمل إلى القراء الصورة الأخيرة لهذا العصر ، كما لا أزعم أن الأجزاء التالية ستتحمل الصورة الأخيرة للعصور المتعاقبة ، وإنما أزعم أن هذه الصورة هي التي استطاعت رسماها ، مع ما بذلت من جهد واصطبغت من نهج ، وتحريت من دقة ، وقد يأتي بعدي من يعدل في جانب من جوانبها بما يهتدى إليه من حقائق أدبية غابت عنى في بعض العصور ، أو بعض البيانات والشخصيات الأدبية ، وتلك طبيعة الأبحاث يكمل بعضها بعضاً ولا تزال في نمو مطرد !! .^(١)

وحين نستعرض تلك الكتب الخاصة بالتاريخ للأدب العربي : قديمه وحديثه ، ندرك أن الرجل قد توقف عند كل العصور والأقاليم ، حتى تلك التي لم يكدر يتوقف عندها أحد من قبل ، وأنا أشير هنا وأأشيد - بصفة خاصة - بالأجزاء الأخيرة ، التي تدرس عصور أدب الدول والإمارات في القرون الوسطى في : الجزيرة العربية ، والعراق ، وإيران ، وبمصر ، والشام ، وببلاد الأندلس ، والمغرب العربي ، والسودان . ومعنى هذا أن شوقي ضيف يعد أولى أستاذ لشخصه العلمي ، حيث كان يشغل وظيفة " أستاذ الأدب العربي القديم " ، لكنه وسع جهوده ، ومد نشاطه ، لكي يدرس كل عصور الأدب ، وقد توقف أحياناً عند بعض الظواهر الشعبية في الأدب العربي ، وظهرت هذا في كتابه : (الشعر وطوابعه الشعبية على مر العصور) ، (الفكاهة في مصر) ، (عصر الدول والإمارات) .

(٩)

ثانياً - مجال الدراسة البلاغية والنقدية :

يشكل الدرس البلاغي والنقدى أهم أدوات البحث الأدبي ، لذلك يمثل هذا الجانب المجال التالى في الأهمية لدراسة الأدب . وقد أصدر شوقي ضيف في هذا المحور عدة كتب هي :

(١) العصر الجاهلي . من ٦ .

- ١ - النقد الأدبي في كتاب الأغاني "مخطوط" ، ١٩٣٩ .
- ٢ - الفن ومذاهبه في الشعر العربي ، ١٩٤٣ .
- ٣ - الفن ومذاهبه في النثر العربي ، ١٩٤٦ .
- ٤ - النقد ، ١٩٥٤ .
- ٥ - المقامات ، ١٩٥٤ .
- ٦ - الرثاء ، ١٩٥٥ .
- ٧ - الترجمة الشخصية ، ١٩٥٦ .
- ٨ - الرحلات ، ١٩٥٦ .
- ٩ - في النقد الأدبي ، ١٩٦٢ .
- ١٠ - البلاغة تطور وتاريخ ، ١٩٦٥ .
- ١١ - البحث الأدبي : طبيعته ، مناهجه ، أصوله ، مصادره ، ١٩٧٢ .

وهذه الموضوعات البلاغية والنقدية المتعددة ، تؤكد - بوضوح - أن شوقي ضيف حاول من خلال هذه الكتب أن يعرض تاريخ البلاغة والنقد ، وأن يتوقف عند بعض موضوعات خاصة في الأدب العربي ، مثل الترجمة الشخصية ، والرحلات ، والمقامات ، والرثاء ، كل هذا ليكمل جانباً من جوانب دراسة الأدب ، وهو الجانب الخاص بالبلاغة والنقد وبعض فنون الأدب العربي ، والمؤلف يؤكد الرابطة الوثيقة التي تربط الأدب بهذه الدراسات ، فيذكر في مقدمة كتابه "البلاغة ... تطور وتاريخ" :

" ولم تكن غايتها أن أصور هذا التاريخ بلاغتنا فحسب ، بل أيضاً أن أصور الترابط الوثيق بينها وبين أدبنا في تطورهما ، حتى انتهي إلى الجمود والتعقيد ، والجفاف والتكرار الممل ، وأن أرسم في تصريحاته هذا التطور الوشائج الوادلة بين كل بلاغي وسابقه ولاحقه ، بحيث تتضح معالم هذا التطور اتساعاً تاماً . وقد وقفت في الخاتمة لأصول الأسباب التي جعلت أسلافنا لا يهتمون في البلاغة بشئ ، وراء

الكلمة والجملة والصورة ، ذاهباً إلى أنه يتبع في تشكيل بلاغتنا الحديثة أن تعنى ببيان الأساليب الأدبية المقاوقة ، وفنون الأدب المختلفة ، حتى نلائم بين بلاغتنا وأسبابنا الحديث وأساليبه وفنونه ، مع الحرص على الانتفاع بتراث أسلافنا البلاغي القيم الذي أودعوا فيه خصائص لغتنا الأبية ، ومقوياتها البيانية والبلاغية .^(١)

بهذه النظرة الشمولية ، يكتب شوقي ضيف عن البلاغة والنقد ، واعياً بالعلاقة الوثيقى التي تربطهما بالأدب ، ذلك أن الأدب والنقد وجهان لعملة واحدة ، ويرتبط كل منها بالآخر ارتباط العلة بالعلو ، وهذا هو سر عنايته بدراسة النقد والبلاغة .

(١٠)

ثالثاً - الدراسة النحوية :

ذكرنا - في أثناء الحديث عن سيرة شوقي ضيف - أنه توقف وهو طالب عند دروس النحو ، وحاول أن يقدم تلخيصاً مختصراً بعيداً عن الحواشى والاستطرادات ، عندما حاول وهو في معهد دمياط الابتدائى أن يلخص بعض كتب " ابن هشام " في النحو ، وقد صدرت له في مجال دراسة النحو العربي أربعة كتب مهمة ، هي :

١ - تحقيق " الرد على النحاة " لابن مضاء القرطبي ، ١٩٤٧ .

٢ - المدارس النحوية ، ١٩٦٨ .

٣ - تجديد النحو ، ١٩٨٢ .

٤ - تيسير النحو التعليمي قديماً وحديثاً مع نهج تجديده ، ١٩٨٦ .

٥ - تيسيرات لغوية ، ١٩٨٩ .

٦ - تحريرات الفصحى للعامية ، ١٩٩٧ .

(١) شوقي ضيف : البلاغة تطور وتاريخ . ط . دار المعارف - القاهرة ، الخامسة ، ١٩٨١ ، ص ٧ .

وإذا كان شوقى ضيف فى كتاب "المدارس النحوية" حريصاً على الجانب التاريخي الموسوعى الذى يهتم به فى كل دراساته ، فإن المؤلفات الأخرى تؤكد بوضوح حرصه منذ وقت مبكر ، على أن يقدم صياغة جديدة للنحو العربى ، تيسّر فهمه وتعلّمه ؛ إيماناً بأن فهم اللغة : قراءة وكتابة ، هو الخطوة الأولى لدراسة الأدب وتحقيق وجود الإنسان العربى ، وهو يؤكد هذه الرؤية قائلاً : "جميع البلاد العربية تشكو من الشكوى من أن الناشئة فيها لا تحسن النحو ، أو بعبارة أخرى لا تحسن النطق بالعربية نطقاً سليماً ، وكانت أصيبت أستتها بشيء من الاعوجاج والانحراف ، جعلها لا تستطيع أداء العربية أداءً صحيحاً . ونختر ، خطنا كبيراً إذا ظلتنا أن شيئاً من ذلك أصاب ألسنة الناشئة في بلداننا العربية ، جعلها تعجز عن النطق السديد بالعربية ، وإنما مرجع هذا العجز أو القصور إلى النحو الذى يقدم إليها ، والذى يرهقها بكثرة أبوابه وتفرعاته وأبنيته وصيغة الافتراضية التى لا تجرى فى الاستعمال اللغوى . وهو - مع ذلك - يغفل شطرًا كبيراً من تصاريف العربية وأدواتها وصياغاتها ، مما يجعل الناشئة لا تتبنّى كثيراً من أوضاع اللغة ، واستعمالاتها الدقيقة .

والأمران جميعاً من قصور النحو التعليمى ، الذى يقدم الناشئة عن الإحاطة بصيغ العربية وأوضاعها ، ومن التوسيع فى صيغ واستعمالات افتراضية يحفزان الهمم إلى تيسير النحو وتبسيطه ، ويتنادى كثيرون : دعونا من هذا التبسيط والتيسير ، كأن من يبغون ذلك ، يربّون إداً من الأمر أو نكراً ، وهم إنما يبغون الخير كل الخير ، حتى تحسن الناشئة نطق العربية لغة القرآن الكريم ، الذى أتاح لها عزة فوق عزة ، وسلطانًا على النفوس لا يماثله سلطان ، فضلاً عن أنها لغة العرب القومية التى لا يتم للعرب بدونها مجد ، أو كيان .^(١)

وعلى هذا يكون شوقى ضيف وفيأً لتخصصه العلمي فى دراسة الأدب ، وفي الوقت نفسه يكون حريصاً على دراسة المواد المعينة له ، سواء اتصلت بالنقد الأدبي والبلاغة ، أو باللغة والنحو .

(١) شوقى ضيف : تيسير النحو التعليمى قديماً وحديثاً . ط . دار المعارف - القاهرة ، الأولى ، ١٩٨٦ ، ص ٣ .

رابعاً - الدراسات الإسلامية وتحقيق التراث :

المورد العذب وغير العطاء وهناك مجالات متنوعة في جهود شوقي ضيف أثثنا أن نجملها في هذا المجال الكبير ... الذي يشمل دراساته الإسلامية وجهوده العلمية في تحقيق بعض كتب التراث الإسلامي ، والأدبي ، والتاريخي . والكتب التي صدرت له في هذا المجال ، هي :

- ١ - الرد على النحاة لابن مضاء القرطبي ، ١٩٤٧ .
- ٢ - رسائل الصاحب بن عباد (بالاشتراك) ، ١٩٤٧ .
- ٣ - خطط العروس في تواریخ الخلفاء لابن حزم ، ١٩٥١ .
- ٤ - المغرب في حل المغارب لابن سعید (بالاشتراك) ، ١٩٥١ .
- ٥ - المغرب في حل المغارب لابن سعید (بالاشتراك) ، (قسم شعراء مصر) ، ١٩٥٣ .
- ٦ - الدرر في اختصار المغارى والسير لابن عبد البر ، ١٩٦٦ .
- ٧ - سورة الرحمن وسُورَ قصار (عرض ودراسة) ، ١٩٧١ .
- ٨ - السبعة في القراءات لابن مجاهد ، ١٩٧٢ .
- ٩ - في التراث والشعر واللغة ، ١٩٨٧ .
- ١٠ - الوجيز في تفسير القرآن الكريم ، ١٩٩٥ .
- ١١ - عالمية الإسلام ، ١٩٩٦ .
- ١٢ - الحضارة الإسلامية من القرآن والسنة ، ١٩٩٨ .

١٣ - محمد خاتم المرسلين ، ٢٠٠٠ .

١٤ - القسم في القرآن الكريم ، ٢٠٠١ .

١٥ - معجزات القرآن ، ٢٠٠٢ .

ويؤكد هذا المجال الأخير من جهود شوقي ضيف ، كيف أنه يعد بحق عالماً موسوعياً ، واسع العطاء ، متنوع الجهد ، ويرغم الوفاء العظيم لشخصه الأول وهو " دراسة الأدب العربي القديم " ، فإنه أسمهم في دراسة كل عصور ذلك الأدب ، كما مد نشاطاته لكل ما يتصل به عن قرب - مثل البلاغة ، والنقد ، واللغة - أو بعد - مثل الدراسات القرآنية ، وتحقيق بعض الكتب الأنثبية ، والتاريخية ، والدينية .

نصف قرن أو يزيد قضاه ذلك العالم الراهن في محارب البحث والدراسة ، لم يترك القلم لحظة ، ولم يغادر مجالاً من مجالات التراث العربي الإسلامي الرحبة ، إلا وحاول أن يسهم فيها بنصيب وافر .

إن شوقي ضيف يذكرني إلى حد كبير بعالم مصرى جليل ظهر في العصور الوسطى ، وهو جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي (٨٤٩ - ٩١١) ، الذي ظل طوال عمره مشتغلًا بالتدريس والفتيا متفرغاً للعلم والتأليف ، واستأنفنا شوقي ضيف منه كريم طليم ، صالح تقي ودع ، زاهد في متاع الدنيا ، ووظائف الدولة ، لذلك لا نغالى حين نقول إن شوقي ضيف هو " سيوطي العصر الحديث " .

(١٦)

تلك هي الخطوط العامة لسيرة العالم ومسيرة الإنسان ، الأستاذ الجليل الدكتور شوقي ضيف ، لا أحسب أنني وفيتها قدر ما تستحق من البيان والتفصيل : لأن سيرته العطرة ومسيرته العلمية الكبيرة تحتاج إلى دراسات خاصة ، تتوقف وقفه متأنية مفصلة ، عند كل مجال على حدة من المجالات الأربعة العامة ، التي أشرت إليها من قبل ، وحسبني أنني حاولت أن أقدم رؤية شاملة لسيرة والمسيرة ، أملاً أن أفتح المجال ، لمن بعدي لكي يكملوا الصورة ويواصلوا الدراسة .

إن شوقي ضيف - أستاذ بقدر ما هو أستاذ لأجيال عدّة من الدراسين ، وأساتذة الجامعات العربية ، وله عليهم - كما له علىٰ - أفضال لا تُعد ولا تحصى ، والأمل أن تتوالى الدراسات والابحاث ، التي تُقْيِّم جهد ذلك العالم الجليل والمربى الفاضل والإنسان الكامل ، الذي عندما أذكر أبياتاً سمعتها لأول مرة منه ، وكانت - ولا تزال - تتنطبق عليه ، وهي لزهير بن أبي سلمى ، يقول فيها :

على مُعْتَفِيهِ مَا تَغْبُّ نَوَافِلُ كَائِنَكَ تُعْطِيهِ الَّذِي أَنْتَ سَائِلُ لَجُوا الْبَابَ حَتَّى يَأْتِي الْجُوعُ قَاتِلُ لِجَادَ بِهَا ، فَلِيَتَّقِيَ اللَّهُ سَائِلُ	وَابِيَضَ فَيَاضِ يَدَاهُ غَمَامَةُ تَرَاهُ إِذَا مَا جَثَثَةُ مُتَهَلَّلًا إِذَا مَا أَتَوَا أَبْوَابَهُ قَالَ مَرْحَبًا وَلَوْ لَمْ يَكُنْ فِي كَفَّهُ غَيْرُ نَفْسِهِ
---	---

* * *

وبعد .. فإن هذه الدراسة المختصرة شمعة صغيرة ، تحاول أن تُخْفِي « بحراً من العطاء والتأليف » ، وعلمًا شامخًا من أعلام عصرنا الحديث ... إنه العالم العظيم ، الذي أمد المكتبة العربية بمئلافات ، تغطي كل مراحل الأدب العربي في القيم والحديث ، كما تمت لتشمل كثيراً من الزوايا البحثية التي تتصل بالأدب العربي من قريب أو بعيد .

إن شوقي ضيف مدرسة في إهاب أستاذ ، وأمة في جسد فرد ... أعطى ولا يزال يعطى حتى اليوم علمًا وفضلاً ، لكل من يلوذ به أو يلجا إليه . وشوقي ضيف - كما يعلم كل من تلمس ذ عليه أو عاصره - رجل عفيف نظيف ، لم يشغل نفسه إلا بالعلم وبناء العلماء ، ومن عجب أن قلبه الأبيض لم يعرف الحقد أو الضيقنة ، ولم يحاول يوماً أن يسيء حتى إلى من أساء إليه ، ولم يطبع في منصب ، ولم يسع إلى وظيفة أو شهرة !!

هذه بعض سمات أستاذ الأساتذة وأخر العلماء العظام - في عصر صار العلم فيه غريباً حتى عند معظم أهله - أرجو أن تكون في سيرته الجليلة قدوة حسنة لمن يسيرون في طريق العلم الصعب ، الطويل سلمه .. !!

أ. د. طه وادي

ملاحق بالبحث

أولاً - الدكتور شوقي ضيف ... السيرة العلمية

المؤهلات العلمية :

- حصل على ليسانس الآداب سنة ١٩٣٥ وكان ترتيبه الأول في قسم اللغة العربية .
- نال درجة الماجستير بمرتبة الشرف الممتازة سنة ١٩٣٩ بإشراف أحمد أمين ،
وموضوعها : النقد الأدبي في كتاب الأغاني .
- حصل على درجة الدكتوراه في الآداب بمرتبة الشرف الممتازة سنة ١٩٤٢ .
إشراف طه حسين ، وموضوعها : الفن ومذاهبه في الشعر العربي .

* * *

الوظائف :

- عين محرراً بمجمع اللغة العربية عقب تخرجه سنة ١٩٣٥ .
- عين معيضاً بقسم اللغة العربية في كلية الآداب - جامعة القاهرة سنة ١٩٣٦ .
- عين مدرساً بعد حصوله على درجة الدكتوراه سنة ١٩٤٢ .
- رُقى أستاذًا مساعدًا سنة ١٩٤٨ .

- عين أستاذًا لكرسي أداب اللغة العربية في قسمه سنة ١٩٥٦ ، ثم رئيسًا سنة ١٩٦٨ .
- عين أستاذًا غير متفرغ سنة ١٩٧٥ ، ثم تحول أستاذًا متفرغًا إلى الآن .
- عين عضوًا عاملاً في مجمع اللغة العربية سنة ١٩٧٦ ، وانتخب أمينا عاما له سنة ١٩٨٨ .
- شغل وظيفة نائب رئيس المجمع سنة ١٩٩٢ ... وانتخب رئيسًا للمجمع سنة ١٩٩٦ حتى الآن (٢٠٠٢) .

في الجامعات العربية :

- دعته جامعة بيروت العربية أستاذًا زائراً لمدة أسبوعين سنة ١٩٦٣ .
- دعته الجامعة الأردنية للمشاركة في تأسيسها سنة ١٩٦٦ .
- دعته جامعة بغداد أستاذًا زائراً لمدة أسبوعين سنة ١٩٦٨ .
- دعته جامعة الكويت للمشاركة في التدريس سنة ١٩٧٠ .
- دعته جامعة الرياض للقاء محاضرة بها سنة ١٩٧٣ .

مجامع و مجالس مختلفة :

- رئيس مجمع اللغة العربية بالقاهرة .
- عضو في المجلس القومي للثقافة والفنون والأدب .
- عضو في المجمع العلمي المصري .
- عضو شرف في مجمع اللغة العربية الأردني .

- عضو في المجمع العلمي العراقي .

- عضو في الجمعية الجغرافية .

الجوائز :

نال جوائز مختلفة أهمها :

- جائزة الدولة التشجيعية في الدراسات الأدبية ١٩٥٤ .

- جائزة الدولة التقديرية في الآداب سنة ١٩٧٩ .

- جائزة الملك فيصل العالمية في الأدب العربي سنة ١٩٨٢ .

- جائزة التقدم العلمي الكويتية سنة ١٩٨٨ .

- جائزة مبارك في الآداب سنة ٢٠٠٣ .

النشاط الأدبي والعلمي :

يعمل الدكتور شوقي ضيف - منذ عشرات السنين - في حقل الدراسات المتصلة بالأدب العربي وتاريخه على مر العصور من الجاهلية إلى العصر الحديث ، وقد تخرج على يديه عشرات من حملة الماجستير والدكتوراه في مصر والعالم العربي ، ففتح لهم الآفاق أمام موضوعات جديدة خدموا بها أدب اللغة العربية في جوانبها المختلفة ، ويشغل كثيرون منهم الآن بدرجات الأستاذية في الجامعات المصرية والعربية .

ومنذ سنوات طويلة يشارك د . شوقي ضيف بمقالاته في المجالات الأدبية والعلمية في مصر والبلدان العربية ، وهي أكثر من أن تحصى . ومنذ أصبح عضواً عاملًا في مجمع اللغة العربية يعد مؤتمراته ولجانه بمحاضرات وبحوث لغوية متنوعة . أما في مجال التأليف فله أكثر من خمسين كتاباً عرض فيها المذاهب الفنية للشعر

والنشر ، ودرس تاريخ الأدب العربي في مختلف عصوره وبيئاته ، والأدب العربي المعاصر في مصر وأعلامه من الشعراء والكتاب ، وشخص ابن زيدون والبارودي وشوقى والعقاد بدراسات تحليلية ، مع نهج دقيق للبحث الأدبي ، بالإضافة إلى دراسات قرآنية ونقدية وبلاغية ونحوية تعمق الدراسات الأدبية ، مع تحقيقات لنصوص أدبية قيمة تفيد فوائد علمية محققة في دراسة الأدب العربي في بيئته الإقليمية وخاصة في مصر والأندلس ، مع تحقيق لكتاب القراءات السبعة لابن مجاهد وكتاب الدرر في السيرة النبوية .

ثانياً - تعريف موجز بأهم المؤلفات

١ - **الفن ومذاهب في الشعر العربي** (الطبعة الثانية عشرة - نشر دار المعارف بالقاهرة) .

عرض تاريخي تحليلي لصناعة الشعر العربي ومذاهب الفنية من العصر الجاهلي إلى العصر الحديث ، مع دراسة مفصلة لأهم أعلامه وشخصياته الأدبية عبر القرون والبيئات العربية المختلفة .

٢ - **الفن ومذاهب في النثر العربي** (الطبعة الثانية عشرة - نشر دار المعارف) .

دراسة تاريخية تحليلية لصناعة النثر العربي ومذاهب الفنية من الجahلية إلى العصر الحديث ، مع عرض مفصل لأهم كتابه وخصائصهم على اختلاف العصور والبيئات العربية .

٣ - **الشعر والفناء في المدينة ومكة لمصر بنى أمية** (الطبعة الرابعة - نشر دار المعارف) .

دراسة جامعية للصلات الوثيقة بين حركة الفناء في المدينتين المقدستين لمصر بنى أمية وأثرها في لغة الشعر وأوزانه ، وما حدث فيها من تجزئات ، وما دفعت إليه من ظهور بعض الأوزان الجديدة .

٤ - التطور والتجديد في الشعر الأموى (الطبعة العاشرة - نشر دار المعرف) .

يصحح هذا الكتاب ما شاع بين بعض الباحثين في الأدب العربي من عرب ومستشرقين من أن الشعر الأموى صورة مطابقة للشعر الجاهلى ، مثبتاً ما حدث من تطور وتجدد واسعين فيه بعامل مثالىة الإسلام الرفيعة وما تأثر الشعراء الأمويون به من مذاهب سياسية وثقافية وعقلية ومؤثرات حضارية متعددة .

٥ - دراسات في الشعر العربي المعاصر (الطبعة التاسعة - نشر دار المعرف) .

دراسات نقدية تحليلية لطائفة فذة من شعراء العرب المعاصرين في مصر وال العراق وسوريا ولبنان وتونس ، لتصوير مدى احتفاظهم بشخصية شعرنا العربي ومقوماته مع تمثيلهم الدقيق للشعر الغربي ومذاهبه وأنماطه المختلفة .

٦ - شوقي شاعر العصر الحديث (الطبعة الثالثة عشرة - نشر دار المعرف) .

عرض تاريخي نقدي تحليلي لسيرة شوقي ومكونات مناعتة الشعرية والتقاء تيارين قديم وجديد في شعره ، والمؤثرات المختلفة التي أثرت آثاراً عميقاً فيه ، مع دراسة تحليلية مفصلة لمسرحياته ومقوماتها في مأسية المصرية والعربية وملهاه الاستهدى وخاتمة عن نثره . ونال عنه الجائزة التشجيعية سنة ١٩٥٤ .

٧ - ابن زيدون الشاعر الأندلسي (الطبعة الثانية عشرة - نشر دار المعرف) .

دراسة تحليلية لعصر ابن زيدون سياسياً واجتماعياً وفكرياً ، ولسيرته وما اضطرب فيه من حب وأحداث سياسية ، ومضمون ديوانه من غزل وغيره ، مع تحليل رسالته : الجدية والهزلية .

٨ - الأدب العربي المعاصر في مصر (الطبعة العاشرة - نشر دار المعرف) .

. تاريخ للأدب العربي المصري المعاصر ، وبيان للمؤثرات العامة فيه ، ولحياة الشعر به ، وتطوره واتجاهاته المختلفة وما يتميز به من خصائص ، ولحياة النثر وتطوره ، والمعارك فيه بين الجديد والقديم ، وفنونه المستحدثة من المقالة والقصة والمسرحية ، مع

الترجمة لعشرة من أعلام الشعر وعشرة من أعلام الكتاب ورسم شخصياتهم وخصائصهم الأدبية . (مترجم إلى اللغة الصينية) .

٩ - الجزء الأول من تاريخ الأدب العربي : العصر الجاهلي (الطبعة الثامنة عشرة - نشر دار المعارف) .

يؤرخ هذا الجزء للعصر الجاهلي تأريخاً مفصلاً ، يصور جوانبه الزمنية والاجتماعية والاقتصادية والعلقانية ، وتطور اللغة العربية إلى أن سادت اللهجة القرشية ، مع دراسة رواية الشعر الجاهلي ومصادره ومدى صحته والتوثيق منه وخصائصه الغنائية والموضوعية والمعنىوية واللفظية ، مع إفراد فصول لأمرى القيس والتابغة وزهير والأعشى ، وفصل لطوانق من الشعراء : الفرسان والصعاليك وغيرهما ، وفصل لصور من التتر الجاهلي : الأمثال والخطابة وسجع الكهان .

١٠ - في النقد الأدبي (الطبعة التاسعة - نشر دار المعارف) .

فصل في النقد الأدبي توضح تطور دراساته منذ نشأته وكيفية تحليله وتقويمه ورسم شخصياته وعناصر الشعر الموسيقية والتصويرية ، وتوضح تلك الدراسة مفهوم التجربة الشعرية وعناصرها والوحدة العضوية للقصيدة والأصالة والنمذج الفذ ، والصلة بين الأدب والحياة الاجتماعية ، وبينه وبين الصحافة والسينما ، والفارق بين الأدب والعلم ، وبين القصة والمسرحية . (مترجم إلى الفارسية) .

١١ - الجزء الثاني من تاريخ الأدب العربي : العصر الإسلامي (الطبعة الخامسة عشرة - نشر دار المعارف) .

تأريخ تحليلي واف للأدب العربي الإسلامي ، وهو موزع على بابين : باب خاص بعصر صدر الإسلام وتصوير قيم الدين الحنيف وتأثيرها في الشعر والشعراء وفي الخطابة والخطباء وإنشاء المعاهدات والرسائل ، وباب خاص بعصر بنى أمية وتصوير جوانبه البيئية والدينية والحضارية والثقافية والاقتصادية ، وما حدث من تطور في فنون الشعر واتجاهاته ، وفنون التتر الخطابية والكتابية ، مع الترجمة للأعلام الشعراء والخطباء والكتاب في ذلك العصر .

١٢ - البارودى رائد الشعر الحديث (الطبعة الخامسة - نشر دار المعارف) .

دراسة تحليلية لعصر البارودى وجوابه السياسية والاجتماعية والفكرية والأدبية ، ولسيرته ومراحلها وما اختلف عليه من مؤثرات وراثية وثقافية وحربية وطنية ، وشعره والعناصر المكونة لشاعريته ومنزلته الشعرية ، وكيف استأنف للشعر العربي الحديث - من خلال إبداعه - حياته الخصبة مما يجعله بحق رائد الذى حمل شعلة إلى الأجيال التالية مهما اختلفت اتجاهاتها بين التقليد والتجديد .

١٣ - العقاد (الطبعة الخامسة - نشر دار المعارف) .

دراسة جامعية لسيرة العقاد ، وما اختلف عليه من مؤثرات ، وما امتازت به شخصيته من مقومات ، ولاشتغاله مبكراً بالصحافة ، وعمله الخصب في تطور أدبنا العربي في ضوء الأدب الغربية ، وعرض لمقالاته مؤلفاته وعيقرياته ، وقصته : سارة ومدى ترسیخه لأسس مستحدثة في النقد العربي ، ونفوذه إلى صورة جديدة لشعرنا المصري ، مع تحليل ثمانية من دواوينه .

١٤ - البلاغة : تطور وتاريخ (الطبعة التاسعة - نشر دار المعارف) .

يؤرخ هذا الكتاب للبلاغة العربية على مر العصور منذ نشأتها وتطورها إلى مرحلة جديدة من النمو ، ثم مرحلة الأزدهار الخصب وتحوله منها إلى الذبول ، مع الوصل الوثيق بين تطور البلاغة وتطور الأدب العربي ، ومع الدرس الدقيق لأعلامها ومصنفاتها ، وما يميز كل مصنف بلاغي وسابقه ولاحقه من ضروب تأثير وتأثير في الأصول والفروع والقضايا البلاغية .

١٥ - الجزء الثالث من تاريخ الأدب العربي : العصر العباسى الأول (الطبعة الثالثة عشرة - نشر دار المعارف) .

يؤرخ هذا الجزء للأدب العربي في العصر العباسى الأول مستقلاً فيه لجوانب الحياة السياسية والاجتماعية والعلقية ، وما حدث في العصر من ترجمة الثقافات الأجنبية ونشاط الحركة العلمية ووضع العلوم اللغوية والدينية والكلامية والتاريخ ، مع بسط القول في ازدهار الشعر العربي حينئذ ، وما حدث من تجديد في موضوعاته

القديمة وفي أوزانه وقوافيه واستحداث موضوعات جديدة ، ودراسة أعلامه النابهين من شعرائه موزعين على أغراض مختلفة ، مع دراسة مفصلة للنثر وما حدث فيه من تطور ، ولأعلامه وما أنتجوا من آثار أدبية .

١٦ - المدارس النحوية (الطبعة السابعة - نشر دار المعارف) .

يعرض هذا الكتاب - لأول مرة - المدارس النحوية المختلفة من بصرية وكوفية وبغدادية وأندلسية ومصرية موضحاً - في تفصيل - نشأتها ونموها وتطورها ومناهجها ومتناهجهما وبنقائص الآراء لأنئمة النحو ، مع تصحيح كثير من الأفكار الشائعة ، فليس أبو الأسود التؤلي الواضع الأول لقواعد النحو ، والخليل بن أحمد - لا سيبويه - هو الذي أعطى النحو صيغته النهائية ، وأبو علي الفارسي وابن جنى بغداديان لا بصريان ، إلى غير ذلك من تصحيحات ، ويُقدم مع كل تصحيح أدلة وبراهينه .

١٧ - سورة الرحمن وصور قصار : عرض ودراسة (الطبعة الرابعة - نشر دار المعارف) .

عرض ودراسة لسورة الرحمن وتشتمل سورة قصار وبيان ما تتضمنه آياتها الكريمة - مقرونة إلى آيات القرآن الكريم - من وحدانية الله وعظمته وجلاله ورحمته الربانية ونعمته العظيمة في الدنيا والآخرة ، وأيضاً من الإيمان بالأنبياء والرسل والملائكة والجن والشياطين والمعاد والبعث بالأجساد والثواب والعقاب ، وما فرضه الإسلام من التكافل الاجتماعي ، مع تحرير العقول من الخرافات ودفعها لكشف قوانين الوجود وأسراره ، مع السمو بالإنسان في مراقي الكمال الروحي .

١٨ - فصول في الشعر ونقده (الطبعة الثالثة - نشر دار المعارف) .

دراسة نقديّة تحليلية في الشعر تتناول تقويم تراثه وتتطور موسيقاه على مر العصور ، وتجديد الشعراء العباسيين لمضمونه وإطاره وشخصية الأندلس في تاريخه ، ومناعتة في القرن الماضي ، واتجاهاته في العصر الحديث ، ونواصع الإيقاع في الشعر الحر الجديد ، وجوانب عند بعض أعلامه مثل العربية عند المتنبي ، والتفكير

الفلسفي في شعر أبي العلاء ، والروح المصرية عند ابن سناء الملك ، والمجاهدات الروحية عند ابن الفارض ، والحقيقة الحمديّة عند البوصيري ، ومنزلة شوقي في الشعر الحديث ، ودراسة شعر حافظ دراسة تاريخية .

١٩ - الجزء الرابع من تاريخ الأدب العربي - العصر العباسي الثاني (الطبعة العاشرة - نشر دار المعارف) .

يُدرّج هذا الجزء للأدب العربي في العصر العباسي الثاني ، مستقِصياً فيه الحياة السياسية والإجتماعية ، والحركة العلمية وما حدث فيها من ازدهار علوم الأوائل بالمشاركة فيها والتفسير والعلوم اللغوية والبلاغية والنقدية والدينية وكتابة التاريخ . مع دراسة تحليلية نقدية للشعر حينئذ وما حدث من تجديد في موضوعاته القديمة ونمو في موضوعاته المستحدثة وفي الشعر التعليمي ، وعرض تاريخ أهم أعلامه والتابعين من شعرائه موزعين على أغراضه المختلفة ، مع دراسة تحليلية مفصلة للنثر وما حدث فيه من تطور واسع ولأعلامه وما أنتجوه من آثار أدبية .

٢٠ - البحث الأدبي : طبيعته - مناجمه - أصوله - مصادره (الطبعة السابعة - نشر دار المعارف) .

دراسة تحليلية لطبيعة البحث الأدبي وقيمته على الاستقراء والاستبatement وبقة التفسير والتنوّق والتحليل والعرض والأداء ، وأيضاً لنهاج البحث قديماً وحديثاً وتأثيرها بالعلوم والدراسات الاجتماعية والبحوث التفسيرية والفلسفية الجمالية والدراسات الذاتية فيه والموضوعية مع البحث في الأصول وما ينبعى لها من توثيق وتحقيق ، مع الإفاده من استخدام القدماه والمحدثين للمصادر ، ومع الدقة في وضع الملاحظات والهوامش والحواشى .

٢١ - الجزء الخامس من تاريخ الأدب العربي : عصر الدول والإمارات (١) - الجزيرة العربية - العراق - إيران (الطبعة الرابعة - نشر دار المعارف) :

هذا الجزء من تاريخ الأدب العربي خاص بالجزيرة العربية وال伊拉克 وإيران في عصر الدول والإمارات الممتدة من سنة ٢٣٤ للهجرة إلى العصر الحديث ، وقد استهل

بالحديث عن الجزيرة العربية وأقاليمها سياسياً واجتماعياً ، وما شاع فيها على مر الزمن من التشيع والدعوة الإباضية والدعوة الوهابية والزهد والتتصوف ، وما كان هناك من نشاط عقلي متصل بعلوم الأوائل وعلم الملاحة البحرية وعلوم اللغة والبلاغة والقدر والعلوم الدينية وكتابة التاريخ ، مع تصوير دقيق لنشاط الشعراء في أقاليم الجزيرة والترجمة لأعلامهم النابهين في أغراض الشعر ودعواتهم المذهبية المختلفة . ثم بسط الكتاب القول في أحوال العراق سياسياً واجتماعياً وثقافياً على شاكلة ما صنع بالجزيرة العربية ، وأفاض في عرض نشاط الشعر والشعراء من مادحين ومتفلسين وشعبيين ، وأيضاً في عرض النثر وأعلام كتابه من مثل التوحيدى والحريرى . وانتقل إلى إيران فتحدى سياسياً عن دولها المقابلة والمعاقبة ومجتمعها وسريان التشيع فيه والزهد والتتصوف ، كما تحدث عن الحركات العلمية بها وازدهارها وازدهار الحركة الفلسفية ونشاط الشعر والشعراء فيها موزعاً لأعلامهم على أغراض الشعر المختلفة ، ونشاط النثر بها وأعلامه مثل ابن العميد ويديع الزمان .

٢٢ - الشعر وطوابعه الشعبية على مر العصور (الطبعة الثانية - نشر دار المعارف) .

يصحح هذا الكتاب الرأى المخطئ الذي يزعم أصحابه أن شعراء العربية كانوا بمعزل عن شعوبهم ، فهم يختصون بأشعارهم الطبقة العليا في المجتمع فحسب ابتعاد الكسب . والكتاب يثبت - في ضوء تام - أن الشعراء ظلوا من الجاهيلية إلى العصر الحديث يتغذون بمشاعر شعوبهم وأحساسها المختلفة مصوّرين دائماً ما ألم بهم من محن وخطوب ومن رخاء وابتهاج مهما اختلفت الحقب والأزمان وتفاوتت الأقطار والبلدان .

٢٣ - الجزء السادس من تاريخ الأدب العربي : عصر الدول والإمارات (٢) الشام (الطبعة الثالثة - نشر دار المعارف) .

يؤدي هذا الجزء للأدب العربي في الشام فيعرضها سياسياً واجتماعياً ملاحظاً كثرة الفرق الدينية فيها وما كان يسرى هناك من الزهد والتتصوف ، ويتحدث عن نشاط الشعر بها وكيف فسح الشعراء فيها - مثل شعراء مصر - للشعر الدورى والرباعيات

والموشحات ، ويترجم لأعلام الشعر النابهين موزعين على أغراضه المختلفة ، كما يدرس نشاط النثر هناك وأعلام الكتاب وما صاغوه من مواعظ ورسائل بد菊花 مثل : الفصول والغايات ورسالة الغفران لأبي العلاء .

٢٤ - الجزء السابع من تاريخ الأدب العربي : عصر الدول والإمارات (٢) مصر (الطبعة الثالثة - نشر دار المعارف) .

هذا الجزء يورخ للأدب العربي في مصر بعرض حياتها السياسية على مر العقب إلى العصر الحديث ، وكيف تطورت من ولاية أموية وعباسية إلى دولة ذات كيان قوي ، فحاضرة للخلفاء الفاطميين ، ثم الأيوبيين ، والمالiks ، إلى أن دهمها الفتن العثماني ، وبكرت في تأسيس حركتها العلمية مما جعل المغرب والأندلس يحملان عنها قرارة درش ومذهب مالك في الفقه ، ويتوجب ذا البنون مؤسس التصوف الإسلامي ، وتزدهر فيها حركة علمية نشطة ، ويزداد اعلام في علوم الأولئل وعلوم اللغة والدين وكتابة التاريخ ، وينشط الشعر نشاطاً واسعاً . ويترجم هذا الجزء لشعراء كثيرين في أغراض الشعر المختلفة ، كما ينشط النثر وكتابه ، وتكثر فيه كتب التوارد والسير والقصص الشعبية .

٢٥ - المقامات (الطبعة السابعة - نشر دار المعارف) .

عرضت هذه الدراسة تطورَ فن المقامات منذ نشأتها على يد بديع الزمان المهداني إلى العصر الحديث ، مقدمة لذلك بحديث عن خصائص القصيدة فيها ، وعن انتقالها إلى الآداب الإسبانية ، ثم أخذت الدراسة تصور خصائصها وصفاتها في الموضوع والأسلوب عند منشئها بديع الزمان ، وكيف انتهت بها الحريري إلى القمة المنشودة ، مع عرض ما تلاه من مقامات حتى زمن اليازجي ومقاماته .

٢٦ - الترجمة الشخصية (الطبعة الرابعة - نشر دار المعارف) .

عرف العرب في العصر العباسي أن من فلاسفة اليونان من ترجم لنفسه ترجمه شخصية أو ذاتية مثل جالينوس الفيلسوف والطبيب اليوناني المشهور وعرفوا أن من ملوك الأمم الأجنبية من عنى بالترجمة لنفسه مثل كسرى أنوشروان الذي ألف كتاباً

في سيرته وأعماله . وكان لهذه المعرفة أثراًها في أن متفلسفة العرب من مثل ابن سينا أخنوأ يُعْنون بالترجمة لحياتهم ، وتبعدهم في ذلك العلماء من مثل ابن الجوزي ، والمتصوفة من مثل الغزالى ، ورجال السياسة من مثل ابن خلدون ، حتى إذا كنا في العصر الحديث واطلع أدباؤنا على غذائية الغربيين بكتاب سيرتهم أخنوأ يحاكونهم على نحو ما نرى عند طه حسين في كتابه الأيام .

٢٧ - الرحلات (الطبعة الرابعة - نشر دار المعارف) .

من قديم الزمان تعنى الأمم والأفراد بالرحلات ، تلقاناً أسماء رحالة مختلفين عند الإغريق والرومان يونوا رحلاتهم ، وبأكثر رحالة العرب منذ فتحوا العالم القديم وسيطروا على الأرض من الصين والهند إلى جبال البريتني على حدود فرنسا لحاجة الولاة جغرافياً للتعرف على الطرق التي تصلها بآقاليمها ، ولفرض التجارة عن طريق البر والبحر ، والممتعة بمشاهدة البلدان وشعوبها المختلفة . وتلقاناً عند العرب رحلات جغرافية متعددة للإدريسي وغيره ، ورحلات بحرية لبزرك بن شهريار وأمثاله ، ورحلة الفتية المغاربة في المحيط الأطلسي مشهورة ، كما تلقاناً رحلات في الأمم والبلدان من مثل رحلة أبي حامد الأندلسى في شرقى آوربا . والكتاب يعرض ذلك كله عرضاً مفصلاً ، كما يعرض لرحلة ابن جبير ، ورحلة ابن بطوطة إلى بلاد المغول والهند والصين والسودان .

٢٨ - النقد (الطبعة الخامسة - نشر دار المعارف) .

عرض مجلل للنقد العربي وتطوره في العصور السابقة ، تناول نشأته في العصرين الجاهلي والإسلامي ، ونموه في العصر العباسي ومدى اشتراك : الأدباء واللغويين والتكلمين فيه مما نرى أثره في كتابه البديع لابن المعتز ، ويضع قدامة على ضوء النقد اليوناني كتابه نقد الشعر ، ويضع معاصر له كتاب نقد النثر ، وتتوسع كتب في النقد المقارن بين الشعراء ، ويضع عبد القاهر كتابه دلائل الإعجاز . ويحدد النقد منذ السكاكي وكتابه " مفتاح العلوم " ويلخصه الفزويوني ، وتكاثر قصائد البياعيات التي تحصى ألوان البديع ومحسناته .

تحتفظ العربية بتراثاً ضخماً من المراثي ، ويتحذذ ثلثة صور ، هي : التدب والتأبين والعزاء ، والندب بكاء الأهل والأقارب حين ينزل بهم الموت ومن ينزلون منزلتهم على نحو ما هو معروف عن مراثي الشيعة للإمام الحسين ، وعن بكاء الأوطان حين تسقط في أيدي الأعداء .. والتأبين ثناء على الشخصيات الفذة في الجماعة حين تتوافى ، والشاعر يصور فيه مدى خسارة الجماعة لها ويسجل فضائلها وخصالها الكريمة . والعزاء دعوة إلى الصبر على المصاب وبيان أن الموت غاية كل حي وأن الدنيا دار زوال وفناء . وكل صورة من هذه الصور تعرض طرائف الأشعار فيها على مر التاريخ .

٣٠ - البطولة في الشعر العربي (الطبعة الثانية - نشر دار المعارف) .

يتناول هذا الكتاب تعبير شعراء العرب منذ الجاهيلية إلى اليوم عن البطولة ، وكيف أذكى الإسلام جنوبتها في نفوس العرب على مر التاريخ ، ففتحوا أكثر أجزاء العالم القديم ، وانتصروا على الفرس والبيزنطيين ، وأمتد سلطانهم من أواسط الهند وأبواب الصين شرقاً إلى جبال البرينيه في شمال إسبانيا غرباً ، ونازلوا حملة الصليب حين نزلوا الشام والموصل متزاولات ضاربة حتى فروا إلى البحر المتوسط وما وراءه ، ومزقوا جموع المغول تمزقاً ، وما زالوا يقاومون حتى اندلعت الثورة الاستعمارية حتى استرموا حرياتهم واستقلالهم . والشعراء على مر هذه المعارك وطول التاريخ كانوا يمجدون بطولة العرب ويوقنون نفوسهم حمية وحماسة .

٣١ - تجديد النحو (الطبعة الرابعة - نشر دار المعارف) .

هذا الكتاب تصنيف جديد للنحو العربي يقام على ستة أسس هي تسييق أبوابه ، بحيث يستفني عن طائفة منها برد أمثلتها إلى الأبواب الباقيه ، حتى لا يتشتت فكر الناشئة في كثرة من الأبواب دون حاجة . والأساس الثاني إلغاء الإعراب التقديري في المفردات والمحل في الجمل . والأساس الثالث أن لا تعرب كلمة لا يفيد إعرابها في صحة النطق أى فائدة . والأساس الرابع وضع تعريفات وضوابط دقيقة لبعض الأبواب

الصعب تيسير فهمها للناشئة . والأساس الخامس حذف زوائد كثيرة تشتمل عليها كتب النحو دون حاجة حقيقة لها ، وخاصة ما اتصل منها بالصيغ الشاذة والألفاظ المعقّدة . والأساس السادس زيادة إضافات لأبواب وبقائق فرعية لتمثل الصياغة العربية وأوضاعها تمثلاً دقيقاً .

- ٢٢ - **تيسير النحو التعليمي قديماً وحديثاً مع نهج تجديده** (الطبعة الثانية - نشر دار المعارف) .

يصور هذا الكتاب كيف أن تيسير النحو التعليمي للناشئة كان مطلباً لأنّمة النّحّاة منذ الكسانى ومن بعده إلى العصر الحديث . وذكر الكتاب مما وضعوه لهذه الغاية - عبر القرون الماضية - ثلاثة مختصرأً ، وأضاف إليها دعوة ابن مضاء إلى تيسير النحو بتخلصه من التقديرات الإعرابية ومن العلل والتamarin الافتراضية . وعرض المحاولات العصرية في تيسيره منذ رفاعة الطهطاوى ، وأتبعها بحديث عن منهج كتاب تجديد النحو وأسسه السالفة التي تخلصه من أبوابه الفرعية وما لا حاجة بالنطق إلى إعرابه وزوائده وتعقيباته العسرة ، مع استكمال نواقص ضرورية في قواعده ، حتى تسيّع الناشئة الصياغة العربية ، ولا تجد في تمثيلها مشقة أو صعوبة .

- ٢٣ - **في التراث والشعر واللغة** (الطبعة الأولى - نشر دار المعارف) .

يتناول هذا الكتاب ثلاثة موضوعات : أولها التراث ، وفيه يتحدث عن وحدة التراث الدينى والعلمى والأدبى ، وإحياء التراث فى عصر المماليك وتجديده ، وما يدور من معارك بين أنصاره وخصومه . والموضوع الثانى الشعر ، وفيه يتحدث عن الوضوح والغموض فى الشعر ، وماهيته وعناصره ، وعلاقته بالفنون ، والقديم والجديد ، والعروبة فى شعر أبي تمام ، والإيقاع الموسيقى فى شعر ابن زيدون ، وحافظ وشوقى وزعامة مصر الألبية ، وصلاح عبد الصبور والشعر الحر ، والموضوع الثالث اللغة ، وفيه يتحدث عن الفصحى المعاصرة ، ولغة المسرح بين العامية والفصحي ، واللغة بين الكلمتين المسّموعة والمقرؤة .

٢٤ - الفكاهة في مصر (الطبعة الثانية - نشر دار المعارف) .

يتميز المصريون من قديم بروح الفكاهة ، والكتاب يعرضها من عصر الفراعنة ورسومهم المضحكة ، حتى إذا حكم مصر البطالة وقياصرة روما نبئوهم بكثير من الألقاب الساخرة .

ويصور الكتاب شبيوع روح الفكاهة على ألسنة الشعراء وغيرهم منذ العصور الإسلامية الأولى وفي العصر الفاطمي ، كما يصورها في كتب فكهة مثل كتاب الفاشوش في حكم قراقوش لعصر صلاح الدين ، وقصص خيال الظل لابن دانيال ، ومضحك العبوس لابن سودون في عصر المماليك ، وهز القحوف للشريبي في العصر العثماني . ويعرض الكتاب كثيراً من أمثلة الفكاهة في العصر الحديث سواء في المجالات الهزلية أو في الأزجال أو الكتابات ؛ وخاصة على ألسنة عبد الله نديم والشيخ البشري ، وحافظ إبراهيم ، وبيرم التونسي ، وإبراهيم المازني .

٢٥ - الجزء الثامن من تاريخ الأدب العربي في عصر الدول والإمارات (٤) : الأندلس (الطبعة الثانية - نشر دار المعارف) .

هذا الجزء يؤرخ للأدب العربي في الأندلس بائناً بتاريخها السياسي منذ فتحها العرب في أواخر القرن الأول المجري إلى أن خرجوا في أواخر القرن التاسع ، مع عرض لتكوين مجتمعها وظواهره ، ومكانة المرأة فيه ، وما تسلل إليه من تشيع وسرى فيه من زهد وتصوف . ويصور الجزء دور الحضارة للأندلس وإضافاتها الباهرة في الفلسفة وعلوم الأوائل وخاصة الطب والعلوم اللغوية والدينية . ويتحدث عن نشاط الشعر والشعراء هناك مستهلاً ذلك ببيان تعرّب سكان الأندلس جمِيعاً ، ويفيض في الحديث عن كثرة الشعراء وابتكارهم لفن الموشحات مثبتاً أنه فن عربي خالص ، ويترجم لكتاب الوشاحين في الأندلس والنابهين من شعراء المدح والفاخر والهجاء والشعر التعليمي ، وبالمثل لشعراء الغزل ووصف الطبيعة والخمر والرثاء للأقدار والدول ، والزهد والتصوف والمدح النبوى مع بعض ما نظموا من استصراخ العرب

لنجدهم ضد حملة الصليب . ويعرض الجزء رواية الأندلسين من الرسائل الديوانية والشخصية ورسائلهم الأدبية البديعة مثل رسالة (التوابع والزوايا) لابن شهيد مثبتاً أنه استلهم فيها مقامة لمبدع الزمان الهمذاني ، ومثل رسائل ابن برد الأدبية في (المناظرة بين السيف والقلم) وفي تصوير بخيال شحيح وفي تفضيل جلود الشياه على البسط ، ومثل الرسالتين : (الجدية) و (الهرزلية) لابن زبيون .

ويتحدث هذا الجزء عن بعض الأعمال النثرية الرائعة مثل كتاب المقتبس لابن خيان ، والنخيرة لابن بسام ، وذكرات عبد الله بن بلقين أمير غرناطة ، وقصة حي بن يقطان الفريدة ، والمقامات اللزومية للسرقسطى ، ورحلات الأندلسين ،

٣٦ - تيسيرات لغوية (الطبعة الأولى - نشر دار المعارف) .

كتاب موزع على ثلاثة أقسام : قسم يصحح بعض القواعد من مثل تبادل اللزوم والتعدى في الفعل الثلاثي الواحد ، واستغفاء الفعل الثلاثي المبني للمعلوم بما داته عن الفاعل ، واستغفاء الفعل المبني للمجهول بما داته عن ثائب الفاعل . وقسم ثان يصحح شيئاً يظن أنها مخطئة مثل مجىء الفعل الماضي مع (مهماً) ، واستخدام (بينما) بين جملتين لا في صدرهما ، وإضافة (حيث) إلى المفرد ، وجواز حذف المعطوف عليه مع (حتى) . وقسم ثالث يسُوَّغ بعض ألفاظ عامية مثبتاً أنها فصيحة مثل الإمساء - الإجازة (العطلة) - التحوير - التسول - البردحة - الفرجة - القفس .

٣٧ - معى (١) (الطبعة الثانية - نشر دار المعارف) .

الجزء الأول من سيرة المؤلف ، ابتدأها بوصف القرية في الريف المصري وحياة الناس فيها ، ثم تحدث عن أسرته ونشأته في صباه ، مع وصف مشاهد الريف والحياة في أركانه ، وتنقيتها عن الجدات والأمهات ، وانتقامات القرروين إلى الهلالية والطرق الصوفية ، ويفيض في تعلمه بمدرسة قريته الأولى ، وفي المعهد الدينى ، وفي تجهيزية دار العلم وفي كلية الآداب بجامعة القاهرة إلى أن حصل على درجة الدكتوراة ، وهو في أثناء ذلك يصور الحياة السياسية وما اضطرب فيه الوطن لأيامه من أحداث مع مقارنات بين التعليم في الأزهر والجامعة .

٢٨ - معنى (٢) (الطبعة الأولى - نشر دار المعارف) .

يصور المؤلف في هذا الجزء الثاني من سيرته مرحلة اشتغاله بالتدريس في قسم اللغة العربية بكليته وما انعقد بينه وبين أستانته وتلامذته من صداقة ، ويعلم من حين إلى حين بالأحداث السياسية الكبرى . ويختار في مجموعة لزيارة رومانيا وروسيا ، ويصف كل ما شاهده في الدولتين من معاهد تعليمية وأفلام سينمائية ومسرحيات . ويشارك في تأسيس جامعة الأردن وجامعة الكويت ، ويزور لندن ويشاهد متحافها الكثيرة ، ويزور أسكتلندا ويخبراتها . كما يزور الرباط وإسبانيا ويتجول في مدن الأندلس . ويزور ألمانيا وسويسرا وإستانبول ، وهو في كل هذه الرحلات يصف المشاهد والمتحاف مع نثر بعض أفكاره وخواطره .

٢٩ - الجزء التاسع من تاريخ الأدب العربي في عصر الدول والإمارات : ليبيا - تونس - صقلية (الطبعة الأولى - نشر دار المعارف) .

يختص هذا الجزء بتاريخ الأدب العربي في ليبيا وتونس وصقلية ، ويببدأ بالحديث عن ليبيا وجغرافيتها وتجاراتها وتاريخها القديم وفتح العرب لها وتوالي الولادة عليها وحكامها على مر التاريخ ، وما كان ينتشر فيها من الكتاتيب وحلقات الشيوخ في المساجد ، والحركة العلمية فيها والحركة الأدبية وأهم شعرائها على مر الزمن . ويتحدث هذا الجزء أيضاً عن إفريقيا التونسية وجغرافيتها وتاريخها القديم وفتح العرب لها ، وولاتها ودولها المتعاقبة ومجتمعها وتعريه وما كان بها من زهد وطرق صوفية ، وكيف تحولت سريعاً إلى أهم مركز في المغرب جمیعه للثقافة اللغوية والدينية والعلمية وخاصة في الطب . ويتحدث بالتفصيل عن ازدهار الشعر بها وكثرة شعرائها ورقى الكتابة الأدبية بها ، أهم كتابها النابهين . كما يتحدث عن صقلية وحكامها في العهدين العربي والنورمانى ومجتمعها ونشاط الحركة العلمية بها ، وازدهار الشعر فيها وكثرة شعرائها وازدهار الكتابة الأدبية بها وأهم كتابها في العهدين العربي والنورمانى .

٤٠ - الوجيز في تفسير القرآن الكريم (الطبعة الأولى - نشر دار المعارف ١٩٩٥) .

تفسير للقرآن الكريم بأسلوب سهل مبسط ، مستخلص من كتب آئمته التفسير وأقطابه ، مع بعد عن المصطلحات الفنية التي قد تدخل عليه شيئاً من صعوبة الفهم ، وبالمثل بعد عن التفسيرات المذهبية ، وخاصة الشيعية والصوفية ، والبعد عن الإسرائيليات المقحمة في بعض التفاسير ، مع الإيجاز المحكم والاستيعاب الدقيق لمعاني ألفاظ القرآن ، ومع التمثيل لأياته المعجزة ولدلالتها الباهرة .

٤١ - تحريرات العامة للفصحى في القواعد والبنية والعرف والحركات (الطبعة الثانية - نشر دار المعارف) .

يوضح هذا الكتاب - في تفصيل دقيق - بعض تحريرات العامة المصرية لقواعد العربية وبنياتها سواء في هيئات التعبيرات أو في نحتها ، وبالمثل يوضح التحريرات في حروف الكلمات وحركاتها ، مع فهرس كامل للألفاظ العامة المحرفة في الكتاب ومعها الصواب تيسيراً على القارئ في تبيان النطق السليم للكلمات التي دخلها التحرير .

٤٢ - الجزء العاشر من موسوعة تاريخ الأدب العربي : الجزائر - المغرب الأقصى - موريتانيا - السودان (نشر دار المعارف) .

يعرض هذا الجزء تاريخ كل بلد من البلدان المذكورة ، ومجتمعها وسكانه ومعيشته وما به من عقائد دينية وتصوف ، والثقافة فيه والحركة العلمية ، وأهم العلماء في علوم الأولئ والعلوم اللغوية والبلاغية والدينية مع دراسات تفصيلية عن تعرية وعن الشعر فيه وأعلام الشعراء في الموضوعات المختلفة وعن الكتابة وكبار الكتاب .

٤٣ - عالمية الإسلام : كتاب يشتمل على مجموعة من الدراسات الدينية مثل : في القرآن والحنين ، الحرية الدينية ، التعايش مع كل الملل ، التعايش الفكري ، عقلانية الإسلام ، معاشرة الإسلام للعلم ، العدل ، المساواة ، التسامح ، ترابط الأسرة ، السلوك القويم . (مترجم إلى الفرنسية والإنجليزية والصينية) .

٤٤ - محمد خاتم المرسلين (٢٠٠٠) : كتاب يعرض لسيرة الرسول (صلى الله عليه وسلم) ، ويترجم لحياته من البدء حتى الوفاة . ويعرض لكل مرحلة عرضاً تاريخياً - ودينينا مفصلاً مع بعض الوقفات المهمة عن حياة الرسول والإسلام والحضارة الإسلامية .

٤٥ - القسم في القرآن الكريم (٢٠٠١) : يتناول في الفصلين الأول والثاني المباحث التالية : الذات العلية (الله) - الرسول - الملائكة - القرآن - الظواهر الكونية التي أقسم بها الله . وفي الباب الثاني يتناول المقسم عليه وأحوال الناس والإنسان والمعاد (البعث) . فالكتاب يدور كله حول موضوع خاص من موضوعات القرآن الكريم .

٤٦ - معجزات القرآن (٢٠٠٢) : كتاب يعرض للمعجزات الحسية والمعنوية التي أيدَّ بها الله رسله ، والأساليب البلاغية التي عبرت عن هذه المعجزات في القرآن الكريم .

أهم التحقيقات :

١ - كتاب الرد على النحاة لابن مضاء القرطبي (الطبعة الثالثة - نشر دار المعارف) .

كتاب دعا فيه ابن مضاء إلى إلغاء نظرية العامل في النحو العربي وما يتربى عليها من تقديرات لمحنوفات ومن علل وتمارين افتراضية ومن صياغات لم ينطق بها العرب . ولكن يبرهن على ذلك درس بابي التنازع والاستغفال ليدل على أن صيغتها من افتراضات النحاة ، كما درس باب فاء السببية وواو المعية ؛ ليدل على أنهم لا يفقهون في رأيه فقها حسناً أساليب العرب . وقدم المحقق للكتاب بمدخل طبق فيه نظرية ابن مضاء على أبواب النحو العربي يقصد تيسيره على الناشئة .

٢ - المقرب في حل المقرب لابن سعيد - قسم الأنيلس - مجلدان (الطبعة الرابعة - نشر دار المعارف) .

كانت مخطوطة هذا القسم الأندلسى قد سقط كثيرون من أوراقها ، واضطربت بقية الأوراق اضطراباً شديداً فى غير نظام مع ما يخل على بعضها من محو أو تاكل ، واستطاع الحق أن يرد ما بقى من الأوراق إلى نسقها الأصلى الذى وضع على أساسه ، وأن ينشرها في مجلدين عارضهما على أصحابها وفروعها وكل ما أمكنه من كتب الترجمات الأندلسية وغير الأندلسية ... والمجلدات قيمان لا يحملان من تصوص ألبية بدبيعة من شعر الأندلس وموشحاتها وأزجالها ، فضلاً عن أنه يترجم لأكثر من خمسينات شاعر أندلسى ووشاح وزجال ، مع ما يستشهد به من روائعهم جميعاً .

٢- كتاب السبعة في الترايات لابن مجاهد (الطبعة الثالثة - نشر دار المعارف).

مؤلف هذا الكتاب "ابن مجاهد" أكبر قراء بغداد في القرنين الثالث والرابع للهجرة، اختار فيه - نصر الله وجهه في آخرته - سبع قراءات لكتاب القراء في القرن الثاني الهجري وانتشرت عنه في العالم الإسلامي إلى اليوم. وقد وضع بين يدي الكتاب عرضاً لأنماط القراء السبعة وأنسابهم وأساتذتهم وتلامذتهم: نافع، وابن كثير، وعاصم، وحمزه، والكسائي، وأبي عمرو بن العلاء، وأبي عامر. وتلا ذلك بأسانيد قراءات عن السبعة. ثم أخذ في عرض القراءات للفاظ سور القرآن الكريم بادئاً بفاتحة الكتاب، وفي كل لفظة يذكر قراءات السبعة لها أول النكير الحكيم إلى آخره. وفي أنتهاء عرضه الرابع لذلك يتحدث عن الأصول في القراءات واختلاف القراء السبعة فيها من مثل الإدغام وهاء الكناية والمد والقصر. والأيات الكريمة في الكتاب بالخط العثماني، وكل آيه وردت في تعليلات ابن مجاهد نكر رقمها في صورتها، والكلمات في الكتابة مضبوطة خصيصاً تماماً.

٤ - الدُّرُرُ فِي اختصار المغافرِ والسيِّر لابن عبد البر (المطبعة الثالثة - نشر دار المعارف) .

كتاب في السير النبوية لأكبر حفاظ الأندرس وفقهاته : " ابن عبد البر التميمي " .
وهو يذكر في مقدمته مصادره ، وقد أفضت في المقدمة الأولى للكتاب في الحديث عن المؤلف ومصنفاتة وعن توثيق الكتاب وقيمتة مع المقارنة بينه وبين كتاب (جوامع السيرة النبوية) لابن حزم ، ملاحظاً التطابق بين الكتابين في الآراء وسرد الأعلام ، كما لاحظت نقولاً كثيرة عنه في سيرة ابن سيد الناس . وعرضت الكتاب في ثانياً التحقيق على أصوله من كتب السيرة والحديث ، مع المقابلة على كتابي ابن حزم وابن سيد الناس ، ورجعت دائمًا في سرد الأعلام وضبطها على كتاب المؤلف عن الصحابة (الاستيعاب في معرفة الأصحاب) . وذكرت مع كل أصل وبيان وفقرة المراجع التي ذكرت ذلك من أمهات كتب السيرة والتاريخ والحديث الشريف .

٥ - نقط العروس في تواریخ الخلفاء لابن حزم (طبع في الجزء الثاني من المجلد الثالث عشر لمجلة كلية الآداب) .

تفصيض هذه الرسالة في تفاصيل سياسية وشخصية كثيرة عن الخلفاء في الشرق والأندلس وأبنائهم ونسائهم وأخلاقهم ومن انهمك منهم في اللذات ، وذكر علمائهم وجهائهم . والرسالة تعد خير معين لمن يدرس نظام الخلافة الإسلامية ومحاسنه وعيوبه ، إذ لم يترك ابن حزم من ذلك شيئاً إلا أحصاه وعده . وقد ذهب في حديثه عمن ولى الخلافة بعهد إلى أن أباً بكر وليها بعهد من رسول الله ﷺ . والرسالة تحمل طرفاً كثيرة من الأخبار عن الخلفاء على مر العهود .

٦ - رسائل الصاحب بن عباد - بالاشتراك (طبع دار الفكر العربي) .

الصاحب بن عباد هو الوزير الثاني - بعد ابن العميد - في بلاط البوهيميين باليران ، وهو تاليه أيضًا في الكتابة الألبية الرفيعة ، والرسائل الديوانية . وهي تصور الأحداث التاريخية والأحوال الاجتماعية في أيامه وكل ما يتصل بشئون الدولة وسياسة

الحكم للرعاية . وهى رسائل مسجوعة ، يكثر فيها الصاحب من المحسنات البدعية ، وتميز بعنوية اللفظ وجمال النغم حتى تصبيع جوانب من رسائله شبيهة بالشعر المثور .

٧ - خريدة القصر للعماد الأصبهانى - قسم شعراء مصر - مجلدان
(بالاشتراك) طبع لجنة التأليف والترجمة والنشر .

يترجم هذا القسم من كتاب الخريدة لنحو مائة وأربعين شاعرًا مصريًا عاشوا في القرن السادس الهجرى ، كنا نجهل كثرتهم جهلاً تاماً ولا نكاد نعرف عنهم شيئاً . وهذا القسم تاريخ ألبى دقيق لمصر في أواخر العصر الفاطمى وأوائل العصر الأيوبي . وله قيمتان أساسيتان قيمة ترجع إلى ما يحمل من أشعار من عيون الشعر المصرى وفرائد اختارها أكبر مترجم لشعراء العالم العربى في القرن السادس . وقيمة ثانية ترجع إلى أن الأشعار في هذا القسم تصور جوانب الحياةين السياسية والاجتماعية في مصر أثناء القرن السادس ، وما عاش فيه شعراء مصر حيث من ظروف مادية وفكرية وروحية .

٨ - المغرب في حل المقرب لابن سعيد - قسم الفسطاط - بالاشتراك (طبع ونشر جامعة القاهرة) .

تحدى ابن سعيد في هذا القسم من كتابه (المغرب) عن حكام مصر منذ الفتح العربى ، فترجم لأهم الولاة ، ثم اختصر كتاب ابن الداية عن ابن طولون وكتاب ابن زلاق عن الإخشيد في أكثر من مائة صفحة ، وختم ترجمته في الدولة الإخشيدية بكافور ، ثم أخذ في الترجمة لمن نظموا الشعر من الأشراف والوزراء والكتاب والعمال والقضاة وذوى البيوت والمتصوفة والعلماء من كل صنف ، وترجم لطائفة كبيرة من شعراء الفسطاط ترجمات مفصلة ، وأضاف إلى ذلك ترجم للعمال والقضاة من لم يحسنوا نظم الشعر . وختم ابن سعيد هذا القسم ببعض توادر المصريين . وتلى القسم مراجعة العربية والأجنبية ، وكشاف مفصل لأعلامه .

ثالثاً : كلمات مأثورة

(أ) كلمة أ. د. شوقي ضيف في حفل تكريمه جائزة الدولة التقديرية في الآداب سنة ١٩٧٩

السيد الرئيس / محمد أنور السادات ، سيداتي ، مادتي :

إنه عيد لأولنا وأخرنا عيد عظيم أن تحفل الدولة بتكريم الأدباء والفنانين في أيام عيدنا بنصر أكتوبر المجيد . عيدان تعانقاً واتحداً وصارا عيداً واحداً للأمة ؛ عيد البطولة العسكرية في معارك الحرب ، وعيد الأدب والفن والثقافة في ظل السلام . وإننا لنرجع فيه بالذكرى لآلاف السنين أيام الفراعنة حين كانت رايات جيشنا تحقق في دروب الشرق القديم ، وبروائع فتوتنا وأدابنا تذكى في روح الأمة لهاها مضطربما من العطاء الحضاري الرازح .

ويدور الزمن بدورات ، وفي كل دوره تقدم مصر للحضارة الإنسانية عتاداً رائعاً ، وتشرق فيها شمس الدين الحنيف ، وتملك لغته العربية المشاعر والقلوب والعقول ، وتنهض مصر ب أعمال مجيدة في خدمة الإسلام والعروبة . وما يليث أن يتعالى هتاف الشطر الشرقي من الأرض العربية حين أغاث عليه الصليبيون وأقاموا به ممالکهم . ولبّت مصر الهاتف ، وصهلت خيولها في ديار الشام ، واندفع فرسانها يكيلون للصلبيين ضربات قاصمة ، وفُرِتْ فلوتهم مهزومة مذحومة إلى البحر المتوسط وما وراءه . وفي هذه الأثناء طم وتقاوم طوفان التيار ، واكتسح إيران والعراق والشام ، فكبحت مصر جماحه ، وردت سيوله إلى غير رجعة .

منذ هذا التاريخ أصبحت مصر إلى اليوم حامية الإسلام والعروبة . ولا تقل بوراتها الحديثة عن بوراتها السابقة عزة ومجداً ، فقد سبقت جميع البلدان العربية إلى النهضة ، وأصبحت لها جمِيعاً القائدة والمعلمة والمنارة الهاشمية في كل فروع الفن والأدب : في الغناء والتمثيل ، وفي النحت والتصوير ، وفي الشعر الفناني والتمثيلي ، وفي القصص المسرحي وغير المسرحي . وبحق رفعت مصر فنونها إلى منزلة الفنون العالمية ، كما رفعت أدابها إلى منزلة الأداب الحية الكبرى .

السيد الرئيس :

لقد عرفت أن الفن والثقافة هما المجدافان اللذان يحركان البواعث الكامنة في الأمة ، ويقودانها نحو تحقيق أهدافها العليا : لذلك اخترت اليومين الثامن والتاسع من أكتوبر ليكونا عيداً للأدب والفن والثقافة في ذكرى عبورنا من شاطئ المهزيمة إلى شاطئ الانتصار ، وأنه لانتصار عظيم رد إلى الشعب جميع قواه ، وأعاد إليه عزائمه الصلبة العاتية ، وسيظل هذا الانتصار الباهر مركز إشعاع قوى لقدرات الشعب المذكرة ، وسيظل كل أديب وفنان يتخد منه شعاعاً هادياً لكافحه وجهاده وأدبه الخصب المشر .

وهذه مصر ، موطئ الإسلام وملاذ العروبة ، تجتاز معك مرحلة تحدي اليأس المزير إلى مرحلة تحدي الأمل الكبير في بناء المجتمع بناء قويمًا سعيدًا . وإنها لمهمة جد خطيرة ، وستجد كل أديب وكل فنان وكل عالم وكل فرد في الشعب ينهض ببنصيبيه في رفع هذا البناء وتشييد أركانه ، موفراً له كل طاقته ، مستشعراً إلى أقصى حد مسؤوليته ، متوصلاً بها بكل ما يستطيع من حول وقوه وإخلاص وجed ، لا ينقطع ولا يتوقف أبداً .

ولقد بدأت تخطط لهذا البناء الضخم ، وما مهرجان الأدب والفن والثقافة اليوم والأمس وعيدهما إلا بشرى بأننا بدأنا مرحلة هذا البناء ، وأننا ماضون إلى حياة آمنة ، يعرف كل منها فيها بوره وتبعته والتزاماته ، حياة مجيدة يغمرها الرجاء في مستقبل

باسم ، تسود فيه الحرية والعدالة والمساواة ، ومستقبل يملأ القلوب ثقة ورضا والتفاؤس
أمنا وأملا .

السيد الرئيس :

إنى أنا وزملانى من الأدباء والفنانين والقائزين بجوائز الدولة فى هذا العيد الأول
للأدب والفن والثقافة فى مرحلتنا الجديدة ، نعرف مدى حرصك الشديد على ازدهار
الأدب والفن فى الأمة ، وأنك ودلت اليوم لو سلمت - مع جوائزنا - جائزة لكل أديب
مصرى ولكل فنان . وإن الشعب جميعه ليعرف مدى محبتك لخيره ، وأن يشمل الرخاء
وسعية العيش جميع أفراده ، وأن يصبح كل منهم بمأمن من البؤس والعوز وضنك
الحياة . بل إنك لترتمنى لكل فرد فى الشعب حياة رغدة كريمة . وما من ريب فى أن
الشعب جميعه يقدر لسيدة مصر الأولى ما بذلتة - وتبذله - من جهد متصل مخلص
فى جميع جوانب المجتمع ، مع كل البر وكل الوفاء وكل الأمل فى غد مشرق مضى .
وإن مصر لترمك أدباعها وفنانيها مؤملة أن يزداد عطاهم الأدبى والفنى تائقاً وتوقداً
من عيد إلى عيد . بوركت مصر ، وعمّها دائمًا اليمن والسعادة والرخاء .

(ب) كلمة أ. د. شوقي ضيف في حفل تكريمه
جائزة الملك فيصل العالمية للأدب العربي سنة ١٩٨٣

جلالة الملك فهد بن عبد العزيز
صاحب السمو الملكي ولـى العهد
 أصحاب السمو والأمراء
 أصحاب الفضيلة والمعالي
أيها السادة :

لقد أسعدي سعادة كبرى فوزي بجائزة الملك فيصل العالمية للأدب العربي لقيمتها الأبية السامية ، وهو شرف سأظل أعتز به . ولا استطيع أن أوفي القائمين على مؤسسة الجائزة حقهم من الثناء الجديرين به . وكذلك لا استطيع أن أوفي هيئة التحكيم حقها من الشكر الصادق على ما أسبغت علىَّ من هذا الشرف الرفيع .

وانه لشرف أن يقترن اسم الجائزة باسم المغفور له الملك فيصل بن عبد العزيز تخليداً لذكراه وامتداداً لسيرته العطرة وجهاده الدائب في خدمة الإسلام والمسلمين ويقعه المتصل عن قضايا العربية والعرب وإيمانه العميق بالقيم الإنسانية المثالية ، مما جعل اسمه يملا الدنيا ، كما جعل الألسنة في كل مكان تلهج بذكره .

وانه ليسعني أن أحبي هذا البلد الطيب بتاريخه وأهله ومليكه فهد بن عبد العزيز ولـى عهده صاحب السمو الملكي الأمير عبد الله بن عبد العزيز ورجالاته ، وقادته الذين يبذلون جهوداً مخلصة في خدمة الإسلام والعروبة . وبارك الله في سمو الأمير خالد ، رئيس هذه المؤسسة ، وأخوته الكملة البررة ، أبناء الملك فيصل ،

الذين يعملون - بكل ما في وسعهم - لتأصيل المثل العليا لأبيهم العظيم في نفع المسلمين والعرب وإذكاء الجنة الحضارية في الأمة العربية ، مع ما يعود على الإسلام والإنسانية بالخير الغزير العميم .

ولهذه الغايات النبيلة اتسعت دائرة جائزة الملك فيصل ، فصارت عالمية لمن أنوا للإسلام والمسلمين خدمات جل ، ولن أسمها في الدراسات الإسلامية والأدب العربية إسهامات قيمة ، وللمجلدين في البحوث العلمية من أى شعب ومن أى قطر شرقاً وغرباً ، انطلاقاً من مبادئ الشريعة الإسلامية السمحاء ، ورغبة كريمة في إثراء الفكر الإسلامي والعربي والعالمي وفي تقدم الحضارة والحياة الإنسانية .

ومن المؤكد أن هذه الجائزة العالمية العظيمة ستدفع دفعاً إلى منافسة حميدة في الأقطار العربية بين المتعقدين في الدراسات الإسلامية ودراسات الأدب العربي والدراسات العلمية للفوز بقصب السبق مما يعود بأكبر النفع على نهضتنا العربية المعاصرة . وإنني لشديد الأمل في أن تتکاثر لهذه المؤسسة المباركة مشروعات متعددة ، وأن تتکاثر معها من الخليج إلى المحيط مؤسسات ومراكز علمية وأدبية ، تعيد جميعاً لامتنا العربية بقوة دورها الحضاري التاريخي كاملاً ، حين كان مفكروها وفلاسفتها وعلماؤها أساندة للغرب ، يقتبس من علمهم وفلسفتهم وفكيرهم ما أنار له السبيل إلى حضارته الحديثة . وأعود فلكرر ما ذكرته أولاً من الثناء على المؤسسة والشكر على الجائزة والعرفان بما غمرتني به من تقدير أدبي .

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

(ج) كلمة د . شوقي ضيف
فى حفل تكريمه فى كلية الآداب
(١٩٩٤/٤/٢٠)

أيها الأصدقاء :

لقد أوليتموني شرفاً عظيماً بهذا اللقاء الكريم ، وإنى لأشكر حضراتكم واحداً واحداً على هذا الفضل الذى غمرتمونى به ، وأحييكم تحية مخلصة صادقة ، وأحيى تحية إجلال وإكبار هذه الجامعة التى تشرفت بالانتساب إليها فى الثلاثيات من القرن الحاضر : جامعة القاهرة أم الجامعات المصرية والعربية ، وكانت قد بلغت منزلة رفيعة في الازدهار العلمي وإرساء التقاليد الجامعية ، وأمّتها أفواج الطلاب من أرجاء العالمين العربى والإسلامى ، ليتزوروا منها بخير زاد فى العلم والأدب والثقافة .

وأحيى هذه الكلية كلية الآداب تحية تجلة وإعزاز وتقدير ، فقد شرفت بالانتفاء إليها حينئذ ، وكان يحاضر طلبها صفوه من علماء مصر الرواد في الدراسات الإنسانية ، ويحاضرهم معهم صفوه من علماء الغرب الكبار في الفلسفة والتاريخ والجغرافيا واللغات القديمة الهيروغليفية واليونانية واللاتينية واللغات الحديثة الأوروبية والإسلامية فارسية وتركية .

* * *

وقد انتظمت في قسم اللغة العربية وأدابها ، وكان يموج بحركة تجديدية واسعة في كل موضوع ويبحث وكل علم يدرس ؛ فهذا الأستاذ أحمد أمين يدرس للطلاب الحياة العقلية الإسلامية ويعرض عليهم دقائقها وتفاصيلها وأنطوارها عرضاً رائعاً ، وهذا الأستاذ أمين الغولي يحاضر الطلاب في البلاغة العربية ويحاول التطور بها إلى دراسة فن القول وأساليبه ، وهذا الأستاذ إبراهيم مصطفى يحاضرهم في النحو ويحاول أن يخلصه من شباكه المعقّدة التي يتعرّض فيها الطلاب ، وهذا الشيخ الكبير مصطفى عبد الواثق يحاضر الطلاب في الفلسفة الإسلامية ، ويرى أن الفكر العربي الأصيل إنما يتراوح بوضوح في علم أصول الفقه ، وما يزال يرفع صرح هذا الفكر لبناء فوق لبنيته وفكرة تعلو فكرة ، حتى يتم تشييد صرحة في صورة بديعة ، وهذا الدكتور طه حسين يفتتح بمحاضراته للطلاب وكتاباته عصرًا جديداً باكمله في دراسة الأدب العربي وتاريخه وأعلامه ، فلم تعد دراسته مجده ولا عقيمة كما أن شأنها قبله ، بل أصبحت خصبة ممتدة متاعاً كبيراً .

* * *

وهذه الكوكبة من أساتذة قسم اللغة العربية لم تixer وسعا في تدريب الطلاب على البحث العلمي وبث الحماسة في نفوسهم للانكباب على دراسة الأدب العربي وعلومه ، وكان أحد الطلاب إذا نشر مقالاً في مجلة أدبية وقرأه أحد أساتذة وأعجب به نؤه بمقاله في الفصل بين زملائه وأشتبأ عليه . ولما أخذ الطالب من جيله يكتبون بحوثاً الحصول على درجتي الماجستير والدكتوراه شجعوهم في صور مختلفة من التشجيع ، وأشتبأوا على ما يبذلون من جهد وعباء وما ينفقون إليه من أفكار وأراء . وإذا أنجز الطالب رسالته كان نشرها الشغل الشاغل للأستاذ المشرف ، واتصل بدار نشر كبرى كي تنشرها له . وفي الحق أنهم لم يكنوا أساتذة لـ ولجيـلـي فحسب ، بل كانوا أيضاً أصدقاء يمنحون طلابهم صداقتهم ، وكان ذلك يدفع الطالب إلى مضاعفة جهودهم في البحث والدراسة ، حتى يقعوا منهم موقع رضا واستحسان . ولعلـي أكون قد أوضحت كيف أنا وجيلي ندين في تكويننا العلمي لأساتذتنا القدماء في قسم اللغة العربية ، وهو بين كبير حائلـنا أن نحاكيـهم فيه مع تلاميـذـنا ، ولهم فضلـ السـبقـ في إيجـادـ

الروابط وعقد الصلات بين أساتذة القسم وطلابه . وما الكتاب الذى أشرف عليه صديقى الدكتور طه وادى ، وهو مكتوب عنى بآقلم أصدقائى وتلاميذى ، إلا صورة من هذه العلاقة الوثيقة بين الأستاذ وطلابه فى قسم اللغة العربية .

* * *

وإنى لأكرر الشكر لجامعة القاهرة ممثلة فى رئيسها الأستاذ الدكتور مفيد شهاب ، ونائبه الأستاذ الدكتور حسنين ربيع لما أسبغا علىٰ من كلماتها القيمة . وأشكر كلية الآداب وأسانتتها وطلابها ممثلة فى عميدها الأستاذ الدكتور محمد حمدى إبراهيم وجميع الأساتذة الجامعيين الدكتور : أحمد هيكل . وكمال بشر ، ومحمد فهمى حجازى ، وطه وادى ... وفضيلة الدكتور محمد نائل ، ومحمود على مكى ، ومحمد حسن عبد العزيز ، و Maher شفيق فريد ، والدكتور محمد أبو الفتوح شريف ، والأستاذ الألبى أحمد سويلم مدير النشر بدار المعارف ؛ لما نشروا علىٰ جميعاً من شاعم أهله ومستحقوه ، وأشكر الشعراء الأفذاذ الأستاذ عبد المنعم عواد يوسف ، والأستاذ الدكتور سعد ظلام الأستاذ بكلية اللغة العربية فى الأزهر ، والأستاذ الدكتور صلاح عيد الأستاذ بتربيبة بورسعيد ، والدكتور عبد الفتاح الشطى ، والأستاذ ممتاز سلطان لما عطروا به الحفل من قصائدتهم الرائعة ، ولا أملك إلا أن أقدم لكل من ذكرت ، وكل من أكرمونى بحضورهم هذا الحفل الكريم ، مشاعر المودة والإخلاص والتقدير والعرفان . والله أسائل أن يجزيهم عنى الجزاء الأعلى .

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

(د) شكر وتقدير للأستاذ الدكتور شوقي ضيف
في احتفالية ملتقى القرضاية الثقافية - ٢٠٠١/١٠/٢١
بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الحفل الكريم
الأصدقاء الأوفياء
سيداتي ، سائلي :

لقد ملأتم حضراتكم نفسى زهواً باحتفالكم للاستماع إلى كلماتي القاصرة في
شكركم جميعاً على ما أسلتيكم إلى من هذا الحفل الكبير الذى سأظل ذكره شاكراً
ممتنًا أصدق الشكر والامتنان في البقية الباقيه من حياتى ، ولن أنساه .

وسأظل ذكر معه صنيع دار المعرف لى منذ وليت وجهى إلى محرابها الثقافي
الرقيق أريد أن أنشر بها مؤلفاتي منذ الأربعينيات في القرن الماضي ورحيبت بي
إلى اليوم .

فعرقتني إلى العالم العربي ومن يهتمون فيه بالأدب المصرى . وكان أول كتاب
قدمته إليها لنشره كتاب الفن وبذاهبة في الشعر العربي من الجاهلية إلى العصر
الحديث وكيف تطورت صناعة الفنية في ثلاثة مذاهب جمالية .

وطلت دار المعرف منذ هذا التاريخ سنة ألف وتسعمائة وثلاث وأربعين ففتحت لي
أبوابها على مصاريعها لنشر مؤلفاتي حتى بلغت إلى اليوم أكثر من خمسين كتاباً كما
نشرت لى تحقیقات لكتب نفیسۃ من التراث العربي الأدبي والعلمی .

وكان من بواكير ما قدمت من التراث للدار تحقيقی لكتاب ابن مضاء الأندلس
سنة ٤٧ وموضوعه الرد على نحاة المشرق سیبویه وغيره لما وضعوا في النحو العربي
من نظرية العامل المعقدة وما تجر وراءها من تقدیرات متکلفة لعوامل ومعمولات وعلل

وأقيسة عسيرة الفهم ، وشكا الجاحظ من ذلك قديماً قائلاً : إن أحداً لا يصل في علم النحو من تعلم ما يحتاج إليه ، حتى يتعلم ما لا يحتاج إليه في نطق أو كتابة . وأحسن ابن مضاء الأندلسى فى القرن السادس الهجرى المشكلاً فى عمق ، فكتب كتابه الرد على النحاة ملгиًا فيه بعض أبواب النحو المعقدة وما يجرى فيه من عوامل ومعمولات مقدرة وعلل وقياسات مضمرة ، ووضعت له مدخلًا يكمل ما أراده ابن مضاء من تيسير النحو وتبسيطه ، وألفت على ضوئه كتاب تجديد النحو ، طبع مراراً .

وكان شوقى شاعر مصر الفذ الذى أكسبها مجدًا عظيمًا فى الشعر العربى قد هوجم هجومًا عنيفًا فى الأيام الأولى لثورتنا ملا الجو الأدبى بغير كثيف يحجب حقائق شعره . وتأثرت لمصر وشاعرها المبدع ، وكتبت عنه كتاباً صورت فيه روانع شعره الفنائى والتمثيلى بمعايير النقد المنصف مع بيان مكانته فى الشعر العربى الحديث .

وكان شوقى أروع شاعر لمصر منذ أواخر القرن التاسع عشر ، تغنى بمجدها الفرعونى العريق وتأسيسها للحضارة العالمية كما تغنى بنيلها الكوثر العذب وبعصر بناء الأهرام ويدولها على مر القرون ، وهلّ طويلاً لنزول الإسلام مصر وتغنى مراراً بالمشاعر والعواطف الوطنية والوحدة الوثيقة بين الأقباط والمسلمين .

ولم يكن شوقى شاعر مصر وحدها فى التغنى بمشاعرها الوطنية بل كان شاعر البلاد العربية جميماً فى هذا التغنى وما يحمل من كفاحها الرهيب ضد المستعمرىن ، وكلما أنزلاوا ببلد عربى قارعة من قوارعهم انتفضوا واقفاً مع أبنائه يستثير حميتهم الوطنية كموقفه مع ليبيا حين نكل الإيطاليون ببطلها وزعيمها الثائر عمر المختار ، وكأنما أصاب به الإيطاليون قلب ليبيا فى الصميم بل قلب العالم العربى جميعه ، ويقول شوقى متذرًا الإيطاليين قصidته :

يَا وَيْهُمْ نَصَبُوا مَنَارًا مِّنْ دَمٍ يُوحى إِلَى جَيلِ الْفَدِ الْبَغْضَاء

وشوقى فى تصديه مع الشعوب العربية للمستعمرىن الطاغين إنما يعبر عن الروح المصرية الأصيلة إذ نرى مصر فى دوراتها التاريخية الماضية لا يقر لها قرار ولا يهدأ

لها بال حين تجد جيشاً أجنبياً أغار - أو يحاول الإغارة - على شطر من أرض إحدى شققها العreibيات ، كما حدث حين أغار الصليبيون على ديار من أرض الشام وفلسطين فأن مصر ظلت تناوشهم حتى تسلم مقاليد الحكم فيها البطل صلاح الدين الأيوبي فنهضت مصر معه لمنازلة الصليبيين وضربت جموعهم ضربة قاضية في حطين ، واستولى منهم صلاح الدين على بيت المقدس ومدن فلسطينية وشامية متعددة ، وقضت مصر قضاء مبرماً على بقية الصليبيين . وحين اكتسح سيل التتار الجارف ديار العراق ومدن الشام في الشمال نهضت له مصر بقيادة الظاهر بيبرس في عين جالوت تكعج جماعه وهزمت التتار هزيمة ساحقة ، وظهرت الديار الشامية من فلولهم المذحورة .

وكتب أدرس للطلاب في جامعة القاهرة تاريخ الأدب العربي ولم يكن لأحد من العرب كتاب جامع فيه ، واشتهر كتاب تاريخ الأدب العربي لبروكمان الذي عنى فيه ببعض التراث العربي جميعه الأدبي والعلمي والفلسفى ، ولم يعن عناية مفصلة ببحث الظواهر الأدبية وشخصيات الأدباء بحثاً تاريخياً نقدياً تحليلياً إذ شغلته مواد التراث العربي الكثيرة ، فرأيت أن أحاول كتابة هذا التاريخ ، وطبع الجزء الأول منه ، وأهديتها منه نسخة إلى أستاذى طه حسين سنة ١٩٦٠م وكان له كتاب في الأدب الجاهلى أثار ضجة نقد واسعة في العشرينات من القرن الماضي لما ذكر فيه من أن الكثرة المطلقة مما يسمى أدباً جاهلياً ليست من الجاهلية في شيء ، وليس بين أيدي الباحثين منه صحيحاً إلا شيء قليل جداً ، وأكثره منتقل بعد ظهور الإسلام ولا يصور حياة الجاهلين الدينية والعقلية والسياسية والاقتصادية . وكانت في كتابي راجعته في آرائه وأثبتت للجاهلين أشعاراً صحيحة أحاطتها الأسلاف بسياج محكم من التثبت والتوثيق ، وهي كفيلة بأن تتيح لنا الصورة الأدبية الوثيقة للعصر الجاهلي في الكتاب .

ولم يضيق أستاذى طه حسين بكتاب تلميذه عن العصر الجاهلي حين رأه فيه يخالف نظريته في أن الشعر المنسوب إلى العصر الجاهلي شعر منحول بل لقد

استدعاءه ليشى على جده في الكتاب ، ولا نقدر صنيعه وصنعيه أمثاله من الأساتذة الجامعيين حق قدرهم إلا إذا عرفنا أن من الأساتذة الجامعيين من إذا خالقه تلميذه في فكرة له أو أفكار في بحث علمي ثار غاضبًا غاضبًا شديداً . ومن المؤكد أن الباحث العلمي الجدير بهذا الوصف ينبغي أن يعرف لمن يخلفونه في الدراسة حقوقهم في حرية البحث والتفوز فيه إلى أفكار جديدة تخالف أفكارهم ، ويشى عليهم كما أشى طه حسين على تلميذه ، بل لقد دعا من كان بمجلسه من الصحفيين إلى الكتابة في الصحف عن كتاب تلميذه والتنوية به .

ومضيit أكتب تاريخ الأدب للأمة العربية وبلغت به عشرة مجلدات صورته بها في العراق وإمارات الخليج العربي وعمان وحضرموت ونجد واليمن ، ودول الشمال الإفريقي : ليبيا وتونس والجزائر والمغرب الأقصى ، وضممت إليها موريتانيا والسودان ، وكان تاريخ الأدب العربي في كثير منها مجهولاً .

ولما أكملت الحديث عن تاريخ الأدب العربي في الأمة انتقلت إلى القرآن الكريم ، وكتبت عن تفسير سورة الرحمن وسور قصارات ، وعن الحضارة الإسلامية من القرآن والسنة ، وعن إعجاز القرآن وعن السيرة النبوية ، وعن عالمية الإسلام وحققت طائفة من كتب التراث العربي النفسية .

وأقدم شكري الصادق إلى معالي الاستاذ الدكتور مفيد شهاب وزير التعليم العالي والدولة للبحث العلمي إذ غمرني بشاء الله أرجو أن تكون مستحقة شيئاً منه ، وأشكر أصدقائي الأولياء لما وصفوني به من تقديرهم مستحقوه وأهله .

وإنه ليسعدنى أن يقام هذا الحفل في أبهى أيام مصر وأزهاها إذ احتلت مركزاً عالياً مجيداً واستردت مكانتها بين الشعوب العربية ، مع دعوتها المخلصة المستمرة للسلام ولقيام الدولة الفلسطينية .

وأحيى الاستاذ جمعة المهدى الفزانى وبثورة الفاتح فى ليبيا ونهوضها نهضة عظيمة بليبيا ويقطاعات الإسكان والصناعة والزراعة فيها وبالتعليم فى جميع مراحله ، وإنشائها للشعب الثنتى عشرة جامعة وقرى سكنية متكاملة .

وأكير الشكر إلى السيد الأستاذ جمعة المهدى الفزانى وإلى السيد الأستاذ رجب البنا لاشتراكهما فى إقامة هذا الحفل الكبير ، وأشكر هذا الجمع الحافل لحضوركم هذا اللقاء المشرف لي ، جزاكم الله عنى جميعاً الجزاء الأوفى .

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

٩ - معنى والسير الذاتية أو شوقي ضيف في تاريخ حياته

د . ماهر حسن فهمي

أكبر الظن أن هذا العنوان متاثر بكتاب "معك" الذي كتبته زوجة طه حسين - عن رفيق عمرها ، ولا كان شوقي ضيف يقدس الوفاء أولاً ، ويعتبر طه حسين - المثل الأعلى له ثانياً ، فقد تحولت "معك" إلى "معنى" عن وعي أو غير وعي ، ولكنها على كل حال لها كل الدلالات السابقة ، بالإضافة إلى دلالتها على صحبتنا لصاحب السيرة الذاتية منذ الميلاد حتى اليوم .

والسيرة الذاتية لها مناهجها ، منها المنهج الوصفي ، ومنها المنهج التحليلي ، في مقابل المنهج الترتكبي الذي تتألف منه السيرة الفيرية ، والمنهج التحليلي يمكن أن نمثل له بقصة "نفس" لزكي نجيب محمود ، وـ "أنا" لعباس محمود العقاد ، أما المنهج الوصفي فقد وضح بصورة أقرب إلى التقريرية في "حياتي" لأحمد أمين ، وفي إطار العرض الروائي في "على الجسر" لبنت الشاطيء ، وـ "معنى" لشوقي ضيف ، وأما "الأيام" لطه حسين فقد استفادت من كلا المنهجين : الوصفي الروائي والتحليلي ، وبينت الشاطيء وشوقي ضيف كلاماً نشأ في دمياط ، وكلامها صارع طويلاً حتى ثبتت مكانته العلمية في الوطن العربي ، وصارع طويلاً بعض صور التخلف في القرية حين أتى إلى المدينة الكبيرة ، ولكنه احتفظ بما في القرية من أصالة وقيم ، وتوقفت بنت الشاطيء "على الجسر" عند التقائها بأمين الخولي ، ووقفت تتأمل الحياة التي عاشتها قبله ، حتى إذا التقت به وأحسست أنها انتقلت نقلة جديدة ، جرت الأيام مسرعة عجلة ففقتها ، وعادت لتقف وحيدة ، ولكن شوقي ضيف - ربما وحده - في هذا الجيل - جيل العمالقة والرواد - الذي ظل يعطي إلى اليوم ، فلم يتوقف القلم في

يده ولم يستمرى الراحة ، ولم يركن إلى الكسل العقلى ، ولم يدخل على أبناء جيله وعلى تلاميذه بثمرة جهده العلمى ، ومن هنا كانت قيمة هذه السيرة الذاتية .

ـ في قرية بجوار دمياط كان يربض مستنقع واسع يشغل أكثر من مائتى فدان على ئ بالأسماك ، وينبات البردى ، وبأزهار النيلوفر (اللوتس) قائمة على سيقانها ليل نهار ، كأنما تنتظر موعداً مضروبياً ، مطلة برؤوسها وأعناقها فوق مياه غارقة فيها ، كأنها دموعها ، ويسمىها أهل القرية والريف المصرى باسم البشتين ، وأوراقها تتضام ليلاً للنوم ، في شكل كأس زمودى ، وتتفتح الأوراق فى الصباح ، مع نسمات السحر وأنداته المتلازمة عن شعل ملتهبة ، متعددة الألوان ، بين لا زوردى ، وأرجوانى ، وكهرمانى ، وعند السيقان تستلقى أوراق عريضة مستديرة تتوسد المياه ، حول قامات البشتين الهيفاء ، كأنما تدعوها لكتب عليها بمداد من حلولها - لا ينفك - ما تشاء .

وفي الجانب المقابل للقرية تقع بحيرة المزلة بصياديها وشباكهم ، وبمياهها الفضية البراقة ، وكأن سماء من البلور الناصع تمتد على سطحها المشرق الهادئ الساطع ، والراكب الشراعية تنهادى فيها مقبلة مديرية ، متمايلة مع الريح - تمايل الأغصان - باشرعتها البيضاء المقاومة للأجسام ، كأنما هي طيور سابحة بجناح واحد فريد ، وتقرب فتحالها حسنتا متنورة على خلود البحيرة اللامعة البراقة ، وتبعد جانحة إلى المغيب فتحالها أهله تغرب في الأفق السحق .

هكذا يبدأ شوقي ضيف سيرته الذاتية ، كأنه مصور يرصد المكان بخيال الفنان ، فنرى بعينيه قرية وسط شلال من الأصوات والألوان ، وتندفع معه نلتهم الأسطر ، وتنقلب الصفحات ، فنجده قد ولد بعد أخوين اختطفهما الموت ، ولذلك فرح به أبواه ، والذى يقرأ طه حسين فى (الأيام) يجده قد وقف عند حدث الموت موقف المحل ، فجسم لنا موقفاً إنسانياً رائعاً لا يبرح ذاكرته ولا يبرح خيالنا ، قصة الصراع بين الموت والحياة حين فقد أخاه ، وعجز الآبوين عن إنقاذ ولدهما وهو يموت رويداً رويداً حتى يخدم وتصعد روحه ، ولا يعود أمام الإنسان إلا أن يبكي من فقده ، أو يكتم لوعته والقلب ينزف ، أو يفلسف الموت ، ولكن شوقي ضيف يمر على حادث الموت مروراً سريعاً ؛

لأنه لم يشهده بطبيعة الحال ، ولكن ألم يسمع عنه من أحد أبويه ؟ ألا من مات طفلًا ليست له نكريات الصبا والفتولة والشباب ؟ كل ذلك جائز .

وقد صور لنا شوقي ضيف القرية وأثرها وأحداث الطفولة ، وهي أحداث تختلف من فرد إلى فرد بطبيعة الحال ، فأحداث وقوعه في مسرب المياه أثر في حياته من بعد ، فلم يتعلم السباحة مثل لداته ، وظل يخشى الفرق ، ونشأة الصبي وهو يرى في مكتبة أبيه كتب فقه وحديث وعلوم دين ، أثرت في نفسه ، ووجهته منذ نعومة أظفاره إلى حفظ القرآن الكريم ، ثم إلى العهد الديني . والأقاوصيس التي روتها له جدته مما كانت تسمعه من زوجها ، وهو يقرأ أخبار الفتوح الإسلامية ظلت لا تبرح ذاكرته ، مثل تلك التي تروى ما سمعه المؤمن من زَيْنَة زوجة أبيه الرشيد وأم الأمين ، حين ألح عليها في أن تذكر له ما تمنت به ، فقالت : كنت أقول ليت هذا الموكب كان لأبني الأمين ، فقدم المؤمن على إلحاشه ، وهذه القصة وأمثالها مما لقنه الفتى في صغره عودته ألا يلح في أى شيء وألا يفكر في التعرف على أى خبر ، يمس شخصًا مهمًا تكن صلة به ، وظل يبغض التطفل والمتطفلين ، وهكذا تتعلم من السير الذاتية ومن مثل هذه الانتفاثة التربوية ، فتضفي إلى خبراتنا في الحياة خبرات الأعلام .

وإذا كان طه حسين قد حدثنا عن الخرافات في القرية الثانية بصعيد مصر التي نشأ فيها وأثرها في نفسه ، فإن شوقي ضيف يحدثنا عن الخرافات في قرية بشمال الوادي - العفاريت - ولكنه يربط بينها وبين الخرافات التي سمعها بعد ذلك ، حين زار بلادًا أوروبية ، ومنها سويسرا ورأى بيت الأشباح كما يسميه سكان القرية السويسرية ، وهو قريب من منزل "أينشتين" الذي سكنه مدة هناك ، "ولا يجرؤ أحد على سكانه خوفًا من الأشباح التي تقطنه" ، وهي خرافة الكائن البحري ، الذي يعتقد أهل اسكتلندا أنه رابض في بحيرة لوخ نيس ، وأن أحدًا لا ينزل فيها إلا ويقتله . وهذا دليلان واضحان على أن الأمم مهما ارتفعت عقلياً وعلميًا ، لا تزال الخرافة تجد منوى لها في أذهان أرقى الأمم فكريًا ، وكما يتضح ذلك في الأمم يتضح في الأفراد ، فقد يكون الفرد من أعلم معاصريه بقوانين العلوم الطبيعية ، ومع ذلك يؤمن بالأشباح ،

ويقوى غيبية لا يستطيع ردها ولا يفع شرها ، فضلاً عن فرض سيطرته وإرادته عليها ، وهي مبالغات وخيالات ينبغي أن يتخلص منها الإنسان ويطرحها بعيداً حتى لا تفسد عليه حياته .^(١)

وعلى الرغم من كل ذلك ، فقد كانت هذه الأقاصيص التي يسمعها الصبي تطلق خياله ، حتى إذا نما عقله أعاد هذه الخيالات إلى حجمها الطبيعي ، وهي مرحلة تمر بها الشعوب في نشأتها الأولى ، وتبقى رواسبها فيما يسمى "بالعقل الجماعي" الذي تختزنه الشعوب ، ولذلك لا يستطيع كثير من الأفراد التخلص من آثاره تماماً كما نقول نحن - دارسي الأدب - عن الشعراء ، إن استطاعتهم للطبيعة ، يرجع في بعض تفسيره إلى هذه المرحلة السحرية من نشأة الإنسانية ، والتي ما تزال آثارها في نفوس البشرية إلى اليوم ، ومن هنا تنتوّج جميعاً الشعر : لأنّه يربطنا بجذورنا البعيدة من ناحية ، ويشير خيالنا من ناحية أخرى إلى جانب تعبيره عن حياته .

وهذه البدايات ترتبط بعد ذلك بما كان الصبي يسمعه من "الشاعر" وهو ينشد قصة الهلالية ، وبطليها "أبو زيد الهلالي" ، وـ "دياب بن غانم الزغبي" وكل منهما مغامراته الحرية ، وعادة ينشد الشاعر أجزاء من القصة على الريابة . ومنذ ألف عام على وجه التقرّب كانت تنشد هذه السيرة في القرى المصرية ، وتشاعي قرية أبو زيد ، وأخرى تشيّع دياب بن غانم بطل بنى زغبة ، فبعضها هلالية وبعضها زغبية ، وكان ذلك تعبيراً عمّا بين القرى من تنافس ، كما يقول المؤلف . ولا يدع المؤلف الفكرة تقتلت من يده بمجرد ذكرها ، فهو يشعبها إلى شعبيتين : الأولى الإحساس بالانتقام العربي منذ زمن لأن القرى والنجوع إما هلالية أو زغبية ، فهي تشعر بالانتقام ليس حباً في البطولة وحدها ولكن حيناً في الانتقام إلى البطولة العربية التي هي جزء منها ، أما الأمر الثاني ، فهو اهتمام الصبي منذ ذلك الوقت بقراءة السير الشعبية ، وأنثر هذه القراءات في تكوينه الأدبي ، وهكذا نجد الكاتب ينفذ من الفكرة المعروضة إلى أعماقها من حين إلى حين محاولاً التحليل ، وإن كان الوصف والسرد يغلبان على السيرة في النهاية .

(١) مخطوطة معن "ج ٢ ص ٥" .

ومهما توزع حديث المؤلف فإن نقطة الانطلاق دائمًا هي القرية ، يعود إليها من حين إلى حين ، يستروح أنسامها ، ويحن إليها ويرى فيها ما لا يراه في المدينة ، التي تلتفت بعد ذلك فصنعت منه الشخص الذي نعرفه ، ومنحته الثقافة والشهرة والمنصب ، ولكن حنينه إلى القرية لا ينتهي ، فيذكرنا بديوان أحمد عبد المعطي حاجي "مدينة بلا قلب" . وأهم ما يشده إلى القرية بساطتها وما فيها من تقانة ، فالعمل خارج المنزل في الوظائف كثير ، والمعرفة تشعي وتراكمت في أذهان الأمهات ، بحيث ضاعت منها الحكمة البصيرة (الجزء الأول ص ٢٥) ، والطبيعة التي شدت كل مهاجر إلى المدينة ، والموال الذي يردد القروى والقروية يضفي سحرًا خاصًا ، ويندزد حب الفن : ولذلك نجد القطع الأدبية الراقية في السيرة تتعلق دائمًا بوصف الطبيعة ، التي تعلق بها الكاتب منذ مرحلة الصبا . فنشأ يرنو إلى الجمال الطبيعي ويحب الريف ومناظره حبًا يملأ عليه ذات نفسه : مناظر الحشائش وطنافسها الخضراء ، والأرز والقمح وستابلها الشقراء ، والقطن ولوزه يتفتح ويتبدى منه خصله البيضاء ، وهنا وهناك أشجار النخيل المصعدة في السماء حاملة أعنادها ومشاعلها الحمراء ، والمياه تنهادي في القنوات ، والبشرين كالطاووس يزدهى بالألوان ، والورود تتمايل مع الفسيم متذعة سر شذاها العطر ، وسقاة الأرض في سكون الليل الجاثم على الحقول ، يتغدون على السوقى ببعض الأغانى الريفية الساذجة ، التي طالما استمع إليها النيل وقتواته منذ آلاف السنين ، كل ذلك يسكن في نفس الصبي متاعًا ما بعده متاع . (الجزء الأول ص ٢٨) .

على أن أثر القرية الاجتماعي كان يتمثل في وحدة القرية أمام الآمال والآلام ، والأفراح والآلام ، كأنها أسرة كبيرة على كل فرد فيها أن يشارك الآخرين مشاعرهم ، فيفرح معهم إذا فرحوا ، ويحمل همومهم في كل ما يصيبهم من كوارث . وأحسب أن حياة المدينة استطاعت أن تغير الدكتور شوقي ضيف في هذا الجانب ، فلم يعد ذلك الرجل الاجتماعي إلا بقدر ما يقدم لطلابه من عطاء ، وقد أعطى في هذا الجانب بلا حدود ، ومن هنا كان البديل الذي توفر له في المدينة .

وكانت القرية تقيم من حين إلى حين ليالى للذكر احتفالاً بقدوم أحد أصحاب الطرق الصوفية . وكان الصبي لا يترك احتفالاً من هذه الاحتفالات إلا ويحضره للفرجة على الذاكرين والاستماع للمنشد ... ومن المؤكد أن الصوفية أتوا للإسلام خدمات عظيمة بنشره في غربى أفريقيا وأواسطها وشرقيها وفي أواسط آسيا .

وهذا النص يثير أمرين : الأول أسلوب العرض ، والثانى انتشار الطرق الصوفية من ناحية ، وبورها من ناحية ثانية ، أما أسلوب العرض فهو الأسلوب الروانى كما قلنا ، وقد أخذت السيرة من الرواية وأعطتها ، وأخذت منها أسلوب العرض وأخذت منها ضمير الغائب ، وضمير الغائب يتبع لكاتب السيرة - كما أتاح لهه حسين من قبل - أن ينطلق على سجنته ، كأنه يروى قصة شخص آخر ، فى حين أخذت القصة من السيرة الذاتية ضمير المتكلم الذى يوهم القارئ بأن القصاص يروى سيرة ذاتية .

أما الأمر الثانى : فهو الحديث عن الطرق الصوفية ، وتقف عدسة الكاتب أمام الطرق الصوفية طويلاً ، لتصف احتفالاتهم وهم يسيرون فى الشوارع ببارتهم ، ثم هم يقفون صافوفاً ، ويتطورون يميناً ويساراً بعنف ، حتى يتخلصوا من حسية الجسد ، ولا يبقى سوى الروح واللسان يذكران الله ، وقد تراجعت هذه الصور الآن كثيراً ، وإن كانت ما تزال فى القرى الثانية وفى الموالد ما تزال لها بقية ، تتضاعل أمام انتشار التعليم ، وعاد مفهوم التصوف يرتبط بجوهر الإسلام وخدمة الدين ، والواقع أن الصوفية قد نشروا الإسلام فى أفريقيا وأسيا ، حتى إن الخطوط التى ترسم فى أفريقيا لبيان حدود الإسلام وراء خط الاستواء ، تنتقل متقدمة إلى الجنوب كل عام . وقد حاول محمد توفيق البكرى شيخ مشائخ الطرق الصوفية فى مصر أول هذا القرن ، أن يرد على منكري العقائد الصوفية ، والداعين إلى تصفيتها باعتبارها مما دخل الإسلام فى القرن الثانى عن طريق الفرس ، بدليل أن مشائخ الطرق الأولين كلهم من الأعاجم كالجندى ، والنهاوندى ، وأبى يزيد البسطامى ، وإبراهيم بن أدهم البلخى ، وسهل التسترى ، ومن أجل ذلك يرد البكرى ذاكراً أن الصوفية فتحت للإسلام قدر

ما فتحته سيف المسلمين ، وإصلاح الصوفية يكون بتوجيه التصييف ، حتى يصبح مدرسة عظمى هدفها العلم بالشرع ، وإصلاح الصوفية يكون بتوجيهه التصوف ، حتى يصبح مدرسة عظمى هدفها العلم بالشرع والعمل به ، ولا يكون بتصرفية التصوف ، والحركة الصوفية التي نوحت المبشرين^(١) .

لقد حفظ الصبي القرآن صغيراً ، وكان يتلوه تسميعاً دون أى لحن وهو في حدود العاشرة من عمره ، وما لا شك فيه أن هذا الجيل الذي حفظ القرآن صغيراً ، كان جيلاً متمكناً من اللغة العربية ، وسر تمكنه من لغته هو حفظ القرآن؛ لأن القرآن ليس نصاً بليغاً فحسب ، ولكنه مجمع فصاحة وشريعة ، وقياس نحوى ومعجم لغوى .

وكأنما أراد يربط الدكتور شوقي ضيف بين عالمه الداخلى والعالم الخارجى من حوله ، لأنه يشعر بالانتماء إلى دولة وإلى أمة ، هو فرد فيها ، فما يصيبها ينعكس بالضرورة عليه سلباً وإيجاباً ، ولذلك يربط باستمرار بين حياته ، وحياة الأمة ، فثورة ١٩١٩ وما أعقبها من مناورات الإنجليز ، والخلاف الذى حدث بين سعد زغلول وعدلى ، وفشل المفاوضات مع بريطانيا ، كل ذلك جعل سعد زغلول يصبح رمزاً للأمة تجتمع حوله ، ولكن أسلوب العرض الشيق لا يربط بين الحياة العلمية والحياة السياسية وحسب ، بل يحيل الرابطة إلى وحدة عضوية .

" وكان سعد قد أخذ يلهم حماسة الأمة بخطبه النارية ، فى شهرى أكتوبر ونوفمبر ، مطلع أول عام للصبي فى معهده الدينى بدمنياط ، وكان طلاب هذا المعهد كغيرهم من أبناء الأمة يتوجهون وطنية ، فلم تكن تنظم الدراسة فيه يوماً ، ولم يكن للطلاب من حديث سوى خطب سعد وكلماته الملتئبة ... واستشاط الإنجليز حنقاً وغضباً ، ولم يلبثوا أن اعتقلوا سعد زغلول فى ٢٢ من ديسمبر عام ١٩٢١ مع سبعة من أعضاء الوفد ، وبنفوهם إلى سيلان و منها إلى سيشيل ... ولما تفاقمت المظاهرات والإضرابات ، تقرر إلغاء الدراسة فى الأزهر ومعاهده الدينية لهذا العام الدراسي ، وفي الحق إنه لم يكن عام دراسة بل عام ثورة وكفاح وجihad . وبتعاقب الأحداث ، ويقرر الوفد عدم التعاون مع الإنجليز فى جميع المعاملات الفردية ، كما يقرر مقاطعة بنوكهم

(١) راجع : المستقبل للإسلام ، لمحمد توفيق البكرى ، ص ٢٠ .

وشركات تأمينهم وسفتهم وكافة أنواع التجارة معهم ، ويضطر الإنجليز إلى إعلان تصريح ٢٨ من فبراير سنة ١٩٢٢ ، معتبرين باستقلال مصر . (ج ١ من ٤٦) .

على أن الحياة العلمية ليست دراسة في المعهد ، أو المدرسة فحسب ، ولكنها أيضاً ثقافة تهم الجمهور ، ومن هنا كانت الصحف الحزبية إلى جانب اهتمامها بالخبر السياسي تهتم بالمقال الأدبي : لأن الأدب في مرحلة نشوء الأمم هو معلمها الأول ، يعرض عليها الحقائق العلمية بأسلوبه الأدبي ، ويدفعهم دفعاً إلى حب العلم ، ومن هنا اهتمت الصحف بمقالات محمد حسين هيكل ، وطه حسين ، والعقاد ، وكانوا يعتبرون من المجددين ، ومصطفى صادق الراafعى ، وكان حاملاً لواء المحافظين ، وكان الصبي يعجب بهم جميعاً ويقرأ لهم جميعاً ، ولكن طه حسين كان أقربهم إلى قلبه ، ربما لأن بدأ حياته أزهرياً ، وربما لما يمتاز به أسلوبه من بيان وسهولة معجزة .

من هذه الفترة تبدأ الحياة العلمية تملك وقت الفتى وعقله ، حتى نهاية الجزء الأول من السيرة ، فهو يتحدث عن أول كتاب ألفه في النحو . وكان " مغني اللبيب " لابن هشام هو الذي أوحى للفتى مبكراً بالحاجة إلى تبسيط النحو للناشئة ، وظلت هذه الفكرة معه حتى كان آخر كتاب ألفه عام ١٩٨٦ هو " تيسير النحو التعليمي قديماً وحديثاً مع نهج تجديده " ، هذا بالإضافة إلى كتابة " تجديد النحو " الذي أصدره عام ١٩٨٢ ، وفيه دعوة إلى تيسير النحو وحذف كثير من أبوابه المختلفة عليها والمعقدة : لأنه ذاق ما ينوهه المعاصرون اليوم من متاعب في دروس النحو .

على أن النحو لم يكن شغله الشاغل ، فدائرة ثقافته تتسع باستمرار ، فيشغله الأدب المهجري الذي يقرأه عند تاجر لبناني ، ويجد له مذاقاً خاصاً ، في الوقت الذي كان فيه شوقي عملاق الشعر في هذه المرحلة تنشر الصحف شعره ، وتتسابق إلى عرض كل قصيدة جديدة فتحتفل بها احتفال من ظفر بكنز ، وهكذا اتسعت دائرة الحياة الثقافية حول الصبي ، وقد كانت المرحلة خصبة حقاً ، تحاول تكيد ذاتها ، واستجلاء هويتها ، تارة بتحصين نفسها بالتراث ، وتارة بمسايرة كل جديد تأتي به الحضارة الغربية والفكر الغربي ، ومن هنا وجدنا قضيتي على عبد الرازق (الإسلام وأصول الحكم) ، وكتاب (في الشعر الجاهلي) لطه حسين اللذين

صدرًا عام (١٩٢٥، ١٩٢٦)، يحدثان دويًا أشبه بذوى القنابل ، فال الأول يناقش فصل الدين عن الدولة ، ويرى أن الخلافة ليست جوهراً وأصلاً من أصول الإسلام . وقد حكم على عبد الرزاق وفصل من هيئة كبار العلماء . والثاني يشكك في تاريخ الأدب ويطبق منهج الشك الديكارتى متاثراً بـ «برينان» ، ولكن الأخطر أنه يرى أن ما أتى به القرآن من أخبار وأثار لابد أن يدعمه البحث العلمي الحديث عن طريق الحفريات والأثار والتقوش وغيرها ، ليكون مؤكدًا على كل المستويات - وهو يعني أن يكون مقنعاً لغير المسلمين أو للبشر كافة - ولكن خاتمه العبارة ، فأثار ضجة هائلة وصودر الكتاب ، وأنهيل مؤلفه للنيابة العامة للتحقيق ، ونوقش الموضوع في البرلمان ، وظل بين أخذ ورد ، حتى حسمت النيابة المعركة وحفظت القضية .

وقد تخرج الفتى في معهد دمياط الدينى عام ١٩٢٦ وسط هذا الجو الغوى المثير ، والجدل الذي يملأ صفحات الكتب ، والأخبار التي تتناقلها الصحف ، والطلاب يعيشون هذا المناخ ويناقشون ، وأصبح تلميذاً بمعهد الزقازيق الثانوى الدينى ، حين كانت قضية طه حسين تشتعل الطلاب ، والأساتذة ، والمجتمع ، والصحف ، والبرلمان ، والنيابة ، فهي إذن مرحلة صراع فكري هائل ، تصهر الجميع ، فينجلي المعدن النقيس .

وهو لا ينسى أنه أزهى النشأة فيدافع عن طريقة الأزهر التقليدية التي تركز على المتون ، وتهتم بالشرح والحاواشى والتقارير ، ويرى أن كل هذه التعليقات والتقريرات أشبه بدائرة معارف ، وأن الجامعات لم تقد من هذه الطريقة فيما يمكن أن يسمى بعلم احتمالات النصوص ، وهي وجهة نظر على أية حال ، وإن كانت هناك وجهة نظر مقابلة ، (فكل فعل له رد فعل مساوله في القوة ومضاد في الاتجاه) ، ترى أن هذه الشرح والتعليق والتلخيصات ، والتقريرات ، لا تمثل مرحلة إبداع ولكنها تمثل مراحل كسل عقلى ، اعتمدت على المتون وأخذتها على أنها معجزات تحتاج إلى الشرح والتعليق والتلخيص ، وكل هذا لا يمثل دائرة معارف بقدر ما يمثل أغلاً وأنقاً ، على القارئ أن يحملها أو يتحملها سواء فهمها ، أو لم يفهمها . وما زلت أذكر وأنا أدرس البلاغة في كلية الأداب بجامعة الإسكندرية - وكنا ندرسها في (المفتاح) للسكاكى الذى لخصه الفزويلى ، و(شرح التلخيص) للقتازانى ، (ومعه هوامش مواهب الفتاح لأبى

يعقوب المغربي ، وعروض الأفراح للسبكي وحاشية الدسوقي) ، أن الشارح حين كان يقف عند جملة ، يترك المدلول البلاغي ويدخل في المعانى الاصطلاحية ، فتشبيه صوت المرأة بالرياح لا يلفت الشارح فيه إلا معنى الصوت وهو (مقابلة القارع للمقروع ولقالع المقلوع من حيث هو) .

وهو يمر على أحداث ضخمة مروراً سريعاً ، كأنه يسترجع أطياف الماضي ، وكأن شريط الذكريات يمر مسرعاً عجلأً ، لأنه يريد أن يتوقف عند حياته هو لا حياة الآخرين ، فإمارة الشعر التي وضعت على رأس شوقي إكليل الزعامة يوم ٢٩ أبريل عام سبعة وعشرين وتسعين وألف ، والوفود الرسمية والشعبية من أبناء الأقطار وأدبائها ، من فلسطين ولبنان وسوريا ، والأردن والبحرين وعدن والهجر ، والمغرب التي استعدت للحضور في هذا اليوم ، ومنتقى التهذيب في بغداد الذي قرر إقامة حفل تكري لشوقى في نفس اليوم الذى يحتفل به فيه بالقاهرة ، كل هذا لا يتحدث عنه إلا حديثاً عابراً ، مع أن العرب لم يجتمعوا على شاعر فى تاريخهم الطويل كما اجتمعوا على شوقي وإمارته ؛ فهو شاعر الفن الخالد ، شاعر الإسلام ، شاعر العربية ، شاعر المسرح ، شاعر الأغنية ، شاعر الأطفال .

وهو ما يزال يمزج الأحداث الخاصة بال العامة ، فلم يلبث سعد زغلول أن مات ، وهكذا ودعت مصر زعيم الأمة ومجاهدها الكبير ، وهو حدث ظل صداته ، يتتردد في الحياة العامة والخاصة إلى عهد قريب ؛ لأن أعلام الأمم لا ينتهيون بموتهم ، فهناك من يحمل الشعلة من بعدهم ويستمر على دريهم . وينتقل من الحياة العامة إلى الحياة الخاصة ، فالجامعة المصرية تفتح أبوابها عام ثمانية وعشرين وتسعين وألف وتقبل تجهيزية دار العلوم ، وبذلك تحول الفتى إلى الرزى الإفرنجى خلال العام الدراسي ١٩٢٩/٢٨ .

ويتغير الذى مجرد رمز ، ولكنه يعني أنه يتلقى مع الحياة الجديدة بسرعة ، ومع التطور الموعود ، مثلاً فعل طه حسين ، حين غير زيه الأزهري في السفينة التي عبرت به إلى أوروبا ، ولكن جيل طه حسين كان عليه أن يقوم بعملية التطور ، لا أن يعيش التطور ، ومن هنا كان طه حسين يسابق الأيام ، أما شوقي فسيف فيسابر الأيام .

طه حسين كان عميد كلية الأداب فسمح - لأول مرة في تاريخ الجامعة - بقبول الفتاة ، برغم كل ما وجه للجامعة من نقد ، لأنَّه مقتنع أنَّ هذا حق لها ، وأنَّ عملية التطوير لابد أن تتم على يده ، وشوقي ضيف دخل الجامعة فوجد الفتاة طالبة بها لأول مرة ، فلم يستذكر ولم يرحب ، وما كان له أن يستنكر أو يرحب ، وهو بعد في مرحلة بين البابين - كما يقال - فقد انقطع مع زملائه من حملة تجهيزية دار العلوم في سنة تميذية ، يتعلمون اللغات الأجنبية قبل التحاقهم بالسنة الأولى .

ولكن الأيام تجري مسرعة عجلة ، فيعزل طه حسين من قبل صدقى باشا رئيس الوزراء : لأنَّه رفض الكتابة^١ صحفية حزبه المسمى بـ حزب الشعب ، " ورد وسطاءه ردًا غليظاً ، إذ كيف يتعاون مع من ألغى دستور الأمة ، وخنق الحريات ، واضطهد الأحرار ، وسفك الدماء الطاهرة في انتخاباته المزورة ، فعزله صدقى من منصبه ، ونقله إلى ديوان وزارة المعارف ، فلم يذهب إليها وقدم إلى وزيرها استقالته ، وأضرب الجامعة ... وغضب لطفي السيد - مدير الجامعة - بسبب هذا العدوان على استقلال الجامعة وقدم إلى الحكومة استقالته .^(١)" .

ويتلمذ الفتى على يد أحمد الإسكندرى - بدلاً من طه حسين وإبراهيم مصطفى ، وأمين الخولي ، وعبد الوهاب عزام ، وأحمد أمين ، ومصطفى عبد الرافع ، هذه الطقة الذهبية التي وهبت نفسها للعلم وأعطت بغير حدوٰد ، ولكن طه حسين يعود في العام الأخير للفتى في الجامعة ويدرس معهم كتابي " الموازنة للأمدي " ، وتاريخ الأدب الإنجليزى " لتين ، وهو هنا يحرص على الثقافتين العربية الأصلية ، والغربية بمناهجها النقدية المعاصرة ، ويمر صاحب السيرة مروأً سريعاً على مرحلة عمله بمجمع اللغة العربية - الذي سيصبح عضواً فيه بعد فترة من الزمن - لأنها كانت مرحلة قصيرة ، فلم يلبث طه حسين أن عيَّن لأول مرة بكلية الأداب معيداً ، ويختار الفتى معيداً بقسم اللغة العربية خلال العام الدراسي ١٩٣٧/٣٦ ، ويبداً رحلته مع الدراسات العليا ، فيختار موضوع " حركة النقد في كتاب الأغاني " ، ومن هنا سيطر مبكراً على مادة الشعر العربي وتاريخه ، لأن كتاب الأغاني موسوعة كبرى في تاريخ الشعر العربي ،

(١) "معي" ، ص ١٠٠ .

وناقش رسالة الماجستير في يناير ١٩٣٩ ، وبدأ على الفور مع أستاذة طه حسين في اختيار موضوع الدكتوراه ، وهو (الفن ومذاهبه في الشعر العربي) ، وكانتا حياته بحثاً متصلًا في هذه الفترة التي تنتهي بالجزء الأول من سيرته .

وببدأ الجزء الثاني من السيرة بحصول الفتى على درجة الدكتوراه ، وتعيينه مدرساً بالقسم الذي تخرج فيه ، منذ سنوات وعمل فيه منذ تخرج ، فها هوذا بعد ست سنوات يصبح زميلاً لأسانته ، وأستاذًا لتلاميذه ، وهو ما يزال يرى الصدقة أكثر يوماً ، وأرحب صدرًا من الحب : لأن الصدقة مشتقة من الصدق في المودة ، والحب أثانى بين فردتين كل منهما يريد الآخر لنفسه وحسب ، وشوقى ضيف نادر الحديث عن هذه الأمور التي نسميها إنسانية ، فمشاغله لها خط واحد يدور من بعيد أو قريب حوله هو البحث العلمي ، كائناً محور حياته قد تحدد ، وهدفه قد تحدد ، وهو يسير إلى هدفه الذي يعرفه فلا يجده عنه ، ويجد العون من الأصدقاء أسانتة وزملاء وطلاباً ؛ ولذلك يتوقف عندهم لأنه يكبر الصدقة ومن ثم يكبر الوفاء ويجله .

والنماذج التي ضربها أصبحت نادرة في أيامنا هذه التي تتسم باللادية المفرطة ، فقد مرض عبد العزيز فهمي - عضو المجمع - عاماً كاملاً ، فلما شفي من مرضه ، وهب مكافأته الجمعية طوال العام لطبع كتاب جيد لأحد الشباب ، ووقع اختياره على رسالة شوقى ضيف بناء على تزكية طه حسين ، و مقابل « شوقى ضيف » عبد العزيز فهمي لإهدائه نسخة من الكتاب بعد طبعة وشكراً على ما قام به ولا يجد فرصة ينفذ منها إلى موقف تربوى إلا استغلها ، فهو أستاذ يعلم ويوجه ، ومن هنا وقف أمام عبد العزيز فهمي وهو يقرأ رسالته ، فيستوعب الصفحة فى ثوان كائناً طبعت فى ذاكرته ، ثم أخذ يناقشة مناقشة القارئ الوعى ، ومن هنا يتوجه إلى معلمى الناشئة ليديريهم على سرعة القراءة . والحقيقة أن معلمى الناشئة لا يستطيعون ذلك ؛ لأن سرعة القراءة أصبحت علمًا قائمًا بذاته فى كثير من الدول المتقدمة ، فهم يبدعون مع الطلاب ببعضه أسطر ويتجهزون بتقنيات معدة لهذا الغرض ، ويتركون للطلاب فرصة ، ثم يمحون الأسطر ، ويزينون عدد الأسطر فى كل مرة ؛ حتى يمكن للطلاب فى النهاية أن يقرعوا الصفحة فى ثوان ، وينقلون من السهل إلى الصعب ، ومن التخصص إلى الكتب الثقافية العامة ، وهكذا وفق نظام لا يستطيعه المدرسون المجهولون فى مدارسهم ؛ لأنهم لا يعرفون هذا النظام أولاً ، ولأنه يدرك بالذرية وحدها .

ويؤلف (الفتن و مذامته في التشر العربي) ويطبعه عام ١٩٤٦ ، ويهدى نسخة لعبد العزيز فهمي ، فيجد الشيخ الذي بلغ الثمانين من عمره ، يبذل جهداً عنيقاً في ترجمة (مدونة جوستينيان) في الفقه الروماني . لم يكتف بالنسخة الفرنسية ، بل رأى أن يشزود باللاتينية حتى يرجع إليها إذا توقف في عبارة ، وكان الربو يصيّبه بنويات متتالية فيقاد جسده الضارى بتهاوى ، ولكنه يعود بعد كل نوبة صلباً وقد اذهن منكباً على العمل الشاق ، وهكذا يقدم لنا التموج الحى والمثل الأعلى للإخلاص في العمل العلمي ، الذى لا يرجو صاحبه من ورائه كسباً مادياً ، فهو قد وهب نفسه للحياة العلمية ، كما وهب أكثر چيله من المثقفين أنفسهم العلم ، أمثال : طه حسين ، والعقاد ، وأحمد أمين وغيرهم ، وهؤلاء كانوا القدوة التى اقتدي بها شوقي ضيف ، فإذا كانااليوم نعجب له ونعجب به ، ونعتبره فريداً في حياتنا المعاصرة ، فقد كانت القدوة أمامه في هؤلاء الأعلام ، الذين يحاول البعض اليوم الانتقام من شأنهم لا لشيء ، ولكن لأننا نتلذذ بمحاولة تحطيم شوامختنا ، كان ذلك سوف يمكننا من احتلال مواقعهم ، وكل ما صنعناه ، أتنا أفقدنا الشباب المثل الأعلى وتركناه حائراً .

ومنحنا عدة صور لوفاء ؛ وفاء الصديق لصديقه ، مثلاً في الدكتور سامي الدهان محقق ديوان أبي فراس ، ووفاء التلميذ لأسانتنته ، وهو يشيد في كل حين بطة حسين ، وعبد العزيز فهمي ، وغيرهما ، ثم وفاء الأساتذة للتلاميذهم ، وهنا يذكر أن ثورة يوليو عندما قامت أعلنت وجود تطهير الإدارة الحكومية وتألفت لجنة للتحقيق فيما تلقته م شكوى « وفوجي صاحبى بخطاب من أستاذه الدكتور عبد الوهاب عزام - عميد الكلية الأسبق ، وكان قد أصبح سفيرًا لمصر في باكستان - وإذا هو يقول في خطابه : إن كنت قد ضفت بشنى في كليةك - وكان اللطف قد تكاثر عنها في الصحف - فإن لك عندي عملاً في السفارة على الرحب والسعة مواناً في انتظار ردك . فرد عليه شاكراً ، وذكر له أن لا علاقة له بكل ما حاقد بالكلية وأنه يؤثربقاء فى كلية مع طلبته ، ولا يبغي بذلك بديلاً . وهى صورة رائعة من صور وفاء الأساتذة للتلاميذهم » .^(١)

(١) ج ٢ من ١٠.

وأعل الدافع الذى دفعه فى كثير من الأحيان إلى الكتابة هو كراهيته للظلم ، فتلك العملات الظالمة التى نالت شوقى بعد وفاته ، من التى دفعته إلى الكتابة عن شوقى مطلقاً شعره الغنائى والتمثيلي ، موضحاً مكانته الرفيعة فى الشعر العربى الحديث ونشره عام ١٩٥٣م ، وعلى الرغم من اختلافه مع كل من طه حسين والعقاد فى آرائهم حول شوقى ، فإن طه حسين والعقاد بالذات هما اللذان رشحا كتابه لجائزة الدولة التشجيعية ، ولم تأخذهما العزة بالإثم ، فحمد لهما هذا الموقف وهكذا الشأن عندما توفى العقاد ، وكثير الجدل حول قيمته الأدبية والفكرية وأى شئ يبقى منه للتاريخ ، أحس أن الرجل لم ينصف ، ومن هنا كان كتابه عنه وما فيه من ورد على النقد الظالم ، ومحاولات الانصاف للرجل ، وإذا كان هذا كله رد فعل لواقف معينة ، فالحقيقة أن شوقى ضيف حين يذكر لا يذكر بكتابه عن العقاد أو غيره ، بقدر ما يذكر بهذه الخريطة التى وضعها للتطور الأدبى منذ العصر الجاهلى حتى العصر الحديث ، وكانتما عاد ما أفاده من كتاب الأغانى فى بداية حياته ، يصبح بعد أن نضج ، ويوجهه لوضع معالم هذا التاريخ الأ资料ي .

لم يقم أحد من قبل بهذا العمل العلمى الضخم ، الذى صدر فى ثمانى مجلدات ^(١) : (العصر الجاهلى - العصر الإسلامي - التطور والتجديد فى الشعر الأموى - العصر العباسى الأول - العصر العباسى الثانى - عصر الدول والإمارات فى الجزيرة وال العراق - عصر الدول والإمارات فى مصر والشام - الأدب العربى المعاصر فى مصر) ، وهو جهد لجان علمية تستغرق أجيالاً ، وليس جهد فرد . وتوقف عند الأدب العربى المعاصر فى مصر ، وإن كان قد أصدر كتابه (دراسات فى الشعر العربى المعاصر) ، ولكنه رأى أن الشعر العربى الحديث فى بيئاته المختلفة ، يحتاج إلى زمن وجهد لا يقوى عليه إلا الشباب الذين يمكنهم أن يسيروا على الدرب الذى عبده لهم ، ومن هنا بدأت اهتماماته أخيراً تتجه إلى أمر يشغل بالنا جميعاً ، وهو مشكلة الضعف البين فى اللغة العربية ، وعلى الأخض فيما يتصل بال نحو العربى ومشكلات تعلمها ، فاتجه إلى دراسة المدارس النحوية أولاً ، ثم ألف كتابه (تجديد النحو) ، وأخيراً أصدر (تيسير النحو قدیماً وحديثاً مع نهج تجديده) وألفى فيه كثيراً من أبواب النحو التى اختلف فيها

(١) صدرت أجزاء أخرى بعد ذلك .

القدماء ، وذكر مصادره في الحواشى ، ليكون كتابه حجة على من يدعى أن المشكلة معاصرة ، ترجع إلى أنها لا تأخذ طلابنا بالشدة في لغتهم ، ولا ترجع في بعض أسبابها إلى المادة العلمية نفسها :

يبدأ مرحلة ثالثة في حياة شوقي ضيف ، فقد بدأ ينفتح على العالم ويرحل في كل اتجاه ، وهو الذي عكف على مكتبه وكابته وطلبته طول هذا الزمن ، كان ذلك عام ١٩٥٦ حين وجه اتحاد الكتاب في رومانيا وروسيا دعوة إلى اتحاد كتاب مصر كي يرسل وفداً لزيارة البلدين ، ووقع الاختيار على خمسة كان هو واحداً منهم ، ولعل هذه كانت البداية ، لأنه سوف يمكث بعدها خمس سنوات في مصر ، قبل أن يبدأ السفر بطريقه شبه دوري على مدى عشرين عاماً .

أما الرحلة الأولى إلى روما ، فقد استغرق وصفها صفحات وصفحات ، فهو يتحدث عن الفاتيكان وقصره ، ويصفه وصف أديب تلقط عينه كل جزئية ، وبين روما فيصف مبانيها ، وشوارعها ، ونافوراتها المشهورة ، ويرتدي به الزمان إلى أيام مجدها وعزها ، ويعود به الحاضر إلى واقعها . ثم يسافر إلى رومانيا ، فيتوقف عند بوخارست ، ويلفت نظره ما أعده المسؤولون هناك للأدباء والمفكرين من أسباب الراحة ممثلاً في بيوت خاصة بهم ، وتستقبلهم أثناء تأليفهم لأعمالهم ، وتهب لهم الجو المريح والهدوء المطلوب والتفرغ المرغوب ، ثم هي تكافئهم بعد ذلك مكافآت سخية على ما ينجذبون من أعمال ، وكذلك يوازن في الواقع بين الأديب هناك والأديب في الوطن العربي الذي تسحقه الوظيفة ومطالب الحياة ويلهث وراء مشكلاته اليومية ، ثم يعود آخر النهار كي يكتب ، فهو فعلاً شمعة تحترق واحتراقها يكن سريعاً ، لأننا لم نعرف كيف تحافظ عليها فنونقدتها وقت الحاجة . ويعجبه اتجاههم العملي ، فهم قد قضاوا على الأمية هناك بعد أن أنسهم في هذا جميع أفراد الشعب ، فقد فرضوا على كل قارئ أن يعلم واحداً ، وعلى كل مؤسسة أن تكافح الأمية بين العاملين فيها ، ولو صنعنا هذا في وطننا العربي لقضينا على الأمية نحن أيضاً ، ولكننا لا نريد أو لا نود أن نتعجب أنفسنا في التنفيذ ، ولتبق الأمية تشكل ستين في المائة حتى تتولاها الأجيال الآتية .

ثم سافروا بعد ذلك إلى موسكو ، ويتحدث عن كل شيء هناك : الحياة العلمية حيث يتعلم التلميذ في المرحلة الثانوية كيف يسوق السيارة ، ويتعرف على أجزائها حتى يصلح أعطالها ، ويدرس أجزاء الراديو والتليفزيون ، حتى إذا انتهى من هذه المرحلة كانت دراسته عملية مبنية على أساس نظري . ويتحدث عن مزارع الاتحاد السوفيتي وأنواعها : الحكومية منها والتعاونية ، وكأنه يريد أن ينقل إلى القارئ صورة عما رأه تغفه عن المشاهدة ، وتسعفه في ذلك عينه اللاقطة التي عرقناها في وصفه للطبيعة أيام طفولته .

« وزار صاحبى ورفاقه الكرملين ، وأمامه ساحة واسعة كبيرة وحوله سور به أضحة لزعماء روسيا ، وعلى ظاهره من الخارج شواهد بأسماء بعض الشخصيات المدفونة بجواره . وبيناء الكرملين مقسم ثلاثة أقسام : قسم لتحف ، وقسم لمجلس السوفيفيت الأعلى واللجنة المركزية ، وقسم للواتر الحكومة ، وقد بدعا بناءه في القرن الحادى عشر ، وظلوا يضيفون إليه ملاحق جديدة حتى القرن الخامس عشر الميلادى ، وعلى السور أبراج ذات رؤوس تشبه المسالات بنيت قديماً للحراسة ، والكرملين مدخلان كبيران أحدهما للمارة والثانى للسيارات ، وقد بخل صاحبى مع رفاقه المتحف ، وهو مكون من دورين : أعلى وأسفل ، وصعد إلى الدور الأعلى على سلم عريض من الرخام ، ورأى فى أعلى مرأتين كبيرتين مزيتين بالتماثيل ، كما رأى ساعة كبيرة على مقعد مزخرف ، وأخذ يشاهد المعروضات فى الدور ، وكان أول ما شاهده دروع الفرسان النحاسية وغير النحاسية ورأى خوذة - خالها تركية - كتب فى أعلىها : لا إله إلا الله محمد رسول الله وكتبت وسطها آية الكرسي فى شكل دائرى ، وشاهد كثيراً من أسلحة القرون الماضية سيفاً ، وغير سيف محلة مقابلتها بالجواهر ، كما شاهد قسماً خاصاً بالساعات ، وقسماً خاصاً بشباب رجال الكنائس المزركشة ، والكتب المقدسة مرصعة بالجواهر واللآلئ ، ومعها صور للعذراء ولبعض القديسين ، ويزخر هذا الدور الطوى بثوان لا حصر لها ذهبية وفضية ، وبعضاً مهدى من الدول إلى القياصرة ، حملها إليهم سفراوها ، وتمتد التواريخ على التحف منذ القرن الخامس عشر ، وكأنه لم يضع شيئاً كان فى قصور القياصرة أثناء الثورة الروسية الدامية . وتجسم فى الأواني صور وتماثيل كثيرة ، والزجاجى منها والخزفى محلى بالذهب

والفضة ، والأطباق الصينية محللة بزركشة بيضاء ، وكذلك الصينيات ، والكنوس الكبيرة والصغيرة ، وتكثر الشمعدانات والتماثيل المتخذة من سن الفيل للأسد والصقور ، وفي جانب من هذا النور أواني بطرس الأكبر الذهبية ،^(١) .

أردت بهذا النص المطول الذي يصور الدور العلوي من قصر الكرملين ، أن أعرض للقارئ كيف يصف شوقي ضيف وكيف يعرض مشاهده ، كأنه أمين المتحف يراجع سجلاته ، فلا يترك صغيرة ولا كبيرة ، وينتقل بعد ذلك إلى بقية أجزاء القصر ، ثم إلى بقية الأماكن التي زارها هنا وهناك ، ومن هنا يتضح مدى أهمية الوصف عند شوقي ضيف ، ليس فقط وصف المتاحف العديدة التي كان يهتم بها في كل مكان زاره ، ولكن أيضاً وصف المدن ، لا من حيث هي أبنية وشوارع ومعالم ومتاحف ومكتبات وجامعات وحسب ، ولكن أيضاً من حيث هي مجتمعات لها عادات وتقاليد ، ويشير لهم طموحاتهم ، وعواطفهم ، وأمالهم ، وألامهم ، ومثلهم العليا في الحياة ، وينتقل صوراً من لوههم وجدهم ، حتى لا نعود محتاجين إلى لوحات توضيحية .

وفي طريق عودته إلى مصر تقوم حرب ١٩٥٦ فيتوقف في بيروت مدة حتى ينجلي الموقف وتفتح المطارات ، ولكنه لا يضيع هذه الفترة سدى ، ثم هو منفعل بهذه الحرب القذرة ، التي تأمرت فيها ثلات دول على مصر ، كائناً هو تحالف دولي من أجل كسر شوكة مصر ، يذكرنا بالتحالف الدولي الأول والثاني والثالث ، أمام نابليون في القرن الماضي ، إنها الدول الكبرى التي لا تريد لغيرها أن يكبر ، ولكن الدول لها أعمار كما يقول ابن خلدون في مقدمته وهكذا تتحول دول عظمى بعد هذه الحرب إلى دول من الدرجة الثانية ، لا تستطيع الحفاظ على مستعمراتها فتققدوا وأحدة إثر أخرى ، وهنا يكتب شوقي ضيف مقاله (استالينجراد الثانية) يوازن فيها بين بور سعيد في صمودها ، أمام العدوان واستالينجراد في صمودها أمام هتلر ، كلتا المدينتين قاومت وتحملت كثيراً من الدمار ، ولكنها افتتا أمنتها في النهاية .

وهنا نحس كأن شوقي ضيف قد قال أعلم ما يود أن يقول ، ولذلك يجري مسرعاً

(١) ج ٢ ص ٢٠ .

عجلًا في مذكراته ، ويمر على أحداث يعبرها ، كأنه لا يريد أن يتذكرها أو يذكرها ، فقد قال أهم ما عنده من وجهة نظره ، ولم يبق لديه إلا بعض معالم على الطريق . ولذلك يذكر اختيار المجمع العلمي العراقي له عضواً مراسلاً عام تسعة وخمسين وتسعمائة وألف ، واختياره ليشترك في امتحان ليسانس الآداب بفرع الخرطوم ، وزيارة لممشق في مهرجان الشعر الثاني الذي أقامه المجلس الأعلى لرعاية الآداب والفنون ، ودعوه عام واحد وستين وتسعمائة وألف لقاء محاضرة بالمركز الثقافي بحلب ، ثم دعوته أستاذًا زائراً مدة أسبوعين بجامعة بيروت العربية ، وكأنه يقف قفزاً وإن كان قد توقف بطبيعة الحال أمام قلعة حلب وتذكر سيف الدولة وشاعره المتني ، كما توقف أمام الطبيعة الخلابة بلبنان .

. وتوقف وقفة قصيرة أمام سنوات قضتها في عمان بالأردن معاً من جامعة القاهرة ، وإن كانت هذه الوقفات الصغيرة أمام الأمور الحياتية قد حل محلها وقفات طويلة أمام الحياة الفكرية ، فdrose هناك أتاحت له فرصة دراسة الحياة الثقافية أيام الحروب الصليبية وتبين له خطأ المستشرقين ومن تابعهم من الباحثين العرب ، حين عدوا هذه الفترة (القرنين السابع والثامن الهجريين على وجه الخصوص) فترة ركود وضعف ، فقد رأى أن الأمة وهي تشحذ قواها جميعها ، و تستطيع أن تقضي على التيار الذين اندفعوا كالسيل لم يقف في طريقهم شئ سوى (عين جالوت) التي عبرت عن وحدة الجبهة في مصر والشام ، والتي استطاعت استعادة القدس من أيدي الصليبيين ، ثم القضاء عليهم نهائياً وإلقاءهم في البحر ليغدووا من حيث أتوا ، لا يمكن أن تكون أمة لاهية واهنة لا حريراً ولا فكريأً ، فحاول أن يرد إلى العصر اعتباره . وما زالت زياراته تترى فهو في بغداد مدة أسبوعين بدعوة من جامعة بغداد ، ثم هو في إستانبول بعد ذلك مع أسرته سائحين ، وإذا كانت بغداد سوف تأخذ منه الكثير بعد ذلك وهو يدرسها ، فقد توقف عند إنطاكية في سياحة ، وتذكر مدائن أبي تمام ل محمد بن يوسف الثاني وجند البواسل ، وهم ينازلون جند بيرنطة في الأنضول شتاء ، والثوج المتراء على الجبال وطرقاتها الضيقه ، وارتفاعها الشاهق ، وكان يتمتصور وهو يقوم بتدريس تلك المدائن لطلابه أن أبا تمام إنما كان يبالغ ، حتى إذا رأها رأى العين ، يتيقن أن أبا تمام كان يصف بطولة حقيقة .

وما يزال شوقى هشيف يمزج بين الأحداث السياسية وسيرة حياته بلحدانها الخاصة فيتوقف وقفة قصيرة عند حرب ١٩٦٧ ، كأنما يريد أن يقول أمرين : الأول أننا نعيش في عصر أثرت فيه السياسة في كل جوانب الحياة الثقافية والاقتصادية والاجتماعية ، فلا يكاد الإنسان يخلو نفسه حتى يردد حدث سياسي ، وكأننا تتنفس السياسة مع الهواء كل حين ، والأمر الثاني أننا اعتننا بهذه الحياة حتى أصبحت وهي تشفلنا لا تشفل إلا مساحة محدودة من فكرنا سواء أكانت أخباراً سارة أو مؤلمة ، فقد تكسرت النصال على النصال » من طول ما تجرعنا وعانيتنا . ولكن النكسة لم تمر دون أن يستغلها كما عودنا أن يختزن كل موقف ، وأن يحوله إلى دراسة جادة ، فقد أصدر كتابه « البطولة في الشعر العربي » محاولاً قدر طاقتة وجهده أن يمسمى أثر الانهزام ، وأن يقول لنا : إن حياة الأمم مليئة بالانتصارات ، وحياة الأمة العربية على وجه الخصوص حياة يحتل فيها النصر صفحات مشرقة ، أما الهزائم فهي نقاط لا تلوك الصفحات ، وإن الإنسان يسقط ويقوم ولا ينهزم إلا إذا هزمه إرادته .

وأحيل إلى التقاعد في صيف عام ١٩٧٠ ، ولكنه لم يتقاعد ، فالتقاعد من القعود ، وهو لم يتعد أيّداً ، لقد بدأ أخطر مشروع له منذ عشر سنوات وسيبقى مشغولاً به عشر سنوات أخرى ، إنه تاريخ الأدب العربي في العصر الجاهلي ، في العصر الإسلامي ، التطور والتجديد في الشعر الأموي ، في العصر العباسى الأول ، في العصر العباسى الثانى ، عصر الدول الإمارات ج ١ ، عصر الدول والإمارات ج ٢ ، الأدب العربي المعاصر في مصر ، دراسات في الشعر العربي المعاصر ، إنها موسوعة لا ينهض بها فرد عادة ، وإنما تنهض بها مؤسسة تبقى أجيالاً تصدرها جزءاً بعد جزء ، ولكنه نهض بهذا العمل الكبير وحده ، منذ فتوته إلى شيخوخته ، وكانت أحد عمالقةتراثنا الذين وهبوا حياتهم لعمل علمي كبير ، كانه الطبرى يكتب « التاريخ » أو « التفسير » ، أو كانه الجاحظ يكتب موسوعته « الحيوان » ، أو كانه البخارى أو مسلم يكتب « صحيحه » ، أو كانه الأمبهانى يكتب « الأغانى » ، أو كانه الخطيب البغدادى يكتب « تاريخ بغداد » ، أو كانه ابن منظور يكتب « لسان العرب » ، أو كانه القلقشندى يكتب « صبح الأعشى » ، أو كانه ابن حزم يكتب « المثلى » .

ويذهب إلى جامعة الكويت متعاقداً فتتصاعد دائرة تأثيره ، ويقوم بالتدريس ، ويشرف على طلاب الدراسات العليا ، كما أشرف من قبل ومن بعد على طلاب جامعة القاهرة والجامعة الأردنية ، ويكون مدرسة علمية تمتد من الشرق إلى المغرب ، ومن الشمال إلى الجنوب ، ولا يبالغ إذا قلت إن جيل الأمساكة الآن بالجامعات العربية ، تتلمذ على يديه بطريقة مباشرة ، أو على كتبه - أي - بطريقة غير مباشرة ، فكل أقسام اللغة العربية مدینة له ولعلمه .

ولقد بدأ يحصد ما زرع ، وكان أول الفيث اختياره عضواً بمجمع اللغة العربية عام سبعين وسبعين وتسعين وألف ، وهو في المجمع يحاول منذ اختياره أن يقوم بما سوف تذكره له الأجيال القادمة من محاولات مستمرة ، لتسخير الفحو العربي ، وهو شغله الشاغل الآن بعد أن فرغ من تاريخ الأدب ، ورأى تعلم الشباب للغة العربية ، فرأى أن تيسير النحو وسيلة إلى رأب الصدع وما زال يحاول مرة ومرة ومرات .

وفي سبتمبر عام تسعين وسبعين قرر المجلس الأعلى للفنون والأداب منحه جائزة الدولة التقديرية للأدب ، وجاء في حيثيات القرار (إنه يعد نمطاً فريداً في جيله ، وأماماً في تخصصه ، وهو بحق ظاهرة ثقافية ، ودلالة أصلية على قدرة مصر الفكرية ، وقد أصبح بحق مفخرة كبيرة لمصر في شتى الأروقة العلمية ، والجامعيات العربية وغير العربية) .

وفي يناير عام ثلاثة وثمانين ، نشرت الصحف نبأ حصوله على جائزة الملك فيصل العالمية للأدب العربي ، « تقديرأً لأعماله في أدب القرنين الثاني والثالث الهجريين ، بالإضافة إلى دراساته في تاريخ العربي قديمة في مشرقه ومغاربه ، وما كان منها في الدراسات القرآنية والنحوية والبلاغية ، التي تعمق الدراسات الأدبية ، مع تميز أعماله بالنظرية الشاملة للأدب العربي شره وشعره ، على طول عصوره ، وتعدد فنونه واختلاف بقاعه » .

ويرد هو على هذا التقدير قائلاً : إن هذه الجائزة العالمية العظيمة ستدفع دفعاً إلى منافسه حميداً في الأقطار العربية بين المتعاقدين في الدراسات الإسلامية ، ودراسات الأدب العربي ، والدراسات العلمية ، للفوز بقصب السبق ، مما يعود بكثير بالنفع على نهضتنا العربية المعاصرة :

وها نحن نقترب من النهاية والبداية تتمعاً لشهد البداية ، كانت البداية بمحفظات الدين الحنيف ، والقرآن الكريم والكتاب والمعهد الديني ، وها نحن اليوم مع شوقي ضيف في رحلة الحج ، يخلص من ضوضاء الحياة ومشاغلها المادية ، لينعم فترة بالحياة الروحية ومتاعها الهني الذي لا يدانيه متاع .. واكتحلت عيناه بقبر الرسول ، وسار في طرقات عبرها الرسول من قبل ، وصور التاريخ لا تبرح خياله ، كأنما ارتد إليه الماضي بعبيقه يحيا في الواقع مرة أخرى .. ثم سار إلى مكة المكرمة ، وطاف حول الكعبة ، وأتم شعائر الحج ، فغسل قلبه وملا روحه بقوة ربانية ، وأحس كائناً خلق من جديد خلقاً آخر .

هكذا توقف القلم بعد مسيرة طويلة طولها خمسة وسبعين عاماً ، تمثل القرن العشرين فكراً وثقافة وسياسة ، وتربيبة ، وتجارب من خلال رحلة فرد متميز ، يعرضها عرضاً أدبياً ، يتوقف ويتأمل حيناً ، ويسرع الحظى حيناً آخر ، ويستخلص العبرة في الخطى كل الأحيان ، يمزج بين التركيب والتحليل في البناء ، ولكن لا يعرض الصورة بكل جوانبها ، فقد ترك فراغاً لا تدرك له سبباً ، لمسة حيناً لسماً خفيفاً ، حين تحدث عن الوفاء ، ولكن هذا لم يشبع نهمنا ، فشوقي ضيف المفكر واضح تمام الوضوح ، ولكن شوقي ضيف الإنسان في بيته ، مع أولاده ، في عاداته وتقاليده ، في عواطفه بكل مدلول الكلمة ، كل هذا أسدل عليه ستوراً كثيفة ، ومحجبة عنا ، لكنه يراه نوعاً من الشخصوية ، قد لا تفهيد الناس ، أو نوعاً من الضعف البشري لا يليق بالكتاب ، أو هو نتيجة النساء الريفية التي تعتبر الحديث عن الأسرة أمراً لا يليق ، ولكن كل هذا لا يقنع القارئ ، فلمسة حنان هنا ، ولمسة أبوبة هناك ، وأسلوب حياة في طرق التهيئة للكتابة ، أو في الترويج عن النفس من خلال الحياة اليومية ، كانت كفيلة بأن تزيد السيرة إمداداً وخصوصية وتشويقاً .

أ.د. ماهر حسن فهمي

عميد كلية الإنسانيات

جامعة قطر

قداسة البابا شنودة الثالث

بسم الله الواحد الذي نعبد جميعاً ، أحبيكم جميعاً إخوتي ، وأحبي ضيفنا الكبير الأستاذ الدكتور شوقى ضيف .

أيها الأخوة الحضور ، في الحقيقة أنا أحسب نفسي سعيداً حينما أتحدث عن هذا الشيخ الوقور والأستاذ الجليل الدكتور شوقى ضيف ، فلما أحبي هذا الشيخ الذي يكبرنى بثلاثة عشر عاماً من الزمان ، وأحبي هذا الأستاذ الذى تخرج فى كلية الآداب قبل تخرجي فيها باثنتي عشر عاماً ، والذى عين مدرساً فى هذه الكلية نفسها قبل أن التحق طالباً بقسم التاريخ فيها ؛ لذلك اعتبره من أساتذتى فى الكلية .

وأمام شيخوخته ووقاره أتذكّر قول أحد الآباء : إذا جلست فى وسط الشيوخ فكن طموحاً ، وإن سألك عن شيء فقل لا أعرف .

أيها الأحباء ، نحن فى هذه الاحتفالية لا نكرمُ هذا الرجل العظيم وإنما نحن نكرم شخصيته ، ويكرمه إنتاجه وإنجازاته وجهده الطويل فى المعرفة ، ونحن بتكريمة لا نستطيع أن نضيف إليه شيئاً ، فالكتاب المعلوه ما لا يمكن لقطرة توضع فيه أن تضيف إليه شيئاً ، فنحن بالمثل لا نستطيع بتكريمنا هذا أن نضيف للدكتور شوقى ضيف شيئاً ، بل بالعكس نحن نقف أمامه وأمام علمه الغزير فى خشوع ؛ لهذا الرجل مجالات عديدة فى اللغة والأدب ، قد تبحر فيها ، وجمع اللغة والأدب فى بحره ، وإننا نقول عنه فى هذا المجال كما قال الشاعر :

ليس على الله بمسْتَكْرِ
أن يجْمَعَ العالمَ في واحدٍ

فالذى يقرأ لشوقى ضيف لا يحتاج إلى قراءات أخرى فى الموضوعات التى طرقها هذا الأستاذ الكبير .

ولأعماله العظيمة كرمه الدولة فصار أستاذًا ورئيسًا لقسم الأدب العربى فى كلية الآداب فى سنة ١٩٦٨ م ، وحصل على جائزة الدولة التقديرية فى الأدب العربى سنة ١٩٧٩ م وصار عضوًا فى مجمع اللغة العربية سنة ١٩٧٦ م ، فاميناً عاماً سنة ١٩٨٩ م فنائباً لرئيس المجمع سنة ١٩٩٤ م فرئيساً للمجمع سنة ١٩٩٦ م ، وصار عضواً فى المجلس القومى للثقافة والفنون والأدب ، وعضوًا فى المجمع العلمى المصرى ، وعضوًا فى الجمعية الجغرافية ، ونال درع جامعة القاهرة ، ودرع المجلس الأعلى للثقافة ، كما نال درعاً ثالثاً هو درع الثقافة الجماهيرية .

كل هذا من تكريم الدولة له ، وهذا التكريم - على كثرته واتساعه - تكريم محلى ، فهل كرم هذا الرجل العلامة عالمياً ؟ نعم ، لقد كرمته البلاد العربية والبلاد الأجنبية على حد سواء ، فقد كرمته إنجلترا وأمريكا والصين ؛ فقد ورد اسمه فى دائرة معارف الأدب العربى فى لندن وفي نيويورك ، وبعض الجامعات الأمريكية تقتني كتبه ، وكتب عنه كثير من أدباء الغرب ، كما أن كتبه عن الأدب المعاصر ترجمت إلى اللغات الأجنبية المختلفة ، فكتابه (عالمية الإسلام) ترجم إلى اللغة الفرنسية واللغة الإنجليزية ، وأخيراً إلى اللغة الصينية ، فهو له شهرة واسعة فى البلاد الأجنبية ، أما فى الدول العربية فهو أشهر من نار على علم ، فقد اختير رئيساً لاتحاد المجامع اللغوية العربية ، وألقى كثيراً من المحاضرات فى جامعات بيروت وبغداد والرياض ، واشترك فى تأسيس جامعة الأردن وجامعة الكويت فعين (عضو شرف) فى مجمع اللغة العربية بالأردن ، ونال درع جامعة الأردن ، وعين (عضو شرف) فى المجمع العلمي العراقي . كما أنه نال من السعودية جائزة الملك فيصل العالمية فى الأدب .

وفي إيران ترجم كتابه (فى الأدب والنقد) إلى اللغة الفارسية (الإيرانية) ، وقدمت باحثة إلى جامعة طهران رسالة عن آرائه النقدية فى الأدب ، ونالت عليها درجة الامتياز .

ولا غرابة فى أن يكرم هذا الرجل كل هذا التكريم ، فهو ذو كفاءات أدبية متعددة :

فهو مؤلف أصدر أكثر من خمسين كتاباً ، كل كتاب منها يعد مرجعًا علمياً مهمًا
كانت تفتقد مكتباتنا العربية .

وهو مؤرخ لأدب العربي في كل عصوره ، من العصر الجاهلي إلى العصر
الحديث ، وأرخ لجمع اللغة العربية في خمسين عاماً ، وأرخ للكثير من الأدباء الذين
كتبوا باللغة العربية نثراً وشعرًا .

وهو أستاذ جامعي أشرف على كثير من الرسائلات العلمية في الأدب والنقد ، وله
تلاميذ كثيرون صاروا أساتذة في الجامعة .

وهو محقق للنصوص القديمة ، فقد حرق كتاب (السبعة في القراءات
لابن مجاهد) ، كما حرق كتاب (الرد على النحاة لابن مضاء القرطبي) ، كما حرق
كتاب (المغرب في حل المغرب لابن سعيد المغربي) ، وحقق أيضاً كتاب (الدر في
اختصار المغارى والسير لابن عبد البر) .

وهو ناقد فله بحوث تحليلية لأدباء مشهورين ، مثل : ابن زيدون ، ومحمود سامي
البارودى ، وأحمد شوقي ، وعباس محمود العقاد .

وهو نحوى من رجال النحو المعاصرين ، فله كتب في المدارس النحوية ، وتجديد
النحو ، وتبسيير النحو التعليمي قديماً وحديثاً ، بالإضافة إلى الكتاب الشهير الذى
حققه بعنوان : (الرد على النحاة لابن مضاء القرطبي) وهو أيضاً مفسر للقرآن
الكريم الذى حفظه فى السنة العاشرة من عمره ، وله دراسات قرآنية وله كتاب فى
تفسير القرآن الكريم بعنوان : (الوجيز فى تفسير القرآن الكريم) .

فلهذا الرجل كفاءات متعددة ، نكرمه على كل واحدة منها فهو كمؤلف مرموق أعيد
طبع كتبه أكثر من عشر مرات ، مثل موسوعته فى تاريخ الأدب العربى التى
طبعت فى عشرة مجلدات ، ويکفى أن (العصر الجاهلى) منها طبع حوالى اثنين
وعشرين طبعة ، كما طبع (العصر الإسلامي) منها حوالى خمس عشرة طبعة ، وهذا
يعنى أن له قراء معجبين به يقبلون على كتبه فيقرؤونها ويستقينون منها ، الأمر الذى
أدى إلى تقاد هذه الكتب وإعادة طبعها عدة مرات لإفادة محبي الأدب وقراءته بأسلوب

الدكتور شوقي ضيف الذى طرق كل فنون اللغة ؛ فلم يترك ميداناً إلا طرقه ، فقد طرق الأدب والنحو والبلاغة والنقد والقرآنات ، ولم يقتصر على علم واحد كبعض المتخصصين ، فقد كتب عن القديم والحديث ، وكتب عن التطور والتجديد ، وكما كتب عن الأدب فى مصر كتب عنه فى الشام ، والجزيرة العربية ، والعراق ، وإيران ، والأندلس ، ولibia ، وصقلية ، والجزائر ، والمغرب الأقصى ، وموريتانيا ، والسودان .

وكما كتب عن الشعر كتب عن النثر ؛ فقد كتب عن أدب الرحلات ، والمقامات ، وبعض الصفات ، مثل : الوفاء ، والبطولة ، والحب العذري ، والسيرة الذاتية ، ومن أظرف ما كتبه كتابه عن الفكاهة فى مصر بعنوان (الشعر والفكاهة فى مصر) وكتابه الآخر بعنوان : (الفكاهة فى مصر) فقد كتب عن الفكاهة فى مصر قديماً كما فى كتاب (الفاشوش فى أحكام قراقوش) ، وقرأقوش هذا كان من القضاة المشهورين فى مصر ، وكان السلطان العظيم صلاح الدين الأيوبي يحبه ويقربه إليه ، وكان ينبوه على مصر فى حالة عدم وجوده ، فحسده الحساد وحقد عليه الحاقدون ، وفكروا فيما ينبغي أن يفعلوه حسداً منهم على مكانته العظيمة عند صلاح الدين ، فاخرجوا ضده كتاب : (الفاشوش فى أحكام قراقوش) ؛ ولذلك يجب علينا عندما نضحك على نادرة من نوادر هذا الرجل أن نتذكر أنه كان رجلاً نكياً بالغ الذكاء ، وكان قاضياً عادلاً ، ولكن الفكاهة تغلب ؛ فالناس تتسمى عدل الرجل وذكاءه وتذكر الفكاهات التي قيلت عنه . وكما كتب الأستاذ الدكتور شوقي ضيف عن هذا الرجل كتب أيضاً عن عبد الله الت汴يم ، وعن الشيخ البشرى ، وكان هو الآخر رجلاً فكهاً ، وكتب عن حافظ إبراهيم ، فقد جمع كثيراً من الفكاهات فى كتاب (الفكاهة فى مصر) ، وليس أدرى : هل كتب فيه أيضاً عن فكاهات أحمد شوقي وحفنى ناصف ؟ لعلى أنذكر من فكاهات شوقي ما أرسله إلى الخليفة العثمانى عندما زار تركيا ورأى جسر البسفور فى حالة رديئة ، فراسل إليه يقول :

أُمِرْ عَلَى الصِّرَاطِ وَلَا عَلَيْهِ
وَتَمْضِيَ الْفَارُّ لَا تَأْوِي إِلَيْهِ
سَوْيَ مَرْ النَّفْطِيْمِ بِسَاعِدِيْهِ

أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ رَأَيْتَ جِسْرًا
لَهُ خَبَبٌ بِجُوْعِ السُّؤْسِ فِيهِ
وَلَا يَنْكُلُّ الْمُشَارِفِ بِهِ

وأقصد بهذه الآبيات أن أبين أن الشاعر العظيم أحمد شوقي كما كان جاداً في كثير من الأمور كانت له فكاهاته أيضاً ، وقد كانت لحفي ناصف فكاهات معروفة أيضاً .

أيها الإخوة ، لا شك أن الوقت لا يتسع لأن أتحدث عن الاستاذ الدكتور شوقي ضيف ، فما أتي به كثير كثير جداً ، ونحن سعداء بهذا الكنز العظيم في اللغة والأدب ، ونحيي هذا الاستاذ العظيم على كل ما تركه من كنوز المعرفة الأدبية واللغوية والقرآنية ، ونحن نهنىء ونهنى دار المعرف ببرنامة الاستاذ رجب البنا على نشرها إنتاج هذا العالم الكبير ، وأرجو له وافر الصحة والعافية ، وأدعوا الله أن يمد لنا في عمره وأشكركم على حسن إنصاتكم . لكم مني كل حب واحترام .

قداسة البابا شنودة الثالث

بابا الإسكندرية وبطريرك الكرازة المرقسية

٤ - شوقي ضيف .. والأخلاق الموسيقية

رجاء النقاش

(١)

أستاذنا الجليل شوقي ضيف رئيس المجمع اللغوي الآن - نال « جائزة مبارك » هذا العام . وهو يستحق هذه الجائزة وكل جائزة أخرى ، فهو رجل نادر بين الرجال في علمه وأخلاقه ونقائه سيرته الفكرية والشخصية . وإذا أردنا أن نبحث لأنفسنا . وأبنائنا عن أمثلة علينا نبيلاً فإن شوقي ضيف هو واحد من هذه الأمثلة الكريمة ، التي نستطيع أن نتعلم منها الكثير ، ونستطيع أن نتعلم منها كل شيء .

قضيتُ أربع سنوات تمتد من سنة ١٩٥٢ إلى سنة ١٩٥٦ - وأنا تلميذ لهذا الأستاذ الجليل في كلية الأدب بجامعة القاهرة . وكانت محاضراته دائمًا أقرب ما تكون إلى أجواء العبادة في مسجد أو كنيسة ، فصوته هادئ ، ونظراته متواضعة ، وتفكيره في متنهى الصفاء ، وعلمه غزير ، وسماحة صدره بالنسبة للحوار مع تلاميذه بغير حدود . وفي محاضراته كان يشع بين الجميع جوًّا من التقوى والورع والموسيقى التي لا تسمعها بالأذن وإنما تسمعها القلوب . فكان في ذلك كله تجسيداً حيًّا لما يقال إن للعلم محارباً مثل محراب الأنبياء الصالحين والعاديين المخلصين .

وبعد الانتهاء من الدراسة الجامعيةتابعت شوقي ضيف في كل دراساته ، فلم أترك كتاباً له إلا وسارت إلى الحصول عليه وقرأته ، حتى أصبح له في مكتبتي مكان عزيز خاص به ، فهو المرجع الشامل الأساسي لكل من يهتمون بتاريخ الأدب العربي منذ أقدم العصور حتى العصر الحديث ، خاصة فيما يتصل بالشعر والشعراء . ولا يوجد باحث في الأدب العربي أو مؤرخ له ، أو قارئ يحب أن يعرف في وضوح

ويقة وسهولة ما يتصل بهذا الأدب في عصوره المختلفة يمكنه أن يستغنى عن موسوعة شوقي ضيف في هذا المجال . والجامعات العربية في كل مكان تعتمد على هذه الموسوعة الكبرى التي لا أغامر بشئ عندما أقول : « إنها موسوعة لا مثيل لها في شمولها ودقتها وما فيها من فيض في العلم والتحليل » ، وليس الجامعات العربية وحدها هي التي تعتمد على هذه الموسوعة النادرة ، بل إن الباحثين الأجانب من المهتمين بدراسة الأدب العربي يعتمدون عليها كل الاعتماد ، ويحترمونها إلى أبعد الحدود .

ومن هنا جاء نجاح هذه الموسوعة الفريدة بجزائتها العديدة فتم طبعها عشرات المرات . وما زالت تطبع إلى اليوم بانتظام ، وتلقى من النجاح الكبير والإقبال عليها ما تستحقه ، حتى في الأوقات التي كانت فيها سوق القراءة بعيدة عن الرواج ، فقد أصبحت موسوعة شوقي ضيف من الضرورات الثقافية . وكتابات شوقي ضيف هي من الضرورات التي لا يستغنى عنها باحث في الأدب أو طالب من طلاب التنوّق والمعرفة بتاريخه وعصوره المختلفة .

وفي اعتقادى أن العلم وحده لم يكن كافياً لأن يتيح لشوقي ضيف غزارة الإنتاج وإنشاء موسوعته الكبرى في تاريخ الأدب العربي منذ أقدم العصور إلى الآن فبعض العلماء الذين يملكون من العلم أعظمهم قد يبذلون جهودهم في المنافسات والصراعات والجري مثل الفراشات وراء الأضواء . وهنا يمكن أن يضيع علم العلماء فيما هو خارج العلم نفسه من إغراءات وامتيازات ومكاسب ولكن شوقي ضيف كان منذ ظهوره على الساحة العلمية يتميز بقوة الشخصية الأخلاقية . وكان الله قد أكرمه منذ البداية بفضيلة الفضائل جميعها وهي التواضع فكان دائمًا مخلصاً للعلم ، عفيف اللسان واليد والعقل والقلب والقلم . وكان يعكف على علمه دون أن يطلب شيئاً من أحد ، ودون أن يلتفت إلى الإغراءات ، أو يسعى إلى المكاسب ، أو يندم على ما قد يلحق بالإنسان في معارك الحياة من خسائر لم يكن له يد فيها . وهذه الشخصية الأخلاقية القوية عند شوقي ضيف هي التي مكتنه من أن يحقق إنجازاته في هدوء وسلامة نفس وصفاء تام . وكل النتائج الطيبة التي حققها هذا العالم النادر تحققت من تلقاء نفسها دون أن يجرى وداعها ، أو يلهمث في سبيل الحصول عليها . وكأنه هنا هو « الأمير » الذي

يحدثنا عنه الشاعر « أبو العتاهية » عندما يقول :

إليه تُجر جرًّا أذيلها
ولم يكُن يصلح إلا لـها

أنتِ الإمارة مقدمة
فلم تكْ تصلح إلا له

والإمارة هنا ليست سلطاناً أو جاهماً في بنيا السياسة والمجتمع ، ولكنها « إمارة » في العلم والمعرفة ومحبة الناس لهذا العالم الكبير والتفاهم حوله ، وبنقتمهم يعلمهم وأخلاقه .

والتاريخ العربي يحدثنا عن قصة طريفة وقعت للسيدة « زبيدة » زوجة هارون الرشيد وابنة عمه ، وذلك عندما كانت تطل من نافذة قصرها في مدينة « الرقة » على نهر الفرات فقد وجدت حشدًا كبيراً من الناس يتجمعون على شاطئ النهر . فسألت في دهشة عن سبب هذا التجمع الكبير فقيل لها إن الناس اجتمعوا للترحيب بأحد كبار العلماء الذي وفد إلى مدينة « الرقة » على ظهر سفينة حملته من بغداد . فقالت « زبيدة » : هذا هو العز .. لا عزنا .. تُساق إلى الناس بالسياط .. ! وما أجمل ما قالته « زبيدة » وما أصدقه . فعزُّ العلماء قائم على اختيار الناس ومحبتهم وإقبالهم الذي ليس فيه فرض ولا إرغام . وهذا هو « العزُّ الحقيقى » لأنَّه نابع من القلوب المتحررة من كل الضغوط . أما عزُّ السلطة والجاه والسياسة والتقوذ فهو « عزٌّ » تُساق إليه الناس بالسياط - كما تقول السيدة « زبيدة » وهي في قولها على حق . ولعلها وهي تتقول ذلك كانت تحسر على أن « عزُّها » هو من النوع الأخير ، أي النوع الذي تُساق إليه الناس بالسياط أو « الكرايبج » ، وليس ذلك « العزُّ » الذي يتحقق بمحبة الناس وعواطفهم الاختيارية الصادقة .

والعزُّ الذي تحقق للدكتور شوقي ضيف من محبة الناس له وإقبالهم عليه - هو من نوع « العزُّ الكريم » ، الذي تحقق للعالم العربي القديم عندما سعى إليه الناس واحتضروا لاستقباله في مدينة « الرقة » عاصمة الرشيد الصيفية على نهر الفرات . وقوة الأخلاق عند شوقي ضيف هي الأساس الراسخ للجانب العلمي الرائد في شخصيته . فهو إذا درس موضوعاً عكف عليه عكوف العالم المتبتل . ولم يترك صغيرة

أو كبيرة ، حتى يبحثها ويقوم بتحليلها قبل أن يكتب دراسته ويخرج باستنتاجاته . ويكتفى هنا أن نشير إلى البحث الذي قدمه شوقى ضيف للحصول على "الماجستير" حوالى سنة ١٩٤٠ - فقد اختار لهذه الدرجة موضوعاً بالغ المشقة ، يحتاج إلى جهد استثنائي شديد ، والموضوع هو "النقد الأدبي في كتاب الأغانى لأبى الفرج الأصفهانى" . وكتاب الأغانى هو بحق - كما يقول الدكتور شوقى ضيف عنه : "أهم مرجع للشعر وشعرائه من العصر الجاهلى حتى نهاية القرنين الثلاثة الأولى للإسلام . وهو كتاب يموج بملحوظات اللغويين والشعراء والتقاد حول الشعر . وهو (يقع) فى واحد وعشرين مجلداً . وقد ظل شوقى ضيف منهماً - ليل نهار - فى إعداد رسالته لمدة سنتين حتى نال درجة الماجستير بامتياز . ويقول شوقى ضيف عن ذلك فى كتابه الجميل الذى كتبه عن سيرة حياته تحت عنوان "معى" : إنه "حمد الله كثيراً ، لأنه وفق لاختيار موضوع رسالته ، ليس لما ظفر فيه بنتائج علمية حول النقد الأدبي العربى القديم فحسب ، ولكن أيضاً لأنه أتاح له فى بوأكير حياته العلمية الجامعية التعرّف الدقيق على أكبر مصدر للمعلومات عن الشعر العربى وشعرائه فى العصور الأولى ، وبذلك سيطر مبكراً على مادة هذا الشعر التاريخية والنقدية ، وهى سيطرة مكنته فيما بعد أن يكتب حول الشعر العربى وشعرائه مقرضاً تارة وناقداً تارة أخرى . ولو أنه لم يقرأ هذا الكتاب بمجلداته الضخمة التى بلغت واحداً وعشرين مجلداً لظلَّ الشعر العربى بتاريخه القديم الطويل محجوباً عنه . أما وقد قرأ هذا الكتاب قراءة فحص وبحث ودراسة فإن أبواب هذا الشعر قد تمَّ فتحها له ، ولم تُوصِّد أبداً فى وجهه ، مما أعطاه فرصاً كبيرة كى يبحث فيه بحوثاً كثيرة ، لا يقف فيها عند عصرٍ بعينه دون غيره من العصور أو بيته بعينها دون غيرها من البيئات .

وكان طه حسين كثير الثناء على تلميذه شوقى ضيف . وقد جعل ثناء طه حسين على تلميذه من هذا التلميذ يزداد تجويداً ودائماً فى بحثه ودراساته ، باذلاً فيها كل ما يستطيع من جهد ومشقة ، حتى يرضى أستاذه ، وحتى يكون مستحقاً لثنائه .

والحق أن شوقى ضيف قد بذل من الجهد الشاق والإخلاص التام للبحث والمعرفة ما جعله يستحق حب طه حسين له ، وما جعله أيضاً مستحقاً لمقام "العز" بين

الباحثين والعلماء في كل الجامعات العربية والعالمية التي تهتم بدراسة الأدب العربي والبحث فيه . فالكل يحبون شوقي ضيف ويعتبرون بفضله ويحتون رفوسهم إعجاباً بهذه الشخصية العلمية الأخلاقية الرفيعة . ومن كان يحبه طه حسين فهو جدير بمحبة الجميع .

* * *

(٢)

كما قرأت كتاباً جديداً أو عدت إلى مرجع سابق لاستاذنا الجليل الدكتور شوقي ضيف رئيس المجمع اللغوي الآن ، والحاائز ، هذا العام على "جائزة مبارك" كـت أتسامى بـيـنـيـ وـبـنـ نـقـسـيـ : أـيـنـ الـفـنـانـ فـيـ شـخـصـيـةـ هـذـاـ الـعـالـمـ الـفـنـذـ الـكـبـيرـ ؟ـ فـمـاـ مـنـ كـتابـ قـرـأـنـهـ لـهـ ،ـ حـتـىـ كـتابـهـ عـنـ "ـ تـجـدـيدـ النـحـوـ الـعـرـبـيـ "ـ إـلـاـ وـأـحـسـسـتـ أـنـ وـرـاءـهـ عـاطـفـةـ قـوـيـةـ ،ـ وـضـمـيرـاـ حـيـاـ ،ـ وـنـوـقـاـ مـرـهـقاـ ،ـ وـهـذـهـ الصـفـاتـ جـمـيـعـاـ هـيـ مـنـ الـأـدـوـاتـ الـعـلـمـيـ الـحـازـمـ الـذـىـ يـلـقـزـمـ بـهـ الـدـكـلـورـ شـوـقـيـ ضـيـفـ فـيـ تـقـدـيمـ الـمـعـلـومـاتـ وـتـحـلـيلـهاـ كـانـ يـؤـدـىـ إـلـىـ تـرـاجـعـ الـفـنـانـ الـحـسـاسـ فـيـ شـخـصـيـتـهـ خـطـوـاتـ إـلـىـ الـوـرـاءـ ،ـ مـنـ أـجـلـ أـنـ يـتـقدـمـ الـبـاحـثـ الـعـالـمـ الـمـفـكـرـ ،ـ الـذـىـ يـبـذـلـ جـهـدـهـ فـيـ جـمـعـ الـحـقـائـقـ وـتـرـتـيبـهـاـ وـاستـخـلـاصـ الـتـنـائـجـ الـصـحـيـحةـ مـنـهـاـ .ـ

ومـنـ سـنـوـاتـ عـثـرـتـ عـلـىـ كـتـابـ صـغـيرـ فـيـ حـجمـ الـدـكـلـورـ شـوـقـيـ ضـيـفـ يـروـيـ فـيـ سـيـرـتـ الـذـاتـيـ ،ـ وـهـوـ كـتـابـ "ـ مـعـيـ "ـ الـصـادـرـ فـيـ سـلـسلـةـ "ـ اـقـرـأـ "ـ فـيـ آـغـسـطـسـ سـنـةـ ١٩٨١ـ ،ـ وـقـدـ أـعـادـ الـدـكـلـورـ سـمـيرـ سـرـحانـ نـشـرـ هـذـاـ الـكـتـابـ الـجـمـيلـ فـيـ "ـ مـكـتبـةـ الـأـسـرـةـ "ـ وـصـدرـ مـنـذـ أـيـامـ قـلـيلـةـ .ـ

وـعـنـدـمـاـ عـثـرـتـ عـلـىـ هـذـاـ الـكـتـابـ قـلـتـ لـنـفـسـيـ :ـ هـذـاـ هـوـ الـفـنـانـ الـدـكـلـورـ شـوـقـيـ ضـيـفـ ،ـ وـقـدـ تـحرـرـ مـنـ قـيـودـهـ وـأـطـلـقـ لـنـفـسـهـ العنـانـ ليـقـدـمـ إـلـيـنـاـ جـانـبـاـ مـشـرـقاـ مـنـ شـخـصـيـتـهـ النـبـلـةـ الـرـفـيـعـةـ .ـ فـكـتـابـ "ـ مـعـيـ "ـ هـوـ كـتـابـ إـنـسـانـيـ شـدـيدـ الـعـنـوـيـةـ ،ـ وـهـوـ أـقـرـبـ إـلـىـ الـشـعـرـ وـالـقـصـةـ مـنـ إـلـىـ الـبـحـثـ وـالـدـرـاسـةـ ،ـ وـإـنـ لـمـ يـبـتـعدـ صـاحـبـهـ الـجـلـيلـ عـنـ الدـقـةـ وـالـانـضـباطـ

العلمى فى روايته لتاريخ حياته وإشاراته المختلفة للأحداث والشخصيات التى اتصل بها . والقيمة الأساسية فى هذا الكتاب تعود إلى أن الدكتور شوقي ضيف قد أتاح لنا فيه فرصة واسعة لكي نعرف أسرار تكوينه الشخصى والعلمى ، فهمس بهذه الأسرار همساً رقيقةً جميلاً ، ولم يضع قيداً على عواطفه وأرائه ونظرته إلى الحياة كما يفعل دانماً فى دراساته وأبحاثه العلمية .

كان الناقد الكبير الراحل محمد متىور . ١٩٠٧ - ١٩٦٥) يقول إن الأدب "الهامس" هو الأدب الذى يؤثر فى القلوب ويحرك المشاعر ويمس عواطف الإنسان بصورة عميقة ، أما الأدب الصاخب أو الزاعق أو الخطاب فهو أقل تأثيراً فى النفس من "أدب الهمس" . ولا شك أن الدكتور متىور كان على حق فيما قاله عن "الهمس" ، فالضوضاء فى الأدب والفن تتقلل من تأثيرهما وتخلق حاجزاً بينهما وبين القلب الإنساني ، والقلوب تتاثر بالصوت الدافئ والحنن الهادئ والدخول إليها على أطراف الأصابع أما الصاخبون الذين يدقون الطبول فهم لا ينجحون فى تحقيق شيء من التأثير资料 على التفوس والمشاعر .

وكتاب "معى" للدكتور شوقي ضيف هو من هذا الطراز البديع الرفيع . فهو كتاب هامس يخاطب قلبك وعقلك فى وداعه شديدة وعذوبة بالغة وتواضع جميل . ومع ذلك كله فالكتاب واضح مستقيم ، أى أنه لا يخفى رأياً لكاتبها ولا يحيط بالضباب والغموض وجهة نظر له أو موقفاً من مواقفه تجاه الناس والأحداث . وينتوقف هنا مع لحظات تقدم صورة لشخصية الدكتور شوقي ضيف وأخلاقه ، ويتكشف أمامنا عن جنون المبادئ العليا التى قامت عليها هذه الشخصية التي لا أترى لها لحظة واحدة فى وصفها بيتها شخصية عظيمة إذا قسناها بمقاييس العلم أو مقاييس السلوك الإنسانى الرفيع .

يحدثنا شوقي ضيف فى كتابه "معى" عن العلاقة بين والده ووالدته وهما من بسطاء الفلاحين ، وإن كان الأب معروفاً فى قريته بأنه من العلماء لأنه أكمل الدراسة فى المعهد الأزهرى بدبياط . وعندما نقرأ ما كتبه شوقي ضيف عن العلاقة بين والديه نحس أننا أمام زوجين يعيشان فى أعظم عواصم الحضارة مثل لندن أو باريس ،

وليس في قرية متواضعة من قرى الريف المصري . يقول شوقي ضيف عن نفسه : « كانت أمه بارة بوالده الشقيق العالم ، فهي دانماً تعزه وتجله ، لا لأنها كان ابن خالتها وحسب ، بل أيضاً لأنها كان دمث الخلق ، وكان لا يصدر في شيء إلا حسب مشيّتها ومشورتها ، فقد استقر في نفسه أنها أحصن منه وأبعد نظراً . وحقاً كانت كذلك ، وكان قلبها ينطوي على رحمة بالغة للضعيفات والضعفاء من حولها ، وهي رحمة ترافقتها إراده حازمة صلبة وشيء من إرادتها المصممة ورثه الطفل - أى شوقي ضيف - فيما ورثه عنها من الشيم والأخلاق » .

وفي هذه الصورة الحية إشارة دقيقة إلى وضع المرأة الحقيقي في ريف مصر في الجيل الماضي . فلم تكن المرأة صفرأ على الشمال كما يقال ، بل كان لها شأن عظيم ، حتى إن شوقي ضيف يقول لنا إن والده العالم المتعلم كان لا يتخذ قراراً إلا بمشورة زوجته والنزول طوعاً و اختياراً على رأيها في معظم الأمور .

وفي لحة أخرى نقرأ هذه الصورة الحية للبداية التي استمرت في تأثيرها القرى على شوقي ضيف حتى الآن حيث يقول : « كان الطفل كثيراً ما يرى في يد والدته سبحة تذكر الله عليها وتسبح بحمده . ولم يكن والده يستخدم السبحة ، بل كان يسبح الله ويذكره كثيراً عقب الصلوات ، ولكن دون حاجة إلى هذه السبحة . وكان الوالد يكثر من تلاوة القرآن كلما وجد فراغاً وخلا إلى نفسه ، فهو سلوه وريحان فؤاده . وكل ذلك كان الندى والأربع والشذى الذي تفتح فيه الطفل - أى شوقي ضيف نفسه - كما تتفتح البراعم ، فاسم الله دانماً يتتردد في أذنه ، بل هو منقوش في صدره وعلى قلبه ، ومنقوش معه محبة الخير لأبيه وشقيقته الكبرى وأخته من الرضاع ولكل من حوله . ورث ذلك عن أبيه وأمه ، وكانتا لا يعرفان بغضنا للناس ولا ضفينة ، وكانتا صنعا طفلهما على مثالهما ، فنشأ لا يحمل ضيقته لأحد ، ولا بغضنا ولا موجودة » .

وهكذا كان « الإيمان » الهدى الوديع البعيد عن الصخب والتظاهر والعنوان على الناس أساساً آخر في تكوين شخصية شوقي ضيف ، إلى جانب الإرادة الصابرة القوية . والحقيقة أن الإنسان بلا إيمان هو نصف إنسان أو أقل من ذلك بكثير .

ثم تنظر بعد هذا إلى صورة أخرى ، بل لوحة جميلة يرسمها شوقي ضيف لعلاقته بوالديه ، حيث يقول : " كان الطفل - أى شوقي ضيف - يبدأ يومه بتحية أبيه ، ولم تكن التحية كلاماً ، بل كانت تقبيلاً للبيدين الكريمين ، يد الأب ويد الأم ، واجب يومي كان الطفل يؤديه كما يؤديه أطفال القرية من حوله ، بل كما يؤديه أطفال الريف المصري جميعاً . وقد أقلعت الكثرة من العائلات في مصر عن هذه العادة الآن ، خاصة العائلات المثقفة ثقافة عصرية ، أو التي تدعى لنفسها شيئاً من المدنية ، كأنها تعد ذلك لوئاً من العبودية والذل ، ولا أدرى من أين جاعها هذا الاعتقاد ؟ أغلبظن أنه جاعها من بعض من رأوا الحياة في الغرب أو تعلموا فيه ولم يروا شيئاً من هذه العادة هناك ، فظنواها عادة سيئة ، وهي تكون سيئة أشد السوء إذا تم توجيهها إلى غير الأب والأم ، أما هما فجدير بالولد أن ينشأ على تقبيل يديهما إجلالاً لهما واحتراماً . وربما كان ما يلاحظ الآن على بعض الأبناء من أنهم لا يحترمون آباءهم الاحترام الكافي مرجعه إلى أبطال مثل هذه العادة الطيبة التي كانت تحيل الأب والأم إلى ما يشبه قد يسين في نظر الأبناء ، أما وقد تم أبطالها ، فلم تعد للأبوين عند الكثيرين منهم هذه القدسية ولا ما كان لهما من إجلال .

ولا شك أن هذه الصورة التي يرسمها شوقي ضيف هي صورة دقيقة وصحيحة . ولا أظن أن المطلوب هو العودة الحرافية إلى تقبيل الأيدي بالمعنى المادي المباشر ، ولكن المطلوب حقاً هو التأكيد على المشاعر والعواطف التي كان " تقبيل اليد " ينطوي عليها ويعبر عنها . فالعصر الراهن فيه بعض مظاهر القسوة التي ليس لها جذور أو أصول في حياتنا الأخلاقية والوجدانية . فتنا أعرف أبناء هاجروا إلى أمريكا وكندا وأوروبا وانشغلوا بحياتهم ونحوهم في مجرتهم ونسوا آباءهم وأمهاتهم وأهلهم جميعاً ، ولم يعودوا يسألون عنهم حتى بالتليفون وأعرف أبناء نالوا من العلم أعلىه ونجحوا في حياتهم بفضل كفاح شاق وغير محدود لأبويهم ، ثم لما نجحوا عاملوا الآبوين بسلوك " جاهلي " إذا صع هذا التعبير . وقد عرفت واحداً من هؤلاء كان يضرب أمه التي أفت حياتها من أجله ، وذلك كلما طلب منه في تهذيب شديد ، وبغض الدموع في عينيها ، أن يرعى شيخوختها ، ويقدر أنها لم تنخر شيئاً لنفسها لأنها أنفقت كل ما تملك من طاقة وجهد على ابنها الذي يضررها وقد اقتربت

من الثمانين . والحمد لله أن مثل هذه النماذج ليست كثيرة ، ولكنها موجودة وموجعة للقلب .

وهكذا يعود بنا أستاذنا شوقي ضيف في كتابه الجميل "معي إلى الجنور والأصول" ، ليكشف أمامنا عالياً بديعاً من المبادئ الإنسانية التي عرفها وأمن بها منذ بدايات حياته ، وصاحبة ذلك في مسيرة الناجحة والتي يحفل بها التوفيق من كل جانب . وأظن أن أخلاق شوقي ضيف كما عرفته - تلميذاً له وقارئاً متابعاً لأدبه وفكرة - هي ما يمكننا أن نطلق عليه اسم " الأخلاق الموسيقية " . فهي أخلاق تطربينا كما تطربنا الموسيقى الجميلة . وهي أخلاق موسيقية من ناحية أخرى ، لأنها مستمدّة في أحوال كثيرة من "أصوات" سمعها بأذنه وانتقلت إلى قلبه فاستقرت فيه ، فهو يسمع اسم الله كثيراً فيؤمن ، ويقبل يد والديه ، ويسمع صوت هذا التقبييل فيرى أن والديه مما أشبه بقديسين ، ويستمع إلى الشاعر في قريته وهو يروي قصة "أبي زيد الهمالي" فيتعمى إلى "الهمالية" ويلتزم بها يتحمس لها مع قريته . فالآصوات كثيرة ما تقوده إلى ما يعتقده ويؤمن به . ولذلك فأنّ أخلاق شوقي ضيف هي أخلاق موسيقية ، ويبقى في النفس والعقل ملاحظات وتأملات أخرى في شخصية هذا الأستاذ الجليل قد أعود إليها مرة أخرى في مقال جديد .

رجاء النقاش

جريدة الأهرام ١٠ - ٨ / ٢٠٠٣

٥ - الأندلس في نتاج شوقي ضيف

د. محمود على مكي

منذ بضعة شهور استقبل أستاذنا الجليل الدكتور شوقي ضيف عامه الأول بعد الثمانين ، وكأنه يستأنف به شباباً جديداً ، فهو لا يزال كالعهد به فتوة ونشاطاً وقدرة على العمل ، لم تغير منه هذه السنون الطوال التي قضى منها أكثر من نصف قرن في جهد دائم متصل ، فهو بحمد الله ما يرجح معتنعاً بقوته بدته ، وصفاء ذهنه ، وقوته حافظته ، وخصوصية إنتاجه ، وكثيره في مقتبل حياته : نسأل الله أن يمدد له في العمر ، وأن يظل - كما كان دانماً في الجامعة وخارج الجامعة - أباً وداعياً لأجيال من تلاميذه ومربييه الكثيرين ، وحاملاً لمشعل الثقافة العربية ، فالحق أن الماء لا يسعه إلا أن يطمئن إلى مستقبل هذه الثقافة ما دام فيها أمثال الدكتور شوقي ضيف ، ومن عرروا كيف يتخلون منه قدوة ومثلاً .

وإنه لما يدعوا للتفاول أن عشرات ، بل مئات ، من تلاميذه منتشرون في أنحاء العالم العربي كله من العراق والكويت ، حتى المغرب الأقصى ، فقد كان شوقي ضيف - شأنه في ذلك كشأن بعض الشيوخ من أسلافنا العظام من أمثال الحافظ السلفي ، وأبي حيان الغرباني - من أولئك الذين نقرأ في ترجمتهم : " وطال عمره فثارك الصفار فيه الكبار " . والمقصود بذلك أنه قد تخرجت على يديه أجيال متعاقبة من التلاميذ ، وأنكر أنتني ما نزلت بلدأً عربياً إلا والتقيت في جامعاته ومؤسساته الثقافية من قادة الفكر عدداً من جلسوا من شوقي ضيف مجلس التلميذ ، ومن ترك في نفوسهم أثراً باقياً ونكريات لا تنسى .

بدأت مسلتي بالدكتور شوقي ضيف منذ أكثر من أربعين سنة ، حينما التحقت بقسم اللغة العربية في كلية الآداب ... وكثيراً أراه آنذاك كما أراه اليوم تماماً ، لم يتغير منه شيء ... في قامته القارعة ، وبنيته المتينة ، ومشيته الوقور ، وصوته الهادئ ، ونظراته الجادة الصارمة التي سرعان ما تشف عن نفس طيبة خيرة ، وخلق دمث ، ورقة عنية ، ولسان عف ، وعلى مدى السنوات الأربع التي استمرت فيها دراستي في كلية الآداب أذكر أنتا تلقينا على يد الدكتور شوقي ضيف محاضرات في جميع مواد قسم اللغة العربية : العلوم القرآنية ومذاهب التفسير ، والنحو ، والبلاغة ، وتاريخ الأدب في مختلف عصوره ، والنصوص ، والنقد وكان يحاضر في أيّ مادة من هذه المواد ، فتكاد تحسب أنه قصر جهده عليها ولم يتخصص إلا فيها ، ويقولني هذا إلى الحديث عن بدعة "التخصص الدقيق" التي ابتليت بها الدراسة الجامعية خلال هذه السنوات الأخيرة ، وهي أن يعكف الطالب الحديث التخرج في دراساته العليا على فرع من فروع الدراسة ، لكي "يعمق" بحثه فيه و"يتخصص" فيما يزعمه ، بغير أن يستكمل تكوينه العام . فإذا به قد اتجه إلى الأدب الحديث ، لا يكاد يعرف شيئاً عن التراث الأدبي القديم ، وإذا عمل في ميدان الأدب الجاهلي ، أو الإسلامي لا يخطر بباله ، أن يتعرف الفنون الأدبية الحديثة من رواية أو مسرح ، وإذا به إذا أعد رسالة في فن أبيي مستحدث وحاسبة على ما فيها من أخطاء لغوية أو نحوية أجابك بأن اللغة والنحو ليسا من شأنه : لأنهما "خارجان عن دائرة تخصصه الدقيق" . وإذا كان عمله في فن نثرى ووردت فيه أبيات من الشعر ، لم يحسن نقلها أو أفسد روایتها ، قال لك إن علاقته بالشعر منقطعة وإن العروض مادة بعيدة عن ميدان تخصصه . وفاث هؤلاء الشباب أن فروع اللغة العربية كأجزاء البنية المرصوص يشد بعضها ببعض ، وكأعضاء الجسد الواحد إذا فسد أحدها انتقل الفساد إلى سائرها ، وإن ما يسمى "بالتخصص الدقيق" لا يأتي إلا بعد أن يحيط الدارس بفروع اللغة كلها ، بل بالأختذ بطرف قوى مما نسميه الثقافة العامة . ورحم الله أسلافنا فقد كانوا على وعي كامل بهذا ، فكنت ترى الفقيه لا يستقيم

له منهجه في الفقه إلا إذا تعمق دروس النحو والأدب والبلاغة ، حتى الطبيب أو النباتي لا يبرز في فنه إلا بعد أن تجتمع له سائر العلوم مهما بدا بعدها "الظاهري" عن تخصصه ! وقد كان ابن رشد الأندلسى فيلسوفاً طارت شهرته بهذه الصفة ، وهو مع إساطته الكاملة بالفلسفة الإغريقية والإسلامية لا يرى باساً في أن يكتب في الفقه كتاباً مثل "بداية المجتهد" تقرؤه فتظن أنه لم يكن له هم إلا هذا العلم . ويكتب في الطب كتاباً مثل "الكليات" فكأنه أفرغ جهده كله في هذا الفرع من فروع المعرفة .

كان هذا من أول ما تعلمناه من أستاذنا الدكتور شوقي ضيف ، ولم يكن ذلك من خلال عمله في التدريس فحسب ، وإنما قدم لنا القوة فيه بجهوده في التأليف ، فالذى يتأمل هذه الجهود ، يروعه ذلك الإنتاج بغزارته وتنوعه وجودته في أن واحد ، فلشوقى ضيف عشرات من الكتب تستوعب كل فروع العربية من القراءات القرآنية ، والتفسير ، إلى البلاغة ، والنحو ، والنقد الأدبي ، والترجم ، وتضم التأليف الخالص إلى تحقيق نصوص التراث ، هذا فضلاً عن مجموعة تاريخ الأدب العربي التي أخرج منها حتى الآن سبعة مجلدات ضخمة تحيط بتاريخ الأدب العربي في العصر الجاملى حتى بداية نهضة الحديثة ، فإذا ضممنا إلى هذه المجلدات عديداً من الكتب المفردة التي ألفها في دراسة أدبنا الحديث ، والمعاصر ، أو في دراسة شعراء بأعينهم مثل : شوقي ، والبارودى ،رأينا أن حلقات عمله في تاريخ الأدب العربي في مشرقه ومغاربه قد اكتملت ، وأن مجموع هذا النتاج يمثل موسوعة كبيرة ، ربما استكثرت على جيل ، أو فريق من الباحثين ، فما بالك وهي جهد رجل واحد أخلص للعلم فأخلص له العلم ، وأحسن جزاءه .

الحديث عن شوقي ضيف ، ويتبع إنتاجه في مختلف ميادين الثقافة العربية لا تكفى فيه هذه العجالة ، بل ربما احتاج إلى مؤلف كامل ، ولهذا فإننى سأقصر حديثي هنا على مجال الدراسات الأندلسية من إنتاج هذا العالم ، إذ إن دلالته مع أنه لا يمثل إلا جانباً صغيراً من اهتمامات شوقي ضيف .

الفن ومذاهبه في الشعر والنثر :

لعل أول صلة له بالأدب الأندلسى بدت فى كتاب من أوائل كتبه ، وهو " الفن ومذاهبه فى الشعر العربى " ، وكان فى الأصل رسالته التى نال بها الدكتوراه سنة ١٩٤٣ ، بياشراف الدكتور طه حسين ، ثم طبع فى سنة ١٩٤٥ ، وما زالت طبعاته متواتلة إلى اليوم ، والكتاب يقوم على أساس فكرة حاول الدكتور شوقى ضيف بها أن يفسر تطور الفن فى الشعر العربى خلال مراحله المتتابعة ، فهو يرى أن الفن يرسن له ثلاثة مذاهب متعاكبة : الصنعة ويمثلها فى الجاهلية زهير بن أبي سلمى و " مدربته " من عبيد الشعر المنتحين له ، ثم التصنيع ويمثله فى العصر العباسى الأول أبو تمام ، وأخيراً التصنف وهو الذى انتهى إليه شعر المتنبى وأبى العلا المعري . وفي سنة ١٩٤٦ يصدر شوقى ضيف كتابه الذى يكمل به دراسته للأدب العربى وهو " الفن ومذاهبه فى النثر العربى " ويطبق فيه نظريته السابقة على النثر متبعاً هذه المذاهب فيه . وفي كلام الكتابين أفرد المؤلف فصلين للحديث عن شعر الأندلسين ونشرهم ، فرأى أن أهل الأندلس كانوا يعيشون على تقليد النماذج الشرقية ، ومحاكاتها فى صورة فيها قدر من الاضطراب والاختلاط ، فكان الشعراة والكتاب يجمعون فى تناجمهم بين صور المذاهب المختلفة .

الرد على النحا :

لم تمض على صدور هذا الكتاب الاخير سنة واحدة حتى كان شوقى ضيف يخرج بظرفة جديدة ، كانت هذه المرة تحقيقاً لنص أندلسى ، وفي ميدان مختلف عن ذلك الذى بدا وكأنه " تخصصه " الأول ، وينتدى بهذه الظرفة " كتاب الرد على النحا " لقاضى للجامعة على عهد دولة الموحدين أبى العباس أحمد بن عبد الرحمن المعروف بابن مضاء القرطبي (المتوفى سنة ٥٩٢ هـ / ١١٩٦ م) . وقد كان هذا الكتاب - على صغره - يمثل أكبر ثورة على سيبويه ونحوه المشرق ، فقد سند ابن مضاء سهامه إلى نظرية " العامل " التى تعد الأساس الذى قام عليه البناء النحوى وما تصوره النحا

لعامولهم ، من تأثيرات هي التي تصنف الظواهر النحوية من رفع ونصب وجر ، ثم ما تؤدي إليه من تقديرات وعلل وأقيسة ، ملأت النحو العربي بمسائل لا يحتاج إليها في تقويم اللسان ، بل تتف حانلاً بين المتعلم واكتساب ملكة لغوية سليمة ، ورأى ابن مضاء أن نظرية العامل هي التي ملأت كتب النحو بحشد من التمارين غير العملية ، إذ هي قائمة على فروض لا تتحقق في واقع اللغة . على أن ابن مضاء لم يكن في كتابه هذا مجرد هادم للنحو ، ولا داعياً إلى الغافه ، وإنما كان هدفه هو تيسير القواعد للمتعلمين وإعفاؤهم مما لا يحتاجون إليه : فإن تفريح المسائل والإكثار من التقديرات القائمة على التخييل كثيراً ما تصرف المتعلم ، مما هو أساس قریب المثال . وقد تنبه الدكتور شوقي ضيف في نكاء إلى أن المنطق الفكري لابن مضاء في ثورته على نظرية العامل وما يرتبط بها من أقيسة وعلل إنما هو أخذه بالذهب الظاهري ، الذي ينكر في الفقه ما أخذت به المذاهب المعروفة من اعتماد على القياس ، وهو ما أدى أيضاً في التشريع إلى وجود ركام هائل من الفروض التخييلية التي لا تستند إلى الواقع الحياة .

آثار هذا الكتاب الذي قدم له شوقي ضيف بدراسة جامعة بقية اهتمام الباحثين ، بل فجر قضية كبرى مرتبطة بواقع حياتنا اللغوية التي تعانى فيها من تدريس النحو ، وتلاحظه في مدارسنا من نفور المتعلمين من هذه المادة ، ثم من عجزهم عن استيعاب القواعد النحوية ، حتى أصبح معظم من ينطقون بالعربية أو يكتبون بها لا يكادون يسلمون من اللحن والخطأ .

قضية تجديد النحو :

ولعل هذه القضية هي أهم ثمرة جناها شوقي ضيف من تحقيقه لكتاب هذا النحو الأندلسي ، صاحب تلك الدعوة الثورية الجديدة ، فقد حملته ممارسته لتدريس النحو في الجامعة على مدى سنوات طوال أن ينبع النظر في مشكلة النحو وتعليمه للنشء ، وهي مشكلة كانت - وأخشى أن أقول وما زالت - تتفسد مسامع المربين .

وكان قد تألفت لذلك لجنة في وزارة المعارف (التربية والتعليم) قبل ظهور كتاب ابن مضاء ، وكتبت هذه اللجنة تقريراً ضممته مقترناتها لتبسيير النحو : ودرس مجمع اللغة العربية هذه المقترنات سنة ١٩٤٥ وأقر بعضها ، ولكن الكتب التي ألفت على أساسها لم تلق كثيراً من النجاح . ورأى شوقي ضيف أن ينهض أيضاً بهذه المهمة على ضوء آراء ابن مضاء ، فاقتصر في النبراسة التي مهد . بها لتحقيقه للكتاب تصنيفاً جديداً لأبواب النحو يستغنى فيه عن عدد منها مما لا حاجة للمتعلم به ، مع إلغاء الإعراب التقليدي والإعراب المحلي في الجمل ، ثم الاستغناء عن إعراب كل كلمة لا يقدر إعرابها أى فائدة في صحة نطقها ، ومفضي الدكتور شوقي ضيف طوال السنوات التالية يعمق دراسته لهذا الموضوع ويقلبه على وجهه إلى أن قدم في سنة ١٩٧٧ إلى مجمع اللغة العربية - وكان قد انتخب عضواً فيه في العام السابق - مشروعًا لتبسيير النحو على أساس ما عرضه في مدخل كتاب ابن مضاء مع إضافة بعض الأسس الأخرى ، وأقر مؤتمر المجمع في سنة ١٩٧٩ معظم هذا المشروع بعد دراسته دراسة وافية ، وأخيراً أصدر كتابه "تجديد النحو" (دار المعارف ١٩٨٢) الذي يقدم مشروعه الكامل لتدريس النحو العربي بعد أن أضاف إلى الأسس السابقة أساسين آخرين : أولهما حذف الزوائد الكثيرة التي تعرض في كتب النحو بغير حاجة ولا فائدة ، إذ إنها تحصل بحكم معقدة تعسر على الفهم أو تتعلق بصيغ نادرة أو شاذة ، وثانيهما إضافة أبواب ضرورية تعين على تمثيل الصياغة العربية وأوضاعها .

ولم يكفل الدكتور شوقي ضيف بهذا العرض النظري المصحوب بأسلوب مقترن لتطبيقه ، بل إنه قام بنفسه في إحدى السنوات التالية بتجربة تدريس هذا المنهج في الفرقه الرابعة بقسم اللغة العربية بكلية الآداب ، وكان التقليد الجارى في الكلية هو أن تختار أبواب من بعض كتب النحو القديمة تدرس للطلاب بكل ما احتوت عليه ، وقد دللت التجارب على أنهم قد يحفظون هذه - وهي لا تمثل إلا شطراً ضئيلاً من مجموعة قواعد النحو - وقد ينجحون فيها ، ولكنهم يظلون بعيدين عن أحكام تطبيقها تطبيقاً عملياً مفيداً ، أما تلك السنة التي طبق فيها الدكتور شوقي ضيف منهجه فإنه عرض فيها قواعد النحو العربي كله بعد أن صنفها في ضوء كتابه ، واقتصر منها على

ما ينفع الطالب في تقويم لسانه ، فإذا بالتجربة تنبع نجاحاً كبيراً ، وإذا بالطالب ينفتح أمامهم من أبواب النحو ما كان مستغلقاً ، وما زال خريجو هذه الفرقة يذكرون حتى اليوم أنهم استطاعوا بفضل هذا المنهج الجديد أن يستوعبوا خلاصة النحو العربي كاملة في سنة واحدة .

تحقيق النصوص الأندلسية :

لم يصرف الاهتمام بال نحو ومشكلات تدريسه شوقي ضيف عن مواصلة عمله في خدمة الأدب ، فقد توالى خلال هذه السنوات التي أعقبت نشر كتاب ابن مضاء دراساته العديدة حول الأدب الأموي ، وما لا حظه فيه من مظاهر التجديد ، وحول بعض الظواهر أو الشخصيات الأدبية المختلفة ، على أنى أذكر الأندلس لم تغب عن باله فيما أخرج من تلك الدراسات ، فقد كان من بينها كتابه الذى ظهر في سلسلة "نوابغ الفكر العربي" (بإصدار دار المعرف) ، والذي أفرده لشاعر الأندلس الغنائى "ابن زيدون" ، ففى هذا الكتاب الذى يبلغ ١٢٠ صفحة ، قدم دراسة جامعية - على إيجازها - عن هذا الشاعر بعد دراسة عصره وأحداثه ، كما أنه أفرد جزءاً من البحث لأسلوب ابن زيدون النثري المتمثل في رسالتيه الجدية والهزليّة ، مذيلاً الكتاب بمختارات من شعره وشرح مفصل لرسالتيه .

المغرب في حل المغرب :

على أن شوقي ضيف كان مؤمناً دائماً بأن التراث الأندلسي الذي ضاع معظمه واندثر ، لا يمكن أن تتم دراسته بمنهج علمي قويم إلا بعد بذل كل المحاولات الممكنة لا ستنتقام ما بقى منه ، وتقديم هذه البقية محققة محررة ، وكان في هذه الآئنة يطبق هذا المبدأ أيضاً على الأدب المصرى ، فشارك في تحقيق أجزاء من " خريدة العصر " لابن العمار ، و " المغرب في حل المغرب " لابن سعيد ، وهى أجزاء تلقى ضوءاً كاشفاً على الأدب المصرى منذ فتح العرب لمصر حتى العصر الأيوبي .

وأعل عمله في "المغرب" لابن سعيد الأندلسي هو الذي لفته إلى الأجزاء الخاصة بالأندلس من كتابه ، ونحن نعرف أن (المغرب) كان موسوعة جغرافية تاريخية أدبية استغرق تأليفها أكثر من قرن من الزمان ، فقد تعاقب على جمعها عدد من المؤلفين : بدأها الحجازي بكتابه "المسهب" ، ثم عمل على إكمالها آل سعيد متواترين العمل فيها حتى انتهت إلى على بن موسى بن سعيد (المتوفى سنة ٦٨٥هـ / ١٢٨٦م) وهو الذي أضاف إليها أجزاء متعلقة بالشمال الأفريقي وي مصر ، أما الأجزاء الخاصة بالأندلس فقد كانت تمثل مشكلة باللغة الصعوبة والتعقيد ، فقد أصابتها عوادى الزمن ، إذ فقد كثير من أوراقها ، وما بقى منها كان قد تحول إلى أوراق متناثرة غير مرقمة خص بعضها إلى بعض في غير نظام ، وأصاب ذلك أيضاً النسخة الأخرى التي عشر عليها من "المغرب" في بلصقرة (بقرب سوهاج) . وكانت بدورها أوراقاً أخرى متناثرة من نفس مخطوطة دار الكتب ، وقد كان هذا الإضطراب والتقص مما صرف الباحثين عن نشر الكتاب ، إذا اعتبروه قضية خاسرة مبنوسةً منها .

ومع ذلك فإن اليأس لم يتطرق قط إلى نفس شوقي ضيف ، فعمم على نشر ما بقى من هذا الكتاب الجليل ، ولا سيما بعد أن هدأ البحث إلى ثلاث وسائل أعادته على إعادة ترتيب أوراق المخطوطة : الأولى ثلاثة فهارس احتفظت بها النسخة المخطوطة نفسها لترجمات الأعلام المذكورين في المغرب ، والثانية ما كتبه المقرى في "فتح الطيب" حول أسماء كتاب (المغرب) وترتيبها ، والثالثة كتاب مخطوط هو "رأيات المبرزين وغايات المميزين" لابن سعيد نفسه ، وقد تبين أن هذا الكتاب ليس إلا مختصراً للمغرب قام ابن سعيد بصنعه ، ليقدم إلى الوزير جمال الدين بن يغمور نائب السلطان المصري ، الملك الصالح أيوب في مصر والشام ، وكان لهذا المخطوط أصله بالأستانة نسخة مصورة اقتناها أحمد زكي باشا (شيخ العروبة) واستقرت في دار الكتب المصرية مع ما اشتغلت عليه "المكتبة الزكية" . وقد كان في نهاية الدكتور شوقي ضيف أن يبدأ بنشر "رأيات المبرزين" تمهيداً لعمله في المغرب وغير أنه حدث أن زار مصر في سنة ١٩٤٩ - ١٩٥٠ المستشرق الإسباني إميليو ، غرسيه غومز Emilio GARCIA Gomez فأبلغ الدكتور شوقي ضيف أنه كان قد اضططلع بنشر كتاب "الرأيات" في مدريد سنة ١٩٤٢ مع ترجمة إلى الإسبانية ودراسة مهد بها للكتاب ،

وزاد على ذلك أن أهداء نسخة من هذه الطبعة للكتاب ، وكان في وسع شوقى ضيف أن يمضى في تحقيقه ونشره لكتاب لاسميما بعد أن رأى في طبعة غرسية غومس على الرغم من اجتهاده وعنايته بالنص كثيراً مما يستدرك ، ثم إن كتاباً عربياً مطبوعاً في مدريد آنذاك ما كان ليصل ولا يعرف في العالم العربي ، غير أن شوقى ضيف بما فطر عليه من السخاء والتسامح والإيثار أبى إلا أن يعدل عن نشر الكتاب ، بل إنه أهدى المستشرق الإسباني المخطوطه التي استتسخها لنفسه من الكتاب ، ورأى إتماماً للفائدة أن ينشر في مجلة كلية الآداب (مجلد مايو ١٩٥١) ما رأه من تصويبات واستدراكات على الطبعة الإسبانية ، ولما كانت هذه الطبعة متعدزة المثال في الشرق العربي فإنه أوصى بعد ذلك أحد تلاميذه وهو المرحوم الدكتور النعمان عبد المتعال القاضي بأن يعيد نشر الكتاب في مصر ، واضطاعت بذلك لجنة إحياء التراث بالمجلس الأعلى للشئون الإسلامية في سنة ١٩٧٣ ، وكان من الطبيعي أن ينتفع الدكتور النعمان القاضي بتصويبات الدكتور شوقى ضيف .

أما كتاب (المغرب) فقد عكف عليه أستاذنا الجليل يعيد ترتيب أوراقه حتى استقام له ذلك إلا ما لم يكن هناك سبيل لاستدراكه فيما فقد من أوراقه ، وقد كان من حظ كاتب هذه السطور أن شهد عن كثب ذلك العمل المضني الذي استغرق شهوراً ، فقد كان أشبه بترميم أثر فتك به يد الزمن فاحالته إلى فتات منتاثر ، ثم أنت بعد ذلك عملية التحقيق وكانت لا تقل عن سابقتها مشقة ، وصدر الكتاب أخيراً ما بين سنتي ١٩٥٢ و ١٩٥٥ في سفرين كبيرين يضمان أكثر من ألف صفحة ، والحقيقة أن هذا الكتاب يعد نموذجاً للدقة والإبلاغ في إفادة الدارس ، فليس فيه علم ولا علم جغرافي إلا وهو مشفوع بقائمة من المصادر المخطوطة والمطبوعة لا يكاد يند عنها شيء ، وهو بذلك يوفر على الباحث جهداً كبيراً ، إذ دله على كل ما يمكن أن يستكملا منه بحثه . أما قيمة الكتاب فيكفى أن نتوقف حول ما ذكره في تقديمه لكتاب : " وما أشك أن هذا النص سيدفع المؤرخين للشعر الأندلسي دفعاً إلى أن يعيدوا النظر في تاريخهم ، وما نشروه من أحكام فيه ، فيعدلوا في هذه الأحكام تارة ، ويلغوها ويشبتوا موضعها أحكاماً جديدة تارة أخرى ، ومعنى ذلك أن يحمل كثيراً من الحقائق الأدبية التي كانا نجهلها عن الأندلسيين وحياتهم الفنية وما أكثر ما نجهله عنهم . ومن أجل ذلك تشتد

الحاجة إلى أن تنشر كتبهم وأثارهم . ولا يختلف اثنان في أن ما نشر عن الأندلس لا يزال قليلاً ، وإن نشر أى نص جديد يسد فراغاً كبيراً لما يذيعه من معان وخصائص أدبية ولما تفتقر إليه المصنفات المنشورة من نصوص أخرى ، تسندها وتقوم ما فيها من خلل ونقص .

هذا الكتاب يعد في الحقيقة رائداً للحركة التي بدأت منذ منتصف الخمسينيات لتحقيق النصوص الأندلسية على أساس منهجية قوية ، ويسعدني أن أعرف بأن كل من عملوا في هذا الميدان بعد ذلك من أمثال الدكتور إحسان عباس ، وكاتب هذه السطور وغيرهم من تلاميذ شوقي ضيف - سواء أكان ذلك بطريقة مباشرة أو غير مباشرة - فإنهم قد اتخوا من تحقيق "المغرب" نموذجاً ومثالاً يحتذوه ويسيرون على هديه .

نقط العروس ، والدرر في اختصار المغازي والسير :

و قبل أن يظهر كتاب المغرب ينشر شوقي ضيف بعض الآثار الأندلسية الصغرى - و نعني بصغرها هنا الحجم لا القيمة - فمن ذلك تحقيقه لرسالة "نقط العروس" (في مجلة كلية الآداب جامعة القاهرة المجلد ١٢ - سنة ١٩٥١) وهي على صغرها (إذا تبلغ نحو خمسين صفحة) من أنفس النصوص الأندلسية وفيها يسجل ابن حزم طرقاً ونكتاً من أخبار الأندلس التي لا توجد إلا فيه ، ويكتفى أن نذكر أن مقدخ الأندلس الأكبر ابن حيان القرطبي لا يكتف عن التقاط هذه الأخبار التي اشتملت عليها الرسالة ، وإيرادها في كتابه اعترافاً بقيمتها وتقديرها لمكانة مؤلفها الذي كان أبوه أحمد بن سعيد بن حزم وزير المنصور بن أبي عامر وشقيق الصلة بدولته مطلعاً على بواعظ أخبارها ، وقد كان المستشرق الألماني زابيلواد Seybold نشر هذا النص من قبل في مجلة كانت تصدر بغرناطة سنة ١٩١٧ ، غير أن الدكتور شوقي ضيف عشر على مخطوطة أخرى للرسالة تحتوى على زيادات كثيرة فضلاً عن كونها موقته ، إذ هي برواية الحميدي صاحب "جنة المقتبس" وتلميذ ابن حزم ، فرأى أن يعيد نشر النص على أساس هذه المخطوطة ، مع تصويب ما وقع فيه المستشرق الألماني من أخطاء .

رأينا كيف كان شوقي ضيف بحسه الذكي ، ونظراته الثاقبة ، يهتدى فى تحقيقه للنصوص الأندلسية المخطوطة التى هى أنفس النخائر فى النحو والأدب والتاريخ ، على أنه لم يهمل الثقافة الدينية الأندلسية ، فإذا به يعثر فى سنة ١٩٦٦ على نص آخر بالغ القيمة هو كتاب " الدرر فى اختصار المغازي والسير " لفقىه المحدث الأندلسى أبي عمر يوسف بن عبد الله بن عبد البر التمجرى (المتوفى سنة ٤٦٣ هـ / ١٠٧١ م) ، وكانت نسخته المخطوطة الوحيدة - أتذاك - محفوظة فى دار الكتب المصرية ، وهى نسخة قديمة نفيسة تملكتها الزبيدي اللغوى وعليها تعليقات للعلامة المقرخ شمس الدين السخاوي ، وقد اضطاعت بنشر الكتاب لجنة إحياء التراث الإسلامى بالمجلس الأعلى للشئون الإسلامية ، ثم وقعت للدكتور شوقي ضيف مصورة عن نسخة مخطوطة أخرى فى الخزانة العامة للرباط ، وهى على تأخر تاريخ نسخها تتميز ببعض الزيادات ، ومن أجل هذا أعاد الدكتور شوقي ضيف طبع هذا الكتاب فى سنة ١٩٧٢ م .

والكتاب مختصر للسيرة النبوية مبني فى الأساس على سيرة محمد بن إسحاق ، ولو أنه يضيف إليه روايات أخرى من كتابي موسى بن عقبة وأحمد بن زهير بن حرب (ابن أبي خيثمة) ومن روايات أسانتنته من رجال الحديث بالأندلس ، ويلاحظ أن الروايات المحافظ بها فى الأندلس ، لا تتفق دائمًا مع روايات المحدثين المشارقة ، وإن كان ذلك لا يعني عدم صحتها ، فهناك اتفاق على أن لأهل الأندلس فى الحديث غرائب لم يعرفها كثير من المحدثين بالشرق مع اعتراف بجلالة حفاظ الأندلس ، ولهذا فإن هذه السيرة التى تلتقي فى كثير من تفاصيلها مع كتاب " جوامع السيرة " لابن حزم معاصر ابن عبد البر وصديقه ، تمثل لنا طريقة الأندلسيين فى رواية السيرة النبوية ، وقد بقى اعتزاز الأندلسيين برواياتهم التقليدية حتى من هاجر منهم إلى الشرق أو استقر فيه ، ويدل على ذلك أن سيرة ابن سيد الناس الباعمرى (المتوفى سنة ٧٣٤) ، وهو مصرى من أصل أندلسى ينكر فى رواياته على كتاب ابن عبد البر ، ويقدم لنا استمراً لذلك التقليد الأندلسى فى رواية السيرة ، ومن هنا أنت أهمية هذا الكتاب الجليل الذى أهداه شوقي ضيف لمكتبة السيرة النبوية .

تاريخ الأدب الأندلسي :

ناتى فى النهاية إلى هذا الكتاب الذى توج به شوقى ضيف جهوده فى ميدان الدراسات الأندلسية وهو المجلد السابع من مجموعة تاريخ الأدب العربى (عصر الدول والإمارات) وقد كان هذا آخر ما أصدره الدكتور شوقى ضيف سنة ١٩٨٩ . وهو ثمرة لإعداد طويل واستيعاب لكل ما أخرجه المكتبة العربية من نصوص ودراسات حول الأندلس منذ سنة ١٩٥٠ حتى اليوم ، وجدير بالذكر أن حركة نشر النصوص والدراسات حول الأندلس قد نشطت كثيراً خلال هذه السنوات الأخيرة ، ولهذا فإن الدكتور شوقى ضيف لم يشا أن يتوجل الكتابة فى تاريخ الأندلس الأدبى ، مع أنه كان قادرًا على ذلك منذ آخر كتاب " المغرب " ، بل أثر أن يمعن الإطلاع على كل ما نشر عن الأندلس فى هذه السنوات ، حتى يصدر كتابه على نحو ما صدرت به كتب مجموعة فى تاريخ الأدب فى الدقة والاستقصاء .

ولسنا نبالغ إذا قلنا إن هذا الكتاب هو أجمع كتاب فى تاريخ الأدب الأندلسى مصدر حتى الآن ، صحيح إن محاولات عديدة سبقته إلى ذلك ، ولكنها محاولات كانت قاصرة : إما على عصر من عصور هذا الأدب ، أو على ظاهرة من ظواهره ، أو شخصية من شخصيات ، أما الكتاب الجامع المجمل لتاريخ الأدب الأندلسى فهو أول ما يعالج هذا الميدان ويسد الفراغ فى مكتبتنا الأدبية حوله .

والكتاب يلتزم بنفس المنهج الذى اتبעה شوقى ضيف فى كتب مجموعته ، فهو يبدأ بفصلين تمهيديين : الأول عن الأحوال السياسية والاجتماعية للبلاد ، والثانى عن الثقافة بوجه عام ، فيما يقدم لنا خلاصة محكمة لأوضاع الأندلس فى هذه الميادين . والفصل الثالث دراسة مجلمة للشعر والشعراء ، وفيه يتحدث عن تعرّب الأندلس وخصوصية بيئتها الشعرية ، ثم يختص بدراسة الفنون الذين كانوا من ابتكار الأندلسين وهم الموشحات والأزجال ، وهو هنا يطيل مناقشة المستشرقين الأسبان حول مسألة انتشار اللغة العجمية (لاتينية الأندلس) بين المسلمين الأندلسين ، وحول ما يذكره هؤلاء المستشرقون ومن أهمهم خوليان ريبيرا ، وغرسييه غومس وحول أصول الموشحات وعروضها ، وحول الخرجات العجمية التى ينتهي بها عدد من الموشحات ، وهو ينتصر

لالأصول العربية الشرقية المنشورة وينفي تأثيرها بالعجمية وعروض الشعر الروماني .

أما الفصل الرابع فهو مفرد للنثر وفيه يدرس الدكتور شوقي ضيف ألوانا من الفن النثري : الرسائل الديوانية والإخوانية أو الشخصية والأدبية ، ثم طائفة من المقلفات المتميزة مثل طوق الحمام لابن حزم ، ونشر اين حيان المؤرخ في كتابه .

الكتاب في جملته أوفى دراسة للأدب الأندلسي . والدكتور شوقي ضيف بخبرته الطويلة ونوعه المرهف ، يعرف كيف ينتهي من هذا الركام الأدبي الأندلسي خير ما فيه .

هذا جانب واحد من جوانب نتاج أستاذنا الدكتور شوقي ضيف ، ولعله أقل الجوانب تصمييًّا من اهتمامه في تاريخ الأدب العربي بحكم حجم الأدب الأندلسي بالنسبة لآداب العرب ، ومع ذلك فعنایته بهذا الجانب لا تقل عن عنایته بسائر ما عالجه الدكتور شوقي ضيف على طول مسیرته العلمية والأدبية .

أ. د. محمود علي مكي

أستاذ الأدب الأندلسي

كلية الآداب - جامعة القاهرة

٦ - منهج شوقي ضيف في الدراسات الأدبية

د. يوسف حسن نوبل

١ - إن محاولة التعرف على منهج الباحث الأدبي لا تتفصل عن محاولة التعرف على مناهج الباحثين السابقين والمعاصرين له؛ ذلك أن الباحث لا يظهر في فراغ أدبي، أو أفق حاكم، أو صحراء مجده. بل ترسخ جنوره، وتورق أغصانه وسط رياض حافلة بما قدمه الفكر العالمي: القديم والمعاصر، والفكر المحلي: التراثي والحديث.

ونحن بين يدي العطاء الأدبي لشوقي ضيف في حقل الدراسات الأدبية، نجد من الأهمية بمكان أن نلقي نظرة سريعة، تتعرف من خلالها على ما أنجزه الباحثون السابقون في هذا المضمار، ومن مهدوا الطريق، طريق البحث العلمي الجاد أمام المدرسة العلمية المنهجية التي أسسها، ورادها عالمنا الكبير "د. شوقي ضيف"، وأسهم فيها إسهامات متقدمة ما بين الآثر الأدبي المطبوع والمسموع، والآثر الأدبي الأكاديمي التعليمي، وبخاصة في حقل الرسائل العلمية، وكل مجال من هذه المجالات يستحق دراسة خاصة به تستكمله أعمقه، وتستشرف آفاقه لبيان الملامح الفنية لمنهج البحث الأدبي لعالمنا الكبير.

لباحث أن يقف على منهجه الأدبي في محاضراته المسموعة، ولباحث ثان أن يتأمل منهجه الأدبي في إشرافه العلمي على رسائل الماجستير والدكتوراه، وما أثاره من ثمرات يانعه يفرج عبرها في أرجاء المجتمع العلمي العربي، مقتربة بأعلام لهم مكانتهم العلمية، وإسهامهم في حقل الدراسات الأدبية، خرجوا - جميعاً - من عباءة شوقي، ويتعلمونوا على يديه بطريق مباشر أو غير مباشر، عن كتبٍ أو عن بعد.

وأمام هذا التعدد الخصب لا نملك إلا أن نحدد مجالاً لدراستنا ، نحصره في
ـ منهج شوقي ضيف في الدراسات الأدبية ـ من خلال آثاره المطبوعة .

* * *

٢ - إن حركة الاهتمام بالدراسات الأدبية الحديثة في أبينا متصلة أشد الاتصال بموقف الدارسين من مصطلح "علوم الأدب" ، واتساعه ليشمل عددهم ما يتصل بالأدب من تقويم اللسان وتصحيح الملوكات ، ومن اختلاف في عدد هذه العلوم ، وفي تنوعها ما بين الأصول والفروع ، حتى لتشمل - عند أصحاب المنهج التقليدي - فروع اللغة والتقاليف ، قبل أن يتحدد مجالها لدى المحدثين من دراسى الأدب العربى .

كما أن حركة الاهتمام بالدراسات الأدبية متصلة أشد الاتصال ببيانات وافية عن طريق البعثات ، والمستشرقين من أمثال بروكلمان ، وتليليو وغيرهما ، فإذا ما حاولنا الوقوف على أمهات المصادر العربية الحديثة في هذا المجال دون خوض في التفصيل ، وجدناها متمثلة في بواكير الدراسات التي ظهرت في أواخر القرن التاسع عشر ، وأوائل القرن العشرين ، وكانت هذه الباواكير البدنة الأولى في صرح الدراسات الأدبية ، برغم ما يفتقر إليه بعضها من منهجية أو شمول ، وبرغم ما يمكن أن يوجه إليها من ملاحظات فنية .

قد نجد من بين هذه الدراسات ما يستهدف انتخاب المعارف والمعلومات ، والمخترارات الشعرية وال-literary ، وعرض الحكم في لغة تجمع بين الاسترسال والسبع ، كما يبيو في خطوة رفاعة رافع الطهطاوى (١٨٠١ - ١٨٧٣ م) ، في كتابه (مناهج الآباء المصريين في مباحث الآداب العصرية) سنة ١٢٨٦هـ ، ممثلة تجربة أدبية لا تعنى أنه كان يدور بخلد صاحبها أن يقدم دراسة أدبية بالمعنى الدقيق لهذه الكلمة .

وفي هذا النسق كانت تجربة محمد سعيد جعفر في كتابه (السر في انتقاد الشعر) ، الذي نشر منجماً في مجلة (روضة المدارس) منذ رمضان ١٢٩٣ / ١٨٧٦ م .

على أن هذه المرحلة الباكرة أسفرت عن محاولة أكثر نضجاً ، تمثلت في (الوسيلة الأدبية إلى العلوم العربية) . وهي جملة محاضرات الشيخ حسين المرصفي (١٨٥٠ - ١٨٩٠ م) ، وظهرت طبعة الجزء الأول منها عن مطبعة المدارس الملكية سنة ١٢٩٢هـ / ١٨٧٢م ، والجزء الثاني ١٢٩٢هـ / ١٨٧٥م .

وهكذا فتح باب الاهتمام بدراسة آدابنا ؛ دراسة تدنو ، أو تبعد من اتصالها بالطابع التقليدي لفهم الأدب ودرسه ، ثم التيارات الواقفة عن طريق البعثات والمستشرقين ، ويمكن أن نشير - بإيجاز شديد جداً - إلى طائفة من هذه الدراسات التي هي - في حقيقة الأمر - الخطوات التمهيدية لما نجنيه الآن من منهج علمي ، يؤدي ثماره اليابنه على أيدي أعلامه البارزين .

هذه الدراسات الباكرة من مثل ما قدم :

محمد دباب الذي انتهى من تأليف كتابه (تاريخ أداب اللغة العربية) سنة ١٨٩٧م ، كما نفهم من تقرير حمزة فتح الله عن فحص هذا الكتاب الذي طبع سنة ١٩٠٠م ، وحسن توفيق العدل (١٨٦٢ - ١٩٠٤م) إثر عوبته من ألمانيا ، وقيامه بالتدريس في المدارس العليا ، وقد صدر كتابه (تاريخ أداب اللغة العربية) سنة ١٩٠٤ عام وفاته بإنجلترا ، وروحى الخالدى المقدسى (١٨٦٤ - ١٩١٣م) في كتابه (تاريخ علم الأدب عند الإفرنج والعرب) ، وكتبه سنة ١٩٠٢م في فرنسا ، وظهرت طبعته الأولى سنة ١٩٠٤ ، وسليمان البستاني (١٨٥٦ - ١٩٢٥م) في مقدمة الإليانة سنة ١٩٠٤م ، وقسطاكى الحمى (١٨٥٨ - ١٩٤١م) في (أدباء حلب نوو الآخر في القرن التاسع عشر) .

ولنا أن نذكر (إنشاء العطار) للشيخ حسن العطار (توفي سنة ١٨٣٤) ، كما نذكر جهوداً غير مكتوبة للأفغاني (١٨٢٨ - ١٨٩٧م) ، ومحمد عبده (١٨٤٩ - ١٩٠٥م) ، وعبد الهادى نجا الإبياري (١٨٢٠ - ١٨٨٨م) ، والشيخ عبد الله الشرقاوى (١٨٣٧ - ١٨٨٢م) .

وكان كتاب (المواهب الفتحية في علوم اللغة العربية) لمحنة فتح الله (١٨٤٩ - ١٩١٨م) من بواكير هذه الأعمال ، غير أن مؤلفه - كما يذكر السباعي بيومي في مقدمة كتابه : " نظر إلى الأدب كأنه فن لا يستند إلى علم ، أو كان دراسته - بعيدة عن تاريخه - كافية في تكوين الأدب " ^(١) .

وقدم حفني ناصف (١٨٥٦ - ١٩١٦م) : (حياة اللغة العربية) سنة ١٩١٠ .
وأحمد الإسكندرى : (تاريخ أداب اللغة العربية في العصر العباسى)
سنة ١٩١١ .

ومحمد على المنياوي : (الشذرات السنوية في تاريخ أداب اللغة العربية)
سنة ١٩١١ .

وجورج زيدان (١٨٦١ - ١٩١٤) : (تاريخ أداب اللغة العربية) سنة ١٩١١ .
ومصطفى صادق الرافعى (١٨٨٠ - ١٩٣٧) : (تاريخ أداب اللغة العربية)
سنة ١٩١١ .

وطه حسين (١٨٨٩ - ١٩٧٣) : (تجديد نكرى أبي العلاء) الذي حصل به
هلى درجة الدكتوراه سنة ١٩١٤ ، وطبعه سنة ١٩١٥ ، ثم ثورته المنهجية في كتابه
(في الشعر الجاهلي) سنة ١٩٢٦ ، ثم ما أدخله من حنف وإضافة تمثلت في الصورة
الجديدة لكتاب السابق ، وذلك في كتابه (في الأدب الجاهلي) سنة ١٩٢٧ ، وما دار
حول هذه الثورة المنهجية من حوار ساخن مما لا تخوض في تفصيلاته هنا ، وإن كان
لا يفوتنا التقويم بأهميته وعظمته .

وهكذا تتبعنا جهود كل من :

أحمد حسن الزيات (١٨٨٥ - ١٩٦٨) في (تاريخ الأدب العربي) سنة ١٩٢٨ ،
ومحمود مصطفى في (الأدب العربي وتاريخه في صدر الإسلام والدولة الأموية)
سنة ١٩٣٢ ، وذكر مبارك (١٨٩٢ - ١٩٥٢) الذي كتب بين سنة ١٩٢٧ وسنة ١٩٣٠

(١) السباعي بيومي ، تاريخ الأدب العربي ج ١ ، العصر الجاهلي ، النهضة ١٩٤٨ ، ص ٦ .

رسالته لنيل درجة الدكتوراه في (النشر الفنى فى القرن الرابع) ، وصدرت سنة ١٩٢٤ . وأحمد الشايب في كتابيه : (تاريخ الشعر السياسي إلى منتصف القرن الثاني) سنة ١٩٤٥ ، و (تاريخ الأدب العربي) سنة ١٩٤٨ ، ومحمد هاشم عطية في (الأدب العربي وتاريخه في العصر الجاهلي) ، وأنطيس الخوري المقدسي (١٨٨٥ - ١٨٩٥ - ١٩٦٦) ، والقاد (١٨٨٩ - ١٩٦٤) ، ومحمد حسين هيكل (١٨٨٨ - ١٨٥٦) ، وأحمد أمين (١٩٥٤ - ١٨٨٧) ، ومحمد خلف الله أحمد ، وعبد الوهاب حمودة ... إلخ .

ونكاد نستفرق وقتاً طويلاً لو مضينا مع الحصر والاستقصاء لأعمال أخرى وما حمل اسم المفصل ، أو المجمل ، أو الوسيط ، أو الموجز ، أو المنتخب ، كما تقضى وقتاً أكثر طولاً لو رحنا مع مضمون هذه الدراسات تتعرف على منهاجها ، وما بها من محسن ومحاذد ، غير أن علينا الآن أن نقنع بهذه العجالة توطننة للحديث عن ميلاد باحث ، ويزوغ نجم علمي وسط تفكير أدبي ركز الحديث عنه أحمد الشايب في مقدمة (تاريخ النقد الأدبي عند العرب من العصر الجاهلي إلى القرن الرابع الهجري)^(١) لطه إبراهيم ، إذا رأى أن التفكير الأدبي يتوجه في أحد اتجاهين :

- اتجاه غربي يعزلنا عن بيتنا الأبية ، ويستبط قوانين خارجة عنها .

- واتجاه يقف عند ما كتبه الأقدمون فيقع في أحكام جزئية ، سريعة ، ويقعن بالسابقين فحسب ، و يجعل الأدب العربي وحدة مستقلة ، لهذا رأى أن تكون الدراسة فنية تعنى بالأصول والطرائق والمقاييس ، وتاريخية تهتم بالماضي ، وأطوار النشأة .

وقد ذهب محمد التويهي في مقدمة كتابه (ثقافة الناقد الأدبي)^(٢) إلى أن بعض كتب تاريخ الأدب هذه صرفت المتعلمين عن الأدب العربي ، وقطعت عليهم الصلة بمصادره الأصلية ، إلى أن رأى أن مثوى هذه الكتب (النار) !! بل وصفها بأنها كتب (شنقاء) ! لقيامها - كما يقرر - على أشتات من المعلومات ، وعلى الأحكام

(١) لجنة التأليف والترجمة والنشر ، ط ١٩٣٧ .

(٢) الغانجي ، دار الفكر ط ٢ ، بيروت ١٩٦٩ ، ص ١١ ، وما بعدها . وانظر نقده الشديد لكتاب (الفن ومذاهبه في الشعر) ص ٤١ وما بعدها .

الجزافية غير الصحيحة ، وعلى الاستظهار ، إلى آخر ما ساق النويهي من نقد لتلك الكتب المدرسية مستنئاً (المجمل) ، معللاً ذلك بأن طه حسين أحد مؤلفيه .

وما يعرضه النويهي ، هو استمرار لما سبق نوّقش في مطلع العقد الثاني من القرن العشرين ، ففي سنة ١٩١١ شرع طه حسين ينقد كتاب جورجى زيدان على صفحات مجلة الهدایة ، مناقشاً التفرقة بين كتب الفهرسة - ولعله يقصد العلم الذى نضع بعد ذلك وهو علم الببليوجرافيا - من ناحية ، وكتابة تاريخ الأدب من ناحية أخرى ومتعرضاً على أتباع تقسيم الأعصر السياسية ، تلك التى تجعل الأدب متاثراً بالحوادث ولا تجعله مؤثراً فيها .

وفى سنة ١٩١٥ عاد فى مقدمة . تجديد ذكرى أبي العلاء) إلى الحديث عن تردد درس الأدب فى مصر بين تيارات : أحدهما المذهب القديم ، والثانى مذهب الأوليين ، والثالث بين المذهبين ، وصفه بأنه "مشوش ردئ كله شر" ، وكيف اهتمت الجامعة بالمذهبين الأوليين .

وفى سنة ١٩٢٦ عاد فى مقدمة (فى الشعر الجاهلى) إلى مناقشة القضية ذاتها ، متناولاً مفهوم مصطلح (الأدب) ، والصلة بينه وبين تاريخ الأدب ، ومقاييس تاريخ الأدب من المقياس السياسى الذى ينكره ، والمقياس العلمى الذى يعدل عنه كما عدل عن الآخر ، والمقياس الأدبي الذى يختاره ويتحذه سبيلاً للبحث .

كما رأى محمد حسين هيكل أن جورجى زيدان ، والرافعى ، لم يوقفا فى الجزأين الأوليين من كتابيهما : إذ رأى أن تاريخ الأدب يجب ألا يقوم على سرد الوقائع ، أو أخبار الرجال وأرائهم ، كما لا يقوم على العناية بالأعراض دون الجواهر ، أو الانسياق وراء العاطفة ، أو عدم الاعتماد على الأدلة والبراهين ، أو عدم تحرى الدقة ، وكما عرض لذلك فى كتابه (فى أوقات الفراغ) ^(١) ، عرض فى كتابه (ثورة الأدب) ^(٢) آراءه حول الأدب القومى .

(١) القاهرة ١٩٤٨ .

(٢) مطبعة مصر . د . ت .

ولم ينفصل ذلك كله عن تيارات الفكر المعاصر المتراوحة بين الافتتان بالغرب ، والاتجاه إليه ، وبخاصة لدى العائدين من البعثات الخارجية ، أو الالتزام بالمحافظة ، أو التردد بين التيارين في حدة غربية مسروقة ، أو حدة مادية متطرفة أو ميل فرعوني طارئ .

وبين هؤلاء وأولئك ، وجدنا من يفتتون بجمال الصياغة والأسلوب ، كما وجدنا من يهتمون بالقيم والأفكار الكامنة في المضمون دون إهمال لشكل ودون إسراف في تجميله ، كما وجدنا طائفة من التجاوزيين علمياً في معارك أدبية متعددة .

ولستنا بسيط بسط القول في الإبانة عن مضمون ما سبق من دراسات ، ومدلول كل ما سبق ذكره من مصطلحات ، فقد سبقنا بتفصيل القول عنها ، كما أنتنا ننكر ذلك كله لتعرف على البيئة الفكرية والأدبية التي استقبلت إسهام عالمنا الكبير شوقي ضيف الذي وجد من الضرورة الإسهام في استكمال ما بدأه السابقون من بناء ، فلم يقتصر دوره على ذلك فحسب ، بل أضاف وابتكر ، وجدد ونظر .

٣ - سبلان : أحدهما تنظيري ، والآخر تطبيقي :

ولكي نقف على جهوده نرى من الضروري الإشارة إلى أن إسهام شوقي ضيف اتخذ سبليين : أحدهما تنظيري ، والآخر تطبيقي .

السبيل التنظيري :

أما السبيل التنظيري ، فيمكن أن نلتمس طريقنا إليه في مصدرين : أحدهما : مقدمات كتبه جميعها ، وفيها نراه حريضاً على ذكر تاريخ كتابتها باليوم والشهر والسنة .

واثنيهما : كتابه (فى النقد الأدبي) الذى وضعا فى أبريل ١٩٦٢ .
وكتابه (البحث الأدبى : طبيعته - مناجهه - أصوله - مصادره) الذى وضعا
فى فبراير ١٩٧٢ .

ولا شك أنه قد التفت إلى تنوع اهتمامات الدارسين بين الانشغال بما حول الأدب
من حياة صاحبه وبنته ، ومجتمعه ، وعصره ، وظروفه السياسية ، والاجتماعية ،
والاقتصادية ، أو الجماع بين ذلك وبين الاهتمام بالعمل الأدبي ذاته من تحليل وتفسير
وبقوعه وتنوّع .

لقد رأى جورجى زيدان - كما يذكر في مقدمة الجزء الثاني من كتبه (١) -
ضرورة وجود شروط ثلاثة للتأليف ، هي :

اختيار الموضوع الذي تحتاجه الأمة ، وسبكه في قالب يسهل تناوله ، في لهجة
صادقة صريحة دون انحياز لطائفة أو حزب .

كما رأى افتقار الأبحاث الأدبية إلى إعمال الفكرة من ترتيب وسبك ، في عبارة
سهلة غير ركيكة . كما مضى متسائلاً عن معنى تاريخ الأدب واتصاله بالمعنى العام
لكلمة الأدب ، أو الخاص لها ، وتفاوت الاهتمام بين الإحاطة بحياة الأدباء أو الإحاطة
بالكتب . أما منهجه ، فيجمله بقوله :

ـ فقد أردنا أن نجمع بين كل ذلك على ما بلغ إليه الإمكان ... متحداً عن نسق
الكتاب : أي : تقسيمه وجعله للناشرة .

ونقف من على حقيقة ذات أهمية بالغة تفرق بين دارس وأخر ، مرجعه إلى فهم
الأدب بمعناه العام ، كما رأينا لدى من أرخ لأدابنا من المستشرقين ، وكما صنع
جورجى زيدان ، أو فهم الأدب بمعناه الخاص . وهذا ما ارتاه شوقى ضيف فى
دراساته الأدبية على نحو ما يحدثنا فى مقدمة كتابه (العصر الجاهلى) (٢) ، حيث

(١) جورجى زيدان ، تاريخ اللغة العربية ، ج ٢ ، الهلال ، من ٣ وما بعدها .

(٢) كتب المقدمة في ٢٠ ديسمبر ١٩٦٠ ، ورجعنا للطبعية السادسة في سلسلة تاريخ الأدب العربي - ١ ،
دار المعارف ، ١٩٧٤ .

رأى أن يدرس الأدب بمعناه الخاص ليقف على الجمال الفنى ، غير مكتف بالنبذ المجملة ، كما رأى لا نبطل فكرة الشخصية الأدبية والمواهب الذاتية مع مراعاة الجنس والزمان والمكان ، وتطور الأجناس الأدبية على نحو ما درس فن المقامات وتولدها من الأرجوزة ، مع الوقوف عند أساليب الأدباء وتشكيلاتهم اللفظية والجمالية .

لقد أدرك عالمنا الكبير - كما يعبر في المقدمة ذاتها افتقار تاريخ أدبنا العربي إلى طائفة من الأجزاء المبوسطة تبحث فيها عصوره من الجاهلية إلى عصرنا الحاضر ، كما تبحث شخصياته بحثاً مسهباً بحيث ينكشف كل عصر انكشافاً تماماً بجميع حدوده وبيئاته وأثاره .

كما أدرك صعوبة المهمة ، يقول :

" وقد حاولت أن أنهض بهذا العباء ، وأن أعلم تقل المدونة فيه " ، مطلباً لذلك بأسباب ، هي : بقاء بعض المخطوطات دون نشر ، أو دون نشر علمي ، وأن بيئات أدبية يغمرها غير قليل من الظلم ، وأن تحليل الأعمال الأدبية ليس عملاً سهلاً ، ويقرر - بتواضع العلماء - : " أن ما يقدمه - في كل عصر - لا يحمل الصورة الأخيرة للعصور المتعاقبة ، ولا يمنع من إضافة اللاحقين ، فتلك طبيعة الأبحاث يمكن بعضها بعضاً " .

ويعينا هنا ما يتصل بتحليل الأعمال الأدبية ، إذ أدرك عالمنا بعض ما كان يعزى الدراسات السابقة ، من فقدان ظاهرة الاهتمام بالنص وصاحبـه ، ولهذا كان حريصاً على التاكيد على هذا الجانب في مقدمات كتابه ، فهو في المقدمة التي تحمل تاريخ سنة ١٩٧٣م لكتابه (العصر العباسي الثاني)^(١) يصوّر " تمثـلـ الشـعـراءـ خـصـائـصـ الـعـربـيـةـ وـيـقـائـقـهاـ الـجـمـالـيـةـ وـالـموـسـيقـيـةـ " ، وـيـهـمـ " بـالـاخـلـيـةـ الـمـبـدـعـةـ " ، وـيـذـكـرـ :

" ويبحث بحثاً تحليلياً تاريخياً لأعلام الشعراء في العصر " ، ليقف على أشعار على بن الجهم ، وأروع أشعاره " ما نظمـهـ فـيـ الاستـعـطـافـ وـفـيـ تصـوـيرـ صـلـابةـ نفسـهـ " ، ويقف عند البحترى ليري " ما سخر له من تللوين الجمال الموسيقى الآسر وأنقامه

(١) نرجع إلى ط ١٩٧٣ ، دار المعارف .

وألحانه الرائعة ، كما يقف على أفكار ابن الرومي وتصوراته الجديدة ، وابن المعتز والصفوييري ... إلخ .

ووصلنا فى معظم مقدمات كتبه تنويه بنزعة " النقد والتحليل " فى أعماله ،رأينا ذلك فيما أشرنا إليه من مقدمتين ، كما نراه فى مقدمة كتابه (فصول فى الشعر ونقده)^(١) ، كما نراه فى مضمون هذا الكتاب ، وفي غيره من كتبه .

وهناك جانب آخر يتصل بتقسيم العصور الأدبية وفقاً للعصور السياسية ؛ من الجاهلية ، فالإسلام حيث صدر الإسلام فى عصر الخلفاء الراشدين ، ثم العصر الأموى ، ثم العصر العباسي : الأول فى مائة عام ، والثانى بقية العصر ، أو إلى سنة ٩٤٥هـ - ٢٣٢٤هـ ، حيث استولى بنو بويه على بغداد حيث بيدأ العصر الثالث حتى استيلاء التتار على بغداد .

أما شوقى ضيف فيذكر فى مقدمة كتابه (العصر الجاملى) أنه يرتضى تقسيم العصرتين الأولين ، أما العصر الثالث ، وهو العصر العباسي فيبقى منه على الأول حتى ٢٢٢هـ ، والثانى حتى ٢٣٤هـ . ثم بيدأ بعصر رابع يمتد حتى العصر الحديث ، ويسميه عصر الدول والإمارات ، حيث يرى أن يذرخ لكل إقليم على حدة ، حتى إذا انتهينا من ذلك أرخنا للعصر الحديث ؛ والتعليق الذى يقدمه شوقى ضيف لذلك التقسيم ، ويراه أكثر دقة وتطابقة لتطوره ، هو أن بغداد لم تعد منذ القرن الرابع الهجرى تحمل المكانة الأولى فى الحركات الأدبية ، بل لقد نافستها فى الشرق والغرب مدن كثيرة تفوقت عليها فى النهوض بالشعر والنشر تفوقاً واضحاً .

وقد يجوز لنا أن نبني على هذا التعليق تساولاً حول اعتبار عالمنا الكبير العصر الحديث - الذى بيدأ بالجملة الفرنسية على مصر سنة ١٢١٢هـ - ١٧٩٨م - عصراً واحداً كما هو عند جميع الدارسين ، وهنا نتسائل ألا يحق لنا أن نجعل لهذا العصر صدرأً يتصل بمرحلة الإحياء والبعث ، ثم نجعل له مراحل مما يتصل بمظاهر التغيير ، مما يعود - في مجمله - للحروب ، وما تحدثه من تغيير ، هذا تساؤل عارض نقدمه بين يدي البحث ، ولعله يحظى بالتفاوتات الواقعية لعالمنا الجليل .

(١) نرجع إلى ط٢ ، ١٩٧٧ ، دار المعارف .

وكما كان لشوقى ضيفاً أن يسنن طريقةً جديدةً وأضحكاً في الدراسات الأدبية مizer عن الألوان التجريبية التي سادت منذ أواخر القرن الماضي - مما نكرنا - كان له أن يبني منهجه على ما يكونه من رأى ليس شخصياً بقدر ما هو موضوعي ، يولد نتيجة الدراسة العلمية ، ولعل أصدق ما يساق في هذا المجال توضيحاً لهذه المقوله التي نطرحها ، كتابه عن أحمد شوقي أمير الشعراء الذي فاز بجائزة الدولة التشجيعية للأدب سنة ١٩٥٥م ، بعنوان (شوقي شاعر العصر الحديث) .

حقاً ، لقد ظهرت بحوث عديدة حول أحمد شوقي ليس من بينها - كما يعبر عالمنا - "بحث منظم" ، يقول في المقدمة التي كتبها في أول يونيو ١٩٥٢م :

"فقد اكفرت الأجواء الأدبية إزاءه بالثناء المسرف والطعن المجنف ، وأصبحنا لا نعرف أين الوجه الصحيح ، ولا أين المقدمات السليمة ، ولم نعد ندرى أى الأحكام فيه صادق ، وأنها كانت ، وأنها مصيبة ."

ويذلك عميت علينا حقيقة شوقي ، بل حقائقه الفنية جميراً ، وكان هذا أكبر باعث لي على النهوض بهذه الدراسة التي لم أقصد بها إلى تهجيته ولا إلى تحسيته ، وإنما قصدت إلى بحثه وزنته بمعايير سهلة ، هي معايير النقد المنصف الذي لا يميل مع الهوى ، وإنما يسجل الطواهر الأدبية متبعاً مستقصياً فليس همه أن ينذر وينقص ، ولا أن يزخرف ويزين ، وإنما همه أن يصور الحق ويكشف الصواب .

وهكذا نجد وجهاً من وجوه الإضافة العلمية المنهجية للدراسة الأدبية العربية المعاصرة ، يقوم على الحكم الموضوعي ، وتأمل الظواهر والاحتکام إليها فيما يصدر من أحكام ، كما نرى إبطال نظرية مجازة الفيير في آرائهم دون تمحیص ، وإبطال مبدأ البحث الاتفعالي العاطفي الذي يميل مع الهوى ، وإبطال مبدأ النيدة العجلی المبتورة ، مما كانا نراه في الدراسات الأدبية السابقة لعصر شوقي ضيف .

بل إننا نراه في هذا الكتاب يقدم لناً جديداً على الدراسات الأدبية طالما أفاد منه
النفسيون في دراستهم للأدب ، وهو دراسة المسودات الأدبية ، وقد طبقه على شيء من
شعر شوقي الغنائي والمسرحي .

وقد ختم عالمنا المقدمة بقوله : " فنحن لم نضع هذا البحث تشيعاً لأنصاره ،
وكذلك لم نضعه تعصباً لخصومه ، وإنما وضعناه ابتعاداً تقويم شعره من جميع أطرافه
تقويمًا صحيحاً دقيقاً ."

ثم لا يلبث أن يعود للحديث عن شوقي ومكانته في الشعر الحديث في كتابه
(فصول في الشعر ونقده) من ص ٢٣١ - ٣٤٨ .

هذا عن المصدر الأول للجانب التنظيري عند عالمنا .

٤ - أما المصدر الثاني للجانب التنظيري عند عالمنا فنجد في كتابه (في النقد
الأدبي)^(١) ، حيث يذكر في المقدمة المكتوبة في أبريل ١٩٦٢ م أنه يقف عند تفسير
الجمال الفني وتعليله ، والصلات المنعقدة بين فنون الشعر والتصوير والموسيقى ،
والشعر وأوزانه وصياغته ونصوصه ، وتؤلياته وتجاربه ، وما ينبغي أن يتتوفر للقصيدة
من وحدة عضوية تامة .

ويعلن أن ما كتبه إنما هو آراء تمثلها ، ابتنى فيها الوضوح : لإيمانه " أن الكتب
لا تحتاج إلى شيء حاجتها إلى الوضوح " .

ولهذا نجد في الكتاب الاهتمام بالتنظير : أى رصد الظاهرة النقدية منذ بدايتها
العالمية حتى تطورها في العصر الحديث ، وصولاً إلى ما سماه شوقي ضيف (التاريخ
الطبيعي للأدب) ، ووصلواً مع الدراسات النفسية والاجتماعية ، لكنه وهو معنى
بمصطلحات الجمال ، والتجربة الشعرية ، والوحدة العضوية ، والأدب الاجتماعي ،
والنقد والنقد القصصي والمسرحى ، يكون معنىًّا أيضاً بالجانب التطبيقي مع عنايته
بالتنظير حتى لا تتجاذب مواطن الجمال في النص عن أساس نقاده ومناهج بحثه .

(١) ترجع إلى الطبعة السادسة - دار المعارف ، ١٩٨١ .

وفي مقدمة (البحث الأدبي) ^(١) المكتوبة في فبراير ١٩٧٢م ، لا يفوته أن ينوه بأنه لابد أن تكون لدى الباحث الناشي قدرة على التفتق الأدبي المطل ، والتحليل الدقيق لشخصيات الأدباء ، وفهم خصائصهم المميزة ، مع نقاوة العرض واكتمال التمثيل ، ومع الاحتياط فى استخدام صيغ التعميم .

ولأنه قد شعر بحاجة طلاب الدراسات العليا لمثل هذا البحث ، أخذ يعرض جوانب المنهج النظري جامعاً بينه وبين التطبيق فى كثير من الأحيان ترسيراً للفكرة وشرحها لها . فينتقل من الحديث عن طبيعة البحث الأدبي ، إلى تنوع المناهج بين العلوم الطبيعية ، والاجتماعية ، والنفسية ، والجمالية ، والاتجاه التكاملى الذى يميل إليه ويؤيده (١٤٤) ، كما يتناول الأصول بين التوثيق والتحليل ، والمصادر وتنوعها ونقدتها .

٥ - شوقى ضيف ونظريته فى حدة التراث :

إن فى تأمل مكتبة شوقى ضيف ب مجالاتها المتعددة ما يقينا على حقيقة مهمة هى صدوره عن نظرية أمن بها من قبل وطبقها فى بحثيه : الفن ومذاهبه فى الشعر العربى ، والفن ومذاهبه فى الشعر العربى ، وما زال يعود إليها بين الحين والحين ، ففى أكتوبر ١٩٨٠م نشر بمجلة فصول بحثاً عنوانه (وحدة التراث) ص ص ٩ - ١٨ ، وواصل الحديث عنها فى يوليو ١٩٨١م بالمجلة ذاتها ، فى بحث عنوانه (القديم الجديد فى الشعر) ص ص ١١ - ١٧ ، عودة إلى ما كتبه فى كتابه (فصول فى الشعر ونقده) حول (تقويم تراثنا الشعرى) ص ص ٩ - ٢٧ ، سنة ١٩٧١م ، امتداداً لما بدأه فى سلسلة تاريخ الأدب العربى ^(٢) .

إن ذلك ينبع - فى تصورنا - من نظرية فى (وحدة التراث) القائمة على الأسس التالية كما نوجزها من مقاله :

(١) نرجع إلى ط . ١٩٧٢ .

(٢) عن صلت بالأغانى للأصفهانى : الدكتور سيد النساج . رحلة التراث ، دار المعارف ، ١٩٨٤ ، ص ٢٥٢-٢٥٤ .

الأساس الأول : وحدة التراث الديني ، وعلى رأسه القرآن الكريم ، وما انبثق عنه من تفسير وحديث ومذاهب فقهية .

الأساس الثاني : وحدة التراث النحوي واللغوي والبلاغي .

الأساس الثالث : وحدة التراث المتصل بعلوم الأوائل كالفلسفة والطب والطبيعة والكيمياء ... إلخ .

الأساس الرابع : الوحدة الظاهرة في نظام الأدب وقواعده : شعراً ونثراً .

الأساس الخامس : كتب تراجم المفسرين والقراء والمحدثين أو الحفاظ للحديث النبوي والنحوة وكتب التاريخ العام .

ولهذه يرى الشعر متجاوزاً المكان والزمان ؛ لأن تعامله مع النفس البشرية يجعله ثابتاً لا يتغير في جوهره ، فيكون قدِّيماً في زمن ظهوره ، جديداً في زمن تأثيره ، ومكذا يكون شعر المدح قدِّيماً وجديداً ؛ لأنَّه صادر عن وحدة تتمثل في : الطبيعة البشرية ، والإيقاع ، والخيال ، والصياغة ، وهذه الوحدة التي تعد أساس التفكير المنهجي عند شوقي ضيف - في نظرنا تقسر ظواهر عديدة في عطائه السخي ، فهي تفسير اهتمامه بتاريخ الأدب العربي ، حيث تعاقبت إصداراته عن العصر الجاهلي والإسلامي والأموي والعباسى ، ودراساته عن الفن ومذاهبه في كل من : الشعر والنثر ، ودراساته في الأدب المعاصر ، والشعر المعاصر ومعظم شعراته المعاصرین ، وبخاصة : البارودي وشوقى في كتابيه ، وفي ثنایا كتب أخرى ، وفي نظير معاصر لهما له دوره في الشعر الجديد ، وهو صلاح عبد الصبور الذي يكتب عنه بحثه (صلاح عبد الصبور رائد الشعر الحر الجديد) ، وـ (وكان يتعاطف معه) ، حتى يقرر زيادة صلاح عبد الصبور لهذا الشعر ، كما يكتب عن (نواقص الإيقاع في الشعر الحر) من ٢٠١ بكتابه (فصول في الشعر ونقده) ، كما يكتب عن الفناء والشعر وطوابعه الشعبية ، وفنون الأدب : الرثاء والمقامة ، والترجمة الشخصية ، والرحلات .

كما يكتب في النقد والمناهج ، ويؤرخ للبلاغة والمدارس النحوية ، بل يقدم كتابه (تجديد النحو) ، ويسهم في التحقيق ، والدراسات القرآنية ، ويمزج بين الدرس

اللغوى ، والأدبى ، والنقدى ، والمنهجى ، فى مقالات عن الحوار المسرحى بمجلة المجمع اللغوى (مايو ١٩٧٨ ، مايو ١٩٨٠م) ، فيتتحدث عن الفصحى والعامية وعن اللغة الثالثة .

إن هذا يعود - فى مجلمه - إلى نظرة أصحاب المنهج التاريخي فى تأثير الحاضر فى فهم الماضى باستخدم (القياسى التاريخى) .

وفى ذلك كله - مما أوجزناه إيجاراً تحاشياً للإطالة - نراه يضرب بسهم وافر ، ويحيط بإحاطة شاملة واعية ، وما ذلك - فى نظرنا - إلا لإيمانه بوحدة التراث ، تراث أمتنا ، خاصة حين يدنو من الأدب ، أو النقد ، أو البلاغة ، أو النحو ، أو التحقيق ، أو الدراسات القرآنية ، حتى ليتمكن لنا أن نزعم - بونما مبالغة - أنه لم يتيسر لباحث محدث أن يحيط بدرس أدب أمته من أعماق ماضيها البعيد ، إلى أوج حضارتها المعاصرة بدرجة واحدة من الإحاطة والشمول ، والتتمثل والاستيعاب ، متئماً تيسراً لباحثنا الكبير الذى استخلص لنفسه منهجاً ، واصطفى سبيلاً بين تيارات صاحبة بين التراثية والغربيّة والفرعونية ، بين سكينة اليقين وثباته ، وصخب الشك وأضطرابه ، فى منهج ، أبسط ما يقال فيه : إنه منهج تكاملى يجمع بين الرؤية الداخلية والرؤية الخارجية ، كما سنرى .

٦ - المنهج التكاملى :

لقد تمثل شوقي ضيف جهود المنهجيين السابقين فى العصور القديمة والحديثة ، فى تراثنا العربى والتراث العالمى ، لم يغب عن ذهنه جهود منهجية أفادت من قوانين العلوم الطبيعية ، فاتجهت إلى أن الأدب ، وأدبه ثمرة قوانين قديمة وحاضرة ومستقبلة ، وتجعل من الروابط ما يضم الأديب وبذلك تتكون عناصر :

الجنس أو الفطرة الموروثة ، والبيئة أو الوسط الجغرافي ، والعصر أو الزمان من ظروف سياسية وثقافية وفنية ودينية .

وفي تأمل تراث شوقي ضيف النظري ، والتطبيقي ، ما يجعلنا في مواجهة صريحة مع هذه النظرية التي ظهرت في كتابات كل من : " سانت بياف ، وتين ، بروتيير " .

أما الجانب النظري عند عالمنا الكبير فيتمثل في مناقشته هذه النظرية ، وإشارته إلى تتبه العرب لهذه الثلاثية دون أن يعطواها حتمية أو جبرية ، ولا يرى أساساً من استخدامها في تاريخ الأدب العربي ، ودراسة أدبائه ، دون خضوع للجبرية الحتمية ، وبخاصة قانون الجنس ؛ لأنه لا يوجد جنس خالص .

ويناقش تطور الأنواع الأدبية عند " بروتيير " موافقاً على أساسها ، لكنه يرى أن الأطوار الأدبية لا يقضى بعضها على بعض ، لذا لا يرى في الأدب قديماً وجديداً ، وستري في الجانب التطبيقي مصداق ذلك عند عالمنا .

ومن المنهجين من يتجه للجانب الاجتماعي ، في صلته الواقعي بالأدب ، ومنهم من ينحو بالأدب منحى نفسياً يتصل بالإبداع ، وتفسير الأعمال الأدبية تفسيراً نفسياً ، يتصل بالرغبات والواقع والنماذج العليا ، والعقد ، واللاشعور الفردي ، والجمعي ... إلخ . ومن المنهجين من يتجه للفلسفة الجمالية . وهكذا تعددت مناهج البحث الأدبي مفيدة من إنجازات العلوم الحديثة المعاصرة ، مما عقد مجالاتها وتنوعها كما هو معلوم .

أما شوقي ضيف فإنه يرتكض المنهج التكاملى ، كما تحدث في كتابه (البحث الأدبي) من ١٣٩ ، فيفيد من العلوم الطبيعية في دراسة الأدب في أسرته وتربيته والمؤثرات الذاتية ، وفي دراسة تطور الأدب ، وبين طبقة الأدب . ويفيد من الدراسات النفسية على موطن الموروثات في الأدب ، والعقد ، كما يفيد من الدراسات الجمالية ، ويخلص من ذلك كله إلى ضرورة الاستحسان بكل هذه المناهج ، وعدم الاقتصار على منهج واحد منها ، ليتحول عقل الباحث إلى مرآة تعكس أضواء كل تلك المناهج فتعكس فكرة الأصالة والفردية والمصدارة الأدبية ، والبيئة والعصر والظروف ، والتطور التاريخي ، والعلاجات الاقتصادية للمجتمع ، ودواسب اللاشعور الفردي والجمعي ، وعناصر الجمال ، فيما يشبه المثارات الضخمة تهلي سواء السبيل .

هذه هي خلاصة موجزة للآراء النظرية لشوقى ضيف ، فيما عرضه فى كتابه (البحث الأدبي) ، وهى آراء تكشف عن منهج تكاملى ، نجده فيما بين أيدينا من بحوثه المتعددة فيما نعنى ببيانه من بحوثه التطبيقية فيما يلى .

لقد قدمنا حديثاً عن نظريته فى وحدة التراث فى بحوث تطبيقية لديه أشرنا إلى بعضها ، ونضيف إليها بحثه الفريد (الشعر وطوابعه الشعبية على مر العصور)^(١) الذى كتبه سنة ١٩٧٧ ، وبناء على نظريته القائلة بأن "الشعر يفصل من قلوب شعوبه وأفندتها ، ويصور حاجاتها وأماليها وألامها " على مدى العصور ... لقد تتبع الظاهرة فى العصر الجاهلى ، ثم الإسلامى ، ثم العباسى الأولى ، فالثانى ، ثم عصر الدول والإمارات ، ثم فى العصر الحديث .

وحين ناقش - من قبل - آراء علماء الأدب فى نظرية التطور عبر - بطريق غير مباشر - عن نظريته فى (وحدة التراث) ، قائلاً :

" الأطوار الأدبية لا يقضى بعضها على بعض ، ولا يمحو بعضها بعضاً : وأية ذلك أنتا نطرب للشعر الذى كتبه الجاهليون على الرغم من أنه يمثل طوراً مغرقاً فى القدم ، فالطور الجديد فى الشعر لا يحكم على طور قديم بالفتاء ، وهو معنى ما يقال من خلود الأدب ، وأنه لذلك لا يوجد قديم ولا جيد " ^(٢) .

إن هذا الذى قاله سنة ١٩٧٢ ، هو بعينه ما ذهب إليه فى بحثيه المشار إليهما من قبل : وحدة التراث سنة ١٩٨٠ ، والقديم الجديد فى الشعر سنة ١٩٨١ . إن نظريته التكاملية جعلته ينظر لسنة التطور فى الفنون الأدبية نظرة لا تتفصل عن الجمال الفنى ، نظرة تحقق نوعاً من التوازن بين المناهج الفنية ، وقد أسلمه نظريته عن وحدة التراث) إلى نظرية أخرى ، هى ما يمكن أن نسميه نظرية (وحدة الظواهر الأدبية) .

فكمما وقف عند ظاهرة البارودى رائد حركة البعث فى الشعر العربى المعاصر وأفرد له كتاباً ، ورأى امتداد الظاهرة وتطورها فى خطوات تجديدية عند أحمد

(١) نرجع إلى الطبعة الأولى .

(٢) البحث الأدبي ، ٩٥ .

شوقى ، فاقرر له كتاباً أيضاً كما قدمنا ، وإلى جانب الكتابين لم نعد إشارات وإضافات له عن الشاعرين في كتبه الأخرى مثل :

الأدب العربى المعاصر فى مصر ، وفصل فى الشعر ونقده كما قدمنا ،
ودراسات فى الشعر العربى المعاصر ... إلخ .

نقول إنـه كما صنع ذلك مع القمم الراـئـة فيما سبق ، يمضـى فيـكـتب عن صـلاح عبد الصـبـور مـلـقاـياـه : رـائـدـ الشـعـرـ الحـجـيـدـ ، كـماـ لـقـبـ الـبـارـوـدـيـ بـرـائـدـ الشـعـرـ الـحـدـيـثـ ، وـكـماـ لـقـبـ شـوـقـىـ بـشـاعـرـ الـعـصـرـ الـحـدـيـثـ ، هـكـذاـ تـطـرـدـ الـظـواـهـرـ الـأـدـبـيـةـ أـمـامـ نـاظـرـيـهـ فـىـ إـطـارـ منـهـجـهـ التـكـالـمـيـ ، الـذـىـ لـاـ يـنـظـرـ لـلـتـطـوـرـ نـظـرـتـهـ إـلـىـ عـلـمـيـةـ إـحـالـلـ أـوـ فـنـاءـ . بلـ يـنـظـرـ لـلـظـواـهـرـ الـأـدـبـيـةـ عـلـىـ أـسـاسـ اـمـتـادـهـاـ الطـوـلـىـ ، فـيـنـظـرـ إـلـىـ فـنـ الغـنـاءـ فـىـ مـكـانـ مـاـ وـعـصـرـ مـاـ ، وـيـقـدـمـ لـنـاـ كـتـابـهـ (ـالـشـعـرـ وـالـغـنـاءـ فـىـ الـمـدـيـنـةـ وـمـكـةـ لـعـصـرـ بـنـىـ أـمـيـةـ) ، وـيـعـدـ إـلـىـ الـفـنـونـ الـأـدـبـيـةـ الـعـرـبـيـةـ ، فـيـرـضـدـ اـمـتـادـهـاـ وـوـحـدـةـ ظـواـهـرـهـ ، وـيـفـرـدـ لـكـلـ مـنـهـ درـاسـةـ خـاصـةـ ، فـتـرـىـ درـاسـاتـهـ حـولـ فـنـ الرـثـاءـ ، وـفـنـ الـمـقـامـةـ ، وـفـنـ الـنـقـدـ ، وـفـنـ الـتـرـجـمـةـ الـشـخـصـيـةـ ، وـفـنـ الـرـحـلـاتـ .

إنـ هذهـ النـظـرـةـ التـكـالـمـيـةـ شـدـيـدةـ الـاتـصالـ بـتـكـالـمـيـةـ منـهـجـ شـوـقـىـ ضـيـفـ - كـماـ سـنـرـىـ - وـأـقـصـدـ بـذـاكـ نـظـرـتـهـ إـلـىـ الـعـلـومـ الـأـخـرىـ الـمـتـصـلـةـ بـالـأـدـبـ . لـقـدـ بـيـنـاـ فـىـ مـطـلـعـ حـدـيـثـنـاـ مـوـقـعـ باـحـثـنـاـ مـنـ نـظـرـواـ لـلـأـدـبـ بـمـعـناـهـ الـعـامـ ، وـكـيـفـ اـرـتـأـيـ أـنـ يـنـظـرـ إـلـيـهـ مـنـ خـلـالـ مـفـهـومـهـ الـخـاصـ ، وـنـضـيـفـ هـنـاـ أـنـهـ - وـقـدـ نـوـعـ مـنـ خـصـوـيـةـ عـطـائـهـ كـمـاـ هوـ مـعـرـفـ - يـنـظـرـ لـلـبـلـاغـةـ حـينـ يـقـدـمـ كـتـابـهـ (ـالـبـلـاغـةـ تـطـوـرـ وـتـارـيخـ)ـ فـىـ فـبـرـاـيرـ ١٩٦٥ـ مـنـ خـلـالـ التـرـابـطـ الـوـثـيقـ بـيـنـهـاـ وـبـيـنـ الـأـدـبـ ، وـهـوـ رـبـطـ يـتـجـاـوزـ مجـرـدـ الـنـظـرـةـ السـبـبـيـةـ الـتـيـ كـانـتـ تـحـكـمـ نـظـرـةـ أـحـمـدـ ضـيـفـ مـنـ قـبـلـ - كـمـاـ قـدـمـنـاـ - وـيـنـتـرـكـ لـشـوـقـىـ ضـيـفـ تـقـديـمـ وجـهـةـ نـظـرـةـ ، فـهـوـ أـقـدرـ عـلـىـ بـسـطـهـاـ عـلـىـ كـلـ حـالـ ، يـقـوـلـ :

ـ لـمـ تـكـنـ غـايـيـتـىـ أـنـ أـصـورـ هـذـاـ التـارـيخـ بـلـاغـتـاـ فـحـسـبـ ، بـلـ أـيـضاـ أـنـ أـصـورـ الـارـتـبـاطـ الـوـثـيقـ بـيـنـهـاـ وـبـيـنـ أـدـبـنـاـ فـىـ تـطـوـرـهـماـ ، حـتـىـ اـنـتـهـيـاـ إـلـىـ الـجـمـودـ وـالـتـعـقـيدـ وـالـجـفـافـ وـالـتـكـرـارـ الـمـلـ . وـإـنـ رـسـمـ فـىـ تـضـاعـيفـ هـذـاـ التـطـوـرـ الـوـشـانـجـ الـوـاـصـلـةـ بـيـنـ كـلـ

بلاغى ... ثم يذهب إلى أنه "ينبغي في تشكييل بلاغتنا الحديثة أن تعنى ببيان الأساليب الأدبية المتفاوتة وفنون الأدب المختلفة حتى نلائم بين بلاغتنا وأدبنا الحديث وأساليبه وفنونه" .

وهكذا نقف عند عالمنا على جانب من نظرته التكاملية التي فتحت الباب ، أمام دراسات بلاغية عربية حديثة ، اهتمت يصلة البلاغة بالأسلوبية ، وقد وجدنا نماذج لذلك لدى جيل من الباحثين المعينين بهذا الأمر الآن ومن تأثروا بمنهج عالمنا الكبير .

ويحصل بهذا الجانب التكاملى - أيضاً - أنه حين حق كتاب (الرد على النها) لابن مضاء القرطبي الذى صدر عن لجنة التأليف والترجمة والنشر سنة ١٢٦٦هـ / ١٩٤٧م وجد فى ذلك باعثاً على التفكير فى تجديد النحو ، وما زال يواصل جهوده حتى أظهرها فى كتابه (تجديد النحو) سنة ١٩٨٢ فى شكل جديد اعتذر عن عدم الاستطراد فى الحديث عنه ، وإن كان لا يفوتنى التقويم بالتفاقته الأدبية التى توകن تكامل العلوم لديه - كما قدمنا - فقد ذكر من بين أنواع الجمل جملة أسمها (الجملة الحوارية) ، تلك التى يجاب بها فى حوار القصص من ٢٥٧ ، وهى إشارة أحسبها فريدة لم تذكر لدى غيره ، بل لم يسبق إلية أحد .

وينقلنا ذلك إلى ظاهرة أخرى هي أدق وجوه منهجه التكاملى ، وهى عماد بحوثه كلها فيما نرى ، هذه الظاهرة هي جمعه بين الرؤية الداخلية والرؤية الخارجية :

إن المتتبع للبناء الفنى لدراسات شوقي ضيف يجدها تابعة من هذا المنطلق : إيمانه التكاملى بضرورة قيام الدراسة على جناحين : أحدهما خارجي يستهلm المجتمع ، والنفس ، والطبقات ، والعقائد ، والعادات ، وعوامل الاقتصاد ، والسياسة . والآخر داخلى يستكمل النص ويستشرف آفاقه ويصلح رحيقه ويستوعب شذاته ، ولكنى نوضح ما نقصد بهذه الظاهرة نستعرض البناء الفنى لسلسلة دراساته فى (تاريخ الأدب العربى) ، ودراستيه عن شاعرى العربية الحديثة : الباروى ، وأحمد شوقي لنرى وجهى الرؤية المنهجية عنده من الخارج ومن الداخل .

إنك واجد كل كتبه بلا استثناء تقوم على الأساس التالي :

الفصول الأولى من الكتاب - قد تكون ثلاثة وقد تكون أربعة - ذات رؤية خارجية تستقرىء التاريخ ، وتنتعرف على المجتمع والبيئة ، والحياة السياسية والدينية والاقتصادية ، وكل العوامل الخارجية ، وما أسماء التاريخ الطبيعي للأدب ، في فصول يختار لها هذه العنوانات ^(١) : الجزيرة العربية وتاريخها القديم . العصر الجاهلي - الإسلام - الشعراء المخضرمون ومدى تأثرهم بالإسلام - مؤثرات عامة في الشعر والشعراء - بीانات الشعر الأموى - تطوره مع الحياة الدينية والعقلية والسياسية والاجتماعية والاقتصادية - الحياة السياسية - الحياة الاجتماعية - الحياة العقلية . (هذه الثلاثة التزمها في العصر العباسي الأول والثاني) ، وفي حديثه عن البارودى أو شوقى يهتم بالحديث عن (الحياة) في فصل خاص .

إن التزام شوقى ضيف بهذا الجانب من الرؤية الذى نسميه رؤية خارجية ، يقوم على أساس من منهجه التكاملى ، ولا يقتصر على أهمية التاريخ كما يذكر ابن الأثير ^(٢) فحسب ؛ فى قوله :

”ولقد رأيت جماعة من يدعى المعرفة والدراسة ، ويظن بنفسه التبحر في العلم والرواية ، يحتقر شأن التواريخ ويزدرىها ، ويعرض عنها ويلغىها ، ظنًا منه أن غاية فائدتها إنما هو القصص والأخبار ، ونهاية معرفتها الأحاديث والأسamar ، وهذه حال من اقتصر على القشر دون اللب نظره ، أصبح مخلشلًا ^(٣) جوهرة . ومن رزقه الله طبعًا سليمًا ، وهذا صراطًا مستقيماً ، علم أن فوائدها كثيرة ، ومنافعها الدينية والأخروية جمة غزيرة“ .

إن اختيار شوقى ضيف لهذا التكامل بين الرؤية الخارجية والرؤية الداخلية يلتقي مع ما يقرره مؤلف كتاب ، (كيف فهم التاريخ - مدخل إلى تطبيق المنهج التاريخي) ^(٤)

(١) نرجع في ذلك إلى كتابه : العصر الجاهلى - العصر الإسلامي - التطور والتجديد في الشعر الأموى - العصر العباسي الأول ، فالثاني .

(٢) الكامل في التاريخ لابن الأثير - مجل ١ دار صادر ، دار بيروت - بيروت ١٩٦٥ ، ص ٧ .

(٣) المخلشل : فرز يتخذ منه حل واحدته مخلشلة . المخصوص لابن سعيده .

(٤) دار الكاتب العربي بيروت ١٩٦٦ ص ١٠٥ (ترجمة الدكتورة هايدة سليمان عارف) .

وهو الأميركي لويس جوتسلك Louis Gotteschalk إزاء حديثه عن المؤرخ واتجاه أهدافه إلى أن يكون حارساً على التراث الثقافي أولًا ، ثم رؤية للتطور البشري ثانياً ، وهكذا نرى أن شوقي ضيف أحد المناهج غير الجمالية طريقاً يصل به إلى قلب التراث وإطاره العام ، وتمكنه من رؤية تطوره وتعاقب أجياله ، حتى يمكن القول : إن تراثه الأدبي يروي تاريخ أدابنا العربية ويقدمها للأجيال نخبيرة باقية خالدة ، وهنا تكمن قيمة الرؤية الخارجية كما نقف عليها في دراساته .

وإلى جانب السمات السابقة لمنهج شوقي ضيف في الدراسات الأدبية مما يتدرج في إطار الرؤية الخارجية ، نجد سمة أخرى في الرؤية الداخلية ، وهي أساس من أساس دراساته وبحوثه ، فإذا ما رجعنا إليها بنفس المنهج السابق وجدناه بعد الرؤية الخارجية في الكتب السالفة ذكرها يعمد إلى طائفة من الشعراء في كل كتاب ؛ ليدرسها دراسة جمالية فنية واعية متأتية كما رأينا في دراسة : امرئ القيس ، والتابقة ، وزهير ، والأعشى ، وأبن أبي ربيعة ، والكميت ، والوليد ، ورؤبة ، وطواويف من الشعراء والكتاب . أو يعمد إلى أغراض شعرية فيوفيها حقها من الحديث الفني ، كما رأينا في شعراء المديع والهجاء - وشعراء السياسة - والنفائض ... إلخ . وقل مثل ذلك في النثر .

أما دراسة الشاعر (البارودي أو شوقي) فنجد بعد الرؤية الخارجية يتحدث عن مكونات الصناعة ، والمؤثرات الفنية ، وشعر الشاعر وتحديده .

أما الكتب ذات الموضوعات المتعددة فتمزج النظرتان الداخلية والخارجية فيها في الموضوع الواحد ، وتغلب الرؤية الداخلية في معظمها كما نرى في كتابة (دراسات في الشعر العربي المعاصر) حيث : اللذة الصادحة عند أبي شبلة ، وضجيج الألفاظ الخلابة عند على محمود طه ، وفي هذا الموضوع تبدو مضامون أسلوبية في منهجه الفني ت نحو منحى الأسلوبين ، والمادة التصويرية في شعر أبي ريشة . ونرى مثل ذلك في كتابه (فصول في الشعر وتقده) حيث نرى دراسته لنواتح الإيقاع في الشعر الحر .

وفى هذه الموضوعات نرى غلبة الرؤية الداخلية ، وازدياد ميله الجمالي لدراسة الفص .

وهو في ذلك كله خاضع لطبيعة الموضوع وما يستلزم من منهجه ، وما يقتضيه من نظرية فنية تتلامع مع طبيعته وأبعاده مما يجعله جامعاً بين الرؤية الداخلية والخارجية في منهجه التكاملى ، وإن كان ذلك لا يمنع من ظهور أحد الجانبين ظهوراً يطفى على الجانب الآخر ، تبعاً لاختلاف طبيعة الدراسة مما بين أيدينا من تراث أصفي على الدراسة الأدبية طابعاً منهجه علمياً رأيناها تخلص مما عانت منه الدراسات السابقة من مأخذ .

ولذا كما قد انتهينا إلى أن منهجه عالمنا الكبير منهجه تكاملى ، فإن علينا أن نضيف أن هذه التكاملية تتسم بسمتين : السمة الأولى أنها تكاملية عربية ، والسمة الثانية قيامها على الوضوح .

ونقصد بكونها عربية أن منهجه التكامل فيها لم يقم على التوفيق ، أو التلفيق بين نظريات منقولة كما انتهى إليه أصحاب كل منهجه ، وأن منهجه التكامل فيها لم يقم على إغراق في تفصيلات أنصار هذا النهج ، أو ذاك من اهتمام بالتاريخ الطبيعي ، أو علم الاجتماع الأدبي ، أو التحليل النفسي للأدب ودراسة الإبداع ، إلى آخر ما هناك من اتجاهات ، أى أنه لم يعمد إلى نظريات جاهزة بل عنى بوضع يده على طبيعة العلاقة بين القوانين الداخلية ، والأخرى الخارجية للأدب العربي في عصوره المختلفة . مفيداً من كل ما يضم هذا الهدف من نظريات دون خضوع لواحدة منها ، وبين خضوع لها مجتمعة .

ونصل بذلك إلى السمة الثانية ، وهي الوضوح ، وفي ذلك ارتباط بالمعنى الأول لكلمة منهجه قبل أن تصير مصطلحاً علمياً تتعدد مجالاته وتنوع ، فالطريق النهج هو بين الواضح ، وأنهج الطريق استبيان وصار نهجاً بيناً ، والمنهاج الطريق الواضح ، واستنهج الطريق صار نهجاً ، وفلان يستنهج سبيل فلان أى يسلكه ، والنهاج : الطريق المستقيم ، وهكذا كان الوضوح في هذا منهجه التكاملى لأستاننا شوقى ضيف .

د . يوسف حسن نوبل

أستاذ الأدب الحديث

كلية البنات - جامعة عين شمس

في دراسة العصر العباسى

د . عصمة عبد الله غوشة

صدرت لاستاذنا الدكتور شوقي ضيف مجموعة « تاريخ الأدب العربي » في سبعة أجزاء : العصر الجاهلي والعصر الإسلامي . ويقصد به عصر صدر الإسلام منذ بدء الدعوة الإسلامية ، ويشمل حكم الخلفاء الراشدين ، ويمتد حوالي نصف قرن ، والعصر الأموي : ويقصد به عصر حكم بنى أمية في حوالي قرن من الزمان من سنة ٤٢ هـ - سنة ١٣٢ هـ ، والعصر العباسى الأول من سنة ١٣٢ هـ - سنة ٢٣٢ هـ ، والعصر العباسى الثاني من ٢٣٢ هـ - سنة ٢٣٤ هـ ، وعصر الدول والإمارات ، ويمتد من سنة ٢٣٤ هـ حتى بدء العصر الحديث في جميع البلاد العربية ، صدر منه الجزء الأول عن الجزيرة العربية ، والعراق وإيران ، والجزء الثاني عن مصر والشام ، ويشير استاذنا إلى القسم الثالث من هذا الكتاب ، الذي سيخصصه - إن شاء الله - لل المغرب والأندلس وقد بين في كل جزء من موسوعته ملامح العصر المحددة لأدوار فكره ، ملامح تبدأ بالمكان وتنتهي في الزمان . تكشف عن هوية كل عصر وما يختص به ، وما يميز فكره وأدبه .

هذه المجموعة من تاريخ الأدب العربي تعد دراسة جديدة ، ولم يسبق أحد من الباحثين إلى دراسة تاريخ الأدب العربي بهذا الشكل الشامل الموسوعي .

العصر العباسى الأول ، والعصر العباسى الثاني ، جززان متکاملان متتابعان مترابطان ، يحدد فيما الزمان والمكان ، فيلقي الضوء على الإطار العام للعصرین ، فالعصر العباسى الأول يبدأ سنة ١٣٢ هـ من قيام الدولة العباسية ، إثر المعركة المعروفة بين أبي مسلم الخراساني داعية العباسيين ، ومروان بن محمد آخر خلفاء بنى أمية ، انتهت بعدها حكم الأمويين ، ويستمر حتى سنة ٢٣٢ هـ بانتهاء حكم الخليفة الواثق ،

أما العصر العباسي الثاني فيبدأ من سنة ٢٣٢هـ بتولى المتوكل الخلافة ، ويرى المؤلف أن هذا العصر يمتد حتى سنة ٢٤٤هـ . مع أن الدارسين يجعلون العصر العباسي الثاني يمتد إلى نهاية الدولة العباسية سنة ٦٥٦هـ وقد وضع رأيه في هذا التحديد الزمانى في مقدمة عصر الدول والإمارات : « وكان المؤرخون للأدب العربي ، يدخلون منه نحو ثلاثة قرون في العصر العباسي الثاني متنهن به حتى سنة ٦٥٦هـ ، حين أغار طفاة التتار على بغداد .. وكل ذلك تصور مختلط : لأن سلطان الخلافة العباسية تتقلص ظلالة منذ سنة ٣٢٤هـ ، ولا يكاد يبقى للخلفاء العباسيين منه في كثير من الأمر سوى بغداد .. بحيث يصبح من الخطأ أن تنسب القرون الرابعة والخامس والسادس حتى منتصف السابع إلى الخلافة العباسية »^(١) .

ويتناول المؤلف في الكتابين الحياة السياسية أولًا ، فيتحدث عن الثورة العباسية ، والنظم السياسية ، والإدارية ، ونشاط العلوين ، والخارج وأحداث مختلفة ، وسيطرة الفرس ، ثم ما كان من تحول مقاليد الحكم من الفرس إلى الترك ، الذين لم تكن لهم ثقافة أو حضارة ، أو معرفة بالإدارة والنظم السياسية ، ففسدت الأمور فساداً شديداً ، وابتداأت بعض الولايات تستقل بالحكم .

ثم انتقل إلى الحياة الاجتماعية ، فشرح ما يتعلق بالحضارة والثراء ، والترف والنعيم ، وأثر الرقيق ، والجواري ، الغناء ، والمجون والشعوبية والزندقة ، والزهد والتتصوف .

وازدهرت الحياة العقلية والثقافية ، نتيجة للامتزاج الجنسي واللغوي والثقافي مع الأعاجم ، وبما نقل وترجم من ثقافات مختلفة : يونانية وفارسية وهندية ، فارتقى العقل العربي وشارك في تطور العلوم ووضعها ، كالعلوم الطبية ، الهندسية ، واللغوية ، والتجدد في الموضوعات ، والأساليب والأذان والقوافي ، بتثثير الحضارة والثقافة ، ثم درس أعلام الشعراء براسته نقدية تاريخية تحليلية ، وعرض لشعراء آخرين من شعراء سياسة ومدح وهجاء أو شعراء غزل وزهد وتصوف ، ولهم ومجون ، وزندقة ، واعتزال ، ونزعات شعبية .

(١) عصر الدول والإمارات المقدمة منه .

ثم انتقل إلى النثر وتحدث عن تطوره وفنه ، ويبحث أعلام الكتاب مبرزاًدور
الذى لعبه كل واحد منهم فى تطور النثر .

ويركز المؤلف فى دراسته الأدبية على بعض المحاور ، التى يعتبرها أساسية فى
دراسة الأدب ، فابن خوض عالم الحياة الأدبية يتطلب خوض عالم الحياة السياسية ،
والاجتماعية والعلقانية ، والثقافية ؛ لما لها من تأثير فى الحياة الفكرية عامة والأدبية
خاصة ، فدارس الأدب يعنى بالأدب والتاريخ والتحليل ، ومعرفة تاريخ الأمة ، يساعد
فى دراسة أدبها ، ومعرفة تاريخ الأديب يلقى الضوء على دراسة أدبه ، فنحن
لا نستطيع أن نفصل الأدب عن المجتمع ، أو الأديب عن بيته ، فالتاريخ يضيى الأدب ،
والأدب يوضع التاريخ ، وعكوف المؤلف على هذه الجوانب لا ينبغى من رغبة فى التوسيع
فى الدراسة دون مبرر ، ولكن عن رغبة فى إيضاح العناصر التى تكون الرؤية المتكاملة
للعصر ، وهذا يعنى أن النص لا يفسر بمعزل عن مبدعه ، مما يستدعي دراسة
مكونات المبدع من عصره وسيرته .

١ - المحور التاريخي :

يبحث فى الثورة العباسية ضد بنى أمية ، والدعوة السرية والدعاة ، واستغلالهم
العلويين ، والفرس فى خراسان ، مبيناً الدور الذى لعبه أبو سلمة الخلال الملقب (وزير
آل محمد) ، وأبو مسلم الخراسانى حتى استطاع أبو مسلم أن يهزم مروان بن محمد
الأموى فى معركة الزاب ، وبطارده حتى قتله ، وأعلن قيام الدولة العباسية ، وكان عبد
الله السفاح أول الخلفاء العباسيين . ورأى العباسيون أن يتخذوا من العراق مركزاً
لخلافتهم ، فعلا نجمه بينما هو نجم الشام ، إذ أصبحت ولاية تابعة لها ، واتخذ
السفاح الهاشمية مقرًا له ، ولم يلبث أبو جعفر المنصور أن بنى مدينة بغداد سنة
١٤٥هـ ، مبتعداً عن الكوفة مركز العلوين . وعنى المنصور عناية باللغة ببناء حاضرته ،
فبنى قصره المسمى (قصر الذهب) ووجانبه بنى مسجداً كبيراً ، وبنى دور كثيرة
للدوارين ، وأقطع قواده كثيراً من القطائع داخلها ، وابتلى لنفسه قصرًا صيفياً على
نهر دجلة سماه (قصر الخلد) .

وَمَا لَبِثَتْ مَدِينَةُ بَغْدَادَ أَنْ أَصْبَحَتْ أَهْمَ مَدِينَةً فِي الْعَالَمِ الْعَرَبِيِّ ، فَكَثُرَتْ فِيهَا
الْقُصُورُ وَاللُّورُ ، وَالبَسَاتِينُ ، وَالْمَتَزَهَّدَاتُ ، وَمِيَانِينُ الْلَّعْبِ بِالصَّوْلَجَانِ ، فَزُخِرَتْ بِالْحَيَاةِ ،
وَأَصْبَحَتْ قَبْلَةُ الدُّولَةِ الْعَبَاسِيَّةِ أَيَّانَ أَنْ كَانَتِ الدُّولَةُ الْعَبَاسِيَّةُ قَبْلَةُ الْعَالَمِ ، وَلَمْ تَزُلْ
بَغْدَادَ عَاصِمَةً الدُّولَةِ الْعَبَاسِيَّةِ حَتَّى اسْتَكْثَرَ الْمُعْتَصِمُ مِنَ الْأَتَرَاكِ فِي عَسْكَرَهُ ، وَأَنَّا
الْعَامَّةُ ، فَابْتَقَى لَهُمْ مَدِينَةً سَامِرَاءَ شَرْقِيَّةً بِجَلَّةِ سَنَةِ ٢٢١هـ وَظَلَّ الْخَلْفَاءُ مِنْذَ الْمُعْتَصِمِ
يَقِيمُونَ بِهَا حَتَّى سَنَةِ ٢٧٦هـ ، حِيثُ تَحْلُوا عَنْهَا إِلَى بَغْدَادَ مَرَّةً ثَانِيَّةً ، فَتَسْرُعُ إِلَيْهَا
الْخَرَابُ .

وَكَانَ قِيَامُ الدُّولَةِ الْعَبَاسِيَّةِ عَلَى أَكْتَافِ الْجَيُوشِ الْخَرَاسَانِيَّةِ إِيَّادًا بِقَبْلَةِ الطَّوَابِعِ
الْفَارَسِيَّةِ عَلَى نَظَمِ الْحُكْمِ السِّيَاسِيَّةِ وَالْإِدَارِيَّةِ ، وَقَدْ بَلَغَ الْفَرَسُ مَرْتَبَةَ عَالِيَّةٍ فِي تَنْظِيمِ
الْحُكْمِ ، فَنَزَّلَ الْعَبَاسِيِّينَ يَسَارِعُونَ إِلَى التَّأْثِيرِ بِهِمْ فِي هَذَا التَّنْظِيمِ ، تَنَقَّلَ النَّظَمُ
الْسِّيَاسِيَّةِ بِحَذَافِيرِهَا فِي شَنُونِ الْحُكْمِ ، وَالدَّوَارِوْنِ ، وَتَنْظِيمِهَا ، وَتَحْدِيدِ أَعْمَالِهَا ،
فَكَثُرَتِ الدَّوَارِوْنُ فِي الْعَاصِمَةِ وَالْوَلَيَاتِ الْمُخْتَلَفَةِ ، وَانْتَقَلَ نَظَامُ الْوِزَارَةِ ، وَأَخْذَتْ تَطْلُقَ
عَلَى الْمُسْتَشَارِ الْأَوَّلِ لِلْخَلِيفَةِ فِي شَنُونِ دُولَتِهِ ، وَكَانَ أَكْثَرُ الْوِزَارَاءِ مِنَ الْفَرَسِ ، وَهُوَ شَيْءٌ
طَبِيعِيٌّ : إِذْ كَانُوا هُمُ الَّذِينَ يَسْتَأْتِرُونَ بِشَنُونِ الْخَلْفَاءِ وَيَرْقُونَ إِلَى أَعْلَى الْمَنَاصِبِ ،
وَمِنْهُمُ الْبَرَامِكَةُ ، وَالْسَّهْلُ وَغَيْرُهُمْ .

وَاعْتَدَ الْمُعْتَصِمُ عَلَى التَّرْكِ وَاسْتَكْثَرَ مِنْهُمْ ، وَبَنَى لَهُمْ مَدِينَةً سَامِرَاءَ ، وَكَانَ هَذَا
تَحْوِلاً خَطِيرًا فِي تَارِيخِ الدُّولَةِ الْعَبَاسِيَّةِ ، فَالْفَرَسُ أَصْحَابُ حَضَارَةِ ، وَمَدِينَةِ ، وَبَنِيَّةِ ،
بِثُوْبِهَا فِي الْحَيَاةِ الْعَبَاسِيَّةِ ، أَمَّا التَّرْكُ فَلَمْ يَكُونُوا يَعْرُفُونَ غَيْرَ الْفَرَسِ ، وَالصَّدِيدِ ، وَالْقَتَالِ ،
لَذِكْرِ سَيِطْرَوْنَا عَلَى الْخَلْفَاءِ ، فَعَزَّلُوا ، وَوَلَوْا ، وَقَتَلُوا ، وَسُجِنُوا ، وَعَذَبُوا مِنْ شَأْوَا ،
وَيَشَوَا الْفَتَنَ بَيْنَ أَبْنَاءِ الْبَيْتِ الْعَبَاسِيِّ ، فَضَعَفَ الْخَلْفَاءُ وَانْفَعَسُوا فِي الْلَّهُوِّ وَالْتَّرْفِ ،
وَالْبَذْخِ وَبَيْتِ الْقُصُورِ ، فَتَدَهُرَتِ الْخَلْفَاءُ الْعَبَاسِيَّةُ ، كَمَا سَيِطْرَوْنَا عَلَى السِّيَاسَةِ ،
وَالْإِدَارَةِ ، وَالنَّظَمِ ، فَضَعَفَتِ الْوَلَةُ ، وَفَسَدَ الْحُكْمُ ، وَسَادَ الظُّلْمُ وَالْقَتْلُ ، وَالْقَمْعُ
وَالْاَخْتَلَاصُ ، وَانْتَشَرَ قَطَاعُ الْطَّرَقِ ، وَانْتَفَعَ الْأَمْنُ وَالآمِانُ وَالْإِسْتِقْرَارُ ، فَابْتَعَيْنَا عَنِ
تَعَالِيمِ الشَّرِيعَةِ إِلْسَامِيَّةِ . وَاسْتَقْلَتْ بَعْضُ الْوَلَيَاتِ ، مُثِلُ خَرَاسَانَ عَلَى أَيْدِيِّ
الظَّاهِرِيِّينَ ، ثُمَّ الصَّفارِيِّينَ ، وَمَصَرَّ عَلَى أَيْدِيِّ الْمَوَلَوْنِيِّينَ ، ثُمَّ أَيْدِيِّ الْإِخْشَيْدِيِّينَ .

وما إن الدولة العباسية ، حتى أخذت الخصومة تشتد بين الفرعين الهاشمين : العباسيين ، والعلويين ، وأيهمما أقرب إلى الرسول صلوات الله عليه وآله وسلامه ، فقد ظل العباسيون طوال دعوتهم السرية ، يدعون للرضا من آل محمد مستقلين تأييد العلوبيين ، وبعد قيام الدولة العباسية اعتقد العلوبيون أن العباسيين خدعاهم ، وسلبا منهم الخلافة ، واغتصبواها ، فقاموا بعدة ثورات : أولها : ثورة محمد بن عبد الله في المدينة سنة ١٤٥ هـ وأخيه إبراهيم في البصرة ، ويُفزع الخليفة المنصور ، ويكاتب محمدًا مبينًا حق العباسيين في الخلافة ، ويشتَّد القتال بالكلمة والسلاح ، ويُقضى على ثورتهم . وتتابعت ثورات العلوبيين كثورة يحيى بن عبد الله بالديلم سنة ١٧٦ هـ ، وقضى عليها الفضل بن يحيى البرمكي سلماً دون قتال ، ولكن العباسيين لم يقضوا على التشيع ، بل أخذ يزداد سرًا وجهرًا .

إما الخوارج فقد ضعف شأنهم ، وسرعان ما كان يُقضى على ثوراتهم ، وأخذت دعوتهم تضعف ضعفًا شديدًا : ومن أجل ذلك لم تترك أثراً واضحًا في الحياة الأنبياء . وقامت أحداث عديدة ضد العباسيين ، قضوا عليها جميعًا ، منها ثورة عبد الله بن على المنصور ، وثورات أتباع أبي مسلم الخراساني ، الذي قتله المنصور خوفًا من أن ينقض عليه ، وثورة رافع بن الليث زمن الرشيد ، وهاجت الفتنة بين القيسيبة ، واليمنية ، في الشام زمن الرشيد ، ونكب الرشيد البرامكة سنة ١٨٧ هـ ، وتشَّبَّ الخلاف بين الأمين والمأمون ، وثورة بابك الغرمي التي استمرت من سنة ٢٠١ هـ ، حتى قضى عليها سنة ٢٢٢ هـ زمن المعتصم ، وخيانة الأفشين ، وثورة الزنج ، الذين دخلوا البصرة ، وخرابوها ، وقد شغلت الدولة أربعة عشر عامًا استطاع الموفق زمن الخليفة المعتمد القضاء عليها سنة ٢٧٠ هـ وببدأ نشاط حركة القرامطة وثوراتهم ..

وعظمت في عهد المهدى حركة الزنادقة ، فجد في طلبهم وأسس بيوانًا لتعقبهم ، واستمر الخلفاء بعده يطلبون الزنادقة الذين ازداد نشاطهم وخطورهم ، و يجعل المأمون المعتزلي من فكرة خلق القرآن عقيدة رسمية للدولة ، فامتنع الفقهاء فيها ، فكانت محنة ، قاسى منها الفتى المعروف أحمد بن حنبل ، الذي ثبت على رأيه ، ولم يقر بخلق القرآن ، واستمرت هذه المحنة زمن المعتصم والواثق ، حتى جاء المتوكل وأبطل القول

بخلق القرآن فانتهى سلط المعتزلة على الدولة . واستمرت الحروب مع البيزنطيين في التغور الإسلامية .

٢ - المحور الاجتماعي :

يبحث المؤلف في حالة المجتمع العباسى ، وبين تطور الحياة ، بتأثير الفرس ، فقد غلت الحضارة السياسية على المجتمع ، فبنوا بغداد على شاكلة المدائن وقصر الذهب على طراز قصورهم ، ذات الأواني الضخمة ، وتقنعوا في البناء والزينة ، والزخارف والنقوش ، والستائر والبسط والاثاث والتماثيل والتحف والأواني ، وفي الطعام والشراب ، كما تتنقعوا في الجواهر والزينة ، والطيب والملبس والثياب ، متاثرين بالأزياء الفارسية ، واهتموا بأنواع الترسيخ واللعبة كسباق الخيل ، وسباق الحمام والراجل ، ولعبة الصولجان والشطرنج والترد والصبيد بالبزة ، والصقور ، والشواهين ، والكلاب ، والفهود ، وهذا يدل على البذخ والترف الذي كان يتمتع به الخلفاء ، وأبناء البيت العباسى والوزراء والقواعد وكبار رجال الدولة ، والتجار وبعض الشعراء ، والكتاب ، والمغنيين ، والعلماء . أما الشعب فيكبح ويعيش في بؤس وشقاء ، ويتحمل أعباء الحياة ليملأ حياة هؤلاء بتسبيب النعيم ، ففتنة تنعم بالأموال والحياة إلى غير حد ، وفتنة قتل عليها في الرزق ، فهي تشقي إلى غير حد ، واضطرب أواسط الناس من التجار وغيرهم بين الشقاء والنعيم .

وكانت خزانة الدولة مملوقة تحمل إليها الأموال ، والذهب والفضة من جميع أرجاء الدولة . وتتروى في ذلك روايات كثيرة تبين مدى الثراء والترف والنعيم ، ومظاهر الإتفاق على الجواري ، والقيان والمغنيين ، والحفلات ، والحاشية والأعوان ، وتبيّن جود الخلفاء والوزراء والولاة ، والقواعد وكرمهم وعطائهم للشعراء وغيرهم . ونفنعوا إلى طائفة من الأدب ، كاذاب المائدة ، واقتبسوا كثيراً منها عن الفرس ، وأدب المسامرة والمنادمة ، ويرى المؤلف أن « هذا البذخ ، وما صحبه من اعتصار الشعب هو السبب الحقيقي ، في كلة الثورات على العباسيين ، وخاصة في إيران ، ولعله السبب الحقيقي في تعلق الناس بالمهدي المنتظر من أبناء على الذي ينشر العدل الاجتماعي بين الناس »^(١) .

(١) المصر العباسى الأول من ١٥

وبهذا التعليق نلاحظ أن المؤلف لا يصف الأحداث في تعاقبها المتسلسل فقط ، إنما ينتقل إلى التفسير ، وإبداء الرأي ، في بعض الأمور أو الأحداث .

أما العامة فكانت تعيش حياة فقيرة قاسية ، تعانى البؤس والضنك والكافف ، ملهميهم الفرجة على الحوانين والقرادين ، والاستماع إلى القصاصن الذين يرددون القصص الخيالية ، والحكايات ، الذين يحكون في لقة لهجات سكان بغداد ، وناراليها من أعراب ، ونبيط وزنج ، وهنود ، وخراسانيين ، وروم ، ونلاحظ أن أكثر الشعراء والناثرين شنعوا في ظل هذه الفتنة الفقيرة ، فبشار كان أبوه طياناً يضرب البن ، وأبو نواس كانت أمه غازلة للصوف ، وأبيو العناية كان يعمل في صناعة الجرار ، ومسلم بن الوليد كان أبوه حائلاً ، وأبو تمام كان أبوه عطاراً ، والجاحظ كان يبيع السمك والخبز .

وكان الرقيق والجواري والفناء من أهم مظاهر الحياة الاجتماعية ، فقد كثر الرقيق بسبب كثرة من كانوا يؤسرون في الحروب ، فقد كانت تجارة النخاسة رائجة ورباحية ، وكان رقيق النساء من الجواري أكثر عدداً من رقيق الرجال ، وامتلأت بهن بور النخاسة والقصور والدور ، ولكن من أجناس وثقافات ، وبيانات ، وحضورات مختلفة ، فأثروا آثاراً واسعة في أبنائهن ومحبيهن سواء كانوا خلفاء أو غير خلفاء ، كما كان لهن أثر كبير على الشعراء الذين يرتابون بور النخاسة ، وكانت بعضهن مثقفات بفنون الأدب ، وقول الشعر ، فيملأن على الشعراء قلوبهم وعقولهم .

كما كان للغناء أثر كبير على الناس لما يدخله على نفوسهم من إبتهاج وسرور ، ويبرز اسم إبراهيم الموصلى ، وابنه إسحق ، ويزد في الغناء ابن المهدى : إبراهيم وعلى ، وتسابق الأغنياء على اقتناه القيان والمغنيات ، ودفع الثمان الباهظة فيهن ، ومن لم يقتن جارية أو قينة يستطيع استئجارهن ، ومن يرعاهن ويعلمهن ، وكثيرات كن يضرينهن على الآلات الموسيقية ، ويسعدن الرقص ، وقد أشاع هؤلاء الجواري والقيان ضرورياً من الرقة والظرف ، ظهر أثره في الشعر والشعراء فشاعت الرقة في ألفاظهم ومعانيهم .

وتتأثر المجتمع العباسى بكل ما كان في المجتمع الفارسى ، من لهوى مجوف ، وساعد على ذلك ما وفره العباسيون من حرية مصرفية ، فشاع شرب الخمر مجاهراً

ز بالك الشعراء عليها ، وأصبحت الخمريات من أهم موضوعات الشعر العباسى ، واشتهر فيها أكثر من شاعر مثل أبي نواس ، ويتقىن الخمر بالغناء والرقص مما دفع إلى كثير من المجنون والعبث والإباحية . وكان المجتمع يزخر بالزنادقة والملحدة ، وغيرهم . فارتکبوا الآثام متحربين من كل قانون للخلق والعرف والدين ، وهياً لذلك الجواري والقيان ، اللواتي لا يشعرن بكرامة ، ولا يولين التحفظ والاحتشام أى اهتمام ، فاقتصر الغزل المكشف الذى تهان فيه كرامة المرأة والرجل معاً ، وظهر الغزل بالفلمان الذى يحط من كرامة الرجل ، بدأه بشار ووالبة ابن الحباب ، وتوسّع فيه أبو نواس .

وأحس الفرس بسيطرتهم على مقاييس الحكم والمجتمع ، فبرزت نزعة الشعوبية ، وهى نزعة كانت تقوم على مفاهيم الشعوب الأخرى ، الفارسية وغيرها للعرب مستمدّة من حضارتهم ، وما كان العرب فيه من بذلة ، وحياة خشنة غليظة ، ويشار ألم شاعر أشعل نيران هذه الخصومة الشعوبية .

وانتشرت الزندقة ، ونشطت الزنادقة فى نشر آرائهم وتعاليمهم الدينية المجرامية ، وترجموا كتب النحل الفارسية ، وتعقبهم المهدى والخلفاء من بعده ، وقتل من ثبتت عليه تهمة الزندقة ، كبشر بن برد ، وصالح بن عبد القدوس وغيرهما .

لقد شاع المجنون بين بعض المترفين والشعراء ، كما انتشرت الشعوبية والزنادقة بين الفرس ، وأقبل الناس وخاصة العامة على الوعاظ والزهاد والنساك والفقهاء الذين كانت تكتظ بهم مساجد بغداد وغيرها من مدن الدولة العباسية ، ويتقىن الوعاظ بالقصص للعظة والعبرة وانتشار الرزد ، والتنكير بالله ، واليوم الآخر ، والحساب ، والثواب والعقاب ، والدعوة إلى مكارم الأخلاق ، ويبيرز هنا اسم الشاعر أبي العتاهية ، ويدرك مقدمات التحصيف في القرن الثاني الهجري ، وأخذ ينشط ويتسع في النصف الثاني من القرن الثالث الهجري ، يقول المؤلف بعد مناقشة بعض آراء المستشرقين : « التحصيف إسلامي في جوهره ، وفي شكله ، ونوعه ، وتطوره ، وهو الرأى الطهى الصحيح »^(١) .

(١) العصر العباسى الثاني من ١٠٧ .

٣ - المحور العقلي والثقافي :

امتزج العرب بالأعاجم عن طريق السكنى والمصاهرة وتسرى الإماء والولاء واعتنق كثير من الأعاجم الإسلام ، وأسرعوا إلى تعلم اللغة العربية : لغة القرآن الكريم ، وأخذت اللغة العربية تسود في جميع أنحاء العالم الإسلامي بين المسلمين وغير المسلمين ، إذ أصبحت جميع الشعوب عربية التفكير ، والشعور ، والثقافة ، والأدب ، والحضارة ، كما أصبحت عربية اللغة ، وأصبح جمهور الشعراء ، والطعاء ، والكتاب من الفرس وغيرهم كبشار ، وأبي نواس ، وابن المقفع ، وسيبوه ، وأبي حنيفة . وانتقلت ثقافات الشعوب المختلفة إلى المجتمع العباسى ، وكانت الثقافة الفارسية أبعد تأثيراً في المجتمع العباسى ، بينما كانت الثقافة اليونانية أعم ثقافة أثرت في الفكر العباسى ، عن طريق الترجمة والنقل لا عن طريق اختلاط أصحابها بالعرب .

وازدهرت الحركة العلمية ازدهاراً كبيراً ، فقد أنكى الإسلام جنة المعرفة في نفوس المسلمين ودفعهم للعلم والتعلم ، فنهض التعليم نهضة واسعة في الكاتib والمساجد والأسواق ، وانتشرت صناعة الورق ، ونسخت الكتب ، وتأسست المكتبات العامة والخاصة ، ودكاكين الوراقين ، وتسابق العلماء والطلاب على قراءة الكتب واقتتنانها ، وظهر العلماء المتخصصون المتعمقون في علم واحد ، والعلماء غير المتخصصين ، الذين يلمون بجميع الموضوعات ويسمون المسلمين ، واستعلن الخلفاء ، والوزراء ، والقواد ، والولاة ببعض العلماء في تأسيب أولادهم ، وأغدقوا عليهم الأموال .

ومما هيأ لازدهار الحركة العلمية ، مجالس الخلفاء والأمراء والوزراء والولاة والسراة ، والعلماء والشعراء ومحبي العلم ، إذ حولت هذه إلى ما يشبه ثنوات علمية ، يتناظر فيها العلماء من كل صنف مثل مجلس المؤمن والبرامكة . وكانت الحرية العقلية والفكرية قد كفلت إلى أبعد غاية ممكنته .

وتعتبر الترجمة من أهم أسباب ازدهار الحركة العلمية ، فقد ترجم تراث اليونان عن اليونانية ، والسريانية ، والفارسية : في الطب ، والهندسة ، والرياضية ، والفلسفة والمنطق ، والفلك ، والكيمياء والموسيقى ، مثل كتاب المسطري لبطليموس ، وكتب أرسطو وأقليدس ، وجالينس ، وبقراط ، وغيرها ، وتراث الفرس عن الفارسية في

التاريخ ، والدين ، والإدارة ، ونظم الحكم ، والأخلاق ، والقصص مثل : كليلة ودمنة ، وكتاب مزدك ، وتاريخ الساسانيين ، وسير ملوكهم ، وترجم تراث الهند عن الهندية والفارسية ، في القلب ، والأدوية ، والفالك ، والحساب ، والقصص ، والأساطير والدين ، مثل : السندي هند ، وغيرها .

واهتم الخلفاء العباسيون بالترجمة منذ المنصور ، وأنفقوا الأموال الطائلة ، والبرامكة فضل عظيم في ازيدهار الترجمة ، إذ اعتنوا بإعادة ترجمة بعض الكتب ، التي ترجمت قبل عصرهم ، لتكون أكثر دقة وإتقاناً ، وتبليغ الترجمة قمة ازيدهارها زمن الخليفة المأمون ، إذ تحول بخزانة الحكمة ، التي أسسها الرشيد لتكون مركزاً للترجمة ، إلى ما يشبه معهداً علمياً ، وألحق به المرصد المشهور الذي تخرج منه أهم العلماء في ذلك العصر ، ومنهم الخوارزمي مبتكر علم الجبر ، وكانت الفلسفة اليونانية ، والمعارف العلمية ، أعظم ما حملت حركة الترجمة ، ومضى العقل العربي يفهمها ، وبهضمها ، ويسيغها ، ويتمثلها ، ويضيف إليها أو يصحح أخطاءها في علوم الطب ، والأدوية ، والفالك ، والرياضية ، والهندسة ، والفلسفة ، وأصبح العقل العربي عقلاً علمياً راقياً ناضجاً قادرًا على وضع العلوم المختلفة : كالعلوم اللغوية والتاريخية والجغرافية ، والدينية ، وظهر علم الكلام والاعتزال .

* * *

دراسة الشعر والشعراء :

١ - الشعر :

يبين المؤلف تمسك الشعراء بالنماذج القديمة ، بتأثير اللغويين الذين سيطروا على الشعراء ، ووصلوهم بالشعر القديم بكل خصائصه ، ووضعوا بين أيديهم كل الأدوات ، من مجموعات شعرية إلى دراسات لغوية ، ونحوية ، وصرفية ، وموسيقية عروضية ، وفي الوقت نفسه نرى الشعراء ينفتحون إلى التجديد في لغتهم وأسلوبهم ، الذي عرف

باسم أسلوب المولدين « وهو أسلوب قام على عتاد من القديم وعدة من النونق الحضري الجديد ، أسلوب يحافظ على مادة اللغة ومقوماتها التصريفية ، وال نحوية ، ويلازم بينها وبين حياة العباسيين المتحضرة ، بحيث تنفي عنها ألفاظ العامة المبتذلة ، كما تنفي عنها ألفاظ البدو الحوشية »^(١) ، وبشار في طليعة من أرسوا هذا الأسلوب المولد الجديد ، ثم جاء بعده أبو نواس ، وأبو العناية ، ثم مسلم بن الوليد ، وأبو تمام . وأما من اقتدى بأساليب القدماء فقد « سقطوا صرعي في الميدان الفنى ، إذ ازور عنهم جمهور الشعراء ، منضوين تحت لواء بشار ومسلم وأبي تمام ، أو تحت لواء أبي نواس وأبي العناية »^(٢) .

كما جدد الشعراء في موضوعاتهم ، وصورهم متاثرين بما حولهم من ضروب ثقافات فارسية ، ويونانية ، وهندية ، ولعل اليونانية أعمق هذه الثقافات تأثراً في الشعر والشعراء ، بما نقل إليهم من فكر فلسفى ، ومنطقى ، ومقاييس وأدلة ، مما ساعدتهم على استنباط المعانى وتقتيقها ، وتوليدها ؛ وكانت المعتزلة أكثر البيئات تأثراً بهذه الثقافات .

ويبحث المؤلف التجديد في موضوعات الشعر المعروفة : من مدح وهجاء وفخر ورثاء وعتاب واعتذار وغزل وزهد ووصف .

وقد تمسك بعض الشعراء بالمدح والهجاء والغزل والرثاء ، وببعضهم جدد في موضوع المقدمة فجعلها في الخمر ، أو وصف الطبيعة ، أو بعض مظاهر الحضارة العباسية . وببعضهم تخلص منها ، كما نرى في موضوعات الهجاء ، والغزل ، والخمر ، والجنون ، والزهد . كما جدد الشعراء في معانיהם وأفكارهم ، ونظموا في موضوعات جديدة ، كالشعر التعليمي الذي أرسى قواهده زيان بن عبد الحميد اللاحقى ، واستمر الشعراء ينظمون ثني الدين والتاريخ ، والفلسفة ، والقصص ، والحكمة ، واللغة ، والخمر . وظهر شعر التصوف في النصف الثاني من القرن الثالث الهجرى .

(١) العصر العباسى الأول من ١٤٦ .

(٢) العصر العباسى الأول من ١٤٧ .

وَجَدَ الشُّعْرَاءُ فِي الْأَوْزَانِ وَالْقَوَافِي بِتَأثِيرِ الْفَنَاءِ ، فَكَثُرَ نَظَمُ الْمَقْطُوعَاتِ فِي الْفَزْلِ
وَالْفَمْرِ ، وَالْهَجَاءِ ، وَالْزَهْدِ ، وَعَلَى الْأَوْزَانِ الْقَصِيرَةِ ، أَوِ الْمَجْزُونَةِ ، وَاكْتَشَفَ
الْعَبَاسِيُّونَ وَذُنُّ الْمُضَارِعِ وَالْمُقْتَضِبِ ، وَجَدُوا فِي قَوَافِيهِمْ ، فَظَهَرَتِ الْمَزَبُوجَاتِ فِي
الشِّعْرِ التَّطِيمِيِّ ، وَالْرِّيَاعِيَّاتِ ، وَالْمَسْمَطَاتِ ، مِنْ مَرْبِيعَاتٍ ، وَمَخْمَسَاتٍ ، مَا مَهَدَ
لِظَّهُورِ الْمَوْشَحَاتِ فِي الْأَنْدَلُسِ .

٢ - الشُّعْرَاءُ :

يَقْسِمُ الْمُؤْلِفُ - د . شَوْقِيُّ ضَيْفُ - الشُّعْرَاءَ إِلَى مَجْمُوعَاتٍ :

(أ) أَعْلَامُ الشُّعْرَاءِ :

يَلْقَى الضَّوءَ عَلَى أَهْمِ الشُّعْرَاءِ الَّذِينَ نَالُوا الشَّهْرَةَ فِي عَصْرِهِمْ وَبَعْدَهُ ، وَكَتَبُتْ
عَنْهُمْ تِرَاسَاتٌ مُتَعَدِّدةٌ قَدِيمَةٌ ، وَحَدِيثَةٌ . يَدْرِسُهُمْ مُعْتَمِدًا عَلَى شِعْرِهِمْ مُسْتَعِينًا
بِالْمَحَلُورِ التَّارِيْخِيِّ وَالْاجْتِمَاعِيِّ وَالْقَافِيَّةِ وَالْعُقْلِيَّةِ ، مُبِينًا أَبْرَزَ خَصَائِصِهِمُ الشِّعْرِيَّةِ :
الْمَوْضِوْعِيَّةُ ، وَالْفَتْنَةُ ، فَبِشَارِ زَعِيمِ الْمُجَدِّدِينَ ، وَأَبْيُونَوَاسُ أَسْتَاذُ فَنِ الْخَرْبَةِ فِي الشِّعْرِ
الْعَرَبِيِّ ، وَأَبْيُونَ الْعَتَاهِيَّةِ شَاعِرُ الزَّهْدِ ، وَمُسْلِمُ بْنُ الْوَلِيدِ صَاحِبُ نَزْعَةِ الْبَدِيعِ ، وَأَبْيُونَ تَامَ
الْمُجَدِّدُ فِي صَنَاعَةِ الشِّعْرِ ، وَالْبَحْتَرِيُّ الشَّاعِرُ الرَّسْمِيُّ لِلْخَلْفَاءِ الْعَبَاسِيِّينَ ، وَابْنُ
الرَّوْمَى شَاعِرُ الْهَجَاءِ وَالْوَصْفِ ، مُمْثَلًا لِمَا يَقُولُ بِشِعْرِ الشَّاعِرِ ، مُبِينًا رَأْيَهُ فِي بَعْضِ
الْتَّوَاحِيِّ الْخَاصَّةِ بِهَذَا الشَّاعِرِ أَوْ ذَاكَ ، مُنْصِفًا بَعْضَ الشُّعْرَاءِ مَا يَقُولُ عَنْهُمْ ، يَقُولُ
عَنْ أَبْيُونَ تَامَ : « وَيَتَسَعُ التَّأْثِيرُ بِالْفَلْسَفَةِ عَنْهُ حَتَّى لِيُشَيَّعَ الْفَمْوِضُ فِي كَثِيرٍ مِنْ أَبْيَاتِهِ ،
وَهُوَ غَمْوِضٌ بَهِيجٌ ، كَغَمْوِضِ الطَّبِيعَةِ فِي الصَّبَاحِ وَالْغَرَوبِ : إِذْ يَجْلِلُهُ دَانِمًا شَفَقَ يَاخْذُ
بِالْأَلْبَابِ ، وَنَعْجَبُ إِذْ نَجْدُ الْقَدَمَاءِ يَحْمِلُونَ عَلَيْهِ مِنْ أَجْلِهِ كَمَا حَمَلُوا عَلَى إِكْثَارِهِ مِنْ
الْلَّفْظِ الْغَرِيبِ ، وَعِنِ التَّصَاوِيرِ ، وَالْأَوْانِ الْبَيِّعِ حَتَّى قَالُوا : إِنَّهُ أَفْسَدُ الشِّعْرِ ، وَهُوَ لِمَ
يَفْسُدُهُ بَلْ هِيَ لَهُ اِزِيْهَارًا رَائِعًا ، تَسْتَدِيْهُ فِي مَقَافِيَةٍ وَاسِعَةٍ بِالْفَلْسَفَةِ وَالْمَنْطَقِ ،

و بالشعر العربي قديمة وحديثة كما تسنده قوة ملكاته التي جعلته ، يعد بحق حامل لواء الشعر العربي في عصره ، بل جعله صاحب منهب مستقل بخصائصه العقلية والزخرفية ،^(١).

(ب) شعر السياسة والمدح والهجاء :

لقد اختار موضوعي المدح والهجاء لارتباطهما بالسياسة والحكام ، وأصحاب الشأن ، سجل الشعراً أهم الأعمال التي قام بها المدحون ، ومجدوا شخصياتهم ، وأضفوا عليهم الصفات التي تمثل المثالية الخلقية العربية والإسلامية ، وبينوا موقفهم تجاه أعدائهم كموقف العباسين من الخلافة ، وحقهم فيها ، والرد على الشيعة : فقد كان الشعر في ذلك العصر وسيلة الدعاية الأولى ، يتناقله الرواة ، واللغون والمخنثون وينشرونه في أرجاء الدولة العباسية .

درس المؤلف شعراً الدعوة العباسية والخلفاء العباسين ، وشاعراً الشيعة ، وشاعراً البرامكة ، وشاعراً الوزراء والولاة ، والقاد ، وشاعراً الثورات السياسية ، وشاعراً الهجاء .

(ج) طوائف من الشعراء :

يدرس - تحت هذا العنوان - الم الموضوعات الشعرية المنتشرة في العصر ، والمطبوعة بالطابع الشخصي أو الذاتي ، يتناول فيه شعراً الفرزل وشاعراته ، وشاعراً المجنون والزنقة ، وشاعراً للهو والمجنون ، وشعراً الزهد والتصوف ، وشعراً الاعتزال ، وشاعراً الطرد والصيبد ، وشاعراً النزعات الشعبية . ويلاحظ أنه يدرس طوائف الشعراء المشهورين في هذا العصر ، غالباً بحال المجتمع مدركًا مظاهر التطور والتغير . ففي العصر الأول كان شعراً المجنون ، والزنقة ، فأصبحوا شعراً للهو والمجنون ؛ لأن حدة الزنقة خفت ، وذلك لأن نحسان سيطرة الفرس على المجتمع العباسى واشتداد شوكة الترك ، وشاعراً التصوف حلوا محل شعراً الزهد ؛ لأن التصوف بدأ يتخد

(١) العصر العباسى الأول من ٢٧٨ .

مكانه ، بين موضوعات الشعر العباسى فى القرن الثالث الهجرى ، ولم يكرر شعراء المعتزلة : لأن سلطان المعتزلة انتهى رسمياً زمن المتوكل ، وأضاف شعراء الطرد والصيد ، الذى انتشر بتأثير الحضارة والثراء والفراغ .

ويتنافس المؤلف هذه الموضوعات من الناحيتين الموضوعية والفنية ، ثم يدرس أهم شعراء كل فئة ، ويبثت فى الهاشم المصادر والمراجع الخاصة بكل شاعر يدرسها : لتكون عوناً للدارسين والباحثين .

* * *

دراسة النثر والناشرين :

١ - تطور النثر :

تطور النثر تطوراً كبيراً جداً : أسلوبياً ولغة ومعنى وفكراً ، برقي الحياة العقلية والثقافية ، ونقل ثقافات اليونان والفرس والهنود . وظهر هذا التطور فى بنيات المعتزلة والمتكلمين ، والعلماء والأدباء وال فلاسفة ، ظهر النثر العلمي والفلسفى ، إلى جانب النثر الأدبي .

٢ - فنون النثر :

بحث المؤلف لولا الخطابة يقعها السياسية التى ازدهرت فى أوائل هذا العصر : بسبب الحاجة الماسة إليها فى تثبيت دعائم الدولة ، وبيان حقوقهم فى الخلافة ، والرد على العلوين ، ثم ضعفت بعد استقرار الحكم ، لكنها كانت تظهر مع الفتن والثورات ، وكذلك ضعفت الخطابة العظيمة : لأن الخليفة العباسى ، ابتعد عن الرعية ، فقد أدخل الفرس نظام الحجابة واستثنوا بالحكم ، أما الخطابة الدينية فقد ازدهرت ازدهاراً كبيراً على أيدي الوعاظ والنساك والفقهاء والقصاصين ، استمدوا مادتهم من القرآن

الكريم والحديث الشريف ، وأقوال الصحابة والتابعين ، ومن سبقهم من الوعاظ ، كالحسن البصري وغيره ، يضاف إلى ذلك الإيمان الشديد بالله ، والابتعاد عن متع الحياة الدنيا الثالثة ، وأن ما عند الله خير وأبقى ، ونشط الوعاظ من المتصوفة الذين كانوا ياخذون أنفسهم ، بمجاهدات عنيفة ، ويعيشون حياة تقشف في ملائكةهم ولبسهم ، فكان تأثيرهم في الناس عميقاً ، واهتم هؤلاء الخطيباء بأساليبهم ومعانיהם وألفاظهم .

ثم انتقل إلى المناظرات ، هذا الفن التثري الذي ظهر وازدهر على أيدي علماء الكلام ، وأهمهم المعتزلة ، الذين انبروا للدفاع عن الإسلام ، وعن مبادئهم (التوحيد ، العدل ، الوعد والوعيد ، الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، والمنزلة بين المنزليتين) أمام أصحاب الملل ، والنحل ، وبعض الفرق الإسلامية : كالشيعة والمرجئة وغيرهم ، وشغل المعتزلة الناس بمناظراتهم ، وتقافتهم الواسعة ، وبهروهم بقدرتهم على استبطاط المعانى وتدقيقها وتقريرها ، ويراعتهم فى الجدل والحوار والقياس والإتيان بالحجج ، والبراهين ، والأدلة ، والمقومات ، والنتائج من إتقان تام وعلم دقيق باللغة وأساليبها ، وألفاظها واشتقاقها ، وصرفها ونحوها ، وتفوّقهم في الإقناع وإفحام الخصوم ، وتنوعت موضوعات المناظرات ، فمنها ما كان بين الفقهاء في أمور الدين ، كمناظرة الشافعى ومحمد بن الحسن الشيبانى ، أو بين علماء اللغة والنحو ، وال فلاسفة وأصحاب المنطق ، وكانتما أصبحت المناظرات لغة العصر الفكرية حتى شكا الجاحظ من هذا ، وانتقلت المناظرات إلى الكتب والرسائل ، كما نرى في كثير من كتب الجاحظ ورسائله وفي كتابي المحاسن والأضداد المنسب إلى الجاحظ ، والمحاسن والمساوئ للبيهقي .

أما الرسائل فكانت ديوانية وإخوانية وأدبية ، وأقبل الكتاب والطلاب على العمل في النواوين : لما توفر لهم من حياة كريمة ، وبنق واسع ، وطموح للوصول إلى ولاية أو وزارة أو غير ذلك ، ولم يكن العمل في النواوين سهلاً إذ على المتقدم أن يجتاز امتحاناً صعباً ، تتحقق فيه قدراته الفنية والعقلية . وتفنن الكتاب بتحميداتهم ، وانتشرت التوجيهات ، وامتازت بالدقة والإيجاز ، وأشهر من وقع جعفر بن يحيى البرمكي ، وتطورت الرسائل الإخوانية وازدهرت وتعددت موضوعاتها ، وتنافس النثر الشعر في بعض الموضوعات ، التي كانت خاصة به كال مدح والهجاء والوصف وغيرها .

ونفوا إلى موضوعات جديدة مستمدة من تراث الفرس ، كالحديث عن الصداقة مثلاً ، وظهرت الرسائل الأدبية في مختلف الموضوعات : سياسية وأدبية ودينية ، وأخلاقية وعصبية ، وتفوق كتاب الرسائل بأساليبهم ومعانيهم ، وابتدا السجع يدخل في كتاباتهم حتى سيطر على أسلوب الكتابة الشترية ، منذ أواخر القرن الثالث الهجري ، فاصبح سمة واضحة في أساليب الناثرين جميعاً .

٣ - أعلام الكتاب :

درس المؤلف أعلام الكتاب ، ومن برعوا في الترجمة والكتابة والتاليف ، وهو يعطينا فكرة عن حياة الكاتب مستقيداً من المحاور التاريخية ، والاجتماعية ، والثقافية . ويقف عند بعض القضايا التي توضح جانباً من جوانب حياة الكاتب وإنتاجه ، فمثلاً عندما يدرس ابن المفع يقف عند قته ، ويناقش الأسباب التي بفعته إلى هذه النهاية : بسبب كتاب الأمان الذي كتبه على لسان المنصور لعمه عبد الله بن علي ، مرجحاً هذا الرأي على تهمة الزندقة . ثم يدرس إنتاجه ترجمة وتاليفاً ، معتمداً على النصوص في المقام الأول . كما استطاع أن يلم بجميع جوانب حياة الجاحظ وإبداعه ، وألقى الضوء على شخصيته الفذة ، وتحدى عن بيئته وثقافته ، واعتزاشه وأسانته ، وفنون نشره وأسلوبه ، وما تميز به من موسوعية واستطراد ومزج الجد بالهزل ، وازدواج وموسيقى ، في إنتاجه من كتب ورسائل .

* * *

واهتم المؤلف ببعض القضايا الأدبية أو النقدية ، أو الفنية فناقشها ودرسها ، ونقف عند بعض منها على سبيل التمثيل لا الحصر ، مما يوضح منهج المؤلف في عدم الاكتفاء بإعطاء المعلومات ، وسرد الحقائق بل يقف لمناقش وتصحح وبين رأيه ، معتمداً على الحجة والدليل .

١- القديم والحديث :

وهو موضوع يستحوذ على اهتمام الدارسين في كل العصور . وفي الغصر العباسي ظهرت ثلاثة بینات ، تتناول كل واحدة البلاغة والنقد تناولاً متميزاً ، بینة الف gioين المحافظين ، التي تعلي من شأن القديم ، وتعتبره مثلاً أعلى ، وقدوة تقبل ما كان قد يليها ، وترفض الحديث . وبینة المقلسين الجدد ، الذين كانوا يسرفون في التجديد ، ويرى أن تأخذ الفلسفة اليونانية ، ومعايير اليونان البلاغية والنقدية أصولاً في دراسة النصوص ، ولم يقدر لأراء هذه البینة أن تتوجه : لأن اللغوين المحافظين استنكرموا آرائهم وحاربوا ، وكان اللغوين أكثر عدداً وسيطرة . أما البینة الثالثة من المعتزلة ، فقد استطاعوا أن يقفوا موقفاً معتدلاً بين الطرفين المتعارضين ، يقرعون ما لدى الآجانب ، ويقررون إلى أنتظار العرب في البلاغة والنقد ، وبخضعونه للنوق العربي الأصيل ومقاييسه . كما يظهر عند الجاحظ في البيان والتبيين .

ونلاحظ أن الشعر القديم قد تمكن من نفوس الشعراء وسرى في قلوبهم ، ومع إنشان الشعراء العباسيين اللغة العربية وكتابهم أغرايب قد جاءوا من الجزيرة ، فقد كان اللغوين لا يستشهدون بشعرهم مخافة أن يحدث اضطراب في التموزج الشعري القديم ، وحتى يحتفظ بكل ما يمكن من صحة وسلامة ودقة ، وفي رأي المؤلف « أن إهانة اللغوين لشعر العباسيين بسبب حداثته خطأ في التقويم : إذ الجودة الفنية لا تقاد بالقدم والحداثة ، والشعر الجيد جيد في كل زمان ومكان »^(١) .

وعد اللغوين على الشعراء المحدثين سقطاتهم : وبين المؤلف رأيه بقوله : « وهى ليست سقطات بالمعنى الصحيح : إذ هي في كثريتها إما ضرورات رأها الشعراء العباسيون في الشعر القديم فقايسوا عليها ، وإما لغات شاذة رأوها أيضاً في هذا الشعر ، وظنوا أن من حقهم مجاراتها ، وأما اشتقاتات وأبنية ، استحدثوها على ضوء المقاييس اللغوية التي تلقنها ، واقرأوا في كل ما نشره المرزبانى في الموضع من هذه السقطات فستراه قلما يعنوا هذه الوجوه الثلاثة »^(٢) .

(١) العصر العباسي الأول من ١٤١ .

(٢) العصر العباسي الثاني من ١٨٣ .

ومما يدل على ذلك عند بشار ، أنه قاس كلمة وجلى على حجل فخطأه اللغويون ، و « بشار محق : لأن من حقه القياس ، وإذا كان من حقنا أن نقيس في شئون الدين ، كما قرر ذلك الفقهاء المعاصرةون له من أمثال أبي حنيفة ؛ فقولى أن يقيس الشعراء في أبنية اللغة واشتقاقاتها الصرفية »^(١) .

ويستغرب المؤلف من وقوف يوهان فك ، في كتاب « العربية » عند بعض الأبيات التي وردت في الموضع ، لبشار وأبي نواس (أكثر العباسين مأخذ) وغيرهما متخدّا منها دليلاً على مخالفة العباسين لقواعد العربية ، ويقول : « ولو أنه أمعن النظر فيما سجله الموضع على شعراء الجاهلية والإسلام من مثل هذه الأحرف ، لعرف أن العباسين لم يخرجوا عن قواعد الفصحي في الصورة التي رسمها لهم اللغويون ، وأن كل ما هناك أنهم قاسوا أشعارهم على أشعار الأقدمين ، فتجازوا لأنفسهم ما كان يجيئه أسلافهم من بعض الضرورات وبعض الشواد . وعم في ذلك يتبعونهم ويصوغون على إرث منهم »^(٢) .

وكان القديم والحديث ، أو الأصالة والمعاصرة ، من الأفكار المهمة التي شغلت المؤلف في تتبعه تاريخ الأدب في هذا العصر ، شعراً ونثراً ، بيعطينا صورة واضحة عن مزج القديم بال الحديث ، وصلة الحديث بالقديم صلة اتصال لا انفصال ، يقول : « وقد بسطت القول في ازدهار الشعر العربي حينئذ ازدهاراً رائعاً ؛ إذ أكب الشعراء على العربية يتقنونها ، ويتمثّلون ملكتها وسليقتها تمتلاً دقيقاً نافذين بنوقيهم المتحضر إلى أسلوب مصفي ، يجمع حيناً بين الجزلة والرصانة ، وحياناً يجمع بين الرقة والعنوية ، وكان تأثرهم عميقاً بالثقافات المترجمة ، وبما كانوا يستمعون إليه من محاورات المعتزلة ، مما أثار في عقولهم ، ونفوسهم كثيراً من المعانى والخواطر التي لا تقاد تحصى ، ودفعهم إلى التطور بموضوعات الشعر الموروثة تطوراً ثلتمس فيه روح العصر ، وخصب الفكر ، ورهافة الشعور ، وأضافوا إليها موضوعات جديدة ، بما نفروا إليه من تحليل المعانى ، والملامحة بين أشعارهم وبيناتهم المتحضرة ، وحياتهم

(١) العصر العباسى الأول من ١٤١ .

(٢) العصر العباسى الأول من ١٤٢ .

اليومية ، وفتحوا صفحة لم تكن تخطر لأسلافهم على بال ، هي صفة الشعر التعليمي ، الذي صاغوا فيه المعرف والتاريخ والأمثال ، والقصص الحيواني ، منظومات طريفة ، واكتشفوا للشعر أوزاناً لم تكن معروفة ، وأنماطاً من القوافي كانت مجهولة »^(١) .

٢ - اللغة الفارسية في الشعر :

يُزعم يوهان فك أن الفارسية أدخلت ضيماً على العربية ، معتمداً على ما جاء في كتاب البيان والتبيين للجاحظ ، من أن بعض الشعراء كانوا يتملّحون بإدخال بعض الألفاظ الفارسية ، في أشعارهم ، وأثبت قطعة لأحد الشعراء ، اختلطت فيها الألفاظ الفارسية بالألفاظ العربية . ويرى المؤلف أن يوهان فك قدبالغ في هذا الضيم ، وهي مبالغة لا تستند لها نفس النصوص ، التي رواها الجاحظ : إذ كان الشعراء يسوقون في أشعارهم أحياناً بعض الألفاظ الفارسية تملحاً وتظرقاً ، كما يلاحظ الجاحظ نفسه ، أما بعد ذلك فإنهم يحافظون على ما استقر في ملوكهم من قوانين الصياغة العربية ، وربما كان أكثرهم استخداماً للألفاظ الفارسية في شعر أبي نواس : إذ كان يأتي بها في بعض خمرياته تعابياً ومجانة .. ولم يكن يصنع ذلك دائناً ، إنما كان يصنعه في الحين بعد حين تملحاً وتتدرأ . كان يأتي على ألسنة الشعراء في التدرا ، وكثرتهم - على الرغم من أصولهم الفارسية - لم يتورطوا في شيء منه ؛ ومن أجل ذلك كان ينبغي أن لا يندفع باحث إلى القول ، بأن السليقة العربية انتصبت في نفوس العباسيين ، فقد كانت أقوى من أن تنتقص حتى لدى من كانوا يحسنون الفارسية مثل أبي نواس »^(٢) .

وتبدو دقة التعامل النقدي مع الظواهر الأنثوية ، في مجال المقارنة بين آرائه ، وأراء سابقيه ، أو معاصريه : إذ يصحح بعض المعلومات التي استقرت في الأذهان ، فمثلاً تعلمنا وقرأنا أن أبي الأسود الرؤا هو أول من وضع قواعد النحو ، ويرى المؤلف أنه « شبّه للقدماء هذا ، والحقيقة أنه لم يضع منها شيئاً ، إنما الذي وضعه حقاً ،

(١) العصر العباسي الأول من ٥ .

(٢) العصر العباسي الأول من ١٤٣ .

وكان أول وأضمن نقط المصحف يعين حركات أواخر الكلم فيه ، أو بعبارة أدق
يعين حركات الإعراب . فكان يضع نقطة فوق الحرف الأخير للكلمة إشارة إلى الفتحة ،
ونقطة بين يديه إشارة إلى الضمة ، ونقطة تحته إشارة إلى الكسرة ، وإذا تبع شيئاً
من هذه الحركات غنة أو تنوين نقطتين ، واختلط التعبير عن هذا المعنى
بكلمة العربية على بعض أصحاب كتب الطبقات فظنوا أنه وضع بعض أبواب النحو
أو مسائطه » ^(١) .

وفى معرض حديثه عن تطور النثر ، وبيان دور اللغويين ، والمعزلة ، والمتجمين ،
والمتفلسفة فى ازدهاره ، وما أفسوه من كتب فى صناعة النثر ونقده ، يصل إلى بيته
المترجمين ، والمتفلسفة يقول : « ولعل خير كتاب قدمته هذه البيئة فى مجال النثر ،
والكتاب ، هو الكتاب الذى نشر باسم « نقد النثر » منسوباً إلى قدامة بن جعفر ، وقد
تبين فيما بعد أنه جزء من كتاب البرهان فى وجوه البيان لـ سحق بن إبراهيم
بن سليمان بن وهب » ^(٢) .

* * *

وتتضح فى دراسة الدكتور شوقى ضيف للعصر العباسى بعض الجوانب :

١ - الطابع الدينى الإسلامى :

يرى المؤلف أن أهم أسباب التقدم هو الدين الذى يعتد به ، ويُعلى من شأنه ، فقد
انتشر الإسلام فى هذا العصر ، وأقبل الناس على اعتقاده ، والإيمان بتعاليمه دون
إكراه ، وحصل الامتزاج بالدم والسكنى والولاء ، يقول : « وبذلك استطاع الإسلام
بتعاليمه السمح أن يحدث امتزاجاً قوياً بين العناصر المختلفة ، التى كانت تتألف منها

(١) العصر العباسى الأول من ١٢١ .

(٢) العصر العباسى الثانى من ٥٢٢ .

الدولة العربية ، وهو امتزاج لم يبلغه بامتلاك الأرض المفتوحة ؛ إنما بلغه بامتلاك القلوب ، فإذا الكثرة الكثيرة من الشعوب التي انبسط عليها سلطانه ، تسلم ، وإذا من بقوا على دينهم يشعرون تلقاء المسلمين وحكامهم بضرب من الأخوة الكريمة »^(١) .

ودعا الإسلام إلى العلم والمعرفة ، فازدهر التعليم ، وأقبل الناس على تلقى مختلف العلوم ، دينية وغير دينية ، في الكتاتيب ، والمساجد ، والأسواق ، ووضعت العلوم المختلفة ، وصنفت الكتب المتعددة ، مما أدى إلى ازدهار الحركة العلمية أزيد مما عظيمًا .

ويفضل الحديث عن المساجد التي كانت أماكن عبادة وعلم ، وبين أهميتها ودورها في الحركة العلمية ، ويعطي صورة واضحة عن حلقات العلماء في المساجد ، حيث يختار كل عالم أسطوانة يستند إليها ، ويتحلّق حوله طلب العلم ، مستمعين ، مستفسرين ومناقشين ، ومنهم من كان مستمعوه كثيرين ، فكان هناك من يوصل كلامه إلى البعيدين عنه . وكان التعليم في المساجد ، دون قيود أو تكاليف ، فانتشر العلم والتعلم ، وأقبل الشباب على حلقات العلماء الدينية ، والكلامية ، وغيرها دون أي شرط سوى الرغبة في العلم والتزود بالمعرفة .

ويركز المؤلف في مواضع مختلفة على جهود المعتزلة ، في الدفاع عن الإسلام أمام أصحاب الملل والنحل ، وبعض الفرق الإسلامية ، معتمدين على الحجج ، والأدلة والبراهين ، والقياس ، واللغة ، مقنعين ، ومفحمين في مناظراتهم ، وجذلهم وحوارهم ، ومع إعجاب المؤلف بالمعتزلة وإشانته بدورهم في الدفاع عن الإسلام وفي نمو التشر ، فإنه يرى أنهم لم يطبقوا الأصل الخامس من أصولهم تطبيقاً تاماً ، فينتقدون بداعم من غيرته على الدين والمجتمع ، يقول : « وأما الأصل الخامس ، فيربون به أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر واجبان على سائر المسلمين كل حسب استطاعته ، وكان ينبغي لهم يعتقدون هذا الأصل ، أن يدفعوا الدولة للضرب على أيدي المجان والفساق وأرباب الدعاية . وأيضاً كان ينبغي أن يصرخوا في وجوه الخلفاء ضد طغيانهم ، وظلمهم للعامة ، وأن يصارحون بنظريّة الإسلام في الخلافة ، وأنها ليست حقاً من حقوق أهل البيت ؛ إنما هي حق الأ��اء من أبناء الأمة »^(٢) .

(١) العصر العباسي الأول من ٩٠ .

(٢) العصر العباسي الأول من ١٣٥ .

ويبرز في دراسة موضوعات الشعر تركيز الشعراء في مدحهم على الصفات الكريمة التي دعا الإسلام إلى التحلّي بها ، من تمسك بشرعية الله : من ودع وتقى وعدالة لا تصلح الأمة بدونها ، وفي فضل الجهاد في إعلاء كلمة الله ودينه في الدين والرثاء ، وفي تصوير البطولة والشجاعة والدفاع عن حمى الإسلام في حربهم مع الروم وغيرهم .

٢ - الموقف الأخلاقي :

ويظهر في دراسة بعض الظواهر الأدبية ، أو بعض الشعراء أو الكتاب ، حيث يحاول التخفيف من حدة ظاهرة ، أو موقف ، أو تصرف ، أو رأي ، ويرفض المبالغة في الحكم على شخصية شاعر أو كاتب وتصرفاته ؛ مثلاً بعد أن تحدث عن حياة الاله والجن ، والخلاعة والفساد الخلقى ، ونور الفرس والجوارى والقيان فى شیوعه ، يقول : « وليس معنى ذلك أن الحياة فى بغداد ، كانت كلها مجنونة وتهاكا على الفجر والمعبر ؛ فإن تعدد الزوجات الذى أباحه الإسلام ، وما أعطاه للرجل من حق تسرى الجوارى ، كل ذلك كان يحول دون سقوط بغداد جميعها فى هوة الفساد ، ومن أجل ذلك ينبغي أن لا تبالغ فى تصور موجة الجنون ، والعبيث حينئذ ، وأن نظن أن أهل بغداد جميعاً قد تخلوا عن الحياة المستقيمة الطاهرة التى يحوطها الخلق والتقاليد والدين ، إنما هو الكرخ حيث بيوت النخاسين والمغنين ، ومن يغدون عليها من الفتىyan والشعراء للشراب والجنون فى غير استخفاء ولا حياء^(١) .

وفي حديثه عن الشعوبية ونشاطها وشعرائها وخطرها ، يقول : « وينبغي أن نعرف أن الروح العربية - على الرغم من هذه الشعوبية - ظلت شامخة مسيطرة يسندها الخلفاء وزعماء العرب من الولاة والقواد ومستشاري الدولة ، كما يسندها الفقهاء والمحثون وعلماء اللغة ، ورواة الشعر »^(٢) .

(١) العصر العباسي الأول من ٧٨.

(٢) العصر العباسي الأول من ٧٣.

ويخفف من خطر الزندقة والإلحاد معطياً صورة صادقة عن الدين والمجتمع ، يقول : « وليس معنى ما قدمنا من حديث عن الزندقة والمجون أنهما يشكلان ظاهرة ، وإنما شاعا في طبقة محدودة من الناس ، كان جمهورها من الفرس ، وكانت موجة المجون أكثر حدة ، ولكنها لم تكن عامة في المجتمع .. أما عامة الشعب ، فإنها لم تكن تعرف زندقة ولا مجونة ، أما من حيث الزندقة فإنها لم تكن تعادي الإسلام بل كانت معظم هذه الطائفة مسلمة حسنة الإسلام ، تهتم بأوضاعه ، وتتجلى على سنته »^(١) .

وفي دراسة أبي تمام وشعره ، يشير إلى بعض التواحي التي تكون شخصيته ، ويدافع عنه يقول : « وفي أخباره أن الحسن بن رجاء ، لاحظ عليه أنه يصلى صلاة خفيفة لا يطيل فيها ، وتوسع بعض الباحثين في الخبر ، فقالوا : إنه لاحظ عليه تقصيره في أداء الفروض الدينية ، وديوانه وما به من مواعظ دينية يشهد على صحة إسلامه . وأيضاً فقيه قضيدة وصف بها حجة حجها ، وليس في ديوانه وراء ذلك ما يصور أنه كان عابتاً أو ماجناً ، يلهو ولكن بقسطاس ، ولكن خصومه حاولوا أن يغضوا منه فزيقوا عليه الخبر السالف ، طعناً عليه ، ومحاولة للنقص منه »^(٢) .

وعند دراسة الشعراء والكتاب يذكر في الهامش المصادر والمراجع التي تقيد الدارسين ، والطلاب ، مع بيان الطبيعة ، ودار النشر ، والجزء والصفحة وبذلك يقدم خدمة جليلة للباحثين .

ونستطيع أن نقول إن المؤلف قد بحث كل ما يتعلق بتاريخ الأدب في هذا العصر ، بحثاً مستقصياً ، شاملًا ، مرتبًا مادته العلمية ، ناقداً ، مدققاً محللاً ، متقدماً ، كاشفًا عن عدد من الملامح الواضحة في الشعر والنشر ، مما يدل على معايشة علمية عميقة ورؤى شمولية ، فنحن أمام باحث ذي منهج أكاديمي علمي ، يحدد أهدافه ، وما يريد أن يتحققه ، يوفر له المادة العلمية في مصادرها ومراجعها ، مع تفهم تام ، ودقيق واع بحركة المجتمع ببعادها المختلفة تاريخية ، وإجتماعية ، وعقلية ، وثقافية ، والتي تتضح في الإبداع البشري شعراً ونثراً ، ويعتمد على نوقه الخاص في الحكم على بعض الظواهر الأدبية . فمؤرخ الأدب لا يمكنه أن يتجرد عن عوامل مكونات ذاته ، فنراه

(١) العصر العباسي الأول من ٨٣ .

(٢) العصر العباسي الأول من ٢٧٦ .

يفصل الحديث في بعض الموضوعات مبرزاً جوانبها وأفكارها وأثارها ، ومميزاتها . وأحياناً يتناول موضوعات أخرى تناولاً سريعاً دون إعمال ، لأنها لا تلقي لديه تقبلاً من نوع ما ، ومع هذا استطاع ب بصيرته النافذة وعلمه الدقيق أن يكون موضوعياً في دراسته وأحكامه ، إذ تبى الأحكام العاطفية ومحارة الآخرين .

ونراه ناقداً ، محلاً ، راصداً ، الظاهرة الأدبية ، ويبعد حسه النقدي الدقيق في مجال المقارنة بين أرائه ، وأراء سابقيه ، أو معاصريه . ويتحقق منهجه النقدي المعتمد على استقراء ، واستقصاء للفكرة من جميع جوانبها ، ووقف على كل ما قبل حلها . ثم محاولة الوصول إلى الرأي الفصل فيها ، أو الأقرب إلى المنطق والمعقول ، بدلة التاريخ والأحداث .

ويبعد المؤلف في دراسته عالماً بكل ما يتعلق بالعصر ، محيطاً بدقائقه وتأليفه في العلوم المختلفة ، خيراً بفنون الأدب وظواهره ، مضطلاً ببعض التفكير في دقاتها ، ملماً بائق خصائصها ، دارساً قصائصها ومقطوعاتها ، مستشهدًا بشعر شعرانها ونشر ناثريها .

وبعد فقد جاءت دراسة أستاذنا الدكتور شوقي ضيف ، موسوعية شاملة واضحة ، مما يميز دراسته عن جميع الدراسات ، حول العصر العباسى : فقد درس الباحثون ظاهرة معينة ، أو تتبعوا الأدب في فترة زمنية قصيرة محددة ، أو في مدينة أو من خلال شاعر أو ناشر أو كتاب ، كدراسات الدكتور طه حسين ، والدكتور يوسف خليف ، والدكتور محمد مصطفى هدارة ، والدكتور حسين نصار ، وغيرهم .

ندعو الله أن يمد في عمر أستاذنا الجليل ، ويمتع بالصحة والعافية ، ويوفقه في إتمام مجموعة تاريخ الأدب العربي .

د . عصمة عبد الله غوشة

أستاذ الأدب العربي

كلية الآداب - الجامعة الأردنية

٨ - الرؤية الشمولية في تاريخ الأدب

عند شوقي ضيف

د . حلمى بدير

« شوقي ضيف » من القلائل في عمر أدبنا العربي ، الذين يعرفون جيداً ما ي يريدون تقديمها لمكتبة العربية ، منذ بداية خوض هذا المجال سنة ١٩٢٩ في رسالته التي تقدم بها إلى قسم اللغة العربية بكلية الأدب ، ورسالته « الصناعة الفنية وتطورها في الشعر العربي » سنة ١٩٤٢ ، لنيل درجة الدكتوراه في الأدب .

ووضوح « الرزبة » يبدو محدداً لمنهجه العلمي ، منذ هذه البداية الأكاديمية الأولى ، كواحد من جيل رائد أول ، تتلمذ على يد عميد الأدب العربي مباشرة في شبابه ، (كان عميد الأدب العربي الدكتور طه حسين في أوج قمته الأدبية ، والإبداعية خلال الثلاثينيات والأربعينيات من هذا القرن) .

وهو المنهج الذي يعتمد على محورين أساسين :

* محور تاريخي علمي متبع ، يدقق في مسار تاريخ الأدب العربي ، ويلقى الأضواء على جوانب حركته المتغيرة المتتابعة .

* محور نقد أكاديمي يمتزج بالمحور السابق ، ليقدم ملامح واضحة لحركة تاريخ الأدب العربي في عصوره المختلفة بدءاً من « الجاهلية حتى « المعاصرة » .

وهو « المنهج العلمي » المؤكّد على ضرورة خوض جوانب المعرفة الأنثوية المختلفة فيقدم في تاريخ الأدب العربي :

العصر الجاهلي ، ١٩٦٠ .

والعصر الإسلامي ، ١٩٦٣ .

- والعصر العباسى الأول ، ١٩٦٦ .
- والعصر العباسى الثانى ، ١٩٧٣ .
- وعصر الدول والإمارات ج ١ ، ١٩٨٠ .
- وعصر الدول والإمارات ج ٢ ، ١٩٨٤ .
- وفي مجال الدراسات الأدبية :
- الفن ومذاهبه في الشعر العربي ، ١٩٤٢ .
- والفن ومذاهبه في النثر العربي ، ١٩٤٦ .
- والتطور والتجدد في الشعر الأموى .
- والشعر والفناء في المدينة ومكة لعصر بنى أمية .
- ثم ينتقل إلى العصر الحديث :
- براسات في الشعر العربي المعاصر ، ١٩٥٣ .
- والأدب العربي المعاصر في مصر ، ١٩٥٧ .
- ثم يقدم دراسة بين الأدبين الرسمي والشعبي :
- الشعر وطوابعه الشعبية على مر العصور .
- والبطولة في الشعر العربي .
- ثم يترجم لعدد من الشخصيات الأدبية :
- شوقي شاعر العصر الحديث .
- ابن زيدون .
- البارودى رائد الشعر الحديث ، ١٩٦٤ .
- القعاد .

ثم يقدم تجارب في النقد الأدبي والتعريف ببعض فنون الأدب العربي في دراساته :
في النقد الأدبي ١٩٦٢ ، وقصول في الشعر ونقده ، ١٩٧١ ، والنقد ١٩٥٤ ،
والرثاء والمقاومة ١٩٥٤ ، والترجمة الشخصية ١٩٥٦ ، والرحلات ١٩٥٦ .

وينتقل إلى الدراسات البلاغية وال نحوية :

البلاغة تطور وتاريخ ١٩٦٥ .

المدارس التحويية .

ثم في الدراسات القرآنية :

سورة الرحمن وسور قصار : عرض ودراسة .

ثم في تحقيق التراث :

المغرب في حل المغرب لابن سعيد جزءان .

كتاب السبعة في القراءات لابن مجاهد ^(١) .

وهذا التنوع الكبير في مجالات الدراسة في الشعر والنشر القديم والحديث ، وفي النحو والبلاغة والنقد والترجمة ، وفنون الأدب ، والتفسير والقراءات .. يجعل دراسة « البحث الأدبي » طبيعته . مناهجه . أصوله . مصادره » مرجعاً رئيسياً يجمع بين النظرية والتطبيق ..

ويبدو في أعماله جميعاً امتزاج المحور التاريخي بالمحور النقدي .. على الرغم من أن ظاهرة التاريخية الواضحة ، والتي تبدو خاصة في بعض عناوينه الرئيسية ، مثل « تاريخ الأدب العربي » . أو « البلاغة تطور وتاريخ » .

على أن الوقوف عند جانب واحد فحسب عنده ، وهو الجانب الغالب على طبيعته الأكاديمية ، وهو محاولاته الموسوعية في تاريخ الأدب العربي في عصوره المختلفة ،

(١) حلولنا رصد تاريخ الطبعة الأولى من دراساته وأبحاثه ، وقد صدرت - في غاليتها - عن مؤسسة دار المعارف .

يجعلنا نحاول كذلك اكتشاف : مدلول « التاريفية » عنده في تاريخ الأدب History of literature .. ، وموقعه بين محاولات تاريخ الأدب العربي فيما سبق تحت أسماء : « تاريخ أداب اللغة العربية » أو نحوها في العصر الحديث بدءاً من جورجي زيدان .

أما عن مدلول « التاريفية » فهو لا ينغلق على حدود التتابع الوصفي للأحداث في تعاقبها المتسلسل ، وإنما ينطلق إلى آفاق التفسير المستفيد من حركة تاريخ الأدب ، من حيث علاقتها بالبيئة المفرزة ، والأديب المبدع .. ، ولهذا نجده يستعين بحركة العصر ، يتوقف عند ملامحها المحددة لأنوار فكرها .. ، وهي ملامع قد تبدأ من المكان .. وتمتد في الزمان تكشف عن هوية كل منها .. ويتعرف على الملامح المميزة التي يختص بها عصر دون آخر ، ومن ثم يتميز بها فكره وأدبه .. وهو ما سنحاول التعرض له فيما بعد .

أما عن موضوع « شوقي ضيف » بين محاولات « تاريخ الأدب العربي » قديماً وحديثاً : فيجب أن يكون واضحاً في الآنهان أن جهده لا يختص بالعصر الحديث فحسب .. ، وأن المحاولات السابقة عليه تقدم نماذج تختلف على نمط « المقتطفات » و« الطبقات » و« الجاميع » ، ونحو ذلك ، ومع هذا فإن جهد شوقي ضيف متميز عنهم جميعاً . وقد توفر بعض العلماء على دراسة تاريخ الأدب العربي بدءاً من القرن العشرين .. نذكر منهم :

تاريخ أداب اللغة العربية : حسن توفيق العدل ١٩٠٤ نسخة بالبالوطة بدار الكتب تحت رقم ١٥٨٧٥ .

تاريخ أداب اللغة العربية : محمد نياب ١٣١٧ مطبعة جريدة الإسلام .

تاريخ أداب اللغة العربية : جورجي زيدان ١٩١١ .

تاريخ أداب اللغة العربية : مصطفى صانق الرافعي ١٩١١ ، ٢ أجزاء . مطبعة الأخبار .

تاريخ الأدب العربي : أحمد حسن الزيات .

تاريخ الأدب العربي : كارلو نيللينو .

الأدب العربي وتاريخه : محمود مصطفى ١٩٣٧ ، ٢ أجزاء .

وفيما عدا ذلك فقد جنح الاتجاه فى التاريخ نحو «الجزئيات» ، التى توقف عند بعض الظواهر : « التشاوم فى الشعر العربى قبل أبى العلاء »^(١) أو « المرثية فى الشعر العربى »^(٢) ، أو « تطور الخمريات » ، أو « شعر الطبيعة » ، أو « الوصف » ، أو « نزعة الزهد » ، أو غير ذلك ، أو توقف عند مرحلة تاريخية كبحث الدكتور محمد كامل حسين ، « الأدب العربى بمصر من الفتح الإسلامى إلى دخول الفاطميين » ، وهو بحثه الماجستير سنة ١٩٣٥ - أو بحث «الأدب العربى فى القرن الثالث الهجرى » لراجية فهمى ١٩٤٢ ، أو « الأدب البوهى » لمحمد غناوى الزهيرى ١٩٤٨ ، أو « الشعر العربى فى المهجر » للدكتور يوسف خليف ١٩٥٦^(٣) ، ووقف الاتجاه التاريخي أحياناً عند الشخصيات .. وقد بدأ هذا بخطه حسين فى رسالته للجامعة الأمريكية (١٩٠٨ - ١٩٢٥) لدرجة الدكتوراه سنة ١٩١٤ بعنوان « تاريخ أبى العلاء المعرى » . وتبعه أحمد بيلى برسالة حول « حياة ملاع الدين الأيوانى » سنة ١٩٢٠ ، ثم محمد كمال حلمى برسالة حول « أبى الطيب المتنبى » سنة ١٩٢٠ ، ثم « عمرو بن العاص » لحسن إبراهيم حسن سنة ١٩٢١ ، ولا زالت هذه الاتجاهات جميعاً تسود تاريخ الأدب العربى فى الرسائل والأبحاث الأكاديمية المختلفة ، وقد غطت ولا شك مساحات هائلة من المراحل التاريخية ، والظواهر الأدبية والشخصيات الاعلام المختلفة ، ولكنها تفتقر - نتيجة لتتنوع الباحثين - إلى تكامالية المنهج وشموليته الروبة .

تكاملية المنهج الأكاديمي :

لابد من الاعتراف بأن منهج البحث الأكاديمي يبيو مختلفاً حتى الآن ومتنوّعاً ،
بل وغير واضح المعالم أحياناً لا في أذهان الطلاب فحسب ، ولكن في أذهان بعض
المتخصصين .. ولكن مع دراسات الدكتور شوقى ضيف نكتشف ووضوحاً متكاملاً في
رؤيه المنهج الأكاديمي العلمي ، نكتشف معه أن البحث يبعد :

(١) هو بحث الماجستير لـ الدكتورة عاشرة عبد الرحمن سنة ١٩٤١.

(٢) يبحث الماجستير الدكتور محمد حسن الزيات .

(٣) اعتمدنا على ثبت رسائل الماجستير والدكتوراه بجامعة القاهرة منذ النشأة حتى سنة ١٩٥٧ .

- وقد تحددت أهدافه والغرض منه وما يريد أن يتحقق .

- وقد توفرت المادة العلمية في مصادرها ومظانها جمِيعاً متقدمة إلى أدق الحدود والأبعاد .

- وقد توفرت بعد العنصرين الأولين « عناصر الجدة » وهي العنصر الرئيسي من البحث .

وهنا نطرح التساؤل المزدوج حول وظيفة تاريخ الأدب ، وقد كان محور أحد أعداد مجلة « الثقافة الأجنبية » العراقية .. الذي جعل « طرق ونظريات كتابة تاريخ الأدب » محور العدد الأول من السنة الثالثة شتاء ١٩٨٢ ، وكان أول موضوعات هذا « المحور » بعنوان « وظيفة تاريخ الأدب » لروبرت سبيلر Robert E. Spiller ترجمة : د . سلمان الواسطي عن الإنكليزية ، تحت شعار من أقوال سبيلر يقول : « وظيفة تاريخ الأدب هي أن يكشف تاريخ الإنسان كما يكشف عنه الأدب » .

إن وضوح وظيفة تاريخ الأدب ، هي المحور الأول الذي منه تتوضّح أبعاد المنهج الأكاديمي المستخدم .. وقد نجح « سبيلر » في تلخيص أهم النظريات المكونة له .. من التاريخ ، والنقد ، والظروف المؤثرة .. والمتاثرة .. مع اعترافه بضرورة اقتران هذه العوامل جميعاً .

ففي الماهية يقول : « يعني تاريخ الأدب بأحد أشكال التعبير الإنساني ، فيصف ويفسر » التعبير « الذي يتخذ « الأدب » وسراً له ، الذي يبدعه شعب من الشعوب خلال فترة زمنية محددة وفي مكان معين وبلغة هي - عادة - لغة ذلك الشعب » (١) . ونجد التعريف وقد احتوى على كلمات « الوصف » و « التفسير » و « التعبير » و « الأدب » و « الإبداع » و « الزمن » و « المكان » و « اللغة » .. وهذه المفردات تشكل تداعياً فكريًا يمكن أن يحدد من خلاله عوامل الالتزام في عملية تاريخ الأدب » . ثم يبدأ بعدها في فصل هذا المجال عن مجالات أخرى ..

« إن تاريخ الأدب ليس تاريخاً للغة » رغم ضرورة استعماله بعالم اللغة .

(١) مجلة الثقافة الأجنبية Foreign Culture مجلة فصلية - وزارة الثقافة والإعلام - دار الباحث - بغداد .

العدد الأول . السنة الثالثة . شتاء ١٩٨٢ . ص ٤٠ .

« وهو ليس تحقيقاً للنصوص » لأنَّه يعتمد عليها .

« وليس تاريخ الأدب نقداً أدبياً »^(١) مع أنه ينبغي أن يعتمد على النقد الأدبي .

ويلخص الموقف على هذا النحو :

« قد يكون مؤرخ الأدب ملماً .. بل يتحتم عليه أن يكون ملماً ، بدرجة أو أخرى بميالين عمل اللساني ، وناقد النصوص ، والناقد الأدبي ، لكن دوره كمؤرخ أدبي يختلف تماماً عن أدوار أولئك ، إذ إن وظيفته الدقيقة المحددة هي أن يجيب عن أسئلة مثل : كيف ؟ ومتى ؟ وأين ؟ ولماذا ؟ ظهر أو يظهر عمل أدبي إلى الوجود ، وما هي علاقاته الحالية أو الماضية بالأعمال الأدبية الأخرى ، وبالتالي تاريخ العام للإنسان باعتباره كاننا اجتماعياً حساساً »^(٢) .

ومن هنا يصبح دور مؤرخ الأدب محدد الأبعاد في « علمية » منهجه ، وتصبح مهمته أكثر شمولية ، وأكثر امتداداً من فروع « التعبير » الأخرى المختلفة ، فهو ليدخل لفترة ما .. عليه أولاً أن يحدد : الإطار الزمني الذي ينطلق منه والذى ينتهي عنده .. ويقدم مبرراً المستند عليه فى اختباره للحداث فى البدء والانتهاء وهو قد يكون مبرراً تاريخياً سياسياً - كما هو الشائع - فى تحديد الأطر الزمنية لتاريخ الأدب العربى فى مراحله المختلفة . أو نقدياً فنياً يعتمد على أحداث التاريخ الأدبي كفواصل زمنية دون غيرها .. ولكنه لابد وأن يكون مقنعاً ، وهو لن يكون كذلك إلا إذا ، توافرت له عناصر المنطقية العلمية .

ثم ينتقل إلى تحديد : الإطار المكانى ومنه تتبين توجهاته وظواهر الحركات التى يرصدها .. والإطار المكانى سوف تتحدد به أيضاً عناصر عدّة : منها ما هو تاريخى من حيث تاريخ المكان وحركته ، سعوداً أو هبوطاً أو ما اختارله توينى Toynbee ، عنوانه الدال الذى لا تسهل ترجمته *Cities on the move* ، وجعله عنواناً لأحد أهم دراساته فى حركة المدن العالمية الكبرى دلهى والقاهرة وغيرهما .. يتبعهما كحيرز مكاني يقمع بالصورة والحركة يتمد وينكمش ، ليتغير بتغير العصور والأجيال والطبق التاريخية .

(١) المصادر السابق : من ٤٠ .

(٢) المصادر السابق : من ٤٠ .

ومن هذا ينتقل إلى : **الظواهر الأدبية** : وهي معتمدة على تفهم واع بحركة المجتمع ببعادها المختلفة ؛ اجتماعية ، وسياسية ، وتاريخية ، وفكرية ، وثقافية ، راصداً ل دقائق هذه الحركة ، واعياً بقيمة تأثيرها مجتمعة في حركة الإبداع البشري ، وانعكاسها عليه . واشتراكها في صنع « الظاهرة الأدبية » ، أو الاتجاه المذهبي ، أو حركات التقدم أو الارتداد .. أو غير ذلك مما يتعرض له « العصر الأدبي » في كل الأمم والشعوب المختلفة .

ثم يضمن ذلك حركة « الشخصية الأدبية » في الشعر أو النثر ، وفنونه المختلفة معتمداً على « الثابت » دون « المتغير » ، وهو لا يرصد « المتغير » حتى يصبح « ثابتاً » ، وربما تبدو هذه إشكالية « المعاصرة » في ميدان تاريخ الأدب .. ولا يتناقض هذا مع فكرة « سيلر » من « أن اهتمام مؤرخ الأدب ، ينبغي أن ينصب على العملية الإبداعية برمتها ، وليس فقط على الشكل والمضمون المكونين للعمل المنجز » (١) .

على أن الأمر من خلال هذه العناصر المتكاملة في تعقب حركة الأدب لا يخلو من « نون خاص » وهو قدر من « الذاتية » مفروض حيث إن « المؤرخ الأدبي » لا يمكنه التجدد عن عوامل مكونات ذاته .. وإلى حد ما فإننا نضع في الاعتبار هذه الخصوصية الذاتية في تعقبه لحركة الأدب والحادي على بعض جوانبها وأفكارها ، ومحاولاته إخفاء بعض جوانب لا تلقى لديه تقبلاً من نوع ما .

إشكالية المصطلح النقدي :

قد يبدو من مقارنة مناهج تاريخ الأدب العربي والغربي ، ارتباط تاريخ الأدب الغربي بمفاهيم اصطلاحية نقدية Critical Idioms .. تتبع عادة من طبيعة المرحلة التي يوصف بها الأدب ، أو كنتيجة لمزاج عام يسيطر على مجال العطاء الفنى أو الأدبي ، بمعنى آخر فإن ابتعاد تاريخ الأدب الغربي - بعامة - عن تاريخه السياسي : أثار

(١) المصدر السابق : ص ٤٣ .

الفرصة للنظر في مناطق التغير الفني الزمانية .. وأصبح التاريخ ببدايات ظهور المذاهب الأدبية أمراً وارداً ، بل وضرورياً .. ومن هنا نجد التاريخ الأدبي يجمع على البدء بالعصر الكلاسيكي .. وهي تسمية لا تصلح للتاريخ السياسي للحقبة الزمنية المواكبة له .. ثم يعكف على عصر النهضة ، أو « الرينيسانس » وهو مصطلح يصلح للتاريخ ، كما يصلح للأدب ، وليس بخيلاً من أحدهما على الآخر ، بل يكاد يكون مطابقاً للمواصفات الفنية المميزة لإنتاج عصره الأدبي من حيث طبائع التغيير والتتجديد فيه ، وينتقل منه إلى عصر الرومانسية والواقعية ، ثم الحداثة (على الرغم من ارتباطها غير الوثيق أحياناً بأحداث ما في العصور زمانياً) .

والإشكالية في المصطلح النقدي - في تصوري - غير واردة - في منظور مؤرخى الأدب القدماء على الأقل . فلم يكن الاختلاف مذهبياً في الأدب يقدر ما كان في علوم اللغة والنحو والبلاغة والمعنى والبيان .. وربما بدأ الفكر العربي واضحاً في عصوره المختلفة في هذا المجال على وجه التحديد .. بل لم يكن يبدو خلاف حول « المصطلح النقدي » في أي مجال آخر من مجالات الفكر العربي ..

وقد تبدو الإشكالية أكثر وضوحاً عند بعض من أخذ بعلوم النقد الحديثة في الأداب الغربية ، واستعار عدداً من المفاهيم وربت مع ما استغير من فنون مستحدثة .. ولم يكن بيدهما لمن تمثل الشعر الغربي وأخذ يقلده أن ينفر من مصطلحه ، وكذا في المسرح أو الرواية أو القصة .. وليس أدل على ذلك من مصطلح « الشعر الحر » في مقابل *Vers Libre* ، بينما الشعر الجديد في مدرسة صلاح عبد الصبور وغيره « غير حر » ، بل هو متقييد بقيود فن الشعر ، والعروض ، والموسيقى ، والقافية الداخلية ، واللغة ، والبلاغة ، ونحوها .. إذا ما كان هناك من خلاف فلا يبدو في غير « عدد التفعيلات » ليس غير .

أما « المصطلح النقدي » في التراث ، فلم يجد على قدر من الأهمية بحكم ارتباط مؤرخ الأدب بعصور التاريخ السياسي كذلك ، واكتفائة بالعنوان المستمد من العصر التاريخي ليصبح أيضاً عنواناً ينسحب على العصر الأدبي حتى العصر الحديث .

ومن الطبيعي نتيجة لهذا أن تتحصر المهمة التاريخية في حركة التسجيل دون النقد ، أو تجمع بينهما ، مضيفة « الموضوع » فحسب بحيث يتصنف رثاء ، أو هجاء ، أو مدحًا ، أو نحو ذلك ، دون توجه « مضمونى » ، أو كشف « شكلى » من أي نوع .. يتيح الفرصة للوقوف عند التحوّلات الفنية الجذرية في تاريخ الأدب العربي .

الرؤية المنهجية :

تنقسم دراسات أستاذنا الكبير الدكتور شوقي ضيف إلى قسمين رئيسيين في تاريخ الأدب العربي :

- دراسات تاريخية يسود فيها الجانب التاريخي العلمي ، على الجانب النقدي التحليلي المتنوّق .
- دراسات تاريخية يسود فيها الجانب النقدي العلمي ، على الجانب التاريخي المتبع .

ومثالنا على القسم الأول مجموعة تاريخ الأدب العربي ، الذي بدأ بالعصر الجاهلي ، ثم الإسلامي ، ثم العباسى الأول ، فالعباسي الثانى ، فعصر الدول والإمارات ج ١ (الجزيرة العربية - العراق - إيران) ، وج ٢ (مصر والشام) .

ومثالنا على القسم الثاني مجموعة دراساته في التطور والتجديد في الشعر الأموى . والفن ومذاهبه في الشعر العربي . والفن ومذاهبه في النثر العربي . والشعر والغناء في المدينة ومكة لعصر بنى أمية . والشعر وطوابعه الشعبية على مر العصور . والأدب العربي المعاصر في مصر . ودراسات في الشعر العربي المعاصر . ثم شوقي شاعر العصر الحديث . والبارودى رائد الشعر الحديث .

وموسوعية الأداء سمة من أهم السمات التي يتميز بها الدكتور شوقي ضيف ، فضلًا عن الحس النقدي فائق الدقة .. والذى يتمثل فى منهجه فى الاستقصاء ، وترتيب المادة التاريخية ، والكشف عن هوية عند من الملامح فى مراحل تاريخ الأدب العربي وتقده .

كما أن السمة العلمية تبدو واضحة في القسم التاريخي من دراساته (تاريخ الأدب العربي) ، والتي تدل صورها على معايشة عملية زمنية متعاقبة ، بدأ بالعصر الجاهلي في تعاقب وصل إلى عصر الدول والإمارات في مصر والشام ، مروراً بالعصر الإسلامي ، ثم العباسى الأول ، ثم العباسى الثانى ، ثم عصر الدول والإمارات في العراق وإيران والجزيرة العربية . بينما نجد القسم التاريخي النقدي يخضع لتغيرات التسوق لحاجة الدراسة .. ولهذا نجده لا يصدر في تعاقب تاريخي إذ لا حاجة فيه لذلك ، وإنما يصدر طوعية في إطار تكامل التصور المنهجي النقدي المراد التعبير عنه .. فتنوّق الأدب العربي المعاصر ، ودراسات الشعر الحديث تأتى في الخمسينيات ، والبارودى في السبعينيات ، يسبّقهما العصر الأموى ، ويليهما العصر الجاهلى .. أو نحو ذلك .. وهو لم يجد حاجة ماسة لمعايشة التراث الأدبي في عصوره المختلفة متعاقبة ، إلا عندما وجد الضرورة الملحّة لذلك . فالتعاقب قد يفید في مجال رصد الظواهر في الدراسات النقدية ، ولكنه حتى في مجال دراسات التاريخ الأدبي .

أولاً : تاريخ الأدب العربي :

قد تبدو محاولة اكتشاف المنهج عسيرة .. وهو المنهج العلمي التاريخي الذي صدر فيه د . شوقي ضيف عن دراسة تاريخ الأدب العربي في مجلداته المتعددة ، وعلى الرغم من محاولات التنقيب والتفيث في تضاعيف دراساته هذه ، فصعوبة الجزم باكتشاف المنهج قائمة .. وإن كانت محاولات « التصور » تبدو بديلاً عن تناقضها .

أول ما يبدو من تصور حول « المنهج » أنتا أمامباحث يضع تمثلاً يقيناً للعصر الأدبي الذي يُؤرخ له .. مرتبًا شاملاً ، بحيث تتكامل فيه الجزئيات ، وتكون عناصر حية متكاملة لتوضح صورة العصر الأدبي بجميع عوامل تأثيراتها وتفاعلاتها . ولذلك فإن خوض عالم « الحياة الأدبية » يتطلب بذاته خوض عالم الحياة السياسية ، والاجتماعية ، والعلقنية . ولا تكشف ضرورة خوض هذه العوالم إلا بعد اكتشاف عناصر تأثيرها في الحياة الفكرية بعامة والأدبية بخاصة .. وربما يؤكد هذا عصر الارتباط العضوي بين الأدب وبينه ، باعتبار الأدب واسطة العلاقة بين الطرفين .

ولقد تتنوعت طرائق الكشف عن عناصر الحياة بأرجانها من عصر لعصر .. فبينما نجدها في العصر العباسى (الأول والثانى) تلتزم العناصر المباشرة (سياسية - اجتماعية - عقلية) نجدها في العصر الجاهلى - بحكم طبيعة البداية في الأدب والباحث - تخوض تجربة التعريف بالأدب وجزيرة العرب والجنس السامى ، ثم الحياة الجاهلية بعنانصرها السياسية والاجتماعية والعقائدية ، فهى باعتبارها مرحلة بداية أدب أمة تخوض تجربة التعريف بالعرب ، وأصلهم ، ولغتهم ، وتكوينها ، وهو أيضاً ما يحتاجه الباحث في هذه المرحلة لينطلق منه ل تتبع تاريخ وأدب هذه الأمة في عصورها التالية .

ولأن معطيات الإسلام شكلت محوراً مفيراً في ظواهر الحياة بأرجانها المختلفة ، سياسية واجتماعية وعقلية .. بل محوراً أساسياً مفيراً فيما قدمته من ظواهر فنية وأسلوبية ، جديدة و « حديثة » ، فلقد تغيرت محاور التناول التاريخي في العرض للأدب الإسلامي سواء في مرحلته الأولى (عصر صدر الإسلام) التي تنتهي ب بدايات العقد الثالث للهجرة (سنة ٤١ هـ على وجه التحديد) ، أو مرحلته الثانية (عصر الأمويين) التي تنتهي ب بدايات العقد الثالث بعد المائة . (سنة ١٢٢ هـ على وجه التحديد وهو بداية عصر الخلافة العباسية الأولى) ، فيتناول في الفصل الأول من الكتاب الأول « الإسلام » كقيم روحية ، وعقلية واجتماعية وإنسانية ، ومنه إلى نصوصه : القرآن الكريم ، والحديث النبوي ، والاثر المتزوك في اللغة والأدب .. ثم تبتو الآثار المباشرة في محتوى الشعر (شعر الفتوح ، والمدايم النبوية ، والشعر المخضرم المتاثر بالإسلام ، وفي أنواع النثر وخاصة الخطابة والكتابة .. ، ولا يليث أن يتبع كذلك الحياة الإسلامية بصفة عامة امتناجها بالشعوب المجاورة ، وأنثرها فيها ، وتأثرها بها ، ومظاهر هذا كلّه في فن العربية الأول - الشعر - وفن النثر على السواء .

ويبدو منهج التتبع الدقيق ل ظواهر الحياة بتنوعها وأضحاها في العصر العباسى الأول والثانى ، ربما بحكم استقرار المفاهيم السابقة والتي تعرض لها في العصورين الجاهلى والإسلامى .. وربما بحكم تزاحم المؤثرات المختلفة وترابكها وتشابكها في صنع صورة الحياة الأبية لهذا العصر ، ومن هنا كان وضوح الرؤية الشمولية المعبرة عن الحركة الحية المكونة لعناصر الإبداع والتفكير .. في الحياة السياسية : العباسيون ،

والعلويون ، والخوارج ، وثوراتهم ، والنظم السياسية ، والإدارية والمدن .. في الحياة الاجتماعية : مظاهر الترف والثراء والرخاء ، وما استتبع من رقيق ، وجوار ، وغناه ، ومجون ، ونحوها . وفي الحياة العقلية : واشتباكها وأثر الامتزاج الجنسي واللغوي والثقافي .. وترانيم الآثر ووضوحه في الحركة العلمية ، وعلوم اللغة والتاريخ والدين ، وعلم الكلام والفلسفة .. وانطلاق الثقافة العربية إلى تجارب عقلية مجاورة .. والآثر المترتب على حركة الشعر والشعراء ، والنشر والناشرين ، ووضوح رقى التشيع والأنقسام ، والمذهبية والخصوصية الفردية والجماعية في شعر الزهد والغزل والمجون والزنقة .. وأيضاً الآثر المترتب في حركة النشر وتطور فنونه في الخطب والوعاظ والقصص والمناظرات والرسائل ونحوها ، وأعلام كل فن منها .. والملامح الشكلية لكلٍ منها .

ومع اختلاف في المضمون في عناصر الحياة الثلاثة نجد العصر العباسي الثاني ، يقف أمام الطواهر السابقة أيضاً في تكافف للرؤيا ، يحول شمال جوانب التثمير المختلفة ، والمشتبكة في صنع الحركة الأدبية وظواهرها المتوعة ، مع اختلاف يسير ناجم عن الاختلاف الطبيعي في تعاقب العصور التاريخية .

وهنا تظهر الرؤيا الشمالية في تمثل حركة الأدب العربي على مر عصوره .. وذلك في المقدمة الإيضاحية التي يضعها أستاذنا دكتور شوقي ضيف في كتابه : عصر الدول والإمارات (الجزيرة العربية - العراق - إيران)⁽¹⁾ . والتي يقدم من خلالها تمثلاً جديداً لعصور الأدب العربي تتفق بالعصر العباسي الثاني عند سنة ٣٢٤ هـ ، ليبدأ عصر الدول والإمارات الذي يشمل الامتداد الزمني من ٣٢٤ هـ حتى بدء العصر الحديث . في أرجاء العالم العربي .. باعتبار تخلص زعامة العباسيين للدول والإمارات في حرب ببغداد فحسب .. وهنا تصبيع التقسيمة الجديدة وقد اعتدت بالقرن الثمانية بين القرن الرابع والقرن الثاني عشر عصراً وسيطاً يشبه سمة العصور الوسطى الأوروبية . مع ما تميزت به من سمات ، مع اختلاف الظلل والتفاصيل . ونجد عصور الأدب في هذا التقسيم الجديد تنقسم إلى :

(1) طبعة دار المعرفة . بيروت ١٩٨٠ طبعة ثانية .

العصر الجاهلي - والعصر الإسلامي - والعصر العباسى - والعصر الوسيط -
والعصر الحديث .

وهي من هذا المنطلق ليست تقسيمة تاريخية بقدر ما تتمتع أقصى سمات التقسيمات الفنية .. بحيث ينبو كل عصر منها مثلاً للامامة ، متقدلاً عبر التاريخ بخصوصيات تميزه في حياته العقلية والإبداعية عن غيره من العصور الأدبية والفكرية والعقلية .

وكان المؤرخون يمتهنون بالعصر العباسى الثانى حتى سنة ٦٥٦ هـ « حين أغار قطuan التتار حتى الغزو العثمانى لمصر والشام والعراق باسم العصر المغولى ، وسموا فترة حكم العثمانيين لتلك البلدان باسم العصر العثمانى » ^(١) .

وتسمية هذه الفترة الممتدة بين سنة ٣٢٤ هـ والعصر الحديث بعصر الدول والإمارات عدة أسباب : أولها الارتباط الوثيق بين أرجاء الوطن العربى على الرغم من ظواهر الضعف والتفكك وغيرها - ويجد الدكتور شوقي فى علاقه الفكر أولئك العرب . ويرى أن الدليل على التقارب الوجودانى بين أرجاء الوطن العربى فى هذه الفترة أن « العلماء - كانوا - حين يؤلفون كتاب تراجم عاماً يجمعون فيه كل من عاشوا من التابعين فى هذا الوطن الكبير ، وكأنوا إذا ألفوا كتاباً فى تراجم علم كالقراءات أو التفسير ، أو النحو ، أو حتى فى فرع كففة الشافعية أو المالكية أو الأحناف جمعوا فيه علماء فى جميع البلدان العربية بالمثل حين يؤلفون أحياناً فى تراجم الشعراء » ^(٢) .

وهو يقسم هذه الفترة إلى ثلاثة أقسام مكانية ، مصدر منها القسمان الأولان : أحدهما يخص الجزيرة العربية ، والعراق وإيران ، والثانى يخص مصر والشام .. ويشير إلى الثالث الذى سيخصص - بيان الله - للمغرب والأندلس - وبهذا تقطى دراسات تاريخ الأدب العربى المساحة المكانية الممتدة من المحيط إلى الخليج .

(١) المصدر السابق : من هـ وما بعدها من المقتمة .

(٢) المصدر السابق : من ٦ .

وتبدو واسطة التعامل مع زمانية ومكانية العصر .. في نماذج التعامل مع عطائها الأدبي الذي هو محور الدراسات في المقام الأول ، ومنهجية التعريف بالظاهرة الأدبية أو الشخصية المبدعة .

التعريف بالظواهر الأدبية :

وهي الحركات الإبداعية المواكبة لمزاج العصر ، تبدو ثمرة له ، أو رد فعل في مواجهته .. تبدأ من ظاهرة « الصعلكة » و « الفروسيّة » في العصر الجاهلي ، وتتخل في طرف منها كثمرة له (الفروسيّة) ، وفي جانب آخر كرد فعل مضاد له (الصعلكة) ، تناولها الدكتور شوقي ضيف في الفصل الحادى عشر من العصر الجاهلي ، تحت عنوان جامع « طوائف من الشعراء » .. واستخدام « طوائف » معبّر عن هذه المذهبية ، كما ستجده في العصر الإسلامي ، والعباسي الأول والثاني وعصر الدول والإمارات ، وينحصر في العصر الإسلامي في ظاهرة « الغزل الصريح » و « الغزل العنزي » ، وظاهرة « الزهد » .. وتبدو في العصر العباسي في امتداد بعض الظواهر كالإباحية ، والزهد ، ونشوء بعض الظواهر الشعرية الأخرى « كالاعتزالية » و « الشعيبة » .

وتبدو الظواهر الأدبية - كما سبقت الإشارة - ممتدة في بعضها عبر العصور والأجيال ، وناشئة في عصر دون آخر مواكبة لحركة المد المتغيرة وحركته الفكرية ومتغيرات السياسة والتاريخ .. وتبدو الظاهرة مفسرة تكشف عن طبيعة حركتها .. في ظاهرة المجنون والزنقة في العصر العباسي الأول (وكانت في العصر الإسلامي تحمل عنوان اللهو والمجنون) نجد إجمالاً مسبب الظاهرة : « فإن كثرة الشعراء كانت من الفرس ، وكان كثيراً منهم يظهر الإسلام ويبيطن الرزندقة والإلحاد ، وساعد على اضطراب النفوس وتسلط الشك على العقول كثرة المقالات والنحل الدينية ، وشيوخ المذاهب الفلسفية مما جعل كثيرين يستهترون بقيم المجتمع الإسلامي ، بل لقد كان من بينهم من يريد تحطيمها تحطيمًا ، وسبب ثان يرجع إلى كثرة الرقيق وبور النخasse التي كانت أسوأاً للعبث ، وهو عبث صحبه غير قليل من الفجور ، حتى ليتمتد إلى

الفزيل بالفلمان غزلاً يصور - عند أبي نواس وأحزابه - انحطاطاً خلقياً شنيعاً ، وسبب ثالث هو كثرة اتخاذهم للجواري والإماء ، مما أدى إلى انحلال الروابط الاجتماعية لسلطهن على الحياة المنزلية ، إذ أخذت مكان المرأة العربية الحرة ، وكأن مخلفات الأجناس ، وكثيرات منهن كن قد نشأنن على الله والملائكة والآيات والخالدة تنشئون لم تكن تعرفها المرأة العربية المحسنة »^(١) .

والإجمال الباحث وراء مسبب الظاهره يتبعه رصد لظواهرها في الكوفة - السابعة إليها - والبصرة وبغداد ، ومظاهرها في شعر والبة ، ومطبيع بن إيس ، ويحيى بن زياد .. وحماد عجرد - الذي يفرد له عنواناً - ثم ينتقل إلى صالح بن عبد القوس كظاهرة تكمل صورة المجنون والزنادقة في هذا العصر مع تتبع دقيق لظواهرها عنده .. وارتداده الدين آبائه .

ولا شك أن تتبع الظواهر الأدبية ينبغى من تمثل دقيق للحركة العقلية المتكاملة تتشابك فيها عوامل المؤثرات جميعاً .. وهي المؤثرات الداخلية في تكوين المعنى الفكري الرئيسي ، وهي كذلك محور يحتاجه الباحث والناقد على السواء .. و يقوم المؤرخ في هذه الحالة بدور الناقد أولاً .. يسبق فيه دور الراصد العلمي للظاهرة ، وتبدو دقة التعامل النقدي مع الظواهر الأدبية في مجال المقارنة بين آرائه وأراء سابقيه ، أو معاصريه فيها ، وقد استطاع أن يعلم تلاميذه منهجه التاريخي النقدي المعتمد على استقراء واستقصاء للفكرة من جميع جوانبها ، ووقف عن كل ما قيل حولها . ثم محاولة الوصول إلى الرأى الفصل فيها .. أو الأقرب إلى المنطق والمعقول بدلاًلة التاريخ والأحداث . وقد استطاع بهذا التحليل العلمي إثبات « نقد النثر » لصاحبها ابن وهب بعد أن وقر طويلاً في الأذهان نسبته لقادمة .

ولقد كانت فكرة « الأصالة » و « المعاصرة » من الأفكار الرئيسية التي شغلت أستاننا في تتبعه لتاريخ الأدب العربي .. منطلقاً من « العلم » بدقائق الأخبار

(١) العصر العباسي الأول : دار المعرفة ، الطبعة السابعة . ص ٣٨٢ .

وتقسيماتها .. نجده يضع تصوره في مقدمة نراساته في «العصر الإسلامي» ..
ويوضحها في مقدمة «العصر العباسي الأول» :

« وقد بسطت القول في ازدهار الشعر العربي حينئذ ازدهاراً رائعاً ، إذ أكب الشعرا على العربية يتقنونها ويتمثلون ملكتها تمثلاً نقيناً ، ناقدين بنو قهم المتحضر إلى أسلوب مصفي ، يجمع حيناً بين الجزلة والرصانة ، وحياناً يجمع بين الرقة والعنوية ، وكان تأثيرهم عميقاً بالثقافات المترجمة ، بما كانوا يستمعون إليه من محاورات المعتزلة ، مما أثار في عقولهم ونفوسهم كثيراً من المعانى والخواطر التي لا تكاد تحصى ، ودفعهم إلى التطور بموضوعات جديدة بما نقلنا إليها من تحليل المعانى والملاءمة بين أشعارهم وبين آياتهم المتحضرة وحياتهم اليومية ، وفتحوا صفحة لم تكن تخطر لأسلافهم على بال ، هي صفحة الشعر التعليمي ، الذي صاغوا فيه من المعارف والتاريخ والأمثال والقصص الحيوانى منظومات طريفة ، واكتشفوا للشعر أوزانًا لم تكن معروفة ، وأنماطاً من القوافي كانت مجهولة » (١) .

وفي أكثر من موضع تبدو ظاهرة «الموسوعية» في العلم بعلوم العربية وتاريخها جلية واضحة ، يحدث عن «مزاج هذا العصر» *The spirit of the age* وهو ملم بالكثر أرجائه ، محبط بكثير من دقائقه .. وتأليفه في علوم العربية المختلفة ، ويحدث عن الظاهرة الأدبية حديث الخبر يغونها المضطط بعبء التفكير في دقائقها ، ويستشهد بشعر شعرائها فيبدو ملماً بأدق خصائصه وأدق قصائده ومقطوعاته الأصلية أو الدخيلة .

وبإضافة إلى المقطع السابق من مقدمة «العصر الأول» تأمل معنى هذا المقططف من مقدمة «العصر العباسي الثاني» :

« وصورت نشاط الشعر حينئذ ، وكيف تمثل الشعرا خصائص العربية و دقائقها الجمالية والموسيقية تمثلاً تاماً ، وكيف أبدعوا أشعارهم نخائر فكرية غزيرة ،

(١) العصر العباسي الأول : من هـ من المقدمة . الطبعة السابعة .

ما جعلهم يجدون في الموضوعات القديمة والأخرى المستحدثة في العصر العباسي الأول صوراً مختلفة من التجديد ، تحفل بما لا يكاد يحصى أو يستقصى من الأفكار المبتكرة والأخيلة المبدعة ، وظلوا ينمون الشعر التعليمي ، وينظمون فيه التاريخ وغير التاريخ من صنوف المعرفة »^(١) .

وهذا التمثيل الدقيق لما هو « أصيل » وما هو « معاصر » في التراث أمر يحتاج إلى تمثيل واع يمدلول الأصلة ، ومدلول المعاصرة في ارتباطها بالمتغير الزمني .. وأثر « الزمانية » في تحويل « المعاصرة » إلى أصلة .. وفي « تأصيل » الموروث . هذا من ناحية ، ومن ناحية ثانية في ظواهر المعاصرة « الخصوصية » و« البنائية » .. أي الدخلة في إطار المفنى ، أو الدخلة في إطار الشكل ، وقد حدث في كلا الإطارين تغير يتبع الفرصة للوقوف على « الثابت » و« المتغير » في كل عصر من عصور الأدب العربي . ومن هنا فإن « المعاصرة » إذا ما اتفقنا على ارتباطها « بالحداثة » معنوياً ، متغير مرتبط بالزمانية .. أي لا يستقل بمعزل عنه . وهي فكرة أدركها أستاذنا الدكتور شوقي ضيف ، وانتقل بها من نطاق التعامل النظري - غير المجدى أحياناً - إلى نطاق التعامل التطبيقي . ورأى من خلالها حركات « الثبوت » و« الانتقال » من عصر لعصر .. في تعاقب متتابع يحتاج إلى بصيرة نافذة وعلم مدقق . وهو ما هيأ له أيضاً الوقوف على الظواهر الشعرية الفردية في « الشخصيات الأدبية » بصفة خاصة .

المبدع والنص :

رأينا أن علاقة الدراسة الأدبية بظواهر بيئتها علاقة متكاملة عند أستاذنا الدكتور شوقي ضيف ، تتبع من تقدير كامل لعناصر المكونات الرئيسية في بنية العلم الأدبي .. التي تبع في الأصل من اتصال المبدع المستوثق من علاقته الحميمة باليبيئة ومتغيراتها المختلفة ، ولذلك كان عكوف الكاتب على البيئة ، لا ينبع من رغبة توسيعية في الدراسة

(١) العصر العباسي الثاني : المقدمة - الطبعة الثالثة . عن ٥

لبن مبرر - شأن كثير من الدراسات التي تميل إلى سرد ما سبق سرده في الدراسات والأبحاث ونحوها - ولكن من رغبة « إيجابية » لعناصر تكوين « الرؤية » المتكاملة من « روح العصر » *The spirit of the age* ، واكتشاف « روح العصر » منبني بالحتم عن « روح النص » والمبدع .

نموذج أمامنا من « العصر الجاهلي » يمثل « التنقيب » العلمي ، والكشف » عن عناصر التكوين الرئيسية للحياة الجاهلية .. تطمئن إلى آراء ، وتقرع إلى أخرى ، وتتفرق من ثلاثة .. فهى فى عناصر الاطمئنان مكونة لصورة المجتمع لهذا العصر بشعبه - أو شعوبه - وإماراته وأحوال المجتمع وعقائده ، ولغته وشعره وشعراته .. وهى تكاد تنتشر من العام - عنصر المكان - إلى درجة أقل عمومية وأكثر تخصيصاً - عنصر الزمان - إلى درجات تتبع في التخصص لتنتقل إلى الحياة ، فاللغة ، فالشعر ، فالشاعر .. فى تدرج هرمي تباع « الجزيرة العربية » قاعدته . وعلى قمتها « الشاعر » .. كجزء تكامل العناصر مجتمعة لتكوين قمة .

وهذا التنوع المفسر لعناصر الدراسة ينسحب وبالتالي على عناصر تكوين « النص المبدع » المنقول من « تكوينات الشاعر » إلى « النص » وما نجده متابعاً من عناصر تكوينه من معطيات : القبيلة - الأسرة - الشاعر - الديوان - الشعر .

تجد هذا في تعامله مع أمير القيس ، والتباينة النبيباني ، وزهير بن أبي سلمى ، والأعشى ^(١) . وهذه عناصر أيضاً لا تغفل فيتناول الظواهر الأدبية المصاحبة لكل عصر وجيل . (هذا المنهج يعني ضمناً أن النص لا يفسر بمعزل عن مبدعه الذي هو الواسطة بين النص وعصره .. مع ملاحظة أن منهج البنائية Structuralism على الرغم

(١) انظر : العصر الجاهلي : د . شوقى خليف . دار المعارف . وانظر : بحث د . كمال أبو نجيب مجلة فصول . المجلد الرابع ، العدد الثاني - يناير - فبراير - مارس ١٩٨٤ ، من ٩٢ بعنوان « نحو منهج بنبوي في تحليل الشعر الجاهلي : ملقة أمير القيس - الرؤية الشبيقة » . وقد أشرنا في تراسة سابقة إلى ضرورة الأخذ بالتفسير الأنبي للآدب » والمودة » بالنص » لكاتته الطبيعية بعد أن ضاع في خضم التفسيرات النفسية والتاريخية والاجتماعية والحضارية والعلمية ونحوها . انظر : مقدمة المؤشرات الأجنبية في الأدب العربي الحديث » د . حلمى بدوى ، دار المعارف ، ١٩٨٢ .

من رفضه صلة النص ببيئته وبالبيئة مبدعه ، فإنه يستقى تفسيره من معرفة مسبقة بالنص والمبدع ، وهي خلفية تدخل في مجال معارف الناقد .. مازا يمكنه أن يتغول فيه)؟ .

ويبدو هذا بصورة أوضح وأكثر تكاملاً في دراساته للبارودي ، وشوقى ، وابن زيدون ، وهم الذين أفرد لهم دراسات خاصة بين شعراء العربية في القديم والحديث .

وهو يلخص في البارودي صفة « الرؤية الشمولية » المتكاملة في منهجه التاريخي القدي ، حيث ينطلق في دراسته من العصر والسيرة إلى الشعر والمنزلة الشعرية .. ونحن نتخيل طبيعة التتابع في انطلاق الشعر - ككائن حى - من العصر مروراً بالسيرة ، وهذه محققة لمعادلة : البيئة - الشاعر - النص . وقد يميل البعض إلى تسميتها بالمنهج الاجتماعي في تفسير النص ، أو عوامل التأثير البيئية ، أو نحوها من كليشيهات ، تتفق أو تختلف .. تظام « النص والمبدع » أكثر مما تنسفهما .. ونحن في مجال « التقييم » evaluation . والمعتمد على الاعتداد « بالنص » .. وليس « بالمبدع » و « البيئة » إلا من حيث علاقتها به .. ومن هنا تصبيع « القيمة النصية » نابعة من عوامل اجتماع هذه الرواقد المؤثرة فيه ، وفي تكوينه « البنائي » ^(١) .

ثانياً : الدراسات النقدية :

يقدم الدكتور شوقي ضيف عدداً آخر من الدراسات النقدية التي تبدأ من المنطلق القدي العلمي لا من المنطلق التاريخي التبعي فحسب .. وهذه الدراسات تعيل إلى تعقب الظواهر المتميزة ، إما لمرحلة من مراحل تطور الأدب « التطور والتتجدد في الشعر الأموى » ، أو لظاهرة في الشعر والنشر في عصور الأدب العربي المختلفة . « الفن ومذاهب في الشعر العربي » و « الفن ومذاهب في النثر العربي » . أو « الشعر وطوابعه الشعبية على مر العصور » ، أو في عصر منه « الشعر والغناء في المدينة ومكة لعصر بنى أمية » .

(١) انظر الهامش السالب .

ولعل الوقوف عند دراسة منها يمكن بها الكشف عن عنصر « الرؤية الشمولية » المتكاملة ، والتى لم تعد تتوفّر عند كثير من الباحثين من تلامذته أو تلامذتهم . حيث تميل « روح العصر » والجيل الحديث منه إلى ما يُعرف « بالشخصن التّقىق » .

فدراسة حول « الفن ومذاهبه في الشعر العربي » دراسة شاقة ، قد لا يستطيع الأضطلاع بها باحث من الباحثين المحدثين .. الذين وجدوا في « التخصص التّقىق » مهرياً مريحاً من مشقة موسوعية القراءة .. وعادة ما يقتصر التخصص التّقىق على متابعة كتب أو كتيبات محدودة العدد والقيمة .. أما « الفن ومذاهبه » فعلاقة حميمة بين الدارس وتراثه العربي جميماً بعصوره الجاهلية ، والإسلامية ، والأئمة ، والعباسية ، والعصر الوسيط أيضاً في مصر والأندلس ، وهو العصر المنتهي ببداية العصر الحديث . شاملًا الفاطميين والأيوبيين والمالكين والعثمانيين .

والدراسة تشتمل على ثلاثة كتب : الأول ويتناول عنصر : الصنعة ، والتصنيع ، ويستخدم لهما اسم « مذهب » ، ومنه ينتقل إلى مذهب التصنّع في الكتاب الثاني ، ثم ينتقل في الكتاب الثالث إلى المذاهب الفنية في الأندلس ومصر ، ومن هنا فإن رؤيته الشمولية للأدب العربي تنبع من زاوية الكشف عن عناصر « مذهبية » في فن الشعر . وهو ينطلق من نظرية نقدية عربية خالصة ، بدأ واضحة في نماذج معروفة في التراث العربي جميماً ، بدءاً من زهير بن أبي سلمي في مذهب الصنعة ، وأبى تمام في مذهب التصنّع ، والمتبنى في مذهب التصنّع ، وهو يجد في هذه المذاهب « مراحل » مر بها الشعر العربي جميماً حتى عادت وتمثلتها مدرسة البعث تمثلاً جيداً عند البارودى خاصة .. ولكنه لا يجد في حركات التجديد الحديثة أملًا يرجى .. لعدد من الأسباب : لزعمها التماس « التموج الغربى » وهى لم تلتمسه أو تتعمق ، ولبعدها عن « التموج العربى » الذى لم تستطع الاقتراب منه وتمثله .. « وليس من شك فى أنه حين ينظم الاتصال بين شعرائنا المعاصرین ، وبين المذاهب الفنية القيمة ، التى وصفناها من صنعة وتصنيع وتصنّع ، كما ينظم بينهم وبين الفن الغربى وطرائقه ، فيقبلون على تعمق أصول الصناعة الفنية عند العرب ، كما يقبلون على تعمق المناهج الفنية

والفلسفية عند الغرب ولا يكتفون بذلك . بل يتجهون شطر المشرق فيطالعون على أداب الفرس والترك والهنود والأمم الشرقية الأخرى ، ولكن لا ليستعيروا وينقلوا ، أو يترجموا ، بل ليتقاعدو ويستوعبوا ، ويعبروا عن شعورهم وسرائرهم تعبيراً لهم مادته وصورته ، وما فيه من معارض التفكير ومنازع الوجودان . حينئذ تجد قافلة التجديد طريقها الذي أخططته ، ودليلها الذي ضلته »^(١) .

وقد تبدو « الرؤية الشمومية » المتكاملة لتأريخ الأدب العربي متمثلة في عدد كبير جداً من الجزئيات ، التي لا تستطيع بعض الأبحاث الذاكمة تخصصها الدقيق استيعابها .. بل لعل تمثل جزئيات « الرؤية » بيدي وأضيقاً من البدايات الأولى لدراساته .. فالفقد في كتاب الأغاني » الذي كان موضوع رسالته للماجستير أوجد عدداً من الصلات الوثيقة بينه وبين شعراء « الأغاني » جمیعاً من خلال تتبعه لاحكام « الأصفهانی » وغيره النقدية التي رویت فيه . وهي رؤية تستثمر بعد ذلك بوضوح في جزئيات عدّة .. وبمعنى آخر فإن علاقات قوية تنشأ من صلات أبحاثه بعضها بالبعض الآخر .. تتمثل في عدد من العناصر الأولية ، ثم لا تثبت وتبتلور في أفكار متكاملة .. « الشعر الشعبي » على سبيل المثال عنصر أولى لا يفقره عند عدد من الشعراء ، ثم في عدد من المراحل .. ولا يلبث أن يصبح موضوعاً متكاملاً مستقلاً « الشعر وطوابعه الشعبية على مر العصور » . وعنصر الصناعة الفنية ومكوناتها لا في الشعر فحسب ، ولكن في النثر كذلك .. هي جماع أفكار كثيرة متباشرة اكتملت عناصرها وكونت النظرية الكاملة .. وهذه جمیعاً عناصر يمكن من خلالها الكشف عن رؤية أكثر شمومية ، وهي رؤية « النظرية الأدبية » عند شوقي ضيف .

إن أهم ما يلفت نظر الباحث في دراسات شوقي ضيف الأدبية والنقدية ، إنه أستاذ يعتد كل الاعتبارات بعلوم العربية جمیعاً .. وهو رائد موسوعي ، عالم مدقق بما تعنيه هذه الصفات من معان .

(١) الفن ومناهجه في الشعر العربي : د . شوقي ضيف . دار المعارف ، الطبعة العاشرة ، سنة ١٩٧٨ ، من ٥١٨ .

وبعد .. فقد ي يبدو من الواضح أن التعامل في مجال «الشمولية» في تاريخ الأدب عند شوقي ضيف قد بين عدداً من الملاحظات الأولية تتمثل في :

- أن « تاريخ الأدب العربي » يمثل منهجاً جديداً غير مسبوق في مجال دراسة تاريخية نقدية علمية أدبية مدققة .. مستوعبة تعكف على عصور الأدب العربي في شعور وحس واع تماماً بجزئيات حركة الأدب في عصورة المختلفة .. ومن هنا بدأ صورة « الرؤية الشمولية » واضحة في جزئياتها المختلفة .

- أن منهج دراسة تاريخ الأدب العربي قد اختلف عن مناهج دراسة الأدب العالمية المختلفة ، التي لا يزيد عمر أى منها على ستة قرون أو يزيد قليلاً ، بينما يمتد عمر أدبنا العربي إلى ما يقرب من سبعة عشر قرناً منذ « مهلهل ». ومن ثم فإن هذا الامتداد قد فرض تقسيماً نابعاً من التغير التاريخي لا من التغير الفنى .. وربما تبدو هذه - بالكيفية تلك - مزنة .

- أن « الرؤية الشمولية » قد ساعدت على تبيان مراحل تطور الأدب العربي ، وتمثل سمات كل مرحلة بوضوح .. فيما يمكن أن يعد تقسيمه جديدة لعصوره الأدبية من جاهلية حتى العصر الحديث مروراً بالعصر الإسلامي ، والعباسي ، وعصر التولى والإمارات .. وهي تقسيمة فنية رغم ظاهرية ارتباطها بالتغيير التاريخي .

د . حلمى بدير

مدرس الأدب الحديث

كلية الأدب - جامعة المنصورة

٩ - جهود شوقي ضيف في الدراسات اللغوية

د . محمود فهمي حجازى

يرجع اهتمام الأستاذ الدكتور شوقي ضيف بعلوم اللغة العربية إلى مرحلة مبكرة من حياته العلمية ، كان تحقيقه لكتاب الرد على النحاة لابن مضاء القرطبي بداية عطائه في الدراسات اللغوية العربية (١٩٤٧) ، واستمر عمله الجاد تأليفاً وإشرافاً على مدى ثلاثين عاماً ، فظهر كتابه المدارس التحوية (١٩٦٨) ، ثم كانت عضويته في مجمع اللغة العربية بالقاهرة (١٩٧٧) بداية جديدة لإعمال الفكر في قضايا اللغة العربية وتبسيير النحو ، وكل هذه الجهود مكانتها في تاريخ الدراسات اللغوية في جامعتنا العربية .

إن الدكتور شوقي ضيف يمثل الجيل الأول من الأساتذة الجامعيين ، الذين تلقوا تكوينهم حتى الدكتوراه بالجامعة التي نعرفها اليوم باسم جامعة القاهرة ، عرف عدد من المستشرقين وعرف جهودهم العلمية في الدراسات العربية والسامية ، وأفاد من بحوثهم اللغوية في التاريخ المبكر للغة السامية ، ولكن اهتمامه الأول لا يدخل في إطار اهتمامات المستشرقين بالبحث التفكيري في المقارن ، لقد انطلق من التراث العربي ، ومن النظر التقدى فيه في محاولة جادة لتفكيير في التراث ، وفي تقادمه ، وفي تقديم اللغة والأدب العربيين إلى جمهور الدارسين ، وبذلك كانت اهتماماته اللغوية في اتجاهين : أحدهما : تطبيقي وهو يتصل بتيسير النحو وتعليم العربية ، والثاني : تارىخي يتناول تراث النحو العربي .

أولاً : قضية تيسير النحو وتعليم العربية :

يعد تحقيق كتاب الرد على النحاة لابن مضاء القرطبي (٥٩٢-٥١٣هـ) ، ومدخل الدكتور شوقي ضيف لهذا التحقيق عملين لهما مكانتهما في إطار قضية تيسير النحو العربي . والواقع أن اختياره لهذا الكتاب ، ومقدمته لهذا الكتاب يعكسان أمررين جديرين بالتنوية :

أولهما : أن تحقيق كتاب في النحو العربي لم يكن أمراً مألوفاً في البيئة الجامعية ، ولا في البيئات الثقافية الأخرى في مصر ، لقد بدأت طباعة كتب التراث النحوي العربي في أوروبا مع بداية عصر الطباعة ، فطبع متن الكافية لابن الحاجب في روما سنة (١٥٩٢) ، ثم توالت طبعات كتب التراث العربي النحوي في أوروبا ، ومن كتاب سيبويه بتحقيق المستشرق الفرنسي درينبور سنة ١٨٨١ ، واشرح ابن يعيش على المفصل بتحقيق يان سنة ١٨٨٢ ، وكتاب الإنصاف في مسائل الخلاف لابن الأنباري بتحقيق فايل ١٩١٣ ، وكاد تيار تحقيق كتب التراث النحوي العربي في أوروبا يتوقف بعد ذلك . أما في العالم الإسلامي فقد ساد تيار إعادة طبع الكتب النحوية المحققة ، فطبع المؤلفات السابقة طبعة ثانية ، وكان لطبعه بولاق ، ولطبع القاهرة بصفة عامة دور كبير في هذا الصدد ، وإلى جانب هذا طبعت عدة كتب كانت متداولة عند طلاب الأزهر والمؤسسات الأخرى المعنية بالدراسات العربية ، أكثرها شروح على ألفية ابن الأزهري ، وهذه الطبعات التجارية تتسم في أحسن الأحوال بتقديم نص يصلح للطلاب ، ولكنها في الأغلب الأعم لم تكن طبعات محققة ، وفي هذا الإطار يعد تحقيق الأستاذ الدكتور شوقي ضيف لكتاب ابن مضاء من بوادر الجهود الجامعية المصرية في تحقيق كتب التراث النحوي العربي .

وثانيهما : أن تقديم فكر ابن مضاء ارتبط في البيئات الثقافية في مصر بقضية تيسير النحو لأغراض تعليمية ، وهي قضية بدأت في العصر الحديث مع رفاعة الطهطاوى (١٨٠١ - ١٨٧٢م) بكتابه « التحفة المكتبية لتقريب اللغة العربية » ، وهو كتاب توسل فيه صاحبه بالجداول لعرض القواعد ، ثم تتابعت محاولات التلخيص والتلخيص المدرسي ، وأشهرها جهود حفى ناصف وزملائه في كتاب « قواعد اللغة العربية » بمراحله المختلفة ، ثم جهود على الجارم ومصطفى أمين في كتابهما النحو

الواضح بجزائه المتكاملة ، وقد بدأت القضية تتخذ أبعاداً جديدة عندما شغل إبراهيم مصطفى في محاضراته الجامعية بالنظر في موضوع الإعراب . فكان كتابه « إحياء النحو » بداية نظر جديد ، كانت قضية العامل المحور الذي رأى فيه إبراهيم مصطفى جوهر المشكلة ، فرأى إلغاء نظرية العامل ، وفي نفس الفترة الزمنية نجد وزارة المعارف تحاول الإفاده من المؤسسات الجديدة المعنية باللغة العربية ، وفي مقدمتها مجمع اللغة العربية بالقاهرة . لقد طلبت وزارة المعارف في عهد وزيرها بهي الدين برركات باشا (١٩٢٨) تيسير النحو ، فقامت لجنة برئاسة الدكتور طه حسين بإعداد مقترناتها في هذا الصدد ، وقدمتها إلى الجهات المعنية ، ثم ناقشها مجمع اللغة العربية في القاهرة (١٩٤٥) ، وعرضت على المؤتمر الثقافي الأول الذى اجتمع فى لبنان (١٩٤٧) . وفي هذا الإطار وجد تحقيق كتاب الرد على النحوة لابن مضاء ، ومقدمة الدكتور شوقي ضيف له البيئة الثقافية الطامحة نحو التجديد ، ولكنها كانت تود أن تجد لهذا التجديد أصوله التراثية أيضاً . إن نشر هذا الكتاب أعاد فكرة إلغاء العامل إلى ابن مضاء ، وبقى في كتاب إبراهيم مصطفى الكثير ما يعد اجتهاداً منه ، وإضافة له .

لقد أخرج الدكتور شوقي ضيف كتاب « الرد على النحوة » محققاً في نحو ثمانين صفحة مع دراسة في نحو ثمانين صفحة أيضاً . وانتهى في آخر هذه الدراسة إلى رأى قوله : « إننا حين نطبق على أبواب النحو ما دعا إليه ابن مضاء من منع التأويل والتقدير ، في الصيغ والعبارات ، كما نطبق على هذه الأبواب ما دعا إليه من إلغاء نظرية العامل ، نستطيع أن نصنف النحو تصنيفاً جديداً يحقق ما نبتغيه من تيسير قواعده تيسيراً محققاً ، وهو تيسير لا يقوم على ادعاء النظريات ، وإنما يقوم على مواجهة الحقائق النحوية ، ويبحثها بطريقة منتظمة لا تحمل ظلماً لأحد ، وإنما تحمل التيسير من حيث هو حاجة يريدها الناس إلى النحو العربي في العصر الحديث » .

وهنا نجد شوقي ضيف يسهم برأيه في التجديد مع توثيق هذا الرأى بالأصول التراثية ، فيقدم لتحقيقه لكتاب ابن مضاء مقدمة مفصلة لم يقتصر فيها على التعريف بالمقابل ويفكره النحوى ، بل نظر - أيضاً - في الانطلاق من هذا كله إلى بيان حاجة

النحو إلى تصنیف جديد . ويقوم هذا التصنیف على مجموعة من الأسس العامة :

١ - الانصراف عن نظرية العامل .

٢ - منع التأويل والتقدير في الصيغ والعبارات .

٣ - عدم إعراب الكلمة ما دام إعرابها لا يفيد شيئاً في صحة النطق .

وهذه الأسس تتكامل مع الأساس الرابع الذي أضافه بعد ذلك .

٤ - (استنباط) ضوابط سديدة أو بقية للأبواه بحيث تتبيّن الناشئة أوضاعها ووظائفها في التعبير تبيّناً تاماً .

وخللت هذه الأسس مجالاً للحوار والمناقشة ، ومجالاً للتفكير والتقدّم في محاولات تيسير النحو منذ تلك الفترة .

لقد استمر العطاء العلمي للدكتور شوقي ضيف متصلًا في مجال النحو ، وفي غيره من المجالات الأدبية واللغوية ، وعندما عقدت المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم في الرياض (١٩٧٧) ، ندوة متخصصة لبحث وسائل تطوير إعداد معلمي اللغة العربية في الوطن العربي ، كان الدكتور شوقي ضيف أحد أعلام الباحثين في هذه الندوة ، فقدم بحثاً موضوعه : « الدراسات اللغوية والنحوية والأدبية » في إعداد معلمي العربية ، وأعد في نفس الفترة بحثه في « تيسير النحو » وقدمه في نورة مجمع اللغة العربية في القاهرة (١٩٧٧) ، وكلما الباحثين عرض جديداً لفكرة جاد في قضايا تعليم العربية ، وإعداد معلميها .

إن الفرق الأساسي بين فكره أثناء تحقيق الرد على النحوة والتقديم له - وهي فترة سادتها عند رعاة التجديد فكرة إلغاء العامل ، وفكّره في السنوات الماضية يمكن في نظرته إلى اللغة ، حيث لم تعد القضية تقتصر على كيفية الإعراب ووسائل التعبير عنه ، ولكنها قضية اللغة في أبعادها الصوتية والصرفية والنحوية ، الجديد في بحثه الخاص بإعداد معلمي العربية تأكيد واع لأهمية الجانب الصوتي في إعداد المعلم وفي

مارسة اللغة . لا يقتصر الزمر على نطق الأصوات المفردة ، بل يتناول - أيضًا - ظواهرها السياقية ، ومنها قضية الوصل والقطع ، وفي هذا البحث تأكيد لأهمية الجداول الصرفية ، وما ينبعى لعلم العربية أن يتقنه اعتماداً عليها ، ولعل من أهم ما ورد في هذا البحث ذلك النظر الجديد في العلاقة بين النظرية والتطبيق في تعليم النحو ، وهنا نجده يطالب بأن يكون تدريس النحو قائماً - في المقام الأول - على تلك التدريبات الهادفة إلى تكوين سليقة لغوية عربية ، فإذا كان للنحو ثلاثة ساعات أسبوعياً جعلت محاضرة للنحو النظري ، ومحاضراتان للتطبيقات النحوية ، وهكذا نجد في هذا البحث تعاملًا مع اللغة في أبعادها الحية المتكاملة وتوجيهها نحو الممارسة اللغوية ، في حين أنتنا نجد في بحثه « تيسير النحو » تصوراً فكريًا للنحو الميسر . المقترن

ثانياً : التاريخ لمدارس النحو العربي :

للدكتور شوقي ضيف دور كبير في توجيه الدراسات الجامعية ، نحو الاهتمام بالتراث النحوي العربي . لقد أثار تحقيقه لكتاب « الرد على النحاة » (١٩٤٧) اهتماماً بالتراث النحوي ، فبدأت البحوث الجامعية فيه . تتضح هذه الحقيقة من النظر في اتجاهات الرسائل الجامعية قبل هذا التاريخ وبعده ، فقد أجازت كلية الآداب بجامعة القاهرة (حتى ١٩٤٧) اشتراك عشرة رسائل لدكتوراه في الأدب العربي ، ولم تمنع درجة دكتوراه واحدة في النحو العربي ، أما رسائل الماجستير فضمت ٢٤ رسالة في الأدب العربي في مقابل ثلاثة رسائل جامعية في الدراسات اللغوية العربية ، واحدة منها فقط في التراث النحوي العربي ، وهي رسالة محمد على القصاص (١) وموضوعها : « ابن جني وفلسفته اللغوية » (١٩٣٩) . لقد بدأ اهتمام جديد ببحث التراث النحوي ، وأجيزة بجامعة القاهرة بعد عام ١٩٥١ سلسلة من الرسائل الجامعية

(١) هو أستاذنا الدكتور محمد القصاص أستاذ ورئيس قسم اللغات الشرقية بكلية الآداب جامعة عين شمس .

تسلسلات : القرآن والنحو ، والخليل بن أحمد ، وسيبويه ، وثعلب ومدرسة الكوفة ، والزجاجي ، والرمانى ، والفارسى ، وأبا حيان ، وكأن هذا الاهتمام الجامعى الجدير بالبحث فى التراث النحوى العربى قد بدأ بعد صدور كتاب الرد على النحاة . وكثير من هذه الرسائل كان يشرف الدكتور شوقى ضيف بكلية الآداب بجامعة القاهرة .

وفي هذه الفترة (١٩٤٧ - ١٩٦٥) كان اهتمام الدكتور شوقى ضيف بالتراث النحوى لعربى سمة مميزة له ، ولجموعة من الباحثين بإشرافه .

أراد التاريخ للنحاة والتعريف بجهودهم وباتجاهاته فألف كتابه « المدارس النحوية » ، فأخذ يؤلف هذا الكتاب أثناء عمله أستاذًا معارًا إلى الجامعة الإبريزية فى العام الجامعى ١٩٦٥ - ١٩٦٦ وانتهى منه فى يناير ١٩٦٨ ، ومكان هذا الكتاب فى موضوعه جدير بالبيان ، هو أول كتاب حديث بالعربى فى المدارس النحوية لم يسبق فى موضوعه إلا بكتاب المستشرق الألمانى فاييل عن المدارس النحوية عند العرب ، وهذا الكتاب نشره فاييل (١٩١٢) مقدمة لتحقيقه لكتاب الإنصاف فى مسائل الخلاف ل ابن الأبارى ، إن الفرق واضح بين الكتابين ، أقام فاييل كتابه على فكرتين متقابلتين هما منهج القياس على المطرد عند البصريين ، ومنهج القياس على الشاذ عند الكوفيين ، وعرض لتطور المدرستين ، وأوضح أهمية ابن الأبارى ومكانة كتابه الإنصاف . وظل كتاب فاييل بالألمانية العرض الوحيد لهذا الموضوع ، إلى أن ظهر كتاب شوقى ضيف بمادة عربية أوسع ، وعرض شامل ، وردية مستوعبة تضم الجزيئات النحوية المتفرقة ، فإذا بها تنتظم فى اتجاهات واضحة . وإذا كان شوقى ضيف قد عرف جهد فاييل فإنه قد استطاع تجاوزه ونقده فى كثير مما ورد فيه ، ولا سيما فيما يتعلق بمدرسة الكوفة وعلاقتها بالنحاة المبكرين .

لقد عرض شوقى ضيف لتاريخ المدارس النحوية ، منذ نشأة التفكير فى النحو العربى وارتبطت عنده هذه النشأة بالعامل الدينى ، ويتمثل فى الحرمن الشديد على أداء نصوص القرآن الكريم أداءً فصيحًا سليماً ، وبالعامل اللغوى القومى فى مواجهة الإختلاط بالأعاجم ، وبرغبة المستعربين الجدد فى تعلم العربى ، وبهذا وضع

شوقى ضيف قضية نشأة النحو العربى فى إطارها اللغوى الاجتماعى الصحيح ، وتجاوزت بهذا آراء مائدة تجعل وضع النحو من عمل أبي الأسود بأمر من على بن أبي طالب ، إن شوقى ضيف يثبت لأبي الأسود جهوده فى إضافة النقط الدالة على حركات الإعراب ، وهذا عمل جليل فى ضبط النصوص ولكن ثمة فرقاً بين ضبط النص وتحليل بنية اللغة .

إن محاولته التأريخ للمدارس النحوية العربية ، قامت على أساس الآراء الواردة فى كتب النحو لا على أساس الأقاصيدين التى تضمنها كتب الطبقات والتراجم . وبذلك اتخذ النحاة المبكرون الذين وردت آراؤهم فى كتاب سيبويه أماكنهم الصحيحة ، وفى مقدمتهم ابن أبي إسحق الحضرمى (المتوفى ١١٧ هـ) ، وعيسى بن عمر الثقفى (المتوفى ١٤٩ هـ) ، وأبو عمرو بن العلاء (المتوفى ١٥٤ هـ) ، ويونس بن حبيب (المتوفى ١٨٢ هـ) ، وإعادة الاعتبار إلى هؤلاء جمیعاً جهد علمى مشكور قام على جمع آرائهم المتناثرة ، وبحثها وإيجاد السمات المنهجية فيها .

وهذا أيضاً شأن الخليل وبوره فى إقامة صرح النحو والتصرف ، فإذا كنا لا نعرف اليوم كتاباً نحوياً من تأليف الخليل فإن آرائه التى وصلت إلينا عند سيبويه أثبت بها شوقى ضيف مكانة الخليل فى البحث الصحفى والنحوى ، وفى هذا الصدد كان ثمة اهتمام بالمصطلحات التى دارت فى تلك المداولات ، بين الخليل وسبويه وفيها تكونت المصطلحات النحوية أو كانت ، وأثبتت متابعة آراء الخليل أصلاته فى البحث الصحفى ، ففكرة الميزان الصحفى وما لها من أساس منهجى وتطبيقات صحفية ، ومعجمية ترجع إلى الخليل ، ولولا هذا الميزان لما قام البحث فى بنية الكلمة العربية واللغات السامية . إن نظرية العامل النحوى - على الرغم من كل ما أثير فى نقدها - تعد من أهم محاور التحليل النحوى عند الخليل ، أما أصول السماع والتلخيص والقياس عند الخليل ، فقد خصها شوقى ضيف بعرض تحليلي واضح .

وما نكاد نصل إلى الفصل الخاص بسبويه حتى نجد بحثاً فى الكتاب وفي المنهج النحوى . فى هذا الفصل نجد فكرة العامل النحوى التى وضع الخليل أصولها تصبيع

عند سيبويه أساساً عاماً في تحليل الجملة العربية . وتناول شوقي ضيف - أيضاً - قضياباً السماع والتحليل والقياس عند سيبويه . ولعل من أهم ما تضمنه الفصل الخاص بالأخفش وتلاميذه أنه هو الذي فتح للكوفيين أبواب الخلاف على سيبويه وأستاذيه الخليل حتى أصبح يحق الأستاذ الحقيقي لنحو الكوفة ، وقد أقام شوقي ضيف هذا الرأى بعد أن جمع آراء الأخفش من مئات المواضع في كتب النحو في وقت كان فيه كتاب « إعراب القرآن » للأخفش في حكم المفقود^(١) .

لقد اعتمد شوقي ضيف في إقامة الكثير من فصول كتابه على آراء النحاة المتاحة في الكتب النحوية الموسوعية ، صنع هذا في بحثه لأعلام ، أشادت بهم كتب الطبقات وأمهات كتب النحو ، لم تصل إليها كتبهم على نحو مباشر ، وتصدق هذه الملاحظة على قطرت وأبي عمرو الجرمي ، وهشام بن محمد الضرير ، وتصدق إلى حد كبير على الكسائي ، فهو لا جميعاً لم تصل إليها كتبهم النحوية ، لقد أعد شوقي ضيف كتابه في المدارس النحوية في وقت عزت فيه المصادر المباشرة لآراء الكثير من النحاة ، فكان عليه أن يعود بين الفينة والفيننة إلى مخطوط « المقتنب » للمبرد أو إلى مخطوط « شرح السيرافي على سيبويه » ، واستطاع بهذا كله أن يعرض لدراسات النحو العربي وأن يرسم لها صورة واضحة الملامح .

لقد خصص شوقي ضيف القسم الثاني من كتابه للمدارس الكوفية ، وكما ابتعد عن الاعتماد على الروايات المتدالة في كتب الطبقات عن موضوع نشأة النحو العربي ، واعتمد على كتب النحو نفسها ، فإنه ابتعد أيضاً عن القول بأن أبي جعفر الرؤاسى ومعاذًا القراء ، قد أسساً مدرسة الكوفة ، ولهذا فإن النحو الكوفي بالمعنى الدقيق للكلمة بدأ تاريخه من الكسائي والقراء . لقد اهتم شوقي ضيف في دراسته للمدرسة الكوفية ببيان مصطلحاتها النحوية ، واستخرج طائفة من هذه المصطلحات ، مثل : مصطلح (الخلاف) الذي جعلوه عاملاً معنوياً لنصب الطرف إذا وقع خبراً ، ومصطلح الطرف (= المفعول معه) ، والتقرير (= اسم الإشارة لهذا) .

(١) حقه ثميننا النابه الدكتور فارس الحمد ، في رسالة جامعية بكلية الآداب جامعة القاهرة ، عام ١٩٧٨ .

وال فعل الدائم (= اسم الفاعل) ، والمكثي والكتابية (= الضمير) ، والترجمة (البديل) ، والتفسيير (= التمييز) . وأثبتت بعد هذا كله أهم سمعتين اتسمت بهما المدرسة الكوفية ، وهما : الاتساع في الرواية ، والاتساع في القياس ، وهذا الاتساع في وقت كان العمل النحوي فيه هادئاً إلى المعيارية ، والتقنيين جعل الدكتور شوقي ضيف يصف الكوفييين ، بأنه يدل على نقص فهمهم لما ينبعى للقواعد العلمية من سلامه واطراد .

عرض كتاب المدارس النحوية أيضاً لاتجاهات النحو العرب بعد هذه الفترة ، وخصصن الباب الثالث كله لمدارس مختلفة ، وهى المدرسة البغدادية ، والمدرسة الأندلسية ، والمدرسة المصرية . وهو فى هذا كله يعتمد على ما تناول لأعلام هذه المدارس من آراء نحوية فى كتب النحو الجامعية . كان يضم هذه الجزئيات ، فإذا هي تنتظم على يديه فى اتجاهات واضحة ومتميزة . وهكذا قدم الأستاذ الدكتور شوقي ضيف عرضاً علمياً لمدارس النحو العربى بين دفتى كتاب واحد .

إن الدكتور شوقي ضيف أحد أعلام الدراسة الأدبية ، وله أيضاً تلك الإسهامات الواضحة فى الدراسات اللغوية ، لا تقتصر مكانته على تلك البحوث التى كان لها أثرها البعيد فى توجيه الباحثين إلى التراث النحوى العربى تحقيقاً وبنقداً ، فهو - أولأ وقبل كل شيء - أستاذ جيل - تدين له الجامعات العربية بنخبة من أساتذتها تتلمذوا عليه ، ونهلوا من علمه وخلقه .

أ . د. محمود فهمي حجازى

أستاذ علم اللغة

كلية الآداب - جامعة القاهرة

١٠ - جهود الدكتور شوقي ضيف في تيسير النحو العربي

د . إيمان السعيد جلال

تستمد جهود الدكتور شوقي ضيف في تيسير النحو العربي قيمتها من قيمة صاحبها ، باعتباره رائدًا من رواد الدرس اللغوي من ناحية ، و تستمد أهميتها من أهمية موضوعها و خطورته بعد أن أصبح النحو العربي عصيًّا تزداد مشكلته تعقيداً يوماً بعد يوم .

و قد قضى الدكتور شوقي ضيف سنوات طويلة من عمره المديد في خدمة لغتنا العربية ، و تتبع إسهاماته في مجال تيسير النحو ، و تما斯كت طقاتها متذبذبة اهتمامه بقضيته في أربعينيات القرن العشرين حتى اليوم .

و محاولات تيسير النحو العربي ليست حديثة ، بل إن عمرها يكاد يساوى عمر النحو العربي نفسه ، والمكتبة اللغوية حافلة باسماء مختصرات أئمة النحو التي بسطوا فيها النحو للناشئة .

وفي العصر الحديث تتبع - في حذر - محاولات التيسير لكنها لم تتجاوز إطار المحاولة ، إذ إن معظمها وجه إلى النقد إما لشدة اختزالها ، أو لتزيدها في إدخال الفروع بجانب الأصول ، أو لأنها تمس ثوابت اللغة ، أو لغرابة تنسيقها .

و قد بدأ إسهام الدكتور شوقي ضيف سنة ١٩٤٧ عندما أخرج للنور كتاب ابن مضاء القرطبي " الرد على النحاة " وفيه ثورة عنيفة على النحو العربي كما وصل إليه حالة في القرن السادس الهجري . كما ضمته ابن مضاء منهجاً دقيقاً لتيسير النحو وتبسيطه .

وجاءت مقدمة المحقق الدكتور شوقي ضيف في عدد من الصفحات يساوى عدد صفحات الكتاب نفسه ، عرض فيها تصوره لتصنيف النحو تصنيفاً جديداً تتضمن فيه أهدافه التعليمية ، استند فيه إلى آراء ابن مضاء ، كما أفاد من بعض محاولات التيسير الحديثة السابقة عليه ، بخاصة مقترنات لجنة وزارة المعارف سنة ١٩٢٨ .

ويقوم تصنيفه على ثلاثة أساس :

- ١ - إعادة تنسيق أبواب النحو (بحيث تدمج الأبواب الفرعية في الأبواب الرئيسية دون حنف) .
 - ٢ - إلغاء الإعراب التقديرى والمحلى .
 - ٣ - الإعراب لصحة النطق (فلا يشغل الناشئة بآيات الإعراب ما لا يفيدهم إعرابه في النطق) .
- وواصل الدكتور شوقي ضيف جهوده ، فقدم مؤتمر مجمع اللغة العربية سنة ١٩٧٧ مشروعًا لتيسير النحو الناشئة ، أقيمة على الأساس الثلاثي السابقة ، وأضاف إليها أساساً رابعاً هو :
- ٤ - اقتراح ضوابط وتعريفات دقيقة لبعض أبواب النحو .
- وأحال المؤتمر المشروع على لجنة الأصول بالمجمع التي ناقشته وأقر مؤتمر المجمع سنة ١٩٧٩ الشطر الأكبر منه .

ولأن القضية شغلت عاد الدكتور شوقي ضيف ليستكمل أساس التصنيف الجديد للنحو ، فأضاف أساسين جديدين رأى أنهما ينقصان مشروعه ، ضمنهما بحثاً له بعنوان "تيسير النحو" نشر بمجلة المجمع في ١٩٨١/٥ ، وهما :

- ٥ - حنف زواائد وعقد كثيرة تعوق إساغة الناشئة للنحو .
- ٦ - إدخال إضافات متعددة استكمالاً لتوافقه ضرورية .

وفي عام ١٩٨٢ قدم الدكتور شوقي ضيف كتابه "تجديد النحو" الذي يعد ثمرة

جهوده الطويلة في مسياحة مشروع دقيق ومنضبط لتبسيير النحو العربي يقوم على التبسيط دون الترخيص أو التساهل في ثوابت اللغة أو مقوماتها أو أوضاع أبنيتها وصياغاتها المحكمة .

ويعد الكتاب محاولة متميزة لتجديد النحو وتقريره لدراسية وتذليل صعابه لهم . وهو كتاب مرتقب ومفصل ، عمل صاحبه على أن يكون منهجه وتبويه ومادته مرجعاً يعود إليه مؤلفو كتب النحو التعليمي ليضعوا على أساسه كتاباً متدرجة مع سنوات التعليم .

وعاد الدكتور شوقي ضيف فوضيّع كتابه " تيسير النحو التعليمي قديماً وحديثاً " مع نهج تجديده " سنة ١٩٨٦ ، داعماً به كتاب " تجديد النحو " فاسعرض فيه الجهود السابقة لتبسيير النحو ، وما أفاده منها في مشروعه الجديد ، كما عرض بعض الدراسات والأدلة المستفيضة المتأتية التي توضح نهجه وتدعم مشروعه .

وواضح أن الدكتور شوقي قد وجه عنايته إلى جانبين أساسيين لم يخرج عنهما في محاولاته وضع منهج لتبسيير النحو العربي . أولهما : ضبط القواعد ومحاولات صياغتها على نحو مطرد . وثانيهما : تضييق صور الإعراب وتحديدها وحصرها في الشائع ، والاستغناء عن الشاذ وغير المستعمل .

وهو حين يعرض أبواب النحو والصرف في كتابه ، اعتماداً على أساسه الستة سالفة الذكر ، فإنه يقوم بعمليات عدة يقدم من خلالها تصنيفاً جديداً للنحو العربي ، لأنّه يعتقد أن صعوبة النحو ليست في ذاته ، بل في تصنيفه المعقّد . وهذه العمليات هي : النقل ، والحنف ، والتنسيق ، والتعديل ، والإلغاء ، والإضافة .

أما النقل فنجد في بابي الإضافة والتوابع (النعت والعطف والتوكيد والبدل) ، حيث ينقلهما إلى تقسيمات الاسم حتى يستقر في أذهان الناشئة أن هذين البابين يدخلان في أبواب الكلمة المفردة .

وأما الحذف فإنه يجريه على ثمانية عشر باباً من أبواب النحو العربي ويحيلها إلى أبواب أخرى ، وهى : باب كان وأخواتها ، باباً ما ولا ولات العاملات عمل ليس ، باب كاد وأخواتها ، باب ظن وأخواتها ، باب أعلم وأخواتها ، باب التنازع ، باب الإشتغال ، باب الصفة المشبهة ، باب اسم التفضيل ، باب التعجب ، باب أفعال المدح والذم ، كنایات العدد ، الإختصاص ، التحذير ، الإغراء ، الترخيص ، الاستفانة ، الندب .

كما حذف من أبواب أخرى الشروط والقواعد المعقدة ، والصيغ المستوعة التي لا تجري على الألسنة ، ووجوه الإعراب الافتراضية ، وكذلك حذف شروطاً وقواعد كثيرة ترهق الدارس ولا تقيده في صحة النطق كشروط صوغ اسم التفضيل ، وفعل التعجب ، وشروط صاحب الحال ، وشروط إنن وحتى الناهيبيتين للمضارع ، كما حذف الميزان الصرفى ، واكتفى بالأمثلة ، وكذلك فعل في بابي التصغير والنسب . وحذف كذلك إعراب كل ما لا يفيد في صحة النطق كبعض أدوات الاستثناء ، ولاسيما ، وأدوات الشرط الاسمية ، وكم الاستفهامية والخبرية .

وأما التنسيق فإنه إذ يحيل صيغ الأبواب الفرعية الثمانية عشرة المحذوفة على أبواب أخرى رئيسة ، فإنه يعيد تنسيق هذه الأبواب الرئيسية . فباب التمييز - مثلاً - يعيد تنسيقه ويترتب على ذلك حذف ستة أبواب دمجها فيه هي : الصفة المشبهة ، اسم التفضيل ، التعجب ، أفعال المدح والذم ، كنایات العدد ، الإختصاص .

وباب النداء يعيد تنسيقه ، فيدمج فيه صيغ الترخيص والندب والاستفانة . وباب المفعول به يعيد تنسيقه كذلك بعد أن يدمج فيه باب كاد وأخواتها ، وظن وأخواتها ، وأعلم وأخواتها .

وبهذا التنسيق والتبويب الدقيق تجتمع صور الباب وصيغه وأحواله ، فلا تتبعثر الحالة الواحدة في أكثر من موضع ، كما هو حادث في كتب النحو ، مما يترب عليه التشعب والإضطراب .

وقد أسهم ما قام به الدكتور شوقى ضيف من حذف وتنسيق في تيسير النحو ، وذهب بما في بعض القواعد من ارتباك واضطراب وعدم اطراد .

وأما التعديل فيتمثل في وضع ضوابط أكثر دقة وسداداً لبعض أبواب النحو
(المفعول المطلق ، المفعول معه ، الحال) .

وأما الإلغاء فيتمثل في إلغاء الإعرابين التقيرى والمحلى .

إلغاء تقدير المتعلق العام للظرف والجار وال مجرور .

إلغاء نصب المضارع بأن مضمورة أو مقدرة .

إلغاء العلامات الفرعية في الإعراب .

وأما الإضافة فتتمثل في إضافات مهمة في أبواب النحو والصرف ، فقد أضاف قواعد نطق الحروف ومخارجها وصفاتها وحركاتها ، والتشديد والتقويم والمد ، وهمزتى الوصل والقطع ، وأل الشمسية والقمرية ، والإدغام والإيدال . كما أضاف جداول تصريف الفعل بجميع صوره مع ضمائر الرفع المتصلة ، وأخرى لتصريف المضارع والأمر مع نون التوكيد . وأضاف كذلك تقسيمات الاسم وتصارييفه . وأضاف بياً لتقسيم الجملة إلى اسمية وفعلية ، وبين ما بينهما من فروق . وباباً لعرض إعمال المصدر والمشتقات ، وأخر لعرض حروف الزيادة جارة وغير جارة ، وباباً آخر لعرض صور النكر والحذف في عناصر الجملة العربية ، وأخر لعرض صور التقديم والتأخير في صور الجملة ، وباباً آخرًا لأنواع الجمل مستقلة وغير مستقلة .

والدراسة المقدمة إذ تحاول أن تتفق على جهود الدكتور شوقي ضيف المتابعة لصياغة مشروعه المتميز لتسهيل النحو العربي للناشئة ، فإنها تنتهي بالتساؤل عن هذه الفجوة بين ذلك الجهد القيم الذي أنفق فيه صاحبه شطرًا كبيرًا من حياته ، وبين الواقع المؤلم لكتب النحو التعليمي كما تقدم للناشئة مشحونة بكل معقد وعسير وغير مفيد مما لا مكان له إلا كتب النحو !

د . إيمان السعيد جلال

١١ - شوقي ضيف الإنسان والعالم

د . محمد حسن عبد العزيز

صلتي بالأستاذ الدكتور شوقي ضيف قديمة ، فقد تلذمت على كتبه في أول عهدي بالدراسة الجامعية بدار العلوم ، و كنت شديد الإعجاب ببحوثه الرصينة في تاريخ الأدب العربي ، ومنهجه المحكم ، و يمعرفته الواسعة ، وبلغته الدقيقة الواضحة . وقد كنت أمل آنذاك أن ألتقي به وأستمع إليه ما دامت قد فاتتني فرصة الدرس عليه ، وقد تحققت هذا الأمل حين عينت خبيراً بلجنة الأصول بمجمع اللغة العربية منذ خمسة عشر عاماً وعن كتب رأيت شوقي ضيف الإنسان والعالم .

شوقي ضيف الإنسان :

هو الخلق الرفيع في أبيه صوره يزينه صوت هادئ كأنه الهمس ، وابتسمة راضية مرضية كابتسامة الوليد ، وراء هذا الصوت وتلك الابتسامة نفس أبيه معتزة - ولا تعجب - في تواضع وعفاف .

وإذا ما دار النقاش وجدت منه المعرفة الواسعة العميقه فيما يعرضه أو يسأل عنه ، ويدعم تلك المعرفة بالأدلة القوية والرؤى الموضوعية ، وأما ذاكرته - حفظه الله - فحدث عنها ولا حرج ولطمئن بالأ إذا سألت فسوف تجد عنده الجواب الحاضر الموثوق به .

وكان باللجنة التي كنت خبيراً بها عضواً حاد المزاج يتحين الفر من للسخرية من النحو العربي (الذي كانت اللجنة مشغولة بتيسيره آنذاك) ، وكان يتم لهم النحو بالعجمة :

لأنه من صنع سيبويه الفارسي ، ولا يجد حرجاً في أن يصيّب أعضاء اللجنة بشيء من حدته ، فما كاد يزيد شوقي ضيف عن النظر إليه ، ولست بمستطاع أن أحذّكم عن تلك النظرة وكيف كانت ، ولكنني أحذّكم عن أثرها الساحر ، فنظره ونظرة وإذا الرجل الذي يتحاشاه الناس يتحفظ شيئاً فشيئاً ثم يسكت إلى أن تفاه الله .

وهكذا كان شوقي ضيف في لجان المجمع صاحب الخلق اللين والعبارة القاصدة ، لا يُغضب ولا يُغضِّب ، وأنذر هنا برسأً تعلّمته :

يوماً كتب عنى صحافي كلمة أساء فيها فهم كلام ورد في رسالتى للماجستير عن لغة الصحافة المعاصرة ، فاستشرت أستاذى فى رد أعددته على ما كتب ، وبصوته الخفيض وابتسمته الحنون قال : يا محمد هذه معركة يفتعلها هؤلاء فلا تشغّل بالك بها ، لقد كتب عنى كثيرون وقالوا مادحين أو قادحين ، فما زلت عن شكر المادحين والسكوت عن القادحين ، ومضيت في طريقي الذي رسمته .. إن كثيراً من الكتاب والعلماء شغلوا بما يقال فيهم وضيّعوا في ذلك أعماراً فلم يستفيدوا ولم يفديوا .

بهذا الأسلوب صنع شوقي ضيف هذا البناء العلمي الشامخ .

ودرس آخر كان شوقي أمين أنشط أعضاء لجنة الأصول وأعرفهم بمسائلها ويمظانها ، وكان يمد اللجنة بالموضوعات ويدعمها بالذكرات بل بالقرارات ، وكان شوقي ضيف يعجب بنشاطه الوافر وينظراته اللغوية النافذة ، ولكن كان يقول له علمك يا أستاذ شوقي في صدرك وفي أضاليب المجمع ، وكان ينصحه بأن يجمع ما يقوله وما كتبه في اللغة والأدب ، وما أكثره ، في كتاب أو كتب ، ولكنه - بكل أسف - لم ينتفع ورحل عنا شوقي أمين وفي صدوره من تاريخ مصر وأدبها ولغتها ما يملأ مجلدات ، أما علمه المكتوب - على جدته وتتنوعه - فما يعرفه إلا القليلون .

ودرس آخر وما أكثر الدروس المستقادة من النقوس الكريمة :

من خلقه الكريم أنه قد يكون له رأى في مسألة مما كنت أعرضه على لجنة الأصول فلا يكلمني فيه علناً بل يحدثنى في الهاتف ، ويسائلنى في تلك المسألة وفيما

أبديته فيها وكأنه يستفهم ، ولكنه في الحقيقة كان يهدى إلى ما يعرفه فائتبه إلى الفائدة التي ساقها هذا المسايق الجميل الرافق .

جملة القول في هذا الإنسان المثل أنه شجرة ثابتة الجنور وافرة الفروع ظلها وارف وجناها طلو نافع .

* * *

شوقى ضيف العالم :

ومفتاح شخصيته الكتابة ، فقد ولد كاتباً ومضى به العمر لا يعرف غير الكتابة ، ومن ثم لا تعجب حين تعرف من سيرته أنه وهو صبي لم ينشغل بما ينشغل به أقرانه من لعب أو لهو ، بل شغل بتأليف كتاب عن النحو لشخص فيه قواعده التي استظهرها من شرح الأجرمية .

وقد بارك الله سبحانه وتعالى في وقته فوضع ما يقرب من خمسين كتاباً بين تأليف وتحقيق .

وقد استوفى تلامذته وزملاؤه بعض جوانب هذه الشخصية العلمية في كتاب (شوقى ضيف سيرة وتحية) ، ومن فضول القول والجراعة فيه أن أتحدث عن تلك الجوانب ، ولهذا سوف أكتفى بكلمة عن شوقى ضيف العالم المجمعي .

* * *

شوقى ضيف المجمعى :

منذ انتخب شوقى ضيف عضواً بالجمع سنة ١٩٧٦ وهو يشارك مشاركة فعالة في كل أعمال المجمع ، لا يخلو مؤتمر من مؤتمراته من بحث له ، ولا عدد من أعداد مجلته من مقال . وتركز نشاطه في لجنة الأصول ولجنة الألفاظ والأساليب ولجنة الأدب ومن بحوثه التي ألقاها في مؤتمر المجمع :

- الفصحي المعاصرة .

- العربية في شعر أبي تمام .

- البلاغة عند ابن رشد .

- لغة المسرح بين العامية والفصحي .

- ملاحظات على قياسية الغالب من جموع التكسير .

- الشعر الحر بين التراث الشعري والحداثة .

ولعلكم ترون المدى الواسع لاهتماماته ناهيك عن معرفته الواسعة بموضوعه ومنهجيته المحكمة في علاجه وهذا أمر نكتفي فيه بالإشارة .

ومن اهتمامه بقضية المصطلح العلمي وتعريف العلوم والذي يتمثل في مشاركته الفعالة في اللجان العلمية ، فإن قضية تيسير النحو وتنمية الفصحي المعاصرة بالأفاظ والأساليب قد أخذت بمجامع نفسه ، وسأعرض هاتين القضيتين على النحو التالي :

أولاً : قضية تيسير النحو :

قدم شوقي ضيف في العام التالي لانتخابه عضواً بالمجمع ١٩٧٧ مشروعًا متكاملًا لتيسير النحو للناشئة ، وشغلت لجنة الأصول بهذا المشروع جملة وتفصيلاً ، وفي أثناء ذلك كان شوقي ضيف يعدل في صورة المشروع وفي بعض جزئياته ويستكمل النظر في الأسس التي قام عليها وتبليور هذا كله في كتاب (تجديد النحو) الذي يعد تطبيقاً للمشروع بعد تعديله واستكمال أسسه . والكتاب - بغض النظر عما قد يقال عن بعض مسائله أو تبويبياته المخالفة لما هو مألف في كتب النحو المدرسية - يعد أول محاولة متكاملة لتيسير النحو في العصر الحديث .

وسوف أكتفى بذكر الأسس التي قامت عليها تلك المحاولة :

- ١ - إعادة تنسيق أبواب النحو .
- ٢ - إلغاء الإعرابين التقديرى والمطلى .
- ٣ - الإعراب لصحة النطق .
- ٤ - وضع ضوابط وتعريفات دقيقة .
- ٥ - حذف زوائد كثيرة ، وهى شروط معقدة وإعرابات مفترضة .
- ٦ - إضافات متنوعة ضرورية لصحة النطق وسلامة التصريف .

وليففر لي أستاذى الجليل ظلمى لمحاولته بعرضها بهذا الإيجاز وسوف أبذل غاية الوعى فى رفع هذا الظلم ببحث مفصل عنها فى قادم الأيام .

ويكل أسف لم يكن أغلب نقاد المحاولة منصفين ، فقد احتجوا فى رفضها بمسائل فردية وتعليلات منطقية لا يعسر أمثال لها فى الاعتراض على التقسيمات المألوفة فى كتب النحو المدرسى . وقد غاب أيضًا عن بعض نقاده أن مشروع التيسير متوجه إلى النحو للناشئة لا إلى طلاب الجامعات أو الباحثين ، وأنه لا يتعرض بالتغيير لأصل من أصول اللغة أو حكم من أحكامها المقررة . وأن الغاية منه هى الغاية من كل نحو يدرس صحة النطق وسلامة التعبير والفهم .

ثانياً : قضية تنمية الفصحى المعاصرة :

الفصحى المعاصرة بمعجمها الواسع وبأساليبها المتنوعة ويقدرتها على الوفاء بمتطلبات العلوم والفنون تتاج متواصل دعوب لجيل رواد التحديث من المفكرين والعلماء والأدباء والصحافيين ، والطهطاوى وجبله على مبارك والدكتور حسن الرشيدى والدكتور أحمد تدا ، والشيخ محمد عبده والبارودى . ثم لطفى السيد وجبله شوقى

والدكتور مشرفة والدكتور أحمد عيسى والدكتور محمد شرف والدكتور طه حسين ،
والعقاد ، ونجيب محفوظ .. إلخ .

بيد أن بعض اللغويين المتشددين لم يرضه تطور الفصحي في ألفاظها وأساليبها ففسرعوا يخطئون ويمعنون .. وجعلوا أمرها عسراً بعد يسر وضيقاً بعد سعة ، ولم يكونوا في كثير من الأحوال مدركين لوظيفة اللغة في المجتمعات الحديثة بل لم يكونوا على علم واسع بمصادرها القديمة .

وقد انبرى المجمع لهذه القضية منذ أول عهده وقرر الأخذ بالقياس في اللغة ، وقبل السماع من المحدثين ، وتكلم فروع مادة لغوية لم تذكر بقيتها ، ودراسة الألفاظ والأساليب الحديثة وإقرار ما تمس إليه الحاجة منها .. إلخ .

ومن هذه المبادئ انتطلقت بحوث شوقي ضيف في لجنة الأصول ولجنة الألفاظ والأساليب ، وهذه عناوين بعض بحوثه في لجنة الأصول :

- النسب إلى المثنى في المصطلحات العلمية .

- حذف تاء التأنيث في المؤنث المجازى المصغر .

- تسكين أواخر الأعلام في الدارج .

- صيغة فعلة و فعلة .

- رد المحنوف من فاء الثلاثي ولامه في النسب .

- صداررة أنواع الاستفهام .

- لزوم الفعل الثلاثي وتعديته .

وفي البحث الأخير دعا إلى إجازة تعدى الفعل اللازم بصيغته إلى مفعول به منصوب ، وإلى إجازة تحول الفعل الثلاثي المتعدى بنفسه إلى متعد بحرف ، وتحول الفعل الثلاثي المتعدى بحرف إلى متعد بنفسه . كل ذلك إذا دعت إليه حاجة علمية أو بلاغية .

والبحث مدحوم بالشواهد الغزيرة من أفصح الكلام من القرآن والحديث والشعر جاهلية وأمية وعباسية بالإضافة إلى ما ذكره أئمة النحو واللغة ، وهكذا كانت دائمًا بحوثه .

وهذه عناوين بعض بحوثه في لجنة الألفاظ والأساليب :

- هذا المنزل أيل للسقوط ، وفلان أبي من سفره .

- صدفة ومصادفة .

- جُمد وتجميد .

- بهت وباهت .

- عشوائية وعشوانية .

- شغوف .

- توفى ومتوفى .

- حبذا لو رضيت .

- صارحة الرأى .

- أفعال مبينة للمجهول والمعلوم بدالة واحدة .

وفي البحث الأخير صبح ما شاع في كتب بعض النحاة واللغويين من اقتصار هذه الأفعال على البناء للمجهول ، معتمدا على ما ورد في معجمات اللغة من بنائها للمعلوم بالمعنى نفسه .

وفي كل بحث من هذه البحوث تظهر معرفة شوقي ضيف الواسعة بلغة العرب في مختلف عصورها ، وبالنحو العربي وبأحكامه وضوابطه وأسراره التي غابت عن مؤلء المتشددين المضيقين ، وتتبدي نظرته النافذة إلى الفصحي التي وسعت كتاب الله وعلوم اليونان والفرس والتي واكبت النهضة العربية الحديثة في علوم العصر وفنونه ومظاهر حضارته .

وفي نهاية كلمتى أقول : إن أستاذنا الدكتور شوقي ضيف نموذج فريد لخلق رفيع عز أن يوجد فى هذه الأيام ، مد الله فى عمره ونفع به ، فهو وأشباهه أما يعطى للحياة معنى ولكل طالب قدوة ومثلاً .

أ . د . محمد حسن عبد العزيز

كلية دار العلوم - جامعة القاهرة

١٢ - منهج شوقي ضيف في كتاب «المدارس النحوية»

د . محمود ياقوت

إذا ذكر النحو العربي ومصادره الأولى ، ذكر سيبويه وكتابه . وإذا ذكر النحو العربي وجهود المحدثين ، ذكر شوقي ضيف وكتابه «المدارس النحوية» ، فقد استطاع - في هذا الكتاب - بخبرة العالم ، وتمكن الأستاذ أن يقدم عرضاً مفصلاً للنحو وأعلامه ومصادره ومناهج القدماء في بحثه وبرسه : لذلك لا يبالغ إذا قلنا إنه لا يمكن لأى باحث معاصر أن يستفني عن كتاب «المدارس النحوية» ، حين يشرع فى الاتصال بالنحو ، ومن هنا حق الدكتور شوقي ضيف أن يقول عنه : « ولعل هذه أول مرة تبحث فيها المدارس النحوية بحثاً جاماً ، وهو بحث يرسم فى إجمال الجهود الخصبة لكل مدرسة وكل شخصية نابهة فيها » .

وينظر في مقدمته السبب في تأليفه قائلاً : « حين أعارتني جامعة القاهرة في العام الدراسي ١٩٦٥ - ١٩٦٦ لشقيقها الجامعة الأردنية ، حضرت طلاب قسم اللغة العربية بها في تاريخ المدارس النحوية ، ولما رجعت إلى المكتبة العربية الحديثة لم أجد فيها كتاباً يغنى في هذا الموضوع غناء محموداً ، وقد مضيت أحاضر الطلاب فيه ، محاولاً - بقدر جهدي - أن أبلغ حاجتهم بترتيب مقدماته ، وتوفير الأسباب المعينة على صحة نتائجه حتى استقامت لي هذه الصورة لمدارسنا النحوية على مر التاريخ » . وقد صدرت الطبعة الأولى من الكتاب عام ١٩٦٨ عن دار المعارف بمصر ، وتواترتطبعاته بعد ذلك ، وأصبح مصدراً مهماً في الأبحاث والدراسات المختلفة ، لأنه حافل بالموضوعات المقيدة الدقيقة : لذلك حين فكرت في كتابة بحث حول جهد أستاذنا في «الدرس النحوي» ، رأيت أن أخذ جزءاً ، أو موضوعاً من «المدارس النحوية» ، للبحث

والدرس ، ومن بين الموضوعات التي عنت لى « جهود شوقي ضيف في دراسة المصطلح النحوي » ، و « التحليل اللغوي في كتاب المدارس النحوية » ، و « موقف شوقي ضيف من القراءات القرآنية » وسواها من الموضوعات ، التي تجدها مت坦يرة في ثياب الكتاب وتحتاج إلى جمع وتصنيف ، ولكنني رأيت أن أقدم عرضاً وتحليلاً لكتاب ، على أن تبحث تلك الموضوعات ، فيما بعد ، على يد من يشاء من الباحثين والدارسين ، وإن كنت سأعرض لها بياحاز خلال بعض الصفحات : لأنها تحتاج إلى الكثير من الإيضاحات والتفصيات .

وقد قسم الدكتور شوقي ضيف كتابه إلى ثلاثة أقسام كما يلى :

- ١ - القسم الأول : المدرسة البصرية .
- ٢ - القسم الثاني : المدرسة الكوفية .
- ٣ - القسم الثالث : مدارس مختلفة .

ويعقّم القسم الأول في خمسة فصول ، تدور حول الموضوعات والشخصيات التالية :

- ١ - البصرة وأوضاع النحو .
- ٢ - الخليل .
- ٣ - سيبويه .
- ٤ - الأخشن الأوسط وتلاميذه .
- ٥ - البرد وأصحابه .

ويعقّم القسم الثاني في أربعة فصول ، تدور حول الموضوعات والشخصيات التالية :

- ١ - نشأة النحو الكوفي وطوابعه .
- ٢ - الكسانى وتلاميذه .
- ٣ - الفراء .

٤ - ثعلب وأصحابه .

ويدور القسم الثالث حول المدارس التالية :

١ - المدرسة البغدادية .

٢ - المدرسة الأندلسية .

٣ - المدرسة المصرية .

وحين شرعنا في العرض للكتاب وتحليله ، رأينا أن نركز على « المنهج » ، الذي سار عليه الدكتور شوقي ضيف في تأليفه : لأننا نعتقد أن هذا الكشف عن « المنهج » يؤدي إلى التعرف على بعض ملامح منهج الدرس النحوى عند القدماء ؛ إذ إن الأستاذ اعتمد في عرضه وتحليله على التراث النحوى بصفة عامة ، وما تم وضعه في المراحل الباكرة بصفة خاصة .

و « المنهج في أبسط معانيه هو الخيط الذى يتتخذه مؤلف معين ليسلك فيه موضوعات تفكيره أو دراسته ، ويراد بكلمة المنهج عملياً الخطة التي اتبعها مؤلف الكتاب في علاج المشكلة التي اختارها موضوعاً له ، وقيامها . على أساس من المنطق ، أو من الاستقراء ، أو منهاجاً معاً ، كما يراد بها النظام الذي سلكه في علاج جزئيات الدراسة ؛ من حيث استعمال المادة ، وتقديم المناقشة أو تأخيرها ، وإبداء الرأى الشخصى ، وتقديم آراء الآخرين ، وإصدار حكم نهائى ، أو تعليق الموقف من باب التحفظ والحيطة »^(١) .

والحديث عن « المنهج » من الأمور العلمية التي ينبغي بحثها بدقة ، والكشف عنها ، وكانت للأوائل من العلماء العرب مناهج يسيرون عليها في دراسة « اللغة » ، وأساس تلك المناهج الكشف عن الجوانب فيما بينها ؛ فإن هذا التداخل - في حد ذاته - يهد منهجاً يطبع الدرس اللغوى عند الأوائل ، وإذا كان أولئك ، وعلى رأسهم سيبويه ، قد

(١) الدكتور عبد الصبور شاهين : في التطور اللغوى ١٣٤ .

انطلقوا من قضية الجملة والإعراب إلى قضية الأبنية الصرفية إلى قضية الأصوات ؛ أي من الوحدات الكبيرة إلى الوحدات الأصغر ؛ فإنه « قد ظهرت في السنوات الأخيرة اتجاهات عند بعض اللغويين الأمريكيين والأوربيين ، تتعلق في التحليل اللغوي من الوحدات الكبيرة إلى الوحدات الأصغر ؛ لذا فهي تبدأ بتحليل الجملة ، وتنتهي بالتحليل الصوتي »^(١) . ولذلك فإنه إذا كانت معرفة النحو - مثلاً - لابد أن تسبق بمعرفة الصرف ، نجد أن القدماء - وعلى رأسهم ابن جنى - يقررون أنه لما كان « الصرف عويمًا صعباً بدئ قبله بمعرفة النحو ؛ ثم جئ به بعد ؛ ليكون الارتكاض في النحو مواطئاً للدخول فيه ، ومعيناً على معرفة أغراضه ومعانيه ، وعلى تصرف الحال »^(٢) .

وعلى الرغم مما يوجه إلى المنهج العربي القديم من انتقادات ؛ فإنه « هو الذي حفظ لنا العربية هذه القرون الطويلة ، وأن العربية ليست مجرد لغة تدرس ، كما تدرس اللهجات أو غيرها من اللغات ، وإنما هي لغة تمثل جوهر حياة هذه الأمة ، بارتباطها بالقرآن الكريم ، ومن ثم باستيعابها للنظم التي عاش عليها العرب والمسلمون ، وهذه الناحية كافية في النظر إلى الدرس العربي خاصة ، دون أن يخدعنا بريق من هنا أو بريق من هناك ، وهي حقيقة بتوجيه العزائم المخلصة إلى كل ما يؤصل هذا الدرس ويعمقه ويقويه »^(٣) .

(١)

بعد الحديث عن « العامل » من أسس منهج الدرس النحوي عند القدماء ، وهو من ملامح منهج الدكتور شوقي ضيف في دراسة « المدارس النحوية » . والعامل من المصطلحات الأصلية التي ظهرت في المراحل الباكرة من الدرس النحوي عند العرب ؛ إذ إن سيبويه قد صرخ به في السطور الأولى من كتابه : فقال تعليقاً على عرضه

(١) الدكتور محمود حجازي : مدخل إلى علم اللغة ٢٠ .

(٢) ابن جنى : المصنف ٤/١ .

(٣) الدكتور عبد الرحمن الراجحي : فقه اللغة في الكتب العربية ٥ .

لجرى أواخر الكلم الثمانية ، أو أنواع الإعراب والبناء : « وإنما ذكرت لك ثمانية مجار ، لأفرق بين ما يدخله ضرب من هذه الأربعة لما يحدث فيه العامل ، وليس شيء منها إلا وهو ينزل عنده ، وبين ما يبني عليه الحرف بناء لا ينزل عنه لغير شيء آخر فيه من العوامل التي لكل عامل منها ضرب من اللفظ في الحرف ، وذلك الحرف حرف الإعراب »^(١) .

و « كل من يقرأ كتاب سيبويه ، يرى رأى العين أن الخليل هو الذي ثبت أصول نظرية العوامل ، ومد فروعها ، وأحكمها إحكاماً بحيث أخذت صورتها التي ثبتت على مر العصور : فقد أرسى قواعدها العامة ذاتها إلى أنه لابد مع كل رفع لكلمة ، أو نصب ، أو خفض ، أو جزم ، من عامل يعمل في الأسماء والأفعال العربية ومتناها الأسماء المبنية ، والعامل عادة لفظي مثل المبتدأ وعمله في الخبر الرفع ، والفعل وعمله في الفاعل الرفع ، وفي المفعولات النصب . وقد يكون العامل معنوياً على نحو ما نص تلميذه سيبويه في باب المبتدأ ، إذ جعله عمولاً للابتداء ، ومن العوامل أنواع وحروف منها ما يجزم الفعل ، وهو « لم » و « إن » وأخواتها ، ومنها ما ينصرف أو ينصب ما بعده وهو « أن » و « لن » و « يابهما » ، ومنها ما ينصرف ما بعده ويرفعه كال فعل ، وهو « إن وأن ولكن ولكن وليت ولعل »^(٢) .

ونشير إلى أن الجدل حول العامل بدأ في أوائل القرن الثالث الهجري ، والدليل على ذلك تلك الرواية^(٣) ، التي تدور حول المناقضة بين الفراء وأبي عمر الجرمي ، فقد قال الفراء للجرمي : « أخبرني عن قولهم : زيد منطلق لم رفعوا زيداً ؟ فقال له الجرمي : بالابتداء ، فقال له الفراء : وما معنى الابتداء ؟ فقال له الجرمي : تعريته من العوامل اللفظية ، قال له الفراء : أظهره ، فقال : هذا معنى لا يظهر^(٤) ... قال له الفراء : فمثلك ، قال له الجرمي : أخبرني عن قولهم : زيد ضربته بم رفعت زيداً ؟ قال الفراء :

(١) الكتاب : ٢/١ .

(٢) المدارس التحوية : ٣٨ .

(٣) الإنصاف في مسائل الخلاف : ٤٦/١ .

(٤) يريد أنه عامل معنوي .

بالهاء العائد على زيد^(١) ، فقال الجرمي : الهاء اسم فكيف يرفع الاسم ؟ فقال الفراء : نحن لا نبالي من هذا ؛ فإننا نجعل كل واحد من المبتدأ والخبر عاملاً في صاحبه في نحو : زيد منطلق ، فقال له الجرمي : يجوز أن يكون كذلك في : زيد منطلق ؛ لأن كل واحد من الأسمين مرفوع في نفسه ؛ فجاز أن يرفع الآخر ، وأما الهاء في : ضربته ؛ فهي في محل نصب فكيف ترفع الاسم ؟^(٢) فقال له الفراء : لم ترفعه به وإنما رفعناه بالعائد^(٣) ، فقال له الجرمي : وما العائد ؟ فقال له الفراء : معنى ، فقال الجرمي : أظهره ، فقال : لا يظهر ، فقال له : مثله ، فقال : لا يتمثل ، فقال له الجرمي : لقد وقعت فيما فررت منه^(٤) .

و تلك الرواية دليل على الجدل ، وأولييات ظهوره في الدرس النحوى ، وإذا كان الفراء قد قال للجرمي : ما رأيت كاليلوم عاملاً لا يظهر ولا يتمثل ؛ فإن الثاني أخذ يجادله حتى وصل إلى النتيجة نفسها ؛ لذلك قال للفراء : « لقد وقعت فيما فررت منه » .

وقد استمر العامل العامل الأساس في « المقتضب » للمبرد ولكن الذي يلفت النظر أنه قد فتح الباب أمام الاحتمالات الإعرابية ، والتخيير للعبارات الافتراضية التي صنعتها ؛ فكان في ثانياً الأبواب المختلفة يحثثا عن « مسائل طوال يمتحن بها المتعلمون » وهى تلقاناً منذ الصفحات الأولى ؛ بل إن المبرد لم يجد حرجاً في الحكم على بعض تلك المسائل بأنها « حسنة » ، وربما يرد هذا الحسن إلى أن التركيب النحوى يمكن أن يتحمل تخريجاته لتلك المسائل ؛ بالإضافة إلى اعتماده على العوامل والمعلمات^(٥) . ولقد تأثر ابن السراج برأستاده ؛ فاكتثر في « الأصول في النحو » من تلك المسائل ، مع أن غرضه في هذا الكتاب ذكر العلة التي إذا اطربت وصل بها إلى كلامهم فقط ، وذكر الأصول والشائع لأنه كتاب إيجاز^(٦) .

(١) لأن الخبر عنده إنما لم يكن أنساً رفع المبتدأ الضمير المتصل بالفعل (شوقي ضيف) .

(٢) يريد أن فاقد الشيء لا يعطيه (شوقي ضيف) .

(٣) أي الضمير يصفه عائداً عليه ، لا يصفه منصوباً (شوقي ضيف) .

(٤) الاتصال : ٤٧/١ .

(٥) انظر مثلاً : ١٧/١ من المقتضب .

(٦) الأصول : ٢٨/١ .

ومن أشهر اللغويين الذين قيل إن لهم موقفاً خاصاً من العامل النحوي ابن جنى ؛ فقد اعتمد عليه ابن مضاء القرطبي (٩٦٢هـ) حين أراد أن يهدم العامل ويقضى عليه ، ولستنا هنا في معرض المقارنة بين رأى أبي الفتح وابن مضاء ، ولكن نسجل الخلاف في الرأي والجدل بين النحاة ، وقد صرخ ابن جنى بالعامل في عدة مواضع من أعماله العلمية ؛ فهو الأساس في تغيير الحركة الإعرابية قال : « الإعراب ضد البناء في المعنى ومثله في اللفظ ، والفرق بينهما زوال الإعراب لغير العامل وانتقاله ، ولزوم البناء الحادث عن غير عامل وثبتاته »^(١) . ويقول عن المبتدأ إنه « كل اسم ابتدأته وعرّيته من العوامل اللفظية ، وعرّيته لها وجعلته أولاً لثانٍ يكون الثاني خيراً عن الأول ومسندًا إليه ، وهو مرفوع بالابتداء ». يقول : زيد قائم ومحمد منطلق ، فزيد ومحمد مرفوعان بالابتداء ، وما بعدهما خير عنهما »^(٢) . بل إن أبو الفتح يقيم بعض قضايا التقدير النحوي على أساس من العامل وتصرفة في الأزمنة^(٣) ، وصرح به في « سر صناعة الإعراب »^(٤) وأشار إلى اختصاصه بما يعمل فيه .

وفي القرن الرابع ، وأوائل الخامس الهجري ، كان في الأندلس نحاة لهم دراسات مهمة في مجالات مختلفة ، كالقراءات وإعراب القرآن والنحو ومن بينهم مكي بن أبي طالب القيسي (٤٢٧هـ) الذي وضع كتاباً عنوانه « مشكل إعراب القرآن » كانت نظرية العامل أساسية في تحرير وجوه الإعراب المختلفة لبعض الآيات الكريمة ؛ بل وأشار إلى أن « معنى الاستقرار » و« معنى الإشارة » قد يكونان عاملين^(٥) .

ونجد الزمخشري في النصف الأول من القرن السادس الهجري يعتقد كبقية السابقين من النحويين بالعامل ، ويقيم على أساسه كتاب « الله »؛ فيقول عن المبتدأ والخبر : « هما الأسمان المجردة للإسناد نحو قوله : زيد منطلق ، والمراد بالتجريد

(١) المع في العربية : ٩٢ .

(٢) السابق : ١٠٩ .

(٣) السابق : ١٤٦ . ١٤٥ .

(٤) سر الصنفة : ١٤٥/١ .

(٥) مشكل إعراب القرآن : ٧٤/١ و ٨٤ .

إخلوئهما من العوامل التى هي كان ، وإن ، وحسبت وأخواتها »^(١) . وقد كان العامل من المصطلحات التحوية التى وردت فى « الكشاف » وتعرض له الزمخشرى فى إعرابه بعض الآيات الكريمة^(٢) .

نائى بعد ذلك ، إلى ابن مضاء فنجد أنه هاجم العامل فى كتاب « الرد على النحا » الذى حققه الدكتور شوقى ضيف ، وقد كشف فى مقدمته عن أن ابن مضاء كان يهدف إلى هدم النحو باعتباره وسيلة لفهم الفقه المشرقى : فقال الدكتور شوقى ضيف : « إن من يرجع إلى نصوص (كتاب الرد على النحا) يلاحظ ملاحظة واضحة أن صاحبه ثانى على المشرق ، وهى ثورة تعتبر امتداداً لثورة سيده عليه ، وأيضاً فإنه يلاحظ نزعة ظاهرية^(٣) في ثانيا الكتاب ، مما يؤكّد صلة صاحبه بالموحدين على كتب المذاهب^(٤) ، ومن يعرف ؟ ربما كان ابن مضاء أحد المؤلبين على هذه الثورة ، إن لم يكن المؤلب الأول كما يقضى بذلك منصبه^(٥) . والغريب أنه لم يعن بتأليف كتاب ضد فقه المشرق ، وإنما عنى بتأليف ضد النحو المشرقى : فقد صب عنایته كلها على النحو »^(٦) .

ومن هنا فقد هاجم ابن مضاء نظرية العامل ، وهى التي عقدت النحو وأكثرت فيه من التقديرات والمباحث التي لا طائل وراءها فى رأيه ، والمتكلم فى الحقيقة كما لا يلاحظ ابن جنى^(٧) هو الذى يعمل الرفع والنصب والجر فى الكلام ، ويفصل القول فيما أدخلته هذه النظرية على النحو من عقد التقديرات على نحو ما هو معروف فى العوامل المحنوفة ، مما يبعد الصيغ عن وجهاها الطبيعي ، ويدفع إلى تمحلات لا داعى لها

(١) المفصل : ٢٢ .

(٢) انظر ٢٨٠/١ من الكشاف .

(٣) يرجع هذا إلى تأثر ابن مضاء بالذهب الظاهري فى الفقه ، الذى انتشر فى الأنجلوس باعتباره رد فعل ضد انتشار منصب الإمام مالك هناك ، ومؤسس المنصب الظاهري هو داود بن على الظاهري (٢٠٢ - ٢٧٠ م) .

(٤) يقول عبد الواحد المراكشى عن إسحاق كتب المنصب المالكى : « لقد شاهدت منها وأنا يومئذ بمدينة فاس يذكر منها بالأعمال تتوضع ، ويطلق فيها النار » . المعجب : ٣٥٤ .

(٥) كان قاضى الجماعة فى دولتة الموحدين الذى أسسها ابن تومرت (٥٤٢ - ٥٥٤) .

(٦) الرد على النحا : ١١ و ١٢ من مقدمة الدكتور شوقى ضيف .

(٧) الفصانص : ١٠٩/١ .

كتقدير أن الظرف ، والجار والمجرور إذا وقعا أخباراً ، أو صلات ، أو أحوالاً يتعلّقان بعامل محنوف ولا حذف هناك ، ولا عامل - في رأيه - ولا عمل ... ولكن يوضح فساد نظرية العامل ، وأنها دفعت النحاة أحياناً إلى رفض بعض أساليب العرب ، ووضع مفهلاً مكانها لا يعرفها العرب الجاهليون والإسلاميون ترس « باب التنازع » دراسة مفصلة ، موضحاً ما جلبه فيه النحاة من صيغ معقدة عسرة لم ينطّق بها العرب ولا وقت في أوهامهم ودرس « باب الاستغال » أيضاً كما هاجم التمارين غير العملية^(١) .

يتضح من هذا العرض أن مآثر حول العامل من جدل لم يكن مقصوداً به عند اللغويين القدماء سوى تحديد العمل النحوى فى بعض الأبواب والتراتيب النحوية ، وما بين هذا التحديد من اختلاف . ولم يكن هناك سوى ابن مضاء الذى حاول أن يهدى العامل وصرح بذلك فى مقدمته ، ومع ذلك فإن دعوته لم يصادفها النجاح ، ولذلك لم يشر إليها أحد من مواطنه ، أو من الجيل التالى له ، بل استمر العامل كما هو أساس الدرس التحوى ، دون تغيير .

(٤)

ويعد « التعليل » من الأسس المنهجية فى الدرس التحوى ، وهو من أبرز الموضوعات التى تكشف عن تأثير النحو بغيره من العلوم مثل « علم الكلام » و « أصول الفقة »^(٢) . ويرى ابن جنى أن العلل النحوية ، أكثر قرابةً لعل المتكلمين : قال : « واعلم أن علل النحوين ، وأعني بذلك حذاهم المتلقين لا ألفاظهم المستضعفين ، أقرب إلى علل المتكلمين منها إلى علل المتفقين ؛ وذلك أنهم يحيلون على الحس ، ويحتاجون فيه بثقل

(١) المدارس النحوية : ٢٠٥ و ٢٠٦ . وقد فصلنا الحديث عن موقف ابن مضاء من نظرية العامل فى كتابنا : قضايا التقدير النحوى بين القدماء والمحاذين ٦٤-٦١ .

(٢) للتعرف على صلة النحو بعلم الكلام وأصول الفقه انظر كتابنا : قضايا التقدير النحوى بين القدماء والمحاذين ١٩-٤٩ . والتلوّس فى دراسة الطلة بصفة عامة انظر : « النحو العربي : الطلة التحوية : نشأتها وتطورها » للدكتور مازن المبارك .

الحال أو خفتها على النفس ، وليس كذلك حديث علل الفقه^(١) . ورغم ذلك فإن أبا الفتح لا يرى أن تلك العلل النحوية . في سمت العلل الكلامية البتة . قال : « واعلم أنا - مع ما شرحته وعنينا به فلوضختناه من ترجيح علل النحو على علل الفقه ، والحقها بطل الكلام - لا ندعى أنها تبلغ قدر علل المتكلمين ، ولا عليها براهين المهندسين ، غير أنها نقول : إن علل النحوين على ضربين : أحدهما واجب لابد منه ؛ لأن النفس لا تطبق في معناه غيره ، والأخر ما يمكن حمله ، إلا أنه على تجشيم واستكراه له »^(٢) . وULL النحو في مرتبة أعلى من علل الفقة ؛ إذ إنها مواطنة للطباع ، وULL الفقه لا ينقاد جميعها هذا التقىاد ؛ حيث إن الشريعة إنما جاءت من عند الله - سبحانه وتعالى - ومعلوم أنه - سبحانه - لا يفعل شيئاً إلا لوجه المصلحة والحكمة قائم فيه ، وإن خفيت عنا أغراضه ومعايشه »^(٣) .

ويرى ابن حزم الأندلسى أن علل النحوين كلها فاسدة ، لا يرجع منها شيء إلى الحقيقة البتة ، وإنما الحق من ذلك أن هذا سمع من أهل اللغة^(٤) ، الذين يرجع إليهم في ضبطها ونقلها ، وما عدا هذا فهو - مع أنه تحكم فاسد - متناقض ؛ فهو أيضاً كتب ؛ لأن قولهم : كان الأصل كذا ؛ فاستنقذ فنقل إلى كذا شيء يعلم كل ذي حس أنه كتب لم يكن قط ، ولا كانت العرب عليه مدة ، ثم انتقلت إلى ما سمع منها بعد ذلك »^(٥) . ويرجع هذا الهجوم على العلة من قبل ابن حزم إلى أنه كان يأخذ بالذهب الظاهري في الفقه ، وقد حاول أن يطبق ذلك على النحو .

ومن المفيد أن نشير إلى رأى الخليل ، وبذلك إذا جاز لنا العودة إلى المراحل الباكرة ، حول العلل التي ألقى بها ، وأخذها عنه سيبويه . فقد قيل له : عن العرب أخذتها أم اخترعتها من نفسك ؟ وإن لم ينقل ذلك عنها ، واعتلت أنا بما عندي أنه علة

(١) الخصائص : ٤٨/١ .

(٢) الخصائص : ٨٧/١ و ٨٨ .

(٣) السابق : ٥٢/١ .

(٤) أشار القسماء إلى ما يسمى « علة سماع » كما في : « الهرtrag » السبيطى ١١٥ .

(٥) ابن حزم : التقرير لحد النطق ١٦٨ .

لما علّته منه ؛ فإن أصبت فهو الذي التمس ، وإن لم تكن هناك علة له فمثلى في ذلك مثل رجل حكيم دخل داراً محكمة البناء عجيبة النظام والأقسام ، وقد صحت عنده حكمة بانيها بالخبر الصادق أو بالبراهين الواضحة والجحا الائحة ؛ فكلما وقف هذا الرجل في الدار على شيء منها قال : إنما فعل هذا هكذا لعلة كذا وكذا ... وجائز أن يكون فعله لغير تلك العلة إلا أن ذلك مما ذكره هذا الرجل محتملاً أن يكون علة لذلك ؛ فإن سُنْح لغيري علة لما علّته من النحو هي أليق بما نكرته للمعلوم قليات بها »^(١) .

وتأخذ تعلييلات الخليل شكل سيول متلاحقة في كتاب سيبويه والكتب النحوية المختلفة ، وتأخذ مثلاً واحداً لذلك ، وهو أنه كان يذهب إلى أن الإعراب أصل في الأسماء ، وأن البناء أصل في الأفعال والحرروف وأن الطرفين لا يخرجان عن هذا الأصل إلا لعلة ، أما الأسماء فإنها تبني حين تعارضها علة شبهاها بالحرف ، ويُعرب الفعل حين يشبه الاسم على نحو ما أعرب المضارع ؛ لشباهه باسم الفاعل من حيث الحركات والسكنون مثل أخرج ومخرج وأكتب وكاتب ، وقد ظلت الحروف مبنية ؛ لأن شيئاً منها لا يشبه الاسم^(٢) . وتكثر التعلييلات عند سيبويه كثرة مفرطة ، سواء للقواعد المطردة أو للأمثلة الشاذة ، يقول في فواتح كتابه : « وليس شيء يضطرون إليه إلا وهم يحاولون به وجهًا ؛ فهو لا يعلل فقط لما كثر في الاستثناء ، واستنبطت على أساسه القواعد ؛ بل يعلل أيضاً لما يخرج على تلك القواعد ، وكانتما لا يوجد أسلوب ولا توجد قاعدة بدون علة .

وقد اهتم الجيل التالي من النحاة بالعلة ، وكان بعضهم بعض التعلييلات التي أحدثت صدى واسعاً في أوساط اللغويين والنحوين ، ونكتفي هنا بالعرض لرأي قطرب (٦٢٠٦) في علامات الإعراب الخاصة بتأخر الكلمات ؛ حيث إنه علل استخدامها تعليلاً لم يقل به أحد من الأوائل ، أو الجيل التالي ؛ فقد اتفق القدماء على أن « حركات الإعراب » تدل على بعض المعانى التى تختلف تبعاً لاختلاف تلك الحركات ، ومن

(١) الإيضاح في علل النحو : ٦٥ .

(٢) المدارس النحوية : ٤٩ .

النصوص الدالة على ذلك : « فاما الإعراب فيه تميز المعانى ، ويوقف على أغراض المتكلمين ؛ وذلك أن قائلًا لو قال : « ما أحسن زيدُ » غير معرب ، لم يوقف على مراده ؛ فإذا قال : ما أحسن زيدًا أو ما أحسن زيدًأ أو ما أحسن زيدًأ أبان بالإعراب عن المعنى الذى أراده . وللعرب فى ذلك ما ليس لغيرها ؛ فهم يفرقون بالحركات وغيرها بين المعانى »^(١) . ويختلف رأى قطرب فى دلالة الحركة الإعرابية على المعانى ؛ فإنه لا يرى للحركة الإعرابية دلالة على الإطلاق ؛ بل هي نابعة من السرعة فى الكلام ، والرغبة فى التخلص من النقاء الساكنين . قال : « وإنما أعربت العرب كلامها ؛ لأن الاسم فى حال الوقف يلزم السكون للوقف ؛ فلو جعلوا وصله بالسكون أيضًا لكان يلزم الإسكان فى الوقف والوصل ، وكانوا يبطئون عند الإدراج ؛ فلما وصلوا وأمكنتهم التحرير جعلوا التحرير معاقبا للإسكان ليعدل الكلام ، ألا تراهم بنوا كلامهم على متحرك وساكن ومتحركين وساكن ، ولم يجمعوا بين ساكنين يبطئون ، وفي كثرة الحروف المتحركة يستعجلون ، وتنذهب المهلة فى كلامهم ؛ فجعلوا الحركة عقب الإسكان ، وقيل له : فهلا لزموا حركة واحدة ؟ فقال : لو فعلوا ذلك لضيقوا على أنفسهم ؛ فأراؤنا الاتساع فى الحركات ، وأن لا يخطروا المتكلم الكلام إلا بحركة واحدة »^(٢) .

وهذا الرأى الذى قاله قطرب لم يجد قبولاً فى أوساط اللغويين القدماء ؛ لأنه لا يتبع لهم الفرصة للتقدىن ووضع القواعد على أساس ثابتة ؛ بحيث لا تكون عرضة للتغيير أو الأهواء الشخصية . ولو كان الأمر كما زعم « لجاز خفض الفاعل مرة ورفعه أخرى ونصبه ، وجاز نصب المضاف إليه ؛ لأنقصد فى هذا إنما هو الحركة تعاقب سكوناً ليعدل به الكلام ، وأى حركة أتى بها المتكلم أجزأته فهو مخير فى ذلك ، وفي هذا فساد الكلام ، وخروج على أوضاع العرب وحكمة نظام كلامهم »^(٣) .

(١) أسرار العربية : ٢٤ و ٢٥ و شرح المفصل : ٧٢/١ .

(٢) الإيضاح : ٧٠ .

(٣) السابق : ٧١ .

(٣)

وقد تتبع الدكتور شوقي ضيف «القياس» عند النحوين، وكشف عن منهجهم في استخدامهم له، وأتي بالنصوص المختلفة التي توضح ذلك، وقبل الدخول في العرض لموقف النحاة من القياس، نشير إلى أن المعنى اللغوي له، كما يقول ابن منظور: «قياس الشيء يقيسه قياساً وقياساً واقتاسه إذا قدره على مثاله»^(١)؛ أما في الاصطلاح فهو عبارة عن رد الشيء إلى نظيره^(٢)؛ أي هو حمل غير المقول على المقول إذا كان في معناه، وهو معظم أدلة التحو، والمعلول في غالب مسائله عليه^(٣)؛ لذلك فإن من التعريفات التي وضعَت للنحو قولهم: «علم مستخرج بالمقاييس المستبطة من استقراء كلام العرب، الموصولة إلى معرفة أحكام أجزاءه التي تختلف منها»^(٤).

وتوقف الدكتور شوقي ضيف في بداية كتابه أمام عبد الله بن أبي إسحق (-١١٧هـ) وما قاله ابن سلام من أنه «كان أول من بعث النحو و مد القياس و شرح العلل»، وأشار إلى أن عيسى بن عمر التقى (-١٤٩هـ) مضى على هدى ابن أبي إسحق يطرد القياس ويعممه، ومن أقيسته ما حكاه سيبويه عنه من أنه كان يقيس النصب في كلمة «يا مطرا» في قول الأحوص:

سلام الله يا مطراً عليها وليس عليك يا مطر السلام
على النصب في كلمة «يا رجلاً»، وكأنه يجعل «مطراً» في تنوينها وتنصبه
الكلمة غير المقصودة.

ويستمر الأستاذ في تتبع القياس في المراحل الباكرة من حياة الدرس النحوي، وأوضح أنه من معالم هذا الدرس عند مدرسة الكوفة؛ لذلك؛ كان الكسائي يؤمن بأن

(١) المسان: ١٨٧/١.

(٢) التعريفات: ١٥٩.

(٣) الاقتراح: ٤٠.

(٤) المقرب: ٥٤/١.

النحو إنما هو ضروب من القياس ، وما يطوى فيه من علل وحجج تشده وتقيم أذه
حتى ليقول :

إنما النحو قياس يتبع وبه في كل علم ينتفع

بل قيل إن الكسائي « كان يسمع الشاذ الذي لا يجوز من الخطأ والحن وشعر
غير أهل الفصاحة والضرورات : فيجعل ذلك أصلاً ويقيس عليه حتى أفسد النحو »^(١) .
وقد أشار إلى ذلك البيزيدى فى الأبيات الآتية :

كنا نقيس النحو فيما مضى
على لسان العُرب الأول
فجاءنا قوم يقيسونه
على لغو أشياخ قطر بل
فكليم يعمل فى نقض ما
به يُصاب الحق لا يأتلى
إن الكسائي وأشياخه
يرقون بالنحو إلى الأسفل^(٢)

واهتم الخليل بالقياس ، ولا نغلو إن قلنا إن أقيسته أهم مادة شاد بها بناء النحو
الوطيد ، وما يصور قوتها عنده ، ودقتها ، حواره مع تلميذه فى رفع المنادى إذا كان
مفرداً ، ونصبه إذا كان مضافاً أو نكرة غير مقصودة ، وجواز نصب نعت المنادى
المفرد ورفعه ، وتحتم التنصب لنعت المنادى المضاف^(٣) . وطبعى أن يكثر القياس عند
سيبوهى : لأنه الأساس الذى يقوم عليه وضع القواعد التحوية والصرفية واطرادها ،
وهو يعتمد عنده فى أكثر الأمر على الشائع فى الاستعمال على ألسنة العرب ، كما
يقوم على المشابهة بين استعمالاتهم فى الأبنية والعبارات المختلفة ؛ فمن ذلك أن نراه
يقيس حذف العائد فى النعت على حذفه فى الصلة ، متمثلاً بقول جرير :

أبخت حمى تهامة بَعْدَ تَجَدِّدِي وَماشَ حَمِيتِ بِمُسْتَبَاحٍ

(١) معجم الأباء : ١٢ / ١٨٣ .

(٢) بقية الوعاة : ٣٣٦ .

(٣) المدارس التحوية : ٥١ ، والحوالى فى الكتاب : ٣٠٣ / ١ .

يريد الهاه : (أى جميته) ، وقول الحارث بن كلدة :

فِيمَا أَذْرَى أَغَيَّرْهُمْ نَنَاءٌ وَطُولُ الْعَهْدِ أَمْ مَالُ أَجَسَابُوا
يريد : أصايبوه^(١).

وكان المازني (- ٢٤٩ هـ) يشدد في الأخذ بالقياس ، ويريد ما لا يطرد معه من لغة العرب ، ومن بعض القراءات للذكر الحكيم ، ومن خير ما يصور ذلك عنده رده لقراءة نافع (معايش) بالهمز في قوله تعالى : « وَلَقَدْ مَكَنَّا كُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ »^(٢) [الأعراف : ١٠] ، وكان ابن السراج (- ٣٢٦ هـ) يعني بالقياس عناية شديدة ، جعلته يهاجم من يعتدون بالشواد والتواتر ، داعياً إلى إسقاطها حتى لا يحدث اضطراب في المقاييس التحويية والصرفية^(٣) . ويتعجب ابن جنى كثيراً من مهارة أبي على الفارسي في القياس ، حتى ليقول عنه : « ما كان أقوى قياسه .. فكتنه كان مخلوقاً له »^(٤) ، ويروى عنه أنه كان يقول : « أخطئ في خمسين مسألة في اللغة ، ولا أخطئ في واحدة من القياس »^(٥) .

و قبل أن نختم الحديث عن القياس ، نشير إلى أن النحويين درسوا « المطرد » و « الشاذ » ، واعتمدوا في ذلك على القياس ، وقد توقف ابن جنى أمام مصطلحى المطرد والشاذ ، ويعنى الأول منها أن فى الكلام تتابعاً واستمراراً ، أما الآخر فيعني أن فيه تفرقاً وتشريداً ، ثم قال : « هذا أصل هذين الأصلين في اللغة ، ثم قيل ذلك فى الكلام والأصوات على سنته وطريقه فى غيرهما ؛ فجعل أهل علم العرب ما استمر من الكلام فى الإعراب وغيره من مواضع الصناعة مطرداً ، وجعلوا ما فارق عليه بقية بابه ، وانفرد عن ذلك إلى غيره شاذًا ، حملًا لهذين الموضعين على أحكام غيرهما »^(٦) .

(١) المدارس النحوية : ٨٧ و ٨٨ .

(٢) الأصول : ١ / ٥٦ و ٥٧ .

(٣) الخصائص : ١ / ٢٧ .

(٤) السابق : ٢ / ٨٨ .

(٥) الخصائص : ١ / ٩٧ .

وينقسم الكلام من حيث الاطراد والشذوذ إلى أربعة أقسام :

- ١ - مطرد في القياس والاستعمال جميعاً؛ وذلك نحو: قام زيد، وضررت عمرًا، ومررت بسعيد.
 - ٢ - مطرد في (القياس) شاذ في (الاستعمال)؛ وذلك نحو قولهم: مكان مبقل. هذا هو القياس، والأكثر في السماع « باقل ».
 - ٣ - مطرد في الاستعمال، شاذ في القياس؛ وذلك نحو: استتصبب الشئ، ولا يقال: استتصبت الشئ.
 - ٤ - شاذ في القياس والاستعمال وهو كتميم « مفعول » فيما عينه واو، نحو: ثوب مصوفون^(١).
- ولقد أشار سيبويه إلى الشاذ، ويرى « أن الشواذ في كلامهم كثيرة »^(٢)، وأنه « لا ينبغي لك أن تقس على الشاذ في القياس »^(٣).
- (٤)

ومما يعيز منهج شوقي ضيف في كتاب « المدارس النحوية » هذا الاهتمام الواضح بالشواهد ويراسته لها، وبيان وجهات نظر النحاة حولها، ولإيضاح موضع الشاهد، ونحاول تقديم بعض النصوص الخاصة بها، ونبذل نولاً بهذا العرض للقراءات القرآنية^(٤) الذي قدمه الأستاذ للقراءات في موضع مختلفة من كتابه، ونأخذ الكسانى مثالاً لذلك؛ فهو الذي رأى أن يعاد النظر في التأصيل العام لقواعد النحو، وأن يفسح فيها للقراءات، ومن ذلك الآية الكريمة: « إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِرُونَ وَالنَّصَارَى مَنْ أَمْنَى بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ »^(٥) {المائدة : ٦٩}.

(١) السابق : ١ / ٩٧ - ٩٩ .

(٢) الكتاب : ١ / ٢٧٣ .

(٣) السابق : ١ / ٣٩٨ .

(٤) إن اهتمام د. شوقي ضيف بالقراءات والعرض لها في « المدارس النحوية » امتد بعد ذلك حين حقق « كتاب السبعة في القراءات » لابن مجاهد تحقيقاً علمياً ممتازاً، وأصدره سنة ١٩٧٢ .

فقد لاحظ أن كلمة (والصابئون) عطفت بالرفع على اسم (إن) المنصوب قبل تمام الخبر ، وهو (من أمن بالله واليوم الآخر) فوضع قاعده عامة : أنه يجوز العطف على موضع (إن) واسمها ، وموضعهما الابتداء ، وهو مرفوع ، قبل مجيء الخبر ، فيقال : إن محمدًا وعلى مسافران . ومنع ذلك البصريون ، وأجابوا عن الآية بجوابين : أحدهما أن خبر (إن) محنوف تقديره مأجورون أو أمنون أو فرحون ، و (الصابئون) مبتدأ وما بعده خبر ، واستشهدوا لذلك بقول بعض الشعراء :

خليلٌ هَلْ طُبٌ فِيَّ وَأَنْثَمَا وإن لم تُبُو حَّا بِالْهُوَى دَنْفَان

أى : فإنني دتف كما تدل على ذلك بقية العبارة . والجواب الثاني أن الخبر المذكور في الآية خبر (إن) أما (الصابئون) فخبرها محنوف تقديره كذلك ، واستشهدوا لهذا الجواب بقول ضابئ بن الحارث البرمجي :

فَمَنْ يُكْ أَمْسِي بِالْمَدِينَةِ رَخَلْهُ فِيَّ وَقِيَارِ بِهَا لَغَرِيبٍ
فَهُ غَرِيبٌ » خَبَرٌ « إِنْ » بِدَلِيلٍ دَخُولٍ لَامْ التَوْكِيدِ عَلَيْهِ ، وَخَبَرٌ « قِيَارٌ » مَحْنَفٌ
تَقْدِيرِهِ كَذَلِكَ . وَكَائِنَا أَحْسَنَ الْفَرَاءَ تَلْمِيذَ الْكَسَانِيَ أَنَّ الْبَصَرِيِّينَ مُصَبِّيُّونَ فِي مَوْقِفِهِمْ :
لِعَدْمِ جَرِيَانِ ذَلِكَ عَلَى أَلْسُنَةِ الْعَرَبِ ، فَرَأَى أَنَّ يَتَوَقَّفَ عَنْ دَنْسِ الْآيَةِ ، وَأَنْ يَخْصُّنَ
الْقَاعِدَةَ بِمَا يَمَاثِلُهَا ، فَقَالَ إِنَّهُ لَا يَجُوزُ ذَلِكَ إِلَّا فِيمَا يَظْهُرُ فِيهِ عَمَلٌ » إِنْ « وَهُوَ الْإِسْمُ
الْمُبْنَى مِثْلَ (الَّذِينَ) فِي الْآيَةِ وَضَمِيرُ الْمُتَكَلِّمِ فِي بَيْتِ ضَابِئِ (١) .

واهتمام شوقي ضيف بالقراءات ، إنما هو جزء من اهتمامه بالشواهد القرآنية بصفة عامة ، فقد حفل الكتاب بتلك الشواهد وتحليلها وتوجيه الإعراب الخاص ببعض كلماتها : فابن كيسان (٢٩٩هـ) كان يذهب إلى جواز تقديم الحال على صاحبها المجرور مستدلاً بقوله تعالى : « وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافِةً لِلنَّاسِ ... » {سبأ : ٢٨} بينما كان سيبويه وكثير من البصريين يمنعون ذلك (٢) وخطأ ابن السيد (٥٢١ - ٤٥٥هـ) من

(١) الإنصال : المسألة (٢٢) : والمدارس التحوية : ١٧٧ و ١٧٨ .

(٢) الرضي : ١ - ٨٩ : المدارس التحوية : ٢٥١ .

يعرب (أن) في قوله تعالى : « مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمْرَتُنِي بِهِ أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبِّكُمْ وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتِي كُنْتَ أَنْتَ الرَّقِيبُ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ » (المائدة : ١١٧) [مصدرية ، وهي وما بعدها عطف بيان من الضمير في (به) لأن الضمير لا ينفع ولا يعطف عليه بيان ، إنما هي في الآية تفسيرية للقول على توليه بالأمر ^(١) . ويري ابن الطراوة (٥٢٨هـ) أن (أيًّا) في مثل قوله جل شأنه : « ثُمَّ لَتَرْزَعُنَّ مِنْ كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُ عَلَى الرَّحْمَنِ عِنْهَا » (٦) { مريم : ٦٩ } مبنية لانقطاعها عن الإضافة و (هم أشد) مبتدأ وخبر ، والنهاية يجمعون على أن (أيًّا) إذا اقطعت عن الإضافة أعرتت ^(٧) .

وتوقف أمام الشواهد الشعرية وعرض للخلافات بين النهاة حول توجيه إعراب كلماتها ومعانيها ، وأشار إلى موقف البصريين والكتوبيين من تلك الشواهد ، وما قال به القدماء من أنه « لو سمع الكوفيون بيئتاً واحداً فيه جواز شيء مخالف للأصول جعلوه أصلأً وبيرووا عليه ^(٨) » و « عادة الكوفيين إذا سمعوا لفظاً في شعر أو نادر كلام جعلوه باباً أو فصلاً » ^(٩) .

والاهتمام بأبيات الشعر سواء أكانت شواهد أم لا نجده في الصفحات الأولى من الكتاب : فقد كان ابن أبي إسحاق (١١٧هـ) كثير التعرض للفرزدق لما كان يورد في أشعاره من بعض الشواهد النحوية ، وينكر الرواة أنه حين سمعه ينشد قوله في مدحه لبعض بنى مروان :

وعضُ زمانِ يَابِنَ مَرْوَانَ لَمْ يَدْعَ منَ الْمَالِ إِلَّا مَسْحَنَأَ أوْ مَجْرَفَ
اعترضه لرفعه قافية البيت ، وكان حقها النصب ! لأنها معطوفة كما يتبارى على
كلمة « مسحتاً » المنسوبة ، أو بعبارة أدق : لأن القياس النحوي يحتم ذلك ويوجبه ،

(١) المغني : ٤٩ .

(٢) الصابق : ١٠٩ .

(٣) الاقتراح : ٨٤ .

(٤) الهمع : ٤٥ - ١ .

ويظهر أن الفرزدق قصد إلى الاستثناف حتى لا يحدث في البيت إقاوأ يخالف به حركة الروى في القصيدة^(١) ، وكان يونس بن حبيب (- ١٨٢هـ) يذهب إلى أن الشاعر في قوله :

إِنْ تَرْكِبُوا فَرْكُوبُ الْخَلِيلِ عَادَتْنَا أَوْ تَنْزَلُونَ فَإِنَّا مَغْشَرَ نَزْلٍ
أَرَادَ : أَوْ أَنْتُمْ تَنْزَلُونَ ؛ فعطف الجملة الاسمية على الجملة الشرطية^(٢) .

وقد سأله سيبويه الخليل عن سبب رفع « أو تنزلون » في بيت الأعشى وهي معطوفة على فعل مجروم ، فقال : كأنه تورم أنه قال في أول البيت « أتركبون » فرفع بالضبط كما جاء عند زهير من قوله :

بَدَأْتِي أَنِّي لَسْتُ مَدْرَكَ مَا مَضَى وَلَا سَابِقِ شَيْئًا إِذَا كَانَ جَائِيًّا
فقد عطف « سابق » بالجر على « مدرك » المنصوية ، كأنه تورم أن « مدرك » مجرورة ؛ لأنه يكثر أن يأتي خبر ليس مجروراً ببناء زائدة^(٣) .

ومن هنا فالشواهد عند الخليل هي مدار القاعدة التحوية ، وهي إنما تستتبع من الأمثلة الكثيرة ؛ إذ لابد لها من الاطراد على ألسنة العرب ؛ فإن جاء ما يخالف القاعدة المستتبطة المحكمة كان شاذًا ، ولا يأس بأن يبحث له الخليل عن تأويل^(٤) ؛ ولذلك اهتم العلماء بالشواهد الشعرية في (الكتاب) ، وكان أول من عنى بذلك الجرمي وفي ذلك يقول : « نظرت في كتاب سيبويه : فإذا منه ألف وخمسون بيتاً ؛ فاما الآلف فقد عرفت أسماء قائلتها فاثبتهما . وأما الخمسون فلم أعرف أسماء قائلتها »^(٥) . وعنى بعده كثيرون بشرح هذه الشواهد ، في مقدمتهم المبرد والزجاج والسيرافي ، وكان سيبويه من الثقة بحيث لم يطعن أحد في شيء مما أنشده من الأشعار المجهولة القائل ، ولا علق عليه باهتمام أو إنكار ، وفي ذلك يقول صاحب الخزانة : « الشاهد

(١) المدارس التحوية : ٢٢ .

(٢) المفتني : ٩٠٦ .

(٣) الكتاب : ١ - ٤٢٩ .

(٤) المدارس التحوية : ٤٧ .

(٥) الغزانة : ١ - ١٧٨ .

المجهول ... إن صدر من ثقة يعتمد عليه قبل وإلا فلا : ولهذا كانت أبيات سبيبوه أصح الشواهد ، اعتمد عليها خلف بعد سلف ، مع أن فيها أبياتاً عديدة جهل قائلوها وما عيب بها ناقلها »^(١) .

واهتم شوقي ضيف بالشواهد عند الخالقين من النحاة ، بالإضافة إلى توقفه أمام الشواهد عند الكوفيين : فقد عنيت تلك المدرسة برواية الأشعار القديمة وصنعة دواوين الشعر ، وإن كانت لم تعن بالتحرى والتثبت فيما جمعت من أشعار ، حتى ليقول أبو الطيب اللغوي : « الشعر بالكوفة أكثر وأجمع منه بالبصرة ، ولكن أكثره مصنوع ومنسوب إلى من لم يقله ؛ وذلك بين في دواوينهم »^(٢) .

ويقارن شوقي ضيف بين المدرستين من حيث الاتساع في رواية الأشعار قائلاً : « لعل أهم ما يميز المدرسة الكوفية من المدرسة البصرية اتساعها في رواية الأشعار وعبارات اللغة عن جميع العرب بدوهم وحضرتهم ، بينما كانت المدرسة البصرية تتشدد تشدداً جعل أثمتها لا يثبتون في كتبهم التحوية إلا ما سمعوه من العرب الفصحاء الذين سلمت فصاحتهم من شوائب التحضر وأفاته ، وهم سكان بواي نجد والجaz وتهامة »^(٣) من « قيس وتميم وأسد ؛ فإن هؤلاء الذين عنهم أكثر ما أخذ ومعظمه ، وعليهم اتكل في الغريب وفي الأعراش والتصريف ، ثم هذيل وبعض كنانة وبعض الطائين ، ولم يؤخذ عن غيرهم من سائر قبائلهم ، وبالجملة فإنه لم يؤخذ عن حضرى فقط ، ولا عن سكان البراري من كان يسكن أطراف بلادهم المجاورة لسائر الأمم الذين حولهم »^(٤) .

ولعل الحديث عن الشواهد الشعرية بدفعنا إلى الحديث عن موقف المدرستين من « الضرورة الشعرية » : فقد جوز النحاة في التمييز توسطه بين الفعل ومرفوته ، مثل : « طاب نفساً محمد » ، أما تقدمه على معموله ، مثل : « نفساً طاب محمد » فمعنى

(١) السابق : ١ - ٨ .

(٢) مراتب التحوية : ٧٤ .

(٣) المدارس التحوية : ١٥٩ .

(٤) المزفر : ١ - ٢١١ .

سيبويه وجمهور البصريين وجوزه الكسانى وتبعه فى ذلك المازنى والمبред : لوروده على لسان بعض الشعراء فى قوله :

أَنْهُجُرْ سَلَمِي بِالْفَرَاقِ حَبِيبَهَا
وَاحْتَجَ الْبَصْرِيُّونَ بِأَنَّ ذَلِكَ لَمْ يَرِدْ فِي نَثْرٍ ، وَإِنَّمَا جَاءَ عَلَى لَسَانِ الشَّاعِرِ ضَرُورَةً ،
وَلَا يَحْتَجُ بِالضَّرُورَةِ : لِأَنَّهَا تَبِعُ مَالًا يَبِاعَ «^(١) .

ولكن ليس معنى ذلك رفض البصريين للضرورة على الإطلاق ، إنما يرفضون أن نجد تراكيب نحوية على أمثلتها . قال سيبويه : « وقد يجوز التنصب في الواجب في اضطرار الشعر .. فمما نصب في الشعر اضطراراً قول الشاعر :

سَأَتْرُكُ مَنْزِلِي لِيَنِي تَمَسِّيمٌ
وَالْحَقُّ بِالْحِجَازِ فَأَسْتَرِيحَا
وقال الأعشى ، وأنشداه يونس :

ثَمَتْ لَا تَخْرُزُونَنِي عِنْدَ ذَاكِمٍ
وَلَكِنْ سَيْجَرِينِي إِلَهٌ فَبِعْقَبَا
وهو ضعيف في الكلام «^(٢) .

وتوقف شوقى ضيف أمام الروايات الشاذة لبعض الأشعار ، وأشار إلى نقد النحويين لها . وبيان وجه الصواب فيها : فإن على بن حازم اللحيانى له روایتان شاذتان شنوداً شديداً دارتَا فِي كُتُبِ النَّحْوِ ؛ أَمَّا الْأُولَى فِي روایته أَنَّ مِنَ الْعَرَبِ مَنْ يَجْزِمُ بِـ« أَنْ » النَّاسِيَّةَ لِلْمَضَارِعِ ؛ إِذْ ذَكَرَ بَعْضُ بَنِي صِبَاحَ مِنْ ضَبَّةِ أَنْشَدَهُ قَوْلُ امْرِئِ الْقِيسِ :

إِذَا مَا غَدَوْنَا قَالَ وَلِدَانُ أَهْلِنَا
تَعَالَوْا إِلَى أَنْ يَأْتِنَا الصَّيْدُ نَحْطُبُ
وقول بعض الرجال :

أَحَادِيرُ أَنْ تَعْلَمَ بِهَا فَتَرَدَّهَا
فَتَرَكَهَا ثَقَلَّا عَلَى كَمَا هِيَا

(١) الإنصاف : المسألة (٢٠) : وشرح المفصل : ٢ - ٧٣ .

(٢) الكتاب : ١ - ٤٢٣ ، والمدارس النحوية : ٨٢ .

ويرى البيت الأول « إلى أن يائى الصيد » وإن تسقط رواية الحباني . أما البيت الثاني فقال ابن هشام : فيه نظر : لأن الراجز عطف على الفعل المسكن أفعالاً منصوبة ، مما يدل على أنه مسكن للضرورة لا مجروم .

وأما الرواية الثانية فما ذكره من أنه سمع بعض العرب ينصب بـ « لم » الجازمة مثل « لن » تماماً كقول بعض رجائزهم :

فَيَأْيَّ يَوْمَ مِنَ الْمَوْتِ أَفْسَرُ أَيُّومَ لَمْ يُقْدِرْ أَمْ بِيَوْمٍ قُدْرِ

وكتراة بعض القراء شذنوأ : « أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدَرَكَ (١) » { الشرح : ١ } بفتح الحاء ، وخرج ذلك بعض التحاة على أن الأصل « لم يقدرن » و (ألم نشرحن) ثم حفظت نون التوكيد الخفيفة وبقيت الفتحة بليلأ عليها (٢) . ويعلق الدكتور شوقي ضيف على هذا قائلاً : « وهى على كل حال صيغ شاذة لا يعول عليها فى القواعد المطردة » (٣) .

ويقوينا هذا الحديث عن الشواهد إلى التوقف أمام أمر مهم يتصل بها وهو « السماع » الذى يساعدهم على الاستقرار على التحقيق للقواعد النحوية : لذلك تحدثنا كتب الطبقات ، والترجم عن تلك الرحلات التى قام بها الأوائل من النحويين ، واللغويين ، إلى أعمق نجد ، وبواوى الحجاز ، وتهامة لجمع المادة اللغوية ، من ينابيعها الصافية التى لم تفسدها الحضارة ، وبعبارة أخرى رحلوا إلى القبائل المتبدية المحافظة بملكة اللغة وسليقتها الصحيحة ، وهى قبائل تميم ، وقيس ، وأسد ، وطين ، وهذيل ، وبعض عشائر كنانة ، وأضافوا إلى هذا اليابنوج الأساسى بنوعاً بيورياً زحف إلى بلدتهم من بوادى نجد ، وهو نفر من الأعراب الكاتبين قدم إلى البصرة ، واحترف تعليم شبابها الفصحى السليمة وأشعارها وأخبار أهلها ، وفي « الفهرست » لابن النديم ثبت طويل باسماء هؤلاء المعلمين من الأعراب الذين وتقهم علماء البصرة ، وأخروا عنهم كثيراً من المادة اللغوية ، والنحوية سجلوها فى مصنفاتهم (٤) ، ومن بين تلك المادة اللغوية الشواهد التى عول عليها النحويون كثيراً فى أعمالهم العلمية ، وقد حرص سيبويه على

(١) المغني : ٣٦٥ .

(٢) المدارس النحوية : ١٨٧ .

(٣) المدارس النحوية : ١٩ و ٢٠ .

رواية أكبر قدر منها حين أخذ عن السابقين عليه ، وقدم الأستاذ على النجدى ناصف إحصاء بالرواية عنهم بصفة عامة كما يلى :

الخليل بن أحمد : ٥٢٢ مرة .

يونس بن حبيب : ٢٠٠ مرة .

الأخفش : ٤٧ مرة .

أبو عمرو بن العلاء : ٤٤ مرة .

عيسى بن عمر : ٢٢ مرة .

أبو زيد الانصاري : ٩ مرات .

هارون بن موسى : ٥ مرات .

عبد الله بن أبي إسحق : ٤ مرات .

ويدل هذا الإحصاء على أهمية رواية اللغة بصفة عامة ، والشاهد بصفة خاصة .

(٥)

ومما يميز منهج القدماء فى الدرس النحوى ، وأشار إليه شوقي ضيف ما أسماه «الانتخابات» ، ومعناه أن المدارس النحوية التى أتت بآخرة مثل المدرسة البغدادية ، أو التى نشأت بعد أن استقرت الأسس النحوية على يد مدرستى البصرة والковفة ، قامت على أساس الانتخاب من آراء المدرستين ، يقول : «اتبع نحاة بغداد فى القرن الرابع نهجاً جديداً فى دراساتهم ومصنفاتهم النحوية ، يقوم على الانتخاب من آراء المدرستين البصرية والковفية جميعاً ، وكان من أهم ماهيأ لهذا الاتجاه الجديد أن أوائل هؤلاء النحاة تلمنوا لل McBride وثعلب ، وبذلك نشأ جيل من النحاة يحمل آراء مدرستيهما ، ويعنى بالتعنق فى مصنفات أصحابهما ، والنقوذ من خلال ذلك إلى كثير من الآراء النحوية الجديدة »^(١) .

(١) المدارس النحوية : ٢٤٥ .

ولكن المدرسة البغدادية لم تكتف بالانتخاب ، وإنما كانت لها آراء مستقلة ، متلماً نجد عند أبي على الفارسي ، قال الدكتور شوقي ضيف : « وليس كل ما يشكل بغدادية أبي على أنه كان ينتخب لنفسه من المذهبين الكوفي والبصري ؛ بل يشكلها أيضاً أنه كان يجتهد وينفرد بآراء لم يسبق إليها ، من ذلك أن سيبويه وجمهور البصريين كانوا يذهبون إلى أن العامل في المعطوف هو العامل في المعطوف عليه ؛ فمثلاً : كلام محمدًا وعلياً ، انتصب محمد وعلى جميـعاً بـ « كلام » . وذهب ابن السراج إلى أن حرف العطف هو العامل ، أما أبو على فرأى أن العامل في المعطوف فعل محنوف بعد أداة العطف ؛ لأن الأصل في مثل : كلام محمدًا وعلياً ، كلام محمدًا وكلمت علياً ، فحذف الفعل بعد الواو ؛ لدلالة الأول عليه بدليل أنه يجوز إظهاره ^(١) . وهناك مسائل أخرى كان لأبي على رأية الخاص الذي لم يسبق إليه .

وكان ابن جنى تلميذ أبي على ينتخب لنفسه أيضاً من آراء المدرستين ، ويقول عن البصريين : « أصحابنا » ^(٢) ؛ لأنه كان أكثر ميلاً إليهم ، ومع ذلك فإن له آراء خاصة خالفة فيها البصريين والковيين وأستاذه أبي على ؛ فمن ذلك أنه ذهب إلى أن « إلا » تأتي زائدة مستدلاً بقول ذي الرمة في وصف النون :

حَرَاجِيجُ مَا تَنْفَكُ إِلَّا مُنَاخَةٌ عَلَى الْخَسْفِ أَوْ تَرْمِي بِهَا بَلَدًا قَفْرًا ^(٣)
وكان الجمهور يذهب إلى أن « لا » العاملة عمل « ليس » لا تعمل إلا في التكرارات ، وذهب إلى أنها تعمل أيضاً في المعارف ؛ لقول النابغة :

وَحَلَّتْ سَوادَ الْقَلْبِ لَا أَنَا بَاغِيًّا سِوَاهَا وَلَا عَنْ حُبُّهَا مُتَرَاحِيًّا ^(٤)
وذهب ابن جنى إلى أن « أن » بفتح الهمزة قد تكون ظرفية زمانية ، مستشهدًا بقول بعض الشعراء :

وَتَالَّهِ مَا إِنْ شَهَلَةً أَمْ وَاحِدٍ بِأَوْجَدَ مَنِيْ أَنْ يُهَانْ صَفِيرَهَا ^(٥)

(١) المدارس النحوية : ٢٦٠ و ٢٦١ .

(٢) الخصائص : ١ / ١٢٧ .

(٣) المقني : ١٠٢ .

(٤) السابق : ٣١٦ .

(٥) السابق : ٤٠١ .

ونستمر في التعرف على موقف كبار النحاة من المدرستين ، فنصل إلى ابن هشام الذي كان يختار من المدرستين الكوفية والبغدادية ، وكان يختار لنفسه أيضاً من المدرسة البغدادية والأندلسية ، وما اختاره من آراء أبي على الفارسي أن « حيث » قد تقع مفعولاً به كما في قوله تعالى : « اللَّهُ أَعْلَمُ حِيثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ » { الأنعام : ١٢٤ } ، وافق ابن جنى في أن الجملة قد تبدل من المفرد كقول بعض الشعراء :

إِلَى اللَّهِ أَشْكُو بِالْمَدِينَةِ حَاجَةً
وَبِالشَّامِ أُخْرَى كَيْفَ يَلْتَقِيَانِ
عَلَى تَقْدِيرِ أَنْ جَمْلَةَ الْاسْتِفَاهَمِ « كَيْفَ يَلْتَقِيَانِ » بَدَلَ مِنْ كَلْمَتِي « حَاجَةٌ وَأُخْرَى » :
أَى إِلَى اللَّهِ أَشْكُو حَاجَتِي : تَعْذِيرَ التَّقَاوِهِماً^(١)

وأكثر الأندلسية نوراً في مصنفات ابن هشام ، ابن عصفور وابن مالك وأبي حيان ، وما اختاره من آراء ، الأول أن « لن » قد تأتي للدعاء ، والحجّة في ذلك قول الأعشى :

لَنْ تَزَالُوا كَـنـلـكـمـ ثـمـ لـازـلـ
سـتـ لـكـمـ خـالـدـاـ خـلـودـ الـجـبـالـ
وأن محل الجملة في التعليق النصب ؛ ولذلك يعطى عليها بالنصب مثل « عرفت
من زيد وغير ذلك من الأمور » ، وكان ابن عصفور يستدل بقول كثير :

وَمَا كُنْتُ أَذْرِي قَبْلَ عَزَّةَ مَا الْبَكَا
وَلَا مَوْجِعَاتِ الْقَلْبِ حَتَّى تَوَلَّ
بِنَصْبِ « موجعات » وَعَطَفَهَا عَلَى عِبَارَةِ « مَا الْبَكَا » الَّتِي عَلَقَ عَنْهَا فَعَلَ « أَذْرِي »^(٢) .
أما ابن مالك فهو صاحبه الذي عنى بشرح مصنفاته مثل « التسهيل » و« الألفية » ،
ومن يقرؤه في « أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك » يجده يتابعه في جمهور آرائه ،

(١) المقني : ١٧٧ .

(٢) السابق : ٥٤٦ .

وقلما خالفة ، وقد حكى آراءه أو قل كثيراً منها في كتابه « المغني » ، وتأريخ يوافقه ،
وتأريخ يخالفه^(١) .

وقد أخذت الدراسات التحوية تنشط في مصر نشاطاً واسعاً منذ عصر ابن هشام ؛ كما أخذ يتكاثر واضعوا الشروح والحواشي على مصنفات ابن هشام وأبن مالك ، وأول من نلقاه منهم ابن عقيل (٧٦٩هـ) الذي خالف ابن مالك وانحاز في بعض الآراء لسيبوه والبصريين ، من ذلك ذهاب ابن مالك إلى أن الأسماء الستة معربة بالحروف ، بينما ذهب سيبويه إلى أنها معربة بحركات مقدرة على الواو والألف والياء ، ويرأيه أخذ ابن عقيل ناعتاً بأنه هو الصحيح^(٢) .

ولعله من المفيد أن نشير إلى أن مسألة « الانتخاب » من آراء البصرة والковفة ؛ ثم الأندلس ويغدار عند متاخرى النهاة يرتبط بها الخلافات بين النهاة ؛ لأن هذا الانتخاب يقوم أساساً على الاختلاف في الرأي وعدم الموافقة عليه ؛ فإذا كان ابن جنى - مثلاً - يختار رأياً خاصاً بالkovfien : فهذا يدل على عدم موافقته للبصريين وهكذا ، وقد اتسع الخلاف بين البصريين والkovfien حتى ابن الأنباري (٥٧٧هـ) من المدرسة البغدادية ألف كتاباً مهمًا هو « الإنصاف في مسائل الخلاف » جمع فيه أهم المسائل التي اختلف فيها علماء المدرستين ، وكانت عدة هذه المسائل مائة وإحدى وعشرين مسألة ، وكان ابن الأنباري بصري الهوى ، ولم يستطع التخلص من ذلك ؛ فلم يؤيد الكوفيين إلا في سبع مسائل هي : ١٠١ و ١٢٦ و ١٦٧ و ١٦١ و ١٠٦ .

(٦)

ويعد « التحليل اللغوي » للألفاظ والعبارات والجمل من أسس الدرس التحوي عند القدماء ، وهو أيضاً من معالم منهج « المدارس التحوية » ؛ إذ إن الدكتور شوقي ضيف قد اهتم بالتوقف أمام الجمل والعبارات الافتراضية ، وشرح النصوص التحوية الخاصة بها ، وكشف عما احتوته من تحليلات ، ويتبع بعض الجمل والألفاظ عند النهاة لبيان وجهات نظرهم ، ولم يقتصر على نحوى ثون آخر ، ومن ذلك أن اسم

(١) المدارس التحوية : ٢٥٣ .

(٢) المدارس التحوية : ٢٥٥ و ٢٥٦ .

ال فعل « هلم » مركب من « ها » للتتبّيّه و فعل « لم » أو « لم بنا »؛ ثم كثُر استعمال الصيغة فحذفت الألف من « ها » تخفيفاً؛ لأن اللام بعدها وإن كانت متحرّكة فإنها في حكم الساكنة، وكانتها حذفت لانتقاء الساكنين؛ فصارت « هلم »، وهذا التحليل قاله الخليل؛ أما الفراء فذهب إلى أن أصلها « هل أم » من فعل « أم » أو قصد؛ فحذفت الهمزة بأن أقيمت حركتها على اللام وحذفت؛ فصارت « هلم ». ويعلق الدكتور شوقي ضيف على الرأيين قائلاً: « وتخرّج الخليل أقرب؛ لأنها خلوا من معانى الاستفهام »^(١). ويرى الخليل أن لفظة « مهما » الشرطية أصلها « ما » ثم دخلت عليها « ما » التي تتخل على أخواتها الشرطيات مثل « أيّنما »، واستبعاد التكرار في « ماما » فأبدلت الألف الأولى هاء؛ لأنها من مخرجها وحين اللفظ بها^(٢). ويرى ابن هشام أنها بسيطة لا مركبة من « مه » و « ما » الشرطية، ولا من « ما » الشرطية و « ما » الزائدة؛ ثم أبدلت الهاء من الألف الأولى بفعلاً للتكرار^(٣). ومن ذلك « لن » التي يرى الخليل أنها في الأصل « لا أن »، فحذفت الهمزة تخفيفاً والألف لانتقاء الساكنين، وكانت أصلها بأن حتى يطل لتصبها المضارع، وذهب الفراء إلى أن أصلها « لا » وأبدلت الألف ثوناً فيها على نحو ما أبدلت ميمماً في « لم ». ولا يوافق ابن هشام على ذلك؛ لأن المعروف إنما هو إيدال الثون ألفاً لا العكس نحو: (لنسفعاً) ^(٤) و (ليكونا) ^(٥)، وأما رأى الخليل فلا يجوز أيضاً بدليل جواز تقديم معمولها عليها نحو: « زيد إن أضرّ » خلافاً للأخفش الصغير (-٢١٥-) ^(٦)؛ ويستمر الدكتور شوقي ضيف في التحليل للألفاظ، وبيان وجهات نظر البصريين والkovfien، والتعميل لما يقولون، مع بيان وجهة نظره في بيان أصول تلك الألفاظ^(٧).

وعلى نحو ما اهتم بتحليل الألفاظ، اهتم كذلك بالتحليل النحوى للجمل والعبارات

(١) المدارس النحوية: ٣٧ و ٢٠٢.

(٢) الكتاب: ١ / ٤٣٣.

(٣) المفنى: ٤٣٦.

(٤) الطق: ١٥.

(٥) بيسم: ١٢.

(٦) المفنى: ٣٧٤.

(٧) انظر: المدارس النحوية: ٣٢٠ وما بعدها.

الافتراضية ، وبيان آراء النحاة حول ذلك : فابن عيسى بن عمر الثقفى (١٤٩ - هـ) كان يلطف قوله : « ادخلوا الأول فال الأول » برفع الكلمتين الأخيرتين على تقدير أنهما مرفوعتان بفعل مضارع محنوف تقديره « ليدخل »^(١) . وكأنه لقن تلميذه الخليل النحاة من بعده فكرة تقدير العوامل المحنوفة التي عمومها في كثير من العبارات^(٢) .

وهناك التحليل النحوى للجمل عند الخليل وسيبوه أيضًا : فقد عرض سيبويه لما انجزم بالأمر فى مثل « أنتنى أتك » ، وبالنهي فى مثل : « لا تفعل يكن خيراً لك » ، وبالاستفهام فى مثل : « ألا تنزل تحسب خيراً » ؛ ثم نقل عن الخليل أن كل هذه الصيغ فيها معنى « إن الشرطية » لأن القائل إذا قال « أنتنى أتك » فإن معنى كلامه : إن يكن متلك إتيان أتك ، وهكذا الصيغة التالية^(٣) .

وأشار شوقى ضيف إلى غير الصحيح نحوياً في العبارات والتركيبب عند الخليل وسيبوه ، وتحليل ذلك كما في صيغة التعجب في مثل : ما أحسن عبد الله ؛ فقد ذكر أنه بمنزلة قولك : شيء أحسن عبد الله ، ودخل « ما » معنى التعجب ، ويقول : إنه تمثيل ، ولم يتكلم به العرب^(٤) . ومن ذلك أيضًا قوله : « وأعلم أن ناساً من العرب يقطلون فيقولون : إنهم أجمعون ذاهبون ، وإنك وزيد ذاهبان »^(٥) . وهو بذلك يقرر أن توكيد اسم « إن » والمعطوف عليه ينبغي أن يكونا جميًعاً منصوبين ؛ لأنهما يتبعان منصوبًا^(٦) .

واهتم الدكتور شوقى ضيف بالعرض لما عند الجيل التالى من التحليل النحوى للجمل والعبارات ، وبيان موقفهم من تخريج البصريين والковفيين لذلك ، ونكتفى في هذا الصدد بابن جنى : فقد أخذ بوجهة النظر الكوفية في مسائل مختلفة ، ومن ذلك إعمال « إن » النافية عمل « ليس » متابعاً في ذلك أستاذه أبا على الفارسي ، وإن

(١) الكتاب : ١ / ١٩٩.

(٢) المدارس النحوية : ٣٦.

(٣) السابق : ٣٩.

(٤) الكتاب : ١ / ٣٧.

(٥) الكتاب : ١ / ٢٩٠.

(٦) المدارس النحوية : ٨١ ، وانظر كتابنا : التركيب غير الصحيحة نحوياً في (الكتاب) لسيبوه .

لاحظ أن إعمالها يشوبه غير قليل من الضعف ، يقول تعليقاً على قراءة سعيد بن جبير : «**إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبَادًا أَمْثَالَكُمْ فَادْعُوهُمْ فَلَيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ**» (١٩٤) [الأعراف : ١٩٤] : «ينبغى أن تكون (إن) هذه بمنزلة (ما) فكتنه قال : ما الذين تدعون من دون الله عباداً أمثالكم : فأعمل (إن) النافية إعمال (ما) وفيه ضعف : لأن (إن) هذه لم تختص بنفي الحاضر اختصاصاً (ما) به : فتجرى مجرى «ليس» في العمل » (١) . وكان الكسانى يجيز وجود الفعل بدون فاعل ، على نحو ما أجاز ذلك في مثل : قام وقعد عمرو ؛ إذ ذهب إلى أن «عمراً» فاعل «قعد» و «قام» لا فاعل لها ، وتبعه أبو على الفارسى يحتم ذلك في «قل» حين تتصل بها «ما» ، ويقول ابن جنى : «قلا يقوم زيد ، دخلت فيه ما على قل كافة لها عن عملها ، ومثله : كثر ما وطلاها » (٢) .

(٧)

واهتم شوقى ضيف بالمصطلحات النحوية اهتماماً بالغاً وبين مفهومها لدى الأوائل من النحاة العرب ، وما طرأ عليها من تغيرات ، وما جد من مصطلحات عند متاخرى النحاة بولطه من المقيد أن نشير أولاً إلى أن بعض المصطلحات المتدوالة على الألسنة لم تكن مفهومة لدى الأعراب ؛ فقد روى الجاحظ عن الربيع بن عبد الرحمن السلمى أنه قال : قلت لأعرابي : أتهزم إسرائيل ؟ قال : إنى إذا لرجل سوء . قال : قلت : أفتجر فلسطين ؟ قال : إنى إذا لقوى » (٣) . وقد سمع بعض فصحاء العرب ينشد : نحن بنى علقة الأخيار ؛ فقيل له : لم نصبت بنى ؟ فقال : ما نصبته ؛ وذلك أنه لم يعرف من النصب إلا إسناد الشئ » (٤) .

وقد أشار الدكتور شوقى ضيف إلى دور الخليل وسيبويه فى مجال النحو

(١) المحتسب : ١ / ٢٧٠ .

(٢) الفصلانص : ١ - ١٦٧ و ١٦٨ .

(٣) البيان والتبيين : ٢ - ٢٢٠ .

(٤) الصالحيين : ٢٥ .

والصرف بصفة عامة ، ووضع المصطلحات بصفة خاصة ، قال : « لا ينكر أحد ما لسيبويه من إكمال في العلمين وتميم ، ولكن المهم أن واضع تخطيطهما وراسم لوحتيهما إنما هو الخليل ، يتضح ذلك في محاوراته التي لا تكاد تنتهي مع تلميذه ، والتي تدور فيها مصطلحات التحو والصرف وأبوابها من مثل : المبتدأ والخبر ، وكان وإن وأخواتها ، والأفعال اللاحمة ، والمعدية إلى مفعول به واحد أو مفعولين أو مقاعيل ، والفاعل والمقاعيل على اختلاف صورها ، والحال ، والتمييز ، والتوابع ، والنداء ، والنديبة ، والاستفانة ، والترخيص ، والمعنى من الصرف ، وتصريف الأفعال ، والمقصور والمدحود والمهموز ، والمضمرات ، والمذكر والمؤنث ، والمغرب والمبني ، وهو الذي سمي علامات الإعراب في الأسماء باسم الرفع والنصب والخضن ، وسمى حركات المبنيات باسم الضم والفتح والكسر : أما سكونها فسماه الوقف ، وسمى الكسرة غير المنونة في مثل : مررت بعد الله باسم الجر ؛ كما سمي السكون الذي يقع أواخر الفعل المضارعة المجزومة باسم الجزم »^(١) .

ومن هنا فإن المصطلحات النحوية والصرفية ، التي شاعت في العصر الحالى كان لكتاب سيبويه الفضل الأول في إشاعتها وإذاعتها ، وكأنه لم يترك للنحاة من بعده إلا ما لا خطر له ، كان يميزوا بعض المصطلحات ، أو يضيفوا مصطلحات جديدة لفرض الدقة في التوضيح . ويأتى الدكتور شوقي ضيف بالمصطلحات ويشرحها ويوضحها وبين مفهوم سيبويه لها^(٢) ، وهذا يبين دور البصرة في مجال المصطلح .

وإذا كان الأستاذ قد اهتم بالعرض لمصطلحات البصريين ؛ فإنه اهتم أيضًا بالعرض لمصطلحات الكوفيين وبين أنهم أكثروا من التبديل والتغيير حتى تكون لهم مدرسة مستقلة ، ونجد عرضًا لمصطلحاتهم وما خالفو فيه البصريين . ويعتمد هذا العرض على النصوص ؛ خاصة عند الفراء . وبعد ذلك يقرر الدكتور شوقي ضيف أنها لم تسد في التحو العربي ، وإنما كانت السيادة لمصطلحات البصريين لدقتها المنطقية . وبقية مصطلحات الكوفيين يقصد بها مجرد الخلاف .

(١) المدارس النحوية : ٣٤ و ٣٥

(٢) السابق : ٦١ و ٦٢

* * *

وبعد هذه المحاولة للتعرف على منهج الدكتور شوقي ضيف في كتاب « المدارس النحوية » ، ونشير إلى أن هذا الكتاب حافل بالموضوعات القيمة ، والباحث المفيدة ، وهو يحتاج إلى عدة دراسات تأخذه نبراساً لها ، وتكشف عن مكتوناته ونفائسه ، وحسبى أن يكون بحثي هذا مجرد تحية ، لعالم ، على رأس جيل من أساتذة دارسى اللغة العربية .

أ.د. محمود سليمان ياقوت

أستاذ النحو واللغة

كلية الآداب - جامعة طنطا

١٣ - ذكريات مع الدكتور شوقي ضيف

د . أحمد عبد السنار الجواري

عرفت شوقي ضيف أول ما عرفته مؤلفاً لكتاب معجب قيم ، طار صيته في أوساط الأدباء ، وطلاب الأدب العربي المولعين به وبتاريخه ، ذلك هو كتاب « الفن ومذاهبه في الشعر العربي » . وتعتملته شاياً نشيطاً سريعاً الحركة ، يفيض حيوية ، ويتدفق مرحاً ، ثم كتب الله له أن أجلس بين يديه طالباً في كلية الآداب ، فإذا بي تجاه رجل عليه من وقار العلماء ، سيماء واضحة ، وفيه من شفف بالعلم والتعليم نخيرة يكتنزها في ذهن نشط وفكر جوال ، لم يكن فيه من طباع من كانوا في مثل سنّه ، وفي مثل موقعه ، تلك الخفة وذاك الطيش ، ولكن فيه نشاط الشباب ، وقدرته على العمل الدائب في صبر وفي جلد ، وفيه جد وفيه استقامة وحرص ، حتى إنه لم يكن يهدى من وقت الدرس شيئاً في غير جواب عن سؤال ، أو شرح لمسألة ، يطلب إليه شرحها .

وسررت أيام الدراسة ، وكما تعاقب مدار الزمن ، ازدادت بشوقي حباً وإعجاباً ، ولكنه إعجاب مشوب بشيء من المهابة التي قد تصل إلى الرهبة : لأنّه كان حريصاً على ألا يقتصر من طلبتـه أحداً على أحد ، ولا يخص بعضهم بما يزيد من حقه عليه كأستاذ مرشد موجه .

ثم جمعتنا أبواة ذلك الطور الشامخ ، والعلم الفرد أحمد أمين ، فحصرنا ثلثة أخوين : كبيراً يحتو على أخيه صغير ، يفتح له قلبه ويفسح له في عواطفه ومشاعره ، ويبذل له من جهده العلمي القائم ، ما أعلنته على المرضى في بلوغ ما أراد من درجات علمية .

كل ذلك الود ، وكل تلك الأخوة الصادقة ، كان يزينها جد وحرص ، ووقفت عند

جانب الحق والصدق بلا تسامل ولا مجاملة ، وكانت مقالة الصدق على لسانه حبية
محبية ، لا يضيق بها الصدر ، ولا تذكرها المشاعر .

وظل شوقي ضيف أخ يسر لما يسر به أخيه ، يتقدّم ويتحسّن مكانه من نفسه ،
وامتد ذلك الود ، واتسع مداه حتى بلغ الأسرة الكريمة النحية ، وزاد فيها أن
أم عاصم كانت أختاً وبدوة ، صاحبة الأخوة عميق المودة ، وكان والدها المولى
القاضي والمعلم الجليل أبياً لهذه الأسرة ، يفيض عليها من كريم خلقه وفيض محبت ما
يؤنس ، وما يعلّم النفس راحة وأمناً وطمأنينة ، رحمة الله وأجل له واسع المثوبة والرحمة .

إن في الدكتور شوقي ضيف من مزايا الجد والصدق والحرمن على إتقان العمل
ما لا يعرفه إلا الذين عاشروه وخبروه عن قرب ، وتكلّلوا في صميم نفسه وفي سيره
قلبه متّماً كان من كاتب هذه السطور ؛ ومثل من ذلك أن كان واحداً من أعضاء لجنة
مناقشة في الدكتوراه ، لقد حرم وأصر على أن يتحفني بنتائج دراسته للرسالة ،
جذادات مكتوبة بخطه الجميل المنظم ، وأسلوبه الرشيق ، وأفكاره الهاوية المرشدة
السديدة .

ويشهد الله أن ما كسبت من الجلوس في الدرس بين يديه لا يقل ، بل قد يفوق
ما أخذته عنه أخذًا مباشرًا في جلسات خاصة ، كان يؤثرني فيها بكل طيب في المادة
والمعنى ، وما يزال ولن يزال يأذن الله يواليني من التوجيه الرفيق ، والرأى السديد .

إن شوقي ضيف نخبيرة من علم وخلق وود وصدق ، ودأب على العلم ، أتاه الله
قدرة علمية قل نظيرها في من نعرف في جيلنا هذا ، وهو جدير بكل تكريم وتقدير
وعرفان بالجميل .

أطال الله بقاءه وأقر عينيه بعاصم ورقة ، وأضفى على أسرته الكريمة وقرinette
الفضلى أم عاصم كل خير وعافية وراحة بال .

* * *

أما شوقي العالم الأديب الحق ، فابن ما أخرجه للدارسين والمدرسين وعشاق

الأدب العربي ، واللغة العربية ، هو الذي يدل على مكانه الرفيع بين من كتب وألف ، وحقق ونشر ، وحسبه أنه في هذا العصر ثانى اثنين وضعما في الفكر العربي ، والأدب العربى ما يصح أن يسمى « موسوعات » : أولهما أستاذنا ووالدنا ، أحمد أمين تقدمه الله برحمته ورضوانه ، فإنه قد جمع فنون فى « فجر الإسلام » و « ضحى الإسلام » و « وظاهر الإسلام » ، وعرض الفكر العربي والإسلامى ذلك العرض الذى هوأشبه مما يعرف بالسهل الممتنع ، لأمور دققة عميقة تتوجه بها العصبة أولو القوة .

والثانى هو الأستاذ الدكتور شوقى ضيف ، الذى وضع للأدب العربي وتاريخه موسوعته الجهرة فى تاريخ الأدب العربي بعصوره المتتابعة ، بدءاً بالعصر الجاملى وانتهاء بالعصر الحديث ، عمل لم ينهض به من قبله أحد ، فى مثل هذا الاستيعاب والعرض المبسوط القريب المنال .

أما آثاره فى النحو وإصلاحه فهى مذكورة مشهورة ، ولقد بدأها فيما أعلم بنشر كتاب « الرد على النحا » لابن مضاء القرطبي ، والمقدمة التى افتتح بها نصه المحقق على أحسن وجه درس قيم ، لذلك المذهب الذى مازال دارسو النحو والمحللون تيسيره ، يتزرون منه بزاد قيم .

وكتبه فى المدارس النحوية ، وفى تجديد النحو تشهد له بالغيرة على إنساننا العربى ، وياجتهاده فى إقالة عثرات النحا ، وتسديد مسار هذا العلم الجليل .

وبعد فإن حديثى عن شوقى ضيف ، يزيدنى ولو عما بسيترته الكريمة ، ويذللنى أن أستعيد ما بيننا من مودة ومحبة ، وما أحمله من إكبار وتقدير وإجلال ، وما أشعر به من فخر واعتزاز ، بتلذتلى له وبالأخوة الفالصة الصادقة التزيبة التى تجمع بينه وبين كل من سعد به مثلاً سعدت .

رعاه الله ، وأطال بقامه ، حتى يظل علمًا يهتدى به ، ويستضاء بعلمه وخلقه وكريم سجاياه .

أ.د. أحمد عبدالستار الجوارى

أستاذ النحو العربى

كلية الآداب - جامعة بغداد

١٤ - رحلة نحوية

مع أستاذى الكبير شوقي ضيف

د . مازن المبارك

دأب الدكتور شوقي ضيف في هذه العالم وتواضعه على إخراج كتبه الأنبية عن الفن ومذاهبه في الشعر العربي ، والفن ومذاهبه في التراث العربي ، وسلسلته الذهنية في تاريخ الأدب العربي التي أحاطت بعصوره المختلفة ، فكان لهذه السلسلة من الشهرة والانتشار ، ما لم يكن لغيرها من كتب تاريخ الأدب العربي في العصر الحديث .

ولم يشغله التأليف والبحث في الأدب وتاريخه عن التأليف في البلاغة وتاريخها ، ولا عن البحث والتحقيق في النحو العربي ، فقد حقق في عام ١٩٤٧ كتاب « الرد على النحاة » لابن مضاء القرطبي (ت ٥٩٢) وقدم له بدراسة مسهبة بين فيها أغراضه ، وساق أمثلة نحوية كثيرة طبق فيها عملياً ما دعا إليه ابن مضاء .

ولم يخف الدكتور ضيف حماسته لأفكار ابن مضاء ورغبته في « تجديد النحو » الذي أرق الناس ، وكلفهم من أمرهم عسراً بالتزام فكرة العامل والحاجم عليهم ، واتخانها قاعدة أصيلة في تعليم الأثر النحوي في الكلام ، وما جره ذلك كله من تعقيد على موضوعات النحو وتصنيفها .

وقد تلمنت على الدكتور شوقي ضيف ، حين درست كتابه هذا ، ألقى بهم عن محاضرة على طلاب السنة الثالثة من قسم اللغة العربية بجامعة دمشق - وكانت واحداً منهم - بتكليف من أستاذى سعيد الأفغاني .

وأوفدت إلى مصر لتابعة الدراسات العليا ، وكان الدكتور ضيف واحداً من الأساتذة المحاضرين على طلاب التراخيص العليا ، بجامعة القاهرة ، ثم وضعت تحت إشرافه للتحضير لدرجة الماجستير ، فعملت معه سنوات ، أخرجت فيها كتاب « الإيضاح في علل النحو » للزجاجي (١٣٣٧ م) مع دراسة عن الكتاب وصاحبها ،

وما يتصل باللغة النحوية وتطورها^(١) ، وتفضل أستاذى الدكتور ضيف ، فكتب مقدمة الإيضاح الذى صدر فى القاهرة عام ١٩٥٩ ، وعاد فيها مرة أخرى إلى نقد مسالك النحويين فى التعليم ، ورأى جمهور العلل ضررًا من الفلسفة غير العملية ، وليس دراعها أى طائل نحوى ، ولكنه على إيمانه بأن النحو ينبع أن يمسى على الناشئة ، وأن تخرج منه الطلل المعقده ، كان يرى أن الواجب على المتخصصين أن يعنوا بدراسة النحو فى صورته القديمة ويحيوا آثاره ، ليتبينوا تطوره وما شفع به هذا التطور من جهود عقلية خصبة ، ولن يستطيعوا الأضطلاع بما يربون من تيسير النحو على علم وبصيرة .

واستمرت رحلتى مع أستاذى الدكتور ضيف حين أشرف على وأنا أعد رسالى لنيل درجة الدكتوراه عن الرمانتى النحوى فى خصوه شرحه لكتاب سيبويه^(٢) .

ولقد أخذت فى تلك السنوات المباركة من أدب الدكتور ضيف وخلقه ، وعلمه أىما إفاده ، إذ كنت كثير التردد عليه ، شديد الصلة به ، أجالسه فى بيته ، وأرافقه فى الطريق ، وأحضر مناقشاته لزملائى الكثيرين الذين كانوا يترددون عليه لمعرض أيحائهم ورسائلهم ، وكان يشركى فى الحديث والمناقشة ، ويضفى على من رعايته وحبه ملا أناساه .

وإن من حقه على اليوم أن أنكر ما زالنى حبًا له واعجابًا بخلقه ، جنته مرة على استحياء مستائنًا أن يسمع لى زيارة بعض أعلام النحو واللغة فى مصر ... وكم كنت خائفًا أن يثور ، أو أن يفسر استذانى على غير ما أردت ، فإذا هو يبتسم ، ويقول : يا مازن اذهب إلى من شئت ، وبلغه تحياتى ، وقل له : شوقي أرسلنى إليك لافيد من علمك ، وإن شئت أعطيتك بعض بطاقاتي لتقديما إلى من تزيد منهم .

وبذلك فتح لى أبواباً ، لم أكن لأصل إليها ، فكانت لى جلسات مع ثلاثة من أعلام النحو واللغة رحمهم الله ، وهم الأستاذ إبراهيم مصطفى مصاحب « إحياء النحو » ، والأستاذ الشيخ محمد على النجار عضو مجمع اللغة العربية ، وشقيقه الدكتور

(١) أصدرت ذلك فى ثلاثة كتب ، أحدهما الإيضاح فى عالم النحو ، وثانيها : الزجاجى حياته وآثاره ومنبه ، وثالثها : النحو العربى (بحث فى اللغة النحوية وتطورها)

(٢) صدرت طبعتها الأولى عن جامعة دمشق عام ١٩٦٠ .

عبد الحليم النجار الذى كان يستقبلنى فى جلسة أسبوعية ، لم تنتقطع إلا يوم غادرت القاهرة . وكتت أعود إلى مجلس أستاذى الدكتور ضيف وأناقشة فيما سمعت من أولئك العلماء ، فيصحيح لى الفهم بكثير من السعادة والسرور . وعدت إلى دمشق عام ١٩٦٠ ، وانقطعت الأسباب المالية بيني وبين أستاذى ، وبقيت أسباب روحية تذكرنى به وتشدلى إليه . وعدت إليه فى كتابه عن « المدارس التحوية » الذى صدر عام ١٩٦٨ ، ثم عدت إليه ثانية فى كتابه « تجديد النحو » الذى صدر عام ١٩٨٢ أما « المدارس التحوية » فبحث جامع فى المذاهب التحوية يذكرنا بدراسات الدكتور ضيف فى تاريخ الأدب ، وما يتصف به من شمول فى التاريخ ، وهوء فى العرض ، ووضوح فى الفكرة ، واستقلال فى الرأى .

يُدرِّج الدكتور ضيف فى كتابه مسيرة النحو منذ بداياته الأولى إلى قيام مدارسه ... يتناولها واحدة بعد الأخرى ، ناشرًا تاريخها ، مترجمًا لأبرز أعمالها ، متنهماً فى القرن التاسع للهجرة بجلال الدين السيوطي (ت - ٩١١) .

ولعل أبرز ما يتصف به كتاب « المدارس التحوية » - على كثرة فوائده - أنه كتاب جامع يحيط من تاريخ النحو ، ونشأة مدارسه بما لا يحيط به كتاب آخر من كتب تاريخ النحو ومدارسه ، ويعرف كثيراً من آنمة النحاة ، وأنه هادى الأسلوب ، فلا تبعـع ولا ادعاء ، ولا ثورة ولا عطف ، وأن آراء صاحبه واضحة صريحة ، وأبرز تلك الآراء :

١ - يرجع السبب فى وضع النحو إلى عوامل دينية وقومية عربية واجتماعية وعقلية ، فاما الدينية ففى الحرصن الشديد على أداء نصوص التكـرـ الحـكـيمـ أداءـ فـصـيـحاـ سـلـيـماـ . وأما القومية العربية فـ فى اـعـتـزاـزـ الـعـربـ بـلـفـقـهـ وـخـشـيـتـهـ عـلـيـهـ منـ الـفـسـادـ ، وأما الاجتماعية فـ فى حـاجـةـ الشـعـوبـ الـمـسـتـعـرـةـ إـلـىـ مـنـ يـرـسـمـ لهاـ أـوـضـاعـ الـعـرـبـةـ فـىـ إـعـرـابـهاـ ، وـتـصـرـفـهاـ حـتـىـ تـمـثـلـاـ سـلـيـماـ مـسـتـقـيمـاـ وـتـقـنـ النـطـقـ بـهـ نـطـقـاـ عـلـىـ الـوـجـهـ الصـحـيـحـ ، وأـمـاـ الـعـقـلـيـةـ فـ فىـ رـقـىـ الـعـقـلـ الـعـبـرـىـ وـنـمـوـ طـاقـتـهـ الـذـهـنـيـةـ نـمـواـ أـعـدـهـ لـلـنـهـوـخـ بـرـمـدـ الـظـواـهـرـ الـلـغـوـيـةـ ، وـتـسـجـيلـ الرـسـوـمـ الـنـحـوـيـةـ تـسـجـيـلاـ تـطـرـدـ فـيـ الـقـوـاعـدـ ، وـتـنـتـنـمـ الـأـقـيـسـةـ اـنـتـظـامـاـ هـيـاـ لـنـشـوـهـ الـنـحـوـ وـوـضـعـ قـوـانـيـنـ الـجـامـعـةـ .

- ٢ - إن مبادئ النحو وأولياته تعود إلى جيل ابن أبي إسحاق الحضرمي (ت ١١٧هـ) لا إلى جيل أبي الأسود الدؤلي (ت ٦٩هـ) .
- ٣ - إن النحو وأصوله وقواعدة الأساسية تكون نهائياً على يد سيبويه (ت ١٨٠هـ) وأستاذة الخليل (ت ١٧٠هـ) ، وكأنهما لن يتركا للأجيال التالية سوى خلافات فرعية تتسع وتضيق بحسب المدارس ويحسب النهاة .
- ٤ - إن النشاط النحوي في الكوفة لم يبدأ على يد الرؤاسى (١٨٧هـ) .
- ٥ - معاذ الهراء (ت ١٨٧هـ) لم يضع علم الصرف .
- ٦ - المازنی (ت ٢٤٩هـ) هو الذي فصل علم التصريف عن النحو ، وصنف فيه مصنفات قيمة ، نظم فيها قواعده ومسانده ، وجعله علمًا مستقلًا بذاته ، وأقيسنته ، وتمارينه ، وهو الذي فتح الباب فيه على التمارين غير العملية .
- ٧ - الخليل وسيبوه فتحا باب التمارين غير العملية في النحو .
- ٨ - إن كتاب سيبويه سجل لأصول النحو وقواعدة ولظواهر التعبير العربي التي أتقنها سيبويه فقها وعلمًا وتحليلًا . وجمهور ما يصوره سيبويه في كتابه من أصول النحو والتصريف وقواعدهما إنما هو من صنع أستاذة الخليل ، ولا ننكر ما لسيبوه في العلمين من إكمال وتميم .
- وكتاب سيبويه لا يعلم العربية وقواعدها فحسب ، بل يعلم أيضًا أساليبها وبمقانقها التعبيرية .
- وفيه اتساع في التعليل وكثرة في القياس : لا تعلم النحو والصرف فحسب بل تعلم معهما العقل
- ٩ - إن الخليل بن أحمد (ت ١٧٠هـ) هو المؤسس الحقيقي لمدرسة البصرة خاصة ولعلم النحو هامة ، وإليه تعود نظرية العامل وما يتصل بها من سماع وتعليق وقياس ، وهو نوع عقل ثرى أوى نفقة في الاستنباط تنهل كل من يقف على وضعه لبعضه لبعض الشعر ، ورفعه لتصريح النحو ، ورسمه المنهج الذي ألف عليه « معجم العين » ، واختراعه

لعلامات الضبط (الفتحة والضمة والكسرة) التي لا نزال نستعملها ، وفضله في وضع قوانين الإعلال واللقب ، وامتيازه بحسن لغوى يقيق مكنته من فقه لغة العرب وأسرارها وبمقانق عبارتها .

١٠ - إن المدرسة البصرية هي التي وضعـت أصول النحو العربي وقواعدـه ، وأرست بنـيانـه الذي ما زال عامـراً إلى الـيـومـ بـذـكـرـ ما يـتـصـفـ بـهـ العـقـلـ الـبـصـرـيـ من دقة وعمق واستعداد ، لـتـسـجـيلـ الـظـواـهـرـ النـحـوـيـةـ وـوـضـعـ قـوـاعـدـهـ ، مما لم يـتـمـ مـثـلـهـ للـعـقـلـ الـكـوـفـيـ .

١١ - المبرد (ت ٢٨٥هـ) آخر النابهـين من نـحـاةـ المـدـرـسـةـ الـبـصـرـيـةـ ، والـسـيـرـاـفـيـ (ت ٣٦٨هـ) خـاتـمـ تـحـاتـهـ الـمـهـمـيـنـ ، بلـ يـتـنـتـهـيـ مـدـرـسـةـ الـبـصـرـةـ ، وـهـوـ نـحـوـيـ يـتوـسـعـ فـيـ التـعـلـيلـ توـسـعاًـ أـسـعـفـهـ فـيـ عـقـلـهـ الـجـدـلـيـ الـخـصـبـ .

١٢ - إن أبا عمرو بن العلاء (ت ٤١٥هـ) رواية ثقة كثـيرـ السـمـاعـ ، وـهـوـ أـقـرـبـ إـلـىـ أنـيـكـونـ مـنـ الـلـغـوـيـنـ وـالـقـرـاءـ مـنـهـ إـلـىـ أـنـيـكـونـ مـنـ الـنـحـوـيـنـ .

١٣ - أبو الحسن الأخفش (ت ٢١٥هـ) أـكـبـرـ أـنـمـةـ النـحـوـ الـبـصـرـيـ بـعـدـ سـيـبـيـوـيـهـ ، وـهـوـ الـذـيـ فـتـحـ بـابـ الـخـلـافـ عـلـيـهـ ، كـمـاـ فـتـحـ الـبـابـ لـلـغـاتـ الشـاذـةـ وـالـقـرـاءـاتـ الشـاذـةـ ، يـدـافـعـ عـنـهـ وـيـحـتـجـ لـهـ ، وـهـوـ الـمـلـهـمـ الـحـقـيقـيـ لـلـكـسـائـيـ (ت ١٨٩هـ) وـغـيـرـهـ مـنـ أـعـلـامـ الـكـوـفـيـنـ ، وـكـانـ بـعـضـ آرـائـهـ أـسـسـاـ بـنـيـتـ عـلـيـهـ فـيـمـاـ بـعـدـ مـدـرـسـةـ الـكـوـفـةـ ، ثـمـ الـمـادـارـسـ الـمـتـأـخـرـةـ الـمـخـتـلـفـةـ ، فـقـدـ كـانـ حـادـ الـذـكـاءـ ثـاقـبـ الـذـهـنـ ، فـخـالـفـ أـسـتـاذـهـ سـيـبـيـوـيـهـ فـيـ كـثـيرـ مـسـائـلـ وـحـمـلـ ذـلـكـ عـنـهـ الـكـوـفـيـنـ ، وـمـضـواـ يـتـسـعـونـ فـيـهـ ، فـهـوـ بـحـقـ أـسـتـاذـ الـمـدـرـسـةـ الـكـوـفـيـةـ .

١٤ - إـمـامـ الـكـوـفـيـنـ بـحـقـ هـوـ الـفـرـاءـ (ت ٢٠٧هـ) ، وـهـوـ أـوـلـ مـنـ توـسـعـ فـيـ تـخـطـئـةـ بـعـضـ الـعـربـ ، وـعـنـفـ فـيـ إـنـكـارـ الـقـرـاءـاتـ الشـاذـةـ . وـهـوـ الـذـيـ أـعـطـيـ النـحـوـ الـكـوـفـيـ صـيـفـتـهـ النـهـائـيـةـ ، وـلـوـلـهـ لـمـ اـسـتـقـامـ نـحـوـ الـكـوـفـةـ ، وـلـاـ وـضـعـ مـنـهـاجـهـ ، وـلـاـ صـحـتـ حـسـودـهـ ، وـلـاـ فـصـلـتـ مـصـطـلـحـاتـ . وـالـفـرـاءـ هـوـ الـمـلـهـمـ الـحـقـيقـيـ لـمـ جـاءـ بـعـدهـ مـنـ الـبـصـرـيـنـ الـحـلـمـ علىـ بـعـضـ الـقـرـاءـاتـ الشـاذـةـ ، وـهـوـ إـمـامـ الـحـقـيقـيـ لـمـدـرـسـةـ الـكـوـفـةـ ، وـإـنـ كـانـ الـكـسـائـيـ قدـ سـيـقـ فـلـمـ تـكـنـ لـهـ دـقـةـ عـقـلـهـ وـعـمـقـ نـظـرـتـهـ وـحدـةـ ذـهـنـهـ .

١٥ - الكسانى والفراء استحدثا المدرسة الكوفية المتميزة باتساع الرواية ، ويُسطّر
القياس وقبضته ، ووضع بعض المصطلحات . وبهما يبدأ النحو الكوفي : لأنهما هما
الذان رسموا صورته ، ووضعوا أنسسه وأصوله ، وأمداه بحقنها وفطنتها لتكون له
خواصه التي استقل بها عن النحو البصري .

١٦ - ليس صحيحاً ما زعمه « فايل » من أن نحو الكوفة لم تكن له مدرسة
خاصة .

١٧ - لم يكن دافع القراء وأمثاله معنٍ يرثون بعض القراءات - وهي لا تعمو
حرفاً معدودة - الطعن والتقصّن ، إنما كان دافعهم الرغبة الشديدة في التحرّى
والتشبّث .

١٨ - لم يكن ثعلب (٢٩١هـ) نحوياً يستتبع الآراء الجديدة ، وإنما كان شارحاً
لآراء شيخي الكوفة : الكسانى ، والفراء .

١٩ - ابن أجرؤم الصنهاجى (٧٧٣هـ) هو آخر من استظهر آراء المدرسة
الكوفية في مصنفاته .

٢٠ - تميز المدرسة الكوفية بثلاثة طوابع كبيرة :

(أ) طابع الاتساع في الرواية ، بحيث تفتح جميع المسالك للأشعار واللغات
الشاذة .

(ب) طابع الاتساع في القياس ، بحيث يقاس على الشاذ والنادر دون تقيد
بندرته وشققته .

(ج) طابع المخالفة في بعض المصطلحات التحوية ، وما يتصل بها من العوامل .
وهي مدرسة لا تباين المدرسة البصرية في الأركان العامة للنحو ، التي ظلت إلى
اليوم راسخة في النحو العربي ، غير أنها مع اعتمادها لتلك الأركان ، استطاعت أن
تشق لنفسها مذهبًا جديداً في النحو ، له طوابعه ، وله أنسسه ومبادرته .

٢١ - المدرسة البغدادية ذات نهج قويم يقوم على الانتخاب من آراء المدرستين البصرية والковية ، ويفتح الباب للاجتهاد والخلوص إلى الآراء المبتكرة .
والمدرسة البغدادية تضم جيلين من النحاة : الجيل الأول غلب عليه التزعة الكوفية ، وهو الذي كان ابن جنى (-٣٩٢هـ) يعبر عن نحاته باسم « البغداديين » ، ويمثل هذا الجيل ابن كيسان (-٢٩٩هـ) ، وابن شقير (-٢١٧هـ) ، وابن الخطاط (-٣٢٠هـ) .

وأما الجيل الثاني فغلب عليه التزعة البصرية ويمثله الرَّجَاجِي (-٢٢٧هـ) ، والفارسي (-٣٧٧هـ) ، وابن جنى (-٣٩٢هـ) .

٢٢ - الفارسي وابن جنى ببغداديان ينزعان إلى البصرة ، وهذه التزعة هي التي سادت منذ النصف الثاني من القرن الرابع الهجري ، وقد كانوا من أهم الأسباب في شيوعها ، إذ كانوا ينتخبان من المذهبين البصري والكوفي مع نزوع شديد إلى البصريين ، ومع الفسحة وفتح الأبواب على مصاريعها للإجتهاد ، ومخالفة البصريين والkovيين بقدر ما يزيدهما النظر وتسعفهم الحاجة ، وهم أبعد النحاة أثراً فيمن تلامهما ، فقلما ظهر بعدهما نحوى لم ينضو تحت لوانيهما مستظهراً لمنهجهما ، وما أخذوا به نفسيهما من الاختيار الحرّ من آراء المدرستين البصرية والkovية ، وكذلك من آرائهم مع محاولة الإجتهاد والتفوّق إلى استقباط آراء جديدة . وإليهما يرجع نسب النحو البغدادي الذي تسلسل فيمن ظهر بعدهما كالزمخشري (-٥٤٨هـ) ، وأبي البركات الأنباري (-٥٧٧هـ) ، وأبي البقاء العكّري (-٦١٦هـ) ، وابن يعيش الحلبي (-٦٤٢هـ) ، والرضي الاستراباذى (- نحو ٦٨٦هـ) .

٢٣ - ابن جنى هو مؤصل علم التصريف وواضع قوانينه الكلية ، وهو الذي عمل على تثبيت قانوني الاشتقاد الأكبر والتضمين .

٢٤ - ابن جودى بن عثمان ، هو أول نحوى أندلسى بالمعنى الدقيق لهذه الكلمة ، وهو أول من أدخل إلى موطنها كتب النحو الكوفي .

- ٢٥ - لقد اهتمت المدرسة الأندلسية أول أمرها بالنحو الكوفي اقتداء بنحوها الأولى جودى بن عثمان ، ثم التفت إلى النحو البصري في أواخر القرن الثالث للهجرة ، ولا نصل إلى ابن سيده (-٤٥٨هـ) حتى ترى الأندلسين منقسمين في النحو البغدادي انقسامهم في النحو الكوفي والبصري .
- ٢٦ - أخذت المدرسة الأندلسية منذ القرن الخامس الخامس آراء المشارقة من نحاة البصرة والكوفة و بغداد ، مع اجتهاد واسع في الفروع والاستبطاطات وكثرة في التعليقات والاحتجاجات ، وكان أئمّة تلك المدرسة يأتون في كل جيل بما لم يسبقوا إليه من الخواطر والأراء .
- ٢٧ - إن ابن مضاء (-٥٩٢هـ) ، أراد أن يصوغ النحو صياغة جديدة خالية من نظرية العوامل والمعلمات المذكورة ، والمقدرة ، ومن العلل والأقيسة المقدمة .
- ٢٨ - إن ابن مالك (-٦٧٢هـ) هو أكبر أئمّة النحو الأندلسى على الإطلاق ، ثم خلف كثيرون كان أكبيرهم أبو حيان (-٧٤٥هـ) . وقد كان ابن مالك أمّة في الاطلاع على كتب النحاة وأرائهم ، وعلى اللغة والشواهد . وكان أمّة في القراءات ورواية الحديث . وهو أول من استكثّر من رواية الحديث في النحو ، وأراوه مختارة من البصريين والkovيين والبغداديين والأندلسين وما تفرد به . وكان رائده السمع وقد تجنب القياس على الشاذ .
- ٢٩ - عبد الرحمن بن هرمز (-١١٧هـ) من أقدم علماء العربية بمصر . وأما أول نحوى مصرى بالمعنى الدقيق لهذه الكلمة ، فهو ولاد بن محمد التميمي (-٢٦٣هـ) .
- ٣٠ - إن المدرسة المصرية كانت في أول نشأتها شديدة الاقتداء بالمدرسة البصرية ، ثم أخذت منذ القرن الرابع الهجرى تمزح بين آراء البصريين والkovيين ثم البغداديين ، وقد بدأ ازدهارها في العصر الأيوبي ، وتكامل في العصر المملوكي على يد ابن هشام (-٧٦١هـ) .
- ٣١ - المدرسة المصرية مزجت المذهبين البصري والkovي منذ عصر مبكر .

٤٢ - ابن هشام المذكور ، صاحب المغني ، امتاز بملكات عقلية نادرة ، وإحاطة بأراء النحاة الصالحين على اختلاف مدارسهم وأعصارهم ويلداتهم ، وقد أوتي قدرة بارعة على المناقشة ، مع طرافة في التحليل والاستنباط وجمال في العرض والأداء .

٤٣ - السيوطي (٩١١) كان يختار لنفسه من مذاهب التحويين ما يتوجه عنده تعليمه ، وذلك هو نهج المدرسة المصرية التي كانت تخير من الآراء النحوية ما تستقيم حججه ويراهينه .

وينتهي كتاب « المدارس الفحوية » بذكر السيوطي بعد أن يورخ تسعة قرون من تاريخ النحو العربي ، ومدارسه ، وأعلامه ، وبعد أن يستوفى الدكتور شوقي فيه ذكر آرائه المتصلة بتأريخ قضايا تاريخ النحو .

فإذا تجاوزنا « المدارس » إلى « تجديد النحو » ، فقد تجاوزنا تاريخ النحو إلى النحو نفسه ، وطالعتنا الثمرة العملية التي انتهى إليها الدكتور شوقي بعد نصف قرن من الزمن صاحب فيه النحو والتحويين ، دراسة وبحثاً واشرافاً على الرسائل الجامعية ومناقشة لها ، وقد تتبع محاولات التيسير قديمها وحديثها ، حتى انتهى في كتابه إلى اقتراح تصنيف جديد للنحو ينسق فيه أبوابه تسليقاً جديداً ، مستقيداً في تطبيقه من سبقه من القدماء ، والمحديثين ، ومضيقاً إليه ما رأه لازماً لتذليل النحو وتبسيطه ، وتمثل قواعده واستكمال نواصيه ، أملاً في أن يكون الكتاب نهجاً جديداً في ميدان النحو التعليمي ، والتأليف فيه . وهو كتاب جاد جدير ببحث مستقل ودراسة مستفيضة .

على أنه أياً كان الرأي في محاولة الدكتور شوقي تجديد النحو ، وسواء أوافقناه على آرائه التي عرضها فيه كلها أو بعضها أم لم نوافقه ، فالذى لا شك فيه أن « تجديد النحو » عنده ثمرة اجتهاد طويل وعمل نזوب واطلاع واسع ، وإن طابعه فيه الصدق في العمل ، والإخلاص في النية ، والعزم في إنفاذ الرغبة . وقد كان الدكتور شوقي ضيف في دراساته النحوية كما كان في مؤلفاته كافة باحثاً نقاداً ، لا يكتفى بالجمع والعرض أو بالشرد والوصف ، ولكنه يستوعب القيم ليتخذ منه تكأة إلى إبداع الجديد . إن « الجديد » عند الدكتور شوقي ضيف ليس لقيطاً ولا منبتاً ، ولكنه وليد جديد شرعى موصول النسب ، يجمع الطرافة والتلادة معاً .

ويعد : فما عرفت أستاذى الدكتور شوقى ضيف محبًا للمدحى ولكننى عرفته محبًا للوفاء ، وإن من بعض الوفاء أن أقول لهاليوم : هنيئًا لك هذه الثروة الفكرية الضخمة ، التي أودعتها عشرات الكتب التي تفخر بها المكتبة العربية ، وغرستها فى عقول أجيال من الطلاب الذين تخرجوا بك ، وانتشروا فى أرجاء الوطن العربى وجامعاته ، يحييون ما قبسوه منك من خلق وعلم .

وجزاك الله خيرًا كفأء ما ذاع بك من علم ، وما عمّ بك من نفع .

أ.د. مازن المبارك

أستاذ التحوى العربى

كلية الأداب - جامعة دمشق

للأستاذ الدكتور محمود على مكي

لاشك في أن شوقي ضيف يعد من أكثر علماء العربية المعاصرین إحاطة بالثقافة العربية الإسلامية . فهو عالم موسوعي بمعنى الكلمة ، لم يدع فرعاً من فروع الثقافة العربية إلا وكانت له فيه مشاركة جليلة حتى كأنه لم يتخصص إلا فيه . فقد أرخ للأدب العربي منذ العصر الجاهلي حتى عصرنا الحاضر في سلسلة تبلغ عشرة مجلدات تعد أوفى ما كتب في هذا الميدان ، وأرخ للبلاغة العربية في كتابه " البلاغة : تطور وتاريخ " وأرخ لعلم النحو في " المدارس النحوية " ، وكتب في فنون الأدب العربي : النقد ، والمقامة ، والرثاء ، والترجمة الشخصية ، والرحلات ، إلى جانب دراساته عن الفن ومذاهبه في الشعر والنثر العربين ، وحقق العديد من كتب التراث ، ونشر أبحاثاً أخرى كثيرة يستعصي حصرها حتى إنه يعد بحق أغزر المؤلفين إنتاجاً في عصرنا الحاضر .

والبحث الذي نقدمه في تكريم أستاذنا شوقي ضيف يتناول جانباً محدداً مننتاج قلمه الذي لم يدركه الكلل أبداً وهو دراسات الإسلامية التي رأينا أنه يوليها جانباً كبيراً من اهتمامه .

ويبدأ البحث بتمهيد حول تدين شوقي ضيف وعمق إيمانه بالإسلام وقيمه ، وهو ما يرجع لنشأته الأولى في قريته التابعة لمدياط وإلى تأثير والده الذي كان شيئاً أزهرياً الثقافة مما جعله يحفظ القرآن الكريم كله وهو دون العاشرة من عمره . وإذا كان الجهد الأكبر الذي استغرق حياته دائماً ، لاسيما وأنه قام بتدريس التفسير ومذاهب المسلمين فيه منذ أوائل الخمسينيات من هذا القرن . ثم آتى هذا الاهتمام

ثمراته في عدد من الكتب التي تعد من أعظم متجرزاته . وتواليفه في ميدان الإسلامية يمكن تصنيفها في ثلاثة مجالات :

الأول في تفسير القرآن الكريم :

وله فيه كتابان رئيسيان هما :

١ - "تفسير سورة الرحمن وسور قصار" وفيه يتناول إلى جانب سورة الرحمن ثمانى سور قصار هي : الفاتحة والإخلاص والعصر والملك والأعلى والتكوير والماعون والفق ، وفي مقدمة هذا الكتاب يشرح شوقي ضيف منهجه وهو تفسير القرآن جارياً في ذلك على سنن ابن تيمية وتلميذه ابن قيم الجوزية ثم من تلاه من المحدثين مثل الإمام محمد عبده والشيخ محمد عبد الله دراز . وفي تفسير هذه السور القصار يعرض شوقي ضيف المبادئ التي ترتكز عليها العقيدة الإسلامية ، وأما في تفسير سورة الرحمن فإنه يتبع آلاء الله تعالى على خلقه ودعوه الإنسان لقدرته العقلية في تأمل أسرار الكون وقوانينه وصولاً به إلى ضمآن سعادته في الحياة الدنيا والآخرة .

٢ - "الوجيز ، في التفسير :

وهو كتاب أكثر طموحاً من سابقه ، إذ هو تفسير كامل لكتاب الله توحى فيه الإيجاز مع الانتفاع بأهم التفاسير السابقة ، مثل كتب : الطبرى ، والزمخشري ، والفارزى ، والقرطبي ، والبيضاوى ، وابن كثير وكذلك من المفسرين المحدثين ، مثل : إسماعيل حقي ، ومحمد عبده ، ومحمد الطاهر بن عاشور . وأسلوب شوقي ضيف في هذا الكتاب يتسم بالوضوح والسهولة إذ يشرح الآيات شرحاً مبسطاً موجهاً لخاصة القراء وعامتهم ، متوجباً ما حفلت به كتب التفسير المطلولة من مباحث معقدة يُسر فهمها على القارئ المتوسط .

المجال الثاني في تحقيق التراث الإسلامي :

ويندرج في هذا المجال كتابان هما :

١ - كتاب السبعة في القراءات لأبي بكر ابن مجاهد :

ويعد هذا الكتاب من أقدم كتب القراءات وأجلها . وقد رأى مؤلفه ابن مجاهد (المتوفى سنة ٢٢٤) أن القراءات التي تكاثرت حتى بلغت نحو خمسين قراءة قد تفتح باباً لدخول الاضطراب على السنة القراء ، فاستصعبي من هذه القراءات سبعاً لأنها القراء في الأمصار الخمسة : المدينة (نافع بن أبي نعيم) ومكة (ابن كثير) والكوفة (عاصم بن أبي الجود) وحمزة بن حبيب الزيات ، وعلى بن حمزة الكسانى) والبصرة (أبو عمرو بن العلاء) والشام (عبد الله بن عامر اليحصبي) .. وقد قدم شوقى للكتاب بمعندة قيمة تحدث فيها عن المؤلف ومنهجه في اختيار ما ارتضاه من هذه القراءات السبع ووصف النسخ المخطوطة ومنهجه في التحقيق بما عهد فيه من توثيق النص وتحري الدقة الفائقة .

٢ - كتاب الدرر في اختصار المغازي والسير لأبي عمر بن عبد البر القرطبي :

مؤلف هذا الكتاب أبو عمر يوسف بن عبد البر القرطبي (المتوفى سنة ٤٦٣) من أكبر الفقهاء الأندلسيين وكان يوصف بـ " حافظ المغرب " ، وبعد كتابه " الاستيعاب " من أوّلـ الكتب وأوسعتها في تراجم الصحابة . وأما كتابه " الدرر " فقد اختصر فيه سيرة الرسول (عليه الصلاة والسلام) لابن إسحاق برواية ابن هشام إلى جانب كتب أخرى كثيرة . وقد استقاد من هذا الكتاب معاصر مؤلفه ابن حزم في " جواجم السيرة " وابن سيد الناس في كتابه " عيون الأثر " وللكتاب مقدمة تحدث فيها شوقى ضيف عن مؤلفه وقيمة كتابه ووصف مخطوطته وشرح منهجه في التحقيق . وربما كانت الميزة الكبرى في كتاب ابن عبد البر - كما يتضح من مقدمة شوقى ضيف - هي الاختصار الذي قصد إليه المؤلف تأفيلاً ومستبعداً كثيراً مما لعل بسيرة ابن إسحاق من روایات ضعيفة ومن شعر مشكوك في صحته .

المجال الثالث هو كتب الدراسات الإسلامية :

وتدرج تحته ثلاثة كتب هي ثمرة لجهوده السابقة في دراسته للقرآن الكريم والحديث الشريف والسنة النبوية . ونورد فيما يلى نبذة عن كل واحد من هذه الكتب :

١ - عالمية الإسلام :

والمحور الرئيسي لهذا الكتاب هو ما ميز الإسلام من كونه رسالة عالمية موجهة إلى الناس كافة ، وفيها - لو التزموا بها حق الالتزام - سعادتهم في الحياة الدنيا وفي الآخرة ، ثم يتحدث الكاتب عن القيم الإسلامية التي جعلت الناس يدخلون في دين الله أفواجاً والتي كفلت للإسلام هذا الطابع العالمي ومن أسمائها الحرية الدينية التي نصت عليها الآية القرآنية " لا إكراه في الدين " والتعايش مع من ظلوا متمسكين ببياناتهم الأولى ، وعقلانية الإسلام وبعموته إلى الأخذ بأسباب العلم ، ثم دعوته إلى العدالة المطلقة الشاملة لا بين المسلمين بعضهم وبعض فحسب ، بل كذلك مع من يعيشونهم من أصحاب الملل الأخرى ، والمساواة بين جميع البشر على اختلاف أجناسهم ولغاتهم وعقائدهم ، والتسامح والروابط الأسرية ، ثم الدعوة إلى السلوك الخلقي القويم . وقد كان حسن عرض الكتاب لهذه القيم الإسلامية مما أدى إلى ترجمته إلى اللغتين الإنجليزية والفرنسية ، وتجرى الآن ترجمته إلى الإسبانية والألمانية .

٢ - الحضارة الإسلامية من القرآن والسنة :

وهو كتاب اتبع فيه شوقي ضيف منهجاً طريقاً وفق به مباحثه ، إذ افتتح كل مبحث بما يتصل به من آيات الذكر الحكيم ثم من الأحاديث الصحيحة من كتب الصحاح أو السنن ، وبعد ذلك يعرض البحث شارحاً ومفصلاً . والكتاب موزع على أربعة أقسام : الأول في الأسس العقائدية : الوحي إلى رسول الله والقرآن ، والتوحيد ، ومحبة الله لعباده والرسول (عليه الصلة والسلام) ، والإيمان ، والزكاة ، والمع ،

ويلى عرض بعض القيم الإسلامية التي تعد ركائز لحضارة الإسلام ، مثل الشورى ، والاجتهاد ، والتوسط ، والحرية الدينية ، والتسامح ، والعدل ، والعقلانية ، والتفوى ، والتقوية ، والقسم الثاني عرض للأسس الاجتماعية ومنها الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، ونور الوالدين ، وحقوق المرأة ، والإخاء والمساواة ، والعمل ، والصدقة ، والولاء بالعهد والرحمة بالإنسان والحيوان و فعل الخير . والقسم الثالث حول الأسس الأخلاقية للحضارة ومنها الإخلاص ، والصدق ، والتواضع ، والعفاف ، والطم ، والصبر ، والقناعة ، والعمل الصالح . أما القسم الرابع فهو مفرد للمحظورات ويسدا بيان عن الحلال والحرام والحدود بينهما ، ثم بيان لما نهى عنه الإسلام من كبائر ، مثل : الزنا ، والربا ، والخمر ، والميسر ، ولما يرتبط بهذه الكبائر من ردائل ، مثل : الظلم ، والكثير ، وشهادة الزور ، والحسد ، والكذب ، والخداع ، والسب ، والتجسس ، والغيبة ، والشماتة .

وبهذا يقدم لنا الكتاب صورة واضحة دقيقة لما ينبغي أن يقوم عليه التقدم الحضاري من فضائل وقيم وما يجب أن يتتجنبه مما يمكن أن يؤدي إلى التخلف والفساد .

٣ - محمد خاتم المرسلين :

في هذا الكتاب الضخم رؤية جديدة لسيرة رسول الله (صلى الله عليه وسلم) منذ مولاده حتى نهاية حياته . وعلى الرغم من كثرة ما كتب في السيرة النبوية فإن هذه الرؤية الجديدة النابعة من إيمان عميق تحتوى على نظرات والتفقات لم يتتبه لها كثير من المؤلفين السابقين ، تذكر منها رأيه حول زجاج الرسول (عليه الصلاة والسلام) من السيدة عائشة ، إذ بدد شوقي ضيف وهم من زعموا أنها كانت في التاسعة من عمرها حينذاك : فثبتت أنها كانت في نحو العشرين ، وهو وهم تشبت به كثير من المستشرقين الطاغعين على الإسلام ورسوله . ومن هذه النظارات الجديدة ما ذكره في الفصل الذي أفرده للمباحث القرآنية حول وجه من وجوه إعجاز القرآن لم يتتبه إليه الأسلاف ، وهو الشعور بالخشية العميق عند الاستماع إلى آياته أو تلاوتها ، وهو ما صوره

عمر بن الخطاب من الذعر الذي أصابه حينما مر بآسم من أسماء الله عز وجل أثناء تلاوته لبعض الآيات ، واستمر هذا الذعر يكبر في نفسه حتى حدث له هذا الانقلاب من عداوة الرسول (عليه الصلاة والسلام) والإيمان بالله قريش إلى توحيد الله واعتنق دعوة الإسلام . ومن النظارات الجديدة في الكتاب أيضاً تفسيره لما درج كتاب السيرة على تسميته بمفازى الرسول (عليه الصلاة والسلام) ، فقد رأى أن أكثرها لم يكن غزوات بمعنى الكلمة ، وإنما كانت مسيرات لعقد معاهدات وأحلاف بينه وبين القبائل القاطنة بين المدينة ومكة ، وكثير منها يمكن أن يعد مسيرات سلمية لم يلق فيها الرسول حرباً ولا قتالاً .

وقد كان هذا بعض ما جاد به قلم شوقي ضيف من كتب إسلامية تعد منارة متألقة في نتاج هذا العلم الشاهق من أعلام ثقافتنا العربية .

* * *

شوقي ضيف و ، معجزات القرآن ، :

استاذنا الجليل الدكتور شوقي ضيف - مد الله في عمره - يمثل في وسطنا العربي الثقافي والأكاديمي ظاهرة فريدة تستوقف النظر وتستثير العجب والإعجاب . فهو قد جاز من عمره الذي بارك الله له فيه سنته التسعين ، ومع ذلك فإن عطائه لم يتوقف منذ أن نذر نفسه لخدمة العلم على مدى السنوات الستين الماضية ، وكأنه التقدم في السن لم يزده إلا شباباً وحيوية وقدرة فائقة على العمل ، وكأن مرور الزمن يجري في عروق قلبه كل يوم دماء فتية جديدة . لقد عرفناه أستاذًا في الجامعة ، يحاضر في كل فروع العربية على تنوعها واختلافها ، من أدب ونقد وبلاغة ونحو وعلوم إسلامية ، ولكنه إذا تناول كلًا من هذه الفروع لم يتخصص إلا فيه ، وعلى يده تخرجت أجيال متغيرة من تلاميذه يعانون بالذات من سائر أنحاء الوطن العربي وغير العربي ، وظل حتى سنوات قليلة مضت يباشر التدريس في الجامعة تطوعاً و اختياراً . ورأينا

منذ انتخب رئيساً لجمع اللغة العربية يواصل عمله في إدارة هذه المؤسسة وإثرانها ببحوثه في نشاط لا يعرف الكلل ، وعرفناه مؤلفاً يجمع إنتاجه بين الغزارة والتميز ، ويكتفى أن نشير إلى المجلدات العشرة التي أرخ فيها للأدب العربي منذ العصر الجاهلي حتى عصمنا الحاضر ، إلى غير ذلك من كتبه . وهو في كل ذلك ملتزم بما أخذه الله على العلماء من ميثاق بأن ينشروا العلم ولا يكتموه .

وإنما نقول ذلك بمناسبة آخر ما أصدره من مؤلفات ، وهو كتاب "معجزات القرآن" الذي نشرته دار المعارف في أكثر من مائتين وخمسين صفحة . وعنيبة شوقي ضيف بالتأليف في ميدان الإسلامية ليست أمراً جديداً ، وإنما هو اهتمام يرجع إلى سنوات طويلة مضت ، منذ أن كان يدرس في الجامعة تفسير القرآن ومذاهب المسلمين فيه في الخمسينيات من القرن الماضي ، فقد بدأ بكتاب في تفسير سورة الرحمن وعد من السور القصار ، ثم أتبع ذلك بتفسيره "الوجيز" للقرآن كله في أكثر من ألف صفة . وقد كان عمله في خدمة كتاب الله نابعاً من تدين عميق وفك مستثير ، إذ إنه مؤمن بأن الجمع بين هذين الجانبيين هو الذي يمكن تقدم المجتمع الإسلامي المعاصر .

ولم تقف إسلاميات شوقي ضيف عند جده في التفسير ، فقد عنى أيضاً بتحقيق اثنين من أجل كتب التراث الإسلامي ، هما "السبعة" لابن مجاهد في القراءات القرآنية ، و"الدرر في اختصار المغازي والسير" لابن عبد البر التمري الأندلسى ، وهو في سيرة الرسول (صلى الله عليه وسلم) ثم أتبع ذلك بأربعة كتب تعد معالم شرقية في مسيرة شوقي ضيف العلمية ، أولها "عالمة الإسلام" في بيان تعاليم الإسلام بصفتها رسالة موجهة للناس كافة ، تكفل لهم السعادة في الحياة الدنيا وفي الآخرة ، وثانيها "الحضارة الإسلامية من القرآن والسنّة" وفيه يشرح الأسس العقائدية الاجتماعية والأخلاقية للإسلام في صورة واضحة دقيقة لما يقوم عليه التقدم الحضاري من فضائل وقيم في المفهوم الإسلامي ، مستخلصاً ذلك من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية . والكتاب الثالث "محمد خاتم المرسلين" ، وفيه يقدم رؤية جديدة لسيرة الرسول (عليه الصلاة والسلام) ، وهو حاصل بنظارات لم يسبق إليها في تفسير العديد من مواقف الرسول وملامح شخصيته نبياً وقائداً وإنساناً . والكتاب الرابع في دراسة ظاهرة "القسم في القرآن" : أدواته ووظيفته وقيمتها البيانية والجمالية .

* * *

نعود إلى الكتاب الخامس فنجد له يتناول فيه معجزات القرآن . وقد وزعه على سبعة فصول يتراوح كل فصل منها ما بين ثلاثين وأربعين صفحة . ونود أن تتبه هنا إلى الميزان الدقيق الذي يتحكم شوقي ضيف من خلاله في أحجام فصول كتابه وعد صفحاتها ، ثم في تسلسل مسياقات المباحث في الكتاب بصورة منطقية ، بحيث يفضي كل مبحث إلى ما يليه ، حتى كأنك تنتظر منه إلى نهر يجري في يسر وسلامة من منبعه إلى مصبه ، وأخيراً فيما أخذ به نفسه من الإيجاز وتركيز الأفكار ووضوح التعبير عنها حتى لا يسعك أن تحذف منه أو تضيف إليه ، وهذه فضيلة كبرى ندعوك من يدرسون نتاج شوقي ضيف الفكري إلى تأملها واستخلاص العبرة منها ، فهي من قبيل السهل الممتنع الذي يعد نموذجاً جديراً بأن يحتذى فيما يمكن أن نسميه " حسن التأليف " .

والفصل الأول يتناول معجزات كبار الرسل السابقين على الرسالة المحمدية ، وهم : نوح ومعجزته في الفلك الذي نجى به المؤمنين من قومه من الطوفان ، ثم إبراهيم والنار التي قذف به فيها كفار قومه ، فأحالها الله بردًا وسلامًا ، وموسى وعصاه التي استحالت ثعباناً ما ألقاه سحرة فرعون من حبال وعصى تحولت بدورها إلى أفاعٍ وحيّات ، وأخيراً عيسى وكلامه في المهد ثم إبراؤه الأكمه والأبرص وإحياءه الموتى . وحرص المؤلف في الحديث عن هذه الخوارق على بيان الملاعة بين هذه المعجزات والجواز الذى كان يسود مجتمعات مؤلأء الرسل ، وما كان يأخذ بالباباها من ظواهر تعد من العجائب ، مثل السحر في مصر الفرعونية على زمن موسى ، ومن تقدم الطب في عهد عيسى . كما حرص على التنويه بتفاصيل فى ذكر هذه المعجزات كانت مما أضافه القرآن الكريم ولم ترد في الكتب السماوية السابقة في تصوّرها التي وصلت إلينا .

وينتقل المؤلف في الفصل الثاني إلى معجزة محمد (صلى الله عليه وسلم) ، وهي تختلف عن معجزات الرسل السابقين ، فهي ليست خوارق للطبيعة مما قد يثير الانتظار ثم يزول أثرها بعد ذلك . معجزة محمد كانت تتسبق مع رسالة الإسلام التي تكمل الرسائلات السابقة ، وتهدف إلى إصلاح سلوك الفرد وتبشر بسعادة الجماعات

الإنسانية في الحياة الدنيا وفي الآخرة ، ثم إنها تلائم ما بلغته الأمة العربية والأمم المجاورة من رقي عقلي . ولهذا كانت معجزة الإسلام هي القرآن ، وإعجازه كان معنوياً يدعو الإنسان إلى إعمال ما وهبه الله إياه من متنٍ وهو العقل المتبر الذي بوسعي أن يصل إلى التوحيد الخالص والإيمان القادر على تحرير الإنسان من عبودية التقليد وأغلال الخرافات .

ويمضي الفصل الثالث في بيان جانب من جوانب المعجزة القرآنية متمثل في تحديه للعرب بأن يأتوا بسورة من مثل سور القرآن ، فيتناول ما نادى به بعض علماء السلف من القول بـ "الصرفة" ومنهم الناظم والأشعرى وابن حزم . والمقصود بهذه المقوله أن العرب كانوا قادرين - من الناحية النظرية - على الإتيان بما يقارب القرآن في بلاغته لو لا أن الله تعالى سلبهم هذه القدرة وـ "صرفهم" عنها ، وهي مقوله يذكرها شوقي ضيف ويقصد ما احتاج به أصحابها ، ثم يذكر وجهاً ثانياً من الإعجاز ، وهو الإتيان بالغريب . ويضرب على ذلك أمثلة منها تنبؤ القرآن بانتصار المسلمين على قريش في غزوة بدر قبل وقوعها بثماني سنوات ، ومنها إخباره بانتصار الروم على الفرس "في بضع سنتين" ، وكان الفرس في وقت نزول آيات تلك النبوة قد أوقعوا بالروم هزائم فادحة . ومنها أيضاً البشارة بفتح مكة قبل تحققها بستين (*) .

المعجزة القرآنية التي يتحدث عنها الكتاب في الفصل الرابع هي ما أضافه كتاب الله في قصص الرسل السابقين محمد (صلى الله عليه وسلم) مما لم يرد في التوارىخ كما وصلت إلينا في صورتها المحرفة وفي هذه الإضافات أبلغ رد على ما أثاره بعض الطاعنين في الإسلام قديماً وتابعهم عدد من المستشرقين المحدثين في ادعائات حول ما زعموه من أن الرسول (عليه صلوات الله) نقل عن أخبار اليهود وغيرهم ما جاء في القصص القرآني .

(*) يمكن أن نضيف إلى هذه النبوات إخبار القرآن بصير أبي لهب في نار جهنم ، ونحن نعرف أن عدداً من ألد أعداء الرسول انتهت بهم الأمراً إلى اعتناق الإسلام ، بل وحسن إسلامهم ، مثل أبي سفيان بن عبد الحارث عبد المطلب ، ووحشى قاتل حمزة عم الرسول ، وعكرمة بن أبي جهل . ولم ترد في القرآن إدانة لهم كما جاء بشأن أبي لهب ، ولكن القرآن تنبأ ضعفنا بحسن مصيرهم .

والقرآن يدحض هذه المزاعم في العديد من الآيات منها قوله تعالى : « وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا إِفْكٌ افْتِرَاهُ وَأَعْانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ أَخْرَى فَقَدْ جَاءُوكُمْ بِظَلَمًا وَبِنُورًا * وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَبْهَا فَهُنَّ تَمْلَى عَلَيْهِ بَكْرَةً وَأَصْبِلَاهُ * » (سورة الفرقان / ٤-٥) ، بل إننا نجد سير أنبياء بنى إسرائيل المتقدمين كما صورها القرآن أظهر وأنظر بكثير مما ورد في كتاب العهد القديم من مقابح لا تليق بصلحاء الرجال فضلاً عن الأنبياء المرسلين . وقد تتبع شوقي ضيف ما أضافه القرآن في قصص آدم وبونوح وإبراهيم وموسى ويوسف عليهم السلام .

وبالرج الفصل الخامس قضية من أخطر ما يدور حوله الجدل بين العلماء قديماً وحديثاً ، وهي قضية « الإعجاز العلمي في القرآن الكريم » وذلك أن بعض علماء السلف رأوا أن القرآن يتضمن كل صفات العلوم الدينية وغير الدينية ، وذلك من منطلق قوله تعالى « مَا فَرَطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ » (سورة الأنعام / ٢٨) ، فاقبلوا بتلويون آياته ويستخرجون منها معارف طبيعية وطبية ورياضية وفلكلورية وتتابع بعض العلماء المحدثين والمعاصرين هذا الاتجاه ، حتى نسبوا إلى القرآن إشارات لما وصل إليه العلم الحديث من مكتشفات معاصرة . وقد بدأ هذا الاتجاه لدى الإمام الغزالى خصوصاً في كتابه « جواهر القرآن » ، وتابعه على ذلك تلميذه الأندلسى أبو بكر ابن العربي (توفي سنة ٥٤٣) والقاضى عياض المغرى (ت ٥٤٤) ، ثم توسع في ذلك الإمام فخر الدين الرانى (ت ٦٠٦) الذى تحول كتابه « مفاتيح الغيب » إلى موسوعة علمية ، إذ تتبع الإشارات الكونية في القرآن ، فاتخذ منها منطلقًا لما يشبه أن يكون كتاباً كاملاً في الفلك بحسب ما انتهت إليه المعارف الفلكية في أيامه ، وكان يرى في اجتهادات تلك ما يقوى الإيمان ويبثته . ومضى في هذا الاتجاه أيضاً المفسر الأندلسى محمد بن أبي الفضل المرسى (ت ٦٥٥) الذى قال أن القرآن قد جمع علوم الأولين والآخرين ، فإنه احتوى من علوم الأولئك « على الطب والجدل والهيئة - أى الفلك - والهندسة والجبر والمقابلة والنجامة » ، كما أضاف إليها أصول صنائع وألات لم يذكرها أحد غيره .

وأما المفسرون المحدثون فنجد في طليعتهم الشيخ طنطاوى جوهري (ت ١٩٤٠) . وتقسيره الذي ألفه في خمسة وعشرين جزءاً يحمل عنوان « جواهر القرآن » ، في إشارة واضحة إلى اتجاهه الذي يمثل اتجاه الفخر الرانى في الإلحاح على ما سماه

· بداع العلم " مستعيناً بالنظريات الحديثة في الطبيعة والرياضيات وعلوم الحيوان والنبات والفالك والطب والتشريح والسحر والتقويم المفاطيسي .

وشوقي ضيف لا يتردد في إنكار هذا الاتجاه ، وبيان مدى تكلف أصحابه في تأويل الآيات القرآنية ؛ فهو يقول : " وفي الحق أن تفسير الفخر الرازى القديم وتقسير الشيخ طنطاوى جوهري الحديث يقعناعنا بأن التفسير العلمي للقرآن .. يخرجنا من دائرة القرآن إلى مباحث لا تعيينا شيئاً في فهم القرآن وغايته الإلهية الكبرى من هداية البشرية " ، كما أنه " لا يستطيع أن يضيف لنا شيئاً في معرفة أصل الكون وأصل الحياة " .

ويعرض شوقي ضيف بعد ذلك العلماء الذين اعترضوا على هذا الاتجاه " العلمي " في التفسير ، ومنهم الإمام الأندلسي إبراهيم بن موسى الشاطبى (ت ٧٩٠) الذى وصف أصحاب ذلك الاتجاه فى كتابه " المواقف " بأنهم " تجاوزوا الحد فى الدعوة على القرآن ، فأضافوا إليه كل علم يذكر للمتقدمين أو المتأخرین " وهو يوافق الشاطبى على رأيه ، فيقول : إن الخطر فى ربط القرآن بالنظريات والمكتشفات العلمية يخرجه عن هدفه وتوجهه الأساسي ، لاسيما وأن حفائق العلوم قد تتغير من عصر إلى عصر ، صحيح أن من الممكن توجيه بعض آيات القرآن مع معطيات العلوم الحديثة عن حفائق الكون ، غير أنه لا ينبغى التطرف فى هذا التوجيه و " أولى من ذلك أن يوجه الإعجاز العلمي للقرآن توجيهاً آخر أكثر قبولاً ، وهو نقله الأمة العربية من أمة بدوية إلى أمة ذات علم عظيم " .

فالذى لا شك فيه هو أن القرآن فى دعوته المتكررة إلى إعمال العقل وتأمل آيات الله تعالى وحكمته فى خلق الكون واستكشاف مجاهله بعيداً عن الاعتداد بخوارق الطبيعة التى قامت عليها معجزات الرسل السابقين - هو أعظم ما قدمه الإسلام للبشرية ، وهو الذى هيأ للمجتمع الإسلامي أن يكون له مكان الريادة فى تقديم العلوم بمختلف فروعها ، حتى أسلمها إلى النهضة العلمية الحديثة والمعاصرة . (٥)

(٥) ينوه شوقي ضيف هنا - في حرصه على نسبة كل رأى إلى صاحب الفضل فيه - بدراسة واحد من نجباء تلاميذه ، وهو الدكتور حسن نصار الذى نقش أيضاً تلك القضية فى كتابه " الإعجاز العلمي فى القرآن الكريم " (من ١٥٢ - ١٥٣) ورأيه فى هذا الكتاب يتفق مع رأى شوقي ضيف .

ومن الواضح أن رأى شوقي ضيف في هذه القضية قد لا يعجب الكثيرين من مسلمي اليوم الذين يفتون بأجتهادات بعض العلماء المعاصرین من يتناولون إشارات القرآن في الآيات الكونية ، ويتمسون موافقتها لمكتشفات الحديثة ، وهي اجتهادات تشكر لهم بغير شك ، غير أن كتاب الله ليس في حاجة لإثبات حكمته إلى آراء علماء قد يصيرون وقد يخطئون .

ويستكمل مؤلف الكتاب في الفصل السادس حديثه عن هذا المفهوم لما سماه "معجزة القرآن الحضارية" ، وهي أسمى وأوسع بكثير مما ذكرناه حول الإعجاز العلمي فالإسلام تحول بالعرب من قبائل بدوية إلى مجتمع حضاري يقوم على إصلاح حياة الإنسان متدرجًا من الفرد إلى الأسرة إلى الأمة . ورسالته ليست موجهة إلى العرب ، وإنما إلى المجتمع الإنساني بأسره . فالقرآن يحدد بدقة حقوق الفرد وواجباته في مجتمع يدين بالمساواة التامة بين أفراده على اختلاف أجانتفهم وألوانهم ولغاتهم ، بل ويتسع أيضًا لمن يخالفونه في الملة ، فيعتبرهم أهل ذمة ، وهو مجتمع يقوم على الشورى والتكافل الاجتماعي المستمد من تشريع الزكاة ويدين بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وبإقامة العدل ، ويأخذ بحرية العفيدة إذ يقوم على مبدأ واضح صريح : "لا إكراه في الدين" ، وهو في ذلك يختلف عن المجتمعات السابقة التي أنت فيها الاختلافات الدينية والمذهبية إلى ألوان رهيبة من الاضطهاد وسفك الدماء . وهو يدعو إلى مكارم الأخلاق من وفاء بالعقود وأمانة وصدق وإخلاص نصيحة ، وحلم ، وعمل صالح . ولا يفوت شوقي ضيف أن يكرر في هذا الفصل ما سبق أن أشار إليه في الفصل السابق من عقلانية يسندها مبدأ الاجتهاد في الفقه في أحكام الدين والدنيا .

وناتي إلى الفصل السابع الأخير ، وهو حول معجزة القرآن البلاغية . وقد استثمر موضوع الإعجاز البلاغي للقرآن بعناية علماء المسلمين قديمًا وحديثًا حتى إن المؤلفات فيه تستعصى على الحصر ، على أن شوقي ضيف - في ت�خيه الإيجاز - يكتفى بعرض أبيز ما كتب فيه . وهو يبدأ بعرض رأى الجاحظ (ت ٢٥٥) ، وهو أن إعجاز القرآن يرجع إلى نظمه ، أى حسن صياغاته وترابكيه ، ثم ينوه بأراء القاضي المعتزل عبد الجبار بن أحمد (ت ٤١٥) الذي ذهب في كتابه "المفنى" إلى مفهوم مختلف للإعجاز القرآني معتقدً على معيار "الفصاحة" التي يتفضل بها الكلام ، والفصاحة

عند لا تظهر في أفراد الكلام ، وإنما في الكلام كله بالضم على طريقة مخصوصة ، وبكيفية إعراب كل كلمة وحركاتها وموقعها . وعلى أساس رؤية عبد الجبار أقام عبد القاهر الجرجاني (ت ٤٧١) نظريته المشهورة في "دلائل الإعجاز" ، إذ رأى أن السر في إعجاز القرآن يرجع إلى نظمه الذي توخي فيه معانى النحو . وقد كان شوقي ضيف أول من نبه إلى ما يدين به عبد القاهر للقاضي عبد الجبار ، وتلتف كثير من الباحثين التاليين منه هذه الفكرة بغير أن يشيروا إلى سبقة إليها . (وهو سلوك يعد من آفات حياتنا العلمية المعاصرة) .

وعلى كل حال فإنه يظل لعبد القاهر الفضل في تفضيل تلك النظرية التي أصبحت أساساً لنضج علوم البلاغة العربية من معانٍ وبيانٍ وبيعٍ، إذ استمد من آرائه كل من أتى بعده. ولهذا فقد أضاف شوقي ضيف في شرح آرائه التي استكملها عبد القاهر في كتابه الآخر "أسرار البلاغة".

ويختتم المؤلف هذا الفصل بعرض ما كتبه حول الأعجاز القرآني مصطفى صادق الرافعى (ت ١٩٣٨م) ، وهو أولى الكتب المؤلفة فى هذا الموضوع . وفيه يستعرض آراء من تناوله من علماء السلف ، ويثنى على ذلك برؤيته الخاصة التى تقترب فى جملتها من رؤية عبد القاهر الجرجانى فى تحليله لآلفاظ القرآن بدءاً من أصوات الحروف إلى المفردات إلى الجملة ثم الجمل ، والنظر فى روابط الألفاظ والمعانى وطريقه النسق ، ووجوه الحذف ، والإيجاز والتكرار ، والوصل والفصل ، حتى لايمكن أن تجد فى النص القرآنى كلمة يمكن أن تبدأ بغيرها .

إننا حينما نتأمل هذه الصفحات الأخيرة التي أشاد فيها أستاذنا بجهد الرافعي رحمة الله لا يسعنا إلا التقويه بفضيله أخرى له . فشوقى ضيف على الرغم من نقهده المتزن الهدائى لبعض التفاصيل فى كتاب الرافعي فإنه عرف كيف ينصف ذلك العالم المظلوم الذى أخملت ذكره خصومة لبعض أعلام الوسط الأدبى فى أيامه مثل طه حسين والعقاد .

وأمر آخر جدير بالثناء ، هو إخراج الكتاب في الصورة الأنبوية التي أصدرته بها دار المعرف ، وإن كانت قد وقعت فيه بعض الأخطاء المطبعية القليلة التي تنتبه إليها

حتى تدارك في الطبعات التالية :

ومنها أخطاء في بعض التواريخ :

- ص ٥ ، ص ١٦٥ : وفاة الشاطئي سنة ٩٧٠ ، الصواب ٧٩٠ .
- ص ٧١ : وفاة ابن حزم الظاهري سنة ٢٥٦ ، الصواب ٤٥٦ .
- ص ٨٦ : "ليعلما أهل المدينة القرآن ويفقهانهم في الدين" . الصواب "يفقهاهم" .
- ص ١١٦ : "أن - أى إسماعيل - رزق أثنا عشر ولداً" . الصواب "أثني عشر" .
- ص ١٢٦ : فقال لها : "ادعوانه لنقدم له طعاماً" . الصواب "ادعواه" .
- ص ١٣١ : "وانفرج - البحر الأحمر - لهم - ليني إسرائيل - عن طريق عبره من الشاطئ الشرقي في مصر إلى الشاطئ الغربي من سيناء" . الصواب "... من الشاطئ الغربي .. إلى الشاطئ الشرقي" .

* * *

ونحن نهنئ أستاذنا الدكتور شوقي ضيف على هذا الكتاب الجليل ، وندعوه الله أن يجزل عليه ثوابه ، ويكتب له في ميزان حسناته ، إنه سميع مجيب الدعاء .

الأستاذ الدكتور محمود على مكي

كلية الآداب - جامعة القاهرة

د. النعمان القاضى

لم تقتصر مشاركات شوقي ضيف الإسلامية على التصدى للموضوعات الإسلامية الخالصة - تأليفاً وتحقيقاً - كالتفسير والقراءات والمغازي والسير ، وإنما سبق تصدى له لتلك الموضوعات ، ولحقها عناية بارزة بالاتجاه بمختلف دراساته العديدة - على تنوعها - اتجاهًا إسلاميًّا أصيلاً .

ومن ثم كان لزاماً على من يريد تقييم مشاركات عالمنا الجليل الإسلامية ، أن ينظر في سائر أعماله وهو أمر يبدو صعب المثال ، نظراً لخصوصيه وإنتاجه وكثريته وتنوعه ، إذ ظل على مدى أربعين عاماً أو يزيد - ولا يزال أطال الله في عمره - يهب من نفسه بجد وإخلاص وتفان ، حتى أصبح مؤرخ الأدب العربي العتيد ، وأستاذ الدراسات الأدبية الذي يجمع على إمامته كل المشتغلين بالثقافة العربية في جامعتنا ، وفي الجامعات العربية دون منازع ، وصارت كتبه ودراساته المرجع المعتمد عند كل من يتصدى لفرع من فروعها بالدراسة والبحث .

وقد ارتبط شوقي ضيف بالاتجاه الإسلامي النقى منذ يفاعته ، عندما درس فيما قبل الجامعة في الأزهر ، ودار العلوم ، فنهل من المذاهب الإسلامية الصافية فضلاً عن نشأته في بيت علم ودين . وقد وقر في إدراكه منذ ذلك الوقت إن الإسلام هو البلورة التي تكونت من حولها المعارف المختلفة من تلك العلوم المساعدة ، أو الأنوات المعينة من اللغة وعلومها ، والأدب وفنونه ، والبلاغة والقد وفروعهما .

وفي الجامعة أتيح له أن يقف على تلك المحاولات الجديدة ، التي كان يتعاطاها جيل الرواد بمنهج جديد ، بإشراف كوكبة من المستشرقين على اختلاف منازعهم وأغراضهم ونواياهم ، إلا أن هذا المنهج الجديد الذى كان يؤكّد الفصل بين الدرس الأدبي والدين ، كما كان يصطفع الشك وسيلة للمعرفة ولتنقية التراث ، ويقارن بين

الدرس الأدبي ، كما يجب أن يكون في الجامعة ، والدرس الأدبي في الأزهر ودار العلوم ، لم يكن في وجدهانه وفكرة من أن الإسلام هو المتبني الأصيل ، الذي يردد جميع فروع الثقافة العربية مهما اختلفت وتتنوعت .

من هذا المنطق بدأ شوقي ضيف حياته العلمية في الجامعة ، وأخذت أبحاثه تتبع ما بين تاريخ للأدب العربي ، وتحليل لظواهره ، ورصد لتطوره والتجدد فيه ، وتاريخ للعلوم العربية من نقد وبلاغة ونحو ، فضلاً عن أعماله الإسلامية الخالصة في التفسير وعلومه .

وقد تصدى شوقي ضيف في تاريخه للأدب الذي استغرقه سلسلة - لم يتم حلقاتها بعد - لهذا المنهج ، فدحضه ، واستبدل به منهج المحدثين المسلمين في جرح الرواية وتعديلهم ، وصحح بهذا كثيراً من الشعر الجاهلي الذي أنكره المستشرقون من أمثال مرجليوث ، وتولديك ، وبلاشير ، وأضرابهم وتلاميذهم ، وتجرد في كتابه « العصر الجاهلي » لتوثيق أشعار الجahليين الأعلام شاعراً ، وقصيدة قصيدة ، وفقاً لهذا المنهج الإسلامي الذي عاد ببسطه بسطاً مفصلاً في كتابه « البحث الأدبي : طبيعته ، مناهجه ، أصوله ، مصادره » .

وكان قد وجه واحداً من أبرز تلاميذه ، هو الدكتور ناصر الدين الأسد لمعالجة قضية الاتتحال في رسالته للدكتوراه ، فانتهى إلى ما انتهى إليه أستاذه في كتابه الفييس « مصادر الشعر الجاهلي وقيمتها التاريخية » .

وفي الجزء الثاني من موسوعته في تاريخ الأدب « العصر الإسلامي » أكد ما سبق له أن قوله في دراسته المبتكرة عن « التطور والتجدد في الشعر الأمري » من فساد الفكرة التي أشاعها المستشرقون وتلاميذهم من أن الطبقة التي كونها الشعر في عصر بنى أمية ، تشبه تمام الشبه الطبقة الجاهلية ، وإن لم تتحد معها في خصائصها الفنية تمام الاتحاد ، وهي فكرة خبيثة قصد بها إهداه أثر الإسلام في الشعر ، وسلب العرب المسلمين أية قدرة على الإبداع والتطور ، وفقاً لهذه الفكرة فإن العرب استمروا ينظمون شعرهم بعد الفتوح الإسلامية ، وبنزولهم في الأوطان والأقاليم الجديدة خارج الجزيرة العربية على شاكلة ما كان ينظمه أسلافهم ، حتى أرسل الله لهم الموالي في العصر العباسي ، فطوروا لهم صورة شعرهم ، وجددوا في إطارها وخطوطها وألوانها

وقد ناقض شوقى ضيف هذه الفكرة على أساس نظرية جديدة : لا ترى العرب بداعاً بين الأمم والشعوب ، ولا تراهم أحجاراً ينقلون من مكان إلى مكان ، ومن عصر إلى عصر ، ومن طور بداوة إلى طور حضارة دون أن يتاثروا بما يصادفهم من مؤثرات حضارية ، وغير حضارية . فقد تبدل نفسية العربي ، لتبدل الحياة من حوله ووقع تحت مؤثرات دينية ، وحضارية ، لم يكن يعرفها في جاهليته ، وفرق بعيد بين نفسية وثنى ، ونفسية مسلم يؤمن بالله واليوم الآخر ، ويستشعر السعادة فيما يؤديه من تقوى وعبادة ، وفرق بعيد بين عقلية بدوى ، يعيش معيشة بسيطة في الخيام ، لا يخضع لسلطان سوى سلطان القبيلة المحدود ، وعقلية حضرى يعيش فى مسكن مستقر البنيان ، وي الخاضع لضرورات الحياة فى الدول والمدن ، ويختلف إلى دروس العلماء وحلقاتهم فى المساجد .

وفي « العصر الإسلامي » عاد شوقى ضيف ليرجع بأصول هذه التطور والتجدد الذى لحق بالشعر إلى ظهور الإسلام ، الذى كان ثورة فى جميع أقطار الحياة العربية ، وبخاصة فى جوانبها الأدبية ، إذ كانت معجزة معجزة بيانية تمثلت فى القرآن الكريم الذى تحدى به العرب أهل اللسان والبيان فأعجزهم وبهرهم . وكان قد وجه كاتب هذه السطور إلى معالجة القضية فنهض بذلك فى بحثه للماجستير عن « شعر الفتوح الإسلامية فى صدر الإسلام » ، وانتهى إلى نتيجة تكمل ما انتهى إليه أستاذه ويؤكده ، وهى أن الشعر العربى قد بدأ رحلة تطوره ، والتجديد فيه اعتباراً من ظهور الإسلام ، وأن الإسلام لم يقع الشعر ، ولم يصادمه ، ولم يتسبب فى إضعافه كما كان شأناعاً فى بعض البيئات ، بل إن الإسلام أفسح للشعر ، وشجع عليه وأذكى فتوحاته جنوته .

وقد أخذ يرثخ فى « العصر الإسلامي » للحركات السياسية والفكرية والكلامية التى ظهرت فى عصر بنى أمية ، من شيعة ، وخارج ، ومرجئة ، ومعزلة ، وجبرية ، مؤصلاً لها بجميع شعبيها ، وراسداً لأثر الإسلام فيما عبرت به عن مقولاتها شعراً ونثراً ، فرد حاج الكميـت عن الـزيـدية فى هاشـمـيـاتـه ، إلى التـأـثـرـ بالـقـرـآنـ الـكـرـيمـ والـفـقـهـ الإسلامـيـ ، وتجاوزـ شـعـراءـ الفـرقـ إـلـىـ غـيرـهـ بـاحـثـاًـ عـنـ أـثـرـ إـلـاسـلامـ فـيـ شـعـرهـ حيثـ أـرجـعـ غـفـةـ الشـعـراءـ العـذـريـينـ إـلـىـ إـلـامـ ، وـماـ أـحـدـهـ فـيـ نـفـوسـهـ مـنـ تـقـىـ وـرـقةـ وـالتـزـامـ ،

ومن أطرف دراساته التأصيلية دراسته عن الشاعر ذي الرمة الذي كلف بوصف الطبيعة الصحراوية ، فقد عقد له فصلاً في « التطور والتجدد في الشعر الاموي » أرجع فيه كثيراً من خصائصه الفنية إلى التأثر بروح الإسلام ، سواء في مدحه أو هجائه أو وقوفه على الأطلال ، عندما يبكي ، ويستبكي على آثار المسجد الذي كانت تتحذى القبيلة ، وإصراره على ألا يدع فرصة لسهام الصائد ، أو كلابه لتصيد حيوانات الصحراء التي أضمر لها الحب والإشراق نتيجة للإنسانية التي بثها الإسلام في نفسه ، ومن هذا أيضاً تتضح قدرة ذي الرمة على الربط بين الصور المتباude ، وهي قدرة تدل دلالة قاطعة على أنه كان يحس بالكون إحساساً كلّياً لا مكان له ولا زمان ، وما ذلك إلا نتيجة نظرية عميقa في الكون هيئها له الإسلام وكذلك أرجع فن التقىضية الذي ظهر على أيدي الفرزدق وجرير والأخطل إلى أغراض الفخر ، والهجاء ، والمديح القديمة بما جباهما له المجتمع الإسلامي الجديد في ظل الدولة الجديدة .

وفي أجزاء موسوعته لتاريخ الأدب ، التي تناولت العصور الأدبية اللاحقة ، سواء في « العصر العباسي الأول » ، أو « العصر العباسي الثاني » ، أو « عصر الدول والإمارات » كان حريصاً على أن يجعل النشاط الأدبي انعكاساً للثقافة الإسلامية ، وما كان يتناولها من تأثيرات حضارية مختلفة ؛ فارسية في العصر الأول ، وتركية في العصر الثاني ، بل إنه لم يغفل أثر تلك التيارات الفكرية التي امتنزجت بالثقافة ، فاقتربت بالاحتكام إلى العقل في العصر العباسي الأول ، مما أدى إلى سيادة الترجمة الاعتزالي وغلبته على الأدب ، بينما انحسر أثره على الأدب بعد غلبة الاتجاه السنّي منذ عهد الم توكل في العصر العباسي الثاني .

وكان إيمان شوقي ضيف بوحدة الثقافة الإسلامية ، والأدب العربي عاصماً لتاريخه من الانحراف إلى شعاب الإقليمية ، فجاء أنه أرجع كل ما ظهر في بيئته الأندرس العربية من نتاج فني ، وأشكال فنية مستحدثة إلى التأثر بنتائج المشارقة كرده الموشحات إلى المصطبات .

وقد ترجم شوقي ضيف للشعراء والكتاب على اختلاف عصورهم ، واتجاهاتهم في موسوعته تلك وفي غيرها من دراساته ، وكان منهجه في الترجمة لهم يقوم على

التحرى الدقيق لحيواتهم ، والاستقراء الفاحص لشعرهم ونشرهم ، والاحتکام إلى المصادر الأصلية دون أن يأبه لما راج عن بعضهم ، ووسم به من الزندقة والإلحاد والتتكب عن طريق الإسلام القويم ، ونتيجة لهذا المنهج صبح عقيدة أبي العتاهية ، ورد زهذه إلى أصول إسلامية ، ونسب زندقة أبي نواس إلى الظرف ، ودحض ما أشيع عن تلمذة أبي العلاء للتفكير اليوناني ، وأثبتت أنه هبة من هبات الفكر العربي ، وأن زهذه إسلامي تابع فيه الفقهاء المسلمين في فكرة التعبد ، كما أثبتت توسيطه بين القائلين بالجبر والاختيار ، وأنه كان يؤدي الفرائض الدينية وأنه تابع المعتزلة في وجود العدل على الله وتزكيه عن التجسيم ، وأنه كان يؤمن بالملائكة والجن والشياطين ، وأن القول بإنكاره النبوات خطأ وأنه مدح الرسول ﷺ ، وأنكر على الزنادقة الملحدين ، كما أمن بالبعث ويسؤال القبر وبالحساب والعقاب والثواب .

وفي فصل آخر من هذا الكتاب « فصول في الشعر ونقده » ، تحدث عن ابن الفارض ومجاهداته الروحية ، وانتهى إلى أن تصوفه يستمد من المبادئ الإسلامية ، سواء في ذلك زهذه ، ومجاهداته الروحية ، ونسكه وذكره ، وتوكله ، وتوبيته ، ومحبته ، وانماؤه في الله ، وعلمه اللدني ، ومن ثم فإن إمعانه في الزهد لا يتناقض مع تمسكه بالشريعة ، وإن رمزيته الصوفية التي يتضمنها تغنيه بالحب الإلهي ، إنما هي في الموضوع وليس في الكلمات ، وإنه - خلافاً لمن درسوه - مؤمن بوحدة الشهود ، منكر لوحدة الوجود والحلول ، وإنه ينمحى في الحقيقة المحمدية انماءه - في الله .

وفي فصل آخر من نفس الكتاب عقده للبوصيري ، والحقيقة المحمدية في مدائنه النبوية كشف عن أن كرامات المتتصوفة جميعاً ليست إلا قطرات من ينبوع الحقيقة المحمدية الأزلية ، التي ترسّبت في وجدان المسلمين ؛ نتيجة لكون الرسول ﷺ هو المثل الأعلى للإنسان الكامل ، فنوره هو المشاهد في كل نور ، وهو النور الساري في كل الوجود ، إذ علمه لدني ، ومعجزته القرآن ، وخلقه مجاهدة النفس عن هواها ، وهكذا فالروح المحمدي أصل الوجود .

وفي الكتاب ذاته تخصص فصلاً لشوقى ومكانته في الشعر الحديث - فضلاً عن كتاب آخر .. هو « شوقى شاعر العصر الحديث » اهتم فيه بآسلامياته وخص منها مدائنه النبوية بالذكر ، فوقف عند معارضته لبردة البوصيري وإبداعه فيها ، الأمر

الذى دعا الشيخ سليم البشرى شيخ الجامع الأزهر آنذاك ، ليكتب لها شرحاً بنفسه ، وفى تلك القصيدة دافع شوقى عن الإسلام دفاعاً مجيداً ، ناقض فيه ما يردده أعداؤه من أنه انتشر بحد السيف ، إذ إنه فتح بالسيف بعد القلم ، وبعد أن أغياه انحسار الشر سلمنا ، وكيف أن شوقياً ظل يتنفس بهذا اللحن الدينى طوال حياته على نحو ما يلقانا فى قصائدنا ، التى يحيى بها ذكرى رسول الله ﷺ من مثل همزيته المشهورة ، وأنه عبر فى غير قصيدة عن الأخوة الصادقة بين العرب جميعاً مسلمين وموحدين ، وأشاد بال المسيح مراراً ، وببرأة وتعالية من الأمم المسيحية المستعمرة ومظالمها فى الشعوب ، مصوراً ذلك فى قصائد تهز القلوب .

وفي كتابه « دراسات فى الشعر العربي المعاصر » الذى تناول فيه عدداً وفيراً من شعراء وطننا العربى والإسلامى ، أفرد فصلاً للشاعر الإسلامى أحمد محرب وإلياذته الإسلامية أو ما عرف « بديوان مجد الإسلام » ، قرر فيه أن السبب فى عدم وجود ملحم عربية شبيهة بالإلياذة والأوديسا ، المنسوبتين لهوميروس ، لا يرجع إلى أن العرب لم تكن فى تاريخهم حروب هائلة مع الفرس كذى قار ، ومع أنفسهم كالبسوس ، فضلاً عن حروفيهم الإسلامية فى الشرق والغرب ، وكان لهم فيها أبطال لا يقلون شيئاً عن أخيل ، وهكتور فتكاً وشجاعة ، وإنما هو الشاعر العربى الذى لم يتعد غالباً حدود نفسه ، ولم ينشأ أن ينظم سوى أغانياته التى يعبر فيها عن لحظة له هنية ، وأخرى حزينة ، على الرغم من أن شعراء من أمثال ابن عبد ربه الذى نظم فى حروب عبد الرحمن الناصر ، ولسان الدين بن الخطيب الذى نظم التاريخ حتى عصره شرعاً ، فضلاً عن نظم سيرة الرسول ﷺ وقصتها إسرائه ومعراجه شرعاً ، فإن هذا النظم إنما يدور فى إطار المتون ، إذ تحصى فيه المعلومات التاريخية إحصاء ، وتتنظم الحوادث فى أسلاك من الشعر دون أية إضافة لروعه الخيال ، أو تمثيل صحيح لحقائق التاريخ .

وهكذا فإن العربية لم تعرف الشعر القصصى بمعناه الغربى ، وإنما عرفت ضرورياً من نظم التاريخ ، تشبه أن تكون متونة للحفظ والتسميع ، إلى أن اتصلنا بأدبوها وأدبها فى القرن الماضى واطلع شعراوتنا على الملحم الكبيرة عند القوم ، ونقل سليمان البستانى إلياذة هوميروس إلى العربية شرعاً ، فرأى شعراوتنا تحت أعينهم هذا اللون من الشعر القصصى ، وما زال شعراونا يتطلعون إلى مجازاة هذا العمل ،

ومحاكاته حتى نهض أحمد محرم يحقق لهم الأمل المنشود ، فاختار حروب الرسول ﷺ موضوعاً لإليازاته الإسلامية .

بهذا العرض الدقيق قدم أستاذنا الجليل إلإليازة محرم الإسلامية ، إلا أن فرحة بهذا الإنجاز لم يلبس صوت محرم عنده بأصوات أصحاب الملامح ، فقرر بعد عرض إليازة ، وتوضيح سماتها وخصائصها ، أن شاعرنا الإسلامي لا يكتب ملحمة وإنما يكتب أو ينظم سيرة الرسول ﷺ ، وفرق بين نظم السير ، والشعر القصصي : فالأول عمل آلى ، يقرأ الشاعر فيه التاريخ ويحوله شعراً أو نظماً ، وهو لا يعالج حرباً ولا ملحمة بعيتها ، وإنما يتناول مجموعة كبيرة من حروبه يعرضها عرضًا تاريخيًّا صادقاً ، فيكون تاريخًا ولا يكون شعراً ، فإليازة محرم إذن ليست سوى قصائد جمع بعضها إلى بعض ، وتسميتها بـإليازة لن تغير من مدلولها الحقيقي ، فهو اسم لا يطابق مسماه ، لا في الشكل ، ولا في المضمون ، وهي في النهاية ، ليست كما يظن حدثاً جديداً في أدبنا بل هي عمل مسبق !

ويطول بنا الحديث لو تتبعنا الجوانب الإسلامية في أعمال شوقي ضيف الأدبية المختلفة سواء كانت في العصور القديمة أو في العصر الحديث ، فهو معنى بها في تاريخه للأدب ، وفي دراساته لظواهره ، وفنونه ، وأعلامه عنابة منهج واتجاه .

* * *

وقد مكث شوقي ضيف يُدرس القرآن الكريم والحديث النبوى الشريف ، لطلب قسم اللغة العربية وأدابها بكلية الآداب بجامعة القاهرة بضع سنين ، عنى فيها باتجاهات التفسير المتعددة على مر التاريخ ، من تفسير مأثور أو أثرى يقوم على المأثورات المروية ، إلى تفسير عقلى يتجه اتجاهها اعتزالياً ، أو شيعياً ، أو صوفياً ، أو فقهياً تشريعياً ، أو لغوياً نحوياً ، أو بلاغياً بيانياً ، أو علمياً يعنى بتفسير ظواهر الكون .

وفي تلمسه للتفسير الحق كان يستعرض لتلاميذه تلك الاتجاهات على اختلافها راصداً ما يعترها من نقائص : فالتفسيـر المأثور أقـحـمـ عـلـيـهـ كـثـيرـ مـنـ الإـسـرـائـيلـيـاتـ ،

التي تتصل بالحديث عن بدء الخليقة ، وعن قصص بعض الأنبياء من مثل مقدار سفينة نوح ونوع الخشب المصنوعة منه ، وأسماء الطيور التي أحياها الله لإبراهيم الخليل ، والجزء الذي ضرب به القتيل من بقرة بنى إسرائيل ، وأسماء أصحاب الكهف ، وعدتهم وأحوالهم ، إلى غير ذلك مما ينبغي التحرز منه وتنحية عن تفسير الكتاب العزيز .

أما ألوان التفسير الأخرى كتفسير المعتزلة والشيعة والصوفية ، فإن أصحابه يعمدون إلى الاتساع في تفوييل الآيات ، حتى ليعدل به أحياناً إلى دلالات إشارية لا تحتملها الألفاظ ولا يؤديها ظاهرها الصحيح ، إذ يصرفون ألفاظ القرآن عن معانيها الظاهرة ، إلى معانٍ بعيدة تتطابق مع آرائهم ومعتقداتهم ، وهو قد يفسرون القرآن بمعانٍ صحيحة ، غير أن القرآن الكريم لا يتضمنها ، وقد ينزلقون فيحملون بعض الآيات على ما يؤمنون به من حكم العقل على النقل عند المعتزلة مثلاً ، وتقرير حقوق آل البيت في الخلافة كما يفعل الشيعة ، والقول بوحدة الوجود أو وحدة الشهود ، والفناء فيحقيقة الله كما يصنع المتصوفة ، والاستدلال لما يدينون به من الأحكام والقواعد الشرعية كما يفعل الفقهاء ، والاستشهاد على قواعدهم النحوية والصرفية والبيانية إن كانوا من النحاة أو اللغويين أو البلاغيين .

وقد انتهى التفسير أخيراً إلى الخوض في المباحث العلمية والمكتشفات الحديثة ، واتخاذ القرآن الكريم ذريعة لإثبات نظريات علمية في الطبيعة والعلوم الكونية والفلكلية ، وهكذا أصبح التفسير ليس إلا لوناً من ألوان الإسقاط يقوم به المفسر على آيات الكتاب الحكيم حسب اتجاهه وشخصه واهتماماته ، مع أن الذكر الحكيم لم ينزل لبيان قواعد العلوم ولا لتفسير ظواهر الكون ، وما ذكر فيه من خلق السموات والأرض والجبال والأفلاك والكواكب وغيرها إنما يراد به بيان قدرة الله وحكمته ، وأن للوجود خالقاً أعلى يدبّره وينظم قوانينه .

ولا ريب في أن القرآن الكريم يدعو أتباعه دعوة عامة إلى العلم والتعلم للعلوم الرياضية والطبيعية والكونية ، ولكن - كما يقرر شوقي ضيف - هذا شيء ، والتحول بالقرآن إلى كتاب تستنبط منه النظريات العلمية شيء آخر ، لا يتصل برسالته ، ولا بدعوته إنه دين لهداية البشرية ، يزخر بما لا يحصى من قيم روحية واجتماعية

وإنسانية ، بل هو دستور شامل لهداية البشرية وسعادتها في الدنيا والآخرة ، وحسب المفسر أن يعني بيان ما فيه من هذه القيم ومن أصول الدين الحنيف ، وتعاليمه التي أضاعت المغارب والمشارق .

وبهذا الفهم لطبيعة القرآن ووظيفته ، ووظيفة التفسير ، يدفع شوقى ضيف كل هذه الاتجاهات القاصرة عن الوفاء بمهمة التفسير الحقة ، ولا يجد اتجاهًا تفسيرياً قميئاً بهذا سوى تفسير قصار « عن منهجه ابن تيمية في التفسير » ، الذي عرضه لكتابه « سورة الرحمن وسور قصار » عن منهجه ابن تيمية على الإسرائيليات المدسوسة على التفسير موافقاً في ذلك أستاذه الإمام أحمد بن حنبل الذي قال بسببه من ذلك : ثلاثة لا أصل لها : التفسير ، واللاحام ، والمغازى . وقد حمل ابن تيمية على تلك الاتجاهات التفسيرية المنحرفة عن الجادة ، وخلص إلى أن خير طرق التفسير هي تفسير القرآن بالقرآن : إذ أن ما أجمل في موضع جاء مفصلاً في موضع آخر ، وما ذكر موجزاً في آية جاء مفصلاً في آية أخرى ، وإن لم يف القرآن الكريم أحياناً بالمراد ، رجع المفسر إلى الحديث النبوى ، فإن الرسول ﷺ ، فسر آيات القرآن الكريم كما يشهد لذلك قوله تعالى شأنه : (وأنزلنا إليكَ الذكر لتbin للناس ما نزل إليهم) . ويضم المفسر إلى ذلك أقوال الصحابة الذين رافقوا الرسول ﷺ ، وفهموا عنه التنزيل ، وكذلك أقوال التابعين الذين خالطوهם ووقفوا منهم على معانى القرآن الكريم . ولا يقتصر ابن تيمية على ذلك وإنما يفتح الأبواب أمام المفسر ، ليجتهد ويستنبط ، ولكن بعد أن يكون قد استوفى العدة لذلك باستيعابه للذكر الحكيم ، وأياته ومعانيه المقابلة ، ولأقوال الرسول والصحابة والتابعين فيه ، وبعد أن يتقن العربية ، ويتعمق في علوم الشريعة ، وبعد علمه الدقيق بدلاليات القرآن وتبنقه لخصائصه البينية الرائعة ، وقد طبق ابن تيمية منهجه هذا على بعض سور القرآن الكريم ، وهي سورة النور وبعض سور قصار السور من جزء عم ، كما خص سورتى المعوذتين برسالة مستقلة ، وأفرد كتاباً لسورة التوحيد أو الإخلاص .

ويتحول تفسير كل آية من سور هذه آيات هذه السور عند ابن تيمية إلى البحث في مضمونها من خلال القرآن كله وهكذا ، وقد تبعه في منهجه تلميذه ابن قيم الجوزية في

كتابه « التبيان في أقسام القرآن » وفي تفسيره للمعوذتين ، حتى إذا جاء العصر الحديث اقتفي أثرهما الإمام محمد عبد الله فحاول على هدى قرائته لهما أن يعرض لنا تفسيراً دقيقاً بدليلاً لجزء عم ، خلصه من كل الشوائب العقائدية والإسرائييليات ، ورفض فيه البدع والخرافات ، واهتم بفهم معانى القرآن وما دعا إليه من الارتفاع بالروح عن طريق التهذيب الخلقى القويم ، والنهوض بالمجتمع عن طريق توثيق التعاون والتكافل بين الأفراد ، مع تقديم كافة الأسباب التي تحقق الكمال الفكري والروحي والاجتماعي الذى يطمح إليه الإنسان الحق .

هذه مصادر شوقي ضيف فى منهجه التفسيري . ولستنا نعلم - فيما نعلم - أحداً من المفسرين ودارسى علوم القرآن فى عصرنا الحديث ، احتذى الشيخ الإمام فى منهجه التفسيري سوى رجلين أتيح لهما ما اشترطه ابن تيمية من عدة المفسر ، وهما المغفور له الشيخ العلامة الدكتور محمد عبد الله دراز ، كما يبين ذلك من دراساته العديدة عن القرآن الكريم ، كتابه « مدخل إلى القرآن الكريم » وبخاصة كتابه « النبأ العظيم » الذى حاول فيه محاولة مبتكرة فى دعم سياق السورة فى القرآن ، وخصص محاولته تلك بسورة البقرة ، أما الرجل الثانى فهو شوقي ضيف الذى ضمن تطبيقه لنهجه التفسيري فى محاولته البارعة لتفسير سورة الرحمن وسور قصار .

وقد بدأت قصة هذه المحاولة عندما دعته صحفة الأهرام فى عام ١٩٧٠ ، إلى المشاركة فى الاحتفال بشهر رمضان المبارك لعام ١٣٨٩هـ ببعض أحاديث دينية فرأى أن تكون مشاركته بعرض تفسير لبعض قصص السور ، يتناول من خلال آياتها مضمون تلك الآيات فى سائر أى الذكر الحكيم ، فنشر له عرض لسور الفاتحة والتوحيد والعصر ، وقد وقع هذا العرض موقع استحسان من كثير من القراء ، الذين كتبوا إليه بأن يمضى فى عرض سور أخرى ، وتفسيرها على نفس المنهج ، واستحوثه نفر من تلاميذه وأصدقائه أن يعرض لسوره النعم الدينية والأخروية وخاصة ، وهى سورة الرحمن .

وقد نهض بهذا العمل وأضاف إليه تفسيره لسور الفاتحة والتوحيد ، والعصر التى نشرت بالأهرام ، وزاد عليها تفسيره لسور الملك والأعلى والكثير والملائكة والفقير ، وهكذا جمع تسع سور ، تتضمن فى طياتها أصول العقيدة الإسلامية ومبادئ الإسلام الخلقة ، والاجتماعية بسطها جميعاً من خلال آيات الذكر الحكيم كله .

فهو يعمد إلى الآية ، فيتخذ منها محوراً يهديه إلى مضمونها العام في سائر القرآن ، ومن ثم فإننا لا نبعد إذا قلنا إن تفسيره لسورة الرحمن ولتلك السور القصار ، يغنى عن تفسيره لبقية القرآن الكريم ، إذ استطاع - بهذا المنهج الموضوعي - أن يعرض من خلالها لقضايا عديدة كتوحيد الله ، وتعظيمه ، وتنزيهه ، وجلاله ، ورحمته ، وألائه في الدنيا والآخرة ، ولرسالات الله ولرسله ولملائكته وكتبه ، ول الجن والشياطين ، ولماهية الحياة الدنيا والحياة الآخرة ، وللثواب والعقاب ، كما عرض لقضايا التعذيب الروحي والخلقي ، وللعلاقات الاجتماعية المختلفة ، ولتحرير الإنسان من الهوى والخرافة ، والآثام ، ولاستغلال الإنسان لعقله وكشفه لأسرار الكون وقوانينه ، وإيقاظ مشاعره ووجданه والسمو به إلى الكمال الإنساني المنشود ، ويضيق بنا المقام عن التمثيل لذلك العمل العظيم .

* * *

وكثير من آثار اهتمامه بالتفسير ، وعلوم القرآن تطرقت جهود شوقي ضيف الإسلامية إلى علم القراءات ، ذلك العلم الدقيق الذي يحكم تلاوة القرآن وترتيله وتفسيره وتؤويله ، والعمل بأحكامه ، ومعلوم أن رسول الله ﷺ ، كان يتلو آيات الكتاب الحكيم على صحابته فور نزولها ويقوم بتفسيرها لهم ، ثم يقومون بعد فهمها بحفظها وتلاؤتها ، في الصلوات ومختلف العبادات ، وقد يكتبها بعضهم ، فكان منهم - رضوان الله عليهم - من حفظ القرآن كله ، ومن حفظ أكثره ، ومنهم من حفظ بعضه ، ومعلوم أيضاً أنه صلوات الله عليه ، كان يتلوه باللهجات المختلفة للقبائل تيسيراً عليهم وتخفيفاً ، ونتيجة لذلك كانت قراءة الصحابة للقرآن تختلف من قبيلة لأخرى ، حتى أنكر عمر ذلك على بعضهم ، فقال ﷺ : « إن هذا القرآن أنزل على سبعة أحرف ، فاقرعوا ما تيسر منه » . وهو لا يريد بالسبعة عدداً معيناً ، إنما يريد كثرة الحروف واللهجات التي نزل بها تسهيلاً على العرب أن ينطقوا من كلماته واللهجاتهم ، ما لا يمكنهم أن ينطقوه بلغة قريش ولهجتها الخاصة .

ولما انتقل رسول الله ﷺ إلى الرفيق الأعلى ، واستمر القتل في حرب الردة بالقراء ، وافق أبو بكر على اقتراح عمر - رضي الله عنهما - بكتابة القرآن في مصحف واحد ، فجمع الحفظة المتقدن برئاسة زيد بن ثابت ، وأحضروا كل من كتبه بين يدي الرسول ﷺ وباملائته ، وأمر أبو بكر زيداً بأن يكتب القرآن كله على الترتيب الذي تلقاه هو ومن معه عن الرسول بنفس الألفاظ والحروف ، والصورة التي تدارس فيها الرسول القرآن مع جبريل بعد تمامه في العرضة الأخيرة .

وهكذا كتب القرآن الكريم في قطع الجلد ، وظلت صحفه عند الخليفة الأول ، ثم ألت إلى عمر وانتهى بها المطاف إلى أبنته أم المؤمنين حفصة .

وقد ظل الناس يقرعن القرآن ويقرئون بعضهم بعضاً بالحروف ، التي تلقواها عن الرسول ﷺ أو عن الحفظة المتقدن من الصحابة . وكان هؤلاء يختلفون في بعض الآراء حسب سمعائهم من الرسول ﷺ ، وتفرق المسلمون في الأمصار مع الفتوح فاشتد هذا الخلاف في الأداء واتسع ، إلى أن لوحظ بشكل واضح ومفزע في غزو آذربيجان وأرمينية إذ اجتمع أهل الشام والعراق فيه ، واستمع بعضهم إلى بعض ، فوجعوا وجوهاً من الخلاف في القراءة فتنازعوا ، حتى كاد يكفر بعضهم ببعض ، حذيفة بن اليمان - وكان حاضراً - إلى الخليفة عثمان ليدرك الأمة قبل أن يختلفوا اختلاف اليهود والنصارى ، فأرسل عثمان لتوه إلى السيدة حفصة أن أرسل إلينا بصحف القرآن ننسخها ونردها إليك بعد ذلك ، فأرسلتها إليه ، فأمر زيد بن ثابت أن ينسخها في المصاحف ، وعين له مساعدين في مهمته وأوصاهما بأن يكتبوا ما اختلفوا فيه بلسان قريش ، فكتبوا ثمانية مصاحف ، وجه بمصحف منها إلى البصرة ، وبآخر إلى الكوفة ، وبثالث إلى الشام ، ورابع إلى مكة ، وبخامس إلى اليمان ، ويسادس إلى البحرين ، وترك مصحفاً بالمدينة ، وأمسك لنفسه آخر سمي بالإمام ، وأمر بإحراق ما دون تلك المصاحف ، حتى لا يدع فرصة لأى خلاف ممكناً ، وشدد على القراء في كل الأمصار بأن يتمسكون بتلك المصاحف يقرئون الناس على حروفها ، وقد استجاب الناس لندائه وحرصوا عليه ، وعلى الرغم من هذا فإن الأساس في تلارة القرآن ، لم يتحول يوماً إلى الاعتماد على المصحف المكتوب ، وظل الاعتماد على الرواية بالسند الصحيح المتواتر عن رسول الله ﷺ إلى صاحبته وإلى التابعين ، وهكذا جيلاً بعد

جيل يتجرد المسلمين في جميع الأنصار لتلاؤ القرآن ، وضيبيط تلاؤه ، والعنابة بها ، وبيتقيها الشفوي المروي بالتواتر ، وهكذا صارت قراءة القرآن سنة يتبع فيها الخالف السالف .

ولما كان مصحف عثمان يخلو من النقط والشكل فإنه استوعب جميع القراءات التواترة عن الرسول ﷺ ، ولا يعني هذا أن تلك القراءات ترجع إلى طبيعة خط المصحف العثماني المجرد من الإعجام والشكل ، وإنما يعني أن القراءات ليست إلا روايات نقلت بالتواتر عنه ﷺ ، وليس اجتهاداً في قراءة خط المصحف العثماني ، ومعنى هذا أيضاً أن القراءات أقدم من هذا الخط ، وأنه لا عبرة له فيها ولا صلة لها به ، فأساس القراءات السمع والمشاهدة وليس الخط والكتابة .

وقد مضى الصحابة يتلون القرآن كما سمعوه من النبي ﷺ ، في أثناء صحبتهم له ، ويتربى في كتب القراءات والتفسيرات وأسماء عشرات منهم ، وعنهم رواه بقراءاته التابعون وقاموا في ذلك مقام الصحابة الذين تلقوا شفافها عن الرسول ﷺ ، فهم يتزمون بما أقرعهم به حرفاً حرفاً ، وحركة حرقة ، واشتهر منهم في كل بلد ومصر جماعة ، كانوا يقرئون الناس ، ويأخذون القراءة عنهم آية آية وكلمة وكلمة حرقة حرقة ، وتكثر في كل مصر من الأنصار خلفاء هذا الجيل الأول من التابعين .

ولم يكن علماء القراءات قد تواضعوا على أئمة بأعيانهم ، يحملون عنهم وحدهم القرآن ، وظل ذلك إلى أن ظهر ابن مجاهد الذي حقق شوقي ضيف موسوعته الضخمة ، المعروفة بكتاب « السبعة في القراءات » .

وكان كثيرون قد مضوا يحملون عن كل قارئ ثقة قراءاته ، ويعلمونها الناس في زمانه ، وبعد زمنه ، وحاول نفر من علماء اللغة والنحو أن يتميزوا بقراءة خاصة ، على نحو ما حاول الفراء ، مما جعل هؤلاء الأئمة يتکاثرون ، فيصنف أبو عبد القاسم بن سلام (المتوفى ٢٢٤هـ) كتاباً يجمع فيه قراءات خمسة وعشرين إماماً سوى السبعة المشهورين ، الذين أقامهم فيما بعد ابن مجاهد (المتوفى ٣٢٤هـ) ، ثم يؤلف بعده أستاذه القاضي إسماعيل البغدادي (المتوفى ٢٨٢هـ) كتاباً يجمع فيه قراءات عشرين إماماً ، ويصنف ابن جرير الطبرى (المتوفى ٣١٠هـ) كتاباً يجمع فيه قراءات نيف وعشرين إماماً .

وقد بذل معظم القراء منذ القرن الثاني الهجرى جهوداً عظيمة ، فى تأليف تلك المصنفات المختلفة فى القراءات وفي قراءة كل إمام ، وأن يميزوها عن غيرها بخصائص وإشارات ، من حيث الإدغام والإملاء والاختلاس وتحقيق الهمز وتسهيله والإشمام ، وما إلى ذلك ، وكلما تقدمنا مع الزمن فى القرن الثالث ، كثرت التأليف فى القراءات ، ولكن هذه المؤلفات العديدة المتتابعة عن القراءات والقراء ، لم تستطع أن تكفى السبيل فقد تكاثر الأئمة وتكتاثر حمل القراءات عنهم ، بحيث أخذت الطرق إليهم تتعدد تعداداً واسعاً ، على اختلاف حظوظهم من الأنفال ، فكثرت الخلافات والمراتب ، الأمر الذى حتم أن يتجرد عالم من علماء القراءات أو طائفة منهم ، ليقابلوا بين القراءات العديدة التى شاعت فى العالم الإسلامى ، ليستخلصوا فيها للناس قراءات يحملونهم عليها ، حتى لا يتفاقم الأمر ويلتبس الباطل بالحق ، وتصبح قراءة القرآن فوضى لا ضابط لها .. وقد تجرد للنحو من بهذا الأمر إمام القراء ببغداد « ابن مجاهد » ، وهو جهد تنوء به جماعات العلماء من القراء الأفذاذ .. فاختار بعد البحث والفحص سبعة من الأئمة حمل عليهم المسلمين فى جميع أقطارهم ، وأمساكهم فأدرك الأمة قبل أن يتسع الخلاف فى قراءة كتاب الله العظيم .

وما وقفتنا هذه الوقفة الطويلة عند علم القراءات ، وما وصل إليه أمرها من اتساع وشتات إلا لندل على أهمية ذلك العمل ، الذى نهض به ابن مجاهد ، وبالتالي ضخامة الجهد الذى نهض به شوقي ضيف ، فى تحقيقه وتوثيقه وخدمته ، بحيث زود المكتبة العربية بموسوعة فى القراءات كانت مفقرة إليها .

وقد قدم العلامة المحقق لعمله بمقدمة إضافية احتجناها فى وقفتنا تلك ، وزاد على ذلك تعريفاً دقيقاً وعميقاً بصاحب الكتاب ، وبجهوده فى جمع المسلمين على تلك القراءات المختارة ثم عرف بالأئمة السبعة .

وبيهمنا فى هذا المقام ألا يفهم أحد أنه يعني بالقراءات السبعة التى اختارها عن هؤلاء الأئمة السبعة الحروف والواردة فى الحديث النبوى الشريف ، فيكون بذلك قد أبطل سواها من القراءات ، وهو لم يفعل فى الحقيقة بدليل تأليف كتابه فى الشواد .

ثم قام المحقق بعد ذلك بياتيات مناقشة ابن مجاهد لأصحاب القراءات السبعة ورواتهم ، وانتقل بعد ذلك إلى توثيق الكتاب توثيقاً علمياً دقيقاً وانتهى إلى وصف نسخة الأصل ، وعرض لنهجه فى تحقيق الكتاب بعد ذلك .

وهو عمل جليل الفائدة : لأنه يقفنا على جهد إمام عظيم ، من أئمة القراء في الأمصار الإسلامية فألف عليها سفره النفيس هذا ، وبين اختلافهم في القراءة ، وعرض لقراءتهم وأئمتها ، وعرف بأساتذتهم الذين تلقوا منهم الكتاب الكريم وأصالة بينهم ، وبين الرسول ﷺ ، ويكتفيه فخرًا أنه هو الذي وضع الأسس الثلاثة في قبول القراءات ، وهي كونها مطابقة لخط المصحف العثماني ، وكونها صحيحة السند حملها رواة موثقون حتى زمن القارئ ، ثم موافقتها للعربية بوجه من الوجه .

وطبيعي أن جهود شوقي ضيف في تذليل هذا العمل وتيسير انتفاع الناس به أمر نحسب أنه مأجور له عند الله ، فضلاً عن كونه مقدراً له عند كافة المنتفعين به .

* * *

وقد أسهم شوقي ضيف بجهود أخرى عظيمة في خدمة تراث الإسلام بتحقيقه لكتاب ابن عبد البر « الدرر في المغازي والسير » ، وكتاب ابن سعيد المغربي « المغرب في حل المغرب » وغير ذلك من الآثار التي يضيق عن ذكرها المقام ، فضلاً عن عنايته بتوجيهه تلاميذه في الدراسات العليا إلى موضوعات إسلامية عديدة في علوم القرآن ، والتفسير ، والحديث النبوي الشريف ، ووجوه الإعجاز القرآني والتاريخ للأدب الإسلامي ، وتحليل ظواهره المختلفة ، بحيث صارت له مدرسة كبيرة ممتدة بامتداد الوطن العربي والإسلامي .

وما هذا الذي ذكرناه عن جهوده الإسلامية إلا غرفة بيد قاصرة من ينبعو علمه الفياض .

أ . د . النعمان القاضى

أستاذ الأدب العربي

كلية الآداب - جامعة القاهرة

د . كمال الدين عبد الغنى المرسى

لا ريب أن الدكتور شوقي ضيف يستحق لقب أستاذ الأجيال في الأدب العربي والإسلامي لما له من أيادٍ بيضاء على الدارسين والباحثين في هذا المجال في عصرنا الحاضر وما يليه من العصور المقبلة إن شاء الله تعالى؛ ذلك لأنَّه سد فراغاً في المكتبة العربية كانت في أمس الحاجة إليه، حيث جاءت مؤلفاته في جميع الموضوعات التي تناولتها ملبيَّةً لرغبات الباحثين في التزود بالمعلومات التي تتطلبهما بحوثهم سواء في التاريخ للأدب على مر العصور منذ العصر الجاهلي وحتى العصر الحديث، أو في الدراسات الأدبية شعراً ونثراً أو في الدراسات النقدية أو الدراسات البلاغية واللغوية حيث جاءت مؤلفاته على اختلافها وتتنوعها بمثابة المنور الكشاف الذي يضيء للباحثين سبل البحث والتقصي ويكشف لهم عن كواطن المعرفة التي ينقبون عنها، ويرغبون في التزود بها ، وهذه المؤلفات تزداد أهميتها يوماً بعد يوم حتى صارت كالمعين الذي لا بد من وروده ليرتوى منه كل باحث متغطش للعلم فلا يصدر عنه إلا وقد ارتوى وملاً منه مزادته .

الدكتور شوقي ضيف يمثل مدرسة ذات منهج متميز :

الأستاذ الدكتور شوقي ضيف يمثل مدرسة تحمل كل سمات العروبة والإسلام، ويحتل موقع الريادة في كل فن من الفنون التي خاضها . ولقد عرفته من خلال كتبه أدبياً صادقاً وعلمياً موسوعياً استطاع بثاقب نظره وسعة علمه، وعظيم ثبوغه أن يوطئ

للدارسين في مجال الأدب معرفة التراث الأدبي العريض وأن يقدم في ثنايا مؤلفاته خلاصة لمعارف في الأدب العربي والإسلامي حتى العصر الحديث في منهج لم يسبقه إليه غيره متلکفاً للأمة العربية والإسلامية ما تنوء به العصبة من العمل المرهق مضيّاً فيه بياض أيامه وسoward لياليه غير مدرّج جهداً ولا قوة حتى استطاع أن يجمع بين تاريخ الأدب وفنونه جمعاً مستوعباً للأصول والشوارد راضياً مغتبطاً بما أدى، فكان في عمومه خيراً ونفعاً أداء للأمة عن طيب نفس . ويكتفي شرقاً وفخرأً أن يستخلص للأمة أدب العصر الجاهلي والأدب في العصر الإسلامي ثم الأدب في العصر العباسي الأول والأدب في العصر العباسي الثاني ثم الأدب في عصر الإمارات والدول (الجزيرة - العرق - إيران) (مصر - الشام) و (الأندلس) من خلال أكداس من الآثار وكائناً اختارته العناية الإلهية لينهض بأعباء هذا العمل الجليل .

لقد كانت حياته سلسلة جهود علمية متصلة ، استطاع بمثابرته وصبره وأكاديميته أن يزكي عن تراثنا العربي الإسلامي ضباباً كثيفاً كان يحيط به ، فأظهر للباحثين جماله وبين للناس ما كان منه خافياً عليهم قبله .

ولئن أثروا أن نتناول من جهوده العلمية ما يتعلّق بالجانب الإسلامي، فإننا نجد في ثنايا كتب التاريخ الأدبي والدراسات الأدبية والنقدية واللغوية مادة غنية في الإسلاميات صالحة لأن تجمع وتفرد فيها المؤلفات حيث لم تخل مناقشته في الموضوعات الأدبية من التعليقات التي تصحّ أفكار الكاتبين والباحثين في الأدب العربي لما يتصل بالأمور الإسلامية كقوله في مقدمة الجزء الثاني من تاريخ « الأدب العربي » : ودفعتني النصوص الكثيرة في عصر صدر الإسلام إلى نقض الفكرة التي شاعت في أوساط الباحثين من عرب ومستشرقين إذ ذهبوا يزعمون أن الإسلام انحصر عن آخر ضئيل نحيل في أشعار المخضرمين وهو زعم غير صائب ، بل هو زعم يسرف في تجاوز الحق . فقد أتم الله على هؤلاء الشعراء نعمة الإسلام ، وانتظم كثيرون منهم في صفوف المجاهدين في سبيل الله داخل الجزيرة العربية وفي الفتوح . وهم في ذلك

كـه يستلهمون الإسلام، ويعيشون له، ويعيشون به، ويريدون أن ينشروا نوره في أطباقي الأرض ، وقد مضوا يصدرون عنه في أشعارهم صور الشـذـى عن الأزهار الـأـرـجـةـ . وبـالـمـثـلـ صـدـرـوـنـ عـنـهـ فـإـذـاـ هـمـ يـسـتـحـدـشـونـ فـنـوـنـاـ مـنـ النـتـرـ يـنـشـئـنـهاـ إـنـشـاءـ إـذـ أـنـشـأـوـاـ - عـلـىـ هـدـىـ الـقـرـآنـ الـكـرـيمـ - آيـاتـ بـدـيـعـةـ مـنـ الـمـوـاعـظـ الـدـيـنـيـةـ ، كـمـ أـنـشـأـوـاـ ضـرـوـيـاـ مـنـ الـمـعـاهـدـاتـ وـالـرـسـائـلـ السـيـاسـيـةـ وـالـتـشـرـيعـيـةـ .

ثم كان عصر بنى أمية، عصر امتزاج العرب بغيرهم من الأمم وانسياحهم في مشارق الأرض وغاربها، ومما أذكى في نقوسهم جنوة الشعر ، فإذا هو يـحـيـاـ في أوـطـانـ جـديـدـةـ حـيـاةـ خـصـبـةـ، وـلـاـ أـقـصـدـ الـكـوـفـةـ وـالـبـصـرـةـ وـالـشـامـ وـمـصـرـ فـحـسـبـ، بل أـيـضـاـ خـرـاسـانـ الـتـىـ أـهـمـلـهـاـ مـؤـرـخـوـ أـدـبـناـ، مـعـ اـزـهـارـ الشـعـرـ فـيـهـاـ اـزـهـارـاـ رـائـعاـ . وـقـدـ أـخـذـ الشـعـرـ يـخـضـعـونـ فـيـ كـلـ مـكـانـ لـمـؤـثـرـاتـ مـخـلـفـةـ : بـيـئـيـةـ وـدـيـنـيـةـ وـحـضـارـيـةـ وـ ثـقـافـيـةـ وـاقـتصـادـيـةـ . وـفـيـ هـذـهـ الـأـثـنـاءـ كـانـ الـمـوـالـيـ يـتـعـرـيـوـنـ، وـسـرـعـانـ مـاـ أـنـقـنـوـاـ الـعـرـبـيـةـ وـأـعـرـبـوـاـ بـهـاـ عـنـ قـلـوـبـهـمـ وـعـقـولـهـمـ وـأـعـماـقـهـمـ وـجـدـانـهـمـ . وـلـيـسـ بـصـحـيـحـ مـاـ يـرـيدـهـ الـمـسـتـشـرـقـوـنـ مـنـ أـنـهـمـ كـانـوـاـ يـخـتـصـمـوـنـ مـعـ الـعـرـبـ فـيـ الـعـصـرـ الـأـمـوـيـ ، فـقـدـ كـانـتـ الـعـلـاـقـةـ بـيـنـ الـجـمـاعـيـنـ حـيـنـنـتـ عـلـاـقـةـ بـرـ وـتـعـاوـنـ وـإـخـاءـ^(١) .

كـذـالـكـ لـمـ تـخـلـ مـنـاقـشـاتـهـ فـيـ الـمـوـضـوعـاتـ الـبـلـاغـيـةـ مـنـ تـوجـيهـاتـ نـافـعـةـ لـلـبـاحـثـينـ توـطـئـ لـهـمـ فـهـمـ بـعـضـ الـأـمـورـ الـتـىـ قـدـ تـغـيـبـ عـنـ أـذـهـانـهـ أـوـ تـضـلـ عـنـهـ أـفـهـامـهـ عـنـ قـرـاءـةـ الـمـؤـلـفـاتـ الـقـدـيمـةـ الـتـىـ سـبـقـتـ فـيـ مـجـالـ الـبـلـاغـةـ فـيـسـوـقـ ذـلـكـ فـيـ أـسـلـوبـ مـبـسـطـ يـرـضـيـ نـهـمـ الـبـاحـثـ وـبـيـسـرـ عـلـيـهـ اللـجوـءـ إـلـىـ تـلـكـ الـمـؤـلـفـاتـ مـتـسـلـحـاـ بـجـمـلـةـ الـمـعـارـفـ الـتـىـ يـصـوـغـهـاـ الـدـكـتـورـ شـوـقـىـ فـيـ أـسـلـوبـ سـهـلـ جـمـيلـ ، هـوـ فـيـ كـاتـبـهـ «ـ الـبـلـاغـةـ تـطـوـرـ وـتـارـيـخـ »ـ نـجـدهـ فـيـهـ يـؤـرـخـ لـمـوـضـعـ الـبـلـاغـةـ الـعـرـبـيـةـ عـبـرـ الـعـصـورـ تـارـيـخـاـ يـوـضـعـ تـطـوـرـهـاـ مـنـ عـصـرـ إـلـىـ عـصـرـ وـمـنـ جـيـلـ إـلـىـ جـيـلـ وـمـنـ الـازـهـارـ وـالـنـبـوـغـ إـلـىـ الـضـعـفـ وـالـذـيـولـ، مـعـ وـصـلـ بـيـنـهاـ

(١) دـ. شـوـقـىـ ضـيـفـ ، مـقـدـمـةـ كـتـابـ «ـ تـارـيـخـ الـأـدـبـ الـعـرـبـيـ - الـعـصـرـ الـإـسـلـامـيـ »ـ طـ ٧ـ ، دـارـ الـمـعـارـفـ الـقـاهـرـةـ ، ١٩٦٣ـ .

ويبن الأدب العربي وبينها وبين القرآن الكريم ، مع التعريف بالأعلام الذين نبغت أسماؤهم في درس البلاغة والتعريف بكتبهم والفروع التي تناولوها في مصنفاتهم، وبهمنا منها ما اتصل بكتاب الله عز وجل ، وما يسمى بإعجاز القرآن فهو يذكر في دراساته لبعض المتكلمين أن هذا الموضوع شغل بيته الفقهاء والمحدثين وذكر منهم أحمد بن محمد الخطابي البستي المتوفى سنة ٢٨٨هـ وأنه كتب رسالة في بيان إعجاز القرآن وأنه « ردًّا فاتحتها على من يقولون بفكرة الصرافة وأن إعجاز الذكر الحكيم إنما يرجع إلى أن الله صرف العرب عن معارضته، وهي الفكرة المضافة إلى النظام أستاذ الجاحظ . وأيضاً فإنه ردًّا على من يقولون بأن إعجاز القرآن يرجع إلى تضمنه للأخبار المستقبلة وقال إنه إنما يرجع إلى بلاغته . وأخذ في وصفها مقدراً أن أساليب الكلام الجيد، منها البلية الرصين ، ومنها الفصيح السهل، ومنها الجائز الطلاق، وبلاطجة القرن تجمع بين كل هذه الأساليب جمعاً لaitاح للبشر مثله؛ لقصور معرفتهم بأسماء اللغة ومواصفاتها ويتزيل المعانى عليها وصيّبها في القوالب اللفظية الدقيقة . ويتفقُّض بعض مطاعن المعترضين على أسلوب القرآن . وفي تضاعيف ذلك يحلل بعض النصوص القرآنية تحليلاً جيداً . والرسالة بذلك لا توضح إعجاز القرآن البلاغي توضيحاً كافياً، إنما الذي يوضح ذلك حقاً أبحاث المتكلمين لدقة تفكيرهم وتعمقهم من قديم في مباحث البلاغة . ونحن نسوق أهم هذه المباحث مرتبة ترتيباً زمنياً » .

ثم يذكر بعد ذلك رسالة « النكت في إعجاز القرآن للرماني » فيقول : « مؤلف هذه الرسالة على بن عيسى الرماني المتوفى سنة ٢٨٦ للهجرة، وهو أحد أعلام المعتزلة في عصره، وله مصنفات مثيرة في التفسير واللغة والنحو وعلم الكلام. ومن أهم ما يميزه في مصنفاته مزج كلامه بعلم المنطق . وقد كتب رسالة « النكت في إعجاز القرآن » جواباً على سؤال لشخص طلب إليه تفسير تلك النكت في إجمال وبدون تطويل في الحاجاج . وهو يستهل الرسالة برد هذه النكت إلى سبع جهات، هي: ترك المعارضة مع توافر الدواعي وشدة الحاجة، والتحدي للكافة، والصرفة ، والبلاغة، والأخبار الصادقة عن الأمور المستقبلة ، وتفقُّض العادة ، وقياس القرآن بكل معجزة». ثم يفيض في شرح

مضامين هذه الرسالة، وينتقل بعدها إلى «إعجاز القرآن» لأبي بكر محمد بن الخطيب الباقلاني المتوفى سنة ٤٠٣ هـ فيعرف بالكتاب ويوضح دقائقه ، وكذلك يفعل مع كل من ذكرهم من أهل البلاغة بحيث يستطيع القارئ إذا جمع بينها أن يخرج بكتاب عظيم ومؤلف جليل في هذا الموضوع .

وهكذا نجد أنَّ في معظم كتبه موضوعات إسلامية يصح أن تجمع في مباحث متعددة بحيث إذا ضُمِّت أجزاؤها صارت كتاباً مفردة .

أما الكتب التي تدرج تحت مسمى «الإسلاميات» فهي بالقياس إلى كتب الأدب قليلة، ولكنها على قلتها عظيمة الفائدلة النفع، وهي إذا عدناها ثلاثة كتب ، منها كتابان من تأليفه وكتاب من التراث الإسلامي حرقه وعلق عليه .

فاما اللذان من تأليفه فأولهما كتاب بعنوان «سورة الرحمن وسور قصار» جاء في مقدمته :

«استحقني كثير من الأصدقاء وطلب إلى عالم جليل أن أبدأ بعرض ودراسة سورة الرحمن «سورة النعم الدينية والأخروية، وأضفت إليها عرضًا ودراسة لسور قصار؛ ضممت إليها سورة الفاتحة والتوحيد والعصر . وجميعها تتناول أصول العقيدة الإسلامية وبعض مبادئ الإسلام الخلقية والاجتماعية ، وقد بسطتها جميعاً من خلال آيات الذكر الحكيم ؛ بحيث كنت أتخذ من الآية نوراً يهديني إلى مضمونها العام في القرآن وأحاول بقدر ما استطيع عرضه ووصفه، سواء اتصل ذلك بعظمة الله وجلاته ورحمته وألائه في الدنيا والآخرة ، أو بالرسالة والرسل ، أو بالملائكة والجن والشياطين أو بما هي عليه الحياة بعد الموت والثواب والعقاب في الآخرة، أو بالتهذيب الروحي والخلقي، أو بالعلاقات العمرانية أو بتحرير الإنسان من الهوى والخرافات وجملة الآثام، أو بدفعه إلى استغلال عقله وكشف قوانين الكون وأسراره، أو بإيقاظ وجданه ومشاعره والسمو به إلى الكمال الإنساني المأمول .. »

وأما الكتاب الثاني فهو كتاب «عالمة الإسلام» أوضح فيه أن عالمة الإسلام تعنى أن الله جعل الإسلام ديناً عالماً للبشرية؛ لأنَّه كفل فيه لكل الناس أييضمهم

وأنسودهم، وأحمرهم وأصفرهم الحرية لهم جميعاً، كما أنه عزّ وجل جعله ديننا عقلانياً يصادق العلم الكوني ، ويؤسس للعدل بين الناس إذ لا تصلح حياة الدنيا إلا به ، كما فرض فيه المساواة والتسامح بين البشر وأحکم فيه روابط الأسرة ، وأمر بالمعروف ونهى عن كل رذيلة، وهو بذلك يضمن السعادة للبشرية في الدنيا والآخرة .

والكتاب على قلة صفحاته إذ يقع في تسع عشرة ومائة صفحة إلا أنه جليل الفائدة، وأرى أنه يجب ترجمته لجميع اللغات العالمية لأنه سهل التناول واضح الفكرة ولغته صالحة للترجمة؛ لأنها تبعد عن حوشى الكلام وليس فيها ألفاظ صعبة .

أما الكتاب الأخير فهو من كتب التراث في علم القراءات وعنوانه « كتاب السبعة في القراءات » لابن مجاهد شيخ القراء في عصره (ت ٢٤٥) والكتاب يقع متنه في سبع وخمسين وستمائة صفحة عرض فيه مؤلفه قراءات أئمة القراء إماماً إماماً ذاكراً نسبهم وأسانتتهم الذين تلقوا منهم القرآن الكريم وأصلاً بينهم وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو من أنفس الكتب في مجال علم القرآن ، وكان عمل الأستاذ الدكتور شوقي ضيف في تحقيق وضبط ألفاظه وتصحيح أغلاط بعض نسخه عملاً مجيداً باهراً حيث أخرجه إلى النور بعد أن كان بين أكdas المخطوطات ليضيف إلى المكتبة القرائية هذا الكتاب النفيس .

ولقد كتب له مقدمة رائعة عن جمع القرآن والقراءات التي أثرت عن القراء المشهورين، مؤرخاً لهم لاسيما ابن مجاهد صاحب الكتاب وأسانته الذين تلقى عنهم هذا العالم الجليل ، ومبيناً الغرض من هذا الكتاب وهو أن ابن مجاهد استتصفي سبعة من أئمة القراء في أمصار خمسة هي أهم الأمصار التي حملت عنها القرآن في العالم الإسلامي وهي المدينة، ومكة ، والكوفة ، والبصرة ، والشام ، وفي قراءاتهم ألف ابن مجاهد هذا الكتاب مبيناً خلافاتهم في القراءة وخلافات من حملوا عنهم قراءاتهم بياناً دقيقاً أشد ما تكون الدقة .

الأهمية التاريخية لمؤلفات الدكتور شوقي ضيف :

مؤلفات الدكتور شوقي ضيف أهمية بالغة لما تضمنته من تعريف شامل بالتراث الأدبي والإسلامي إذ هي تجلو ذاكرة الأمة لما يتعلّق بشأن هذا التراث ، ويقدمه للأجيال في سهولة ووضوح وحسن استيعاب وسوف يجد القارئ فيها ما يرضي نهمه، كما سوف يجد الباحث ما يرضي فضوله، كما لا يكاد المحقق يستفني عنها حين يتعرض لتحقيق المخطوطات، بالإضافة إلى أنها تشير بعض القضايا التي تحتاج إلى الكتابة فيها ، فهي تفتح الأبواب للدارسين لكي يقبلوا عليها ملتمسين أفكاراً جديدة ساقها العلامة شوقي ضيف في غضون الكلام ، ولهذا نقول إن هذه المؤلفات تحافظ للأمة العربية والإسلامية ذاكرتها لمستقبل الألفية الثالثة بوعى عميق لتراثها الأدبي والإسلامي وبوضوح شامل لفروعه ودقائقه ، في جمع علمي منظم يساير عامل الزمن، ويواكب ركب الحضارة .

دكتور كمال الدين عبد الغنى المرسى

١٨- منهج شوقي ضيف في "البلاغة تطور وتاريخ"

د . منير سلطان

شوقي ضيف تاريخ ومنهج :

لا يختلف معى كثيرون ، إذا قلتُ إن كتاب « البلاغة تطور وتاريخ » معلم من معالم البحث البلاغى فى عصرنا الحديث ، وإنه لا بديل للباحث من الوقوف عنده متعلماً ثم مؤيداً أو مناقشاً .

فالدكتور شوقي ضيف، تاريخ ومنهج، تاريخ يرتبط بنشأة الجامعة المصرية، ويظهره الجيل التالى لجيل الأعلام المؤسسين، عرباً ومستشرقين، ومنهج يقوم على شمول النظرة ، وعمق التجربة والالتحام بال מורوث مع سداد فى الرأى^(١) .

وحين يتصدى لبحث فى البلاغة ، كما فعل فى غيرها من علوم العربية، فإنه يقول ما له اعتباره، ويقوم بما لم يسبق إليه، فى الشكل والمضمون، ومن ثم يأخذ كتابه مكانته الائقة به فى الفكر العربى، والفكر الغربى المهم بشئوننا العربية .

وقد حدد الدكتور شوقي ضيف غايتها من الكتاب قائلاً : « لم تكن غايتها أن أصور هذا التاريخ بل بلاغتنا فحسب ، بل أيضاً أن أصور الترابط الوثيق بينها وبين أدبنا فى تطورهما ، حتى انتهيا إلى الجمود والتعقيد والجفاف والتكرار الممل ، وأن أرسم فى تضاعيف هذا التطور الوسائل الواسعة بين كل بلاغى وسابقه ولاحقه، بحيث تتضح معالم هذا التطور اتساحاً تاماً » (ص ٦) .

(١) ظهرت الطبعة الأولى للكتاب سنة ١٩٦٥ ، عن دار المعارف ، بالقاهرة .

فهو ينظر إلى البلاغة من خلال الأدب، ويمزج بينهما وبين رجالها ، ويملم شذراتها، ثم يتبعها في حال نموها ، وحال تحولها إلى كيان مستقل، أو اشتراكتها في اتجاه ما، أو بروزها في منهج ما، حتى يصل البحث إلى مشارف الركود، وأستار الضباب، عندما انتكست البلاغة ، وتجمدت أطراها ، وباتت تنتظر الدفء مع مطلع الفجر الجديد .

ولا يدع الدكتور شوقي ضيف عرضه الشامل - هذا - يمر دون أن يعقب عليه فالخطة التي انتهجها ، قد أتاحت له أن يطرح البلاغة على مائدة البحث بجميع أطراها يتأملها في حال شبابها وجمالها، وحال كهولتها وزبولها ، ثم يقترح العلاج ، ليعود الرواء .

بذا يقف هذا الكتاب علمًا سامقًا في ساحة البحث البلاغي ، مختلفاً عما كتبه د. أحمد ضيف ، والشيخ أحمد مصطفى المراغي ، ود. سيد نوبل ، وغيرهم ؛ لأنه يسد فراغاً لم تتجه هذه الدراسات وغيرها في أن تملأه .

أولاً : الترابط الوثيق بين نظرية البلاغة وتطور الأدب :

البلاغة هي معيار النون الأدبي لأمة من الأمم في عصر من العصور ، ونمو النون ينمي الأدب ونمو الأدب ينمي النون ، لا انفصام بينهما .

وما كانت تلك الشذرات الأولى التي تعقبها الدكتور شوقي ضيف لنشأة البلاغة سوى محاولة للارتفاع بمستوى الأداء الفني في الشعر ، حتى لا يختلف عن المستوى الرفيع الذي بلغه العرب في الجاهلية ، (من ٩) ، « ومن أكبر الدلالة على ما حذقه من حسن البيان أن كانت معجزة الرسول الكريم ، وحجته القاطعة لهم أن دعا أقصاصهم وأندناهم إلى معارضته القرآن في بلاغته الباهرة » (من ٩) .

وليس غريباً أن تنبت الشذرات البلاغية الأولى في بيئه الشعراء الذين « كانوا يقفون عند اختيار الألفاظ والمعانى والصور ، ومن يتصف أشعارهم بجدها تزخر

بالت شبكات والاستعارات والجناسات ؟ مما يدل دلالة واضحة على أنهم كانوا يعنون عنابة واسعة بإحسان الكلام ، والتفنن في معارضه البليفة » (ص ١٣) .

ولم يكن القرآن الكريم شاهداً فحسب على اهتمامهم برقم نوقة البلاغى ، بل كان منسقاً لهذه الجهود ، ومطوروأ لها ، ومحدداً المثل الأعلى الذى به يحتذى ، فكان كتاب هداية ، وفن ، توازره فصاحة الرسول الكريم ، وبلافة سنته المشرفة .

ولم يستائز الشعر بنمو البلاغة مثماً كان قبل الإسلام ، وإنما أضيفت إليه الخطابة لشدة الحاجة إليها بعد ظهور الإسلام ، « وكان أبو بكر وعثمان خطيبين مفوهين ، وكانا يستضيئان فى خطابتهما بخطابة الرسول الكريم ، وأى الذكر الحكيم » (ص ١٤) .

وفى عصر بنى أمية ازدهرت الخطابة السياسية والمحفظة والوعظية ، « والحق أن الملاحظات البيانية كثرت فى هذا العصر ، وهى كثرة عملت فيها بواعث كثيرة ؛ فقد تحضر العرب واستقرروا فى المدن والأقصارات ، ورققت حياتهم العقلية ، وأخنووا يتجادلون فى جميع شئونهم السياسية والعقائدية .. فكان طبيعياً أن ينمو النظر فى بلاغة الكلام ، وأن تكثر الملاحظات المتصلة بحسن البيان ، لا فى مجال الخطابة فحسب بل أيضاً فى مجال الشعر والشعراء ، بل لعل المجال الثانى كان أكثر نشاطاً لتعلق الشعراء بالديج ، وتنافسهم فيه » (ص ١٦) .

وهكذا لم يكن ازدهار الخطابة والشعر فى حقيقة الأمر سوى ازدهار للأدوات البلاغية التى كانت وسيلة لإثارة الإعجاب والإمتاع والإقناع .

ولا نكاد نصل إلى العصر العباسي الأول حتى تتسع الملاحظات البلاغية ، وقد أعددت لذلك أسباب مختلفة : منها ما يعود إلى تطور النثر والشعر ، ومرده إلى أن كثيرين من الفرس والموالي أتقنوا العربية ، واتخذوها لسانهم فى التعبير عن عقولهم ومشاعرهم ، وأظهروا فى ذلك براءة منقطعة النظير بالإضافة إلى كتاب التواوين ، وكان نوقة متربعاً بعامل ما انفسوا فيه من الحضارة ، وعاشوا يصفون كلامهم ، ويختبرونه مما يجمع الجزاية والرصانة ، مع السلامة والتصاغة ، والرونق والطلالة . ومنها ما يعود إلى تطور الحياة العقلية والحضارية القائمة على الترجمة .

في خضم هذه النهضة تحولت البلاغة من شذرات متفرقات في كتب اللغة والنحو والأدب والتفسير والأصول إلى دراسة منهجية منظمة ، أبرزها :

١- دراسة « إعجاز القرآن » .

٢- ما تركته الخصومة بين المحافظين والمجددين في البلاغة من دراسات .

٣- الدراسات النقدية البلاغية .

٤- الدراسات الأدبية البلاغية .

أما عن قضية « إعجاز القرآن ، فلبلاغة النصيّب الأولى » : لأن البحث عن سر مفارقة أسلوب القرآن لما تعود عليه العرب من أساليب ، هو الذي لفت العلماء إلى ما فيه من خصائص فنية ، فسعوا جاهدين لتحديدها .

ونستطيع أن نجعل جهود البلاغيين والنحاة في « مجاز القرآن » ، وكتب « معانى القرآن » توطنئة للدراسات المنهجية المنظمة ، التي نهض بها المتكلمون الذين انطلقا في طريقهم منفردين ، بعد أن أخذ اللغويون يتبعون بعد القرن الثالث في مباحثهم اللغوية الخالصة من حازرين عن مباحث البلاغة ، وكأنهم رأوا - مُحَقِّين - أنهم ميدان غير ميدانهم ص(٦٣) .

وتظل كتابات الجاحظ - شيخ البلاغيين - معيناً لا ينفرد له الأجيال التالية بكثير من فنون البلاغة ، ونرى صداتها يتتردد فيما كتب المعتزلة : كالرماني ، والجبائيين أبي هاشم وأبي على ، وعبد الجبار الأسد أبيادى ، والشريف الرضي ، والشريف المرتضى ، وابن سنان الخفاجي حتى الزمخشري ، وما كتب الأشاعرة : كالباقلاني إلى الجرجاني ، كل يستمد منها حسب قدرته ومهاراته الذهنية « (ص ٥٧) .

ولم تكن الخصومة بين المحافظين والمجددين سوى استجابة لنداء التطور ، فالانتقال من دائرة الموروث العربي الخالص في البلاغة - ويحافظ عليه اللغويون - إلى محاولة تنظيم البلاغة العربية، حسب قواعد يونان - ويدعو له المجددون - قد أثرى الدرس البلاغي ، فهذا ابن قتيبة ، والبردي ، وثعلب ، يشاركون في الملاحظات البلاغية في ثنايا تعليقاتهم على نصوص الشعر وأى الذكر الحكيم ، ويكشفون بذلك جمال

الأساليب العربية، وتعدد طرقها في الأداء، بينما يذهب قدامة، وإسحاق بن سلمان بن وهب، وابن رشد، والفارابي، إلى جعل البلاغة اليونانية مثلاً أعلى للبلاغة العربية، كما يرون أن الشعراء المجددين وأصحاب البديع هم أبناء الحضارة العربية الجديدة، لذا سبقوا إلى هذا الفن - وكان كتاب «البديع» لابن المعز ناصراً للمحافظين، أمام هذه الأفكار المتطرفة، وذلك حين يعلن إعلاناً لا مواربة فيه «أن المحدثين من الشعراء» لم يخترعوا البديع الذي يلهجون به، وأن البديع قديم في العربية، بل إنه ليتعمق في القدم حتى العصر الجاهلي، وأن ما للمحدثين منه من أمثال بشار، إنما هو الإكثار من استخدام فنونه فحسب» (ص ٦٧، ٦٨) .

وكان المتكلمون يخوضون هذه المعركة ولكن ، متعدلين ، لا يسرفون في المحافظة غافلين عن سنة التطور . (ص ٦٦) .

وتتأتي الدراسات النقدية والبلاغية، وهي تعتبر معالجة أخرى لشكلة المحافظين والمجددين ، ولكن من خلال مقاييس انتقد وغضياباه، لأنها دارت حول مذهبين واضحين في الشعر ؛ أحدهما مذهب أبي سالم الذي كان يعني - بتأثير ما ثقف من الفلسفة وغيرها من ضروب الثقافة - بالتعمر في معانيه - كما كان يعني بمحسنات البديع حتى ليسرف فيها إسراهاً ، ومذهب البحترى الذي لم يكن يأخذ نفسه بفلسفة ولا بثقافة، وهو مع ذلك كان يستخدم محسنات البديع بدون إسراف .

وطبيعي أن يصبح عمار النقد النظر في هذين المذهبين المتقابلين وكانتا يقومان في أكثر جوانبهما على مدى ما يسمح للشاعر به من استخدام فنون البديع، وهل يأتي بها في قصد، أو يتجاوز القصد والامتدال إلى الإسراف والبالغة المقيمة، وأيضاً كانوا يقumen على مدى التتحقق في المعانى والغوص على، خبيئها .

وأبرز هذه الكتب كتاب «عيار الشعر» لابن طباطبا ، و«الموازنة» للأمدي، و«الوساطة» للجرجاني .

وتحتفي الدراسات الأدبية البلاغية أنها خرجت إلى الميل إلى التجديد دون التقليد، بالنسبة لشعراء بأعينهم، واستعرضت مختلف الاتجاهات شرعاً ونشرأ، تحاول تطبيق المفاهيم البلاغية، وذلك من خلال الشواهد العديدة على مدى العصور الأدبية إلى وقتها

التي ألفت فيه، وفي كثير من الأحوال يتوقف عند التحليل الفنى الذى يتبين عن دقة فى الحس ، وصفاء فى النزق ، وأبىزها كتاب الصناعتين «أبى هلال العسكرى ، و«العمدة» لابن رشيق القىروانى ، و«سر الفصاحة» لابن سنان الخفاجى .

ثم يأتي عبد القاهر الجرجانى، المتكلم الأشعرى، ويعتبر أقصى قمة وصلت إليها البلاغة ، وذلك بكتابيه «الدلائل» و «الأسرار» ، فقد وضع قوانين البيان لأول مرة في العربية وضعاً دقيناً، كما وضع أيضاً قوانين المعانى لأول مرة ، وإذا كان قد شغل فى الدلائل بيان خواص الصيغ الذاتية، فقد كان همه فى «الأسرار» أن يكشف عن دقائق الصور البينية متخللاً لها بنظرات نفسية وذوقية جمالية رائعة (ص ٢١٨) .

ولولا أن قيس الله تعالى للبلاغة العلامة الزمخشري المتكلم المعتزلى، الذى طبق فكرة النظم التى تنادى بها الجرجانى على القرآن الكريم ، لو لا هذا، لظللت أفكار الجرجانى حبيسة كتابيه ، ولانتظرنا طويلاً من يوفق إلى القيام بهذا العمل الجليل ، ولضاعت علينا نهضة بلاغية جلّى .

إن أعظم ما قام به الزمخشري أنه حول الجهد الجرجانى في البلاغة العربية إلى واقع ملموس ، موصول الأثر ، مضمون الشيوع ، معروف القيمة : لأنه ربطه بالتطبيق العملى على النظم القرأنى في كتابه «الكشاف» مضيفاً إلى تطبيقاته ما اكتشفته قريحته وثقافته ونونقه المدرب .

وظهور الزمخشري كان يعني أن البلاغة مازالت بحاجة إلى كثير من الأيدى المدربة التي توسيع دائرة التطبيق، فتخرج من النظم القرأنى إلى نظم الحديث الشريف، إلى الشعر إلى التتر بمختلف فنونها ، وكان يعني أيضاً أن المنهج بحاجة إلى التهذيب فيجنب إلى النظرة الشاملة ، والاستقراء التام ، والإحاطة الوعائية ، وبهذا ينجو منهج الجرجانى من الجمود ، ولكن من أسف ، تلقف المتكلمون هذه الثمرة الطيبة فاستلوا منها روحها وجربوها من بعاتها ، وأبقوها لانا العظام .

ذلك لأن الميراث جاء إليهم من مدرسة المتكلمين ، فلم يلتف نظرهم فيه إلا ما يمكن أن يقدر وينظم، ولأن الحضارة قد تدهورت ، فلم يجدوا في أنفسهم ، ولا فيمن حولهم من صار يستنسخ التأمل والتزوق الفنى ويصبر عليهما .

وقد ظهر فخر الدين الرانى المتكلم الأشعري ليكتب «نهاية الإيجاز فى دراسة الإعجاز» وهو تنظيم وتبسيط لما كتب عبد القاهر فى صورة تنضبطة فيها القواعد البلاغية، وتنحصر فروعها وأقسامها حصرًا دقيقاً . ثم يظهر السكاكي الذى «مضى يعب من جداول الفلسفة ، والمنطق ، والاعتزال ، والفقه وأصوله ، وعلوم اللغة ، والبلاغة» (ص ٢٨٧) . ويكتب كتاب «المفتاح» وفي قسمه الثالث، قسم البلاغة إلى علمين كبيرين؛ أحدهما «علم المعانى» والآخر «علم البيان» ، واستطاع أن ينفذ من خلال الكتابات البلاغية قبله إلى عمل ملخص دقيق لما نثره أصحابها من آراء ، وصاغ ذلك كله بلغة مضبوطة محكمة، استعان فيها بقدرتة المنطقية في التعليل والتفسير والتفریع ، وكان عدته في النهوض بذلك تلخيص الفخر الرانى وكتابي الجرجانى ، وكشف الزمخشري الذى استوعبه استيعاباً .

وتستمر الكتابات البلاغية في الانحدار ، فيظهر الزملكانى ، ويدر الدين بن جمال الدين بن مالك، الذى أطلق على المحسنات مصطلح «البديع» لتكميل الجنائية على البلاغة بتقسيمها إلى علومها الثلاثة «المعانى» و«البيان» و«البديع» ، ثم يأتي التنوخى الذى يخرج عن وصف السكاكي ويسمى مباحث البلاغة باسم «علم البيان» ثم ابن قيم الجوزية ، ويحيى بن حمزة الطوى، ثم يأتي ابن الأثير ، «وواضح أنه لم يكن متفقاً ثقافة دقيقة بكتابات البلاغيين قبله .. ، وفاته أن يطلع على كتابات عبد القاهر ، والزمخشري ، والرانى ، على أنه يذكر الزمخشري أحياناً ، ولكن ليرد عليه بعض آرائه ، ومن المؤكد أنه لم يحط بما كتبه في «الكافش» ، وظل يضطرب اضطراباً شديداً في تصور المسائل البيانية الخالصة .. ، وكتابه بصفة عامّة محاولة لتنظيم ما كتبه ابن سنان الخفاجي في كتابه «سر الفصاحة» مع بعض التفريعات والنظارات الجديدة ، ومع العناية بفن الرسائل .. » (ص ٣٣٤) .

ويتوالى انحدار التأليف من سفح إلى سفح، فيظهر القرزوي في ليل شخص القسم الثالث من كتاب المفتاح «للسكاكى»، تلخيصاً دقيقاً واضحاً، ثم يعقبه بشرح له يسميه «الإيضاح» الذى يتلقى بحسن التقى والقبول، ويقبل عليه عشر الأفضل والفحول ويكتب على درسه وحفظه أولى المقول والمنقول ، فصار كأنه محط رحال تحريرات الرجال ومهبط الأنوار والأفكار ، ومزجهم آراء البال، فكتباً له شروحًا ، كما يقول

صاحب كشف الظنون» (ص ٢٥١) ، وتنهمر الشروح، لتمعن في سد الطريق أمام العيون والبعضان ، ولتضييع ما كتبه الجرجاني والزمخشري ، وكل صاحب نوق وفن وثقافة في ساحة البلاغة العربية، وهذه المباحث كما يقول الدكتور شوقي ضيف بحق، «ظللت تتسلق على شجرة البلاغة حتى خنقتها خنقاً، وحتى أصبحنا لا نجد إلا كلاماً معاداً مكرراً لا ينمى نوقاً ولا يربى ملكة» (ص ٢٥٨) .

ثم تكمل دائرة العقم بالبدعيات التي «كانت تأخذ شكل مختصرات مجملة إلى درجة تشبيه أن تكون رموزاً، ولذلك كان ناظمها يعمد توأ إلى شرحها» (ص ٢٦٦) .
إلى أن أشرق الفجر العجيد، وكانت مهمته ثقيلة، كان عليه أن يخلى البلاغة من الشوائب والأهداف، وأن يحلى البلاغة بالنون القائم على الفهم والثقافة والتطور .

ثانياً : تواصل الدرس البلاغي حتى عصور الجمود :

الدكتور شوقي ضيف يحرض في عرضه التاريخي على إبراز سبب آخر للتطور البلاغي غير مواكبتها لتطور الأدب ، وهو : تواصل الدرس البلاغي بين العلماء ، فاللاحق يروى عن السابق ، ويتبرر ما وصل إليه ، ثم يضيف .

فتصنيف الشاعر يأخذ على الكميّت قوله :

أَمْ هُلْ ظَعَانِنْ بِالْعَلَيَاءِ نَافِعَةٌ
وَإِنْ تَكَامِلَ فِيهَا الْأَنْسُ وَالشَّبُّ

يقول : باعَدْتَ فِي القول ، ما الأنس من الشب؟ ويلاحظ الدكتور شوقي ضيف «أن نصيبياً يطلب إلى الكميّت أن يقرن كلماته إلى لفتها، ووصلها بمشكلاتها ، وهو ما سمع عند البلاغيين فيما بعد باسم «مراقبة النظير» (ص ١٨) . وأن قدامة بن جعفر قد التفت في كتابه «نقد الشعر» إلى فكرة أن المدح ينبغي أن يكون بالفضائل النفسية لا بلوهاف الجسم ، وما يتصل بها من الح أنسن والبهاء والزينة ، ومن نقد عبد الله لابن قيس الرقيّات بهذه أعطاه من المدح» ما فخر فيه، وهو اعتدال التاج فوق الجبين الذي هو كالذهب في النضاره» (ص ١٨) ، وابن المعتز يأخذ فكرة رد الإعجاز إلى

الصدور من ابن المقفع، (ص ٢١)، والكتاب لسيبوه كان معيناً للبلغيين من بعد فيما يخص خصائص الأسلوب (ص ٢٩)، والأصمى أول من أفاض في الحديث عن «المطابقة» بمعناها الاصطلاحى، وربما كان أول من اقترح اسمها ، وكذا مصطلح «الالتقاء» ومصطلح «الإفراط في الصفة» وبكل هذا أخذ ابن المعتز (ص ٣٠-٣٢)، والذي أخذ مصطلح «المذهب الكلامى» من الجاحظ ، (ص ٦٨)، وابن المعتز أيضاً الذي فتح الباب للبلغيين من بعد أن يكتروا من فنون البديع حتى بلغت الخمسين بعد المائة ، (ص ٦٩) ، والفارسى الذى ذكر عنه الجاحظ تعريفه للبلاغة، بأنها معرفة مقاطع الكلام وتمييز فقره، وعباراته بعضها من بعض ، أدى بالبلغيين إلى جعل «الفصل والوصل» فصلاً خاصاً في علم المعانى، (ص ٣٦)، والجاحظ فتح الباب على مصراعيه ليهم أصحاب البحث البلاغى بمسألة السرقات (ص ٥٧) ، وأثر أبى عبيدة والجاحظ فى ابن قتيبة لا يذكر (ص ٥٩)، وابن قتيبة هو الذى قدم للبلغيين من بعد مثال «ومكروا ومكر الله» فسموه باسم «المشكلة»، (ص ٥٩)، والمبرد صاحب ما سمي من بعده باسم «أضراب الخبر» (ص ٦١)، وابن فارس يقدم فصل «معانى الكلام»، وأغلب الظن أن هذا الفصل الطريف كان مما أوحى لعبد القاهر جانياً من أفكاره في كتابه «دلائل الإعجاز»، التي تقوم على أن للكلام معانى إضافية غير معانى الحقيقة، وتاتي من صورة صيغته، وطبيعة تركيبها (ص ٦٢)، وقدامة بن جعفر يتأثر بثقافة اليونان (ص ٩٥)، كما كان المعتزلة يسمعون من السريان (ص ٣٩) .

والخط متصل بين الجاحظ وبين الرمانى والباقلانى وابن سنان الخفاجى وغيرهم، ومتصل أيضاً بين القاضى عبد الجبار المعتزلى والجرجانى الأشعرى، الذى أخذ عن على ابن عبد العزيز الجرجانى صاحب «الوساطة» ، والزمخشرى المعتزلى يطبق فكرة النظم عند الجرجانى .

وهكذا لا تخطئ مصدراً للفكرة، ولا تتبع فى تتبع جريانها، فالنواخذة مفتوحة والتواصل مستمر بين العلماء بغض النظر عن مذهب أو اتجاه فالعلم مشاع ، والتعلم مفروض ، والقتداء مشروع ، والإضافة واجبة .

كان لكل عالم إضافة أو إضافات : فما أن تذكر سبيوه ، حتى تذكر الركائز التي قدمها إلى علم المعاني ، وتنذكر «الفرا»، فنراه صاحب فكرة «المشاكلة للبلاغة الموسيقى بين الفواصل» ، والأصمعي يضع مصطلح «الطباق» و«الالتفات» و«الإفراط في الصفة»، وابن المقفع صاحب مدرسة «الإيجاز الدقيق ذي المعنى الواضح العميق»، والجاحظ هو صاحب «البيان» ، والمبرد صاحب «أضرب الخبر» في علم المعانى، وابن المعتز إضافة بارزة في «البديع» بمعنى «البلاغة»، وفي رده المهرج على الأصلة العربية في البلاغة، وتحجيم الواقف اليونانى، والرمانى الذى صور «الإيجاز» تصويراً نهائياً، بحيث لم يضف إليه البلاغيون التالون شيئاً (ص ١٠٤) ، والباقلانى «أول من هاجم فى قوة نظرية إعجاز القرآن عن طريق تصوير ما فيه من وجود البديع، ومن هنا تأتى أهميته، إذ أعد للبحث عن أسرار فى نظم القرآن من شأنها حين توضّح توضيحاً دقيقاً أن توقف الناس على إعجازه» (ص ١١٤) ، وهو الذى حل بعض قصار السور تحليلًا شاملًا، لم يتوقف فيه عند آية آية ، ولو استمر هذا النهج لتحرر العلماء من النظارات الجزئية ، التى عالجوا بها بلاغة النظم القرأنى ، و«عبد الجبار الأسد أبي» صاحب فكرة «النظم»، فالكلمة عنده « لا تعد فصيحة فى نفسها ، إذ لابد من ملاحظة صفات مختلفة لها ، لابد من ملاحظة أبدالها ونظائرها ، ولابد من ملاحظة حركاتها فى الإعراب ، ولابد من ملاحظة موقعها فى التقديم والتأخير» ، وبذلك يقترب اقتراحًا شديداً من عبد القاهر فى تفسيره للنظم، (ص ١١٧)، و«ابن طباطبا» صاحب الحديث المستفيض عن «خطوات إبداع العمل الفنى» ، وعن الترابط بين أجزاء العمل بحيث يؤدى أوله إلى وسطه إلى آخره، لا يند عنه شيء، (ص ١٢٧) و«الأمدى» وقف أمام تيار قدامة المتكلمس، و«على بن عبد العزيز الجرجانى» له نظرات فاحصة فى أثناء حديثه عن المتنبى، من ذلك حديثه عن «الغلو والمبالغة»، و«أبو هلال العسكري» يعنى فى كتابه باستقصاء صور البيان والبديع التى سجلها التقاد وأصحاب البلاغة فى عصره ، كما يعنى بتحليل الأطراف منها تحليلًا يدل على رهافة حسء وصفاء نوقه ونقائه . و«ابن سنان الخفاجى» يفرد حديثاً عن عيوب الكلمة، وعن أصواتها وحرقوتها، يظل معيناً ثابتًا للبلغيين من بعده يتداولونه

مفصلاً ويتداولونه مختصراً ... «الجرجاني عبد القاهر» هو واضح البلاغة شكلاً
الفني الأخير ، والزمخشري مطبق فكرة النظم على القرآن الكريم ... أما الباقيون
التالون فقد أطفلوا السراج الوهاج ، ثم تخطيوا في الظلام .

ثالثاً : منهجان ينقطعان وأخر يتصل :

أما منهجان ، فأخذهما : المنهج الأدبي وما كان له أن ينقطع ، والأخر : منهج
المتفلسبة ، وما كان له أن يتصل ، والثالث : منهج المتكلمين ، الذي اتصل من «واصل
بن عطاء» إلى «الفخر الرازى» و«السكاكى» و«القرزوىنى» وغيرهم ، وكانت بدايته
مخصوصة؛ لأنّه جمع إلى الفن دراسة بأصول علم الكلام ، وفي عصور الجمود افتقد الفن
، وبقيت الدراسة بأصول علم الكلام ، فتحولت البلاغة إلى قضايا منطقية ، وسباق إلى
تجفيف الجاف ، وتمزيق الممزق .

المنهج الأدبي ، الذي ما كان له أن ينقطع :

وبداياته كانت في مدرسة علماء العربية من لغوين ونحاة في ملاحظاتهم البلاغية
المذكورة ، إلى كتبهم في «مجاز القرآن» ، «معانى القرآن» ، «إعراب القرآن» ، إلى
مناقشاتهم أخطاء الشعراء في الصياغة ، ثم تأتي موسوعة «البيان والتبيين» للجاحظ ،
و«البدىع» لابن المعتر ، و«عيار الشعر» لابن طباطبا ، و«الموازنة» للأدمى ،
و«الوساطة» للجرجاني ، و«الصناعتين» للعسكرى ، و«سر الفصاحة» لابن سنان
الخفاجي ، و«المثل المسائر» لابن الأثير .. ويتميز هذا المنهج بغلبة الروح الفنية ، التزعة
العربية ، والاحتفاء بال מורوث في شكل نماذج بليفه ، والبعد عن زحام المصطلحات ،
والميل إلى التحليل ، مع بروز شخصية المؤلف بثقافاته ونوعه ، وقد نال هذا المنهج
ما نال الأدب من تهضة تهض معها ، ونكسة انتكس بها ولو استمر لتغير وجه البلاغة ،
ولاختفى من سمائتها أعلمات أنت بهم مرحلة الجمود ، وعمقوا هم هذا الجمود .

المنهج المترافق الذى انقطع :

وهو وليد الترجمات التى زحفت على الثقافة العربية ، ويمثلها قدامة بن جعفر بكتابه «نقد الشعر»، وأسحق بن وهب بكتابه «البرهان فى وجوه البيان» . ولم يكتب لهذا المنهج ذيوع؛ لأنه كان يريد صبغة النون العربى بقواعد اليونان، بينما كان النون العربى فى أوج فتوته وتدفق قوته، فلم يجد من يتحمس له إلا بعد قرون، على يد حازم القرطاجي وتلميذه السجلماسى فى المغرب العربى ، وانثار المنهج لا يعني عدم الإفاده من ملاحظاته السديدة .

المنهج الكلامى : وزعيمه شيخ البلاغيين المعتزلى صاحب البيان والتبيين «وقد انطلق هذا المنهج يثرى البلاغة من خلال دفاعه عن «إعجاز القرآن» من بعد الجاحظ على يد الرمانى المعتزلى ، والجبائين أبي هاشم وأبى على ، والقاضى عبد الجبار ، وهم من المعتزلة، والباقلاني والجرجانى الأشعيين، والزمخشرى المعتزلى وغيرهم من بعدهم ، الذين يمثلون المنهج حين جفت ينابيع الفن فيه ، وتحول إلى فلسفة ومنطق وكلام ونحو.

ومن أسف أن عمصور النهضة الحديثة بدأت وبين أيدي علمائنا «شرح التلخيص»، وكأنهم يصررون على استمرار المنهج الكلامى فى مرحلته العقيمة ، حتى جاء الشيخ «محمد عبده» العظيم ، وأخرج كتابى الجرجانى إلى النور ودرسهما فى الأزهر وسط حرب شعواء انتصر فيها منهج السكاكي ثانية، حتى أنشئت الجامعة الأهلية، فانبلاج الصبح من جديد، على يد د. طه حسين ، ود. أحمد ضيف، وأحمد أمين ، وأمين الخولي، ود. شوقى ضيف، وغيرهم من الأعلام . فحضارت المدرسة السكاكية تاريخاً يورخ للنون البلاغى فى مرحلة من مراحله ، وليس هى البلاغة نفسها .

رابعاً : رأى شوقى ضيف فى بلاغة الأمس وبلاغة اليوم :

بعد هذه الدراسة المستفيضة الشائقة ، يختتم العالم العلم الدكتور شوقى ضيف جولته بتشخيص الداء واقتراح النواء . داء بلاغتنا بالأمس ، وبنواء بلاغة اليوم .

فالداء : أن أسلافنا قد صبوا عنایتهم على الكلمة والجملة والصورة : وذلك يرجع من بعض الوجوه ، إلى أنهم قصوا بقواعدهم تعليلاً بلاغة العبارة القرآنية ، كما يرجع إلى طبيعة الشعر القديم ، إذ كان في جملته وجداً تماً غنائياً ، ولو أن شعراءنا نظموا في أساليب جديدة كأسلوب الشعر الشخصي أو المسرحي ، أو لو أنهم نوعوا في شعرهم الوجداني ، لتعدلت الصور ، واختلفت الأشكال الفنية ، وللحقت بها الدراسات البلاغية وللاحقتها في سياق تطور .

ونفس هذه الملاحظة تنسحب على فن النثر الذي كاد ينحصر في الرسائل الديوانية ، القائمة على الجملة المسجوعة ، كما قامت القصيدة على البيت المفرد ، وأشعر الشعراء الذي قاله .

ونحن في عصرنا نختلف عنهم من هذه الوجهة ، فقد استحدثنا في مجال الشعر أساليب وفنوناً شتى ، كما استحدثنا في مجال النثر المقالة والقصة والأقصوصة والمسرحية ، حتى الخطابة نفذنا فيها إلى نمط جديد وهو الخطابة القضائية .

واللواه : أن تلاحم دراساتنا البلاغية نهضتنا الأدبية : بحيث تصور فنوننا الشعرية والثرية وأساليبها المتعددة ، وب بحيث تكون صورة لحياتنا الأدبية الحديثة .
وبلاعثنا القديمة من مقومات شخصيتنا ، فعلينا أن نأخذ بتلابيبها على أن نصفها مما لحق بها من أدران الفلسفة والمنطق والكلام وال نحو .

وهكذا ، «نأخذ من القديم أصولنا ، ومن الحديث حياتنا ، فتتطور بلاغتنا ، وتصير صورة لنا » . (ص ٢٧٦ - ٣٧٨) .

هذا هو كتاب « البلاغة : تطور وتاريخ » ، وقد وقعت عليه عيون الملايين من القراء منذ عام ١٩٦٥ م ، وستقع عليه عيون ملايين أخرى ، وسيتعلم منه الكثيرون والكثيرون ، ويرؤونه أو يناقشونه ، وقد يختلفون معه ، وأنا منهم ، ولكننا جميعاً لا نختلف : في أن هذا الكتاب معلم من معالم الدرس البلاغي ، لعلم من أعلام عصرنا الحديث هو الأستاذ الدكتور شوقي ضيف .

د . منير سلطان

أستاذ البلاغة

كلية البنات - جامعة عين شمس

١٩ - الأصول الجمالية

في الدراسات النقدية عند شوقي ضيف

د . محمد عزيز نظمي

نستهدف من عرض هذا البحث - في مناسبة تكريم رائد من الرواد - تسجيل صفحات مجيدة مزدهرة عن أصالة هذا الرائد ، من خلال إبداعاته العبقرية ، في مجالات التراث واللغة والأدب والنقد، خلال حقبة تاريخية تركت بصماتها ، على تاريخ الفكر والأدب والحضارة في مجالات الثقافة المصرية ... وإننا نحن نحس بابادة الوفاء هذه ، والطاء الذي بذله أستاذ الأساتذة، فكان بمثابة نبع فياض ثرى على بلته وأمته .

ولانا نتبين كذلك بموضوعية، وحياد علمي ، تلك الإضافات الواضحة في تاريخ الثقافة، التي كان لرائذنا الفضل كل الفضل فيها ، فكان ذلك باعثاً على حركة التجديد، والأصالة ، مما يجعلنا بداية نخر ونعجب بتلك المحاولات الجادة التي قام بها . ومن ثم يتعمق علينا أن نضع قضية التراث والتجديد في تاريخنا الأدبي والثقافي ، في وضعها الصحيح ، فلا نتجاهل مائة من مائة وبنقر في حياد وأمانة أن ابن مصر ، وليس ابن دمياط فحسب قد حمل مشعل الثقافة ، ولواء الأدب والنقد طوال سنوات من تاريخ مصر، عالياً وكان دوره الرائد مشهوراً بحمله وبفضله .

ولعل السمة الظاهرة في دراسات رائذنا الأستاذ الدكتور شوقي ضيف هي الأصالة من ناحية، والتجديد من ناحية أخرى، تلك كانت السمة الواضحة المعالم والتي تبدي لن يمعن النظر في سياق دراساته ومنهاجه النقدي .

ويتعين على الدارس لتراثه أن يستقرئ منهاجه الواضح من خلال دراساته وإبداعاته في مجالات التراث والأدب ، وتاريخه والدراسات النقدية والتراجم، ومن خلال اللغة والبلاغة، وقد أثروا تحديد الموقف منذ البداية ومنذ أن أخرجنا دراستنا المتواضعة

في مجال الإستاطيقا ، بعد الدراسات الجمالية وفلسفة الفن أن نتابع تلك الجهود الخلاقة والتفسيرات الجادة التي تتميز بالموضوعية والربط بين الأصالة، والمعاصرة من ناحية أخرى . وبهذا المعيار حاولنا جاهدين أن نطبقه على إبداعات رائذنا في دراساته الأدبية والقدية. فتبيننا منزلته، وأصالته، والتى تتضمن أمامنا بجلاء ، فى محاولة استكشافنا للأصول الجمالية (أعني الاستاطيقية) لدراساته النقدية، وتفسيراته لمذاهب النقد والأدب العربي قديماً وحديثاً، وسنبين أيضاً النزعة التكاملية فى المنهاج النقدي لديه، التى جمعت بين النظرية الفنية والتاريخية فى شمول واتساق عضوى، تجاوزت مفهوم البنائية وأنساق الثقافة ، فهو يؤكد الصلة العضوية بين الشعر والتصوير التشكيلي، والموسيقى، وكائننا أمام رأى عالم الجمال الفرنسي «أتين سوريو» الذى يؤكّد ارتباطات الفنون الجميلة جميعاً فيه ، فيتجاوز بذلك مفهوم محاكاة المحاكاة فى الفن ، كما قرره من قبل كل من أفلاطون وأرسسطو إلى مفهوم آخر ، هو الارتباط أو التكوين العضوى بين رواد الفنون الجميلة ، بما فيها فنون الأدب المختلفة (من شعر ونثر وقصيدة وخطابة ... الخ) إلى مفهوم جديد يستند إلى روابط ثلاثة :

- الرابطة الأولى** : وتحدد في الخيال الإبداعي المستوحى من وجдан الفنان وخبراته الحسية واللاشعورية .
- الرابطة الثانية** : وتحدد في الرؤية الجمالية والصور المشاهد المستوحاة من الطبيعة أو الخيال .
- الرابطة الثالثة** : وتحدد في الإلهام أو الحدس الجمالى ، والإشراق المعبر عن كيفية إدراك الصورة الجمالية الخلاقة أو المبدعة، التي تمر بمراحل أربع ، تبدأ بالإعداد ، أو التحضير، ثم بالحضانة ، أو التمهيد والاستغراق تم بالإشراق ، ثم بالتعبير أو التنفيذ .

كما نجد أستاذنا (ضيف) يحدد منهج الحكم الجمالى على الأثر الفنى من خلال النزق المتمرس الخبير المستوعب، لأصول التقنية الفنية وعناصرها الجمالية، وحذق وسائل صياغة التجربة الجمالية فى ضوء ثلاثة محاور أو معايير أو مقاييس :

- أول هذه المقاييس هو البعد ، أو المحور التاريخي والعصر الاجتماعي .

- ثانى هذه المقاييس هو البعد ، أو المحور الفنى، أو الجمالى المعبر عن تطور المضمون أو المحتوى، وكذا الشكل أو الصيغة فى إطار لغة التعبير سواء أكانت أنغاماً أم ألفاظاً أم الواناً .

- ثالث هذه المقاييس هو البعد ، أو المحور الرابط الحضارى بين التراث أو الأصالة، وبين التجديد أو الحداثة أو المعاصرة .

ويمكن القول بأن (الدكتور ضيف) قد رسم معالم الطريق إلى علم جمال أدبى عربى، من خلال دراساته النقدية للنماذج الفنية حيث وضع القواعد والتأصيل النظري لها ممثلاً غنياً عرضه بم مؤلفاته القيمة عن مذاهب النقد والفن والشعر والنشر ، ودراساته عن البحث الأدبى ومنهاجه .

ويكفى أن نستوعب إشاراته حول تطور الفكر الجمالى بداية من أفلاطون الذى ذهب إلى أن كل جمالى حسى، أو إبداعى، أو عقلى مرده المثال الحالى فى إطار نظريته عن عالم المثل والجمال المطلق، بينما ذهب أرسطوا إلى القول بأن الجمال يتمثل فى تناسق التكوين ، ثم ساد فى العصر الحديث المفهوم القائل بأن الجمال هو ما يتعلق بالإحساس، أو بالشعور دون الخلط بينه وبين المنفعة أو الأخلاق فتحددت بذلك معانى الجمال بوضوح فى مصطلح الإستاتيقia Aesthetica على يد الفيلسوف الجمالى الألمانى جوتليب مجارتن (١٧١٤ - ١٧٦٢) ، ثم تعددت الدراسات الجمالية على يد كانت وهigel، وشوبنهاور، وجوبه، وكروتشه، وتين، وتولوستوى، وسانتيانا، وديبوى وغيرهم ... وعندما يحصل الأستاذ ضيف لنظيره الجمالى يرى أنه من الضرورى أن تستند التفسيرات النقدية على أساس واضحة ومحددة، من خلال البعد التاريخي لتطور النقد الأدبى، منذ أرسطو، الذى يرى أستاذنا أنه يكاد ينفرد بمنهجه العلمى الدقيق فى محاولة لوضع نظرية كاملة للمأساة أو التراجيديا، وتمتد الدورة الأولى للنقد الأدبى حتى نهاية القرن الثامن عشر الميلادى، ويتميز هذه المرحلة بإشارات وملاحظات مبهمة غامضة تخلب الأسماع، ولكنها لا تجعل العقول تصفي إلها ، بينما تبدأ المرحلة الثانية مع مستهل القرن التاسع عشر الميلادى، حيث يحاول النقاد وضع نظرية نقدية ذات صبغة منهجية علمية، من منطلق العلوم الطبيعية أو الفيزيائية ، فاقاموا ما يمكن أن

نسميه (بالتاريخ الطبيعي للأدب) وطبقوا تصنیفات وتقسیمات الطبيعة على فنون الأدب ، متاثرين بالتطورية الداروینية من ناحية، ويمذاهبون قوانین الحضارة والبيئة والجنس والعصر من ناحية أخرى، بل أفسح المجال أيضاً للدراسات السیکولوجیة والاجتماعیة من خلال التفسیر الفرویدی ، لظاهرۃ الأدبیة أو الفنیة، وكان لكل هذه المؤثرات أثره الواضح في نشأة النقد، وتطور مناهجه وتحليل الأدب والتراجم الأدبیة من ثلاثة وحدة الزمان والمكان والموضوع، إلى أنماط جديدة تمثل في النتاج الفنی للقصة والمسرحية والقصيدة .

ومن خلال عرض أستاذنا الرائد لنشأة النقد وتطوره يبدأ بالحضارة اليونانية - وإننا نعرض رأيه مع شيء من التحفظ- فعلى حد قوله : « إن اليونان أسبق القدماء إلى وضع أصول النقد وقواعده، يجعلهم يتتجون الفلسفة و مجالات أخرى من المعرفة، بدأ بنتاج الشعراء القدماء في ملامحهم الأسطورية وبطولاتهم الخارقة، مع هوميروس إبان القرن التاسع ق . م . في الإلياذة والأوديسة، ثم (هيزيود) في القرن الثامن ق . م . وكان العهد الأول لتاريخ الفن الأدبی ، هو الرواية ، ثم التدوين الذي أبرز الشعر التمثيلي إبان القرن السادس ق . م . حيث تعدى وصف الشعراء حياة الآلهة والأبطال إلى الحياة العاديّة وموضوعاتها الاجتماعية، والسياسيّة، والفلسفية، فيها هوذا أرسطوفانيوس يؤلف ملهاته (السحب)، مثلاً الصراع بين الفكر والدين الوثنى للعامة ، ثم يتبعها بمسرحيّة (الضفادع)، مجسماً الصراع بين القديم والجديد أو بمعنى آخر صراع الأجيال على لسان شخصيات المحورية أسكيلوس ويوربيديوس، ومع إطالة القرن الخامس ق . م . يرقى الفكر العقائلي الفلسفى فيكتور الجدل والسفسطة، ونجد محاورات سocrates ثم أفلاطون بين جموع الفلاسفة، والسوفسطائية، تنتهي بمحاولات أرسطو لوضع كتابه البيوطيقا، أو الشعر ، ثم الريطوريقا أو الخطابة متابعاً بذلك ما كتبه أفلاطون في محاوراته أيون، والجمهوريّة، وقولنا بالتحفظ السالف الذكر مرجعه أن الأدب المصرى القديم كان نبئاً للأدب اليونانى .

ومن خلال العرض التاريخي لتاريخ النقد الأدبی، يطلق رائدنا الدكتور شوقي ضيف على النقد الأدبی العربي في تلك الحقبة قوله ... «إن النقد العربي كان في جملته نقداً عملياً يتصل بالجزئيات ولا ينفصل عنها .. فقد كان محوره غالباً البيت والعبارة،

والم ينظروا في الأدب ، أو لتشعر نظرة عامة ، بحيث يمكن القول أن نشاطهم النقدى كان أقرب إلى البلاغة منه إلى النقد الخالص ... ومن الصعب أن نجعل لهم فلسفة جملية ، أو نظريات نقدية بالمعنى الدقيق .. » .

وفي مجال المقارنة لتاريخ الأدب في العصور الوسطى بإيطاليا وفرنسا ، يذكر أستاذنا الدكتور أن الأدباء تقيدوا تقيداً شديداً خلال القرن السادس عشر والسابع عشر فيما يختص بفن المسرح وقواعده، ثم خضعوا لقواعد الكلاسيكية وأصولها الدراسية ، ثم ظهر في القرن الثامن عشر نزعتان من التقد : نزعة تراثية تستند إلى القواعد وأصول الأدب اليوناني ، والتقييد بقواعد أرسطو ونزعة أخرى مغایرة مجددة ظهرت على يد «جري» (1712-1771م) بإنجلترا بحثاً عن أدب عصره ، والتفني بالطبيعة وعلى يد دiderوا بفرنسا (1712-1794م) داعياً إلى نبذ التراث والتقاليد القديمة ، بينما ظهرت على يد علماء الجمال المعاصرين الذين ساروا بالراسات الجمالية سيراً كثيراً .

وسبق التنبؤ إلى أن أستاذنا ضيف أقام منهج التحليل النقدي والتقويم الجمالي **Jugewanl de Valuera** على أساس استطيفي، استبطةه من افتراضين جماليين :

الفرض الأول : وهو الوظيفة في الفن في إطار السمات الجمالية ، أو العناصر الجمالية الخالصة ، بفضل قوة التفكير التي تهدينا إلى الحقيقة، وقوة الإرادة التي تهدينا إلى الخير، وقوة الإحساس التي تهدينا إلى المتعة الجمالية. أو بمعنى آخر تكامل المفهوم القيمي للجمال ، فعارض بذلك النزعة القائلة، بأن الفن للفن، كما عارض النزعة القائلة بالمنهج التأثيري ، كما عارض أيضاً أصحاب النزعة الموضوعية في الفن ، وأكد من جهة أخرى الأصول الجمالية أو القيم الجمالية بصفة خاصة والقيم بصفة عامة .

الفرض الثاني : وهو التكاملية في الفن في إطار الإفادة من المناهج المختلفة ، والنزاعات المتعارضة، ما بين النزعة السينولوجية التي تتضرر إلى ممارسات الفن التجارب مستقلة، نتيجة المعاناة ل الواقع نفسية، أو نزعة اجتماعية ترى الالتزام في الفن لقضايا اجتماعية ، تتوافق منها حرية الفنان والالتزام المجتمع له في وحدة متسبة،

وتجعل من الناقد يعين من كل هذه الطرق والنزاعات في تفسيره، وتحليله، وتقويمه للعمل الفني في إطار متوازن بين الفن وقيمة الجمال، ومع الدافع المعاش وقيم الحياة بما يتحلى به الناقد، من عدالة وأمانة فيضع موازين عادلة لا تميل مع الهوى أو التبعض، وليس أدل من عبارة يسوقها أستاذنا ضيف قوله : « .. والناقد الحق لا يرفع شيئاً فوق قيمته ولا ينزل شيئاً دون قيمته .. » .

ويخلص أستاذنا إلى قواعد تقويم العمل الفني على أساس استطبابي آفاقه الحياة، وقوامه الخبرة الجمالية ، وسيبله النونق ، ولكن ي ذلك على نظريته، يطوف بنا بين آراء الجماليين، أمثال جريرو، وبويهارتز ، وكانت من خلال تحديد مواقف المدارس الفنية، كالرومانتيكية، والكلاسيكية، والرمزيّة ، والسريالية ، والتّابيرية، والتعبيرية .

وفي مجال الاستشهاد بأمثلة يتناول أستاذنا نظرية الشعر ، فيقرر بقوله : «وليس معنى أن شعراءنا المعاصرین، ينفصلون عن أسلافهم، وتقاليدهم الفنية الموروثة، فما يزال السابقون منهم يحتفظون بشخصية شعرنا، ومقوماته الفظوية، مع التّمثل الدقيق للشعر العربي وأنماطه؛ فهم مجذبون وفي الوقت نفسه متصلون بالقديم ، أهلتهم لها ثقافاتهم وشعورهم وبيئتهم وعصورهم ومواهبهم، التي تعبّر عن شعوبهم، ومتّها العليا من الخير والحق والجمال. وبذلك لم يعد الشعر عندنا أفالاظاً ترصف رصفاً لتؤلف قصيدة في موضوع تقليدي، بل أصبح عملاً أدبياً جديراً بالعناية والاهتمام لما يتضح فيه من ذات الشاعر وتراث أمته .. » ويستطرد بقوله : « ومن الحق أن الذين تعمقوا في الآداب الغربية، واستمدوا منها في بعض منها صوراً من شعرهم، ولكنه من الحق أيضاً أنهم لم يفروا أنفسهم فيها ، بل ظلت لهم شخصيتهم العربية .. وبهذا يؤكد أستاذنا الملهم والسمات المميزة لفن والأدب، من خلال البعد التّطوري في تاريخ الأدب ، من قوله : « .. ومن المعروف في تاريخ الأدب من عصر من عصورها في أمّة من الأمم ، لا يمكن أن ينفصّم عن العصور التي سبقته، وكان هناك تياراً شائباً خلف العصور المتعاقبة، يعمل في القديم ولا يزال يعمل في الجديد، فكل أدب له ماضٍ يبني عليه يمد الحركة الدائمة في الأدب ، إذ يحيي كل جيل ما سبّقه من أجيال لا من الناحية الجمالية وحدها بل أيضاً من ناحية الأفكار والمشاعر . » .

ويشير أستاذنا إلى أهم وأبرز عناصر الجمال الفنى فيما يلى :
أولاً : الوحدة العضوية للعمل الفنى .

ثانياً : التطابق بين الصورة والمضمون فى العمل الفنى .

ثالثاً : خصوصية الخيال الإبداعى فى العمل الفنى .

رابعاً : الأصلالة فى بلورة العمل الفنى .

خامساً : دعم القيم الإنسانية فى العمل الفنى .

ثم ينتقل أستاذنا إلى الوسائل الإعلامية للأدب وفنونه من خلال الصحافة والفن السينمائي والمسرحى والقصصى ، وهو بذلك يعطي أبعاداً لوسائل نجوع وانتشار الأدب وفنونه المختلفة .

نقطة تقويمية :

يشغل النقد الأدبي والدراسات البحثية ، والتحليلية لبعض النماذج الأدبية والترجم الشخصية لبعض الشعراء القدمى ، والمحديثين التي تتناولها أستاذنا الدكتور ضيف بالدراسة والبحث ، مجالاً واسعاً في دائرة بحوثه ومؤلفاته ، ولكن أبرز ما ضمنته هذه الدراسات النقدية أساساً أستطيقياً ، أى جمالياً لكثير من النظريات والمذاهب النقدية، اتضح في تلك الأبعاد والمحاور والأسس والقواعد التي أقام عليها دراساته، فكانت بذلك إرهاصاً أو تمهيداً ومدخلاً طبيعياً لعلم جمال أدبي ، له أبعاده موضوعاته وتقنيته، التي يمكن للمشتغل بهذا المجال أن يستتبعها استنباطاً علمياً وتطبيقياً .

ويجدر التنوية إلى أن ما يتبعه للدرس في نطاق النقد الأدبي أنه أقام أنموذجاً يحتذى به عند الدراسة التحليلية لفنون الأدب، قدمه أستاذنا الدكتور شوقي ضيف، كما أن منطلق هذه الدراسات الموضوعية يأخذ معانها وخصائصها ، والتي يتعين على

الدارسين أن يضعوها نصب أعينهم عند الدراسة والبحث، وبما لا شك فيه أن ارتياح
أستاذنا لبعض مسائل ومواضيعات علم الجمال الأدبي، يعتبر إلهاماً طيباً لتنظير علم
جمال أدبي عربي، كانت الدراسات النقدية والأدبية في أمس الحاجة إلى قيامه .

وأخيراً ونحن في نهاية المطاف وبعد سفر طويل ومتعدد الإتجاهات بين فنون
الأدب ، نرى إضافة وإبداعاً ومنظوراً جاداً وجديداً ألا وهو البعد الجمالي
أو الاستطيقي، لأستاذنا الرائد الدكتور شوقي ضيف، له هنا ومنكم أسمى التقدير،
وأجل الإعزاز لعمله الممتاز الإبداعي، ولشخصه الكريم، ولجهده العلمي الأصيل، له هنا
القدر والتكريم .

د . محمد عبد العزيز نظمي سالم

أستاذ الفلسفة

كلية أداب بنها - جامعة الزقازيق

٤٠- منهج شوقي ضيف

في دراسة شاعر العصر الحديث

د . أحمد موسى الخطيب

عبر تاريخنا الأدبي الطويل حظى بعض الأعلام باهتمام خاص، ودار حولها كثير من الخلاف والجدل ، أكد شهرتها ونجميتها ودورها في تحقيق التكامل الاجتماعي في عصرها ، وإضافتها النوعية للتاريخ الفنى للجماعة، وحسبنا أن نذكر من تلك الأعلام ذات الشهرة العريضة في تراثنا الشعري أبا نواس ، والبحتري ، وأبا تمام ، والمتتبى ، وأبا العلاء المعرى .. وغيرهم ، وأن نتذكر ما دار حولهم - أحياً - من جدل عنيف ، ومن انقسام للنحو الأدبي العام ، وكيف ظلت هذه الأعلام - بعد وفاتها - محل اختلاف للرأى ، تستحوذ على اهتمام العلماء ، وتستقطب جهود الدارسين ، وتنالق في سماء الفن مثلاً يحتذىها شدة الأدب .

أما في العصر الحديث فيلقاناً أحمد شوقي (١٨٦٩-١٩٣٢) علمًا بانخًا من أعلام الفن الشعري، استحق بجدارة أن يتربع على عرش إمارته ، فقد ثار حوله - في حياته وبعد مماته - من الجدل والخلاف والاهتمام ما يفوق نظيره عند أسلافه، وهو حقيق - ولا ريب - أن تتمحور حوله اهتمامات الأدباء والباحثين في مصر ب خاصة والوطن العربي بعامة، منذ أن رکز بقوه - في مطلع هذا القرن - راية الشعر خفاقت على ضفاف وادى النيل ، وأكد لمصر زعامتها الأدبية لفن الشعر التي رادها أستاذه محمود سامي البارودي، وأسهم في صياغة نونق فني جديد، حيث بلغت القصيدة الفنائية على يده أوج نضجها، كما ألان الشعر العربي - لأول مرة - لفن التمثيل ، وكرس هذا المنحى في خمس مسرحيات شعرية، وقد أسهمت هذه الحركة النقدية النشطة حول

شوقى فى إثراء المكتبة العربية بالعديد من الدراسات^(١) ، حيث تناول بعضهم حياته وفته بشكل عام ، مثل : شكيب أرسلان «شوقى .. أو صداقة أربعين سنة» ، وشوقى ضيف «شوقى شاعر العصر الحديث»، وذكى مبارك «أحمد شوقى» ، وعمر فروخ «أحمد شوقى أمير الشعراء فى المصر الحديث»، وأحمد محفوظ «حياة شوقى»، ومحمد إسحاق النشاشىبى «العربى وشاعرها الأكبر أحمد شوقى» . تناول فريق آخر جانبًا من فنه؛ فدرس محمد متلوor «مسرحيات شوقى»، وتناول طه وادى «شعر شوقى الغنائى والمسرحى» ، ويبحث محمود حامد شوكت «المسرحية فى شعر شوقى»، ووقف إبراهيم الفيومى عند «شوقى ناثرًا» . كما اقتصر بعض الباحثين على دراسة منحى من مناحيه الفنية، مثل : أحمد ذكى عبد الحليم «أحمد شوقى .. شاعر الوطنية»، وأحمد الحوفى «وطنية شوقى»، وأحمد سويلم العمرى «أدب شوقى فى السياسة والمجتمع»، وصالح الأشتربت «أندلسيات شوقى»، وماهر حسن فهمى «شوقى .. شعره الإسلامى» . كما تناوله بعض الدارسين من خلال الدراسات مقارنة مع معاصره ، أو مع من تأثر بهم فى التراث العربى أو الغربى ، مثل : طه حسين «حافظ وشوقى»، وحسن السنديوى «الشعراء الثلاثة .. شوقى مطران، حافظ»، وعباس حسن «المتنبى وشوقى»، وعبد الحكيم حسان «أنطونيو وكليوباترا بين شكسبير وشوقى» . أما محمد الهادى الطرابلسى فى دراسته «خصائص الأسلوب فى الشوقيات» فقد تناول شعره بمنهج أسلوبى، مقدمًا بذلك أول دراسة أسلوبية تطبيقية لشاعر عربى فى العصر الحديث، هذا ولا تخلى دراسة لتاريخ الأدب العربى فى العصر الحديث من الوقوف عند شوقى وإسهاماته الإبداعية الرائدة ، بل لا تكاد تخلى دراسة نقدية لجانب من جوانب الأدب العربى فى العصر الحديث من الوقوف طويلاً عند دور شوقى فيه ، ونذكر منها «الديوان فى الأدب والنقد» لعباس محمود العقاد بالاشتراك مع إبراهيم المازنى ، و«شعراء مصر وبيئاتهم فى الجيل الماضى» للعقاد ، هذا إلى جانب عدد من الدراسات المهمة - وهى رسائل جامعية مخطوطة بجامعة القاهرة - مثل : «الصورة الفنية عند شعراء الإحياء» لجابر عصفور، و«التطوير والتجدد فى الشعر المصرى

(١) راجع : شعر شوقى الغنائى .. والمسرحى . د . طه وادى . دار المعارف بالقاهرة . ط ٢ ، ١٩٨٥ م ، ص ١٧٦ وما بعدها .

ال الحديث» لعبد المحسن بدر، «والشعر السياسي بين ثورة عرابي وثورة ١٩١٩» لعبد المنعم تلية ، و«الصورة الفنية في الشعر العربي في مصر» لنعيم اليافي، و«أثر التراث العربي على مدرسة الإحياء» لإبراهيم السعافين .

وكان التعرض لشوقى وأدبه - فى عصره - بمثابة الجسر الموصى إلى الشهرة ، ودخول دائرة الضوء من أوسع الأبواب ، لذا حفلت آنذاك الدوريات المصرية بخاصة بالعديد من المقالات الأدبية ، التى تعلى من قدره أو تحط من شأنه، وأعربت بعض الدوريات المصرية عن احتفالها بشوقى باصدار أعداد خاصة عنه مثل : السياسة الأسبوعية (إبريل ١٩٢٧)، وجريدة الأهرام (٢٠ إبريل ١٩٢٧) . وتواترت هذه الصورة بعد وفاته، وعلى مراحل زمنية متباude، وشارك فيها عدد من الدوريات المتخصصة مثل أبوللو (فبراير ١٩٢٢)، والكاتب المصرى (أكتوبر ١٩٤٧) ، والهلال (نوفمبر ١٩٦٨) ، والثقافة (أكتوبر ١٩٨٢) ، وفصول (أكتوبر ١٩٨٢ ، ويناير ١٩٨٣) ، وكانت مجلة فصول للنقد الأدبي آخر صور الاحتفاء وأهمها ، فقد أفردت عددين كاملين لنشر الدراسات المهمة التى نوقشت إبان الاحتفال بمرور خمسين عاماً على وفاة شوقى وحافظ، وقد انعقد هذا الاحتفال فى مقر الهيئة العامة للكتاب فى مصر، وشاركت فيه وفود عددة مثل الكثير من الجامعات العربية، كما أسمحت فيه وفود غير عربية أيضاً ، وامتازت تلك الأبحاث المقدمة بوفرة الدراسات النصية لأعمال شوقى بخاصة، وبالتنوع اللافت فى المناهج النقدية المستخدمة فى التعامل مع نصوص الشاعر بل التباين فى الإجراءات التى يتوصل بها المنهج الواحد فى التعامل مع شاعر واحد ، ويتناظر فيها الدراسة التحليلية مع الدراسة التوثيقية ، مثلاً تتباين التحليلات البنوية مع الأسلوبية، ويتقابل البنوية والأسلوبية مع التفسير التاريخي أو التحليل الاجتماعى، دون أن يخلو الأمر - فى النهاية - من محاولات توافقية .

وقد شارك استاذنا الدكتور شوقى فى هذا الاحتفال بدراسة بعنوان «حافظ وشوقى وزعامة مصر الأدبية»، وقد سلك فيه نهجه فى دراسة «شوقى شاعر العصر الحديث» .

ومنذ أن بدأ الدكتور شوقى سلسلة دراساته لتاريخ الأدب العربى بكتابه «العصر الجاهلى»، فقد حدد منهجه الذى اختطه لنفسه، وكرسه لا فى تاريخه لسائر عصور

الأدب العربي فحسب، بل في كل دراساته الأدبية التي أثرى بها مكتبة الدراسات الأدبية ، وهو منهج يتسق وتحديده لمعنى الأدب الذي لا يتسع في توسيع بركلمان ، وجودجي زيدان، فقد رأى «أن أدبنا العربي يفتقر إلى طائفة من الأجزاء المبسوطة، تبحث فيها عصورة من الجاهلية إلى عصرنا الحاضر ، كما تبحث شخصياته الأدبية بحثاً مسهباً، بحيث ينكشف كل عصر اكتشافاً تاماً، بجميع حدوده ، وببياته، وأثاره ، وما عمل فيها من مؤثرات ثقافية وغير ثقافية، ويحيث تكشف شخصيات الأدباء اكتشافاً كاملاً بجميع ملامحها وقسماتها النفسية والاجتماعية والفنية »^(١) .

وقد أوجز في استهلاته لكتابه «العصر الجاهلي» أهم مناهج الدراسات الأدبية المعروفة، وما يعتورها من قصور ، وما طرأ عليها من تطور ، وانتهى إلى قوله : «سنحاول أن ندرج في أجزاء هذا الكتاب للأدب العربي بمعناه الخاص . مفيدين من هذه المناهج المختلفة في دراسة الأدب، وأعلامه وأثاره ، فنقف عند الجنس والوسط الزماني والمكاني الذي نشأ فيه الأديب، ولكن دون أن نبطل فكرة الشخصية الأدبية، والمواهب الذاتية التي فسح لها سانت بيف في دراساته، وكذلك لن نبطل نظرية تطور النوع الأدبي .. ولابد أن نستضيء في أثناء ذلك بدراسات النفسيين والاجتماعيين ، وما تلقى من أضواء على الأدباء وأثارهم ، ويجانب ذلك لابد أن نقف عند أساليب الأدباء وتشكيلاتهم اللفظية، وما تستوفى من قيم جمالية ، ولابد من المقارنة بين السابق واللاحق في التراث الأدبي العربي جميعه »^(٢) .

والملاحظ أنه لم يسم هذا المنهج التكاملـي، لكنه - بعد ذلك - كان أكثر وضوحاً حين نشر كتابه «البحث الأدبي .. طبيعته ، مناهجه ، أصوله ، مصادره» عام ١٩٧٢م، فعرض بالتفصيل لأهم مناهج الدراسة الأدبية ، ثم شفعها بالحديث عن المنهج التكاملـي، الذي يستضئ فيه الباحث الأدبي بكل المنهاجـات والدراسات الأخرى ؟ لأنـه يرى أنـ البحث الأدبي أعقد من أنـ يخضع لمنهج معين ، أوـ قلـ إنه لا يمكنـ أنـ يحتويه منهجـ يعنيـهـ، لذا لابـدـ أنـ يستعينـ الباحـثـ بهاـ جـمـيعـاـ، حتىـ يمكنـ أنـ يـضـطـلـ بـيـحـثـ أدـبـيـ قـيمـ،

(١) العصر الجاهلي . د . شوقى ضيف . دار المعارف بالقاهرة . ط ١٩٧٦ . من المقدمة .

(٢) المرجع السابق حـ ١٣ .

ولعل في تعددها ما يشهد بأن الآثار الأدبية كنوز حافلة بجوانب وفيرة وأيضاً لعل في تعددها ما يشهد بأن منهجاً واحداً لا يغنى غناءً تاماً في البحوث الأدبية ، فلابد أن يتحول عقل الباحث إلى ما يشبه مرآة تعكس أضواء كل تلك المناهج ، فهي تعكس فكرة الفردية والأصلية والمرسدة أو الفصيلة الأدبية ، وأفكار البيئة والعصر والظروف والتطور التاريخي والاحتياجات الاقتصادية للمجتمع ، والتزام الأديب ومدى تمثيله لمجتمعه ، ورواسب اللاشعور الفردي واللاشعور الجماعي ، وعناصر الجمال الكلية للتعبير وموسيقاه ، كما تعكس انتطباعات الباحث المتعة وصلة الأديب بالتراث الفنى ، وأيضاً تعكس تحليلات لغوية ونحوية بلاغية دقيقة»^(١) .

وليس معنى دعوة أستاذنا إلى هذا النهج أن يتلزم الباحث بحرفية كل تلك المناهج . فقد نبه - مثلاً - في أكثر من موضع إلى جوانب التعسف في مناهج الدراسات الطبيعية عند سانت بياف وبرونتير ، وصنع مثل هذا حين عرض للمنهج النفسي باتجاهاته المتعددة ، فهو يقيم منهجه التكاملى على الاعتدال فى الأخذ من تلك المناهج المختلفة ، فيقبل منها ما يراه إيجابياً متمنعاً في البحث الأدبى ، ويرفض منها ما يجده متعرضاً لا يتفق وطبيعة الأدب : لأنه يرى أن عالم الإنسان يخضع لقوانين أعمق من القوانين الطبيعية ، وأن تاريخ الأدب ينبغي أن لا يلحق بالعلوم الطبيعية ، وإنما يلحق بالدراسات الإنسانية .

وحين نتأمل دراسته «لشوقي شاعر العصر الحديث» نجد أنه لم يخرج عن منهجه التكاملى الذى اختطه لنفسه ، ففي الفصل الأول الذى عقده لحياة الشاعر ، يبيّن تأثيره بالمناهج الطبيعية عند تين وسانت بياف ، فنراه يبحث في أصوله والعناصر المختلفة التي تأثرت فيه من تركية وشركسية ويونانية وعربية وكردية ، وصنعت بالضرورة منه شاعراً ممتازاً لعل مصر لم تظفر بمثله في عصورها المختلفة ، فهو يرى في ميراث دمه وأعراقه أخطر مكونات الشاعر وشاعريته ، حيث يقول «وقد اجتمعت هذه الأصول المختلفة ليخرج منها هذا الفرع المونق ، وكلنا نعرف شهرة العرب واليونان قديماً بالشعر والشعرية ، وإن ازدواج هذين الأصلين في شاعر ليؤذن أن ينال قمة الشعر ، بل أن

(١) البحث الأدبي .. طبيعته . منهاجه . أصوله . مصادره . د. شوقى ضيف دار المعارف بالقاهرة ١٩٦٠ م . ص ١٤٤ و ١٤٥ .

يبلغ فيه عنان السماء»^(١). ويرى المؤلف أن فكرة الجنس أو الفطرة الموروثة في الأمة التي شاعت في عصر «تين» و«رينان» نجدها واضحة عند الجاحظ في حديثه عن الأجناس في بعض رسائله، كما نجدها مائة عند ابن خلدون في مقدمته^(٢).

ويتابع الدكتور شوقي تأمل بعض الأحداث المهمة في توجيه حياة شاعره وفنه، فيقف عند طفولته في بلاط الخديوي إسماعيل، حيث كانت ترعاه جدته «تمراز»، وحيث فتح عينيه على ذهب الخديوي إسماعيل وهو ينشر أمام عينيه القلتين الحالتين، فقد وضعته ربة الشعر منذ نعومة أظافرها في مهاد من النعيم، وما زالت تدلله في هذا المهاد حتى آخر حياته، وكان ابتعاثه - على نفقة الخديوي توفيق وتوجيه منه - إلى باريس لتلقى علومه في القانون قيداً جديداً يشده إلى القصر، ويبعده عن الشعب، كما أنه بقبوله العمل في القصر بعد العودة يكون قد أمعن في الارتباط بالقصر والحياة الاستقراطية والانعزاز عن الشعب وهمومه في برجه العاجي، وقد كان لهذا كله أثره العميق في شعره حيث أضعف - في شطر حياه الأول - من اتصاله بحياة الشعب المصري، وحولته إلى بوق للقصر وصاحبها وما يتصل به، وبهذا استطاع المؤلف أن يفسر اتساع مساحة المدائن والتهانى للخديوى توفيق، ثم للخديوى عباس حلمى، وأن يبرر تعلق شوقي بالمتبنى أهم شعراء المدح بين العرب السابقين؛ لاتفاقه ونوعه في الشعر الرسمى الذى كان يصنعه، كما استطاع أن يطلع خصيصة من خصائص شوقي الأساسية، وهى أنه لا يشعر بنفسه شعوراً كاملاً فى فنه، وكأنه يحس دانماً أنه يعيش لغيره. فقد بدأ حياته الفنية ياخذها للخديوى ومدanhه، فعاش له حتى فى غزله، ووصفه للخمر، إذ نراه يضعهما فى مقدمات مدanhه، ولا يفردهما بمقطوعات خاصة إلا نادراً، ولما عاد إلى مصر بعد النفى، احتفظ بخاصيته الفنية المميزة له، وهى أن يكون شاعر غيره، فأنصبح شاعر مصر والأقطار العربية كلها.

(١) شوقي شاعر العصر الحديث . د. شوقي ضيف . دار المعارف بالقاهرة ١٩٥٣ م . ص ١٠ .

(٢) انظر : البحث الأدبي د. شوقي ضيف . ص ٨٨ .

وفي إطار هذا العرض التاريخي ، يفسر المؤلف استجابات شاعره الفنية إبان ارتباطه الوثيق بالقصر، فحين احتمم الصراع بين «كرومر» معتمد بإنجلترا في مصر والخديوي عباس، ووقف رياض «رئيس الوزارة المصرية» يلقي خطاباً، مشيداً باللورد كرومر، ومعرضاً بعباس ودولته ، طلع شوقى على الناس بقصيدة عنقه فيها، وأنهى عليه بلائمة ، ومنها قوله :

كبير السابقين من الكرام برغمى أن أثالك باللام

لقد وجذوك مفتونا ف قالوا خرجت من الوقار والاحتشام

فشوقي يقنب رياضاً من أجل الخديوى لا من أجل الشعب، ومثل هذا ثورة شوقى للأسرة الطولية حين نقل كرومر من مصر سنة ١٩٠٧ ، وخطب مندداً بإسماعيل وعصره ولعل أوضح من هذا موقفه من أحمد عرابى بعد عودته من منفاه، حين استقبله بأهمية مطلعها : صغار فى الذهاب وفى الإياب

وشتان بين وقعة عواطف شوقى، وثورته حين تعرض كرومر لإسماعيل، وحين تعرض كرومر للشعب المصرى الأعزل فى دنشواى، ونصب له مقصنته ، وفتح له سجونة، فلم يستجب الشاعر لهذا الحدى الجلل إلا بعد مرور عام على الحادث، ويمقطوعة فاترة ، لا بقصيدة طويلة، لم تأت تعبيراً عن عواطف متاججة أو إحساس حقيقي، بقدر ما كانت مصانعة لجمهور الذى يقرأ شوقى فى الصحف .

ويرىما كان موقفه من صديقه ورفيقه مصطفى كامل ، حين توفي أبلغ فى الدلالة على عبودية شوقى لأميره؛ مصطفى كامل كان قد قطع علاقته بعباس حين وجده يتبع سياسة وفاق مع السيد «غورست» معتمد بريطانيا، فلما طوى الردى صفحة مصطفى كامل المشرقة، وكف قلب مصر النابض عن الخفقان، تلألأ شوقى فى رثائه، ثم ثاب إلى رشده فريثاً؛ لأنه كان يخشى الخديوى وسخطه ، وفي الوقت نفسه يريد أن يصانع الشعب المصرى الذى يقرؤه .

ويرى المؤلف اتساع مساحة «التركيات» فى ديوانه إلى هذه الحقبة التى قضى بها مرتبطاً ببارادة أميره، يحركه كما يشاء ، ومتى يشاء ، فاتسع مدى التركيات فى ديوانه فى هذه المرحلة من حياته الفنية بما تحتله مصر وحوادثها الجسام؛ لأن شوقى لم يكن

ملك نفسه، إنما كان ملك أميره المخلص لتركيا والمحب لها، والذى أراده أن يولى وجهه شطر الباب العالى فى الاستانة، ويرى الدكتور شوقي أن عاطفة شاعره الوثيقة نحو الترك ، التى تظهر فى تركياته كلها، قد ترجع فى بعض أسبابها إلى الأصل التركى الذى جرت دماؤه فيه، على ألا ننسى دور عباس الحاسم فى هذا الشأن .

وفى إطار من هذا المنهج يرى المؤلف أن فساد الحياة السياسية فى مصر ، أثر فى توجيه شاعره، «فقد نشأ وهو يرى القصر والأمير كل شئ فى حياة المصريين، فهما مصدر العز والذل ، والخضن والرفة، والجاه والسلطان، فأزاد شوقي أن يقتسم هذا الحصن الأشم، وأن يكون له مجال فيه . ولو أن الحياة كانت تجرى فى مصر على شكل آخر ، فيه ديمقراطية، وفيه إيمان بالشعب، وعمل صادق على إحيائه، لكانت أحلام شوقي غير هذه الأحلام، ولما رأيناه منضواً تحت لواء الأمير ، يسبح بحمده أثناء الليل وأطراف النهار»^(١) ، ويفاخر معاصريه بأنه شاعر الخديوى ، فيقول لهم :

شاعرُ الفَرْزِيزِ وَمَا بِالْقَلِيلِ ذَا الْلَّقَبِ

فالظروف السيئة التى أحاطت بشوقي- إذن- هى التى ضيقـت حدود شاعريته، وجعلتها محفوفة بالأشواك فى هذه الحقبة الطويلة من حياته التى تجاوزت عشرين عاماً.

كما لم يفت المؤلف أن يبين أثر تعيم البيئة التى نشأها فيها شاعره، وترف المكان الذى عاش فيه على فنه، فقد وصف كاتبه أحمد عبد الوهاب^(٢) حياته بأنها كانت تعيناً ومتاعاً خالصاً، وأنه كان يسير فى طرق مملوقة بالبورود والرياحين، وأنه كان يجلس فى أجواء معطرة، وكيف كان يتناول الحياة كفوساً صافية ، فهو ينور فى ذلك المرح والحياة البهيجـة، فتراه ينتقل من مقهى إلى مقهى ، ومن مطعم إلى مطعم ، ومن دار خيالة إلى أخرى .. وقد سمى قصره على ضفاف النيل بالقاهرة «كرمة ابن هانى»، وسمى قصره بالإسكندرية «درة الفواصـن»، وهـى قصور تشي أسماؤها ومواقعها

(١) شوقي شاعر العصر الحديث . من ٢٥ .

(٢) انظر : المراجع السابق . من ٣٨ .

بالثراء والترف، كما أنه حين نفى كانت الأندلس - وهي من أجمل بقاع الأرض - من نصيبه، وكان دائم الترحال لمصايف سوريا ولبنان، وكثيراً ما تغنى بهذه وتلك ، بالإضافة إلى زياراته الصيفية لمصايف تركيا مع أميره، حيث كانت تتملئ عينه بمجالى البسفور وغيره، هذا إلى جانب زياراته المتعددة لولديه (على ومؤنس) في باريس أثناء تعلمها هناك وبخلص المؤلف إلى «أن شوقي يمثل الشخص المترف، الذي أترف حسه وشعوره إلى أقصى حد، ولعله لذلك لم يستطع النهوض بالتعبير عن عواطف صارخة أو منحرفة في نفسه : لهذا فإحساسه بنفسه غير تام في شعره، لأنه من الشعراء الغيريين، وهو من هذه الناحية كان معداً ليتفوق في الشعر القصصي، ولعله من أجل ذلك يرتفع إلى القمة حين ترك المدائح والمراثي والشعر الغنائي الخالص إلى التاريخ ، حيث ينتزد ينفسح الأفق أمامه، إذ يجد مادة خصبة لشعره وغيريته»^(١) . فشوقي إنما تلامنه الموضوعات الخارجية التي لا ينسج فيها نفسه ، وإنما ينسج غيره، فهو لم يعش لنفسه، وإنما عاش لغيره . ويرى الدكتور شوقي أن الإحساس بقانون البيئة قديم عند العرب^(٢) ، إذ نجدهم كثيراً ما يتحدثون عن أهل البيو، وأهل الحضر، وخاصيصهم وأثريهما في لغاتها، نجد ذلك عند الجاحظ في مواضع متفرقة من بياته، ونجده عند على بن عبد العزيز الجرجاني في وساطته بين المتنبي وخصوصه ، ولكنه يتحفظ على أهمية هذا القانون في دراستنا للأدب العربي ، فقد تتفق حواجز بين البيئة وتتأثيرها بعيد في حياة أدبائها، فتجعل تأثيرها ضعيفاً، حتى لينمحى أحياناً ويولى المؤلف ثقافة شاعره أهمية خاصة لما أدته من دور فاعل في توجيهه موهبته فقد التقى منذ وقت مبكر بالشيخ الأزهري محمد البسيوني البيانى أستاذ اللغة العربية لأبناء الخاصة الخديوية، وكان شاعراً فصيحاً ، فأخذ عنه علوم العربية، وتأثر بشاعريته التي كانت تبهره، وكان هذا الشيخ مداحًا للخديوي توفيق، كما كان يستأنس برأى تلميذه ونوقه قبل أن ينشر قصائده ، فلهج الشیخ بتلميذه والثاء عليه، ولم يلبث التلميذ أن سار في الدرب الذي سار فيه أستاذه، وكان لهذا الجنر الأول في ثقافة الشاعر أثره في تكوين شاعريته، حيث وصل بطائفة كبيرة من شعراء العرب في عصور القوة أمثال :

(١) المرجع السابق . ص ٥٤ .

(٢) انظر : البحث الآدبي . ج ٩٠ .

أبى نواس وأبى تمام ، والبحترى . وابن الرومى ، وأبى الطيب المتنبى ، وأبى فراس الحمدانى ، وأبى العلاء المعرى ، وابن زيدون ، وغيرهم . وأثرهم جميعاً فى شعره قوى واضح ، وفى شوقياته العديد من القحسائد التى عارضهم فيها ، وقد تفاوتت أصدائهم فى فنه ، ولكن أحداً منهم لم يبلغ مبلغ البحترى ، أو المتنبى ، فمعارضة شوقى وتقليله للمتازين من أسلافه لم تكن تعنى التخلف ، وإنما كانت تعنى التفوق ، فاستطاع موسيقى ساحرة تعمد على صياغة عربية أصيلة ، ومن هنا استحوذ على قلوب العرب جميعاً فى مشارق الأرض ومغاربها : لأنه ضرب على أبوتار قيثارتهم ، فأنحسن الصنائع إلى أبعد حد » ^(١) .

كما يرى المؤلف أن صلة شاعره بالمتنبى بخاصة ، وبالإضافة إلى وفرة مданحه بعامة ، للملوك والأمراء ، وما خلّه عليهم من مثالية خلقية ، كانت وراء ذلك التيار الخلقى العام الذى جرى أولًا فى شعره الغنائى ، إنما يحتذى بها صنيع المتنبى شاعره الآثير ، وفي دراسة المؤلف لمسرحيات شوقى نلاحظ اهتمامه برصد التيار الخلقى ، ودوره فى رسم الشخصيات ، وتصوير الأحداث ، وهو تيار تنص فى الفضيلة وما يتصل بها من وفاء ومروءة وكرم ، وكأنه يريد أن يقوى فى نفوس الجمهور العناصر التى ترغّب فى عمل الخير ، ويحمد الدكتور شوقى هذه النزعة الأخلاقية التى تبدّت فى مسرحيات شاعره؛ لأنه أرضى بها جمهوره ، وأخذ على عاتقه أن يقوى خلقه . ولكنه لا يسرف فى ذلك حتى لا تخرج المسرحية إلى شكل وعظ تمله النفس ، وإنما يأتى فى ثنايا الحوار ، ويرى أن شوقى لم يكن بدعى فى منحاه الخلقى ، فشكسبير نفسه وغيره من كبار المسرحيين وبخاصة الكلاسيكيون كانوا أخلاقيين يدعون فى ثنايا مسرحياتهم إلى الأخلاق الكريمة ، ولذلك كان شوقى موافقاً جدًّا التوفيق فى جريان هذا التيار الخلقى بمسرحياته ، وبثه على لسان شخصه وأقوالهم ، وقد انتقل به من شعره الغنائى إلى شعره المسرحى ، ففى مسرحية كليوباترة ، يتسع الجانب الخلقى إلى أماد بعيدة ، ويبدو بوضوح فى أثناء تصويره لклиوباترة وأثناء ما يجرى على شفتيها من أقوال ، فقد

(١) شوقى شاعر العصر الحديث . من ٨٤ .

اتهمت في عفافها وطهرها، وصور ذلك شوقي على ألسنة الشخص من حولها، ولكنه دفعها دائمًا لتردد هذا الظن الأثم، بل دفع بعض الشخص ل تستردّ ظنها ، فإذا حابي الذي كان يكرهها يقول حين تتحرر :

الله يشهدُ أني قد سللتُ على
ما كان من نزعات الرأى نسيانا
وأنى اليوم أبكيها وأندبها

فقد حاول شوقي أن يحيط الملكة المصرية بهالة من النبل والوقار والخلق الطيبة، ولا يتضح هذا التيار الخلقي في تصويره للكليوباترة أو لغيرها من الشخصيات في مثالية خلقية جيدة أو ردئية فحسب، بل يتضح أيضًا في معانٍ خلقية كثيرة تغمر المسرحية وتتخلل الحوار فيها من حين إلى حين ، كما يتضح هذا التيار في مسرحية «عنترة» فالبطل عنترة مثل من أمثلة الخلق الرفيع عند البدوي سواء في شجاعته ومروعته، أو في كرمه وإيثاره لليتامى والمغلوبين، أو في عفافه وجملة فضائله، ويرى الدكتور شوقي أن هذه الصفات النبيلة في المسرحية هي عمارتها وحانطها وركتها الذي لا يميل، أما عبلا فمثال لوفاء والإيمان بالفضائل المعنية الخفية لا الفضائل الجسدية الظاهرة، فالمسرحية في تصميمها وفي نموها ونهايتها تعبر عن الأخلاق العربية الكريمة، وقد أجرى فيها شوقي غير قليل من ينابيع حكمته، وبخاصة في الفصلين الآخرين ، وكما جرى هذا التيار قويًا في هاتين المسرحيتين، فقد اطرد تدفقه في سائر أعماله المسرحية . ويرى المؤلف أن التيار الثقافي القديم في شعر شوقي كان يقابله ويجرى معه موازيًّا له تيار جديد، وقد حاول أن يستقصى عناصره، وأن يقف على أصدائه في فنه، فوجد أنه قد تتفق بالثقافة الأوروبية، ودرس الحقوق ، واطلع على الأدب الفرنسي، واختلف إلى المسارح التمثيلية والفنائية في باريس، وإلى «مقهى داركور» حيث كان يجلس الشاعر الرمزي فرلين ، ورأى تحت عينيه حركات التجديد بين الشعراء الفرنسيين ، وقرأ في آثارهم .. وقد عبر شوقي في مقدمته لشوقياته عن اضطرابه إزاء ما رأى من أداب القوم، ورغبتة في التجديد تعبيراً واضحًا، حيث وعى أن وظيفة الشعر لا تتفق عند حدود المدح ، فهناك ملك الكون الفسيح، ونظم أثناء بعثته في باريس أولى محاولاته لمسرحية «على بك أو فيما هي بولة المالك» ، وترجم قصيدة

«لا مرتين» المسماة بالبحيرة شعراً، ونظم الحكايات على أسلوب «لا فونتين» الشهير، وربما كانت قصيده «كبار الحوادث في وادي النيل» هي أهم صدى لاطلاعه على الأدب الفرنسي، وبخاصة بما قرأه لفكتور هوغو في ديوانه المسمى «أساطير القرون». فالمؤلف يرى أن شوقي قد اقتنع بأن هناك جديداً ينبغي أن يتاثر به شعراء العربية، ولكنه لم يدرس هذا الجديد دراسة دقيقة، ولذلك يبيو فيما ذكره في مقدمة شوقياته حائزًا ، أكثر منه مجدداً صاحب منهج مرسوم، فلم يتعمق في الأدب الفرنسي المعاصر له، ولا تغفل في الثقافة الفرنسية والأداب الغربية القديمة والحديثة، وكان حياته في القصر لوته عن رسالته وغايتها، وربما كان لحركة أستاذاه البارودي نحو القديم أثر في نفسيته، فلم يُعن عنابة قوية بالجديد في الأدب الفرنسي .

وفي إطار تحديد المؤلف للظروف والمفترضات المهمة المختلفة، التي أثرت في شوقي وصناعته، تحدث في الفصل الذي أفرده لحياته عن نفيه إلى إسبانيا سنة ١٩١٤ ، إثر تغير الظروف السياسية في مصر ، وكيف كانت سنوات التقى الخامس نقطة تحول خطيرة في حياته، وعلامة فارقة في توجهه الفني، فالشعر المصري الحديث كان بحاجة إلى أن يصهر الألم نفس شوقي، حتى تصبح نفسها غنية، وحتى تقترب من جمهور وطنها، ومن تمور به نفسه من هموم وألام ، فكان حزن شوقي حزناً مركباً، ولكن الحزن الذي يصفّي النغم ، ويرهف المشاعر، ويهبّي شوقي للشعر الوجданى، وللتعبير عن محن الحياة وألام الناس فبالنفي تمت لشوقي نفسه الشاعرة، وتمّ له صوته، وأحسّ الحياة من طرفيها : اللذة والألم، والنعيم والحرمان ، وبعد عودته من منفاه أصبح ملكاً لشعبه بعد أن كان قبل النفي ملكاً لسيده وأميره، وأصبح جزءاً لا يتجزأ لا من كل ما يجري في وطنه فحسب من مشاكل وقضايا ومعارك ، بل في الوطن العربي، فانبثى للدفاع عن قضيائاه، وللتعبير عن همومه، وهكذا انقضى النفي وطنيته وحسنّ العروبي . ويرى الدكتور شوقي أن المنهج الاجتماعي في دراسة الأدب يصل دراسة الأدب بالدراسات الاجتماعية؛ لأن الأدب في حقيقته هو تعبير عن المجتمع وكل ما يجري فيه من نظم وعقائد ومبادئ وأوضاع وأفكار، والأديب لا يسقط على مجتمعه من السماء ، وإنما ينشأ فيه ويصدر عنه، وأن الالتزام في الأدب العربي ليس جديداً ، فقد عرف أبناء

القديم - في عصر بنى أمية ، وعصر بنى العباس - صوراً أدق من الصور الحديثة^(١) ،
فكان بدأ شوقى يغنى وطنه ، وهو في منفاه ، حيث يقول :

وطني لو شُغِلتُ بالْخَلْدِ عَنِهِ نازِعْتَنِي إِلَيْهِ فِي الْخَلْدِ تَفْسِي
فقد كتب فور عودته قصيدة « بعد المنفى »، يعلن فيها فرحته بقاء وطنه، وأنه
سيعتنق اعتناق العابدين، حيث يقول :

كأنى قد قد لقيت بك الشبابا
إِذَا رُزِقَ السَّلَامَةَ وَالْإِيمَانَ
عليه أقبالُ الْحَسْنَى لِكُنْتَ دِينِي
ويا وطني ليتُكَ بعْدَ يَاسِ
وكلَّ مسافِرٍ سَيَوْبُ يَوْمًا
ولو أتَى دُعْسِيْتُ لِكُنْتَ دِينِي

وفيها يتحدث عن مشكلة التموين وجشع التجار، ويطرد بعد ذلك التزامه بمتابعة
قضايا الشعب وأماله، في مشروع « ملنر » سنة ١٩٢٠ ، ومشروع ٢٨ فبراير ١٩٢٢ ،
وأخذ يغنى مع الشعب أماله في الدستور والنظام البرلاني ، وفي التعليم والجامعة ،
وفي الجيش .. ولا تكاد تمر حادثة به إلا ويستخلص منها حكمة وموعدة ، ولا تكاد تنزل
به حادثة إلا وقف بقربه يعزّيه ويمتّه ، وينذكر من تلك المواقف تناحر الأحزاب في ظل
الحرية التي نالها المصريون ، وسفر سعد زغلول إلى إنجلترا للمفاوضة في شئون
السودان ، التي توشك بريطانيا على ابتلاعه ، وإطلاق سراح بعض السجناء من
اتهمتهم المحاكم العسكرية الإنجليزية بقتل السردار عام ١٩٢٤ ، وظل يغنى المصريين
أعياد جهادهم وأحداث سياستهم ، ولم يكتف بذلك بل وضع الأناشيد لينشدها النشء ،
ناهيك عن قصائده التي تغنى فيها بتاريخ مصر العريق . وقد لاحظ المؤلف أن وطنية
شوقى وحسه القومى اللذين انجبسا بعد عودته من منفاه ، لم يتحققا فى شعره
الفنانى فحسب ، بل كان لهما أثرهما البعيد فى مسرحه الشعري أيضاً ، إذ رأى ثلاثة
مائسٍ من مأساته تسترضى العاطفة الوطنية فى المصريين ، وهى مسرح كليوباترا ،
وقمبىز ، وعلى بك الكبير . وثلاثة أخرى تسترضى العواطف العربية والإسلامية ، وهى :
مجون ليلي ، وعترة وأميرة الأندلس . أما الملاحة فتقوم على موضوع مصرى شعبي .

(١) راجع . البحث الأدبي . من ٩٦ وما بعدها

ففي مسرحية كليوباترا - مثلاً - أراد شوقي - بداع من مصراته - أن يبرر بعض مواقف الملكة المصرية. واضطر إلى تحريف في بعض الحوادث حتى يصل إلى غايته، إذ عدَ فرار أسطولها من موقعة «إكتيوم» سياسة ومكرًا بانطونيو وأكتافيوس جميًعاً، كأنها تريد أن يتطاها ويفتنيا حتى تصبح مصر سيدة البحر المتوسط ، ويرى المؤلف أن شوقي محقٌ في الإطار الوطني الذي وضع فيه كليوباترا ملكة المصريين في حقبة قديمة من حقب تاريخهم، ولا يعييه ذلك، إنما يعييه أن يتخلّى في أثناء المسرحية عن هذا الإطار ، وهو ما لم يحدث، إنما الذي حدث استمرار هذا الإطار حتى النفس الأخير لكيوباترا ، وقد وسع الإطار فلم يدعه خالصاً لها بل أدخل معها مصريين مثل حابي والكافن أنطوييس. كما حفلت المسرحية بتعليقات للمصريين على الرومان فيها حقد وسخط شديدان، وفيها بُر بالوطن وحب، وفيها غضب على روما وكره، وفيها مقاومة عنيفة للعنوان، واعتزاز بأن مصر لن تغلب . ويمضي المؤلف متلمساً لهذا التيار الوطني في مأساه المصرية. ومتبعاً لدوره في تشكيل رؤية شوقي الإبداعية، وفي بنائه الفنى لتلك المسرحيات، وقد فعل مثل هذا مأساه ذات الإطار العروبي الإسلامي . كما يرى المؤلف أن موضوعات مسرحياته بعامة، بالإضافة إلى كيفية معالجتها جاء متسبقاً مع الظروف السياسية التي كانت تمر بها مصر وسائر الأقطار العربية .

ولم يحلق شوقي بخيثارته في أجواء وطنه وحده، بل تغنى بها في أجواء العالم العربي كل ، وغناهه اليوم يختلف عن قبل الحرب الكبرى ، فالعروبة كانت تائياً على هامش تركياته أو متنحه في الرسول الكريم ، أما في هذه الحقبة فإنه يتغنى بالنزاعات الوطنية والقومية الطارئة على هذه الشعوب، فهو يتغنى بامجادهم الماضية ، ويشوراتهم الحاضرة، وهو يحس إحساساً قوياً بأن مصر والشام والعراق وغيرها من الأقطار العربية أسرة واحدة، وربما لم يظفر قطر من شوقي بما ظفرت به سوريا .

ويرى الدكتور شوقي ضيف أنه لو لم تتطور حياة مصر وحياة الشرق من حولها، وتظهر فكرة الوطنية والقومية، ويأخذ الشعب المصري والشعوب العربية في البروز، بل في السيادة والحياة الديمقراطية، لولا هذا كانه ما تحول الشعر العربي - لا شعر شوقي فحسب - إلى هذه الوجهات الجديدة التي ندعا عند شوقي .

كما استعان الدكتور شوقي بمنهج جمالي للوقوف على مكونات صناعة شاعره الفنية، فرأى أنه قد تخرج في مدرسة البارودي الشعرية، فلم ينحرف إلى بدبيعيات، ولا إلى مبالغات، بل اتخذ مذهب أستاذته في صب قوالبه، وفتح تراكيبيه، وبناء قصائده وكانتها أحرامات مصر شموخاً وضخامة وصلابة . أما آيتها الكبرى في صناعته، فهى موسيقاها التي تعد لب إبداعه ، ولا تُعرف في عصرنا لسواء، إذ كان يعرف دائماً كيف يستخرج من ألفاظ اللغة كل ممكتناتها الموسيقية، وكانت موسيقاها مصدر حيرة لمعاصريه من شعراء الشرق العربي، جعلهم يحنون روسهم أمام فنه، ويحتفون له من أعماق قلوبهم إجلالاً وإكباراً، بل لقد بايعوه بيعتهم الكبرى، وهى ضرورة من الموسيقى تشبه السمفونيات الخالدة ، يستطيع النقد الحديث أن يحل طلاسمها الساحرة ، ولا يمكنه أن يفك ألفاز فنتتها، وبحبذا لو شفا الدكتور شوقي هذا الطرح بنقد تطبيقى، حاول فيه تحليل موسيقى نص شعري ، ليقف القارئ معه على شيء من أسرار عصرية شوقي الإيقاعية، التي بهرت معاصريه، فكانت سبباً في اتساع شهرته على النحو المعروف . وإلى جانب هذه الموسيقى هناك الخيال المتألق الذي يعرف كيف يلتقط الصور البعيدة، ولا يغض من صوره أنَّ كثيراً منها قد استمدَّ مما اختزنته ذاكرته، ووعته حافظته من تراث أسلافه، فالفن لا يعرف الثورة النهائية على الماضي والانفصال الحاد ، والفن يعني الإضافة والابتكار والتجديد، ولا يعني الخروج المطلق على الرسوم . ويرى المؤلف أن العاطفة هي الركن الثالث في صناعته، لكنها لم تكن متقدة ولا فياضة، ويعلل ذلك بغيرية شرقى، وربما كانت عواطف شوقي هي العاطفة الوطنية، وعنها صدر في فرعونياته، أو قل في ملامحه المصرية .

ويؤازر هذا المنهج الجمالي؛ منهج تاريخي وأخر اجتماعي ، يعتمد عليهم الدكتور شوقي في دراسته لصناعة شوقي ، ويفرد فصلاً لذلك يتحدث فيه عن جملة من المؤثرات المختلفة التي أثرت في صناعته، فوقف عند النقاد وتغييرهم فيه، ولاحظ كيف بدأ حياته الفنية في عصر لا يعرف إلا نقداً لغويَا جافاً، يعتمد على البلاغة التقليدية القديمة، وقد تزعم هذا المنحى النقدى المولىحى واليازجى، اللذان حملا عليه بعنف، وأعداه نفسياً لأن ينساق في تقليد الشعر العربى الذى تقدمه وخاصة أمثلته الممتازة، وكان للتقليد عنده مظهران : الأول معارضاته، والأخر تممسكه بعمود الشعر العربى،

وخلف هؤلاء النقاد في القرن العشرين جيل جديد تزوج بالنقد الأوربي ، ففتح نوافذه على الأدب الغربي، وثار ثورة محققة في عالم الشعر والفن، وقد قاد هذه الثورة عبد الرحمن شكري ، والعقاد ، والمازنى ، وطه حسين، ورأى المؤلف أنهم قد اشتغلوا في تقديم لشوقى، وقلما اعتدل بعضهم، على أنَّ هذا النقد في جملته وتفاصيله كان خيراً وبركة على شاعرنا وعياريته الخصبة، فقد أخذ يفيض بها على مناج وجواب مختلف، فاتصرف عن القصر والخديوى أو صرفته الظروف ، وعكف على الشعب ، والتزم بالتعبير عن حياته وألامه ، ولم يلبث أنْ حقَّ الحلم الذى كان يراود الجيل الجديد من النقاد حين ابتكَر شوقى الشعر التمثيلي ، فيَزَ بذلك هؤلاء المجددين الذين كانوا ينكرون شاعريته وتبوغه، ومهما يكن فإنَّ هذا النقد الجديد عند العقاد وطه حسين وأضرابهما كان له آثار كبار في شعر شوقى، فقد كان يشحذ ذهنه، وكان من الذكاء والتبوغ والعبقرية بحيث استطاع أنْ يوازن في فنه موازنة دققة بين التقاليد الموروثة في الصياغة والموسيقى، وغيرهما، وبين ما يراد للشعر العربي الحديث من تجديد ومسايرة للعصر والبيئة والظروف .

كما لاحظ المؤلف أنَّ شوقى وغيره من الشعراء ، قد تأثروا في أواخر القرن الماضي وفي أثناء القرن العشرين بالجمهور ، وقد أسهمت الصحافة بدور كبير في عناية الشعراء بالجمهور ، واتضح ذلك عند شوقى في تركياته التي كانت تنشر في الصحف لتذاع على العرب والمسلمين إرضاءً لعواطفهم قبل الخلافة إبان حرب أوروبا الصليبية معها ، وهذه التركيات هي التي أعدَّت شوقى ولقته إلى التغنى بالعاطفة الدينية فنظم مدايحه في الرسول الكريم .

وقد اقترب بالمؤثر السابق في صناعة شوقى مؤثر آخر هو المناسبات . وشوقى لم يترك - قبل التقى وبعده - مناسبة تتصل بأميره، أو بحياة الشعب المصرى إلا وتفتَّن بها، وكأنما قد غدا صحفياً خالصاً، فهو يؤدى للناس الأخبار والأحداث فى قصائد نابضة الحياة، وبذلك وصل بهذا النوع من شعر المناسبات إلى القمة التي لا قمة بعدها، حتى لم تعد فيه بقية لشاعر ، ولعل إحساسه بذلك هو الذي دفعه إلى البحث عن العالم جديد، وكان هذا العالم هو عالم الشعر التمثيلي .

وكما تأثر الشعر العربي عبر رحلته الطويلة بالفناء ، وترك هذه الصلة بصماتها واضحة على فن الشعر الغنائي ، فقد ترك الفناء أثراً عميقاً في صناعة شوقي . فالمؤلف يرى أن شوقي قد خلق موسيقياً ، ولو لم يتجه إلى الشعر لكان مغنياً أو موسيقاراً من الطراز الأول ، وعزز هذا الاستعداد عند شوقي صلته الوثيقة بالملحن المشهور محمد عبد الوهاب ^(١) ، وقد أثر هذا التألف في شعر شوقي لا من حيث تأليفه للأغاني ، بل أيضاً من حيث تأليفه للألفاظ وانتخابها ، بحيث تعمل ما يزيد محمد عبد الوهاب من تموجات اهتزازات صوتية ، كما دفعته هذه الصلة إلى أن ينزل من سماء الفاظ الجزلة إلى الفاظ سهلة تدور على كل لسان

كما أستعان الدكتور شوقي بالمنهج النفسي في تفسيره لجانب من فن شاعره . ففي دراسته لشعره الوطني ردَّ على من أخذوا عليه أنه لم يناضل في سبيل نصرة مذهب سياسي معين ^(٢) . بأنه لم يكن يحب هذا اللون من التشاحر الحزبي ، ولم يكن يحب أن يعيش هذه المعيشة الملونة باللون الطيف ، كما كان غنياً عن أن يرتفق بشعره ، فاعتزل الأحزاب ، وعاش مستقلًا ، حتى لا يصدق أحداً بكلمة أو همسة؛ لأنَّه أَحمد شوقي كان من أصحاب الأمزجة الهدائة، التي لا تستطيع أن تشاهد لوناً من اللوان المصارعة بين الناس، ولم يعرف شوقي يوماً المصارعة، وقد جرت حياته في هدوء وسلام ، ولم تخللها عاصفة سوى عاصفة النفي، ومثله في هدوء ومزاجه لا تقاس وطبيعته بصراعه واصطدامه بالناس، وإنما تقاس بفنه وشعره الذي سخره ل المصرىين .

كما لجأ الدكتور شوقي ضيف إلى تحليل بعض المسودات الخاصة بالشاعر، للوقوف على أسرار صناعته، وانتهى إلى أنَّ الشعر المسرحي - حين يبدعه - لا يأخذ شكل الحوار المعروف ، وإنما كان يصنعها قطعاً ، فهو يفكر في شعره المسرحي وينظمه بنفس الصورة المعروفة في الشعر الغنائي ، وبهذا التحليل لبعض مسودات شعر شوقي التمثيلي انتهى المؤلف إلى سرِّ شيوخ الطوابع الغنائية في مسرحه سواء

(١) انظر : شوقي شاعر العصر الحديث ص ١٦٧ وما بعدها .

(٢) انظر . المرجع نفسه ص ١٤٨ .

في كثرة القصائد والأناشيد التي تتخللها، أم في نظام الشعر وأوزانه وقوافيه، أم في لغتها ومرادها التصويرية - لما لاحظ أن مسرحياته ضعيفة من حيث التمثيل؛ لأن شوقي نظمها بروح الشاعر الغنائي، إذ كان يزاوج فيها بين الغناء والتمثيل، فهو يكتب مناظر الفصل في شكل قطع غنائية بدون ملاحظة المخاليف (١) .

وهكذا نلاحظ أن أستاذنا الدكتور شوقي ضيف يأخذ بمجموعة من المناهج في دراسته «لشوقى شاعر العصر الحديث»، ولم يقتصر على منهاج عينه، فيعتمد حيناً على المنهج الطبيعي، وحياناً آخر يلجأ إلى المنهج التاريخي والمنهج الاجتماعي، ونجد أنه يعول على المنهج الجمالى ، ويستخدم المنهج النفسي في حدود ضيقـة ، كما يلجأ إلى الوثائق والقيام بتحليل بعض المسودات أيضاً . وتمثل هذه المناهج في مجموعة منهاج التكاملى الذى يراه أستاذنا شوقي ضيف الأولى والأدنى إلى القصد فى دراسة تاريخ الأدب وأعلامه . كما التزم فى دراسته لشوقي ، لم يخرج عنـه فى سائر دراساته لتاريخ الأدب العربى وأعلامه .

د . أحمد موسى الخطيب

مدرس الأدب الحديث

كلية التربية - جامعة الملك فيصل

(١) انظر : المرجع نفسه . ص ٦٧ ، من ١٧٥ .

د. سعيد منصور

لم يمثل النثر العربى من عناية مؤرخى الأدب العربى فى دراساتهم للعصور الأدبية المختلفة ، مثل ما ناله فى تاريخ الأدب العربى للأستاذ الدكتور شوقي ضيف على كثرة من أرخوا للأدب العربى منذ بداية هذا القرن وكثرة ما كتب من دراسات وبحوث عالجت هذا الحشد الضخم من موضوعات الأدبى العربى وأعلامه واتجاهاته وفنونه وتود هذه الكلمة أن تنحصر فى دراسات شوقي ضيف للنثر الفنى فى « العصر العباسى » ، الذى تناوله جزءان من سلسلة تاريخ الأدب العربى التى بلغت حتى الآن ستة أجزاء ، كما تناوله أيضاً كتاب « الفن ومذاهبه فى النثر العربى » ، ولقد سارت هذه الدراسات ، وستسير بإذن الله ، بكل ما اتصف به بحوث أستاذنا الجليل من دأب واستيعاب عبر نهج تارىخي تحليلي ، يرصد حركة التطور ويتبعها ، ويقف عند مظهر ازدهار الفن فيها وينفذ إلى ما وراء ذلك من أسباب ترجع إلى تأثير الحياة السياسية ، والاجتماعية ، والعقلية ، فى كل فترة من فترات هذا التطور .. ثم هى بعد ذلك تقف عند الفنون والمواضيع ترد ذلك كله إلى أعلام الكتاب من أصحاب كل فن وموضوع لتخص من ذلك إلى النصوص الأدبية التئيرية ، تستخرج من مظانه الأولى ومصادرها الأصلية لتحلل النص وتستقرئه وترجعه إلى الأصل أو المذهب الفنى الذى صدر عنه .

كان لا بد إذن - وهذه هي صورة المنهج فى إطارها - العام - إن تكون هذه الوقفة عن الحياة فى العصر العباسى ، بمرحلتيه الأولى والثانية فى أشكالهما الكبرى صورة الحياة العباسية فى شكلها السياسى .. وما يتصل به من أحداث كبرى .. وفي

شكلها الاجتماعي وما يتصل به من مشكلات اقتصادية ثم في شكلها العقلى وما يتصل به من شئون دينية وثقافية ، ثم ما يتبع ذلك كله من دفع تيار الحضارة الإسلامية في جداولها الكبرى التي يستمد منها الشعراء كما يستمد منها الأدباء وفكر الكتاب واتجاهات النثر العربي كل ما يدعي من رسائل فنية ، وما يوألف من مؤلفات أدبية وما يجري علىأسنة الخطباء من خطابة لا تفتألها النظرية الشاملة أجرى الحياة الأدبية في الجداول التي تجري فيها تيارات النثر العربي .

فإذا ما رجعنا إلى الحياة في العصر العباسي الأول ، وقد انتقلت عاصمة الدولة شرقا إلى العراق — تتخض عن نظم سياسية وإدارية جديدة تؤثر من غير شك في اتجاه حركة التأليف بل توجه أيضاً حركة الترجمة بكل ما تشعبت إليه من شعب ، وما سلكت إليه من دروب وما بعثته علوم الأوائل من مؤثرات ثقافية وفكريه ومذهبية . يقول شوقى ضيف :

« بذاك عمت الروح الفارسية في الحياة العباسية ، حتى الخليفة نفسه لم يعد كأسلافه الأمويين يمثل شيئاً كبيراً من شيوخ القبائل العربية بل أصبح خلفاً للملك الفرس الساسانيين قله وزراوه وحجابه وبلاطه وله نفس التقاليد الفارسية والذى لا ريب فيه أن هذه الثقافات الدخلية التي نقلت إلى العربية وسعت طاقتها : بما اكتسبت من المعانى العقلية والفلسفية وقد أصبح النثر العربي نثر ثقافة متشعبة تمدها روافد كبيرة من إيران والهند واليونان وليس ذلك فحسب فقد أخذت تدخل في هذا النثر طائق النظر الأجنبية وأساليب الأجانب فى تفكيرهم والذى لا ريب فيه أيضاً أنه قام على هذا العمل نخبة من رجال الفكر الذين يحسنون اللغتين المنقول عنها والمنقول إليها فإذا هم يستخدمون أسلوباً مولداً جديداً يحتفظون فيه للغة بصورتها النحوية والتركيبية .. وكانوا كثيراً ما يضيفون شيئاً جديداً ولكنهم لم يبتعدوا بها عن تراكيب العربية ومن يقرأ كتب ابن المقفع هو أوائل المترجمين ، يرى كيف استطاع أن يضيفى على أساليب الطوابع العربية تامة كاملة وبذلك اتسعت لغة الصحراء وأصبحت لغة ثقافية ذات أسلوب من يستوعب كل ما لدى الأجانب من كنوز المعرفة ومذاهب الفلسفة مما كان له أثره في الأدب نثره وشعره .. وعلى هذا النحو أصبح النثر العربي في العصر العباسى متعدد الفروع فهناك النثر العلمي والنشر الفلسفى والنشر التاريخى والنثر الأدبي

الخالص وكان بعض صوره امتداداً للقديم وكان في بعضها الآخر مبتكرة لا عهد للعرب به على شاكلة ما هو معروف في كتابات سهل ابن هارون والجاحظ . وظلت الخطابة مزدهرة في أوائل هذا العصر وإن كان قد أسرع النبول إلى الخطابة الحفلية إذ لم تعد القبائل تقدم بوفودها على الخلفاء كما كان الشأن في عصر بنى أمية أما الخطابة السياسية فظلت فترة نشطيه بحكم دعوة بنى العباس لأنفسهم حتى إذا استقام لهم الأمر أصحابها ما أصابوا الخطابة الحفليه من النبول »^(١) .

كانت هذه الصورة العامة للتطور الذي شهدته النثر العربي في العصر العباسي الأول تبعه تطور بعيد في النثر العربي شهدت بعد ذلك العصر العباسي الثاني حيث اتسعت كما يقول شوقي ضيف « الطاقات المستكتنة » في اللغة العربية ليحمل النثر العربي في أواني الثقافات الأجنبية المختلفة « حمل لا يزال يروع الباحثين » (العصر العباسي الثاني ص ٥١٣) وقد تقدمت بيئه المتكلمين في هذا العصر أيضاً من أجل وضع قواعد البلاغة العربية .. وأخذوا يحاولون مبكري التعرف على مقومات البيان العربي ، ودار بينهم كلام كثير عن البلاغة وقواعدها البيانية » (ص ٥١٨) ، مثل ما فعل الجاحظ في البيان والتبيين ، كما قدمت بيئه اللغويين كتاباً مختلفة منها ما يعتمد على رواية الأشعار الغريبة ، وبعض أخبار عن الإعراب مثل مجالس ثعلب .. وكتاب الكامل للمبرد .. وأدب الكاتب لا بن قتيبة وعلى ضوء هذين النوقين اللذين مثلتهما بيئه المتكلمين وببيئه اللغويين صنف ابراهيم بن المديري رسالته العذراء يقول شوقي ضيف : « هي أول رسالة تناولت بدقة صناعة النثر .. وأدب الكتابة .. فيطلب من يريد حذفها طول الاختلاف إلى العلماء ومدارسة كتب الحكماء ورسائل المتقدمين والتأخررين ، والوقف على الأشعار ، والأخبار ، والسير ، والاسماء ، والخطب ومحاورات العرب .. ومعانى العجم وحدود المنطق وأمثال الفرس ورسائلكم وعهودهم وسيرهم » (العصر العباسي الثاني ص ٥١٢)

(١) الفن ومذاقه في النثر العربي . من ١٢٤ ، ١٢٦ .

وفي متابعة هذا التحليل الدقيق لتلك البيانات التي عنيت بحركة النثر العربي في تيار الحياة الأدبية تأتى « بيئة المترجمين والمتقلسين ومن كان ينحو نهجهم في الدعوة لمعايير البلاغة العربية ولعل خير كتاب قدمته هذه البيئة في مجال النثر والكتابة .. هو الكتاب الذي نشر باسم نقد النثر منسوباً إلى قدامة بن جعفر .. » (العصر العباسى الثاني ص ٥٢٣) ويتوقف شوقي ضيف لتقدير أثر هذه البيانات المختلفة ، بما أضافه إلى دفعه التطور فيري أن « بيئة المتكلمين هي التي سيطرت بما وضعته من معايير على أنواع الكتاب والأدباء في العصر وظل ذلك حقباً متطاولة وهي بيئة كانت تزوج بين المعايير العربية والمعايير الأجنبية بحيث ظلت أوضاع العربية قائمة ، كما ظلت مقاومتها حية ، مقاومات تعتمد على التراث القديم ، وتتطور ما يلائم العصر والثقافات الحديثة ، تطوراً لا يجني على العربية بل تجني منه ثماراً رائعة غذاء للعقل وشفاء للقلوب والأرواح . على هذا النحو كان نونق بيئة المتكلمين هو النونق الأدبي العام وكان لذلك أثره في أن ازدهار النثر العربي وأخذت موضوعاته تتتنوع تنوعاً واسعاً وقد هذا ازدهار الجاحظ المتكلم المشهور (ص ٥٤) .

وبهذا التحليل ترد اتجاهات النثر العربي في عصر أزهى عصوره إلى احسانها التي خرجت منها .. وببيئاتها التي فيها .. وأصولها التي أخذت عنها .. بل إنها في الحقيقة هي العلل والأسباب التي أدت إليها . وتمضي هذه النظرة الشاملة للتتابع مسيرة النثر العربي ، التي اندفع بها في طريق التقدم لتتعدد أشكالها ليوضع هذا كله في ميزان النقد ، ويرد إلى مذاهب الفن المختلفة لتتدرج بينها أساليب النثر العربي في مراحل الصنعة وتكتب كل مرحلة مما أحاط بها من ظروف العصر وأوضاعه الاجتماعية والثقافية والحضارية أيضاً .. وكان حركة التطور في النثر العربي كانت توافق - في رؤية شوقي ضيف - حركة الحياة في جميع مظاهرها ومن هنا كانت الوقفة التحليلية التي رأيناها تصنف الفن ومذاهبه في النثر العربي يقول شوقي ضيف : « وعلى سفن من طبائع الحياة أخذ النثر يتطور تطروا واسعاً ، إذا حمل خلاصته هذه المدينة وملئت أوانيه بشرابها الجديد الذي اختلفت ألوانه باختلاف ينابيعها الكثيرة » .

(العصر العباسى الأول ص ٤٤١)

ونقف الآن عند تطور الفنون النثرية القولية ، كما بدت عند شوقي ضيف في العصر العباسي الأول ، فنراها تشمل فن الخطابة والوعظ والقصص أما الخطابة فبيينما تنشط الخطابة السياسية في مطالع هذا العصر لا تخاذ العباسين لها أداة في بيان حقهم في الحكم .. (راجع : العصر العباسي الأول ص ٤٤٨) .. إذا بالخطابة الحفلية التي كنا نعهدنا من قبل قوية في عصر بنى أمية تضعف الأن « لسبب طبيعي وهو أن وفود العرب لم تعد تقد على قصور الخلفاء ، وبالتالي لم يعد خطيباؤها يقدون عليهم ، فقد أسدلت الحجب بين الخليفة والرعيية ، ولم يعد يلقى وفودها ولا خطيباؤها المفوهين واقتصرت الخطابة الحفلية حينئذ على بعض مناسبات .. (العصر العباسي الأول ص ٤٥٠) أما الخطابة الدينية فقد ظل لها ازدهارها .. « وعلى التحوم ما كان الخلفاء والولاة يشاركون فيها لعصر بنى أمية ، كانوا يشاركون فيها أيضاً لهذا العهد » (ص ٤٥١) .

وبتابع شوقي ضيف استقراء نصوص الخطابة في العصر العباسي الثاني ، فيرى الخطابة السياسية تضعف ، وتضعف معها الخطابة الحفلية ، أما الخطابة الدينية فهي « إن كانت قد ضفت على ألسنة الخلفاء فإنها نشطة نشاطاً عظيماً في المساجد » (العصر العباسي الثاني ص ٥٢٧) .

ومن الفنون القولية فن الوعظ الذي يتصل بالخطابة الدينية التي مرت بنا ، والذي نهض به فريق كبير من الوعاظ ، كانوا « يستعملون دائماً من الذكر الحكيم ، وأحاديث الرسول الكريم « صلى الله عليه وسلم » ، أقوال الصحابة ، ومن سبقوهم إلى الوعظ في العصر الأموي من مثل الحسن البصري .. وكثير من الوعاظ كانوا يمزجون وعظهم بالقصص الدينى وتفسير بعض آى القرآن ، وهو مرج قديم منذ الصدر الأول للإسلام » (العصر العباسي الأول ص ٤٥٤) ، وإذا كان القصاصون والوعاظ ، في العصر العباسي الأول ، « وقد ارتفعوا بصناعة التتر في المعانى التي كانوا يرددونها رقياً بعيداً » (العصر العباسي الأول ص ٤٥٦) ، فنى العصر العباسي الثاني أخذت تنشأ « طبقة جديدة من الوعاظ ، كانوا يسمون بالذكرين ويسمى مجلسهم باسم مجلس الذكر ، آى ذكر الله وتسبيحه ، وكانوا من الصوفية » (العصر العباسي الثاني ص ٥٢٨) .. ليس هذا فحسب ، بل « تكونت حول هؤلاء الوعاظ من المتصوفة سريعاً حكايات كثيرة تصور

جهادهم العنيف في قمع شهوات النفس ولذاتها ، وكيف كان الصوفي يفرض على نفسه عناً شاقاً مضنياً لا يطيقه إلا ألو العزم .. «هذه الحكايات الصوفية أخذت تكون ضريراً من ضروب الآداب الشعبية العربية» (العباسي الثاني من ٥٢٩) . إذ كان الناس يتداولونها رجالاً ونساءً وشيباً وشباهاً ، وكان التصوف كان عاملاً قوياً في ظهور تلك الآداب ، وطبعها بطوابع الشعب ولغته وألفاظه» (العصر العباسي الثاني من ٥٢٠) .

ومن فنون النثر القولية أيضاً المناظرات .. التي «قلمًا عنى مؤرخو الأدب العباسي بالحديث عنها» .. مع أنها كانت من أهم الفنون النثرية ، وكانت تشفل الناس على اختلاف طبقاتهم لسبب بسيط وهو أنها كثيراً ما كانت تتعقد في المساجد .. بين المتكلمين والفقهاء وأصحاب الملل والنحل لهذا العصر» . (العصر العباسي الأول ص ٤٥٧) .

أما المناظرات الكلامية التي حمل لواها المعتزلة وغير المعتزله ، فقد نهضت بالنشر العباسي نهضة رائعة ، كما يرى شوقى ضيف (الفن في النثر العربي من ١٢٧) يقول : «وأقرأ في كتاب الحيوان للجاحظ فلن تجد موضوعاً إلا خاضوا فيه ، واستخرجوا منه معاينه ، حتى لقطن أنه لم يكن هناك أديب بارع إلا و تستهويه تلك الجماعة ، وتتجذبه إلى ميادينها ، ليبحث في الأسباب الكونية و مسبباتها ، والعلل و معلولاتها .. وقد دعتهم رغبتهم في إحكام مناظراتهم ، ومناقشاتهم ، أن يبحثوا بحثاً واسعاً في بلاغة الكلام ، وكيف يبلغ المتكلم بكلمه الكفاية و غاية الحاجة ، بل كيف يروع السامعين ببيانه و حلاوه ألفاظه ، وحسن مخارج حروفه ، حتى تسكن القلوب إليه ، ونتائج الصدور» . (الفن ومذاهبه في النثر العربي من ١٣٠ - ١٣١) ، ويقول : «وقد ملا الجاحظ نحو مجلد من كتابه الحيوان بمناظرة ، انعقدت بين معبد والنظام في الكلب والديك أيهما أفضل ، ظل يورد أدلة كل منهما في صورة رائعة ، وهي صورة تدل دلالة بيته على مدى ما أصاب هؤلاء المتكلمون من تنوع لأفكارهم ، وتصحيح لقدماتهم وتصريف لأساليبهم وألفاظهم ، إذا كانت القدرة البيانية بلغت باثنين منهم هذا المبلغ في مساوى الديك ومحاسنه ومنافع الكلب ومضاره ، فما بالك بما كان يجرى بينهم في مسائل الدين واستقصاء كل مسألة وجمع معانيها وترتيب أفكارها وألفاظها؟» (الفن ومذاهبه في النثر العربي

ص ١٢٨ - ١٢٩) . ويرى شوقي ضيف أن هذه القدرة البارعة في الجدل ، وفي تأليف الحجج والأدلة ، إنما «تدل على ما أصاب العقل العربي حينئذ من رقى ، جعله يستقصي ما يتحدث عنه أحسن استقصاء ، ويحرص فيه المتكلم على التدقير والتعمق كأشد ما يكون التعمق والتدقيق ، وكان يصعب ذلك بكثير من الظروف ومن السفسطة التي تدل على ترف العقل وارتقائه عن الآراء الشائعة ، ويصور ذلك من بعض الوجوه ما حكاه الجاحظ في فاتحة كتاب البخلاء ، عن مذهب يسمى باسم الجهاد «في تحسين الكذب في مواضع ، وفي تقبيع الصدق في مواضع ، وفي إلحاق الكذب بمترتبة الصدق ، وفي حط الصدق إلى موضوع الكذب ...» (العصر العباسى الأول ص ٤٦٢) ، ويرى شوقي ضيف أن هذا التقبيع للأشياء المستحسنـة والتحسينـة للأشياء المستقبـحة إذا كان قد «عرف في الأدب الفهلوـي القديـم ، أن العـباسـيين تـشـروا في هـذا الـاتـجـاهـ بما كان منهـ في هـذا الأـدـبـ» . يقول : «ونحن لا ننـفـي ذلك ، وإنـما نـلاحظـ أنهـ حتىـ إنـ صـحـ فإنـ العـباسـيين توـسـعواـ في هـذا الـاتـجـاهـ بـتأـثـيرـ منـاظـرـ المـتكلـمينـ ، وما دـاخـلـهاـ منـ سـفسـطـةـ أحـيـاناـ ، بـحيـثـ أـصـبـعـ هـذا التـحسـينـ والـتـقبـيعـ نـمـطاـ منـ آنـماـطـ التـفـكـيرـ العـباسـىـ وـبـحيـثـ عـمـ فيـ كلـ شـئـ مـاـ هـيـاـ فـيـماـ بـعـدـ لـظـهـورـ كـتـبـ الـمـاحـسـنـ وـالـمـاسـوـئـ» (الـعـصـرـ العـباسـىـ الـأـولـ صـ ٤٦٣ـ) .

أما إذا انتقلنا ما بعد هذا العصر لتابع دراسة شوقي ضيف لتطور المناظرات من بين فنون النثر القولية ، في العصر العباسى الثانى .. فسنرى أن المعتزلة «لم يتراجعوا عن الوظيفة التي تنبوا لها أنفسهم إزاء أصحاب النحل والملل .. وظل الجدلُ عنيفاً بينهم وبين غيرهم المتكلمين (العصر العباسى الثانى ص ٥٢٥) . كما كثرت المناظرات بين أصحاب المذاهب الفقهية . «وفي طبقات الشافعية للسبكي أطراف من هذه المناظرات .. وبالمثل كان اللغويون والنحاة يتناظرون ، وشائعة معروفة مناظرات المبرد مع ثعلب» (ص ٥٢٦) .

ويقول شوقي ضيف : «وحتى الكتب المؤلفة في هذا العصر نجد عليها مسحة المناظرة والجدل واضحة ، حتى على عنواناتها ، إذ كثيراً ما تعنى كلمة الرد أو كلمة النقض ، فالكتاب يؤلف راداً أو نقضاً لكتاب آخر ، وكان المناظرات لم تقف عند المجالس والمحاضرات في المسجد ، بل امتدت إلى الكتب والمصنفات ، ويوضح ذلك

الجاحظ في بعض كتبه ورسائله .. وأنما كانت المناظرات والمحاورات لغة العصر الفكرية ، فدائماً مناظرات ومجادلات في كل مكان وفي كل موضوع علمي أو فلسفى أو أدبى» (العصر العباسي الثاني ص ٥٩٢) .

ويمضي التطور التاريخي لفن المناظرات بعد ذلك حتى نصل به - مع شوقى ضيف - إلى كتب المحسن والأضداد - كما ذكرنا من قبل - من ذلك كتاب المحسن والأضداد المنسوب خطأ إلى الجاحظ ، يقول شوقى ضيف : «ومما يشهد أن الكتاب ليس للجاحظ وإنما هو مؤلف تال لعصره أن نجد فيه نقولا عن عبد الله بن المعتز ، وكان في الثامنة من عمره حين توفى الجاحظ . الكتاب مجموعة كبيرة من المناظرات في الأخلاق والشمائل فكل خلق أو كل شئ تعرض محسنته ثم تُعرض معاييه ، وتتصور المعايب والمحاسن في أخبار وأقاصيص وحكايات ، تلتقي فيها الثقافات المعروفة حينئذ وما كان يتسرّب منها إلى كتب السمر ، وفي مقدمتها الثقافة الإسلامية» . (ص ٥٤١) ويقول شوقى ضيف : «ويلتقي بهذا الكتاب في موضوعاته وأكثر مادته كتاب المحسن والمساوي لإبراهيم بن محمد البهقى . وطبعي أن تكون مصادر هذا الكتاب هي نفسها مصادر الكتاب الأول المنحول للجاحظ : لأنه ليس أكثر من نسخة مجدد له» . (ص ٥٤٦ - ٥٤٧) .

وإذا كان ما رأيناه فيما سبق يتصل جميعه بفنون النثر القولية .. فإن الفنون التثريّة الكتابية ، قد انفتحت أمامها أبواب التقدّم والرقي والأصالحة في العصر العباسي في صورة لم يشهدها تاريخ النثر العربي هذا العصر ، وربما كان ذلك أيضاً بعده حتى مطلع العصر الحديث ، تلك هي الصورة التي يرسمها منهج شوقى ضيف الذي عرفنا خطواته السابقة ، ونعرف الآن كيف تمضي بنا قدمًا لتقف بنا بعد ذلك وقفه خاصة ، عند فن الكتابة التي نشطت نشاطاً واسعاً في العصر ، فقد توفر عليها - كما يقول شوقى ضيف - مئات من أصحاب الأقلام يحولهم في ذلك ما كانت تدره عليهم من أرزاق واسعة ، وكان من يظهر منهم مهارة في دواوين الخلافة سرعان ما يرقى إلى رئاسة الديوان الذي يعمل فيه ، وقد تقبل عليه الدنيا فيصبح رئيساً لمجموعة من الدواوين ، وقد يصبح وزيراً لل الخليفة يسوس الدولة ، ويدبر أمورها وشئونها، فإن لم يصبح وزيراً أصبح والياً لإقليم من الأقاليم .. وعلى هذا النحو كانت الكتابة في هذا

العصر الجسر الذى يصل الشخص إلى أرفع المناصب وكان من يتقنها من الوزراء والقواد والولاة يلقى الإكبار والإعجاب في كل مكان» . (العصر العباسى ص ٤٦٥) .. يقول شوقي ضيف : «ومن ينظر نظرة عامة في موضوعات الرسائل الديوانية لهذا العصر يلاحظ أنه كانت تتناول تصريف أعمال الدولة ، وما يتصل بها من تولية الولاية ، وأخذ البيعة للخلفاء وولاة العهود ، ومن الفتوح والجهاد ومواسم الحج والأعياد ، والأمان ، وأخبار الولايات وأحوالها في المطر والخصب ، والجدب ووصاياتهم ، ووصايا الوزراء والحكام في تدبير السياسة والحكم » (العصر العباسى الأول ص ٤٦٨) .

ومع العصر العباسى الثانى كانت الدواوين فى سامراء وبغداد أشبه بمدرسة فنية كبيرة يفد عليها الشباب ويختبرون اختباراً دقيقاً .. ولا ريب أن ذلك جعل التنافس على النهوض بالكتابية فيها يبلغ الذروة ، وهو تنافس دفع إلى التشقق الواسع بكل ألوان الثقافات ، وفي مقدمتها الثقافية اللغوية» . (العصر العباسى الثانى ص ٥٥٠ - ٥٥١) .. «وقد أخذ كتاب الرسائل الديوانية منذ أواسط القرن الثالث الهجرى يصطنعون السجع في جانب من رسائلهم .. وحقاً أخذ السجع يدخل في الرسائل الشخصية ، منذ القرن الثانى كما صور ذلك كتاب العصر العباسى الأول على نحو ما يلقانا في رسالة ابن سيابة المشهورة ، ولكن الرسائل الديوانية ، ظلت تكتب بأسلوب مرسل ، يشيع فيه أحيماناً الأزواج ، أما السجع فيتذر أن تلتقى به في تلك الرسائل وكأن الأنوار أخذت تستعد لشيوعه وانتشاره في الكتابة الديوانية لهذا العصر» (العصر العباسى الثانى ص ٥٥٥) لكن السجع لم يلبث أن «أصبح ظاهرة عامة في الرسائل الديوانية» (ص ٥٦٠) ... حتى أصبح «لغة جميع الرسائل منذ أوائل القرن الرابع للهجرة ، بل مع أواخر القرن الثالث ، فليس هناك كاتب إلا ويسجع ، وإن فاته السجع في مكان من رسالته عاد إليه في الأمكانة الأخرى» (ص ٥٦١) . بل إن «السجع أصبح منذ خلافة منذ المقتدر اللغة العامة للدواوين فالرسائل تمتلى بزخارفه ولآلته ، إذ غدا المثل الأعلى للجمال الفنى في الكتابة الديوانية ، فلابد فيها من قوافيه وفواصله ، ولابد من تساقق أنفاسه وألحانه في الكلام» (ص ٥٦٢) .

ويقف الدكتور شوقي ضيف عند فنون النثر الكتابي الأخرى في العصر العباسى الأول مثل فن التوقيعات ، وهى كما يقول : « عبارات موجزة بليفة تعود ملوك الفرس ، وعندما هم ، أن يوقعوا بها على ما يقدم إليهم من تظلمات الأفراد في الرعية وشكواهم ،

وحاكم خلقاء بنى العباس ، وزراؤهم فى هذا الصنف .. ودارت فى الكتب الأدبية توقعات كثيرة أثرت لكل خليفة عباسي كل وزير خطير .. ولعل وزيراً لم يبرع فى التوقعات براعة جعفر بن يحيى البرمكي .. قال ابن خلدون : « كان جعفر بن يحيى يقع فى القصص بين يدي الرشيد ويرمى بالقصة إلى صاحبها ، فكانت توقعاته يتنافس البلفاء فى تحصيلها للوقوف فيها على أساليب البلاغة وفنونها ، حتى إنها كانت تباع كل قصة منها بدينار » (العصر العباسي الأول ص ٤٨٩ - ٤٩٠) .

وننتقل بعد هذا مع الدكتور شوقي ضيف إلى الرسائل الإخوانية والأدبية ، فقد نمت هذه الرسائل في العصر العباسي الأول نمواً واسعاً « تصور - كما يقول - عواطف الأفراد ومشاعرهم ، من رغبة ورهبة ، ومن مدح وهجاء ، ومن عتاب واعتذار واستعطاف ، ومن تهنة واستمناح ، ورثاء أو تعزية ، وكانت هذه العواطف تؤدي في العصر الاموي بالشعر ، وكان من النادر أن تؤدي بالنشر ، أما في هذا العصر فقد زاحم فيها النثر الشعر بمنكب ضخم ، وأتاح له ذلك أمران : أولاً ظهر طبقة ممتازة من الكتاب الذين يجيئون فيه إجاده رائعة ، وخاصة من كان منهم يكتب في الدواين ، إذ كانوا يأخذون أنفسهم بثقافة واسعة ، وكانوا يعنون بتحبير كلامهم ، وتجويده وحشد كل ما يمكن فيه من عنابة فنية .. والأمر الثاني مرونة النثر ويسر تعابيره ، وقدرته على تصوير المعانى بجميع تفريعها قدرة ، لا تناح للشعر لارتباطه بقواعد موسيقية معقدة من وزن وقافية . وقد طوع هؤلاء الكتاب الديوانيون أو السياسيون أساليبه ، ومرنوها على أن تحمل كثيراً من المعانى الجديدة غير المألوفة ، وبذلك كله ثبت النثر للشعر في التعبير عن العواطف التي طالما عبر عنها ، بل لقد ظهر في ذلك طوابعه لعلها لم تكن تناح حتى لكتاب الشعراء » (العصر العباسي الأول ص ٤٩١) .

ويقول شوقي ضيف : « وما يدل دلالة واضحة على أنه رقى في هذا العصر رقياً واسعاً ، حتى في المجال العاطفى الخالص منرت اللغة على أدائه شرعاً ، وهو رقى تتزاوج فيه المادة العقلية بما استتبع الكتاب من دقائق المعانى ، واللذة الشعورية بما استتبعوا من دقائق الأحساس والصور ، وما بثوا في ألفاظهم من حسن الاختيار للصيغ ، من جمال التقابل بين العبارات والجمل ، حتى ليحاول بعض الكتاب أن يسجع في كلامه ، حتى يصوغه صياغة موسيقية تامة » (ص ٤٩٨) . « وعلى هذا النحو

لم يترك الكتاب فنا من فنون الشعر إلا كتبوا فيه . وعبروا عنه بكتاباتهم موجزين تارة ومطنبين تارة أخرى ، محاولين بكل ما استطاعوا أن يظهروا القارئ على براعتهم وتقتنهم في الأداء .. (ص ٥٠٠) ، بل لقد « دفعهم تقتنهم في بعضها أن يتحلوا بها إلى ما يشبه الرسائل الأدبية الخالصة ، وهي التي تتناول خصال النفس الإنسانية ، وتصور أهواها وأخلاقها ، وتوضح لها طريقها إلى الخير ، حتى لا تسقط في مهاري الشر .. » (العصر العباسي الأول ص ٥٠٢) .

وفي العصر العباسي الثاني تستمر منافسة النثر للشعر في مجالاته الخاصة ، وهي مجالات الوجودان .. « حتى لنرى قوماً إذا ستلوا عن الكلام أو الوصف هل يكون شعراً أو نثراً فضلوا أن يكون نثراً » (العصر العباسي الثاني ص ٥٦٢) .. ويقدح شوقي ضيف لتطور النثر الفنى في هذا المجال متبعاً موضوعاته ومراحله ، ويقول : « كان الكتاب يكترون من الدعوة للزيارة ، ولقضاء بعض الوقت في اللهو ولسماع الغناء أو للسمر والطعام . وأكتروا من التهانى في كل مناسبة في الأعياد ، وفي الزواج ، وفي إنجاب الأولاد ، وفي ختانهم ، وفي الحج وقضاء مناسكه ، وفي وصف الطبيعة شتاءً وفي الربيع . وقد تعقبنا انتشار السجع في الرسائل الإخوانية طوال العصر لندل على أن نوقاً عاماً أخذ يعني به ، وهي عنابة جعلته يعم في تلك الرسائل مع أواخر القرن الثالث ، بل لقد أخذ يعم - منذ أواسطه » ... ولم يقف انتشار السجع وشيوعه منذ انتشار الرسائل الإخوانية والديوانية ، فقد أخذ يشيع في الرسائل الأدبية الخالصة ، وكان الجاحظ قد أشاع في تلك الرسائل أسلوب الإزدواج المعروف به ، غير أن من تلوه في القرن الثالث الهجرى أخذوا يدخلون عليها السجع ويكترون منه ، على نحو ما تصور ذلك رسالة لابن المعتز ، كتب بها إلى بعض أصدقائه يصف سامراء وبواسى لخرابها « ويقم ببغداد وأهلها ، وهي أشبى بمناظرة بين البلدين : العاصمة القديمة سامراء ، والعاصمة الجديدة ببغداد .. ويطل القرن الرابع ، وإذا هذه العناية تصبى في النون العام فى الكتابة الأدبية ، فليس هناك كاتب ثابه إلا ويتخذ هذا الأسلوب الفنى الجديد . السجع وما يطوى فيه من زخارف البديع » (العصر العباسي الثاني ص ٥٧٠ - ٥٧١ - ٥٧٣) .

ويتبع بحث هذا التطور في تاريخ النثر العربي لهذا العصر في مرحلتيه : الأولى والثانية - عند شوقي ضيف - دراسة تخصص بanalysis الكتاب في العصرتين .. أما العصر العباسي الأول ، فقد شهد ابن المقفع ، وسهل بن هارون ، وأحمد بن يوسف ، وعمرو بن مساعدة ، ومحمد بن عبد الملك الزيارات .. وكان لكل واحد من هؤلاء دوره في النهوض بالنشر العربي لهذا العصر .. غير أن ابن المقفع خاصة - كما يرى شوقي ضيف - « كان من أوائل من وطّبوا هذا الأسلوب العباسي المولد ، إن لم يكن أول من وطّده وخاصة في ميدان الترجمة ، وهو أسلوب يقوم على السهولة والوضوح مع توفير الجزالة والرصانة ، وكان يعتمد فيه إلى الإيجاز ، فالمعاني تزدّى بأقل الألفاظ دون أن تقتصر عنها ، ودون أن تطول طولاً يجحف حقوقها ، ولعل ذلك هو الذي جعله يعدل عن أسلوب السجع ، وكذلك عن أسلوب التراويف الصوتية ، الذي سبق أن لاحظناه عند الوعظ وعند عبد الحميد الكاتب وأستاذيه سالم .. لقد كانت غايته أن يوفّق بين اللفظ الدال والمعنى المدلول .. وقد ظلت القرون التالية تتداول كثيراً مما ترجمته ، وخاصة كليلة وديمة ، والأدب الكبير ، والأدب الصغير ، وهذا الصمود للتداول مرجعه هذا التعاون الوثيق بين المعنى الحصيف واللّفظ الرشيق » (الفن ومذاهبه في النثر العربي ص ١٤٣ - ١٤٤) .

أما سهل بن هارون ، فيظهر أنه كان « أهم كاتب ظهر خلال القرن الثاني الهجري » ، وإن لم تصلنا من آثاره إلا « بقية ضئيلة من هذا المجهود الضخم الذي وصفه الجاحظ ، وابن النديم وأمثالهما » . يقول شوقي ضيف : « ولوّا أن الجاحظ احتفظ لنا في كتابي البخلاء ، والبيان والتبيين ، بأطراف من عمله ما استطعنا أن نصدر حكماً دقيقاً على صياغته ولا على صنعته » . (ص ١٤٩) . وفي تتبّع روح الأسلوب في كتابته وحركة الفن فيه يقول شوقي ضيف : « ما من ريب في أن صوت سهل قد اتضّح لنا الآن بجميع خصائصه ، فهو يعمد إلى الجدل والدقة في الحوار ، كما يعمد إلى شيء طريف في أسلوبه ، إذ نرى الألفاظ تتوازن ، لكن لا في شكل سجع بل في شكل تقطيعات دقيقة ، وكأنّي بسهل لم يكن يعمد إلى أداء أفكاره بلفظ فصيح فقط كما كان يصنّع ابن المقفع ، بل كان يعمد إلى ضرب من التوقيع الصوتى في اللّفظ حتى تستقيم لأسلوبه فنون من الجمال المادى الذى يخلب سامعيه ، كى يؤثر

في وجداً لهم وعواطفهم ، بجانب ما يؤثر به في عقولهم من حجاجه وجده والتماسه للبراهين والأدلة على أفكاره ... وعلى هذا النحو كانت تندمج في أساليبه خصائص موسيقية في خصائص أخرى عقلية تلمحها في هذا الجدل ، وهذا الحوار ، وما يبيو عليه من تلويين عقلية أحداثتها الثقافة الفلسفية في تفكيره وأدائه لمعانيه ، وقد كان يعرف كيف يوازن بين هذه التلويين العقلية وما سبقها من تلويين موسيقية ، فتخرج أساليبه وقد التمتعت عليها شيات من التأمل والعقل الدقيق ، كما التفت عليها شيات أخرى من التوقع والترادف الموسيقي ، وسنتى هذه الشيات جميعاً تمتد تحت أغبينا في كل ما ديج الجاحظ وحبره من رسائل ، وأنه ليتاثر في هذه النزعة سهلاً من طرف ، وبينة المتكلمين الذين نشأ فيهم من طرف آخر . (الفن ومذاهبه في النثر العربي من ١٥١ - ١٥٢) .

ومع رصد الباحث لحركة الفن هذه التي تمتد من أسلوب سهل بن هارون إلى أدب الجاحظ ، نصل مع شوقى ضيف إلى الجاحظ الذى يوضع « على رأس كتاب العصر العباسى غير مدافع ولا منازع » (ص ١٥٤) . ومن هؤلاء الكتاب إبراهيم بن العباس الصولى ، وأبن قتيبة ، وسعيد بن حميد ، وأبو العباس بن ثوابه .

فللحاظ « نقد يقف في بيته المعتزلة الجملة اللستة ، وبيان متاثر بكتابات عصره وخاصة كتابات سهل الذي كان يشفى به كما لاحظ ابن النديم في فهرسته ، ونحن لا نصل إلى القرن الثالث حتى نجده وقد استولت له شهرة فائقة بين كتاب عصره .. » (الفن ومذاهبه ص ١٥٦) . فلم يترك موضوعاً عاماً إلا وكتب فيه رسالة أو كتاباً ، وأن من يرجع إلى رسائله وكتبه يجده قد ألف في النبات ، وفي الشجر ، وفي الحيوان ، وفي الإنسان وفي المعاد والمعاش ، وفي الجد والهزل ، وفي الترك والسودان ، وفي المعلمين والقيان ، وفي الجواري والقلمان ، وفي العشق والنساء ، وفي النبيذ ، وفي الشيعة والعباسية ، وفي الزيدية والرافضة ، وفي الرد على النصارى وفي حجج النبوة ونظم القرآن ، وفي البيان والتبيين ، وفي حيل لصور النهار وحيل سراق الليل ، وفي البخلاء واحتجاج الأشقاء ، وإن في هذا ما يدل - كما يقول شوقى ضيف - على أن الجاحظ خطأ بالكتابة الفنية عند العرب خطوة جديدة نحو التعبير عن جميع الموضوعات في خلابة وبيان عنزب ، وكأنه به لم يكن يفهم أن الكتابة الأدبية ألغاظ

ترصف ، وإنما كان يفهمها على أنها معان تنبع في موضوع خاص مما يتصل بالطبيعة أو بالإنسان . وكان لذلك صنعته الخاصة في كتابته ، فإنها كانت ذات موضوع قبل أن تكون ذات أسلوب » (ص ١٦٠ - ١٦١) . ويقول شوقي ضيف : « وأكبر الظن أننا لا نبعد إذ قلنا إن المعرفة الفنية الأساسية في كتابات الجاحظ هي الواقعية والاستطراد ، وضروب من التلوين الصوتي ، وأخرى من التلوين العقلي » (الفن ومذاهبه ص ١٦٢) .

وبهذا النهاز إلى سر الفن البصري عند الجاحظ يقف شوقي ضيف ليفصل هذه العناصر الفنية الأربع في كتاباته ويعتبر الباحث في نقده وتحليله النصوص الأدبية المختلفة التي تسلك طريقها من أجل التوصل إلى مذهب الفن في أدب هذا الكاتب الكبير ويقف شوقي ضيف بعد ذلك وقفة تحليلية خاصة عند رسالة للجاحظ « تجمع بين دفتيرها محاسن التفكير الدقيق والتعبير الأنيدق » وهي رسالة التربيع والتلوير) والفن ومذاهبه في النثر العربي ص ١٧٧ - ١٨٨) لنجد هذه العناصر الأربع كلها مجتمعة متبلورة في هذه الصنعة الجاحظية ونخرج من هذا كله إلى أن مذهب الصنعة من بين مذاهب الفن هو الذي غالب على النثر العربي في العصر العباسي قبل أن يتحول به الطريق مع نهاية القرن الثالث وبداية القرن الرابع حين استخدم أسلوب السجع الذي يتكامل به كما يقول شوقي ضيف - « أحد الجانبين الأساسيين في مذهب التصنيع وهما السجع والبديع » (الفن ومذاهبه ص ٢٠١) أما الجانب الثاني ، وهو جانب البديع فهو ما يستحق في صورته الواضحة عندما ندخل عصر الدول والإمارات الذي يعتبره شوقي ضيف عصراً مستقلاً عن العصر العباسي تاليًا له مختلفاً عنه

أ . د . سعيد منصور

أستاذ الأدب العربي

كلية الآداب - جامعة الإسكندرية

د. أحمد محمد عيدان

حين ينظر الناظر إلى أعمال الدكتور شوقى ضيف الكثيرة المتنوعة لا يملك إلا أن يجد للرجل أكثر من وجه فهو أولاً مؤرخ للأدب وهو ثانياً ناقد متمكن من أبرز نقاديه وهو ثالثاً مفكراً من مفكري التراث وخبير من خبرائه وهذا التعدد في شخصية الرجل العلمية ، يصيب بالحيرة كل من أراد أن يكتب عن هذه الشخصية العلمية الموسوعية الخمسة ، فما هي الجوانب التي يترك وأيها يختار؟ .

و حين عن لى أن أشارك في الكتابة عن هذه الشخصية العالمية والأدبية البعيدة الغور المتعددة الجوانب أشفقت على نفسي ألا يكون ما أكتبه في مستوى عمق الرجل وشمولية أعماله وهو بالقطع لن يكون كذلك مهما حاولت ، وقارئي ما يمكن أن يفعله مثلى ، هو أن يحسن اختيار الجانب الذى ينبعى أن يتناوله فى أعمال علم فذ فى حجم الدكتور شوقى ضيف وقد هداني عقلى بعد طول تفكير ، إلى أن أجعل من اهتمامى بشاعر عربي كبير - هو ابن الرومى - مداراً للحديث وشجعنى على ذلك ما وجده فى أعمال أستاذنا الدكتور شوقى ضيف من اهتمام كبير وحفاوة بالغة بذلك الشاعر المغبون فحديثى إذن سيكون عن ابن الرومى كما رأه الدكتور شوقى ضيف .

حفاوة بالتراث :

في البداية أحب أن أشير إلى أن اهتمام الدكتور شوقي ضيف بشاعرية «ابن الرؤمي» لم يأت من فراغ أو بالأحرى لم يكن وليد الصدفة بل قد كان تتاجراً مباشراً

لعمل شاق ودقيق في مسح وغربة التراث عامه والتراث الشعري خاصة من (أمرئ القيس) حتى «أحمد شوقي» ، مما أتاح للدكتور شوقي ضيف بعد هذا العمل الشاق الدقيق أن يرى «تراثنا الشعري بدءاً من تراث الأم الشعري فهو يحمل لنا حياة أسلافنا على اختلاف صورها السياسية والاجتماعية والاقتصادية ويملى لنا أحاسيسهم ومشاعرهم وأفكارهم ودقائق حكمتهم وخبراتهم وكل ما عاشوه من خير وشر وعدل وظلم ويقين وشك ونعيم وشقاء ، غير أن كثرة هذا التراث لازال بعيدة عن أيدي القراء وأعينهم إذ لا تزال مخطوطة ، وبالتالي لا تزال محجوبة عنهم في الخزائن العامة والخاصة ونفس مانشر ينقص أكثره العناية والتحقيق مما يفسره متعة قلوبنا وعقلتنا به كما يفسد أحكامنا عليه وتقوينا له تقويناً صحيحاً مضبوطاً »^(١) .

ولعل هذه المعرفة الشمولية العميقه بدقة التراث الشعري العربي على طول تاريخه هي التي جعلت أستاذنا يقف في أرض راسخة ، حين يدافع عن ذلك التراث ضد النظارات السطحية والأحكام السريعة الجائرة وما أكثرها فيقول وهو على حق « وليس من شك في أن أكثر الأحكام فساداً وضلالاً على هذا التراث ما يقال من أنه ليس إلا مدحًا وهجاءً ورثاءً وأن المدح يشغل الحيز الأكبر منه وهو ليس إلا ملقاً واستجداءً ولغواً وغثاءً لا غناء فيه وهو قول ناشئ عن نقص في فهم هذا الفن ونقص آخر في استقصاء نماجه ودراستها دراسة متعمقة إذ لم يكن فن استجداءً وملقاً كما يقال وكما قد يتباين لمن يحكمون على الأشياء بظواهر دون بواطنها الحقيقة وإنما كان فن تمجيد لزعامتنا ويطولنا على مر التاريخ مما يحييله ويثائق تاريخية رائعة لا لسير زعمائنا وأبطالنا الماضيين فحسب ، بل أيضاً لما تطلب أسلافنا فيهم من خلل إنسانية رفيعة »^(٢) .

إن الشاعر الأموى لكم يكن منافقاً - في رأى أستاذنا الدكتور شوقي - وهو يناصر الخلفاء الأمويين ويمدحهم وإلا فإننا نتفهم باتفاق الجماعة الإسلامية التي تعاونت مع أولئك الخلفاء^(٣) وهو الكتلة الضخمة من الأمة ، كما أن الشاعر العباسى ، كان

(١) د. شوقي ضيف ، فصول في الشعر ونقد ، دار المعارف ط (٢) ، القاهرة ١٩٧٧م ، ص ١٢ .

(٢) المصدر نفسه ، ص ١٢ - ١٣ .

(٣) المصدر نفسه ، ص ١٤ .

يعبر عن الجماعة الإسلامية ومثلها الرشيدة ، وهو يستضئ بهذه المثل في مدح الوزراء والولاة والقادات ، بل هو يجسدها فيهم جميعاً تجسيداً قوياً وكأنه يريد بها أن تصبح قواعد عامة في الجماعة^(١)

لم يكن ذلك إلا أنموذجاً من دفاع استاذنا المستمر ، عن تراثنا الشعري أمام المستهينين به ، وهو دفاع لا يقوم على مجرد عاطفة خالصة ، أو حماسة مشروعة بل يقوم مع ذلك ودبيما قبله ، على علم راسخ واستقصاء طويل وبصيرة نقدية ثاقبة .

مع ابن الرومي :

لا بد من أنتنا سنتظر من رجل في علم ومنزلة الدكتور شوقي ضيف حين يعرض لشاعر في منزلة «ابن الرومي» ، أن يجعلنا نقف بدقة على أسرار شاعريته ، وأن يقولونا بمصالحة النقد الهدى عبر دهاليز تلك الشاعرية ومنعطفاتها المشابكة .

وربما (كان عباس محمود العقاد) وهو أول من لفت النظر إلى «ابن الرومي» في كتاب كامل عنه ، غير أن كتاب «العقاد» وجه عنایته في الدرجة الأولى إلى حياة الشاعر من خلال شعره كما يدل على ذلك عنوان الكتاب .

إما كتابات شوقي ضيف عن «ابن الرومي» وهي متوزعة في شايا كتبه ، فقد اختلفت أكثر بشعر الشاعر ، وركزت اهتمامها على خصائص فنه ، وعلى معانيه وأخلاقه وأغراضه الشعرية ، وسنحاول في هذه الصفحات أن نلقي بعض الضوء على شخصية «ابن الرومي» وشاعريته ، كما رأها استاذنا الكبير شوقي ضيف .

إنصاف الشاعر :

من الجدير أن نلاحظ منذ البداية أن الدكتور شوقي ضيف لم يتوان عن إنصاف «ابن الرومي» الذي أهمله كثير من النقاد القدماء والمعاصرين فهو يرد إليه حقه ويضعه

(١) المصدر نفسه ، ص ١٥ .

مع الفحول الأفذاذ من شعراء العربية مثل «أبي تمام» «ومتنبي» «وأبي العلاء»^(١) وهو أيضاً يشير إلى امتياز أفكاره وأخياله النادرة ، ويلفت النظر إلى ما كان يحرص عليه من بث الفنون الجديدة في أشعاره ، وخاصة الجناس ، ويثبت أن له أذناً موسيقية رائعة ، وكل ذلك - في رأيـة - حمى الصياغة عنده من الهبوط عن المستوى الرفيع إلا ما كان يريد أن يقترب فيه من النوق الشعبي ، لشعبية كانت متصلة في ذات نفسه والحق أنه كان شاعرًا بارعًا بل لا شك - والكلام للدكتور - في أنه أشرع شعراء العصر ، لما يحمل به ديوانه من الموضوعات والمعانـى والأخـيلـة المبتكرة ، مما يملـأ النفس إعجاـباً متصلـاً به وبأشعاره^(٢)

وحين يجعلـ أستاذـنا من «ابن الرومي» أشرعـ شـعـراءـ عـصـرـهـ ، فإـنهـ يـكونـ بـذـلـكـ قدـ أـنـصـفـهـ وـأـنـزلـهـ المـنـزـلـةـ الـتـىـ يـسـتـحـقـهاـ فـىـ تـارـيـخـ الشـعـرـ العـرـبـىـ ، وـهـوـ لـاـ يـنـزـلـهـ تـلـكـ المـنـزـلـةـ خـبـطـ عـشـوـاءـ بـلـ يـفـعـلـ ذـلـكـ بـعـدـ مـقـارـنـاتـ دـقـيـقـةـ أـجـرـاـهـ بـيـنـ شـعـراءـ عـصـرـ وـبـيـنـ «ابـنـ الرـومـىـ»ـ .

بين ابن الرومي والبحترى :

فهو يقارن بين «ابن الرومي» و «البحترى» ، فيخلص إلى أن «ابن الرومي» كان يمثل بحق النزعة التجديدية في العصر ، على أن «البحترى» يمثل النزعة التقليدية فيه^(٣) ، وإن كان الشاعران يشتراكـانـ فـىـ أـنـهـماـ لـيـسـاـ مـنـ أـصـحـابـ التـصـنـيـعـ ، فإـذـاـ كـانـ «ابـنـ الرـومـىـ»ـ قدـ اـهـتـمـ فـىـ صـيـاغـتـهـ باـسـتـخـدـامـ لـوـنـىـ الطـابـقـ وـالـجـنـاسـ ، فـإـنـ «الـبـحـتـرـىـ»ـ كـانـ يـصـنـعـ الشـئـيـنـ نـفـسـهـ مـعـ مـيـلـ إـلـىـ الإـكـثـارـ مـنـ الطـابـقـ ، وـهـيـ أـشـيـاءـ تـسـقـطـ فـىـ بـعـضـ شـعـرهـماـ وـقـدـ لـاـ تـسـقـطـ ، إـذـ هـىـ لـاـ تـعـدـ بـيـثـابـ المـذـهـبـ عـنـهـماـ^(٤)ـ وـيـقـىـ الفـرقـ بـيـنـهـماـ فـىـ

(١) د. شوقي ضيف ، في النقد الأدبي ، دار المعارف ، ط (٥) ، القاهرة ١٩٧٧ م ، ص ١٥٦ .

(٢) د. شوقي ضيف ، العصر العباسى الثانى ، دار المعارف ، القاهرة ١٩٧٣ م ، ص ٣٢٤ .

(٣) د. شوقي ضيف ، العصر العباسى الثانى ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٧٣ م ، ص ٣١٣ .

(٤) د. شوقي ضيف ، الفن ومذاهبـةـ فيـ الشـعـرـ العـرـبـىـ ، دـارـ المـعـارـفـ ، صـ ٩ـ ، القـاهـرـةـ ١٩٧٦ـ مـ ، صـ ٢١٥ـ .

أن البحترى كان يستعير بعض أدوات الطابق والجناس ، بينما كان «ابن الرومي» يوسع هذه الاستعارة إلى أدوات من الثقافة والمنطق والتشخيص والتجمسيم ، ونفس الأدوات التي اتفقا في استعارتها اختلفا في استخدامها .. فقد كان «البحترى» يعجب بالطابق أكثر مما يعجب بالجنس ، بينما كان «ابن الرومي» يعجب بالجنس أكثر مما يعجب بالطابق ، ونفس الجنس اختلفا في استخدامه ، وبينما كان «البحترى» يستخدم الجنس الكامل ، كان «ابن الرومي» يكثر من استخدام جنس الاشتقاد ، وليس هذا كل ما بينهما ، إذا اختلفا في صنعة الأسلوب نفسه ، إذا كان «البحترى» يعني بصفاء تعبيره حتى يحدث فيه صناعته الصوتية الخاصة»^(١).

وفي خضم هذه الموازنة الفنية الدقيقة بين الشاعرين ، لاينسى أستاذنا أن يرصد العلاقة الشخصية بينهما ، التي بدأت في شكل منافسة امتدت حتى انقسم الأدباء بإيزانها قسمين ؛ قسمًا هو الأكثر لما كان يقارنه من اللغويين ، وهم انصار «البحترى» وقسمًا مقابلًا هو أنصار «ابن الرومي» وفي مقدمتهم عبيد الله بن طاهر^(٢) . وقد أورد الدكتور شيئاً من هجاء «ابن الرومي» لخصمه «البحترى»^(٣) على أثر هذه المنافسة الحادة ، ويبين لنا الدكتور ضيف كيف أن المنافسة لم تزل حادة مشتدة بين الشاعرين حتى جمع بينهما بعض الأدباء ، فتصافيا وتوادا ، واعترف كل منهما بفضل صاحبه^(٤) .

بين «ابن الرومي» و«ابن المعذز» :

وحين يعرض أستاذنا للموازنة بين «ابن الرومي» و «ابن المعذز» ، نجد أنه يلمس أولاً ، أهم الجوانب المشتركة بينهما كما فعل الموازنة بين «ابن الرومي» والبحترى ويجد

(١) المصدر نفسه ، ص ٢١٧ .

(٢) د . شوقي ضيف ، العصر العباسي الثاني ، مرجع سابق ، ص ٢٠٤ .

(٣) يقول «ابن الرومي» في مطلع هذه القصيدة البائية التي قالها في هجاء «البحترى» : ما أنس لا أنسى «هذا» ، آخر الحقب على اختلاف صرف الدهر والعقب

وقد ورد في ديوانه من هذه القصيدة ستة وثمانون بيتاً وقد كانت أولى من ذلك في الأصل كما يشير ناسخ الديوان ، انظر . ديوان ابن الرومي ، تحقيق د . حسين نصار ، ج . (١) : ١٦٩ / ١٩٦ وقد أورد الدكتور

شوقي ضيف البيتين رقم (٣٧) و (٥٤) من هذه البائية ، انظر . العصر العباسي الثاني ، ص ٢٠٥ .

(٤) المرجع السابق ، الصفحة نفسها .

أن أهم جانب يشتهر في « ابن المعتز » مع « ابن الرومي » هو الطابع الشعبي في الأسلوب واللغة ، ويظهر هذا الطابع الشعبي عند الشاعرين أكثر ما يظهر في الغزليات والخمريات ، ويبتلي أستاذنا الكبير لـ « ابن الرومي » تفوقاً واضحاً على قرينه ، فهو يرى أن أحد لم يستطع أن يتفوق على « ابن الرومي » في تصويره لأثر الخمر في نفوس المجنان ، وما تحدث فيهم من السرور وانفساح الأمل حتى ليتخيلون إمكان وقوع المستحيل وحيثه ، كما صور ذلك في قوله^(١) :

لطفت عن الإدراك والحس
ومدامه كحشاشة النفس
روح الرجاء وراحة النفس
لنسيجها في قلب شاربها
حتى يؤمل مرجع الأمس
ونجد في أمل ابن نشوطها

ويخلص أستاذنا من الموازنة بين الشاعرين ، إلى أن « ابن الرومي » لم يكن أبعراً تصويراً من قرينة لأثر الخمر فحسب ، بل كان أيضاً أكثر منه شعبية ، ذلك أن « ابن المعتز » كان أميراً من أبناء القصور ، بينما كان « ابن الرومي » من أبناء الشعب ، فتأصلت الشعبية في نفسه ، مما جعله يقترب اقترباً كثيراً في شعره ، خمره وغزله وغيرهما ، من أغراض شعره من اللغة البغدادية اليومية ، حتى ليستحيل كثيراً من أشعاره إلى ما يشبه صحيحة شعبية ، بما صور فيها من ألوان السكان ببغداد على اختلاف مشاربهم ومنازعهم إذ نرى رؤية واضحة للحكام والقضاء والعلماء من كل صنف ، والكتاب والبزازين والعطارين والخبازين والحملان والشوائين والشحاذين ، كل أولئك وأنصاراً لهم يرسمون في أشعاره وترسم معهم ملابسهم ، حتى ملابس البوسائء المرقعة والبالية^(٢) .. وهكذا فإن نتيجة الموازنة النهائية تجيئ لصالح « ابن الرومي » ، سواء من حيث قوة تأثير خمرياته أم من حيث شعبيته التي انعكس على شعره شكلاً ومضموناً .

(١) د. شوقي ضيف ، الشعر وطوابعه الشعبية على مر العصور ، دار المعارف ، القاهرة ١٩٧٧م ، ص ١٢٢ .
وانظر : ديوان ابن الرومي ، تحقيق د. حسين نصار ، ج (٢) ، مطبعة دار الكتب ، القاهرة ١٩٧٦م ، ٩٥٣١١٧٤ ، دروایة عجز البيت الأول في الديوان : (لطفت عن الإدراك باللمس) .

(٢) د. شوقي ضيف ، الشعر وطوابعه الشعبية ، مرجع سابق ، ص ١٢٢ .

«الحمدوني» هو إسماعيل بن إبراهيم ، ولقب «الحمدوني» نسبة إلى جده «حمدونية» صاحب الزنادقة لعهد «الرشيد»^(١) ، وقد اشتهر بأشعاره الساخرة المضحك في شاه هزيلة ، أهداها له أحد رجال العصر وهو «سعید بن أَحْمَدَ بْنُ خُوَسِنَادَ» ، وفي طليسان أخضر بالآهادا له آخر هو «أَحْمَدَ بْنُ حَرْبَ الْمَهْلَبِي» ، وقد نظم في الشاه والطليسان مقطوعات عديدة ، حتى إن مقطوعاته الساخرة في الطليسان وهذه بلغت خمسين مقطوعة ، وقد ذاعت في بغداد على السنة الصبية والشباب والأدباء ، وتحاطفتها الأندية والمحافل ، كما يصور لنا الدكتور شوقي ضيف^(٢) ، ومن الأشعار التي أوردها الدكتور للشاعر في وصف الشاه^(٣) :

لسَبِيلِ شَوَّهِيَةَ	سَلَّهَا الضَّرُّ وَالْعَجْفُ
قَسَدَ تَغْنَتْ وَأَبْصَرَتْ	رَجُلًا حَامِلًا عَلَفْ :
بَأْبَى مِنْ بَكْفَةَ	بَرَءَ مَائِي مِنْ الدَّنْفَ
فَأَتَاهَا مَطْمِعًا	وَأَتَتْهُ لَتَعْتَلَفْ
فَتَولَى فَأَقْبَلَتْ	تَغْنَى مِنْ الْأَسْفَ :
لَبَنَتْهُ لَمْ يَكُنْ وَقْفَ	عَذْبَ الْقَلْبِ وَانْصَرَافَ !
وَمَا أورده الدكتور للشاعر في الطليسان ^(٤) :	وَهَبَتْ لَنَا «ابن حرب» طليساناً
ولَسْتُ أَشْكُ أَنْ قَدْ كَانَ قَدْمًا	بِزَيْدِ الْمَرْءِ ذَا الْضُّعْفِ اتَّضَاعًا لَنْوَحَ فِي سَفِينَتِهِ شَرَاعًا

(١) المرجع السابق ، من ١٢٣ .

(٢) المرجع سابق ، من ١٠٤ .

(٣) المرجع السابق من ١٠٥ .

(٤) د. شوقي ضيف ، العصر العباسي الثاني ، مرجع سابق ، من ٤٣٧ ، والبيت الأخير مطلع قصيدة مشهورة للشاعر الموئي «القطامي» ، وهو تضمين يلتجأ إليه «الحمدوني» ، كثيراً .

وقد غنيت إذا أبصرت مني جوانبـه على بدنـى تداعـى :

«قضـى قبل التـفرق ياضـباعـاً ولا يـك موقفـ منك الـوداعـاً»

ونحن نورـ هـذـين النـموذـجين السـاخـرين لـهـذا الشـاعـر السـاخـرـ ، لأنـ السـخـرـية والإـضـحـاكـ أمـرـان مـشـترـكـان بـيـنـهـ وـبـيـنـ «ابـنـ الرـومـيـ» ، وقد لـاحـظـ أـسـتـاذـناـ الـدـكـتـورـ شـوقـيـ ضـيفـ ذـلـكـ الشـبـهـ بـيـنـ الشـاعـرـيـنـ وـوقفـ عـنـهـ ، بلـ لـقـدـ وـازـنـ بـيـنـ الشـاعـرـيـنـ فـيـ هـجـائـهـماـ خـاصـةـ ، فـانتـهـىـ إـلـىـ أنـ «الـحـمـدوـنـيـ» لمـ يـكـنـ يـقـلـ عـنـ «ابـنـ الرـومـيـ» سـخـرـيةـ وإـضـحـاكـاـً : لأنـ كـانـ إـذـاـ سـلـطـ أـهـاجـيـهـ عـلـىـ أـحـدـ لـمـ يـبـقـ فـيـ باـقـيـهـ ، إـذـاـ كـانـ مـاـ يـرـازـلـ يـقـذـفـ أـبـيـاتـ سـامـةـ تـؤـذـىـ مـنـ تـسـقـطـ عـلـيـهـ إـيـذـاءـ شـدـيدـاـ ، وـبـاـ وـيلـ مـنـ كـانـ يـجـعـلـ مـكـافـأـتـهـ لـهـ فـيـ المـدـيـعـ قـلـيلـةـ أـوـ يـهـدـيـهـ هـدـيـةـ لـاـ تـرـوـقـهـ ، فـبـاـنـهـ كـانـ يـسـلـ عـلـيـهـ لـسـانـهـ بـأـبـيـاتـ سـاخـرـةـ مـضـحـكـةـ^(١) وـكـانـ النـاسـ فـيـ بـغـدـادـ مـاـ يـرـازـلـونـ يـتـنـظـرـونـ مـنـ «الـحـمـدوـنـيـ» مـقـطـوـعـاتـ فـيـ شـاهـ «سـعـيـدـ بـنـ أـحـمـدـ» وـطـبـيـلـسـانـ «ابـنـ حـربـ» ، ضـاحـكـينـ مـهـلـلـينـ ، وـبـالـمـثـلـ كـانـواـ يـتـنـظـرـونـ أـهـاجـيـهـ «ابـنـ الرـومـيـ» الـكـارـيـكـاتـورـيـةـ ، وـكـانــاـ كـانــتـ أـهـاجـيـهـ الشـاعـرـيـنـ تـقـوـمـ مـقـامـ الـمـسـارـ الـهـزـلـيـةـ فـيـ عـصـرـنـاـ وـمـاـ تـقـدـمـهـ مـنـ شـخـوصـ فـكـهـةـ^(٢)

يتـضـعـ مـنـ الـمـواـزـنـةـ أـنـ «الـحـمـدوـنـيـ» وـ«ابـنـ الرـومـيـ» يـقـعـانـ فـيـ رـأـيـ أـسـتـاذـناـ فـيـ مـسـتـوىـ فـنـيـ وـاحـدـ ، مـنـ حـيـثـ إـجـادـهـماـ لـفـنـ السـخـرـيـةـ والإـضـحـاكـ الذـىـ عـمـرـتـ بـهـ أـهـاجـيـهـماـ ، وـلـكـنـ ماـ يـلـفـتـ النـظـرـ هـنـاـ ، أـنـ أـسـتـاذـناـ لـمـ يـشـرـ إـلـىـ مـحاـكـاـتـ «ابـنـ الرـومـيـ» مـرـاتـ كـثـيرـةـ لـفـنـ «الـحـمـدوـنـيـ» فـيـ الشـاهـ وـالـطـبـيـلـسـانـ ، وـرـبـماـ يـكـونـ ذـلـكـ رـاجـعاـ إـلـىـ أـنـ أـسـتـاذـناـ عـنـ كـتـابـتـهـ تـلـكـ السـطـورـ ، لـمـ يـكـنـ قـدـ اـطـلـعـ بـعـدـ عـلـىـ دـيـوـانـ «ابـنـ الرـومـيـ» فـيـ صـورـتـهـ الـكـامـلـةـ الـتـىـ قـامـ بـاـخـرـاجـهـاـ أـسـتـاذـناـ الـدـكـتـورـ «حسـينـ نـصـارـ» فـيـ سـتـةـ أـجزـاءـ وـلـوـ أـنـهـ كـانـ قـدـ اـطـلـعـ عـلـىـ دـيـوـانـ الـكـامـلـ ، لـمـ فـاتـهـ أـنـ يـرـصـدـ تـلـكـ الـمـحاـكـاـتـ الـتـىـ تـجـعـلـ مـنـ «ابـنـ الرـومـيـ» تـلـمـيـداـ لـفـنـ «الـحـمـدوـنـيـ» فـيـ هـذـاـ الـاتـجـاهـ السـاخـرـ ، حـتـىـ لوـ كـانـ التـلـمـيـدـ قـدـ ضـارـعـ الـأـسـتـاذـ ، أـوـ تـقـوـقـ عـلـيـهـ فـيـ بـعـضـ الـمـرـاتـ ، وـقـدـ يـكـونـ مـنـ الـفـيـدـ

(١) دـ. شـوقـيـ ضـيفـ ، الشـعـرـ وـطـوـابـعـهـ الشـعـبـيـةـ ، مـرـجـعـ سـابـقـ ، صـ ١٠٤ـ .

(٢) الـمـصـرـ السـابـقـ ، صـ ١٠٦ـ .

هنا أن نورد أنموذجين من شعر « ابن الرومي » الذي حاكى فيه شعر « الحمدونى » في الشاة والطيلسان ، فمن قوله في الطيلسان^(١) :

ثبوت لهبات الرياح الرَّعَازِعِ
يُخلِّي سبِيلَ الريح غَيْرَ مُنَازِعِ
وَيَعْنِى مِنْ لَمْسِهِ بِالْأَصَابِعِ
فَسَمِيتَهُ سَاجًا فَهَلْ ذَاكَ نَافِعِ
ولِ طِيلِسانُ نَاحِلُ غَسِيرَ أَنَهِ
وَمَا ذَاكَ إِلَّا أَنَّهُ مَتَهْتَكُ
أَرَاهُ كَضَوِ الشَّمْسِ بِالْعَيْنِ رُؤَيَةً
شَكِي ثَقْلُ اسْمِ الطِيلِسانِ لَضَعْفِهِ

أما قول « ابن الرومي » في الطيلسان فهذا أنموذج له^(٢) :

يَـتـجـنـى عـلـى الـرـيـاحـ الـذـنـوبـاـ
صـاحـ يـشـكـوـ الصـبـاـ وـيـشـكـوـ الـجـنـوـبـاـ
فـتـهـبـ الـغـزـورـ فـيـهـ بـهـوـاـ
فـشـقـ الـأـخـرـىـ عـلـيـهـ الـجـبـوـبـاـ
لـنـ يـكـوـنـ الـكـرـيـمـ إـلـاـطـرـوـبـاـ
يـاـ «ـابـنـ حـرـبـ»ـ كـسـوـتـنـىـ طـيـلـسـانـاـ
طـيـلـسـانـ إـذـاـ تـنـفـسـتـ فـيـهـ
وـتـهـبـ الـرـيـاحـ فـىـ أـرـضـ غـيـرـىـ
تـنـفـنـىـ إـحـدـىـ نـوـاحـىـ صـوتـاـ
فـإـذـاـ مـاعـذـلـتـهـ،ـ قـالـ :ـ مـهـلـاـ
طـالـ رـفـوـىـ لـهـ فـأـوـدـىـ بـكـسـبـىـ

ولعل هذين الأنماذجين وغيرهما من النماذج المثلية في ديوان « ابن الرومي » ،
يووضحان كيف أن الشاعر قد اندفع في تقليد فن « الحمدونى » ، ويلقيان بضوء آخر
على العلاقة بين الشاعرين وفنهما الساخر .

بين ، ابن الرومي ، و ، أبي تمام ، :

مع أن أستاذنا الدكتور شوقي ضيف يدرج « أبي تمام » بين أعلام شعراء العصر
العباسي الأول ، إلا أن ذلك لم يحل دونه ودون الاهتمام بتأوجه الشبه والاختلاف بين
علم العصر العباسي الأول ، وعلم العصر العباسي الثاني .

(١) ديوان ، تحقيق د . حسين نصار ، ج (٤) ، ١٤٩٥ / ١١٥٢ .

(٢) ديوان ، ج (١) ، ٢٢٠٠ / ١٦٧ .

وبينما يدرج أستاذنا «أبا تمام» بين أعلام مدرسة التصنيع ، فإنه يستبعد «ابن الرومي» من هذه المدرسة رغم أوجه الشبه الظاهرية بينه وبين «أبي تمام» ، ويسجل كيف أن فكر «ابن الرومي» الدقيق ، وما انطبع في عقله من طوابع الثقافة والفلسفة ، كان حرياً به أن يصبح من أصحاب مذهب التصنيع ، ومن ينظر إلى هذا الجانب عنده ، يخيل إليه كأنه من طراز «أبي تمام» ، وخاصة حين يقرأ له بعض أبيات مفردة أو قطعاً قصيرة مما تناقلته عنه كتب الأدب ، ولكن من يقرأ قصائده يعرف أنه ليس من أصحاب هذا المذهب : مذهب التصنيع ، إذ لم يكن يعني بالزخرف ، لا في شعره ، ولا في حياته إلا قليلاً ، وكأنه كان يأتي بما يأتي به من الزخرف أحياناً مجازة للعصر ، وحقاً شغف شغفاً شديداً بالتصوير ، ولكن هذا الشغف لا يخرجه من دائرة الصانعين ، كما لا تخرجه من دائرة ثقافته الفلسفية ، وما يمتاز به من فكر عميق^(١) .

هناك إذن دائرة المصانعين ، وهناك دائرة الصانعين ، وأستاذنا الدكتور شوقي ضيف يضع «أبا تمام» فيدائرة الأولى ، بينما يضع «ابن الرومي» في دائرة الثانية ، فالصنعة عنده كانت أقل تعقيداً وتعتمد على ما كانت لدى سلفه ، على أن الدائرين ليستا مقلقتين تماماً ، فكتيراً ما كان يحدث تأثير واضح من الصانعين بالمصنع ، يقول أستاذنا مفصلاً ذلك^(٢) : «ومهما يكن فإن «ابن الرومي» لم يستطع أن ينتقل لصناعته من دائرة الصانعين إلى دائرة المصانعين؛ لأنَّه كان يفهم الشعر بصورة أقرب من الصورة التي علقت بذهان أصحاب التصنيع ، فلم يكن يعتقد مثُلهم بأنَّ الشعر جهد عنيدة يبذلها الشعراء ، في استحداث تلك الزخارف الدقيقة التي شغف بها «أبو تمام» وأمثاله ، ليس الشعر زخرفاً وتصنيعاً ، بل هو تعبير ، ومن الممكن أن يضاف إلى هذا التعبير شيء من الحلى والوشى المرصع ، ولكن في خفة ، ويبدون أن يعتمد ذلك الشاعر تماماً يخرج به عن غرضه الأساسي من التعبير عن خواطره إلى التعبير عن ألوان التصنيع الأنثقة ، ومن هنا كانت جماعة الصانعين تستعير أدوات التصنيع في بعض الأحيان ، وإن دون أن تستمر في ذلك ، وبدون أن

(١) د. شوقي ضيف ، الفن ومذاهبه في الشعر العربي ، مرجع سابق ، ص ٢٠٤ .

(٢) المراجع السابق ، ص ٢١٦ - ٢١٧ .

تتخذها مذهبًا في صناعتها ، قد تطبقها ولكنها لا تستمر في التطبيق ، وربما أخفقت في هذا التطبيق ، كما أخفق « البحترى » في كثير من طباقه ، وكما أخفق « ابن الرومي » أحياناً في استخدامه للفلسفة كزخرف جميل ، فقد رأيناه يقف في هذا الجانب عند استعارة الصياغة المنطقية ، بينما رأينا « أبي تمام » يستخدم الفلسفة فيعقد بها في طباقه ، ويستخدم هذا اللون الجديد من نوافر الأضداد » .

وهكذا فإن الموازنة تجئ هذه المرة لصالح « أبي تمام » ، فلم يكن « ابن الرومي » ليرقى عند أستاذنا إلى توظيف الفلسفة بنجاح ، كما فعل « أبو تمام » لم يكن ليقف في تصنيعه عند مستوى ، وإن كان أحياناً يتلزم نفسه مالاً يتلزم خاصة في القافية ، حين عمد إلى محاكاة الشاعر الأموي « كثير عزة » الذي نظم قصيدة تائهة التزم فيها قبل التاء حرف اللام ، ففعل « ابن الرومي » ذلك في طائفة من قصائدته ، ثم جاء أبو العلاء الذي عمم هذه الطريقة في ديوان ضخم هو اللزوميات^(١) ، ولا شك أن في ذلك ضرباً من ضروب التصنيع الذي تنتشر ضروب أخرى منه في ديوان « ابن الرومي » .

حياة ، ابن الرومي ، وشخصيته :

إن القارئ لكتب أستاذنا الدكتور شوقي ضيف ، يستطيع أن يعثر على ترجمة وافية لحياة « ابن الرومي » ، كما يستطيع أن يقف على تحليل متماضك لشخصيته ومزاجه وعلاقته برجال عصره .

إن الخطوط الرئيسية العامة لحياة « ابن الرومي » والحوادث المهمة التي أثرت في شخصيته مبسوطة عند أستاذنا خاصة في كتابيه (العصر العباسى الثانى^(٢)) ، و (الفن ومذاهبه فى الشعر العربى)^(٣) ، حيث تتعرف على نشأته الأولى وأصوله الرومية من جهة أبيه ، والفارسية من جهة أمه .. وزراه يفخر بذلك - شعرًا - فيقول :

(١) د. شوقي ضيف ، فصول في الشعر ونقده ، مرجع سابق ، ص ٤٣ .

(٢) د. شوقي ضيف ، العصر العباسى الثانى ، مرجع سابق ، ص ٢٩٦ - ٢١٢ .

(٣) د. شوقي ضيف ، الفن ومذاهبه فى الشعر العربى ، مرجع سابق ، ص ٢٠٠ - ٢٠١ .

كيف أفضى على الدينية والفرس سخنولى والروم هم أعمامى؟!

ثم نصطحب الشاعر منذ مولده سنة (٢٢١) للهجرة ، حيث لم تكن تقدم به الأيام حتى توفي أبوه ، فكفلته أمه وأخ أكبر منه ، ونراه يتجه إلى الثقافة المعاصرة له وإلى الشعر ، ويروى القديم والحديث منه ، ولم يلبث أن جرى على لسانه ، فتهاوته التواري والمحالق في بغداد ، كما تهاوته الوزراء وكبار رجال الدولة ، فمدحهم ونال عطاهم ، وابتسمت له الحياة قليلاً ، غير أنها سرعان ما عبست ، فماتت أمه ومات أخوه ، وتزوج وأنجب أطفالاً ، إلا أن القدر أخذ يعصف بهم واحداً وراء الآخر ، وماتت زوجته^(١).

ونصح « ابن الرومي » في رحلته في الحياة مع ممن يحييه وأصدقائه من رجال العصر ، كما صورت هذه الرحلة ريشة أستاذنا بتركيز ودقة .

فمن ممن يحييه « محمد بن عبد الله بن طاهر » حاكم بغداد ، الذي رثاه الشاعر عند مقتله عام (٢٥٢) للهجرة ، ومنهم كذلك أخو ذلك الحاكم « عبيد الله بن عبد الله بن طاهر » الذي كان أكثر الطاهريين معرفة وأدبًا ، وله كتب مصنفة مختلفة ، وأغان ملونة ، وهو أقرب ممن يحيي « ابن الرومي » إلى نفسه ، فقد أغدق عليه جوائز وأموالاً كثيرة ، وكان شاعراً يحسن فهم الشعر وتنوّقه ، كما كان يحسن الفلسفة وفروعها المختلفة ، وقد وقف مع « ابن الرومي » ضد « البحترى » في الخصومة التي جرت بينهما ، فكان بذلك ممثلاً للنحو الجديد في الشعر لعصره ، ووُجد فيه « ابن الرومي » راعيه المادي الذي يجذل العطاء ، وراعيه المعنى الذي ينوه باشعاره ، ويصفق لطرائفه استحساناً ، ويقف ضد خصومه أصحاب النحو الأدبي المحافظ من أمثال « البحترى »^(٢) . ومن هؤلاء المתוحيين أيضاً « أحمد بن إسرائيل » وزير المعتز لسنة (٢٥٣) مجرية ، و « أحمد بن ثوابة » كاتب القائد التركي « بایکباڭ » ، و « إسماعيل بن بلبل » رئيس ديوان الضياع ، وزیر المعتمد فيما بعد ، ومنهم كذلك « سليمان بن عبد الله طاهر » الذي بدأ « ابن الرومي » بهجائه انتصاراً للخيفة الخلوع « المعتز » ، ومنهم

(١) المرجع السابق ، من ٢٠٠ .

(٢) د. شوقى ضيف ، العصر العباسي الثانى ، مرجع سابق ، من ٢٠٢ .

كذلك « صاعد بن مخلد » وابنته « العلاء بن صاعد » ، ومنهم « إبراهيم بن المديبر » ممدوح « البحترى » ورئيس ديوان الرسائل ، وغير هؤلاء الأعلام من رجال الدولة وكبار مسؤوليها ، نجد هناك مدحياً في ديوان « ابن الرومي » لبعض ذوى البيوتات - كما يعبر أستاذنا - في بغداد وفيما حولها من المدن والضواحي ، ومن نراهم مائتين في ديوانه « بنو قياض » و « بنو نويخت » وهما أسرتان من أصول فارسية ، وكذلك « بنو حماد » قضاء بغداد^(١) .

أما أصدقاؤه الذين يربون في ديوانه ، فهم كثيرون ويجعلنا أستاذنا نقف على معظمهم ، ونطلع على صلة الشاعر بهم ، ومن هؤلاء « أبو عثمان الناجم » الشاعر وراويه « ابن الرومي » وتلميذه ، ومنهم « ابن المسيب » الكاتب ، و « أحمد بن عبد الله » و « أحمد بن بشر المرشدى » الكاتب ، و « على بن يحيى المنجم » أحد كبار مثقفى العصر ، الذى كان يمتلك مكتبة عظيمة - وكان شاعراً وندىماً رفيعاً للخلفاء من « المتوكل » إلخ. « المعتمد » ، ولا يعرف بالضبط بدء اتصال « ابن الرومي » به ، وله فيه قصائد ومقطوعات كثيرة ، وله يعانيه^(٢) :

لتهنا رجال لا تزال تحبودهم
عنيت بهم كأنك والد لهم وهو - دوني - بنوك الأصاغر

ومن هؤلاء أيضاً نديمه الشاعر « جحظة » الذى كان يتذمّر للهزء به وللفكاهة ، ويسرد لنا أستاذنا أسماء العديد من خصوم الشاعر الذى هاجم هجاءً مقدعاً ، ومن هؤلاء « مثقال » و « إبراهيم البهقى » و « أبو حفص الوراق » و « ابن أبي طاهر » و « ابن الغبازة » و « خالد القحطبي » ، فقد كان يشب مع كل شاعر منهم معركة حامية الوطيس ، وكان دائمًا هو المنتصر لخصب ملكاته وخياله ، وتعرض باتهجاء بعض اللغوين وأصحاب الأدب مثل « البرد »؛ لأنّه كان يقف في صف « البحترى » ضدّه ، وتبعه تلميذه « الأخفش » في هذا التعرّض ، وكذلك « نفطويه » النحوى ، ولم يسلم هؤلاء جميعاً من أهاناته^(٣) .

(١) المرجع السابق ، ص ٢٠٧ - ٢٠٨.

(٢) المرجع السابق ، ص ٢٠٩ ، والبيان في الديوان ، ج (٢).

(٣) د. شوقى ضيف ، العصر العباسي الثاني - مصدر سابق ، ص ٢٠٩ .

ويحرص أستاذنا على أن يبين طباع « ابن الرومي » ، ويرسم معالم شخصيته التي كان التشاوم أهم عنصر فيها ، وكذلك حدة المزاج^(١) التي أثرت كثيراً في شعره وعلاقته بممدوحية على الأخص ، حيث كان كثيراً ما ينقلب ضد المدحدين إذا لم يصلوه على نحو يرضيه ، وخير مثال لذلك « آل وهب » الذين تحولت إليهم الوراء عام (٢٧٨) للهجرة ، وقال « ابن الرومي » في أحد أعلامهم « عبيد الله بن سليمان بن وهب »^(٢) :

لم يحمد الأجدوان : البحر والمطر
تأخر الماضيان : السيفُ والقدرُ
تضاءل النيران : الشمسُ والقمرُ
والشاهدان عليه : العينُ والأثرُ

إذا أبو قاسم جَادَتْ يَدَاهُ لَنَا
وإن مضى رأيُه أو حَدُّ عِزْمَتِه
 وإن أضاءَتْ لَنَا آنوارُ غُرْتَه
يَنال بالظُّنْ مَا يَعْسِي العَسِيَانُ بِهِ

لكنه لم يلبث أن هجا وهجا « آل وهب » جميعاً عندما لم يصيغوا له ، ففسد ما بينه وبينهم فساداً لا يمكن رأيه .

فن ابن الرومي :

نجد في كتابات أستاذنا حفاوة باللغة بشعر « ابن الرومي » ، فهو يعرض لأغراضه الشعرية في كتابه (العصر العباسي الثاني) ، فيلمس في هجائه لونين ؛ أحدهما يميل للسخرية اللاذعة ، أما اللون الآخر فيميل للنزعة الكاريكاتورية^(٣) ، كما يفرق بين هجائه الفردي وهجائه الاجتماعي^(٤) . كما يعرض لمديحه ويضع بيده على ما فيه من تنوع وتجدد ، أما الرثاء والعزاء عنده فيربطهما بالتشاؤم وبأنخلية المؤت عند الشاعر^(٥) ، ويعرض كذلك لفظه ، ويلاحظ خلوه من الفزل بالذكر . كما

(١) د. شوقى ضيف ، الفن ومذاهب فى الشعر العربى ، مصدر سابق ، ص ٢٠٢ .

(٢) د. شوقى ضيف ، العصر العباسي الثاني ، مصدر سابق ، ص ٣١٠ ، ٣١١ ، ٣١٢ ، والآيات فى بيونه ج (٣) .

(٣) د. شوقى ضيف ، العصر العباسي الثاني ، مصدر سابق بص ٣١٥ .

(٤) د. شوقى ضيف ، الشعر وطوابعه الشعبية ، مصدر سابق ، ص ١٠٢ .

(٥) د. شوقى ضيف ، العصر العباسي الثاني ، مصدر سابقًا من ٣١٧ ، ٣١٨ .

يعرض لخمرياته ولوصف مجالس اللهو والسماع وغير ذلك من فنون تفرد بها « ابن الرومي » وتميز بها شعره ، مثل وصف الطعوم والفواكه ووصف الطبيعة الذي عده أستاذنا من رواده^(١) . وقد تصدى أستاذنا في هذا المقام لرأي « العقاد » في كتابه عن « ابن الرومي » حيث فسر « العقاد » تفوق « ابن الرومي » في شعر الطبيعة بأن ذلك يعود إلى الوراء ، فقد ورث « ابن الرومي » حب الطبيعة من أجداده اليونان ، ولكن أستاذنا يفتد هذا الزعم ويرده محتجاً بأن اليونان لم يعرف عندهم شعر الطبيعة ، هم ملاؤها بالآلهة ، ولكنهم لم يفصحوا عن مشاعرهم إزاعها على نحو ما نجد عند « ابن الرومي »^(٢) ، وقد أصر أستاذنا في موضع آخر ، على أن الوراثة ليست كل شيء في شعر « ابن الرومي » إذ ينبغي أن نضيف إليها الثقافة اليونانية الإسلامية التي كان يتثقفها الشعراء في القرن الثالث ، فعند « ابن الرومي » يونانية أصلية ويونانية مكتسبة لعلها أهم من يونانيته الأصلية ، وهناك أيضاً ثقافة إسلامية وعربية مكتسبة^(٣) .

ومن الأغراض الأخرى التي وقف عندها أستاذنا في شعر «ابن الرومي» الزهد، وقد فسّره بالتشاؤم الذي كان عليه الشاعر^(٤)، وجعل من «ابن الرومي» متوفقاً في هذا الفن الشعري حتى إن أحداً لم يرسم صورة الزاهد في عصره كما رسمها هو، وفي هذه الصورة نرى الزاهد ساهراً طوال الليل والأسحار، يسبح بذكر الله ويثنى على آلهة ويبلو آيات كتابه، وكما مرت به آية وبعد ذرفت عيناه الدموع ضارعاً إلى ربه أن ينحنه من عذاب النار وأن يغفر له خطيباته وسنته^(٥).

بات يدعوا الواحد الصمد
في ظلام الليل منفرا
في حشاء من مخافته
حرقات تلذع الكبادا
كلما مر الوعي به
سح دمع العين فساطردا

(١) د. شوقي ضيف ، الفن ومذاهبه في الشعر العربي ، مصدر سابق ص ٢٠٨ ، ص ٢١٠ .

(٢) د. شوقي ضيف، العصر العباسى الثانى ، مصدر سابق، ص ٢٢١، ٢٢٢.

(٣) د. شوقي، ضف، الفن ومذاهبه في الشعر العربي، مصطفى سائق، ص ٢٠٢.

(٤) د. شوقي ضيف، العصر العباسى الثانى، مصطفى ساقى، ص ٢٢٣.

^(٥) د. شوقي، ضيف ، الشعر وطوابعه الشعبية ، مصدر سابق ، ص ١٢٥ ، والآيات في ، الديوان (١) .

فائق : يامتى هى أملى
 وخطيب ناتى التى سلفت
 وبح عينى ساء مانظرت

غبني ما آخاف غدا
 لست آحصى بعضها عددا
 وبح قلبي ساء ما اعتقدا

ولم يقف استاذنا عند اغراض « ابن الرومي » فحسب بل مضى يحلل فنه الشعري تحليلأً نقدياً بارعاً سواء من حيث اللفظ أو من حيث المعنى أو من حيث الشكل والضمون فلاحظ في معاناته ظاهرة الاستقصاء^(١) والاعتماد على المحاجة العقلية المنطقية^(٢) وللجوء إلى الأطالة حتى لقد تربى بعض قصائده على ثلاثة بيت^(٣).

وقد وقف مرة أخرى ضد « العقاد » في تفسيره للأطالة عند ابن الرومي بأن مرجع ذلك يعود إلى أن الشاعر كان يطيل القصائد حفاوة بالمبوحين أو إكباراً لشأنهم وإظهاراً لعنایته بآرائهم ، وقد رد استاذنا على هذا الرأي بأن الأطالة عند ابن الرومي تدعى إلى استخدامه للصياغة المنطقية في قصائده فشفق بهذا الطول الذي هو من أحسن صفات من ي يريدون التعبير المنطقي الواضح وأن ثقافة « ابن الرومي » قد أحدثت في شعره هذا النوع الغريب من الطول في نماذجه فإن الشعر عنده لم يعد تعبيراً لعاطفة فقط بل أصبح تعبير العقل قبل أن يكون تعبير العاطفة وبذلك عمله غير قليل من التحليل والتفصيل والبحث والتحقيق^(٤).

ويشير استاذنا كذلك إلى ثقافة « ابن الرومي » وأثرها على شعره كما يلمس أثر ميله للتخييم من جهة وللاعتزال من جهة أخرى على كثير من قصائده ولا ينسى استاذنا أن يشير أيضاً في ثنايا كتبه المختلفة إلى أهم الخصائص الفنية في شعر « ابن الرومي » مثل الميل للتجسيم والتشخيص^(٥) وشعبيته في اختيار الموضوعات وفي

(١) د. شوقى ضيف ، العصر العباسي ، مصدر سابق ، ص ٣١٥ .

(٢) د. شوقى ضيف ، فى النقد الالبى ، مصدر سابق ، ص ١٥٦ .

(٣) بلغت إحدى لامياته (٢٣٧) بيتأ ، انظر بيوانه ، تحقيق د. حسين نصار ، ج (٥) .

(٤) د. شوقى ضيف ، الفن ومذاهب فى الشعر العربى ، مصدر سابق ، ص ٢٠٦ .

(٥) المصدر السابق ، ص ٢١٠ .

التعبير عنها واعتماده على فن التصوير من خلال قدرة غريبة على ملاحظة دقائق الأشياء وتصويرها تصويراً بارعاً^(١) كما اشار أيضاً إلى تجديده في القوافي ولزوم مالاً يلزم فيها وكذلك إلى تجديده في حذف المقدمة أحياناً أو المبالغة في إطالتها أحياناً أخرى^(٢) مع التنويع فيها^(٣) إلى غير ذلك من خصائص فنية مختلفة امتاز بها شعر «ابن الرومي» .

والحق أن استاذنا يقدم في كتاباته لوجة متكاملة لحياة «ابن الرومي» ولأغراض شعره ولخصائص هذا الشعر الفنية مع مقارنة فن الشعر بفنون معاصريه من الشعراء الأعلام وهو يستند في هذا التحليل النقدي التطبيقي على أساس راسخ متين من الثقافة النقدية النظرية التي تضرب بجذورها في تراثنا العربي من جهة وفي التراث النظري الغربي من جهة أخرى .

ولعل الجمع بين تراثنا وتراث الغرب مع عدم الخلط بينهما هو الذي جعل من استاذنا ناقداً رائداً يميل إلى الاتزان الوسطية في ميوله وأحكامه فلا يتحفظ مع المحافظين ولا يتطرف مع المتطرفين بل يقف موقفاً وسطاً قريباً من روح تراثنا ويعبر عن ذلك الموقف صراحة في ثنايا كتبه وأبحاثه^(٤) .

ولئن كان هناك بعض النقص في الصورة التي قدمها استاذنا الكبير شوقي ضيف لشاعر فذ مثل «ابن الرومي» فإن هذا النقص لا يعود إلى تقصير من استاذناقدر ما يعود إلى النسخة الناقصة التي اطلع عليها استاذنا من ديوان الشاعر وربما نأخذ على استاذنا إغفاله لشعر ابن «الرومي» الخارج أخلاقياً ودينياً مع أنه ينادي في كتبه بفصل الشعر عن الأخلاق والدين^(٥) ولكن ينبغي أن نجد بعض العذر له في بيته محافظة كبيبة متزمته كالبيئة العربية المعاصرة .

(١) المصدر السابق ، ص ٢٠٧ .

(٢) د. شوقي ضيف ، العصر العباسي ، مصدر سابق ، ص ٣١٤ .

(٣) المصدر السابق ، ص ٢١٢ .

(٤) انظر مثلاً د. شوقي ضيف ، في النقد الأدبي ، المصدر السابق ، ص ٨١ ، وص ١٧٥ .

(٥) د. شوقي ضيف ، في النقد الأدبي ، مصدر سابق ، ص ٨٢ .

تحية لاستاذنا العظيم ولجهوده الرائدة في تحليل التراث الشعري وتقديمه في
أبهى صورة للقارئين والباحثين والنقاد .. !

د . أحمد محمد عبیدان

عضو مجلس الشورى

الدوجة القطر

د. سعد شلبي

شوقى ضيف خلق سمع وعلم غزير ، ابتسامة هادئة ، ووجه مشرق ..!
وإذا كان أبناء الثغر - أى ثغر - يمتازون بالذكاء والصفا والقطنة وسرعة
البديهة ، فأبناء دمياط - بالذات - يمتازون بجوار هذا كله بالوداعة والجد ، والعمل
والإنتاج وبالحلوة أيضا .. يذيبون حلواتهم في أحابيthem ، ويسكنون عنويتهم في
كلماتهم ، فتقبل عليهم ، وتسكن إلى رقتم ، وتجدهم مصداق قول شاعر العرب :
وما البر للأضياف أن تُكثِّر القرى ولكنما وجهُ الكريمة خَصِيبُ

* * *

وعلامتنا يجذب بابتسامة ، التي تشيع في حديثه ، وترانى على محياه إذا أقبلت
عليه أو جالسته .. تأمله فتلحظ الاستدارة الفالبة على ملامحه في إبهام استداره ،
وفي أنفه استداره ، وفي وجهه استداره ، فتذكرك هذه الاستداره بفرازة معارفه ، إنها
اشارة إلى عمله الذي يدور حول موضوعاته فلا تدرى من أين يبدأ ، ولا أين ينتهي هو
حلقة لا يُدرك أين طرقها .. !! أو :

هو الْبَخْرُ مِنْ أَى النَّوَاحِي أَتَيْنَاهُ فَلَجَّتُهُ الْمَعْرُوفُ ، وَالْبَرُّ سَاحِلُهُ
تأمل يمناه ، وسوف يروعك احمرار أو التهاب يغطي ظهر بنصره ويزحف على
ظهر يده ، وذلك من كثرة ما يكتب ، ومن كثرة احتكاك هذه اليدين - البيضاء - بالورق
الناعم الاملس ، لتفixin بالعلم ، فما أكثر ما يكتب إذا للآخرين .

يذكرنا ذلك بقول الرسول ﷺ - لرجل صافحه ، فأنحسن خشونة يده .. فأنطال مصافحته إعجاباً بهذه اليد الغشنة من كثرة العمل ، قال الرسول صلى الله عليه وسلم « هذه يد ينفي أن تقبل »

كذلك يد علامتنا التي يوزن مدادها بدماء الشهداء - وقد التهبت من كثرة ما يكتب .
ينفي أن تقبل .

إذا نظرت إليه وجدته : يغض إحدى عينيه ، ويفتح الأخرى ، إنه يتجاوز عن كل زلة فيغض طرفه عنها ، ويحتفل بكل جميل فيمد بصره إليه ، ثم هو .. مع هذا وذاك - رفيع الجانب ، عالي المقدار ، يجله الآخرون ، ويكون له الحبة واللؤلؤة .
يُغْضِي حَيَاةً وَيُقْضِي مِهَابَتَهِ فَلَا يُكَلِّمُ إِلَّا حِينَ يَسْتَسِمُ

* * *

أما الكتاب الذي سوف نقف عنده فهو عصر الدول والإمارات .. الذي صدر في جزئين :

- استقل أولهما بدول وإمارات الجزيرة العربية - والعراق - وإيران .

- واختص ثالثهما : بدول وإمارات : مصر والشام .

وصدر الجزء الأول في أول يونيو سنة ١٩٨٠ في ٦٨٤ صفحة ، والأخر في أول أغسطس سنة ١٩٨٤ في ٨٤٤ صفحة فهما معاً ١٥٢٨ صفحة عن دار المعارف .

والجزآن يتكاملان ، يكاد المؤلف يوحد مقدمتهما ، فجاءتا على نسق واحد في الإشارة إلى تاريخ العصر وفي عرض قضيائاه العامة ، في مجالى الشعر والنشر .

ولا يرجع تفكير العلامة في هذا المؤلف إلى السنوات القليلة التي سبقته بل إن فكرته كانت في ذهنه منذ ربع قرن ، لأنه وعد بتاليه في التقديم للحقه الأول من موسوعته التاريخية « العصر الجاهلي » الذي ظهر في منتصف عصرنا الحديث ، ومعنى ذلك أنه نتاج تفكير طويل امتد سنوات وسنوات .

* * *

لقد أتى هذا الكتاب دليلاً على غزارة المادة ، وإحاطة المؤلف بالتاريخ الأدبي على امتداد عصوره ، زماناً ومكاناً ، بل ومنهجاً أيضاً .. إنه يسيطر عليه سيطرة تامة ، منهجاً ومضموناً ، فهو - كبقية حلقات موسوعته - يخضع لمنهج العلماء الطبيعيين من الأدباء الفرنسيين أمثال « سانت بيف » في تقسيم الأدباء إلى فصائل ، و « تين » في إخضاع الأدب لقانون الزمان والمكان والجنس ، و « برونتير » الذي رأى أن الأدب يتطور ويرتقى كما تتطور الأحياء ، مع ملاحظة أن الأدب واحد من الدراسات الإنسانية ، وفي الوقت نفسه لم يبطل فكرة شخصية الأديب ومواهبه الذاتية .

* * *

بل إنني أعد هذا الكتاب والموسوعة التاريخية كلها - ما صدر منها وما لم يصدر - ثمرة ناضجة يانعة لبحثي :

- « الفن ومذاهب في الشعر العربي » .

- « الفن ومذاهب في النثر العربي » .

وقد ظهر أولهما في إبريل سنة ١٩٤٢ ، وظهر الآخر بعده بثلاثة أعوام أبريل سنة ١٩٤٦ .

وفى كل منهما يصاحب الأدب شعره أو نثره فى مسيرة طويلة بدأت فى العصر الجانلى وانتهت بالعصر الحديث ، منتقلأً بين الأزمنة والأمكنة والدول والإمارات فى الأوطان العربية مشارقاً وغرباً .

* * *

وهذا الكتاب « عصر الدول والإمارات .. » يبتكر تقسيماً جديداً للعصور الأدبية ، حيث سمى العصر المتمدد من سنة ٢٢٤ هـ إلى العصر الحديث - بهذا الاسم ، ورفض ما ذهب إليه عامة المؤرخين حيث يدخلون منه ثلاثة قرون فى العصر العباسي الثانى ، منتهين به حتى سنة ٦٥٦ حين أغار التتار على بغداد ، وحيث كانوا يسمون الحقب التالية حتى القزو العثمانى لمصر والشام والعراق باسم العصر المغولى ، وسمعوا فترة حكم العثمانيين لتلك البلاد باسم العصر العثمانى ، قال :

« كل ذلك تصور مخطئ؛ لأن سلطان الخلافة العباسية تخلص ظلاه من سنة ٣٤ هـ ب بحيث لا يكاد يبقى للخلفاء العباسيين منه في كثير من الأمر سوى بغداد .. وكانت إيران بيد بنى بوه .. والبحرين واليماه بيد القرامطة ، والموصى وحلب بيد الحمدانيين .. ومن الخطأ الإبقاء على تسمية القرون التالية لغزو التتار ببغداد باسم العصر المغولي ، بينما كان سلطان المغول فيها لا يتجاوز إيران والعراق دون بقية العالم العربي .. والجزيرة العربية والشام والأندلس »^(١) ..

فالمؤلف بذلك يكشف اللثام عن حقيقة هامة أخطأ المزخرن السبيل إليها .

* * *

والجزء الخامس من هذا الكتاب يتناول الجزيرة العربية فيعرض الحياة السياسية لأقاليمها ، ويسimplify الحديث عن مجتمعها البدوي والحضري ، وما كان من نحل شيعية وخارجية ، وما شاع فيها من الدعوات الدينية ، وما حف بذلك من زهد ونسك .

وصور روافد الثقافة وما صاحبها من العلوم اللغوية والإسلامية وصور نشاط الشعر ، والشعراء : طوائفهم وفنونهم وأساليبهم ، وأبرز ما كان من نشاط في ألوان الكتابة : بيانية ، واخوانية ، وما انتشر من وعظ ، ومحاورات ، ورسائل أدبية .

وصنع مثل ذلك في إقليم العراق حيث عرض الأحوال السياسية ، والأوضاع الاجتماعية للطبقات العليا والدنيا والوسطى ، وما كان من أنشطة اجتماعية ، وطوابع ثقافية كان من آثارها : الندوات الفكرية ، والكتابات الفلسفية والطبية والعلمية ، والبحوث اللغوية والنحوية والنقبية والدراسات الإسلامية .

ووقف عند الظواهر الشعرية ، فبرهن على كثرة الشعر في العراق كثرة مفرطة وشيوخ الرباعيات والموشحات ، وعني بتحديد ما بين طوائف الشعراء من فرق ، وما بين الأغراض من ألوان وسمات .

وأشاد بما كان للنشر من تنوع واسع ، حيث انقسم إلى فلسفات ومناظرات ووعظ وقصص ورسائل ، وترجم العديد من الكتاب النابهين .

(١) انظر : مصر والنيل والإمارات ج ٥ من ٥ .

وعلى هذا النحو عرض لدول وإمارات إيران باسطوا الحديث في السياسة وألوانها، والمجتمع وأحواله ، والثقافة وضرورتها ، والأدب وطوابعهم ، والأدب وفنونه وسماته .

* * *

فإذا ما انتقل إلى الجزء السادس - من هذه الموسوعة - سار على النسق نفسه في الحديث عن الدول والإمارات .. في مصر أولاً ، ثم في الشام ثانياً ، وكانت عينيه في هذا الجزء وفي سابقه على ما بين الأقاليم من تواصل في العادات والتقاليد والمعيشة والدين ، وإلى ما كان بينها من اتحاد في الشعور والفكر .

وقد كان ذلك شعور الأسلاف حيث كانوا يؤلفون للعالم الإسلامي بحيث تجد قطعة شعرية عراقية ، بجانب إيرانية ، أو موصلىة ، أو شامية ، أو مصرية على نحو ما نجد عند الحموى في خزانة الأدب ، وبهاء الدين العاملى في الكشكول ، والخفاجى في ريحانة الآباء .. وكان هذه الدول والإمارات بلد واحد لم تختلف فيه أوطان ولا أزمان .

وفي هذا الجزء أشاد بفضل مصر ، وبدورها العلمي الخصب ، مما جعل الغرب منذ القرن الثاني الهجرى يحمل عنها قرامة ورش للقرآن الكريم ، ومذهب مالك فى الفقه ، وجعل الشام والجaz والمشرق جميعه يحمل عنها مذهب الشافعى .

كما أشاد بالحركة الأدبية والعلمية الواسعة ، فيؤلف المصولى كتاباً في شعراتها ، وابن الداية عن أطيانها ، وابن يونس الصفدى عن علمائها ، وتستقبل مصر دعوة الفاطميين ، ونشاط الأيوبيين ، فكانت ملاداً للحضارة العربية ، وحامية لكل ما اتصل بها من فكر وعلوم وأداب ، وعرض ما كان بمصر وأقاليم الشام وإماراته من نشاط فى علوم الأوائل وفي الجغرافيا ، وفي علوم اللغة والنحو والنقد والبلاغة ، والقراءات والتفسير والفقه والكلام والتاريخ والترجم .

ونذكر حشدًا من الشعراء النابهين في الشعر التورى والموشحات ، وفي الملحى والحكمة والفلسفة ، والتشيع ، وفي الغزل والغفر والهجاء ، وفي الرثاء والشكوى ، وفي وصف الطبيعة ومجالس اللهو ، وفي الزهد والتصوف والمدانع النبوية ، كما ساق حشدًا من ألوان النثر التقليدية ، والمقامات والمواعظ والابتهالات ، وألوانًا شتى من أفنان الشعر والنشر .

* * *

ويعنى ذلك أنَّه يشير إلى سيطرة المؤلف على تاريخ الأدب كله أنه كان يعود ببعض الظواهر - في هذا الكتاب - إلى ما قبل الإسلام، ثم يتدرج بها عبر العصور حتى يشارف العصر الحديث.

صنع ذلك التراث اليوناني والعلمى والفلسفى ببلاد الشام : فى القديم ، ثم كشف عن تجده وخصوصيته فى ظلال الإسلام ، ورصد حركة الترجمة لهذا التراث ، وبيان مدى العتامة التى بذلها المسلمون بعلوم الأولئ من رياضيات وطبيعتيات ، وطبع وجغرافيا ولغة ونحو وبلاغة ونقد .

قلت : إنَّ هذا الكتاب بصفة خاصة ، وأشقاءه من الكتب التاريخية السابقة يسير فيها المؤلف على منهج واحد ارتضاه لا يكاد يحيد عنه .

إنه يعرض للحوادث التاريخية ، السياسية والاجتماعية والثقافية أولاً ، ثم يتأنى فى عرض الجوانب الأبية ، فيحدثنا عن الشعر وأغراضه من المدح والرثاء والشكوى . ثم ينتقل إلى الحديث عن طوائف الشعراء من أهل الفزل والقخر والهجاء ثم شعراء الوصف ومجالس اللهو ، ثم شعراء الزهد والفكاهة ، ويختتم عادة بالشعراء الشعبين .

ثم يحدثنا عن النثر وكتابه : فيبدأ بالرسائل الديوانية ، ثم الشخصية ، والمقامات ثم المواقع والابتهاles ، ويختتم عادة بالتوارير والسير والقصص الشعبية .

فأذا تأملته في منهجه هذا وجدته يجمع الأشباه والنظائر ، ويرد الجزئيات إلى كلياتها ، والفروع إلى أصولها بحيث تلحظ لها في نهاية المطاف قواعد عامة وفلسفة شاملة .

ومعنى ذلك أنه حول تاريخ الأدب فكرة أو نظرية ، وبعبارة أدق إلى علم قد تحددت مناهجه ، وعرفت خطواته ، واستقرت قضاياه ، فهو - على ما أعتقد - رائد في فلسفة الأدب : نظرياته ومناهجه .

* * *

وقد تراهى بوضوح في هذا الكتاب : - وما كان ذلك بالهين أو البسيط ، فقد اقتضاه هذا أن يبح في العديد من المراجع التي لم تيسر لغيره ، وإن تيسرت فلن يستطيع أن يتعامل معها أو يوظفها على النحو الذي تعامل هو معها ووظف .

من هذه المراجع : يتيمة الدهر للشاعبى وتمتها ، ودمية القصر للباخرزى ، وخريدة القصر للعماد الأصفهانى ، وكشف الأسرار عن حكم الطيور والأزهار لابن غانم المقدسى ، ورسالة النسر والبلبل ، وكتاب الاعتبار ، وكتاب نسيم الصبا ، وفكاكة الخلفاء وفكاكهة الظرفاء ، وذيل طبقات الحنابلة لابن رجب ، وتاريخ اليمن وأخبار صنعاء لعمارة اليمنى ، وكتاب الصالحين للهمданى ، والدر لابن حجر ، وتاريخ ثغر عدن لباخرمة .

وغير ذلك كثير من كتب التاريخ والجغرافيا والثقافة والأدب شعراً ونشرأً هذا عدا كثير من الرواين وكتب المستشرقين والمحاذين .

والكتاب - بجزئه - يفتح أبواباً لدراسات عليا ، ينبغي أن يوجه إليها الباحثون حتى يخرجوا من هذه الدائرة والمحكمة التي يدورون فيها ، ويستهلكون موضوعاتها ، ولا يزالون يلحنون في دراستها ، وكأنه ليس في ساحات البحث غيرها ، وإن هذا الكتاب يطرح موضوعات جديدة :

- كالآداب : شعراً أو نثراً في إقليم مثل : اليمن أو حضرموت أو عمان أو البحرين - في الجزيرة العربية - أو في الدولة المغولية أو التركمانية أو الصفوية في العراق ، أو الخوارزمية أو السامانية أو الزيدية في إيران .

- وكدراسة فن معين في هذه الفترة ، والكتاب - في هذا المجال - يطرح موضوعات مثل : شعر الفلسفة ، والشعر التعليمي ، والدوى ، والرياعيات ، والموشحات ، والبدعيات ، والتعقيدات في مصر والشام .

- وهنا شخصيات هامة في مجال الشعر ، أو النثر عرف بها الكتاب وأشار إلى العديد من مراجعها أمثال : أبي الفرج بن هند ، وأبي الفضل السكري المرذن ، وقابوس بن شمعكير ، والشهرودى ، وأبى بكر الفهستانى من الشعراء ، وأمثال العلاء بن الوصلابي ، وأبى النصر العتبى ، ودشيد الدين الوطواط من الكتاب .

- أو حول كتب معينة كتلك التي تتخذ من التوارير موضوعاً لها مثل : كتاب المكافأة ، وأخبار سيفويه المصري ، والفاشوش في حكم قراقوش .

* * *

ثم بعد هذا السداد في الفعل والقول والعمل ، نجد علامتنا يتطامن ويتواضع - وهذا شئه في جميع بحوثه - فيقول في مقدمة الجزء الخامس من هذا الكتاب :

« .. ولا أزعم أنتي استطعت أن أوفي هذا الرسم حقه كاملاً في الدقة والاستقصاء » .

ويقول في مقدمة جزئه السادس :

« .. وأعترف أن كتب الأسلاف غنية غنى وإنفراً بالنصوص التي تصور حياة الأدب في مصر والشام ، ولا أزعم أني صورت تلك الحياة تصويراً كاملاً ، وإنما حاولت ذلك جهدي .. !! .. » .

أ . د . سعد شلبي

أستاذ الأدب العربي

كلية التربية - جامعة طنطا

د. عاطف العراقي

لا أكون مبالغاً إذا قلت : إن المهتمين بأدبنا العربي من قريب أو من بعيد ، يدركون تمام الإدراك الجهد الكبير الذي يقوم به الأستاذ الدكتور شوقي ضيف في مجال الفكر والثقافة عامة ، والأدب العربي على وجه الخصوص . ومن الميالدين التي يهتم بها كتابة موسوعة يورخ فيها للأدب العربي قديمه وحديثه .

والكتاب الذي نعرض له الآن ، كتاب « عصر الدول والإمارات » يعد حلقة من حلقات السلسلة التي يورخ فيها لتاريخ أدبنا العربي . وقد صدر هذا الجزء الخاص بالأندلس منذ شهور قليلة ، وفرح به القراء في كل أرجاء عالمنا العربي من مشرقه إلى مغاربه ، لأهمية موضوعه من جهة ، ولأن مؤلفه هو الرائد الكبير الدكتور شوقي ضيف ، وهو من هو في دقة بحوثه وعمق ثقافته وأصالته الأكاديمية التي لا حدود لها ، وحسه النقدي الممتاز وقدمه الراسخة في مجال الدراسات الأدبية والفكرية .

ومقالات الدكتور شوقي ضيف ، قد تعجز عن القيام بتلبيتها مدرسة كاملة من الباحثين والدارسين ، لقد قدم مجموعة من الكتب الرائدة في الدراسات القرآنية ، وفي تاريخ الأدب العربي كالعصر الجاهلي ، والعصر الإسلامي ، والعصر العباسى الأول ، والعصر العباسى الثانى ، وثلاثة مجلدات في عصر الدول والإمارات ، المجلد الأول عن الجزيرة العربية والعراق وإيران ، والمجلد الثانى عن مصر والشام ، والمجلد الثالث عن الأندلس ، وهو المجلد الذى يعد موضوع تراستنا الآن : وكل مجلد من هذه المجلدات ذات صفحاته عن نصف ألف ، بل إن المجلد الثانى عن مصر والشام اقتربت صفحاته من الألف صفحة .

والدكتور شوقي ضيف لا يكل ولا يمل ، لقد قدم لنا عشرات الكتب في مكتبة
الدراسات الألبانية كالفن ومذاهبه في الشعر العربي ، والفن ومذاهبه في النثر العربي ،
والأدب العربي المعاصر في مصر ، والبارودي ، وشوقى ، بالإضافة إلى العديد من
الدراسات النقية والدراسات البلاغية واللغوية ، وفنون الأدب العربي ؛ كالرثاء والمقامة
والنقد والترجمة الشخصية والرحلات .

وانطلاقاً من ايمان رائداًنا الدكتور شوقي ضيف بأهمية التراث الذي قدمه
أجدادنا ، لم يكن مكتفىًّا بالتأليف ، بل أضاف إلى التأليف ، الاهتمام بمحال التحقيق ،
وهل يمكن أن ننسى مجهوداته في تحقيق كتاب المغرب لابن سعيد ، وكتاب السبعة في
القراءات لابن مجاهد ، وكتاب الرد على النحاة ، وكتاب الدرر في اختصار المغازي
والسير لابن عبد البر ، إلى آخر الكتب الرائعة في مجال التحقيق ، ألم أقل لكم أيها
السادة القراء إن أستاذنا الدكتور شوقي ضيف يعد مدرسة متكاملة وموسوعة
أدبية حية .

والكتاب الذي بين أيدينا اليوم ، كتاب عصر الدول والإمارات (الأندلس) يعد
المجلد السابع في سلسلة تاريخ الأدب العربي ، إذ سبقه مجموعة من المجلدات عن
بلدان شتى ، وعصور كثيرة ، وذلك على النحو الذي أشرنا إليه منذ قليل ، إنه يعد
دراسة أكاديمية ذات مستوى رفيع ، ويكفي أن يطالع القارئ مصفحات الكتاب ،
وسيدرك تمام الإدراك مبلغ الجهد الذي بذله الدكتور شوقي ضيف ، واعتماده على
المصادر الرئيسية للحقيقة .

ولقد كنت حريصاً على قراءة الكتاب قراءة واعية منذ تسلمي له من الدكتور
شوقي ضيف ، لأنني أعلم من خلال متابعتي لأعماله ، أن هذا الأستاذ الرائد قد نهل
تارينا الألبانية المعاصر من أوسع الأبواب وأرحبها ، وكم كنا وما زلنا نتحدث عن
عالمنا الجليل الدكتور شوقي ضيف أثناء العديد من اللقاءات الخاصة برابطة الأدب
العربي .

ولا أخفى على القراء أنني كلما كنت انتهى من قراءة فصل من فصول الكتاب ،
وأشعر في قراءة الفصل الذي يليه ، أقول لنفسي إن هذه الدراسة الرائدة ، لعصر

الدول والإمارات تعد بحراً على بحر ، تعد عميقة غاية العمق ، وسامية غاية السمو والرفة ، كنت أقول باستمرار : إلى الجحيم يا أشباه الأساتذة وأشباه الأدباء ، والذين تحسبهم أدباء وما هم بأدباء ، تحسبهم يدخلون في إطار الأدب ، والأدب منهم براء ، ليتنا نتعلم من الدكتور شوقي كيف يكتب ، ليتنا ندرك مجهوداته العظيمة والراينة والتي يقوم بها في صمت بعيداً عن بريق الشهرة والطلب الأجوف ، إن أدبيانا في دراسته عن الأندلس يعد كالجبل الراسخ البنيان ، كالهرم في شموخه وعظمته .

ويتضمن كتاب « عصر الدول والإمارات - (الأندلس) مقدمة وخمسة فصول .

يقول المؤلف في الصفحات الأولى من كتابه : إن هذا الجزء من تاريخ الأدب العربي خاص بالأندلس في عصر الدول والإمارات .. وهذه الدراسة المستفيضة لتاريخ الأدب العربي في الأندلس أثناء ثمانية قرون طوال ، جعلتني أرجع إلى كل ما استطعت الاطلاع عليه من المصادر والمراجع الأندلسية المتصلة بكتب التاريخ والتراجم ، وكتب علوم الأوائل ، والعلوم اللغوية والدينية ، وكتب الشعر ودواوينه ، وكتب النثر وأعمال كتابه ، كما رجعت إلى طائفة من كتب المستشرقين والباحثين محاولاً بقدر ما استطاع أن أرسم هذه الصورة المستوعبة لأدب الأندلس ، مع تصحيح الأحكام المخطئة التي من شأنها الغض من مكانته الرفيعة ومن المدى الخطير الذي أثار به في الأدب الأسباني والأدب الأوروبي (ص ١٢) .

هذا ما يقوله المؤلف في السطور الأخيرة من مقدمة كتابه . الواقع أننا نجد أنفسنا

أمام موسوعة ، تفتح العديد من الأفاق أمام كل الدارسين مستقبلاً . موسوعة تشير العديد من القضايا والمشكلات التي أثيرت في الماضي وما زالت تثار حتى الآن ، موسوعة زافت صفحاتها - كما قلت - عن نصف ألف من الصفحات ، والصفحة الواحدة تعد ثمرة اطلاع غزير ، وتحليل فذ ، وتأمل طويل من جانب الدكتور شوقي ضيف .

أما الفصول التي تضمنها الكتاب فهي على النحو التالي :

الفصل الأول : السياسة والمجتمع .

الفصل الثاني : الثقافة .

الفصل الثالث : نشاط الشعر والشعراء .

الفصل الرابع : طوائف من الشعراء .

الفصل الخامس : النثر وكتابه .

ونجد أن نصف وقفه تحليلية عند كل فصل من الفصول ، وقفه لا يمكن أن توفي الكتاب حقه في البحث والدراسة ، وخاصة في حدود النطاق المرسوم للمقالة .

خصص المؤلف الفصل الأول - كما قلنا - للحديث عن السياسة والمجتمع ، وقد نجح المؤلف في تصوير الحياة الفكرية في مجال ارتباطها بالسياسة والمجتمع ، وذلك من خلال دراسة التكوين الجغرافي والبشري ، والحديث عن الدولة الأممية وأمراء الطوائف من مرابطين وموحدين ، والحضارة والفناء والمرأة ، وأيضاً الزهد والتتصوف .

وأستطيع القول بأن هذا الفصل الأول يعد من الفصول الهامة والضرورية في الكتاب : إن هذا الفصل لا غنى عنه للحديث بعد ذلك عن الشعر والثقافة والنثر ، وذلك على النحو الذي نجده في كتاب « عصر الدول والإمارات » (من الفصل الثاني حتى الفصل الخامس والأخير) .

إن هذا الفصل يكشف عن عمق المؤلف وثرانه الفكري وغزاره اطلاعه : وعلى الرغم من اهتمامه بأكثرب ما كتب عن الأندلس أثناء دراستي لفكرة فلاسفة الأندلس ، كابن طفيل وابن رشد ومنذ أكثر من ربع قرن من الزمان ، إلا أنهى وجدت في هذا الفصل الأول من فصول كتاب « عصر الدول والإمارات (الأندلس) » مجالات جديدة وأفاق مبتكرة لم أكن أعرفها قبل قرائتي لكتاب راثتنا الدكتور شوقي ضيف : لقد رجع مؤلفنا الفاضل إلى حشد هائل من المصادر والمراجع ، وقدم لنا رؤية أكاديمية دقيقة وتحليلية رائعة لكل مجال من المجالات ، التي تنخلع في إطار هذا الفصل

باقسامه الستة ، والتي يعد كل قسم منها مرتبطاً بالقسم الذي يسبقه ، ومؤدياً إلى القسم الذي يليه مما يكشف عن وحدة عضوية نقاقة ، إن أقسام هذا الفصل على النحو التالي :

- ١ - التكوين الجغرافي والبشري .
- ٢ - الفتح ، ثم عصر الولاة .
- ٣ - الدولة الأموية .
- ٤ - أمراء الطوائف والمرابطون والموحدين وبين الأحرر في غرناطة .
- ٥ - المجتمع (الحضارة - الفناء - المرأة) .
- ٦ - التشيع والزهد والتصوف .

ومن الواضح أن الدكتور شوقي ضيف يدرك تماماً الإبراك أثر البيئة الجغرافية ، والبيئة الاجتماعية على تشكيل شخصية الفرد الثقافية وبillerة آرائه الأنثوية ، إن هذا يتبيّن لنا تماماً حين ننتقل من حديثه عن التكوين الجغرافي والبشري إلى دراسته للثقافة ، وهذا هو موضوع الفصل الثاني من كتابه : عصر الدول والإمارات ، لقد تضمن هذا الفصل المتع تحليلاً للحركة العلمية وعلوم الأوائل والفلسفة ، وعلم الجغرافيا والتاريخ ، بالإضافة إلى علوم اللغة والنحو والبلاغة والنقد والتفسير والحديث والفقه والكلام .

إن هذا الفصل والذي اقتربت صفحاته من المائة صفحة . إن دلتنا على شيء ، فإنما يدلنا على الجهد الكبير الذي قام به الدكتور شوقي ضيف : لقد قدم للباحثين دراسة رائدة ، دراسة أكاديمية تبubo في أول صفحات الفصل حتى آخر صفحاته ، ويقيّن أن كل دارس أو مهتم بالأندلس من قريب ، أو من بعيد سيجد الطريق أمامه معبداً بعد المجالات التي فتحها لنا رائداً الكبير في دراسته « للثقافة » في الفصل الثاني من كتابه ، صحيح أن حديثه عن بعض الأبعاد الثقافية كان يحتاج إلى أن يشير إلى بعض الأبعاد بنوع من الإيجاز .

ويبين لنا الدكتور شوقي ضيف من خلال حديثه عن علوم الأولئل ، دور العرب في هذا المجال ، إنه يقول معتمداً في ذلك على مصادر دقيقة : لم يكن في أسبانيا قبل فتح العرب لها شيء واضح من علوم الأولئل في الرياضيات وغير الرياضيات ، ويبين أن العرب أخروا يجلبون أطراها منها منذ أواخر القرن الثاني الهجري مما ترجم في بغداد عن اليونانية وغيرها . (من ٧٢) .

وهذا القول من جانب الدكتور شوقي ضيف يعد صحيحاً إلى حد كبير ، وخاصة إذا وضعنا في اعتبارنا ازدهار حركة الترجمة في المشرق العربي أيام العباسيين بصفة خاصة ، صحيح أن أول نقل كان في الإسلام من لغة إلى لغة أيام خالد بن يزيد بن معاوية ، حين أمر بترجمة كتب الكيمياء من اللغة الأجنبية إلى اللغة العربية ، ولكن النقل المنظم والمزدهر لم يحدث إلا أيام العباسيين ، وعن المشرق انتقلت الثقافة ، ومنها علوم الأولئل إلى بلاد الأندلس .

وفي حديث الدكتور شوقي ضيف عن الفلسفة في بلاد الأندلس ، يبين لنا مدى اهتمام تلك البلاد بالفلسفة والفلسفه ، وإذا كان مؤلفنا الفاضل يتتحدث عن محمد بن عبد الله بن مسرة ، وأبي الصلت أمية بن عبد العزيز الداني السيد البطليوسى ، فإنه قد أدرك أن هؤلاء لا يعتبرون فلاسفة بالمعنى الدقيق ، إذ إن أول فلسفه أندلسى بالمعنى الدقيق لكلمة فلسفه هو ابن باجه (من ٨٤) .

وهذا القول من جانب الدكتور شوقي ضيف يعد صادقاً تماماً ، إذ إن ابن باجه وابن طفيل وابن رشد هم فلاسفة الأندلس ، وقد رجع الدكتور شوقي ضيف في حديثه عن مجموعة المفكرين الذين نجد لديهم اهتمامات فلسفية كابن مسرة ، وفي حديثه عن فلاسفة الأندلس ، إلى عشرات المصادر والمراجع مما يدلنا على عمق ثقافته وإحاطته التامة بكل جوانب الموضوع الذي يتصدى لكتابه فيه .

لقد رجع إلى عشرات المصادر والمراجع القديمة منها والحديثة ، وقد تفضل مشكوراً بالإشارة إلى ما كتبته عن ابن طفيل ، وما كتبته عن ابن رشد آخر فلاسفة العرب في كتابي : « النزعة العقلية في فلسفة ابن رشد » ، و« المنهج النقدي في فلسفة ابن رشد » ، ألم أقل لكم أيها القراء الأعزاء ، إن الدكتور شوقي ضيف لا يكل

ولا يمل . إنه يتبع متابعة تامة كل ما يصدر من كتابات ، لا يكتب عن موضوع إلا بعد الرجوع إلى أكثر ما كتب عنه ، إنه يقدم لنا حديث عن كل شخصية من الشخصيات العديدة من المعلومات التي تدلنا على عمق ثقافته الأدبية والفلسفية ، إنه على سبيل المثال يتحدث عن ابن مسرة فيقول : يبسو أنه اعتنق مبكراً بعض الآراء الفلسفية والاعتزالية مما جعل بعض الفقهاء يتهمه في عقيدته ، وكأنما خشي على نفسه فرحة في سنة (٢٩٩ هـ) إلى بيت الله الحرام لأداء فريضة الحج ، واختلف في رحلته إلى حلقات المتكلمين ومجالس المتصوفة ، وعاد إلى موطنها ، فاعتزل في ضيعة له بقرية من قرى قربطة ، واجتذب إليه كثيرين عاشوا معه في عزلته ، وأمنوا بما كان يردده من آراء تتصل بالاعتزال والفلسفة والتصوف . (ص ٨٢) .

وفي حديثه عن ابن باجة ، يشير إلى هذا الفيلسوف والذى يعد أول فلاسفة الاندلس ، قد انحدر من أسرة فى سرقسطة شمالي الأندلس كانت تحترق الصياغة .. ويبيو أنه أكب مبكراً على دراسة الفلسفة وعلوم الأولئ ، كما أكب على علم الألحان والفناء .. وكان شاعراً مبدعاً ، كما كان ناثراً بليغاً (ص ٨٤) .

ويشير الدكتور شوقى ضيف فى حديثه عن ابن باجة ، والذى يعد أول فلاسفة المدرسة العقلية الأندلسية ، إلى مدينته الفاضلة من خلال كتابه الممتاز ، « تدبر المتوحد » لقد تخل فى هذا الكتاب مدينة فاضلة مثالية لا يحتاج أهلها إلى طوانف الأطباء الثالث : لا أطباء البدن : لأن أهلها لا يرتكبون أى زنبلة تسبب لهم المرض ، ولا أطباء العدالة : لأن أهلها متحابون لا يقع بينهم ما يحتاجون معه إلى قضاء وقضاء ، ولا أطباء النفوس : لأن أهلها كاملون . ويفيض فى بيان الصور الروحية والعقلية ، وأن غاية المتدبّر اتحاد عقله بالعقل العلوى الفعال حتى يصلح حتى مرتبة المعرفة العقلية الحقيقية . (ص ٨٥) .

وكما يحدثنا الدكتور شوقى ضيف عن ابن باجة ، فإنه يعرض علينا بعض جوانب فلسفة ابن طفيل ، وفلسفة ابن رشد ، ويشير إلى أنثر فلسفة ابن رشد قائلاً : وظللت فلسفة ابن رشد وتعاليمه وأفكاره تدرس فى الغرب منذ القرن الرابع عشر ، وعلى الرغم من أن مجمع لا تران البابوى قرر سنة ١٥٠٢ لعن كل من ينظر فى فلسفة

ابن رشد ظل له أنصار كثيرون ، وظل يدرس في الجامعات الفريبية حتى العصر الحديث ، وما لا ريب فيه أنه لفلسفة وأفكار وأثر بعيد في قيام حركة التحرر والإصلاح اليبني في النهضة الأوروبية (من ٨٨) .

ومن الواضح أن الدكتور شوقي ضيف قد وفق تمام التوفيق في عرض آراء المفكرين والآباء وال فلاسفة ، وإن كنا نختلف معه حول بعض الآراء الجزنية ، وخاصة فيما يتعلق ببنسبته إلى ابن رشد القول بقدم المادة وحدوديتها معاً (من ٨٨) ، وإن ابن رشد يقول بقدم ، أي أزلية المادة ، وهو صحيح في ذلك تمام الصراحة .

أما الفصل الثالث الذي خصصه المؤلف للحديث عن نشاط الشعراء والشعراء ، فقد جاء آية في العمق والدقة والتحليل البارع ، وذلك كعهدنا دائمًا في مؤلفنا الرائد ، الدكتور شوقي ضيف ، أنه سيتحدث عن شعراء المoshahat ، وشعراء المديح وشعراء الفخر والهجاء ، وعن الشعر التعليمي .

والقارئ لهذا الفصل يدرك تمام الإدراك الجهد الكبير الذي قام به الدكتور شوقي ضيف ، إن هذا الفصل وحده يحتاج إلى سنوات وسنوات طوال ، وإذا كنا نجد نوعاً من الإيجاز في حيث ملخصنا عن بعض الشعراء ، إلا أن هذا لا يقلل من أهمية هذا الفصل ، لقد كان الإيجاز ضروريًا إلى حد كبير ، وخاصة إذا وضعنا في اعتبارنا اتساع نطاق الفصل الثالث ، ونوع الفنون عند الشعراء من أمثل : ابن عبد ربه ، وابن نrage القسطلاني ، وابن الحداد القيسي ، وابن زمرك ، وسعيد بن جودي السعدي ، وعبد الملك بن هذيل ، ويحيى الغزال ، وحزم القرطاجي ، لقد صنف الدكتور شوقي ضيف أنواع الشعراء تصنيفاً آية في الدقة ، وميز لنا بين كل نوع والنوع الآخر من الشعراء ، وربط بين الأنواع التي عرض لها .

وإذا كان الدكتور شوقي ضيف قد تحدث في الفصل الثالث عن نشاط الشعر والشعراء ، فإنه ينتقل بنا إلى الحديث عن طوائف من الشعراء ، شعراء الفزل والطبيعة والرثاء والزهد والمداائح النبوية ، وهذا هو موضوع الفصل الرابع في كتابه ، وقد جاء هذا الفصل بصفحاته التي جاوزت بكثير المائة صفحة ، آية في الدقة والوضوح والدراسة الأكاديمية ذات المستوى الرفيع والأصيل ، إن هذا الفصل كسانر الفصول

التي تضمنها الكتاب يكشف عن عمق ثقافة المؤلف ، إن مؤلفنا الدكتور شوقي ضيف قد اعتمد على أهم وأدق المصادر والمراجع ، يمضي من دراسة مجال إلى دراسة مجال آخر من المجالات العديدة التي تدخل في إطار هذا الفصل . وأقول إن المهم بتاريخنا الأدبي يجد العديد من الآفاق الجديدة والحديثة والتي من الصعب أن يجدها في مؤلفات أخرى ، إن الدكتور شوقي ضيف يكشف في خلل هذا الفصل عن عوالم جديدة وذلك في ثقة ويقين ، واثق الخطوة يمشي ملكاً .

إنه يقول في السطور الأولى من هذا الفصل عن شعر الغزل : لا تبالغ إذا قلنا إن الغزل أهم موضوع شغل شعراء العرب في جميع عصورهم وأقاليمهم ، وقد ظلوا يصوروه فيه عاطفة الحب الإنساني الخالدة ، ويصفون فيه من الأحساس والخواطر ما يملأ مجلدات في كل عصر على حدة ، بل أيضاً في كل إقليم . وداننا الشاعر موزع بين وصال ولقاء ، وبين وداع وفراق ، تارة هانئ بحبه وتارة شقى محروم يشكو الهجران ، ويتعمى لحة خاطفة ولو من بعيد ، حتى إذ أقبلت عليه صاحبته ، أحسر بفرحة لاتمامها فرحة ، فإذا انصرفت عنه ، أظلمت الدنيا في عينيه واحتفل ما لا يطاق من الآلام والعذاب ، ومضى يتن بالشكوى ويتصدر ويستعطف . (ص ٢٥٦) .

ولا يخفى علينا الدكتور شوقي ضيف حين يقول هذا القول إنما يكون معتمداً على دراسة الأدب في كل عصورة ، إنه يتحدث عن الغزل ليس في عصر دون عصر ، وليس في إقليم أو بلدة دون إقليم أو بلدة أخرى ، بل إنه يربط بين كافة العصور وكافة البلدان ، وهذا يدلنا على ثقافته الواسعة الشاملة ليس في مجال الأدب فحسب ، بل في مجال الدراسات النفسية أيضاً : إنه يصف وصفاً دقيقاً حال المحب ، وهذا يذكرنا بما فعله الدكتور يوسف مراد في كتابه «مبادئ علم النفس العام» ، حين اتخذ من القصص الأدبية ومن بينها قصة سارة ، مادة لدراساته النفسية في بعض مجالتها ، أى ربط بين الجوانب النفسية والجوانب الأدبية .

أما الفصل الخامس ، فقد خصصه الدكتور شوقي ضيف للحديث عن النثر وكتابه لقد تحدث عن أصحاب الرسائل الروائية والرسائل الشخصية والرسائل الأدبية ، كما حل تحليلياً بديقاً العديد من الأعمال التثوية ، ومن بينها على سبيل المثال : كتاب

طوق الحمامنة لابن حزم ، والذخيرة لابن بسام ، وقصة حى بن يقطان لابن طفيل
الفيلسوف والأديب الأندلسي .

وهذا الفصل كبقية الفصول التى تضمنها كتاب الدكتور شوقي ضيف ، به وحشد
كبيراً جداً من المعلومات التى لا غنى عنها لدارسى الأدب أو الفكر العربى من قريب
أو من بعيد ، لقد رجع إلى منات المصادر والمراجع التى تعد هامة غاية الأهمية ، ومن
النادر أن نجد صفة من صفحات هذا الفصل والتى جاوزت المائة والخمسين
صفحة إلا وينظر لنا الدكتور شوقي ضيف العديد من المراجع الهامة ، إن هذا يدلنا
على أمانته ، العلمية وموضوعيته فى البحث ، لقد أضاف إلى البعد الموضوعى بعداً
ذاتياً نقدياً ، وهذا يدلنا على شخصيته البارزة فى البحث ، بالإضافة إلى أن هذا
الفصل ، عن طريق المنهج الدقيق الذى التزم به رائدنا الدكتور شوقي ضيف ، يمثل
وحدة عضوية ليس فى حد ذاته فقط ، بل مع سائر فصول الكتاب ، فإذا نظر ابن
مسرة أثناء حديثه عن الرسائل الديوانية (ص ٢٩٣) فإنه يربط ربطاً وثيقاً بين
ما ي قوله عن ابن مسرة فى هذا المجال ، وبين ما سبق أن ذكره عنه ، وذلك على النحو
الذى سبق أن أشرنا إليه ، وإذا ذكر ابن طفيل وقصته حى بن يقطان (ص ٥١٢) فإنه
ي فعل نفس الشئ ، وهذا يدلنا على أن كتاب الدكتور شوقي ضيف ليس مجموعة من
الفصول المتناشرة التى نجدها عند أشباه البراسين وأشباه أنساتذة الأدب ، بل إنه على
العكس من ذلك تماماً ، يمثل كما قلنا وحدة عضوية متماسكة ، إنه لا يكتب سطرًا من
موضوع فى منات الموضوعات التى عرض لها فى هذا الفصل ، إلا بعد التأمل الدقيق
والتحليل الرائع والربط بين كل مجال والمجالات الأخرى ، إنه يميز تعبيراً دقيقاً بين
الرسائل الديوانية ، والرسائل النبوية والمواعظ ، والأعمال النثرية ، والمقامات والرحلات ..
إلى آخر المجالات التى يذكر بها الفصل الخامس والأخير من فصول كتابه .

والواقع أن هذا الكتاب «عصر الدول والإمارات (الأندلسي)» للدكتور شوقي
ضيف ، على الرغم مما أشرنا إليه فى بعض الملاحظات النقدية من جانبنا ، يعد
سياحة أدبية وفكرية كبيرة ، إنه يعبر عن شموخ أبى وتقانى وفكري قل أن نجد له
نظيرًا ، وإذا كان نظرنا بكتاب تاريخ الفكر الأندلسى لبالنتشا ، فإن من واجبنا أن ننذر

بكتاب الدكتور شوقي ضيف، إنتا في هذا الكتاب نجد أنفسنا أمام مائدة فكرية كبرى، مائدة لا يستطيع أن يقدمها إلا رائدنا العملاق الدكتور شوقي ضيف ، ألم أقل لك أيها القارئ العزيز إن هذا الكتاب يعد في مقدمة الكتب التي صدرت عام ١٩٨٩ ، إنه موسوعة أدبية مسخمة قدمها الدكتور شوقي ضيف ، الأستاذ والرائد بكل ما تحمله الأستاذية وكلمة الريادة من معانٍ سامية ودلالات عميقة ونبيلة .

أ.د. عاطف العراقي

أستاذ الفلسفة الإسلامية

كلية الآداب - جامعة القاهرة

٢٥ - البحث عن الشخصية المصرية عند شوقي ضيف

د. أحمد يوسف

تزدهر الحياة الثقافية بعطايا الأعلام ، وحياتنا العلمية والثقافية الحديثة أبدعها أعلام مصريون جيلاً وراء جيل ، وكان جيل الرواد صاحب مهمة التدوير ، والجيل الذي تحمل مسؤولية تمهيد التربية وانتقاء البنور الصالحة للإثمار والإنبات ، وترك هذا الجيل تلاميذ على الدرب ، وعوا أبعاد مهمة التدوير بشقيها التاريخي والمعاصر ، وأستاننا شوقي ضيف واحد من هؤلاء الأعلام الذين ارتبطوا بتاريخ أمتنا العربية الإسلامية وتراثها ، فقد موهما - التاريخ والتراجم .. متجلدين في صور أبحاث علمية تميزت بالشمول والموسوعية ولأن التاريخ والتراجم - هو تاريخ حضارة ذات مستويات معرفية وانسانية وفلسفية وأدبية متعددة : لأن مراتها يعد دالاً قوياً على خصوصية هذه الحضارة ، فإن القارئ لأى بحث من أبحاث أستاننا تقع عينه دائمًا على الطبيعة الموسوعية لما قدمه هذا الأستاذ الجليل .

ولئن كانت طبيعة المادة العلمية المستقاة من تراث الحضارة العربية الإسلامية سبباً مباشراً من أسباب هذه الصفة الموسوعية لما قدمه شوقي ضيف ، فإن هناك سبباً مباشراً آخر ، لا يمكن تجاهله أو إخفاؤه ، وهو أنه تأثر بجيل الرواد الذي اقتضت منه مهمة التدوير ، والقضية الوطنية المصرية - الحرية والاستقلال - أن يتلقي التفاهة قوية وفعالة إلى التراث الحضاري والتاريخي للشعب العربي والمصري ، كما التفت أيضاً إلى معطيات الحضارة الأوروبية الحديثة والمعاصرة ، ولا نزعم أن شوقي ضيف التلميذ ، كان صدى مباشراً لأساتذته في كل خطوه من خطواتهم ، ولكننا نعتقد أنه اختار طريقة بحرية شديدة داخلاً إعجابه الواضح بأستاذه طه حسين ، وأحمد

أمين في الجامعة ، والعقاد وموافقه السياسية وهو خارج الجامعة ، ويؤكد ذلك ما ورد في الكتب الذي كتبه أستاذنا شوقي ضيف مترجمًا من حياته وعلاقاته بأعلام جيل الرواد ، وهم في خضم المعركة السياسي والعلمى والاجتماعي .

وقد أفرزت هذه الصفة الموسوعية صفة أخرى اقترن بها ، ونبتت في مهادها ، وهي الاهتمام بالسياق التاريخي لما يدرسه من ظواهر ، أو يحلله من قضایا ، ومهما صفتان رأيناهما فيما قدمه أعلام جيل الرواد غير أنهما تأصلتا في كل كتابات شوقي ضيف ، الذي امتنك إلى جانب ذلك صفة الاعتدال في منهجه من حيث الأحكام والتحليل والتفسير ، كما أهتم بجمع الوقائع التاريخية الخاصة بكل ظاهرة .

وقد تبدي هذا الحس الموسوعي والتاريخي لدى شوقي ضيف منذ بداية حياته العلمية المشرمة ، حينما توجه عقله إلى كتاب الأغانى لأبى الفرج الأصفهانى باحثًا عن ظاهرة النقد الأدبي ، وتطورها على امتداد العصور التاريخية التى أرخ لها هذا الكتاب ، وهى عصور متعددة حتى القرن الرابع الهجرى ، وكان هذا التوجه المبكر أول علامة على تفتح وعي الشاب الباحث شوقي ضيف على تاريخ أمته وتراثها ، فحدد موضوعه فى «النقد الأدبي فى كتاب الأغانى» ليكون أطروحته الأولى ، وقد فرض هذا الموضوع منهجه التاريخي ، كما فرض كتاب الأغانى نفسه الحس الموسوعى الذى نما ، وازداد عند أستاذنا شوقي ضيف ، فهذا الكتاب من ناحية كتاب يمكن أن يوصف بالموسوعة ؛ فهو لا يقدم التاريخ الأدبي لفن الشعر فقط بل يقدم أيضًا صورة حضارية واسعة ، لنموذج الحياة الفنانية والموسيقية ، والاجتماعية ، والسياسية ، كما رأها مؤرخ عاش فى القرن الرابع الهجرى ، ومن ناحية أخرى اعتمد الأصفهانى التقسيم السياسى للعصور ، والسرد التاريخي والرواية نهجًا لكتابه ، ومن ثم فإن هاتين الصفتين ، الحس الموسوعى والتاريخي ، كانت لهما بداياتهما العلمية فى حياة الباحث الشاب شوقي ضيف .

وقد تأصل هذا الاتجاه البحثي عنده ، فى أطروحته الثانية «الفن ومذاهبه فى الشعر العربى» ، فمن حيث المنهج التاريخي ، صار الاعتماد على التقسيم السياسى للتاريخ مرتبًا بالدول وقيامتها وقوتها وزوالها - أساساً من أسس تناول الظاهرة

الأدبية التي أصبحت عنده مرتبطة بهذا التقسيم من حيث نشائتها ، وازدهارها ، وخفوت صوتها أو اختلافها . ويتوافق مع هذا التقسيم السياسي ، تحديد ملامع العصر المدرّوس أو العصور اجتماعياً وثقافياً وعقلياً ، ويضاف إلى ذلك أن هذا الموضوع يتناول تحديد المذاهب الفنية التي رأها أستاذنا شوقي ضيف ، أطراً تضمن إبداع الشعراء العرب والمسلمين ، وهى أطراً لم تقف عند عصر ما من العصور ، بل إنها امتدت إلى جميع العصور الأدبية ، وكان هذا المدخل المنهجي يتطلب تحديد النماذج التي تعكس هذه الأطرا ، لذلك اختار أستاذنا الأعلام من الشعراء في الشرق والمغرب على امتداد تاريخ الشعر العربي ، على أساس أن كل علم منهم يمثل عصره الذي عاش فيه تمثيلاً يعكس درجة النونق الفني ، والسيطرة على أداة الفن الشعري .

(۱)

ويمكن القول - إن أستاذنا اهتم بمستوى معرفي أصيل من مستويات الحضارة العربية الإسلامية يمكن أن نسميه بعلوم الأدب والبلاغة والنقد ، وهو مستوى التقى بمستويات أخرى فلسفية وتاريخية ونفسية من أجل هدف أساسى ، وهو الكشف عن النور ، الرائد للحضارة العربية وهو بلا شك نور تاريخي حدد شخصية الأمة العربية التي أصر أستاذنا على أن نورها مرتبط بطبعتها الخالدة ، المستمدة من وحدة الثقافة والتاريخ والتراث ، ومن مركزية هذه الثقافة .

فعلى الرغم من العداء السياسي بين الأندلس وبغداد ، فإن بغداد ثقافياً كانت النموذج المحتذى ثقافياً واجتماعياً ، ويرى أن مركبة الثقافة على مختلف عصور الحضارة العربية ، هي التي طبعت الأدب العربي بطابع المحافظة شكلاً ومضموناً ، وجعلت بلداً كمصر - وهي ولاية حینت - ليس به شاعر واحد ، يطأول أبا نواس أو أبا تمام أو المتين .

إن هذه الطبيعة الخالدة ، هي التي يمكن أن نراها عند شوقي ضيف ، حين يكتب عن البارودي ، وأحمد شوقي ، أو عن على محمود طه ، وناجي ، أو عن محمد عبده ، والعقاد ، كما يكتب عن أبي تمام والمتين وأبي العلاء ، على أساس فكري واحد ، وهو أن الأعلام يحدّون ملامح شخصية الأمة .

إن تحديد ملامح الشخصية العربية ، كان الهدف الأساسي الذي وقف وراء كل اهتمامات شوقي ضيف ، مع هذا الهدف فإن البحث عن ملامح الشخصية المصرية كان هدفاً نبيلأً لم يفارق أستاننا .

ويمكن القول إن هذا الهدف كان مطلباً ملحاً عند جيل الرواد ، وعند تلاميذهما الذين واكبواهم في ظل ظروف سياسية واجتماعية واقتصادية ليس هنا مجال تفصيلها ، ويكفي أن نشير في هذا الصدد إلى محاولتين : كتاب طه حسين « مستقبل الثقافة في مصر » وهو محاولة هدفها تحديد انتقاء العقل المصري - في الثقافة والعلم - إلى الشرق أو إلى الغرب ليرد على غلة التعرّض ، بأن وحدة الثقافة في العالم القديم لا تجعل عقلاً يتمايز على عقل ، فمصر القديمة بدولها المتولدة لم تكن ذات صلات وثيقة بالشرق الأدنى ، أو الأقصى ، مثلاًما كانت على صلات قوية باليونان وثقافتهم إلى حد أن الحضارة المصرية أثرت تأثيراً لا سبيلاً إلى نكرانه على اليونان ، والرومان ، كما تأثرت هي في نورة أخرى بالحضارة اليونانية والرومانية ، كما أكد طه حسين أن العقل المصري ليس شرقياً بالمعنى الثقافي ، على الرغم من أن المصريين حريصون على شرقيتهم ثقافياً وجغرافياً ، ومن ثم فإن طه حسين يريد أن يخلص إلى أن الشخصية المصرية شخصية تاريخية مستقلة ، وأنه لا فرق بين العقل المصري والعقل الأوروبي اعتماداً على البحث التاريخي في التأثير الثقافي .

أما المحاولة الثانية ، فهي التي قام بها الشيخ أمين الخولي في دعوته إلى أهمية الإقليمية في درس الأدب ، وخاصة عندما دعا إلى البحث عن أدب مصر الإسلامية ، وهي دعوة هدفها تحديد دور الذي قامت به مصر في ظل الدولة الإسلامية أدبياً ، فلماذا لم تجد آثاراً أدبية بارزة في مصر الإسلامية كالتى قدمتها بغداد ودمشق والمدينة والأندلس على الرغم من أن مصر تتمتع من بين الأقاليم العربية ببيئة جغرافية متميزة وبينة حضارية فعالة ، وأن الفاتحين لم يقولوا شرعاً يبلغ مستوى ما قالوه عندما استوطنوا الكوفة والبصرة وبغداد أو دمشق ، مع أن الفاتح هو نفسه الإنسان العربي هنا أو هناك .

(٣)

هاتان المحاولاتان تهتمان بتحديد ملامح الشخصية المصرية من خلال دورها الثقافي المتفاعل ، مرأة مع جيرانها من اليونان ومرة أخرى مع من استقبلتهم من العرب الفاتحين ، وشوقى ضيف صاحب اهتمام عظيم في هذا المجال ، فهو من المؤمنين بمركزية الثقافة العربية وطبيعتها المحافظة الثابتة كما أشرنا ، وبأن الكل دائمًا يعبر عن أجزائه ، وهو المتعمى إلى مصر تاريخاً وتراثاً وعاطفة وجوداً ، وما بين الإيمان والانتفاء بون شاسع ، استطاع أن يتتجاوزه انطلاقاً من أن البحث عن ملامح الشخصية المصرية إن لم يتحقق بتحديد انتفاء العقل ، كما حاول طه حسين ، وإن لم يتحقق في ظل إيجاد أدب مصرى إسلامى ، فإنه من الممكن أن يتحقق في صفة من الصفات التي قد تغلب ، فتطبيع الأدب أو الفكر بطابع معين ، من هنا كان كتابه «الفكاهة في مصر» .

إن هذا الكتاب - على الرغم من صغره ومن كونه ليس كتاباً من كتبه المشهورة والمعروفة ، لدى الغالب من الباحثين فإنه مع ذلك يعد من أهم ما كتب شوقى ضيف ، في إطار اهتمامه بالبحث عن الشخصية المصرية وبورها التاريخي ، وعما تمتاز به ، وقد نشر هذا الكتاب أول مرة عام ١٩٥٨ من دار الهلال ، وتبدو أهميته من زاويتين

نراهما : أن أستاذنا على رأس المهتمين بالأدب العربي والمصرى المكتوب بالمستوى اللغوى المعروف بالفصيح ، هذا الأدب الذى يمكن أن نسميه - كما سماه هو - بالأدب الفصيح الجاد ، وهذا الكتاب كان إلى عهد قريب مستحوذاً على اهتمام العلماء والمتونيين على السواء إذا ما وضع فى مقابلة الأدب العامى أو الشعبى ، وهذا الكتاب يركز كل اهتمامه على استكشاف ما يميز الشخصية المصرية من غيرها من خلال نصوص كتب باللغة العامية ، أو الدارجة كتبها شعراً أو زجالون لم يدرجوا فى سجل التاريخ الألبى المعروف ، ومن ثم فهو إضاعة قوية لبقة من بقاع الإبداع والوجدان ، طال نسيانها واهتمامها . أو كما قال أستاذنا تعالى عليها ، إنه بذلك خروج على المأوف من أستاذ جليل فى جامعة راند محافظة ، فى وقت كان يعد فيه هذا الخروج مخاطرة ، فالاعتصام « بالأدب الجاد » فيه أمن كبير ، ونفع لصاحب كثير ، ويؤيد كلامنا هذا أن أستاذنا لم يعد المحاولة مرة أخرى فيكتب كتاباً آخر في الاتجاه نفسه ، وبكفى أنه بهذا الكتاب ترك بقعة ضوء في مكان مظلم ، واكتفى بذلك معتصماً بباحثه الكبير في الأدب الجاد .

أما الزاوية الثانية التي تبلور أهمية هذا الكتاب ، فهي الاستجابة القوية لنداء الواقع ، وحركته السياسية والقومية أندذاك ، سواء تم هذا بوعى مقصود أو غيره ، فقد واكب إخراج هذا الكتاب الإرهاصات القوية حول البحث عن دور الأمة العربية في الحاضر ، ويعث هذا الدور يتطلب تحديد معالم هذه الأمة ممثلاً في تحديد معالم أقطارها ، وقد حملت مصر - في هذا السبيل - الدور الرائد سواء على مستوى التوحيد القومي ، أو على مستوى ريادة بirth الروح في جسد هذه الأمة . وكان طبيعياً أن ينشط البحث عن مميزات الشخصية المصرية ، سواء في تاريخها الفرعونى أو الإسلامي ، أو في كونها بوتقة جمعت محتوى حضارات العالم القديم .

والكتاب من هاتين الزاويتين يعد مهمًا ، كما يكتسب أهمية إضافية لأنَّه يقف عندما عرف وشاع عن المصريين ، من روح المداعبة والفكاهة إذ يقول : « من أهم ما يميز المصريين في عصرهم الحديث روح الفكاهة المنبته في أحاديثهم .. وليس هذه

الروح جديدة على المصريين فهي قديمة فيهم ، ترجع إلى أعتقد الأزمنة وأعمقها في التاريخ ، فمنذ بربوا على صفحة الزمن ، وهم يضحكون ويسيخرون ويتهكمون »^(١) .

ومن الواضح أن هذا التوقف يستند إلى التاريخ ، في تحليل هذه السمة التي اتسمت بها الشخصية المصرية ، كما يقف عند بواعتها وظروفها وإطارها الحضاري الذي نشأت فيه ، فيرى أن الإنسان المصري لم يكن يمرح إلا في وقت الشدة ، ولم يسخر إلا في وقت الجد « قد أهتمهم ذلك عصور الشدة والرخاء ، منذ كانوا يحملون صخور الأهرامات على كواهلهم ، ويرفعونها بصدورهم وسواعدهم ، ويهنؤون عليهم واديهم ، فيلقى في حجورهم بحبه وثماره ، ويملكون معظم العالم القديم ، ويلقى بين أيديهم ثرواته وكنوزه »^(٢) .

وإذا كان أستاذنا قد اهتم برصد الملمح ، وتحديد بواعته فإنه قد اهتم أيضًا بتحديد الوسيط الذي حمل هذا الملمح وعكسه ، وأعني أن روح الفكاهة - كما يعتقد - لم تتجسد حقيقية في فن أو أدب هذا الشعب مثلكما تجلت في لون أدبي ، طال إهماله ونكرانه هو الأدب العالمي : لأنـه - كما يقول - « كتب في أكثره بلغتنا العالمية ، وكانتنا انصرفنا عنه ترفعـاً منـا ، أو استحسـفـارـاً لـشـائـنـه معـ أنهـ أكثر دلـلةـ عـلـيـنـا ، وـعـلـىـ نـفـسـيـتـنـا منـ الأـدـبـ الفـصـيـحـ الجـادـ »^(٣) .

إن الشخصية المصرية قد عرفت روح الفكاهة وعرفت بها ، وصارت عالمة عليها ، واستطاع الفنان المصري أن ينسج هذا الروح فـنـا يـشـفـ عنـ جـوـهـرـ هـذـهـ الشـخـصـيـةـ ، كما يـشـفـ عنـ الـظـرـفـ الـتـارـيـخـيـ لـرـوـحـ الفـكـاهـةـ نـفـسـهـاـ ، ولـأنـ الشـخـصـيـةـ المـصـرـيـةـ شـخـصـيـةـ مـرـكـبـةـ تـرـكـيـبـاـ تـارـيـخـيـاـ ، فـإـنـ أـسـتـاذـنـاـ رـأـىـ أنـ الـبـحـثـ عـنـ طـبـيـعـةـ هـذـهـ الشـخـصـيـةـ - مـنـ خـلـالـ بـحـثـهـ - يـسـيرـ فـيـ اـتـجـاهـيـنـ : الـأـوـلـ أـنـ يـبـحـثـ عـنـ تـجـلـيـاتـ هـذـهـ الـشـخـصـيـةـ - الـرـوـحـ فـيـ الأـدـبـ الـعـامـيـ أـوـ الـفـصـيـحـ ، وـأـنـ يـتـحرـىـ هـذـاـ الرـوـحـ الـفـكـاهـةـ فـيـ كـلـ مـاـ يـدـلـ عـلـيـهـ ، وهذا الـبـحـثـ يـضـرـبـ فـيـ أـعـمـاقـ الـعـصـورـ بـداـيـةـ مـنـ قـدـمـاءـ الـمـصـرـيـنـ حـتـىـ الـعـصـرـ الـحـدـيثـ ، وأـسـتـاذـنـاـ - فـيـ هـذـاـ السـبـيـلـ - لـاـ يـخـرـجـ عـنـ إـطـارـهـ الـعـامـ الـذـيـ رـسـمـهـ لـأـبـاحـاهـ ،

(١) شوقي ضيف ، الفكاهة في مصر ، دار الهلال ، مصر ، ١٩٥٨ ، ص ٧ .

(٢) نفسه .

(٣) نفسه من ٩-٨ .

وهو الإطار التاريخي الذي يعتمد حركة التاريخ في ظل منظومة من التقسيمات السياسية للعصور .

والواضح من دراسة المؤلف التاريخية أنه اهتم - في كتابه - بمصر الإسلامية وعصورها ، أكثر من اهتمامه بمصر الفرعونية واليونانية والفارسية والرومانية ، على الرغم من أن هؤلاء - اليونان والفرس والروم - قد مكثوا بمصر طويلاً ، وأثروا - بلا شك - في شخصيتها وعقلها ، كما أثرت فيهم الحضارة المصرية والإنسان المصري ، إلا أن اهتمام أستاذنا بمصر الإسلامية يؤكد ما سقناه في بداية البحث - وهو أنه يؤمن بأن طبيعة الأمة العربية طبيعة خالدة ثابتة ، وأن ما يحدث من تمايز بين أقطارها - من خلال دراسة التراث - إنما هو من قبيل تمايز الأفراد الذي يتضمن في كل واحد يعبر عنها ، فإذا كانت مصر قد عرفت بروحها الفكـ فإن الحجاز قد عرفت بالغناء ، كما عرفت الباـدية بالغزل العذري لـديه ، وكما عرفت العراق بالـشعر السياسي وصراع الفرق ويشعر النـقائص ، وكل هذه التـمايزات لا تدلـ على التـباعد والانفصال عنـده ، قدرـ ما تـدلـ على التـقارب والـالتـنـام والـمحافظـة .

أما السبيل الثاني ، فإن أستاذنا يعتقد أنه من الضروري أن ننظر إلى حياتنا نظرية كلية ، لا تجعل الكل يهم الأجزاء ، ولا تجعل الأجزاء بديلاً عن الكل ، فلا يكفي الأدب الجاد دليلاً على حياتنا الجادة ، وكذلك الأدب العامي دليلاً على حياتنا الفكهة ، فالأدبان كلاهما نتاج حياة واحدة امترزج فيها الجد والهزل ، هي في مجموعها حياة شعب واحد يخضع لصفة كلية واحدة ، لذا - كما يقول - : « من الواجب أن نقرن صفحة حياتنا الفكهة ، بصفحة حياتنا الجادة حتى نطلع على حقيقة حياتنا اطلاقاً تماماً أو كاملاً ، وإنك لتجد مصر وشعبها ممثلين في هذا الأدب الفصيح الحالي غالباً من الضحك والهزل لسبب بسيط ، وهو أنه ينبع من صميم الشعب وينطق عن روحه وبهزاجه بدون أي تصنف أو تكلف »^(١) .

إن الشخصية المصرية التي يدل عليها الروح الفكك من خلال الأدب العامي والشعبي، لم تكن شخصية مستكينة أو غافلة عن وظيفة هذه السمة ، فإذا كانت عصوب الشدة والظلم والقسوة، هي التي أنتجت هذا اللون من الأدب الساخر، وهي التي

١٢) نسخہ

أورثت الإنسان المصري روحه الفكـه ، فإنـا هذا الإنسان قد استخدم كل أسلحته الوجـданـية والـعـقـلـية في مواجهـة ظـالـمـيـهـ، والمـعـتـدـيـنـ على حرـيـتـهـ وـكـرـامـتـهـ وـمـقـدرـاتـ حـيـاتـهـ . وقد التفتـ أـسـتـانـتـاـ إـلـىـ وـظـيـفـةـ هـذـاـ اللـوـنـ مـنـ الـأـبـ ، الـذـىـ صـورـ الـوـجـدانـ السـاخـرـ منـ الـظـلـمـ وـالـطـفـيـانـ ، إـنـهـ تـبـعـ تـارـيـخـ الشـخـصـيـهـ المـصـرـيـهـ الرـافـضـ المـقاـومـ عـلـىـ اـخـتـالـفـ العـصـورـ ، خـاصـهـ فـيـ ضـوءـ اـهـتمـامـهـ بـالـعـصـورـ الإـسـلـامـيـهـ الـتـىـ مـرـتـ عـلـىـ إـلـاـنـسـانـ الـمـصـرـىـ ، وـيـقـدـمـ نـمـاذـجـ فـعـالـةـ لـهـذـهـ المـقاـومـةـ ، فـقـدـ وـعـىـ إـلـاـنـسـانـ الـمـصـرـىـ أـهـمـيـةـ الـفـكـاهـةـ قـبـلـ الـجـدـ فـيـ مـوـاـقـعـ الرـفـضـ وـالـمـقاـومـةـ ، وـدـلـيلـ ذـلـكـ الصـورـةـ الـتـىـ يـقـدـمـهاـ اـسـتـانـتـاـ ، وـهـىـ حـدـيـثـهـ عـنـ «ـالـفـاشـوشـ فـيـ حـكـمـ قـرـاقـوشـ»ـ لـابـنـ مـعـاتـىـ فـيـ الـعـصـرـ الـأـيـوبـيـ .

فـهـوـ يـقـدـمـ هـذـاـ النـصـ عـلـىـ إـنـهـ نـمـاذـجـ مـنـ نـمـاذـجـ سـخـطـ الـمـصـرـيـنـ عـلـىـ حـكـامـهـ الـظـالـمـيـنـ ، وـوـالـحـقـ أـنـ اـبـنـ مـعـاتـىـ فـيـ صـنـيـعـهـ بـقـرـاقـوشـ ، إـنـماـ يـصـورـ سـخـطـ الـمـصـرـيـنـ عـلـىـ حـكـامـهـ الـأـيـوبـيـنـ الـأـجـانـبـ ، وـيـنـفـسـ عـمـاـ يـضـطـرـمـ فـيـ صـدـورـهـمـ مـنـ غـيـرـ وـحـرـجـ ، بـنـفـسـ الـطـرـيقـةـ الـتـىـ طـالـمـاـ لـجـنـاـ إـلـيـهـاـ فـيـ إـعـلـانـ ذـلـكـ ، وـهـىـ طـرـيقـةـ السـخـرـيـةـ بـهـؤـلـاءـ الـحـكـامـ ، وـإـظـهـارـهـمـ فـيـ صـورـ مـضـحـكـةـ مـنـ الغـباءـ وـالـفـلـلـةـ وـالـبـلـاهـ ، وـمـعـنـىـ ذـلـكـ أـنـ اـبـنـ مـعـاتـىـ فـيـ هـذـاـ الـكـتـابـ يـعـبـرـ عـنـ مـقاـومـةـ الـشـعـبـ الـمـصـرـىـ ، لـمـ يـحـكـمـونـهـ مـنـ غـيـرـ أـبـنـائـهـ .. وـهـىـ مـقاـومـةـ عـرـفـتـ بـهـاـ مـصـرـ مـنـذـ غـزاـهـاـ الـفـاتـحـونـ لـعـهـدـ الـفـرـسـ وـالـإـغـرـيقـ وـالـرـوـمـانـ^(١) .

إـنـ كـتـابـ «ـالـفـكـاهـةـ فـيـ مـصـرـ»ـ فـيـ ضـوءـ هـذـاـ النـصـ وـنـصـوصـ أـخـرىـ مـنـهـ ، يـعـدـ تـارـيـخـاـ لـسـمـةـ أـسـاسـيـةـ مـنـ سـمـاتـ الشـخـصـيـهـ الـمـصـرـيـهـ ، وـهـىـ سـمـةـ الـفـكـاهـةـ الـمـوـظـفـةـ ، فـلـمـ تـكـنـ هـذـهـ السـمـةـ عـبـئـاـ وـلاـ ضـيـاعـاـ لـلـوقـتـ وـلـكـنـهاـ كـانـتـ سـلـاحـاـ فـعـالـاـ مـنـ أـسـلـحـةـ مـقاـومـةـ الـظـلـمـ ، وـتـأـصـيلـ الـحـرـيـةـ وـالـحـقـ ، كـماـ أـنـ هـذـاـ الـكـتـابـ يـكـشـفـ عـنـ التـفـاعـلـ التـارـيـخـيـ ، للـشـخـصـيـهـ الـمـصـرـيـهـ مـعـ الـأـخـرـيـنـ سـلـبـاـ وـإـيجـابـاـ ، فـطـلـىـ الرـغـمـ مـنـ أـنـ هـنـاكـ فـاـصـلـاـ قـوـيـاـ بـيـنـ مـرـحـلـتـيـنـ فـيـ تـارـيـخـ هـذـهـ الشـخـصـيـهـ ، وـهـوـ تـارـيـخـ مـاـ قـبـلـ الـإـسـلـامـ فـيـ مـصـرـ وـتـارـيـخـ مـاـ بـعـدـ الـإـسـلـامـ فـيـ مـصـرـ ، فـإـنـ إـلـاـنـسـانـ الـمـصـرـىـ لـمـ يـكـنـ لـيـغـيـبـ عـنـ وـعـيـهـ أـنـ الـحـرـيـةـ حـقـ ، وـأـنـ الـظـلـمـ عـدـوـانـ عـلـىـ هـذـاـ الـحـقـ ، فـقـالـمـ الغـزـاةـ مـنـ الـفـرـسـ وـالـيـونـانـ وـالـرـوـمـانـ ، وـرـفـضـ حـكـامـ الـظـالـمـيـنـ مـنـ الـأـيـوبـيـنـ وـالـإـخـشـيـدـيـنـ وـالـفـاطـمـيـنـ مـعـ كـوـنـهـمـ مـسـلـمـيـنـ ، وـلـمـ يـتـغـيرـ مـوـقـعـهـ إـزـاءـ حـقـهـ فـيـ حـرـيـتـهـ وـحـيـاتـهـ الـكـرـيمـةـ ، وـظـلـلـ سـلـاحـ السـخـرـيـةـ وـالـفـكـاهـةـ مـنـ أـمـضـيـ

أـسـلـحـتـهـ عـلـىـ مـدـىـ عـصـورـهـ كـلـهاـ حـتـىـ الـآنـ .

(١) نـفـسـ مـنـ ٣٦ .

ومن الواضح أن تاريجية هذه الصفة في الشخصية المصرية لا يعني ثباتها وعدم تطورها، فكل فترة تاريجية تتبع من الأدب ما يتفق مع المثل الجمالية السائدة ، ومع التغيرات العديدة في النطق والمشاعر والقيم والمواقوف الوجودانية والتفسبية، فإذا كانت الفكاهة روحًا ترجم عن نفسه في نصوص أدبية دلت على الشخصية المصرية ، فإن بواعث هذه الروح لابد أن تختلف من عصر إلى عصر، ومن ثم تختلف النصوص المعبرة عنها غير أن أستاذنا إبرك هذه الروح - روح الفكاهة - وهي أهم ما يميز المصريين عنده - على أنها روح خالدة ثابتة في كل العصور ، وأن حركة التاريخ بما تجلبه من تطور وتغيير لم تخل من هذه الروح إلى حد أنك إذا نظرت إلى ديوان «نزة النفوس ومضحك العبوس» وجدت - على حد قوله - «أن أغلب الديوان من اللفظ العامي الشعبي، ومن يطلع عليه يرى أنه لا تكاد توجد فوارق بين لغة هذا الديوان ولغتنا المصرية الدارجة الحديثة»^(١) .

ويبدو أن هذا الإدراك متصل بإدراك أعم عنده مرتبط بطبيعة الحضارة الإسلامية العربية القائمة على وحدة الحكم ومركزية الثقافة ، ووحدة التراث والارتباط الشديد بالأصول، وهذا ما أشرنا إليه في صدر هذا البحث، فمصر في ظل هذا الفهم ما هي إلا إقليم من أقاليم هذه الحضارة ذات الطبيعة الخالدة المحافظة ، وما يحدث من تمايز بين أقاليم هذه الحضارة يؤكّد هذه الطبيعة ولا ينفيها .

وأيًّا كانت مصادر هذا الإدراك أو أسبابه ، فإن أستاذنا يرى أن الشخصية المصرية ذات علاقة خاصة بحركة التاريخ وموقعها منه ، إذ يرتب على ما سبق حكمًا آخر ، يقول : « وربما كان في ذلك بعض الدلالة على أن مصر بلد محافظ ، وأنها لا تتتطور إلا بقدر محدود »^(٢) .

ولأن البحث عن ملامح الشخصية المصرية وطبعتها في فكر أستاذنا أمر أساسى ، فإن هذه الأحكام تجعلنا نترك قليلاً كتاب «الفكاهة في مصر» ونقف عند كتابين من أهم كتب أستاذنا وهما «الفن ومذاهبه في الشعر العربي» ، و«الفن ومذاهبه في النثر العربي» لنرى صورة أوسع لإدراكه السابق . إن موقف هذه الشخصية من التاريخ ،

(١) نفسه - ص ٦٧ .

(٢) نفسه .

موقف يدعو للتأمل ، والكتابان يقدمان صورة هذه الشخصية ، وهي صورة مُتمة لما جاء في كتاب الفكاهة .

إن هذه الشخصية لا تخضع لستة التطور على الرغم مما مر بها من أمم وما خاضته من تجارب ، وما حصلته من علوم ومعارف ، فهي شخصية تحتوى كل من أراد أن يحتويها ، ومع ذلك تظل محايضة فلا تتأثر بما احتوته - ويمثل فيها الهكسوس والأشوريون والفرس واليونان والرومان ، وتظل - كما يقول أستاذنا - «حافظة لشخصيتها وخصائصها الجوهيرية ، حتى بعد دخول العرب أنفسهم ، فإنهم لم يستطيعوا أن ينفوا عنها شيئاً من صفاتها ، بل رأيناهم - هم - يغرون في جداولها»^(١)؛ ومرد ذلك عند أستاذنا «أنها أمة محافظة» ، ومن مظاهر محافظتها واستعصائها على التاريخ أن «الناس يعيشون كما كان يعيش آباءهم وأسلافهم يريدون في وديان النيل ، في تلك المياه المشبعة بالطمي . يديرون آلات لا تكاد تختلف في شيء عن آلات أجدادهم ، وأنهم ليحيون بطرق لا تختلف أيضاً كثيراً عن طرق أسلافهم»^(٢) .

ولكن ، إذا كانت هذه طبيعة الشخصية المصرية ، طبيعة مرتبطة بالماضي والأسلاف أكثر من ارتباطها بالحاضر ، طبيعة نافرة من كل تطور ، مقابلة مع منطقة الصيرورة والتغيير ، وهو منطق التاريخ ، فكيف استمرت هذه الشخصية على مدى التاريخ دون أن تندثر على الرغم من جمودها ؟ .

إن إجابة هذا التساؤل يطرحها أستاذنا في أسلوب مجاني ، تتلخص في أن مصر على مدى العصور ، ما هي إلا معبد كبير مغلق الأبواب على ما به من نقوش ورسوم ، وقد أتيحت له أسباب طبيعية من الجغرافيا جعلت أهله يعيشون عيشة مستقلة في عاداتهم وتقاليدهم ، ومن ثم لم يتع لها ما أتيح لغيرها من أسباب التغيير والتبدل ، يقول أستاذنا إن «من يبحث عن مصر في مختلف عصورها ، يجدها أشبه ما تكون بمعبد كبير أغلقت أبوابه على طائفة من الرسوم والطقوس لا تغير ولا تبدل ، بل دائمًا هي تظل كما هي في كل حكم ، وفي كل عصر ، وهذا المعبد الكبير أتيحت له أسباب

(١) شوقى ضيف ، الفن ومذاهب فى الشعر العربى - دار المعارف - مصر - ٤٥٨ .

(٢) شوقى ضيف ، الفن ومذاهب فى الشعر العربى - دار المعارف - مصر - ٢٤١ .

طبيعة جعلته يعيش عيشة مستقلة في عادات وتقاليده . ونقصد بذلك الأسباب ما قام على أسواره من الصحراء الشرقية والغربية ، فإنها عزلته عن الاختلاط والانسياح في الأمم الأخرى»^(١) .

ومما يكمل هذه الصورة الثابتة للشخصية المصرية في فكر أستاذنا أن يكون من طبيعة مصر «أن لا تعنى عنية واسعة بالدرس الفلسفى وما يحتاجه من عمق ، أو على الأقل كانت تلك طبيعتها في العصر الإسلامي ، وقد يكون من أسباب ذلك ودوافعه ما عرف عن أهلها حينئذ من اللهو والدعة فإن ذلك جعلهم لا يميلون إلى العمق والقصوى والتحليل»^(٢) .

وإذا كانت هذه اللمحـة الأخيرة تتفق مع جوانب صورة الشخصية المصرية ، فإن هذه الصورة لدى أستاذنا يترازعاها جانبان - كما قدمها في كتاب الفكاهة - وكتابيـنـ الفنـ ومذاهـبـهـ فـيـ الشـعـرـ وـالـنـثـرـ ؛ـ الجـانـبـ الـأـوـلـ أـنـاـ شـخـصـيـةـ مـتـفـاعـلـةـ مـقاـوـمـةـ رـافـضـةـ منـ خـلـالـ مـاـ تـمـيـزـ بـهـ وـهـوـ الفـكـاهـةـ بـوـصـفـهـ سـلـاحـاـ مـنـ أـسـلـحـةـ المـقاـوـمـةـ ،ـ سـوـاءـ فـيـ عـصـورـ مـاـ قـبـلـ الإـسـلـامـ ،ـ أـوـ فـيـ الـعـصـرـ الإـسـلـامـيـ .ـ الـجـانـبـ الثـانـيـ مـنـ الصـورـةـ التـىـ قـدـمـهـ أـسـتـاذـنـاـ لـلـشـخـصـيـةـ الـمـصـرـيـةـ ،ـ هـوـ جـانـبـ الثـبـاتـ وـالـجـمـودـ ،ـ وـلـاـ تـقـولـ المـحـافظـةـ وـهـذـاـ الـأـمـرـ لـاـ يـتـوقـعـ عـنـ رـفـضـ الـاحـتكـاكـ وـالـفـعـلـ السـلـبـيـ وـالـإـيجـابـيـ ،ـ بـلـ يـمـتدـ إـلـىـ طـبـيـعـةـ الـعـقـلـ الـمـصـرـيـ -ـ خـاصـةـ فـيـ الـعـصـرـ الإـسـلـامـيـ الـذـيـ لـمـ يـعـنـ بـالـدـرـسـ الـفـلـسـفـيـ بـسـبـبـ ماـ يـحـتـاجـهـ مـنـ عـقـمـ غـيرـ مـتـوـفـرـ فـيـهـ ،ـ وـمـرـدـ ذـلـكـ هـوـ الـلـهـوـ وـالـتـرـاـخـيـ ،ـ وـهـذـانـ الـجـانـبـ كـمـ يـبـدـوـ مـتـقـابـلـاـ عـلـىـ الـأـقـلـ هـذـاـ إـنـ لـمـ يـنـكـرـ مـنـهـمـاـ الـآـخـرـ .ـ

فـإـذـاـ تـنـاـولـنـاـ الـجـانـبـ الـأـوـلـ ،ـ فـيـنـ الـفـكـاهـةـ لـيـسـ حـالـةـ ،ـ وـلـكـنـهاـ مـوـقـفـ مـنـ الـحـيـاـةـ وـالـأـحـيـاءـ ،ـ يـمـاثـلـ الصـمـتـ اـحـتـجاجـاـ عـلـىـ الـحـيـاـةـ وـالـأـحـيـاءـ ،ـ وـمـنـ ثـمـ فـيـنـ هـذـاـ الـمـوـقـفـ يـعـكـسـ فـكـراـ تـتـغـيـرـ صـورـهـ وـمـضـامـينـهـ مـنـ عـصـرـ إـلـىـ عـصـرـ ،ـ وـهـذـاـ مـاـ لـمـ سـنـاهـ مـنـ تـدـدـ النـصـوصـ وـتـبـاـينـهـ بـتـبـاـينـ عـصـورـهـ ،ـ وـهـىـ نـصـوصـ اـسـتـعـانـ بـهـ أـسـتـاذـنـاـ فـيـ تـصـوـيرـ الـجـانـبـ الـحـرـكيـ الـحـيـوـيـ مـنـ الـشـخـصـيـةـ الـمـصـرـيـةـ .ـ وـهـذـاـ الـجـانـبـ يـتـفـقـ مـعـ الـحـقـيقـةـ الـثـابـتـةـ فـيـ

(١) نفسه - ٣٤١ .

(٢) نفسه .

تاريخ الفكر وهي «أن فكر الإنسان وفلسفاته إلا تعبيراً عن حركة التاريخ وأداة المجتمع المتغير في التعبير عن متناقضاته وعن غاياته»^(١).

أما الجانب الثاني من الصورة، فإن العقل المصري الذي وقف أول موقف تأملى وجدانى من الوجود بحقائقه الظاهرة والغامضة، لا يمكن أن يكون مستعصياً على حركة التاريخ وفهمها أو التخلف عنها، لذا فقد صاغ موقفه أول صياغة كلية عرفاها التاريخ، وهذا ما يتفق أيضاً مع حقيقة يكاد المؤرخون، وهي «أن مصر كانت مهد التأمل الفلسفى كما نعرفه، وهى أول شعب ناقش تلك المشاكل الأخلاقية مشاكل الخير والشر مطبيقة على الحياة ذاتها، ومشاكل الصواب والخطأ مطبقة على السلوك البشري، تلك المشاكل التي هي بعينها مثار اهتمامنا اليوم»^(٢).

ويمكن أن نزيد منطق هذه الحقيقة بحكم تاريخى آخر يتصل بتاريخ العقل المصرى، وهو أنه «لا يمكننا في وضعنا الراهن بما لدينا من معرفة أن نظن أنه كانت هناك أية محاولة مماثلة نحو التفاسيف المنشطة المتماسك قبل تلك المحاولة التي قام بها الحكماء المصريون»^(٣)، هؤلاء الحكماء الذين علموا اليونان في بداية أمرهم، وتعلموا منهم في مرحلة تاريخية تالية من مراحل تاريخ العقل المصرى، وتشهد على ذلك مؤلفات أفلاطون وأرسسطو وبليوتارك ومدرسة الإسكندرية وال فلاسفة العرب.

ولعلى بهذا الفهم أكون قد استطعت أن أربط بين جانبي الصورة التي قدمها أستاذنا للشخصية المصرية، بوصفها شخصية ذات أبعاد تاريخية وثقافية عاشت في قلب التاريخ، دون أن تكون وحيدة الجانب، وهذا ما جعل روح الفكاهة والدعابة تغلب عليها.

د. أحمد يوسف

أستاذ النقد الأدبي

كلية الآداب - جامعة الزقازيق

(١) لويس عوض: تاريخ الفكر المصري الحديث - الهيئة المصرية للكتاب - ١٩٨٠ - ص ١١ .

(٢) أ. و. تولمین: فلاسفة المشرق ، ترجمة عبد الحميد سليم - دار المعارف - ص ٢٠ .

(٣) المرجع نفسه .

٦٦ - شوقي ضيف والدراسات الأندلسية

د. جمال عبد الكرم

د. شوقي ضيف أستاذ بكلية الآداب في جامعة القاهرة وعضو عامل في مجمع اللغة العربية ورئيس له ، وعضو في المجلس القومي للثقافة والفنون والأدب ، وفي المجمع العلمي المصري ، وعضو شرف أيضاً في مجمع اللغة العربية الأرمني . وقد نال جوائز مختلفة، أهمها جائزة الدولة التقديرية في الآداب وجائزة الملك فيصل العالمية في الأدب العربي . وللدكتور شوقي ضيف نشاط علمي كبير . فقد كرس حياته للعمل والتأليف وهو معروف بوفرة إنتاجه العلمي والأدبي وتنوعه وتأثيره في حركة الثقافة والفكر العربي . هذا بالإضافة إلى البحوث والمقالات التي تزخر بها الدوريات العلمية . وتزيد مؤلفاته على الخمسين كتاباً في الدراسات الأدبية والبلاغية والتقنية وفي الترجمة وفي فنون الأدب وفي الكتب المحققة وفي نشاطه المجمعى والبحوث والمقالات الكثيرة .

والدكتور شوقي ضيف رائد من رواد الفكر والأدب في مصر وفي العالم العربي، وشيخ من شيوخ العلم الجهابذة ، وهو من النماذج النادرة والمبدعة التي عرفتها الجامعات المصرية ، وهو خير من يعرف ويقدر رسالة الكاتب والأديب والاستاذ الجامعي الذي يتفاني في العطاء والجهد ، كما أنه معروف بجديته وإخلاصه وتقانيه في خدمة طلابه والدارسين من خلال قناعات الدرس ، وبحرصه الشديد على تكوينهم وإعدادهم إعداداً علمياً حسناً . وله سلسلة تاريخ الأدب العربي التي تعتمد عليها الجامعات العربية في دراسة الأدب العربي على مر العصور ، وله انجهادات هامة في مجال علم النحو ، اعتد بها مجمع اللغة العربية بالقاهرة . ونصيبه من الثقافة العربية

والإسلامية وافر وخصيب ، فهو أديب نحوى لغوى مؤرخ عالم في التفسير وعلوم القرآن والقراءات ، وله في تلك الفنون مؤلفات عدّة .

تتسم كل كتاباته ودراساته وأبحاثه بالدقة والجدية ، وقد تلمند على يديه أجيال من الباحثين المصريين والعرب يعلمون الآن في مصر والعالم العربي ، يقتدون بعلمه وفكرة ومدرسته وينشرون رسالته وأفكاره . ومع علمه الفياض فهو إنسان وقور وصريح وأمين ، آراؤه واضحة ومعرفته متنوعة ومتعدّدة ، ونتاجه الأدبي والعلمي وفيه جدًا : وهو أستاذ جامعي متعدد المواهب ، ولذلك فقد كان تأثيره عميقاً ومؤثراً في مجتمعنا المصري والعربي ، خاصة في الحياة الثقافية والفكرية والأدبية . وقد شغلته كثيرة من قضائيانا القومية وقضايا وطننا العربي التي اهتم بها ، وله فيها آراء ونظريات المعروفة الواضحة التي يعتمد فيها على أساس منهج وفكرة مستنيرة . فله منهجه الخاص المميز الذي لا يقتصر على أداء واجبه الجامعي «كمعلم قدير فقط» ، بل يناقش وينظر ويُجاهر بقوله وأرائه السديدة بشجاعة وبحق ، ويُجاهر بها دون خوف ، فهو ليس من الأساتذة النمطيين . يضاف إلى ذلك دماثة خلقه وأدبه الجم وتواضعه المتناهي . فهو خير موجه ومعلم وعالِم بما تحمله هذه الكلمات من مضامون ومعانٍ سامية .

وتزخر المكتبات والمعاهد وجامعات مصر والعالم العربي بأعماله الرائعة ، وقد فاق الكثرين من أساتذة وعلماء جامعاتنا في التأليف وفي الإنتاج الأدبي والعلمي ، وقد جاء ذلك نتيجة لجهد شاق متواصل وبحث دقيق متقن ، فهو رائد مدرسة جامعية تغدو بها الأجيال .

ومعرفتي بالدكتور شوقي ضيف حديث العهد إلى حد ما وملتبة بالمعرفة والتقدير والاحترام ، وكم كنت أتمنى لو كنت التقى به قبل ذلك بزمان تلميذاً له ، أفتدى برشده وأستفید بعلمه وأتحلى بصفاته الجامعية الحميدة وأخلاقه الطيبة ، فعرفت فيه الأبوة الصداقة والأمانة والعفة والإخلاص والاحترام والتقدير لشخصه ولما كانته العلمية ، ولعلمه الرازح وإنسانيته البالغة ، فقد ورث علم العلامة وتواضع العظاماء في كياسة تتم على جنور عميق في المعرفة والخلق . ورأيت فيه معنى الأستاذية الحقة الجديرة

بالثقة والاحترام ، أحببته وأحسست برقة ودماثة خلقه ، ولا أنسى يوم لقائي به في ربيع عام ١٩٨٥ ، عندما شرفت بالاشتراك معه في مؤتمر الحضارة الأندلسية الذي نظمه قسم اللغة الإسبانية وأدابها - بعد عام من إنشائه - بالتعاون مع قسم اللغة العربية وأدابها ، وأطلعته على بحثي وكان عنوانه : «الطب الإسلامي في البحر الأبيض المتوسط : صقلية والأندلس حلقة الاتصال بين الشرق والغرب»^(١) فشجعني وأثنى على بحثي وأمدني بالعون والثقة والطمأنينة ، ورأيت فيه روح الاستاذية التي افتقدتها والتي لم أعهد لها من قبل ، ولست فيه أسمى معانى الأبوة الخالصة ، فزاد معها الحب والتقدير والاحترام ، إحساس لم أصرخ به لأحد غيره ، فلم يسعدنى الحظ أن ألتزم على يديه قبل ذلك ، ويكفينى أن أستمتع بحديثه وكلماته كلما التقى به .

وعلى الرغم من شهرة الدكتور شوقي ضيف في مصر والعالم العربي في الدراسات العربية والأدبية ، فإنها في الدراسات الأندلسية تشغل حيزاً كبيراً من اهتماماته وبخاصة الأدبية ، فهو من أكفاء الباحثين وأقدرهم على معالجة هذه الدراسات ، كما سنرى من خلال عرضنا لأهم أعماله في هذا المجال ..

الدراسات الأندلسية :

اهتم د. شوقي ضيف بالدراسات الأندلسية وخاصة الحضارة والتاريخ والفكر الأندلسي باعتباره جزءاً هاماً من التراث العربي الإسلامي في أوروبا^(٢) ، وله مؤلفاته التي تتعلق بالفلك الأندلسي والدراسات الأدبية المتعلقة به خاصة ، وذلك للعلاقة الوثيقة التي تربطها بتراث الأدب العربي وكنزه . وللدكتور شوقي ضيف أيضاً

(١) المؤتمر الأول للحضارة الأندلسية الذي عقد بكلية الآداب جامعة القاهرة ١٩٨٤ ، حيث كان لي شرف الاشتراك بهذا البحث الذي لم ينشر بعد والذي أثني عليه الدكتور شوقي ضيف .

(٢) قم الدكتور شوقي ضيف بحثاً دراسة مفصلة عن الحضارة الأندلسية في مؤتمر الحضارة الأندلسية الذي عقد بكلية الآداب تحت عنوان : الحضارة الأندلسية ودورها في تكوين الحضارة الأسبانية - جامعة القاهرة - ٢٠-٢٢ مارس ١٩٨٥ ، وطبع بمجلة المعهد المصري للدراسات الإسلامية بمدريد - المجلد ٢، ص ٧-٢٦ .

بصمات فى أمور كثيرة تتعلق بعالم الأندلس ، فهو مثلاً يرى أن أسبانيا أى شبه الجزيرة الأيبيرية (أسبانيا والبرتغال) لم يكن لها دور حضارى بارز فى الحضارة الإنسانية قبل الفتح العربى سنة ٧١١ ، وأن العناصر المكونة لسكان أسبانيا والحضاريات التى مرت بشبه الجزيرة الأيبيرية من فينقيين ويونانيين وقرطاجانيين ورومانيين وغيرهم لم تصنع شيئاً يميزها فى تاريخ الحضارة الإنسانية ، بمعنى أنه يرى أن الأمم القديمة تتفاوت فى الدور الذى أدته فى تكوين الحضارة الإنسانية العالمية ، فهناك أمم لها دور ممتاز ، وأمم ذات دور متوسط ، وأمم لم يكن لها أى دور . وهنا يثنى الدكتور شوقي ضيف على الحضارة المصرية باعتبارها أم الحضارات القديمة، التى أثرت بحق فى الحضارة العالمية وبخاصة فى الحضارة الأوروبية الحديثة، وأن أسبانيا استقبلت حضارات كثيرة كما أشرنا من قبل . وأهم ما يركز عليه أستاننا الجليل هو أن فتح العرب ومعهم البربر لاسبانيا ، كان حدثاً من أهم الأحداث التاريخية للإسلام ، حيث كان له الفضل فى تكوين الذات الأسبانية التى تكونت بما فيها من قبائل أيبيرية قديمة ، وما نزل فيها من عناصر سكانية أخرى قديمة تقعها بين القارات الثلاث أوروبا وأفريقيا وأسيا اشتهرت فى تكوين شعب أسبانيا .

ويرى أستاننا أيضاً أن أسبانيا ليست أوروبية بالمعنى الدقيق وأن ذلك حقيقة من حيث الموقع الجغرافى ، أما الشعب فهو مزيج من شعوب كثيرة مختلفة بعاداتها وتقاليدها ولغاتها .

ويؤكد الدكتور شوقي ضيف فى هذا الصدد أن أسبانيا حينما فتحها العرب لم يكن بها تراث حضارى ذو قيمة كبيرة ، وأن أسبانيا وخصوصاً فى عهد عبد الرحمن الثانى (الأوسط) (٢٢٨-٢٠٦هـ) استطاعت أن تكون لها شخصيتها الحضارية أى أنه كان للعرب دور عظيم وبارز فى هذا المضمار ، وبخاصة فى خلق حركة علمية أندلسية مزدهرة على مر العصور ساهمت فى تأسيس حضارة بلغت أوج عظمتها فى القرون الوسطى ، وشعت بنورها على أوروبا ، وساعدت على ترسيخ أسس عصر النهضة الأوروبية الحديثة . وقد أثنى أستاننا على هذا البلد ، ونعني أسبانيا ، وبخاصة قرطبة فى عهد الأمويين ، حيث أزدهرت الحضارة بها فى هذا العهد .. وظللت شامخة حتى السنوات الأخيرة منه ويخص بالذكر الحضارة المادية التى ظلت نحو ثمانية قرون ينعم بها العرب والبربر والمولدون المستعربون المسيحيون .

ويستطرد أستاذنا قائلاً أنه على نحو ما أتاحت حضارة الأندلس للإسبان حضارة متكاملة مادية وفنية ومعمارية، أتاحت لهم أيضاً حضارة معنوية أدبية وعملية، ولم يكن للإسبان وقت الفتح العربي تراث حضاري أو مادي أو معنوي يستطيعون به أن يواجهوا الأدب العربي ، بل كان كل ما يمكن أن نطلق عليه أدباً فهو أدب خال من كل جمال ، فقد كانوا يستخدمون رطانة لاتينية خاصة ، ليس بها شيء من عنوية الألفاظ العربية وجمال جرسها في الآذان . ومع بداية القرن التاسع تم تعريب الأندلس بكل ما فيه من (المسلمة) الذين اعتنقوا الإسلام ومن المولدين وأبنائهم ، وأيضاً من المستعمرين الذين ظلوا على دينهم المسيحي واتخذوا العربية لساناً لهم وأداة للتعبير عن أفكارهم . ويشير الدكتور شوقي إلى الأزدواج اللغوي عند الأندلسيين بين العربية واللاتينية العالمية ، والدليل على هذا الأزدواج هو ظهور فن عامي ظهر في بعض خرجات المشحات الأندلسية ، فضلاً عن الأزجال الأندلسية التي كانت ثمرة للتزاوج اللغوي في اللسان الأندلسي بين العربية واللاتينية الدارجة أثرت تأثيراً بعيداً في الحضارة الأندلسية والأوروبية بصفة عامة والقصص والروايات الإسبانية بشكل خاص، مما يؤكد تأثير الأدب الأندلسي العربي في الأدب الإسباني ، وازدهار العلوم بصفة عامة في القرن الثاني عشر في ميدانين كثيرة . وقد أعطى أهمية بالغة للور الترجمة حيث كان للترجمات دور فعال في التكوين الحضاري الإسباني طوال الفترة المتعاقبة لدخول العرب إلى إسبانيا وخاصة تأثيرها في تطوير اللهجة القشتالية إلى اللغة الإسبانية الحديثة .

* * *

دراسات في الأدب الأندلسي :

إذا انتقلنا إلى كتابات الدكتور شوقي ضيف وإسهاماته في الدراسات الأندلسية من خلال مقالاته وأبحاثه لنتعرف على آراء رائدنا وعالمنا الجليل فنجد أنه من الميدانين التي نتطرق إليها وهي من صميم تخصصه الذي يتعلق بالدراسات الأدبية وبخاصة تاريخ الأدب العربي ميدان دراسة عصور الإسلام في الأندلس من خلال كتابه «عصر

النول والإمارات في الأندلس»^(١). وهو كتاب يقع في ٥٥٠ صفحة تناول فيه تاريخ الأدب العربي الخاص بالأندلس ، ويشتمل على خمسة فصول تبدأ بعرض التاريخ السياسي منذ دخول العرب سنة ٧١١ حتى خروجهم سنة ١٤٩٢ حسب قوله مشيراً إلى النواحي الاجتماعية والثقافية الفكرية في هذا التراث . وخاصة في عهد عبد الرحمن الثاني المسمى بالأوسط (٨٥٢-٨٢٢) الذي أرسى دعائمه الحضارية والثقافة الأندلسية . وقد أبرز شوقي ضيف في هذا الكتاب الدور الحضاري البارز للعرب والمسلمين وتأثيرهما في الحضارة العالمية ، واهتم بالحركة العلمية الأندلسية وتطورها في شتى مجالات المعرفة ، وأثرها في الفكر الأدبي وفي حركة التحرر والإصلاح الديني .

وفي الفصل الثالث من هذا الكتاب تطرق إلى الحركة الأدبية في الأندلس وبخاصة أدباء الأندلس المعروفين الذين أقبلوا على تعلم اللغة بشغف لكون أداة تعبير عن أفكارهم ومشاعرهم شعراً ونثراً . وكان قد عقد فصلاً في كتابه «الفن ومذاهبه في الشعر العربي» (الذى ألفه سنة ١٩٤٣) عن الأندلس وشعرائه ، والمذاهب الفنية فيها ، متناولاً أهم ما يميز شخصية الأندلس بيئياً واجتماعياً ، متناولاً لغة الشعر في الأندلس عارضاً لأهم شعرائها مثل ابن هانئ الأندلسي ، وابن دراج القسطلاني ، ثم تناول نهضة الشعر الأندلسي على أيدي شعراء أمثال ابن برد الأصفر ، وابن زيدون ، وابن خفاجة ، واختتم هذا الفصل بالحديث عن الغناء الأندلسي والموشحات والأزجال . وأفرد فصلاً آخر في كتابه «الفن ومذاهبه في النثر العربي» الذي ألفه سنة ١٩٤٦^(٢) . كما عقد فصلاً في كتابه فصول في الشعر ونقده» (الذى ألفه سنة ١٩٧١) بعنوان : شخصية الأندلس في تاريخ الشعر العربي ؛ تناول فيه طبيعة الأندلس الجغرافية وتكوينها السكاني وأحوالها التاريخية ، وظواهرها الاجتماعية والحضارية والثقافية وأثر كل ذلك في الشعر العربي في الأندلس بصفة خاصة ، وتناول في ذلك أغراض الشعر الأندلسي لتوضيع طبيعته ومقوماته الأساسية ،

(١) شوقي ضيف : عصر النول والإمارات ج ٢ (الأندلس) من . دار المعرفة . القاهرة ١٩٨٩ .

(٢) الفن ومذاهبه في الشعر العربي ، ط. لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ١٩٤٢ .

فوقف عند ظاهرة الفزل ، وعرض لنماذج من شعر ابن خفاجة ، وابن الزقاق ،
وابن زيدون ، وولادة بنت المستكفي ، وغيرهم ^(١) .

كما وقف طويلاً عند وصف الطبيعة عند أبي حفص قاضي قرطبة ،
وابن أبي روح الإشبيلي ، والرصافي ، وابن عمار ، وغيرهم .

ثم أشار إلى نصيب الرثاء في الشعر الأندلسى وخاصة رثاء الدول والمدن ،
عند أمثال ابن البانة ، وابن العسال ، وأبى المطرف عميرة ، وغيرهم .

وكانت للأغنية الأندلسية أهمية كبيرة عنده . فقد تأثر الشعر بالموسيقى والفناء
فازدهرت المoshات بها ، وتأثرت هذه المoshات بالأغانى الرومانسية ، وجعل منها
الأندلسيون نهاية لموشحاتهم فيما سمي (بالخرجات) ، وكان أهم الوشاحين الذين
عرض لهم عبادة القران ، وابن هريوس ، وابن حزمون ، وغيرهم ، موضحاً شخصية
الأندلس في تاريخ الشعر العربي . ولشوقى ضيف آراوه ونظرياته ، وقد رد على بعض
المستشرقين الإسبان أمثال خوليان ريبيرا ، وجارثيا جومث ، وغيرهما في بعض
القضايا الأدبية واللغوية الهامة .

* * *

الحركة الأدبية والفكرية في الأندلس :

أما عن الحركة الفكرية الأدبية في الأندلس خاصة فقد أشار إلى نشاط الشعراء
والأدباء وكثريتهم ، وحسب قوله فإنه قد ترجم لأكثر من مائة شاعر أندلسى في هذا
العصر .

وقد كان نشاط الشعر والشعراء خلال الثمانية قرون (١٤٩٢-٧١١) كبيراً
وضخماً حيث أدى ابتكار فن شعرى جديد هو فن المoshات في الأندلس وأن الـ «خرجات»

(١) الفن ومذاهبه في النثر العربي ، ط. لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ١٩٤٦ .

كانت مزيجاً بين الشعر العربي وبعض الأغانى الرومانسية فى اللاتينية الإسبانية الدارجة ، وأن الذين أنشأوا هذا الفن وطوروه فى الأندلس كانوا من أصول عربية خالصة ، وتعرض أيضاً للأزجال ، وروائع شعراء المديح والفخر والشعر التعليمى والغزل ، وهذا الفرض الأخير تفوق فيه الأندلسيون فى لونه وإبداعه على جميع البلدان العربية ، واستمر هذا التفوق فى أشعار الغزلين الأندلسيين قرونًا طويلة متالية أثرت بعد ذلك فى الأدب الإسبانى وفي أقصاص من الحب العذري عند الأندلسيين مثل (قصة دون كيشوت لسرفانتيس ١٥٤٧-١٦١٦) .

وشعر الطبيعة والخمر من الأشعار التى تفوق فيها الأندلس أيضاً على المشرق ، حيث تغنى الشعراء الأندلسيون بجمال الأندلس وأفربوا له صوراً فى غاية الروعة والجمال ، ثم انتقل الدكتور شوقى ضيف إلى معرفة الأندلسيين لشعر الرثاء وبخاصة رثاء الول وللملوك ، وضرب مثلاً بالشاعر اللبناني «ابن الزقاق» والذى لا تقل قصيده روعة عن «موشحة ابن حزمون» فى بكاء بطل بلنسية الذى استشهد فى معركة ضارية مع حملة الصليب ، وابن وهبون وابن البانة وابن عبيدون ، خير نماذج من شعراء الرثاء فى هذا الوقت . وختم حديثه عن الشعر والشعراء بالحديث عن الزهد والتصرف الإسلامى والمدائى النبوية . ثم تحدث عن النثر الأندلسى وكتابه وأهميته وأفرد فصلاً كاملاً (الخامس) عن روائع الأندلسيين فى الرسائل الديوانية التى تناول التهنئة والعتاب والاعتذار والاستعطاف والاستجمام ، ووصف الطبيعة ، ورسائل أخرى عبارة عن مناظرات رائعة بين الأزهار والرياحين ، ورسائل شخصية حولوها إلى لوحات أدبية بارزة . وقد تميزت الأندلس قبل هذا بالرسالة الأدبية الخالصة وفي مقدمتها رسالة التوباع والوابع لابن شهيد الأندلسي . ثم تعرض بعدها لأعمال نثرية متنوعة للكتاب الأندلسيين المبدعين ، وفي مقدمتهم ابن حزم الذى تأثر به بعض الشعراء الإسبان فى القرون اللاحقة مثل أرشيسترى دى هيتا فى كتابه «الحب الطيب» .

ومن الأعمال النثرية الأندلسية التى استشهد بها شوقى ضيف كتاب المقتبس لابن حيان عن تاريخ الدولة الأموية بالأندلس ، وكتاب الذخيرة لابن بسام .

ومن أروع الأعمال الأندلسية قصة حى بن يقظان لابن طفيل ، والتي أراد بها ابن طفيل أن يوفق بين الفلسفة والدين . وهو عمل فريد لا سابقة له فى الأداب العالمية على حد قول د. شوقى ضيف .

ثم انتقل بعد ذلك فى الفصل نفسه إلى فن المقامات بالأندلس والتحامه بمقامات الحريرى وتأثيره فى الأدب الإسبانى خلال القرنين السادس عشر والسابع عشر الميلاديين (قصص بيكارسكية أو الشطار) . وأخيراً أهتم فى الفصل الثالث برحلات الأندلسيين وذكر أهمها «رحلة ابن جبير» المتميزة بحسب العرض وجمال الأسلوب السلس العذب .

وهذه إحدى الدراسات الأندلسية فى تاريخ الأدب العربى فى الأندلس ، وهو نتاج طيب لثمانية قرون ، استمد الدكتور شوقى ضيف مصادرها ومراجعها من الكتب التاريخية والدينية ودواوين الشعر ، وكتب النثر ، والكتب التى تتناول أدب الرحلات والرحلة ، دراسة مستفيضة وجيدة ، الغرض منها إظهار أثر الأدب العربى فى الأداب الإسبانية والأوروبية .

وتحدث عن الحضارة المادية الحقيقية فى الأندلس ، التى ظلت مزدهرة طوال سبعة قرون منذ عهد عبد الرحمن الأوسط والتى حافظ عليها من بقى فيها من أهلها بما فى ذلك المدجنون «الموريسيكيون» حتى مستهل القرن السابع عشر .

والدكتور شوقى ضيف رأى فى الحضارة الأندلسيةدورها فى تكوين الحضارة الإسبانية . ولا شك أن للعرب والمسلمين دوراً ممتازاً وبارزاً وخاصة فى تكوين الحضارة العالمية ، لأن إسبانيا حينما فتحها العرب لم يكن لها تراث حضارى لا مادى ولا معنوى ذو قيمة .

ويقول إن كل العناصر الحضارية فى الأندلس أثرت فى الحضارة الإسبانية المادية الحديثة التى أثرت بدورها فى الحضارة المعنوية والأدبية والعلمية . وكل هذه الجوانب تعرض لها ، وأشار أيضاً لدور ترجمات علماء الفلسفة والطب والمنطق وعلم النفس وفى الرياضيات والفلك والكميات والفيزياء والتاريخ الطبى لأشهر العلماء العرب والأندلسيين أمثال : الخوارزمى والرازى وابن سينا والغزالى والبطروجى والزهرافى وابن رشد ، وكانت كتب هؤلاء العلماء مترجمة إلى القشتالية ومنها إلى اللاتينية ، وينذكر دورها

الفعال في التكوين الحضاري الإسباني طوال قرون متعاقبة ، ولهذا لا يشك الدكتور شوقي ضيف أن إسبانيا ظلت حقباً متباولة تقدم تائياً كبيراً في أوروبا المتعلقة بإشعاعاتها في جوانب حضارتها الحديثة إلى آماد بعيدة .

أما عن جهوده في التراث المحقق فله بعض الأعمال القيمة في الدراسات الأندلسية ؛ ومن أهمها الكتب الأدبية التي تضمنت مادة جديدة يستفاد منها في التاريخ ، مثل تحقيقه لكتاب «المغرب في حل المغرب» لابن سعيد الأندلسي^(١) ، حيث يقدم للباحثين والمستشرقين والأوروبيين هذه التحفة الأدبية الرائعة وهي عبارة عن مجموعة من طرائف الشعر والموشحات والأزجال الأندلسية التي خلفها أعلام الأندلس البارزون المتأzion بالأندلس ، وتحمل بين طياتها حقائق أدبية جديدة عن الأندلسين وحياتهم الفنية .

ويحق فإن هذا العمل الجاد المضني والشاق للدكتور شوقي ضيف في تحقيق التراث الذي يخدم الباحثين في الدراسات الأندلسية بصفة عامة والأدب الأندلسى بصفة خاصة ، يستحق كل التقدير ، جزاه الله كل خير لإخلاصه ولوافاته للعلم وخدمة الدارسين . وكتاب المغرب لابن سعيد الذي تفضل بتحقيقه والتعليق عليه ، يقع في جزئين ، الجزء الأول منه يذكر المالك الأندلسية : قرطبة وإشبيلية وبيطليوس وشلوب وباجة ولشبونة في البرتغال ، ومطالعه . وفي كل بلدة يذكر كتابها وأعلامها المتأzion وخير ما خلفوه من طرائف الشعر والموشحات والأزجال ، حيث عُنى الدكتور شوقي ضيف بهذا النص ، وبعد الاطلاع على أصوله في النسخة المخطوطية المحفوظة في دار الكتب العربية . وقد كان له الفضل في تحقيق هذا المخطوط المصطرب وأوراقه غير المنتظمة وإحياءه ورده إلى صورته الأصلية ل تستقيم أوراقه وإيضاعه في متناول الباحثين ، وقد فرغ من تحقيقه في ٢٠ مايو سنة ١٩٥٢ وهو النص الخاص بالقسم الثالث المتعلق بالأندلس ، والكتاب له أهمية بالغة ، إذ دفع كثيراً من الباحثين في تاريخ الأدب العربي في الأندلس وبخاصة المؤرخين للشعر الأندلسى ليعيدوا النظر في تأريخهم للأدب الأندلسى ، الذي هو كنز من كنوز التراث العربي الإسلامي في الأندلس .

(١) المغرب في حل المغرب لابن سعيد الأندلسي ج ١ (تحقيق بالاشتراك) ط. دار المعارف . القاهرة ١٩٥١ .
ج ٢ ، جامعة القاهرة ١٩٥٢ ، ج ٣ دار المعارف . القاهرة ١٩٥٥ .

ونص ابن سعيد هذا له قيمته الأدبية ، إذ إنه من المصنفات الأدبية الرائعة التي ألفها الأندلسيون عن أدابهم العظيمة .

أما الجزء الثاني فهو كتاب «وشى الطرس فى حل جزيرة الأندلس» ويه يكمل القسم الأول عن الأندلس من مخطوط كتاب «المغرب فى حل المغرب» لابن سعيد المغربي الأندلسي . الجزء الثاني ينفرد بمعقدمة عن كتاب «الشفاة اللعس فى حل موسطة الأندلس» . ثم ينتقل ابن سعيد ليحدثنا عن المالك الأندلسية وعلمائها البارزين وما خلفوه من آثار أدبية رائعة فى هذه المالك : مملكة طليطلة وجيان وتدمير وبلنسية وطرطوشة والسهلة وجهات التغر وجزيرة ميورقة وأخيراً الأندلس وقد اطلع الدكتور شوقي ضيف على كثير من المخطوطات والمراجع الأندلسية ، وبخاصة كتب الترجم «جنوة المقتبس» للحميدى ، وكتاب «رأيات البرزين وغايات البرزين» لعلى بن سعيد ، «فتح الطيب» للمقرى ، «المطرب من أشعار أهل المغرب» لابن دحية ، «الغصون اليانعة في محاسن شعراء المائة السابعة» ، «اختصار القدر المعلى في التاريخ المحلي» لابن سعيد ، يستقىده منها في تعليقاته على كتاب المغرب في حل المغرب .

هذا الكتاب يعرض فيه ابن سعيد الصافي الخالص من جواهر الشعر ، والذى يضم من بين صفحاته ستة أسفار للأندلس جمعها المؤلفون تحت اسم كتاب «وشى الطرس فى حل جزيرة الأندلس» .

قدم الدكتور شوقي ضيف تحقيقاً لثلاثة أسفار من الستة وهى الحادى عشر والثانى عشر والثالث عشر وهى التى تخص غرب الأندلس وممالكه وكوره وبلدانه ، وهذا النص هو القسم الثالث الخاص بالأندلس من هذا الكتاب الذى أشرنا إليه لابن سعيد ، وهو بدون شك يفيد الباحثين والمؤرخين للشعر الأندلسى ليعيدوا النظر فى كل ما يتعلق بنواعج الشعر الأندلسى . والجديد فى كل هذا ، إن هذا الجزء الخاص بالأندلس إنما يحمل بين صفحاته كثيراً من الحقائق الأدبية عن الأندلسين وحياتهم الفنية ومؤلفاتهم ، وهذا النص كفيرة من النصوص المنشورة والتى ستنشر يسد فراغاً كبيراً فى مجال البحث عن معانى وخصائص الشعر الأندلسى ، ليضيف إلى المكتبة العربية والأندلسية قسماً هاماً تفتقر إليه هذه المكتبات من المؤلفات والمصنفات ، وهذا النص له قيمة عظيمة تضاف إلى رصيد الدراسات الأندلسية ، وقد بذل الدكتور

شوقى ضيف مشكوراً جهداً كبيراً لوضع هذا النص مرتبًا وصحيحاً بين أيدي الباحثين والمهتمين بالأدب الأندلسى .

أما كتاب «الرد على النحاة» لابن مضاء القرطبي الأندلسى ، والذى حققه ونشره الدكتور شوقى ضيف فهو من الأعمال القيمة الحالية من كنوز التراث النحوى الأندلسى ، وقد وثقت صلاته بالأندلس وأثارها . وقد تعرض فيها إلى شخصية ابن مضاء القرطبي وأرائه ونظرياته المتعلقة بال نحو . وبهذا العمل يكون الدكتور شوقى ضيف قد قدم خدمة طيبة تضاف إلى رصيده العلمي وتغدو القارئ والباحث فى علم النحو : للتعرف على شخصية ابن مضاء التأثر على سببويه وعلى نحاة الشرق بصفة عامة . وقد أثار هذا الكتاب ضجة كبيرة في الأوساط العلمية وبين الباحثين والدارسين من عرب ومستشرقين من المهتمين بقواعد النحو وأصوله ليتعرفوا على نظريات ابن مضاء وأرائه ورفضه لنظرية العامل فى النحو ، وما جرت إليه من ركام الأسباب والعلل وما يستنقى النحوى عنه .

وكتاب ابن مضاء يعد كنزًا من التراث النحوى الأندلسى ومصدراً من المصادر اللغوية التى يقتدى بها فى الدراسات والأبحاث العلمية للوقوف على الفكر الأندلسى ، وفيه دعوة لتحطيم القيود والتقديرات فى العبارات النحوية العربية وإلغاء القياس والعلل الفاسدة ، وتحطيم التمارين غير العلمية وغير المفيدة فى الأداء وإلغاء كل ما لا يفيد نطقاً .

لذلك يرى الدكتور شوقى ضيف أن آراء ابن مضاء بمثابة ثورة جديدة ببناءة تستحق الدراسة والاهتمام بها فى رسم طريق جديد وتصنيف جديد لقواعد النحو العربى وتبويبه تبويباً حديثاً ومجدداً^(١) .

إن اتصال الدكتور شوقى ضيف بالأندلس اتصال وثيق من خلال كتابته ودراساته لتاريخ الأندلس وأدبها وحضارتها ، حيث وقف على كثير من الحقائق التى تتعلق بهذه الحقبة التاريخية الهامة من تاريخ الفكر العربى资料 ، وشفف بفنونه وأدابه .

(١) حق شوقى ضيف نصاً أندلسياً هاماً وهو كتاب «الرد على النحاة» لابن مضاء القرطبي (المتوفى سنة ٥٩٢-١١٩٦م) . وهو يعتبر ثورة جريئة على سببويه وكتابه فى النحو بل وعلى نحاة الشرق أجمعين انتظر. تجديد النحو . ط دار المعارف، القاهرة، ١٩٨٢ . وتحقيق كتاب «الرد على النحاة» لابن مضاء القرطبي . ط . دار الفكر العربى ، القاهرة ١٩٤٧ .

و«كتاب الدرر في اختصار المغازي والسير» لأبي عمر بن عبد البر ، وهو من أهم ما كتبه الأنجلسيون في السيرة النبوية ^(١) . وابن عبد البر معاصر لابن حزم الذي ألف «جواجم السيرة» وقد اعتمد ابن حزم إلى حد كبير على كتاب ابن عبد البر المذكور . وللدكتور شوقي ضيف مقدمه لكتاب «الدرر» تحدث فيها عن منهج ابن عبد البر . وقارن بينه وبين ابن حزم ^(٢) ، كما أوضح تأثير كتابه في مؤلفي السيرة الذين أتوا بعده مثل السهيلي وابن سيد الناس .

* * *

المدارس النحوية

أفرد في هذا الكتاب فصلاً طويلاً تحدث عن المدرسة النحوية الأنجلسية . ومنذ سنوات طويلة يشارك د. شوقي ضيف مشاركات قيمة في المجالات الأدبية والعلمية في مصر والعالم العربي وفي المؤتمرات والندوات والجمعيات الأدبية . ومنذ انتخب عضواً في مجمع اللغة العربية يمده ببحوث ومحاضرات كثيرة في لجانه ومؤتمراته . أما في التأليف فله كتب كثيرة تكون مكتبة غنية بموضوعات متنوعة في الأدب العربي بمختلف بيئاته في مشرقه ومغاربه قديماً وحديثاً : وهي تبلغ نحو خمسين كتاباً عرض ذيها لأهم المذاهب الفنية للشعر والنشر وتاريخ الأدب العربي في شتى بيئاته المتراكمة في أمكنة وأزمنة متباينة ، مع تحليل شخصيات الشعراء والكتاب القدماء والمعاصرين تحليلاً ممتعاً خصباً . وتهتم الجامعات والشخصيات المثقفة في مصر والعالم العربي بقراءة كتبه ودراساته لما تحمل من زاد علمي وأدبي غزير ولغة صافية سائقة .

أ.د. جمال عبد الكرييم

رئيس قسم اللغة الإسبانية

كلية الآداب - جامعة القاهرة

(١) الدرر في اختصار المغازي والسير . لابن عبد البر (تحقيق) ط. دار المعارف ، القاهرة ١٩٦٦ .

(٢) نقط العروض في تاريخ الخلفاء . لابن حزم الأنجلسي في مجلة كلية الآداب - جامعة القاهرة ، المجلد ١٢-١٥١ .

٢٧ - شوقي ضيف .. الحقيقة والرمز

د. ماهر شفيق فريد

لم أكتب لأمدح شوقي ضيف؛ فهو ليس بحاجة إلى شهادة مني أو من غيري، وقد شهدت له أعماله العلمية الصريحة عبر حياة مباركة الثمرات موصولة العطاء، وهو، على أية حال، كذلك المدح الذي قال فيه الشاعر العربي القديم إنه :

تجاوزَ قدرَ المدحِ حتَّى كَانَهُ
يَأْخُسِنَ مَا يُتَّسِّي عَلَيْهِ يُعَابُ

ولست من أصحاب الدراسات اللغوية العربية - وإن كانت هذه اللغة همي ومشغلتي حين أفرغ من ضرورات كسب العيش - وإنما أنا دارس ومدرس لآداب لغة أجنبية . لست أتفق مع شوقي ضيف في كل ما يذهب إليه من آراء بل أنا - بتوجهي الغربي - - أخالفه كثيراً فكريًا ووجدانياً ونوعياً ، ولكن آية الأستاذ الكبير أنه يستثير في قارئه دواعي المناجزة والاختلاف ، ويدعوه إلى الجدل الشديد بل العنف الذي لا يراد به سوى وجه الحقيقة وحدها . أتحدث إذن عن شوقي ضيف من منظور دارس للآداب الغربية بعامة والأدب الإنجليزي ب خاصة ، فاطرح سؤالاً واحداً : ما الذي يعني شوقي ضيف لدارس الآداب الأجنبية ؟

عندى أن أول ما يرمز إليه هو اعتدال النظر وسلامة الميزان وقيامه على أسس راسخة من العلم والنونق والدرية ، بحيث لا تجمع به الأهواء . لقد برع شوقي ضيف من دائرين مخامررين لا أدرى أيهما شر من صاحبه : داء الاستخداة الذليل أمام الثقافة الغربية من جهة ، وداء الاستعلاء الذميم على هذه الثقافة والانكفاء إلى ماضٍ لا شك في عظمته ولكن لا شك أيضاً في أنه لم يعد يفي بكل ما جاء به عصرنا من جديد

المعطيات من جهة أخرى . شوقي يمثل الثقافة العربية الناضجة حين تتف شامخة واثقة بذاتها ، لا تعشى منها العينان إزاء أنوار حضارة غربية ، ولا تتبرأ بأصوات الماضي الذي يضفي عليه بعد الزمني حرمة بل قداسة . لقد جاوزنا معه مرحلة الانبهار بآراء المستشرقين ، كما جاوزنا مرحلة الوقوف الجامد عند مقولات الأقدمين .

قرأ شوقي ضيف هذا كله وتمثّله وأعمل فيه عقله الناقد ثم خرج بمركبّه الخاص وهو مركبٌ مصريٌّ ، عربيٌّ ، إنسانيٌّ . هذا درسه الأول ، وربما كان درساً خلقياً يقدر ما هو علمي .

وشوقي ضيف - في زعمي - أعظم مؤرخ لتاريخ الأدب العربي في عصرنا ، وذلك في تلك السلسلة الجليلة من المؤلفات : العصر الجاهلي ، العصر الإسلامي ، العصر العباسي الأول ، العصر العباسي الثاني ، عصر الدول والإمارات في الجزيرة العربية والعراق وإيران ، وفي مصر والشام ، وفي الأندلس ، وفي ليبيا وتونس وصقلية . إزاء هذا العمل الجليل تتضاعل كل تواريخ الأدب السابقة في عصرنا ، بدءاً بجورجي زيدان ، وإنتهاً بأحمد حسن الزيات ، ومروراً بأحمد الإسكندرى . وكتاب بروكلمان بالقياس إليه لا يزيد إلا قليلاً عنه مجموعة من الفهارس المملاة ، ضرورية ولكنها مملة . ويلحق بهذه السلسلة ثنايتها الخطيرة عن الفن ومذاهبه في الشعر العربي ، والفن ومذاهبه في النثر العربي ، ففي هذه الكتب من الإحاطة الموسوعية ، شمول النظرة ، والألمام العميق بالمهاد الاجتماعي والفكري والسياسي للأدب ، والنظرة الحضارية المتكاملة ، واكتمال أدوات الناقد الأدبي ، واتساق المنهج وترتيب نتائجه على مقدماته - ما يجعل منها آخر عمل يمكننا الاستغناء عنه في بابه . لقد رسم شوقي ضيف لنا - نحن دارسي الأدب الأجنبية - خريطة دقيقة لتطور الأدب العربي ، بكل تضاريسها ومرتفعاتها ومنخفضاتها ، وبذلك يمكننا من رؤية الأمور في منظورها التاريخي الصحيح .

وكما اتسع شوقي ضيف أفقياً تعمق رأسياً . فهناك دراساته في جوانب بعينها من التراث كالتطور والتجديد في الشعر الأموي ، والشعر والفناء في المدينة ومكة لعصر بنى أمية ، والشعر وطوابعه الشعبية على مر العصور ، والبطولة في الشعر العربي ، والفكاهة في مصر .

وهناك فنون الأدب العربي التي قصر عليها كتبًا مستقلة مثل الرثاء ، والمقامة ، والنقد والترجمة الشخصية ، والرحلات ، والأدباء الذين أفردهم بالدراسة كابن زيدون ، والبارودي ، وشوقى ، والعقاد ، وأعماله فى الدراسات القرآنية ، والنحو واللغة ، وتحقيق التراث ، وتلك السيرة الذاتية الجميلة التى نشرتها له سلسلة (اقرأ) فى جزأين تحت عنوان (معى) .

ثم هناك كتابه الجليل الفائدة (البحث الأدبي : طبيعته . مناهجه . أصوله . مصادره) ، وهو عمل عميم النفع لطلبة الدراسات العليا لا فى أقسام اللغة العربية وأدابها وحدها وإنما فى كافة الأقسام ، حتى العلمى منها . وأشهد أن شوقى ضيف فى هذا الكتاب وغيره قد نمَّ عن معرفة وثيقة بالأداب الأجنبية ومناهج النقد الغربى ، فإن فيه صفحات نافذة عن هذه الأمور بدءاً بانقلاطون وأرسطو ، وانتهاءً باليوت ورشاردز ، ومروراً بسانت بيوف وتين وبرونتير وغيرهم . وهذه الثقافة العريضة المفتوحة على فكر الآخرين هي التى صانته من الإسراف فى المحافظة ووقفته شرًّا الجمود . لم يكن شوقى ضيف - فى تعامله مع الظواهر الأدبية - قطعياً بوجه انتقائياً منحصرًا فى مذهب بعينه . إن هذا المغروس ، حتى النخاع ، فى الثقافة الكلاسيكية العربية قد وسعه - بما أوتي من شمولية الذوق ، ورحابة النظرة ، وأريحية النفس - أن يكتب مقاله الماجد البصیر عن صلاح عبد الصبور ، وأن يقدم الأعمال الشعرية الكاملة لشاعر مرموق من شعراء التجديد هو أحمد سويلم .

لست أعرف شوقى ضيف شخصياً ولا يعرفنى . ولمرة الوحيدة التى التقينا فيها - ولم تدم غير دقائق - لم تكن المناسبة السعيدة ؛ فقد كنت أجلس فى حجرة أعضاء هيئة التدريس بقسم اللغة العربية فى هذه الكلية أنتظر أستاذًا بالقسم ضرب لي موعدًا هناك .

ودخل الدكتور شوقى ضيف الغرفة - وكان فيما يبدو ، يستخدمها فى ذلك الوقت من الأصيل فى التدريس لفصل صغير من طلبة الدراسات العليا - وحين رأى جالساً قال لي ماذا تصنع هنا ؟ وأجبته بكل ما ينبعى من أدب ، وإن تألمت ، فى دخيلتى ، كما هو طبيعى ، من هذا المدخل الجافى . لكنى لم أحملها له ، فإن أستاذًا عظيمًا مثله

علمى وعلم الآلاف غيرى لا تذهب بفضله خشونة عابرة ، ولعلى قد صنعت مثل ذلك مع آخرين مرة أو مرات فى حياتى وأنا لا أدرى . شوقى ضيف - وتلوخى الإيجاز - يمثل الدراسات العربية فى قمة نضجها وقد استوت على سوقة قوية عزيزة كريمة ، وإن تكن مياه كثيرة قد جرت تحت الجسر نظرية وتطبيقاً منذ بدأ الكتابة بمجلة (الرسالة) وهو طالب بالفرقة الثالثة فى هذه الكلية . إنه من القلائل الذين كرسوا حياتهم للعلم وخدمة هذه اللغة الكريمة والتمكן منها ، بحيث كان خادمها وسيدها فى آن واحد . وهو فى غزارة إنتاجه وحرصه على التجديد ويقظة ضميرة العلمى مثل أعلى ، يحسن بأبناء هذا الجيل - المتعجل قطف الثمرة قبل استوانها - صنعاً ، أن يتعلموا منه .

ويسعدنا أن نرى إقراراً بفضله فى مثل كتاب الدكتور عبد العزيز الدسوقي المسماى (شوقي ضيف رائد النقد والدراسة الأدبية) ، وكتاب (شوقي ضيف : سيرة وتحية) بإشراف وتقديم الدكتور طه وادى . شوقى ضيف - عندى - رجل من طبقة محمد متور ، عبد القادر القط ، وشكري عياد ، وصقر خفاجة ، وزكي نجيب محمود ، عبد الرحمن بدوى ، وتوقيق الطويل ، ولويس عوض ، ورشاد رشدى ، ومجدى وهبة ، وحسين مؤنس ، ومصطفى سويف . وإذا ذكرت هؤلاء الرجال فقد ذكرت - فى تقديرى - بعضًا من أهم القمم الفكرية التى بلغها الفكر المصرى ، بل العربى فى هذا القرن ، وذلك فى الجيل الذى أعقب جيل طه حسين العظيم ، والعقاد الأكثر عظمة .

لك الإجلال سيدى، ولك المثلية بما قدمت من علم نفعت به الناس، وأنثرت العقول ، وصقلت الأنواق . ولنا حق الاختلاف معك فى هذه النقطة أو تلك بل فى هذه المنطقة بآكملاها ، أو تلك من مناطق الدرس ، فإنما تصالح حياة العلم - بل حياة الناس - بهذا الاختلاف المثير الخصب .

الدكتور ماهر فريد شفيق

قسم اللغة الإنجليزية

كلية أداب القاهرة

٤٨ - منهج الدكتور شوقي ضيف وأراؤه في التعليم

أ. على الحديدي

إذا كان التاريخ السياسي للأمم هو سيرة السياسيين العظام ، فإن التاريخ الأدبي ليس سيرة الأدباء المبدعين وحدهم، بل يصنعه معهم كبار النقاد ومؤرخوا الأدب والباحثون والعلماء الذين يتوفرون على جمع التراث الأدبي يدرسونه ويلقون عليه الأضواء ، ويضعونه تحت مظار النقد والموازنة والتحليل ، ويكشفون عن قيمته ، ويظهرون أصيله وزائفه .

وكما تهتم الدراسات الأدبية بسيرة الشعراء المجيدين والكتاب المبدعين ، فإنها تهتم بنفس الدرجة بسيرة النقاد ومؤرخي الأدب والعلماء الذين وضعوا التراث موضعه السليم وأقاموه في مجرى الصحيح ، فجهودهم العلمية أو دراساتهم المبكرة أو نقديهم الكاشفة منارات على طريق الخلد لتراث الأدباء .

والتاريخ الأدبي لا يجري وراء الحقائق الجامدة من حياة الأدباء المبدعين والنقاد ، بل يبحث عن الصورة الأدبية فيما يكتنفه من الأحساس الداخلية في حياة الأدباء ويتاجهم ليصل إلى سر العبرية في الإنسان . والعبرية الأدبية ليست مجرد حظ تسوقه الأقدار في زمن مناسب ، وليس لها موهبة يمنحها الله من يشاء من عباده ، ولكن بالإضافة إلى ذلك ، لابد أن يواكبها جهد متواصل من تشقيق النفس ، وعمل شاق في الحصول على المعرفة ، وتعب وعرق في البحث والتنقيب حتى تحفر العبرية طريقها على درب المجد فيخلدها الزمان .

وكما يقال في المؤثرات : يأتي على رأس كل قرن مصلح يصنع الأحداث ويقود الأمة ويترك بصمات شخصيته على التاريخ ، فإنه بالتأريخ يمكن أن يقال : يظهر في كل

حقبة عالم أديب ومفكر نابه صاحب عقل مضىء وقلب مستثير ، يدرك المتطلبات الأدبية لزمانه فيلببها بما وهب من علم نافع وبصيرة نافذة وصبر متواصل وحس أدبي مرهف . وأدبنا العربي منذ بدأ النهضة الحديثة ، وبعد أن أحياينا التراث ودخلنا عصر التدوير ، كان في حاجة إلى من يدرسه دراسة مستوفاة ويؤرخ له تاريخاً منهجاً يوائمه العصر ويقيمه على مقاييس التحليل والتفكير ، وإذا كان العظماء من الأدباء والنقاد تستدعيمهم الحقب التي تحتاج جهودهم وعطائهم ، فإن القرن التاسع عشر استدعي جورجى زيدان فائز لأدبنا العربي عبر العصور متاثراً منهج المستشرقين ومتبعاً النمط الغربى فى دراسته .

وفي النصف الثاني من القرن العشرين ، وبعد أن قطعت بلادنا العربية شوطاً بعيداً في التحرر بفكها عن تقليد الأسلاف والعيش في ظلال القديم ، كما بعدهت في نتاجها الأدبي عن المحاكاة والتآثرات الأجنبية والاتهام بإبداع الدراسات المستوردة ، ظلت تترقب ميلاد عالم أديب وناقد متفتح يواكب العصر في تطوره ويمعن النظر في تراثنا الأدبي ، يدرسه بفكر عربي ثاقب ونظرة إسلامية مفتوحة ، ويؤرخ له بعقلية العالم المستبصر ، والناقد المفكر ، والعالم الخبير .

وكان على موعد مع القدر لحمل هذه الأمانة وأداء هذه الرسالة في زماننا عالم جليل متمكن من التراث العربي متمثل ثقافة عصره ، مدرك بفطرته السليمية وحسه الأدبي المرهف ونزعته العربية الإسلامية متطلبات أمتة ، ذلك هو أستاذ الأجيال الدكتور أحمد شوقي عبد السلام ضيف ، فقدم دراساته عن الأدب العربي وأرخ له في عصوره المختلفة ، متمثلاً نمطاً عربياً خالصاً ، غير محظى في منهجه دراسات الغربيين ولا مقلد مناهج علمائنا التراشيين ، وإن تأثر بذلك كله ، فجاعت دراساته ملائمة لعصره ، كافية عن ثقافته الموائمة لتفكيره . معيرة عن طابع شخصيته الإيجابية النزاعة إلى العروبة والإسلام ، ذلك الطابع الذي حفر بصماته على التاريخ لأدب أمتنا العربية ، وهي بصمات تظل مع السنوات والحب وال أيام .

وإذا كان أصحاب العبقريات من الأدباء والعلماء والنقاد هم الذين يكونون مجد الأمة الثقافية ، فإن سيرتهم يجب أن تحتل مكانتها المرموقة في خط سير تاريخها

الأدبي ، إذ إن الأجيال القادمة لن تستطيع أن تكتب تاريخ أمتها الأدبي الصحيح دون الاعتراف بالدور الحاسم الذي قام به هؤلاء العظام من الأدباء والقادة ومؤرخي الأدب في توجيهه مسيرة هذا التاريخ .

والدكتور شوقي ضيف - وهو صاحب كتاب «الترجمة الشخصية» ، وله باع طويل في مجال الترجمة والسير - يدرك كل الإدراك أن المرء لا يمكن أن ينعزز عن الشخصية التي يبدأ في اكتسابها بعد مولده أو لا عن عالم طفولته المؤثر في تكوين مراحله العمرية التالية ، ولا عن بيئته التي يعيش فيها ويتفاعل معها ولا عن الأحداث السياسية والاجتماعية في عصره . ومن هنا وحين كتب الدكتور شوقي سيرته الذاتية في كتابه «معي» عرض لذلك كله ، وألقى عليه الضوء ليظهر التأثير المتبادل بين الشخصية وعالم طفولتها ، وشبابها ، وشبابها ، وبيئتها التي نشأت فيها ، والأحداث السياسية والاجتماعية والثقافية التي عاشتها لنجد الشخصية المائة أمامنا حية ببنائها تملأ حاضرها المستقبل ، تشي بمواطن العظمة فيها وما تتمتع به من مواهب وقدرات في إطار من العواطف والانفعالات التي تعمق النفس البشرية .

وشخصية أحمد شوقي ضيف الفذة ليست إفراز هذا التأثير المتبادل وحده ، وليس كذلك مجرد حظ واتاه في بيئه علم ودين ، ولم تكون في لحظة تفتحت فيها أبواب السماء لدعوات والدين صالحين ، ولم توبخ لحسن طالع وفاته فنشأ في مكان أتيح له فيه الاختلاط بالعلماء والدارسين ، وإلا لظهر عشرات منه أتيح لهم أن يعيشوا نفس ظروفه ، لكن عظمة شخصيته تتمثل في شيء ينطوي على ذلك كله وفوقه أو قبله وبعده ، موهبة تعلو مواهب الآخرين ، وخصائص اكتسبها على مسيرة درب الحياة . وعلى الرغم من أنه فرد في مجتمعه العلمي الذي ينتمي إليه طالباً من طلاب الأزهر ، وتجهيزية دار العلوم ، وكلية الأداب ، ومحرراً في المجمع اللغوي ، وأستاذًا بالجامعة ، إلا أنه ينفرد بصفات قد لا نراها في كل طالب وكل محرر وكل أستاذ جامعي ، ولكنها صفات ومواهب تجمعت فيه فغير عنها وجعلتها أمامنا حقيقة مائة في شخصه .

ومن هنا كانت السيرة الذاتية للدكتور شوقي ضيف من الأهمية بمكان ، فهي تلقي الضوء على شخصيته في مراحلها المختلفة وتوجهها إلى مناحي التفكير عنده في

القضايا التي بثها في ثنايا هذه السيرة .. ومن هذه القضايا «قضية التعليم» فقد تبع سيرته في مراحل التعليم وتنقله بين المعاهد المختلفة بمناهجها المتنوعة ، يوضع في كل مرحلة ملامحها التعليمية ، ويدلى برأيه فيها ، أو يثبت وجهة نظر متصلة بها . ولعل ذلك ما دعا إلى أن يكون عنوان البحث «شوقى ضيف منهج وأراء في التعليم» .

التعليم في القرية المصرية :

من نسل شيخ أزهري فاضل ، وفي قرية «أولاد حمام» قرب مدينة «دمياط» خرج إلى الدنيا أحمد شوقى ضيف وليداً عام ١٩١٠ ، وفي بيت أبيه الشيخ عبد السلام ضيف ، الذي أتم تعليمه في المعهد الدينى بدミاط ، نشأ الطفل يسمع أباه في الصباح وأطراف النهار يتلو كتاب الله ويقرأ بعض الأوراد والأذكار . ويراه كل مساء يتحلق حوله المصلون من أهل القرية في المسجد ما بين صلاتي المغرب والعشاء يعلمهم ويفتيمهم في أمور دينهم ويشير عليهم في شؤون دنياهم . وفي حجر أم صالحه بارة بزوجها تذكر الله ذكرًا كثيرًا ، تربى الطفل ، وكانت به حفية ، تعطف عليه وترعاه وتحبيه بالحنان من قلب يفيض بالحب والخير للبشر جميعاً ، يردد ذلك إرادة حازمة صلبة كانت وكأنها تورثها صغيرها فيما ورثته من الخالل الحميدة .

في هذا الجو المشبع بالروح الدينية والمفعم بالحب والرحمة والحنان تفتح قلب الطفل أحمد شوقى ، يستمع فيه إلى كتاب الله يتلى كثيراً وينصب إلى اسم الله يتربد دائمًا ، فينقش في صدره وتترسخ القيم الدينية في وجده ، وتنقطر في قلبه محبة الخير لأهله والناس جميعاً . وما إن بلغ الصبي السادسة من عمره حتى التحق بالمدرسة الأولية في قريته «أولاد حمام» وكانت قرية سعيدة الطالع موفورة الحظ بين قرى مصر آنذاك بكل المقاييس ، ومن هذه المقاييس :

١ - في العقد الثاني من القرن الحالى لم يكن في هذه القرية فروق طبقية بين الموسرين من أهلها والمعسرین منهم ، فالجميع فيها سواء ، يشتغلون في كل شيء اشتراكهم في الماء والهواء ، و تقوم صلات الرحم والقرابة بين أهلها بالربط بينهم ،

وكأنهم أسرة واحدة ، مع أن بينهم ملائكة وأجراء ، وصبيانين ووجهاء ، ومنهم الموسرين والفقراء .

٢ - طبقة «أولاد حمام» فكرة الإلزام في التعليم أوائل هذا القرن . فذهب إلى مدرستها الأولية كل الأبناء ، وكان التعليم مظهراً من مظاهر المساواة والتآخي بين أهلها ، فلم تكن هناك مدارس خاصة ببناء الموسرين ، ولم يكن يوم المعلمون قصور الأغنياء ودورهم لتعليم أبنائهم ، بل كان ينتظم أبناء «أولاد حمام» جميعاً بالمدرسة الأولية الوحيدة بها .

٣ - كانت «أولاد حمام» تقدمية في تفكيرها ، فعرفت التكافل الاجتماعي في التعليم بحيث إذا ظهر أحد أبناء الأجراء أو الصيادين الفقراء من أهلها استعداداً واضحاً للتبع وتفوق فتحت أمام استكمال تعليمه الأبواب .. اعتزازاً من القرية بالتفوق والنبوغ .

٤ - سبقت «أولاد حمام» بتفكيرها أوائل هذا القرن ، قرى مصر بل كثيراً من مدنهما ، بأن جعلت التعليم في مدرستها الأولية مختلفاً يتعلم فيها البنون والبنات ويختلط فيها الذكور والإثاث اختلاطاً طبيعياً ، وكأنها استجابة مبكرة لفكرة الاختلاط في التعليم .

ذلك الذي كان يحدث في قرية «أولاد حمام» هو حالة خاصة ولم يكن حالة عامة في قرى مصر كما يرى أستاذ الأجيال (ص ١٧) ، ففي هذه الحقيقة من تاريخ مصر ، كانت الطبقة تضرب بجرانها على أكثر قرى مصر ، يفرضها الإقطاعيون والأغنياء وطبقة الحكم وبقايا الأسر التركية مالكين للأرض ومن عليها من البشر متحكمين في مصادر أرزاق يسوقون المواطنين بسياط التحكم والسيادة . وأكثر هؤلاء لا يلحظون أبناءهم وبناتهم بالمدارس الأولية بالقرية بل يذهبون بهم إلى المدن القريبة أو إلى القاهرة ليتatemوا في المدارس الابتدائية . ومن وهب من الموسرين ابنًا للتعليم الديني في الأزهر ومعاهده ، يذهب به إلى الكتاب لتعلم القراءة والكتابة وحفظ القرآن الكريم ، وقد يذهب معه إلى الكتاب قلة من أبناء صغار المالك من الفلاحين . أما أبناء العامة من الأجراء أو الصيادين والفقراء فلم يكونوا يعرفون إلى الكتاب أو المدرسة طريقاً ،

بل يقضون طفولتهم يتخبطون في عمى الجهل وذل الفقر حتى تستوعبهم الأعمال الصغيرة في المقول ، ثم يلحقون بأهلهم أجراً وصيادين وفقراء ، وأنى للفلاح الفقير أو الصياد المسكين «مسانية» سيدنا أو مصاريف المدرسة الأولية^(١) ؟ والفلاح كما يقول الدكتور شوقي : «قد ضاق رزقه واشتد ضيقه حتى لم يكن يملك سوى جلبابه الأندق الذي يلبسه طوال العام وفأسه الذي فلح به الأرض» (من ١٧) .

وعلى الرغم من تفوق «أولاد حمام» على كثير من القرى المصرية في التفكير والتعليم والاختلاط وتكافؤ الفرص بين أبنائها والمساواة بين أهلها ، إلا أن المدرس بمدرستها الأولية آتذاك ، كان يعيش بعقلية مدرس أولاد النبلاء الأوربيين في القرون الوسطى . إذ كان النبيل الصغير يذهب إلى المدرسة ومعه خدنه من العبيد ، فإذا ما أخطأ السيد عوقب العبد ، وكذلك كان يفعل مدرس المدرسة الأولية «بنوأولاد حمام» أو شيئاً شبهاً بذلك أو أشد منه ، فلم يكن المدرس يستند على التلامذة في التعليم مستخدماً أدوات العقاب عنده عصاً ، أو مقرعة ، أو مسطرة من حديد بأسها شديد ، بل كان يكتفى تخويفاً لهم بأخذ ابن له معهم بالشدة بل بالقصوة المتناهية حين يخطئ أو يفلط ، فإنه كان حينئذ يعاقبه عقاباً شديداً ، مؤثراً ضربه بالمسطرة الحديدية حتى لا يعود إلى غلطه أو خطئه ، وكثيراً ما كان يعود فيضربه بالمسطرة من جديد ، ويظل التلاميذ يشعرون بخوف ما بعده خوف (من ١٩) .

وفي قرى مصر كم ضرب التلامذة آتذاك في المدارس الأولية إذا أخطأوا بعصا من خيزران أو بعود من أعواد الحطب أو بمساطر خشبية على أيديهم وأصابعهم وأبدانهم وسيقاتهم ، وكم رفعت أرجلهم في «الفلقة» وضربوا بالمرقعة إذا تكرر خطؤهم أو أهملوا ما كلفوا حفظه ، ولكن حين يأتي التذير بطلعة المفتش راكباً حماره واضعاً «منديلاً محلولاً» تحت عمامته أو طريوشة ليحميه من هجير الشمس وسبيول العرق ، تختفي المساطر والعصى والفلقة والمرقعة . ويخطيء التلاميذ أمام المفتش ويتكبر الخطأ ولا ينالهم من مدرسيهم عقاب ، ويفرح الأطفال بزيارة المفتش فرحاً

(١) المسانية : مقدار من القمح أو الشعير أو النرة يقدم لسيدنا ، صاحب الكتاب سنوياً عند الحصاد من كل متعلم حسب طاقتة . أما مصاريف المدرسة الأولية فكانت ثلاثة قرشاً عن كل عام في ذلك الوقت .

شديداً إذ لا ينالهم من المدرسين الأشداء القساة عقاب أثناء الزيارة ، بينما تصفر وجوه المدرسين خوفاً ورهبة من المفتش وتقاريره وكتاباتهم تلامذة يخافون الامتحانات .

وقد يجيب ذلك على تساؤل الدكتور شوقي : إن كانت الهيئات المشرفة على التعليم الأولى في مصر آنذاك تحرم أو كانت تحل ضرب التلاميذ ضريراً مبرحاً ، فضلاً عن ضربهم بمساطر من حديد بأسها شديد (١٩) .

التعليم في الكتاب :

بعد أن نزحت أسرة الصبي أحمد شوقي ضيفاً إلى دمياط انتظم وهو يخطو في السنة التاسعة من عمره في كتاب ملحق بجامع البحر هناك ، وفي أقل من عام حفظ القرآن الكريم وصار يتلوه تسميعاً دون لحن . وفي تواضع العلماء نفي الدكتور شوقي أن يكون في حفظ القرآن الكريم جميعه في العاشرة تبكيه . لكن واقع التجربة يؤكد أن الصبية في حفظ القرآن بالكتاتيب أقسام : منهم النادرون من أصحاب الحافظة الخارقة وهولاء يحفظون قبل العاشرة ، ومنهم المتميزون وهم قلة من أصحاب الذاكرة الواعية يحفظون في العاشرة ، أما الكثرة فقد كانوا يتمون حفظه ما بين الحادية عشر والثانية عشر ، ومنهم من كان يتأخر به حفظه إلى الخامسة عشرة أو السادسة عشرة ، ومن هنا حدد الأزهر الشريف في قانونه الذي صدر في الثلاثينيات من هذا القرن إلا يقل سن القبول بمعاهده عن الثانية عشرة وقد تزيد إلى السادسة عشرة .

والحق أن التميز الذي تلقاه في الكتاب للصبي أحمد شوقي لم يكن في حفظ القرآن الكريم في العاشرة فقد يشاركه في ذلك صبية آخرون ، لكن التميز الجدير بالتنمية والإشادة هو ما انفرد به من حفظ القرآن الكريم كله في أقل من عام ، ولابد أن يكون ذلك محصلة لذاكرة لاقطة وحافظة واعية هبة من الله سبحانه وتعالى ظلت تصاحبه طوال عمره المديد .

وتميز آخر لم يتمكن تواضع العلماء من إخفائه عن قراء كتاب «معي» ذلك هو توقف الصبي مراراً وهو في العاشرة من عمره متأنلاً في معاني بعض الآيات الكريمة .

ومن ذلك تأمله وتفكيره في قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَاحذِرُوهُمْ ﴾ ، فقد كان يعجب ويسائل نفسه كلما تلا هذه الآية الكريمة : هل تصبح الزوجة مبغضة لزوجها والولد مبغضًا لأبيه ، ومبغض العجب أنه يرى أبيه متعاطفين متواطدين متالقين ، لكن نفس الصبي كانت تهدأ حين يجد ما بين والده مطابقاً للآية الكريمة الأخرى : ﴿ وَمَنْ آتَاهُنَّ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا تُسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوْدَةً وَرَحْمَةً ﴾ ، هذا التأمل في آيات الله البيات ، وذلك التفكير في محاولة استكشاف معانيها ومطابقتها على مجريات الواقع في أسرته تميز لا يصل إليه في هذه السن - دون عدة من علم أو معرفة - إلا النبوغ المبكر ، والذكاء الورقان ، والقدرات الخاصة ، والبصيرة الكاشفة التي وهبها الله أستاذ الأجيال منذ كان في العاشرة من عمره .

ويعقد الدكتور شوقي مقارنة بين ما كان يحصله الناشئة في التعليم الابتدائي وما يحصله أندادهم في الكتاتيب المصرية ، ويرى أن ما يحصله الآخرون حصيلة كبيرة ، فقد كانت تعود ناشئتها - بದأتها على حفظ القرآن الكريم في بوادر الحياة - بذل الجهد الشاق في التحصيل والدراسة ، أما ناشئة التعليم الابتدائي فما يحصلونه حتى نهاية المرحلة في الثانية عشرة يبدو في رأيه ضئيلاً . ومن ثم أننا نهدر في تعليمنا الابتدائي قدرات عقلية على التحصيل لأبنائنا في سنواتهم المبكرة لا تستغلها بالصورة المأمولة (ص ٤٢) .

ولا ريب في أن حصيلة ناشئة الكتاتيب من حفظ القرآن الكريم حصيلة عظيمة بكل المقاييس ، فهو مشحذ للذاكرة ، ويعاث على بذل الجهد والجد في مستقبل الدراسة ، ومصحح للنطق وضابط لخارج الحروف ، ومعين على الدراسة اللغوية والعربية ، لكن تلامذة الكتاتيب كانوا متفرغين صبابهم ومساعهم لهذا الهدف وحده فهو شغلهم الشاغل منذ أن يضعوا أقدامهم في الكتاتيب إلى أن يخرجوا فيها فتقرق بهم السبيل ، فإذا ما واصل فريق منهم التعليم فليس أمامه إلا الأزهر وللقبول به شرط واحد هو حفظ القرآن الكريم . أما ناشئة التعليم الابتدائي أندادك فقد شغلتهم المناهج الدراسية بمفرد مختلفة منها اللغة العربية والمحفوظات والإنشاء والقواعد والإملاء والخط ، ومنها التربية الدينية وفي منهجها حفظ بعض أجزاء من القرآن الكريم ، هذا

إلى جانب التاريخ والجغرافيا ومبادئ العلوم والحساب والتربية الوطنية . وفوق ذلك كله تعليم اللغة الإنجليزية على يد «خواجات» من أهل اللغة . وكان شرط موافقة التعليم في المرحلة الثانوية هو الحصول على الشهادة الابتدائية بالنجاح في كل هذه المقررات . وأكثر الآباء من ميسوري القرى وصغار الملوك كانوا يفضلون أن يلتحق أبناؤهم بالكتابيب قبل التحاقهم بالمدارس الابتدائية فيحفظون قدرًا من القرآن الكريم ثم يحصلون العلوم الأخرى في المدارس الابتدائية وغيرها ، ومن هنا جاء قول الدكتور شوقي : «ولعل نبوغ مفكرينا العظام في القرن الماضي وشطر من القرن الحاضر يرجع إلى ما تعوده في الكتابيب من بذل كل طاقاتهم في استظهار الذكر الحكيم . وكان هذا البذل والجد في التحصيل يظل ملازمًا لهم لا يزايلهم طوال التعليم حتى تعليمهم الجامعي أو العالي (ص ٤٢) .

التعليم في الأزهر الشريف :

وفاء بهبة الصبي أحمد شوقي للعلم ، ألحقه أبوه بالمعهد الديني في دمياط ، وي ragazzi الصبي ، في أول درس يتلقاه بالشيخ المدرس يطلب منه أن يردد وراءه ما يقرأ من متن الأجرمية : «الكلام هو اللفظ المركب المقيد بالوضع» ، ولم يحاول الشيخ أن يشرح للصبي ورفاقه العبارة المرددة ، بل أخذ في إعرابها والصبي يردد خلف شيخه دون أن يفهم ما يقال ويردد ، فلم يكن قد سمع من قبل شيئاً عن هذا الإعراب الذي اشتتمل من أبواب النحو : المبتدأ والخبر والنتع والجار والمجرور . لكن العام الدراسي لم يدر حتى كان الصبي قد عرف النحو العربي معرفة واضحة ، وتمثل الهيكل العام لقواعديه تمثلاً حسناً على يد الشيخ بطريقته التي لم تستخدم وسائل التربية الحديثة (ص ٥١) .

ويعجب الدكتور شوقي من هذا الذي يعز على الفهم والتفسير ، وهو أن تتبع طريقة الأسلاف ، وهي لا تسير على الطرق التربوية الحديثة ، في تعليم النحو بواسطة م-tone ومختصراته فتتمثأ الناشئة الأزهرية ولا تجد فيه عسرًا ولا مشقة ، بينما تتحقق الطرق التربوية الحديثة في المدارس الابتدائية في تعريف ناشئتها بال نحو ، بل أنهم

يخرجون من التعليم الثانوى بعد سنوات وهم لا يحسنون فهمه ، وكأنما عقود النحو المتراسة فى المتون الأزهرية - فى رأى الدكتور شوقي - نقضتها الطرق الحديثة فسقطت بعد حياتها أو ضلت مكانها ، فضاع على تلاميذ المدارس سياق النحو ونسقه القديم ، وأصبح متذرعاً عليهم إتقانه فهماً وإعراباً .

ولعل الأمر يحتاج بيان الفروق بين الناشئين وإيصال الملابسات التى تكتنف كل طريقة ، وبذلك قد يزول عجب أستاذنا الكبير .

ومن هذه الفروق وتلك الملابسات ما يلى :

١ - اختلاف السن الزمنى والإدراكي بين الناشئين ، إذ يتحقق هذا بالتعليم الابتدائى فيما بين السادسة والسابعة ، بينما يتحقق الآخر بالمعاهد الدينية فيما بين الثانية عشرة والخامسة عشرة ، ولا شك فى أن إدراك طفل فى السابعة غير إدراك صبى فى الثانية عشرة .

٢ - يدرس تلاميذ المدارس الابتدائية اللغة العربية بفروعها مقرراً دراسياً واحداً له عدد محدود من الساعات فى الأسبوع وجدول الدراسة مليء بالمقررات غير اللغة العربية ، ولا ينال النحو من ذلك كله أكثر من ساعة أو مثل ذلك كل أسبوع ، بينما يكرس طالب المعاهد الدينية عمره الدراسى فى تعلم النحو والعلوم الدينية ، وينال النحو نصيب الأسد من ساعات اليومية الدراسية .

٣ - الطريقة التقليدية التقليدية التى تعلم بها الصبى أحمد شوقي النحو العربى لا يصبر عليها ليتمثل محصلتها إلا ألو العزم من طلاب المعاهد الدينية ، وهم الذين أوتوا الموهبة والذكاء والإدارة والتصميم ، وفوق ذلك يرزقون بشيخ مدرس على قدر من الفهم لهذه العقول الفضة وله نصيب من البصر بتوضيح هذه المعلومات الجافة وتقسيرها لتنفتح لها الأذهان المبتدئة . والقليل من الطلاب هم الذين أوتوا هاديين الميزتين . ولعل الشيخ «محمد عبده» خير مثل من افتقد الثانية من الميزتين ، ذلك أن شيخه بالجامع الأحمدى بطبططا لم يكن يتحلى بالصفات السابقة فهجر تلميذه العلم بعد أن استعصى عليه فهمه واستغلقت عليه دروبه ، وهرب إلى بلدة أخواله ، ولم يعد إلى التعليم إلا بعد أن قيض الله عالما من أحواله أخذه بالحسنى والصبر وفسر له

المغلق حتى تفتح له ذهنه ، ووضح له الصعب حتى استسأله ، وشرح الله صدره للعلم ، وصار يدرك بعد عودته إلى حلقات الدرس حال زملائه وما يعانون من عدم الفهم لما يلقى عليهم فيأخذ بعد كل درس في شرح ما تلاه شيخه وصعب على رفقاء فهمه .

أما الكثرة الكاثرة ، فقد كانوا يرددون القواعد النحوية وإعرابها وشوهدما ويحفظونها عن ظاهر قلب دون أن يتمثلوها أو يعرفوا توظيفها خارج هذه الشواهد المحفوظة ، ومن ثم «يقوم حجاب بينهم وبين التحو وقواعد» ، ويظلون طوال حياتهم يتغشون فيه شاعرين أنه شيء معقد ، فلا يعرفون التعامل معه ولا يستقر في نفوسهم ولا يتهموا لهم أن يفهموه يوماً ، أو يوظفوه في لغة الحياة .

ولعل الأخطاء النحوية الكثيرة التي تضمنتها رسالة الشيخ العدو الشهيرة - وهو من كبار العلماء - إلى الشيخ محمد عبده يوصيه بأحد تلاميذه ، ولعل أبا على الشلوبين الأندلسى العالم النحوى فى القرن السابع الهجرى الذى لم يكن يقيم جملة صحيحة دليلاً على أن حفظ القاعدة وإعراب شواهدها المعروفة شيء ، وتوظيفها فى لغة الحديث والكتابة وأمور الحياة شيء آخر .

والطالب الصبى أحمد شوقي كان من القلة التى أتتىت الحُسْنَى ، بل كان حالة خاصة ، والحالات الخاصة لا تكون مقياساً تعمم نتائجها ، فقد وهب الله من الصبا ذكاء حاداً وذاكرة لاقطة وإرادة مصممة وقدرات خاصة لفهم ، وقيض له مع شيخه المدرس والده الشيخ عبد السلام فأخذ بيده فى فهم ما غمض عليه ، وقام مقام العالم الذى هياه الله للشيخ محمد عبده فشرح الله صدره للعلم والفهم .

ولم يدر العام الأول فى المعهد الدينى حتى عرف النحو العربى معرفة واضحة . وذلك ما رشحه فى عامه الدراسى الثالث كى يقرأ الدرس ليلاً لشيخ النحو والصرف قبل أن يلقىه فى حلقة الدرس صباحاً . كما أن موهبته الفذة فى النحو جعله وهو فى السنة الثالثة الابتدائية بالمعهد الدينى يفك فى أن يؤلف فى عام ملخصاً لكتاب «قطر الندى وبل الصدى» - وهو الكتاب المقرر - جامعاً بينه وبين شروحه . بذلك كان أول كتاب يدخل به الدكتور شوقي عالم التأليف (ص ٥٨-٥٩) .

ونبوغ الطالب أحمد شوقي في المعهد الديني وقدراته العلمية وهو صبي لم تقف عند علم النحو ، بل ظهرت كذلك في الشق الآخر من العلوم التي كرس طلاب المعاهد الدينية حياتهم الدراسية لها فعكف على فقه الشافعية يقرأ متونه وشرحه وشرحه الشرح المسماه بالحواشى ، ثم التعليقات على الحواشى المسماه بالتقارير ، وكان يجد متعة لا تعددها متعة في قراءة ذلك كله ليكون مستعداً لمحاورة شيوخه ومناقشتهم وإزالتهم بحجه ، واشتهر بين رفقاء بمحاوراته فأطلقوا عليه اسم عالم جليل شهير من علماء الشافعية هو العز بن عبد السلام (٦٠-٥٩) .

والحق أن الطريقة التقليدية التي كانت سائدة في الأزهر ومعاهده آنذاك لا يمكن أن توصف بالعمق ، والدليل قائم في علمائنا الأفاضل الذين درسوا في الأزهر وتبقوها في تاريخنا المعاصر والقريب ، لكنها كانت تؤتي ثمارها حين يتتوفر لها العنصران : الطالب الذكي الداعب الشغوف بالعلم ، والشيخ ذو البصيرة والجلد القادر على شرح المعلومات وتيسيرها لطلابه. أما أهم ما يميز هذه الطريقة على الطرق التربوية الحديثة في تدريس النحو فذلك أنه يعرضه للطلاب عرضاً كلياً كل عام فيلمون منه بهيكلاً موجزاً في السنة الأولى ثم يتسع في كل سنة ، وبذلك تتكرر صوره أو يتكرر هيكله فيستقر في أذهان القلة الوعية من الطلاب الأذكياء ويرسخ في عقول من لهم استعدادات وقدرات خاصة لفهم ومن هم شغوفون بالنحو ، ودراسته على يد شيخ له مواهب المدرس الناجح . وهذا ما تعجز عن تحقيقه المدارس الدينية لضيق الوقت المخصص لدراسة النحو ، وقصور منهجها في اللغة العربية ، وضعف مستوى المدرسين .

هذه الطريقة التقليدية - كما يراها الدكتور شوقي - كانت مشحونة كبرى لعقل الطالب الأذكياء فهي تبدأ بالفكرة المختصرة ثم تتتابع فتتسع كلما تقدمت بالطالب سنوات الدراسة ، كما أنها تثير صوراً من المعارك الجدلية في مختلف العلوم والفنون وخاصة في الفقه وعلم الأصول والنحو والبلاغة ، وهي تعتمد على ما أثاره الأسلاف في شرحهم وحواشيبهم وتقاريرهم وعلى ما يثيره الطلاب وشيوخهم من آراء واعتراضات فتزيد العقل العربي خصوصية وغنى . ولا ريب في أن هذه المعارك الجدلية وتلك الآراء والاعتراضات كانت تتيح للأزهريين قدرة في تبيان احتمالات النصوص ،

فصاروا لا يسكنون لتقدير المعرف ففي يسر ، بل يحاورون ويجادلون فيما يلقى إليهم أو يسمعونه طلباً لتبيان الحقائق العلمية تبيناً دقيقاً (ص ٦٧-٦٨) .

وكم رغب الدكتور شوقي في أن تظل هذه الطريقة التعليمية قائمة بالأزهر ومعاهده حتى يستمر لطلابه قوة الجدل ودقة البرهنة والنفوذ إلى دقائق الأفكار ، بل تمنى أن ينشأ في كليات الآداب والحقوق وغيرهما على نسق ذلك علم يسمى «احتمالات النصوص» تدرس فيه الوجوه المختلفة لفهم النصوص الأدبية والفلسفية والقانونية والاقتصادية والسياسية .

وعرف الفتى أحمد شوقي ضيف فيما عرف من طرق الدراسة بالأزهر الطريقة الحرة بالقسم العام غير النظامي ، وكان يتبعها بعين الرضا والإعجاب ، فهي نظام ضارب في القدم مع تاريخ الأزهر يحاضر فيه الشيوخ النابهون بعد صلاة الصبح في الجامع الأزهر وفي المساجد الشهيرة ، كل فيما تخصص فيه وبنبه ، وكل منهم حلقة وجمهوره من العلماء والطلاب والشبان من مختلف الأوساط الثقافية . وطلاب هذا النظام غير مقيدين بحضور أو غياب ، وهم أحرار في اختيار الحلقة التي يوبن الانضمام إليها وفي التزود من هذا الشيخ أو ذاك ، وفي الاستماع إلى درس الفقه أو التفسير أو النحو .. أو غيرها من مختلف العلوم السلفية التي تدرس في الحلقات ، كما أنهم غير مقيدين بعدد من سنوات الدراسة أو بامتحانات آخر العام ، بل يظل الطالب يتربّد على الحلقات العلمية حتى يائس في نفسه أنه نال قدرًا يرتفع به إلى مصاف الشيوخ ، ويرى في نفسه القدرة على أداء امتحان الشهادة العالمية فيتقدم إليها وتشكل له لجنة من كبار العلماء يختارون له موضوعاً في الفقه أو النحو أو الأصول .. أو غيرها من العلوم التي يجب أن تزود بها العالم ، ويحددون له موعداً يناقشونه فيه وتطوف مناقشة المتخمين بكل ما درس في الأزهر يسبرون أغوار المقدم في العلم ، أو يتعرّفون كفأته فيه ، أو يتبيّنون مدى صلاحيته لشرف نوال «شهادة العالمية» ذات القدر الجليل .

وكأن الجامعات في أوروبا وأمريكا في رأي الدكتور شوقي قد نظرت إلى الطريقة الأزهرية الحرة غير النظامية فأخذت بشيء منها وطورتها إلى نظام الساعات المعتمدة، ونظام الفصول . بل من رأيه أن الطريقة الفصلية ونظام الساعات المعتمدة وإن التقى

بالطريقة الأزهرية القديمة إلا أن الأخيرة كانت أوسع حرية ، وكان حرياً بمن أنشأوا التعليم الجامعي في مصر أن يقيموا منذ إنشائه بالطريقة الأزهرية فيسترشدوا بها كما استرشد بها طه حسين ، حين أصبح عميداً لأداب القاهرة ، وأنشأ نظام «المستمع الحر» من غير طلب الكلية . غير أن نظام طه حسين لم يؤت الثمرة المرجوة لفقدة الغاية الواضحة منه - كما كان ينبغي أن تقييد بعض الكليات الجامعية من طريقة هذه المحاضرات غير النظامية ، فيلقى كبار العلماء المتخصصين في كل كلية محاضرات عامة يحضرها المثقفون والمتخصصون والعلماء والطلاب من المهتمين بكل تخصص ، فيرون مشاهد رائعة من عقليات نضجت بالبحث والتجربة تترى عقول الشباب وتقنى تجارب المتخصصين والعلماء (٨٣-٨٥) .

آراء في التعليم الجامعي :

على الرغم من المتعة الكبرى التي كان يجدها الطالب أحمد شوقي خليف طوال الأعوام الستة التي قضتها بالمعهد الدينى في مراجعة الشروح والحواشي والتقارير ، وعلى الرغم من السعادة التي كان يجدها في الجدل والحوار مع شيوخه ، وعلى الرغم من تميزه وموهبته في فهم الكتب الأزهرية ومن إعجابه بطرق الدراسة بالأزهر إلا أنه لم يجد نفسه في هذا اللون من التعليم ، فما أن أتيحت له فرصة القراءة الحرة في المقالات الأدبية التي كانت تنشر في الصحف المصرية والمجلات الأسبوعية اللبنانيّة والتي لا يجد مثيلاً لها في دراسته الأزهرية حتى استولت على قلبه وتملكت عليه لبّه ، ولم يصمد نبوغه في النحو ولا تفوقه في الفقه ولا متعته في الحوار والجدل أمام التيار الجديد الوارد على عقله وقلبه مع المقالات الأدبية في الصحافة .. ذلك الذي سوى في كيانه ، فأخذ يعمل في نفسه ويثير رياح التغيير في مساره الدراسي ، وكان تأثير المقالات الحرة في الأدب أكثر فعالية من القراءة في المدون والشروح والحواشي والتقارير ، ففكّر في الالتحاق بتجهيزية دار العلوم .

ترى هل اكتشف الفتى أحمد شوقي ميوله نحو الدراسات الأدبية مبكراً ، أم أنها الرغبة في ارتياح طرق تعليمية أخرى يسبر بها مجالات التفكير في نواحي الجمال

والوجودان والتحليل بعد أن ظل سنوات محصوراً في مجالات الحفظ والجدل وال الحوار والتحصيل ؟ أم ترى أنها ثورة خفية على الطريقة التقليدية الأزهرية سرت إلى من طه حسين الذي قرأ له في الصحف فأعجب بأسلوبه لسهولته ونصاعته ويسرها وكان قريباً إلى نفسه لأنه بدأ حياته أزهرياً مثله ؟ أم أنها الرغبة في التجديد بعد أن ارتكى من التقليد ؟ أم أن قدرًا خفيًا يقود خطاه إلى الموعد المضروب بينه وبين المجد في الحياة الأدبية في مستقبل أيامه ؟ أياً كان السبب الذي نسعي جاهدين ظناً وتخميناً لجلائه فإن الدكتور شوقي حسم الموقف حين أوضح «أنه ظن أن دار العلوم ستتساعد في تكوينه الأدبي بأكثر مما تساعده الدراسة الأزهرية (ص ٨٠) ولا اجتهاد مع النص .

التحق الطالب أحمد شوقي ضيف بتجهيزية دار العلوم ، وكان يعلم فيها صفة ممتازة من شيوخ تخرجوا في مدرسة القضاء الشرعي «عاطف بركات» الذي تخرج في دار العلوم وتعلم في إنجلترا وعاد بأفكار جديدة علمها تلاميذه ، وبدورهم كانوا حريصين على أن يثبتوا في طلابهم بالتجهيزية هذه الأفكار ، ولفتوهم إلى ما كان يكتب في الأدب من مقالات في البلاغ والسياسة الأسبوعية وفي مجلتي الهلال والمقطف ، ودفعوا الطلاب بقوة إلى مناقشتهم في كل ما كانوا يلقونه على سماعهم من دروس في شكل محاضرات لا قراءة في الكتب على الطريقة الأزهرية .

ثم انفتح للشاب شوقي ضيف باب آخر من أبواب التعليم والدراسة ، إذ قررت كلية الآداب ، وعميدتها طه حسين ، قبول طائفة من خريجي التجهيزية وأخرين من حملة الشهادة الثانوية الأزهرية طلاباً بقسم اللغة العربية ليتزويدوا بأدوات البحث الحديثة في الأدب والنقد ، فيتخرج جيل يتقن العربية ويفقه أسرارها فقها سليماً يجمع بين القديم والجديد أو بين الدراسات القديمة والدراسات الحديثة ، وسارت به الأعوام في كلية الآداب مع أساتذة الأعلام يفتتحون له أبواباً من العلم بطرق لم يأتُوها في الأزهر ولا في تجهيزية دار العلوم ، فهذا «إبراهيم مصطفى» يدرس النحو لطلابه بطريقة جديدة تعتمد النقد والتحليل والتاريخ وتخلصه من شوائب الكثيرة التي تجعله أشبه بفابة ملتفة . وذلك «أمين الخولي» الذي يجمع ما بين القديم والجديد ويكره الجمود ويحب التجديد محاولاً اصطدام نهج جديد في تدريس البلاغة ، وكان يدفع بطلابه إلى نقد كل ما يقرئون أو يسمعون ، وكان يتقبل أفكارهم فيما يدللون به من آراء

بصدر رحب وأفق متسع . وكان «أحمد أمين» من الأساتذة المحبوبين إليه جمع بين الثقافتين القديمة والجديدة يحاضر في الحياة العقلية الإسلامية ، ويتعمق وصف الظواهر العقلية للأمة العربية وما وضعته من علوم وما صاغته من أفكار . وجاءهم الشيخ «مصطفى عبد الرانق» فشق الطلاق بمحاضراته في الفلسفة الإسلامية شفقاً كبيراً ، وكان يجمع بين المحافظة وخير ما فيها والتجديد وخير ما فيه ، واستظهر إلى أقصى حد شخصية أمته الإسلامية العربية المصرية مع التزود بالفكر الغربي الحديث ، وكان من شأن ذلك أن يجلو هذه الشخصية ويزيل خصائصها العقلية، أما طه حسين فكان أحبأساته إليه ، وكانت محاضراته وصوته فيها مهوى الأفئدة، وكان يضيف إلى ملكته الأدبية الخصبة اختيار الكلمات ، وبث نسقاً صوتياً بديعاً يقوم على حسن الأداء واقتداره الجرس فيه حتى يبهر السامعين .

وفي عام ١٩٣٦ انتقل الشاب أحمد شوقي ضيف إلى صفوف المعيدين بقسم اللغة العربية بكلية الآداب . وقضى عاماً يبحث في موضوع يتقدم به لنيل درجة الماجستير ، وكان يأمل أن ينشر مخطوطات التراث النجدى القديم لكن الظروف لم تواته ولم يستطع الحصول على مصادر المخطوطة من جهاتها المختلفة ، فعدل إلى موضوع جديد هو «النقد الأدبي في كتاب الأغاني لأبى الفرج الأصفهانى» ، وحصل به على الماجستير . وعرض عليه أستاذه طه حسين موضوعاً يبحث فيه الحصول به على درجة الدكتوراه وطلب إليه ألا يبيت فى قبوله قبل أن يبحثه من كافة جوانبه وبعد القراءة والبحث تكشفت للباحث الشاب وجهة نظر أخرى تبعتها نفسه ورأها جديدة بالدراسة فعرضها على أستاذه الذى ارتضى تصوّر تلميذه وخطّة بحثه ، وأكبر فيه عمق التفكير واستقلال الرأى ولم يصدر منه بادرة تدل على عدم الرضى لانصراف تلميذه عن الموضوع الذى اقترحه .

ومن هذه التجربة وتجارب الأيام وأعمال الفكر يرى أستاذ الأجيال أن طالب الدراسات العليا يجب أن يضع في ذهنه وهو يختار موضوعاً لبحثه أمرين : أولهما : ألا ينتظر حتى يقترح عليه أستاذه موضوعاً يعنيه ليبحث فيه ، بل عليه أن يقرأ ويبحث في حقل تخصصه حتى يهتم إلى عدة خيارات في موضوعات متعددة يعرضها على أستاذه .

ثانيهما : إذا ما اقترح عليه أستاذه موضوعاً بعينه يؤخر التسجيل فيه حتى يسبر غوره ويختبره بالبحث والتعقيم لتتضاعف له معالمه وتستبين له مادته ، حينئذ يفكر في مدى قابلية درغبته في المضي قدماً معه ، وفي إمكانات البحث عنده إزاء هذا الموضوع ، فلين لم يجد في الموضوع مادة علمية موفورة ، أو لم يجد في نفسه القابلية للمضي في البحث أو وجد في أدوات بحثه وإمكاناته قصوراً تجاه الموضوع انصرف عنه إلى موضوع آخر .

أم من ناحية المشرف ، فيرى الدكتور شوقي ضيف أن عليهمواصلة لقاءه بطلابه الباحثين ، يقرأ لهم فصول رسائلهم تباعاً ولا يترك القراءة إلى ما بعد إتمام الرسالة ، فكثيراً ما تكون هناك ملاحظات وتوجيهات ينبعنها عليها تعديلات في الفصول التالية .

كما يرى الدكتور شوقي أن العلاقة بين الأستاذ المشرف وتلميذه الباحث يجب أن تكون قائمة على الاحترام والتقدير ، وألا يدخل الأستاذ بالثناء على تلميذه إن أجاد وأحسن ، فذلك الثناء دافع نفسى قوى يزيد الباحث تجويداً في عمله وتحسيناً لأدائه ويعينه على الصبر والدأب وتحمل المشاق ، ويدفعه إلى مزيد من الجهد حتى ينال رضى أستاذته ويستحسن المزيد من ثنائه . وكذلك كان يفعل طه حسين مع الباحث أحمد شوقي ضيف ، فكان كلما قرأ له فصلاً من فصول الرسالة في الموعد المحدد للقائه كل أسبوع أثنى على عمله وأطراه «كم كان يدفعه هذا الثناء دفعاً إلى مضاعفة جهده حتى أنجز رسالته في عام ونصف العام» وطه حسين كان بذلك أستاذًا مشرفاً بالمعنى الدقيق لإشراف الأساتذة بحيث يستخرج من تلميذه كل ما لديه من طاقة وقدرة (ص ١٢٩) .

ويرى أستاذ الأجيال أن هناك من الأساتذة المشرفين على الرسائل من يتعالى على طلابه ، ويزرئ بأعمالهم ويقلل من قيمتها العلمية ، مثل هؤلاء - في رأيه - أداء تعطيل لمسيرة البحث العلمي ، ووسيلة إحباط لروح الطالب المعنوية ، وكان أولى - حتى لو رأوا خطأ في البحث - أن يأخذوا طلابهم بالرفق ويبينوا لهم بدقة ما ينبع أن يسلك من سبيل قديم ويكشف لهم الطريق السديد والنهج السليم في مسيرتهم البحثية.

آراء في التدريس الجامعي :

انضم الدكتور شوقي ضيف إلى هيئة التدريس بقسم اللغة العربية بكلية الآداب جامعة القاهرة عام ١٩٤٢ ، ومنذ ذلك التاريخ وصلاته بالحياة العلمية نظرياً وعملياً تزداد وتتفنى ، وعلى مر السنين والأعوام صارت خبراته التدريسية معيّناً ينهل منه المدرسون الجامعيون ، وتكونت لديه آراء كالضياء يهتدى بها شباب كل جيل من السائرين في نفس الطريق ومن هذه الآراء :

ينبغى على الأستاذ الجامعي أن يمضي في محاضراته حتى نهايتها ، دون أن يخرج من موضوعها أو ينطق بكلمة خارجة عنها ، فلا يذكر نكتة أو نادرة لطلابه . ويرى الدكتور شوقي أن من أكبر الغلط أن يشغل محاضر بالجامعة جزءاً من محاضرته بفكاهة أو قصة أو حادثة حدثت له أو ذكرى من ذكرياته استجماماً واسترداً ، وحقاً قد يصفق له الطلبة استحساناً ولكنه استحسان وقتى إذ سرعان ما ينكرون ذلك على محاضرهم ، وأخطر شيء أن يصبح ذلك عادة للمحاضر فلتتصدق به في محاضراته ولا يستطيع منها خلاصاً . وليس من ريب أن من حق الطلاب في الجامعة على المحاضر في أي موضوع أن لا يشغلهم بشيء سواه حتى يطرد نسقه في أذهانهم ، وحتى يتضح لهم منهجه فيه ومقدماته ونتائجها اتضاحاً تماماً (ص ١٢٣-١٢٤) .

والأستاذ الجامعي الناجح - في رأى الأستاذ الجليل - هو الذي يفتح قلبه لطلابه ، ويعقد أواصر صداقة وثيقة بينه وبين النخبة الممتازة من تلاميذه ، ويرى الدكتور شوقي أن هذه الصداقة نعمة كبرى يمنحها الله من يشاء من أساتذة الجامعة ، إذ يجعلهم يحسنون بالراحة النفسية والسعادة الداخلية مهما تكبوا من عناء ومشقة في إدائهم لعملهم الم Herculean الجميل ، وإذا لم يجدوا الجزاء المادي في الحياة لما يقدمون من عمل مرهق فسوف يجدون التقدير من طلابهم إثابة وتعويضاً ، فالطلاب يذكرون دائماً أولئك الذين فتحوا عقولهم على عالم المعرفة والعلم والثقافة بكل الخير ويجلونهم إجلال الأبناء للأباء . وصداقات الطلاب لا تغنى عن صداقات الأساتذة ، فالأستاذ الجامعي الموفق حرى أن يظل ممسكاً بـ «أواصر محبته وصادقته لأسانته ما شاء الله أن يمد لهم الحياة » فـ «فمنهم تعلمنا وبفضلهم ثلثا ما نحن فيه من مراكز علمية» .

ويرى الدكتور شوقي ضيف أن الأستاذ الجامعي الجدير بالتقدير - وهو يشرف على طلابه الذين يعودون رسائلهم العلمية - إذا رأى في أحدهم مخايل ذكاء وقدرة على متابعة البحث والتقدور إلى لب الآراء وجوهرها قربة إليه وشجعه وأطراه لزملائه وأسانته . مثل هذا الإطراء والتشجيع يفعل فعل السحر في عزيمة الطالب إذ يدفع به إلى مضاعفة الجهد والدأب في البحث ، ومثل ذلك القرب يملؤه ثقة واعتداداً بالنفس ويغذيه بالحماسة المتقدة ، وما أشبه الشباب الجامعيين في بدء مسيرتهم العلمية للحصول على الدرجات الجامعية العليا بالأزهار في أكمامها الغضة ، وكما أن الأزهار في حاجة إلى ندى السحر لتتفتح في كمامتها ، كذلك شباب البحوث العلمية في حاجة إلى إطراء أسانتهم وتشجيعهم حتى تتفتح ملكاتهم العقلية فينفعوا إلى نتائج علمية ذات قيمة . وإذا كان توقع الوفاء من الطالب لأسانته ، فإن الدكتور شوقي يطالب الأسانتة بالوفاء لطلابهم : يحفظون لهم حق التلمذة ، ويقومون منهم مقام الأب من الآباء ، وإذا لم يكن بينهم رابطة العرق والدم فليديهم رابطة العقل والفكر والروح ، فالأسانتة وإن لم يكونوا آباء طلابهم نسباً فهم آباءهم روحًا وفكراً ، وذلك خير وأبقى .

ومن الملamus التي يراها الدكتور شوقي ضيف دليل نجاح الأستاذ الجامعي شيمة التواضع ، ذلك أن أمته قد وكلت إليه أشرف مهمة وهي تربية شبابها ، ومن ثم فمن واجبه أن يكون لين الجانب موطن الكتف لطلابه ، لا يستظهر عجبًا بعلمه ولا يستعلى على طالبه ولا يعنف بهم إن ندت منهم خطأ - أو سهوًا - بادرة ، بل يستقبلهم بالبشر ، وطلاقه الوجه ، وبالكلمات الطيبة ، بذلك تسود المودة بين الأستاذ الجامعي وطلابه فيكونون موضع تقديره ورعايته ، ويكون موضع توقيرهم وإجلالهم ، ولا يكون العلم في الجامعة علمًا فحسب ، بل تربية سديدة وغرسًا للأخلاق القوية .

وهناك من الأسانتة من تثور ثائرته إذا خالفه تلميذه في فكره أو في أفكار بحث علمي آخرجه ، وهي صورة - في رأى الدكتور شوقي - تناقض تطور البحث العلمي ؛ لأنها تؤول ب أصحابها إلى التوقف والجمود . والباحث العلمي الجدير بهذا الوصف لابد أن يعرف للأجيال من بعده ولمن يختلفونه في الدراسة حقوقهم في حرية البحث والخلوص فيه إلى أفكار جديدة لم تخطر بباله ومن واجبه أن يؤيد هذه الأفكار ويساندها إن وافقت رأيه أو يناقشها في موضوعية إن خالفت ما يراه .

وقد أفرز عصرنا - في رأى الأستاذ الكبير - ظاهرة رديئة رداءة الزمن الرمادي الذي نعيش فيه شاعت بين المعاصررين من الباحثين الشبان ، ذلك أنهم ينتقلون آراء غيرهم من سبقوهم من العلماء دون أن يذكروا مصدراً أو مرجعاً نقلوا عنه ، إيهام بأنها أفكار ابتدعواها أو آراء توصلوا إليها بجهودهم العلمية وعقليتهم المفكرة . ومثل هذا الصنيع عدوان صارخ على عالم المعرفة وجناية فادحة على البحث العلمي ، وخيانة للأمانة العلمية وخطأ في حق العلم والعلماء وفوق هذا وذاك يراه الدكتور شوقي نقисة أخلاقية سيئة؛ لأنه نوع ذميم من نكران الجميل لمن أهداى أفكاره إليهم وإلى غيرهم من الباحثين ، لأنه ادعاء كاذب للكبة لا يستحقها . ويعتقد أستاذ الأجيال أن هذه النقيسة البغيضة إلى العلماء لم تكن معروفة بين الأسلاف ، وعندما ارتكبها ذات مرة شيخ من شيوخ القرن التاسع الهجري هو الشيخ برهان الدين البقاعي المعاصر للعلامة السيوطى فنقل عن بعض مؤلفاته نصا دون أن يعنوه إليه ثارت عليه ثائرة الشيوخ من زملائه ، وغضب عليه السيوطى غضباً شديداً ، وحاول البقاعي جاهداً ترضيته دون جدوى فمشى إليه حافى القدمين من القلعة حتى جزيرة الروضة مسكن السيوطى معترقاً بذنبه ملتمساً الصفح والغفران نادماً على ما اقترف من جريمة وذنب!!

أما عن أعضاء هيئة التدريس بالجامعات ففي رأى الدكتور شوقي ضيف أن تسميتهم بالأسرة الجامعية لم يكن عيناً ، ففي كل جامعة أسرة كبيرة تضم أسر الكليات المختلفة ، وأصغر أسرة في الجامعات هي أسرة القسم العلمي ، وهي أقرب إلى الأسرة الحقيقية في الحياة ، لقرب الصلة بين أعضائها علمياً ومعايشة أكثر أيام الأسبوع . والصورة المثلث لأسرة القسم - في رأى الدكتور شوقي - أن يتواصل أفرادها تواصلاً إنسانياً وعلمياً ، فالأساتذة الكبار يحدبون على أبنائهم المدرسين والمعلدين ولا يبخلون عليهم بنصيحة أو خبرة بالحياة الجامعية ، أما أساتذة التخصص من أعضاء القسم ، فجدير بهم أن يكونوا فيما بينهم أصدقاء ، والصدقة أعظم من الحب وأجمل في رأى أستاذنا الكبير . وأن يكون التواصل العلمي بينهم مستمراً ، ومن وسائل الاتصال العلمي أن الانتاج العلمي لكل عضو في الأسرة حين يظهر يكون أول من يقرؤه أعضاء هيئة التدريس والمعلدين ويتناقشون صاحبه في قيمته العلمية وآرائه المستحدثة يستقينون منه ويفيدون وتكون أسرة القسم أول ناقد لهذا

العمل العلمي . ولكن يبدو أن هذا التواصل وهذه العلاقات الأسرية العلمية قد دخل عليها شيء من الوهن بسبب ضغوط الحياة وما سببته من ضيق الوقت بحيث لا يكاد يجد الزميل وقتاً يفرغ فيه لقراءة كتب زملائه .

هذه ملامح وأراء في مجالات التعليم المختلفة لأستاذ الأجيال الدكتور أحمد شوقي ضيف جاءت في كتاب «معي» بجزئيه المطبوع منه والمخطوط ، عبرت عن وجهات نظره . وإذا كان بعضها قد تناولته المناقشة فما ذلك إلا طمعاً في رحابة صدر أستاذنا الكبير وهو القائل : الباحث العلمي الجدير بهذا الوصف - وأستاذنا في أعلى مرتبة منه - لابد أن يعرف لن يحيطون بعده حقوقهم في حرية البحث والخلوص فيه إلى أفكار جديدة . وما أراه إلا مبتسمًا راضياً بعد قراءة هذه العجالة كعادته دائمًا .

أ.د. على الحديدى

أستاذ الأدب الحديث

كلية البناء - جامعة عين شمس

٢٩ - موقف شوقي ضيف من الدرس النحوي دراسة في المنهج والتطبيق

د. علاء الحمزاوي

تقديم :

مر النحو العربي بعدة محاولات للإصلاح من منهجه ، بغية تيسيره واستيعابه من قبل الناشئة والدارسين ، وهذه المحاولات لم تكن قريبة العهد بنا ، بل منذ أمد بعيد ، وكان أبرزها وأشهرها قدیماً محاولة ابن مضاء القرطبي الأندلسي في كتابه "الرد على النحاة"؛ حيث سدد سهامه إلى نظرية العامل التي تعد الأساس الذي قام عليه البناء النحوي وما تصوره النحاة لعواملهم من تأثيرات تصنع - من وجهة نظرهم - الظواهر النحوية من رفع ونصب وجر ، ثم ما تؤدي إليه من تقديرات وعلل وأقىسة ملات النحو العربي بمسائل لا يحتاج إليها في تقويم اللسان ، بل تقف حائلاً بين المتكلم واكتساب ملكة لغوية سليمة .

أما المحاولات الحديثة فمتعددة ، وقد بدأت مع رفاعة الطهطاوى في كتابه "التحفة المكتبية لتقريب اللغة العربية" ثم تالت بعد ذلك فكانت جهود حفى ناصف وزملائه في كتاب "قواعد اللغة العربية" ، ثم جهود على الجارم ومصطفى أمين في كتاب "النحو الواضح" ، ثم كانت محاولة إبراهيم مصطفى في كتاب "إحياء النحو" ، وهي محاولة جريئه نحو "تجديد النحو وتيسيره"؛ حيث تميزت بالدعوة إلى إلغاء نظرية العامل ، ولم يكن قد اطلع على كتاب ابن مضاء؛ فلم يكن مطبوعاً آنذاك ؛

ومن ثم فهى محاولة جديدة من وجهة نظر صاحبها ، ثم جاءت أبرز محاولة نحو "تجديد النحو العربي وتسويقه" وهى محاولة د/ شوقي ضيف^(١) .

وقد بدأت هذه المحاولة عند تحقيقه لكتاب ابن مضاء "الرد على النحاة" ١٩٤٧؛ حيث صنع مدخلاً طويلاً للكتاب قدّم من خلاله منهجاً جديداً لتسهيل النحو على الناشئة والدارسين^(٢) ، وقد استند في منهجه على ثلاثة أسس استقامتا من منهج ابن مضاء فى كتابه ، وقد دعم منهجه ببعض النماذج التى تقصص على تيسير النحو^(٣) .

-
- (١) جدير بالذكر أن د/شوقي ضيف له اهتمامات نحوية واسعة ، تتبع عنها خمس دراسات مهمة كلها ذات فكر عال جمع فيها ما بين الدراسة التاريخية والدراسة النقدية التى تحمل إبداعاً وابتكاراً ، وهى :
- تحقيق كتاب الرد على النحاة لابن مضاء القرطبي ١٩٤٧ .
 - المدارس نحوية ١٩٦٨ .
 - تجديد النحو ١٩٨٢ .
 - تيسير النحو التعليمي قديماً وحديثاً مع نهج تجديده ١٩٨٦ .
 - تيسيرات لغوية ١٩٩٠ .

وبالنظر إلى الكتب الخمسة نجد أن كتاب "المدارس نحوية" يمثل الجانب التاريخي الموسوعي الذى أهتم به فى دراساته الأدبية ، أما الكتب الباقة فهي تمثل منهجاً خاصاً به فى تجديد النحو العربي وتسويقه ، فقد حرص على أن يقدم صياغة جديدة للنحو تيسير فهمه وتعليمه ، إيماناً منه بأن فهم اللغة قراءة وكتابة هو الخطوة الأولى لدراسة الأدب وتحقيق وجود الإنسان العربى . انظر : د/ طه وادى شوقي ضيف سيرة عالم ومسيرة إنسان من ٢٥ كتاب "شوقي ضيف سيرة وتحية" .

(٢) لاحظ د/ شوقي ضيف أن جميع البلاد العربية تشكو من الشكوى من أن الناشئة فيها لا تحسن النحو ، بل لا تحسن النطق بالعربية نطقاً سليماً ، ورأى أن مرجع ذلك هو النحو الذى يرهق المتكلى بكلة أبوابه وتقراراته وأبنيتها وصيغته الافتراضية التى لا تجرى فى الاستعمال اللغوى ، وهو مع ذلك يغلق شطرًا كبيراً من تصاريف العربية وأدواتها وصياغاتها : مما يجعل الناشئة لا تتدين كثيراً من أوضاع اللغة واستعمالاتها الدقيقة - انظر : تيسير النحو التعليمى ص ٣ .

والباحث يضيف إلى ذلك سبيلاً مهماً أسمه بشكل كبير فى صعوبة النحو والنطق السليم للعربية هو عدم ممارسة اللغة العربية بقواعدها فى الحياة اليومية ، فنحن نتكلم ونخاطب بلهجات عامية تختلف فى كثير من تراكيبها عن الفصحى ، وبالتالي فتعليمتنا لقواعد العربية فى المدارس والجماعات يمائ فى الصعوبة - أو يزيد - تعليمتنا للغات الأجنبية التى لا تمارس فى تناولينا وكلماتنا اليومى .

(٣) يقول د/ محمود فهمي حجازى إن د/ شوقي ضيف أسمه برأيه فى التجديد مع توثيق هذا الرأى بالأصول التراثية . انظر . جهود شوقي ضيف فى الدراسات اللغوية من ١١٨ من كتاب "شوقي ضيف سيرة وتحية" .

و تعد محاولة د/ ضيف في مدخل الرد على النحو خروجاً إيجابياً على التحو العربيأخذ حظاً وافراً من التعليقات وربود الأفعال ، كما أن "الرد على النحو" لابن مضاء كان ثورة عارمة على النحو العربي بعامة والنحو المشرقي بخاصة^(٤) .

وقد ساعد د/ ضيف على تقديم محاولته هذه أن وزارة التربية والتعليم - وزارة المعارف آنذاك - قد ألف لجنة علمية للنظر في النحو العربي ومحاولته تيسيره ، وقد قدمت اللجنة تقريراً ضممته مقترحاتها لتيسير النحو ، ودرس مجمع اللغة العربية هذه المقترنات ١٩٤٥ وأقر بعضها ، غير أن الكتب التي ألفت على أساسها لم تلق كثيراً من النجاح ، ورأى د/ ضيف أن ينهض بهذه المهمة مستندًا إلى آراء ابن مضاء ، فكان مدخله لتحقيق كتاب "الرد على النحو"^(٥) .

ولم يتوقف د/ ضيف عند الإطار النظري المصحوب ببعض النماذج لتجديد النحو كما يصوره مدخل "الرد على النحو" ، وإنما مضى طيلة السنوات التالية يعمق دراسته لهذا الموضوع إلى أن قدم في سنوات ١٩٧٧ إلى مجمع اللغة العربية مشروعًا لتيسير النحو على أساس ما عرضه في مدخل الرد على النحو مع إضافة بعض الأساسيات الأخرى ، وأقر المجمع في ١٩٧٩ معظم هذا المشروع ، ثم أصدر د/ ضيف كتابه "تجديد النحو" الذي قدم من خلاله مشروعه الكامل لتصنيف النحو تصنيفاً جديداً معتمدًا فيه على الأساس الذي انتهى إليها في مدخل الرد على النحو مع إضافة أساس آخر : ولذا فكتاب "تجديد النحو" هو تطبيق للمنهج الذي دعا إليه د/ ضيف في مدخل الرد على النحو ، وهذا ما يتضح لنا من قوله في ختام مدخله النظري : "وأكبر

(٤) لم يكن ابن مضاء هادئاً للنحو ، بل كان بانيا له في ثوب جديد يستحسن المتعلم والنشر لسهولته وتحقيق هدفه ، وقد انتطلق ابن مضاء في ثورته من اعتقاده المذهب الظاهري في الفقه الظاهري الذي الغى الاعتماد على كتب أهل المشرق الفقهية وما فيها من قياس وفرض تخيلية لا تستند إلى الواقع ; ومن ثم فهي بدعة يجب تركها ، فكانت الدعوة إلى الأخذ بظاهر النص . وقد سحب ابن مضاء أساس المذهب الظاهري في ثورته على الفقه المشرقي إلى النحو العربي وثار ثورته عليه : إيماناً منه بأن النحو علم يخدم النص القرآني ويسهم بشكل كبير في فهمه وتفسيره .

(٥) للمزيد انظر : د. محمود على مكي . الأندلس في نتاج شوقي ضيف من كتاب "شوقي ضيف سيرة وتحية" .

الظن أنتا حين نطبق على أبواب النحو ما دعا إليه ابن مضاء من منع التأويل والتقدير في الصيغ والعبارات كما نطبق على هذه الأبواب ما دعا إليه من إلغاء نظرية العامل نستطيع أن نصنف النحو تصنيفاً جديداً يحقق ما نبغيه من تيسير قواعده تيسيراً محققاً ، وهو تيسير لا يقوم على إدعاء النظريات ، وإنما يقوم على مواجهة الحقائق النحوية ويحثها بطريقة منتظمة لا تحمل ظلماً لأحد ، وإنما تحمل التيسير من حيث هو حاجة يريدها الناس إلى النحو في العصر الحديث»^(١) .

وبالنظر إلى هذا النص نجد أن د/ ضيف يعطينا تصوراً لتيسير النحو والأسس التي يستند إليها في ذلك ، وهو تصور قائم على معطيات ابن مضاء في رده على النحاة من إلغاء نظرية العامل أساس البناء النحوي وإلغاء التقدير والتأويل في الصيغ والعبارات ، ثم قام د/ ضيف بتطبيق أسس ابن مضاء مع إضافة أسس أخرى على جميع أبواب النحو ، فخرج بالتصنيف الذي نراه في كتاب «تجديد النحو» .

وهنا يمكن أن نسأل : هل نجح د/ ضيف في تطبيق منهجه الذي يصوره مدخلاته في كتاب «الرد على النحاة» وكتاب «تجديد النحو» على كل أبواب النحو ؟ وهل كل ما أتى به يعد من إبداعه وفكرة الخاص ؟ وهل أنت محاولته ثمارها ، فاستقامت بها الألسنة أو أدت إلى فهمنا لقواعد العربية دونما صعوبة وعسر ؟

هذه الأسئلة - وغيرها - دفعت الباحث لدراسة هذا الموضوع «موقف د/ شوقي ضيف من الدرس النحوي - دراسة في المنهج والتطبيق» وأنا أعني بالمنهج منهجه في مدخل الرد على النحاة ومدخله في تجديد النحو ، والتطبيق هو تطبيق ذلك المنهج على كل أبواب النحو كما يصورها كتاب «تجديد النحو»^(٧) ، وما تنتهي إليه الدراسة من نتائج إنما تمثل وجهة نظر الباحث .

(٦) انظر د/ شوقي ضيف : تحقيق الرد على النحاة - المدخل من ٦٧ .

(٧) جدير بالذكر أن كتاب تيسير النحو للدكتور شوقي ضيف هو شرح واف للأسس التي اعتمد عليها في تصنيفه الجديد للنحو والتي ذكرها في مدخل الرد على النحاة ومدخل تجديد النحو ، وقد صدر حديثاً عن هذه الأسس بحدث عن أبرز محاولات التجديد والتيسير في النحو قديماً وحديثاً .

منهج شوقي ضيف كما يصوّره مدخل الرد على النحوة :

صدر د/ ضيف كتاب "الرد على النحوة" بمدخل طويل يعد تلخيصاً وافياً للكتاب ، وما يحمل من أساس تيسير النحو العربي مع تأييد كامل وإضافات منه لآراء ابن مضاء ، ويؤكد هذا قوله : "ومضى ابن مضاء على هدى المذهب الظاهري ينكر - في إصرار - نظرية العامل في النحو وما جرت إليه من ركام الأقىسة والعلل ، وقد فصلت القول في ذلك بمدخل الكتاب - وهو مدخل طويل - تحدث فيه عن ابن مضاء ومصنفاته .. وحللتُ آراء ابن مضاء فيه تحليلاً مفصلاً ، موضحاً دعوهه إلى إلغاء نظرية العامل في النحو وما يتصل بها من العوامل المحنوقة والعلل والأقىسة والتمارين غير العلمية مما لا يفيد شيئاً في صحة النطق وسلامته ، وأضفت إلى ذلك في المدخل رسم تصنيف جديد للنحو على ضوء آراء ابن مضاء ، أقمته على ثلاثة أساس هي : أولاً : تنسيق أبواب النحو بحيث يستغنى عن طائفة منها بربتها إلى أبواب أخرى . ثانياً : إلغاء الإعراب التقديري في الجمل والمفردات مقصورة ومنقوصة ومبينة . ثالثاً : أن لا تعرب كلمة لا يفيد إعرابها شيئاً في تصحيح الكلام والنطق به نطقاً سديداً^(٨) .

وإذا ما استعرضنا المدخل نجد أنه يبدأ بالحديث عن عصر الكتاب ثم المؤلف ثم وصف نسخة الكتاب .. ثم عرض مجمل لآراء المؤلف في الكتاب مع التركيز على الأساس التي أقام عليها ابن مضاء بناء النحوى الجديد ؛ ومن ثم نحاول أن نقف عند هذه الأساس لنفصل عن موقف د/ ضيف منها ومن النحو العربي بعامة .

أولاً - إلغاء نظرية العامل :

تعد نظرية العامل الأساس الذي أقام عليه النحوة بنيانهم النحوى أصوله وستنه ، وهي أيضاً الأساس الأول الذي دعا ابن مضاء إلى إلغائه ، وقد هاجمها هجوماً هدف منه إلى إلغائها وهدمها ؛ إيماناً منه بأنها لا تقيد النحوى شيئاً ، يقول : "وقصدى في

(٨) انظر الرد على النحوة من ٤ .

هذا الكتاب أن أحذف من النحو ما يستغنى النحو عنه ، وأنتبَ على ما أجمعوا على الخطأ فيه ، فمن ذلك ادعاؤهم أن النصب والخض والجزم لا يكون إلا بعامل لفظي ، وأن الرفع منها يكون بعامل لفظي ويعامل معنوي ، وعبروا عن ذلك بعبارات توهم في قولنا (ضرب زيد عمرا) أن الرفع الذي في زيد والنصب الذي في عمرو إنما أحدثه (ضرب) .. وهذا بين الفساد^(١) .

ورد ابن مضاء على من زعم أن نظرية العامل غرضها تيسير النحو وتسهيل تعلمها بأنها لا تيسّر ولا تسهل شيئاً سوى حط كلام العرب عن رتبة البلاغة وادعاء التقصان فيما هو كامل .

وتائيدياً من د/ ضيف لرؤيه ابن مضاء يعلق على ما سبق قائلاً : «الليست فكرة العامل تجعلنا نفكّر في محنوفات ومضمّرات لم يقصد إليها العرب حين نطقوا بكلامهم موجزاً ، ولو أنهم فكروا فيها لنطقوا بها ، ولخرج كلامهم من باب الإيجاز إلى باب الإطناب ، وإنفكت عنّه مسحة الاقتصاد البليغ في التعبير»^(٢) .

وبعد هذا التأييد يعرض د/ ضيف في المدخل لتقسيم ابن مضاء للعوامل المحنوفة ؛ ليدل بها على فساد نظرية العامل ، وهي ثلاثة أقسام : قسم حذف لعلم المخاطب به ، كقوله تعالى (وقتيل للذين اتقوا ماذا أنزل ربكم قالوا خيراً) يعني أنزل خيراً . وقسم حذف الكلام لا يفتقر إليه ، مثل (أزيدا ضربته) ، فإن النحاة يقدرون عاملًا محنوفاً عمل النصب في (زيدا) وهو عامل يفسّره الفعل المذكور على نحو ما هو معروف في باب الاستعمال ، ويحمل ابن مضاء على هذا التأويل الذي لا يمكن أن يكون

(١) انظر : الرد على النحاة ص ٧٦ .

ويذكر عباس حسن أن نظرية العامل - فضلاً عن أنها تسهم في تعقيد النحو - تؤدي إلى إفساد الأساليب البيانية الناضجة ، وإن خطرها تجاوز المسائل النحوية إلى التحكم الضار في فنون القول الأدبي الرا嫩ع . وإن حرص النحاة وتمسكهم بالعامل إنما هوأت بفضل ما تقرر في العقائد الدينية ومجادلات علم الكلام من أن لكل حادث محدثاً ، ولكل موجود موجوداً ، ولا يصح في الذهن مخلوق بغير خالق ولا مصنوع بغير صانع . انظر : اللغة والنحو بين القديم والحديث ص ١٩٦ .

(٢) انظر د/ ضيف : مدخل الرد على النحاة ص ٢٦ .

المتكلم قد قصد إليه ، ويرى أن الذى دعا النحاة ذلك هو قاعديتهم التى وضعوها فى باب العامل ، وهى أن كل منصوب لابد له من ناصب . أما القسم الثالث فهو أكثر عتنا من القسم الثانى ، إذ نرى النحاة يقدرون عوامل محنوفة فى عبارات ؛ لو أنها أظهرت لتغير مدلول الكلام ؛ كتقديرهم فى باب النداء أن المندى فى مثل (يا عبدالله) مفعول به لفعل محنوف تقديره (أدعوه) ، ولو قال المتكلم (أدعوه عبدالله) لتغير مدلول الكلام ، وأصبح خبراً بعد أن كان إنشاء^(١١) .

ثانياً - إلغاء العلل الثوانى والثالث :

هذا هو الأساس الثانى الذى دعا إلى إلغائه ابن مضاء^(١٢) ، ليريح الناس منه ، ووافقه عليه د/ ضيف ، ويوافقه عليه الباحث ، يقول ابن مضاء فى ذلك : «ومما يجب أن يسقط من النحو العلل الثوانى والثالث ، وذلك مثل سؤال السائل عن (زيد من قولهنا (قام زيد) لم رفع ؟ فيقال لأنه فاعل ، فيقول : ولم رفع الفاعل ؟ فالصواب أن يقال : كذا نطقت به العرب ... ولو أجبت السائل بأن تقول له : للفرق بين الفاعل والمفعول ، فلم يقنعه ، وقال : فلم تعكس القضية بتنبض الفاعل ورفع المفعول ؟ قلت له : لأن الفاعل قليل ، فلا يكون لل فعل إلا فاعل واحد ، والمفعولات كثيرة ، فأعطي الآتى - الذى هو الرفع - للفاعل ، وأعطي الأخف - الذى هو النصب - للمفعول ، ليقل فى كلامهم ما يستقلون ، ويكثر فى كلامهم ما يستخفون ، فلا يزيdenا ذلك علمًا بأن الفاعل مرفوع ، ولو جهلنا ذلك لم يضرنا جهله ، إذ صح عندنا رفع الفاعل الذى هو مطلوبينا باستقراء المتواتر الذى يوقع العلم»^(١٣) .

(١١) انظر . مدخل الرد على النحاة ص ٢٦ .

(١٢) جدير بالذكر أن ابن مضاء لم يكن بدأً فى دعوته إلى إلغاء هذه العلل ، فقد سبقه فى ذلك الزجاجى ومن قبله ابن السراج . انظر . د/ مازن المبارك . العلة التحوية من ١٥٤ كما هاجمها بشدة من قبله ابن حزم الظاهري (ت ٤٥٦) ؛ إذا يقول . «أما علم النحو فإلى مقدمات محفوظة عن العرب الذين تزيد معرفة تفهمهم للمعنى بلفتهم ، وأما العلل فيه ففاسدة» . انظر : د/ محمد إبراهيم البنا : تحقيق كتاب الرد على النحاة لابن مضاء ص ٩ .

(١٣) انظر : د/ ضيف : الرد على النحاة ص ٢٦ .

ثالثاً - إلغاء القياس :

ذكر د/ ضيف أن ابن مضاء أضاف إلى ما سبق طلب إلغاء القياس ، وقد وقف عند أمثلة له ليبين فساده ، وبدأ بتحليلهم لإعراب الفعل المضارع : فإنهم يذهبون إلى أنه أعراب لقياسه على الاسم ، فالالأصل في الاسم الإعراب ، والفعل فرع ، وهي فرعية يأخذها الفعل لعلتين : الأولى أنه يكون شائعاً فيتخصص مثل الأسماء ؛ فإن كلمة (رجل) تصلح لجمع الرجال ، فإذا قلت (الرجل) اختص الاسم بعد أن كان شائعاً ، وهذا نفسه نراه في الفعل المضارع ، فإن كلمة (يذهب) تصلح للحال والاستقبال ، فإذا قلنا (سوف يذهب) اختص الفعل بالمستقبل بعد أن كان شائعاً . والعلة الثانية هي لام الابتداء ، إذ تدخل على المضارع كما تدخل على الاسم ، فنقول : (إن زيداً ليقوم) كما تقول (إن زيداً لقائم) ، وهاتان العلتان تتيحان للمضارع أن يأخذ حكم الاسم في الإعراب^(١٤) .

وهذا كله مرивود من وجهة نظر ابن مضاء ؛ إذ يرى فيه إغراقاً في التفسير وبعداً في التقدير ، فلم يكون الإعراب أصلاً في الاسم وفرعاً في المضارع ؟! إن المعقول أن يكون أصلاً فيهما جمياً ؛ لأن كلاً منهما له أحوال متعددة مختلفة لا تعرف إلا بالإعراب ؛ فلا داعي لأن نجعل الإعراب أصلاً الأسماء وفرعاً في الأفعال ، وإن خيراً من ذلك كله أن نقول : إن الفعل المضارع يعرب إذا لم يتصل بنون النسوة ولا بنون التوكيد ، ومعنى ذلك أننا نصف أحوال الأشياء في نفسها ، ولا نتجأ إلى تعليل هذه الأحوال ولا إلى فرض قياس بينها وبين غيرها ؛ لأن ذلك يوقعنا في مشاكل نقيمها ولا داعي لها .

ويعلق د/ ضيف على ذلك معلناً تأييده لابن مضاء قائلاً : «والحق أن الإنسان لا يقرأ الصحف الأولى من شرح السيرافي على كتاب سيبويه حتى يشك في قيمة كل ما وضعه النحاة من علل وأقيسة في نحوهم ، وقد يدخله القياس .. ويدخل

(١٤) انظر . الرد على النحاة من ٣٨ .

الإنسان في أثناء ذلك في فيضان من الفروض والأوهام ، وأكبر الظن أن هذا ما جعل ابن مضاء يحس إحساساً عميقاً بوجوب نفي العلل والأقيسة من النحو ، ورفضها^(١٥) .

رابعاً - إلغاء التمارين غير العملية :

هذا هو الأساس الرابع الذي قرر ابن مضاء إلغاءه ليريح الناس منه ، ويسهل عليهم استيعاب قواعد اللغة العربية وفهمها ، والباحث يوافقه الرأي ، وهذا هو رأى د/ ضيف : إذ يقول مؤيداً ابن مضاء : "إذا كان من الواجب أن تلغي العلل والأقيسة من النحو حتى نخلصه من كل ما يعوق مسيره وانطلاقه ، فكذلك يجب أن تلغي منه كل المسائل التي لا تفسر صيفاً نطق بها العرب ، وعلى رأس هذه المسائل مسألة التمارين غير العملية . ثم ساق المثال الذي أورده ابن مضاء لهذه المسائل ، وهو قول النحاة : ابن من البيع على مثال (فعل) ، فيقول قائل : (بوع) أصله (بيع) فيبدل من البياء وآوا لانضمام ما قبلها : لأن النطق بها ثقيل ، كما قالت العرب : موْقَنْ وموْسَرْ ، ومن الممكن أن يقول شخص آخر : (بيع) محتاجاً بأن البياء سكتت وضم ما قبلها فقلبت الضمة كسرة قياساً على (بيض وعين) في (بيضاء وعياء) .

ويقف ابن مضاء فيورد حجة كل من القولين ، ويبين أن هذه التمارين شغلت النحاة والنحو بوجوه علل لا حاجة لها بها سوى التمارين فيما لا فائدة فيه ، وأى فائدة نفتها من صيغة (بوع أو بيع) التي لم تأت بها العرب^(١٦) .

ويرى د/ ضيف أن ابن مضاء محق فيما دعا إليه ، وأننا لستنا في حاجة إليه ، كما لستنا في حاجة إلى ما أتى به النحاة من تمارين لا تفسر صيفاً عربية ، وإن هذا ليختل النحو الغازاً .

(١٥) انظر : المرجع السابق من ٤١ وما بعدها .

(١٦) انظر : الرد على النحاة من ٤٢ وما بعدها .

ويضيف أن النحو أفسدوا النحو بكلة ما وضعوا فيه من فروع وعلل وأصول وأقيسة ومسائل غير عملية ، ومن أجل هذا كله نتني على هذا الصوت الأندلسى الذى انبعث فى القرن السادس الهجرى يهتف : **نَحُوا الْأَقِيسَةِ وَالْعُلُلِ وَالْمُتَّارِبِينَ** غير العملية على النحو ، فإن فيها فساداً واضطرباً كثيراً ، نَحُوا العامل عن النحو ، فقد أتعب النحو والنحو تعبا لم نجد منه إلا كثرة التأويل فى صياغاتها عباراتها وتقدير عوامل محنوفة ومعمولات مضمرة^(١٧) .

ففى هذه الفقرة نجد د/ ضيف يحمد كل ما دعا إليه ابن مضاء ويثنى عليه ، ولم يتوقف عند ذلك ، بل يعود لنكرار هذه التغمة عازماً على أن يسلك مسلكه ، فيقول : وإن لحرى بناء الآن أن نستجيب إلى هذا الداء حتى نخلص الناس من صعوبات النحو التى ترهقهم من أمرهم عسراً ، ولن يكلفنا ذلك جهداً ، فقد مهد ابن مضاء الطريق أمامنا ، أليس يدعونا إلى إلغاء نظرية العامل وقد طبق ذلك على أبواب من النحو؟ إذن فلنعملم هذا التطبيق ، فنتصرف انصراها تماماً عنها وعن كل ما يتصل بها ، وإن إلغاءها يتبع لنا أن نصنف النحو بشكل آخر ، تستمر فيه مواد النحو القديمة ، ولكن يُغيّر نسيجها ويُكَيِّفُ على أصل آخر هو العناية بأحوال الكلمات لا بالعوامل الداخلية عليها ، وكذلك الأمر بالنسبة لإلغاء كل تأويل وتقدير فى الصيغة والعبارات ، وذلك يريح الناس من عناه ولو قلما فهموه ، وإذا فهموه لم يحسنوا فهمه : لأنه يخرج فى كثير من صوره عن منطق الناس وما لف عقولهم ..^(١٨) .

ونتيجة لذلك عقد د/ شوقى ضيف مبحثا خاصا فى مدخل الرد على النحو بعنوان "حاجة النحو إلى تصنيف جديد" ، مؤكداً أن الإنسان لم يلم بآراء ابن مضاء ، ويطيل النظر فى كتب النحو حتى يحس الحاجة إلى تصنيف النحو تصنيفاً جديداً ، ومن ثم اعتمد د/ ضيف فى وضع الإطار النظري لمنهجه الجديد المصنف للنحو

(١٧) المرجع السابق من ٤٤ وما بعدها .

(١٨) انظر . الرد على النحو من ٤٨ .

تصنيفاً جديداً على مبدأين أساسين هما : الانصراف عن نظرية العامل ، ومنع التأويل والتقدير في الصيغ والعبارات . والسيطرة القادمة توجز لنا فكر د/ شوقي ضيف في تصنيف النحو تصنيفاً جديراً من خلال هذين المبدأين .

المبدأ الأول - الانصراف عن نظرية العامل :

يرى د/ ضيف أن هذا هو الأصل الأول الذي ينبغي أن تكتفى عليه في التصنيف الجديد للنحو ، وهو ناتج - كما يقول - من أن واجب النحو أن يسجل ما وجد في اللغة فعلاً من صيغ وعبارات ، لا أن يفترض هو صيغًا وأحوالًا لعبارات لم ترد في اللغة ، ونحن لا نقرأ بابا في النحو حتى نجد لهم يعرضون لما يصبح ولما لا يصبح ، مستلهمين نظرية العامل لا حقائق اللغة في كل ما يعرضون ، وإذا كانت نظرية العامل هي التي دفعت النحاة إلى فروض وصيغ لفروض في نحوهم ، فما أحرى بنا أن نتخلص منها ، وأن نرفع عن النحو إصرها .. وإن إلقاء هذه النظرية يفيدنا في تنظيم أبواب النحو تنظيماً جديداً يقوم على (مبدأ المجازنة أو التجانس) بحيث تجمع في الباب الواحد أحواله المختلفة ، فباب مثل (باب المضارع) تجمع فيه الأحوال المشابهة له من مثل بنائه على الفتح وتسكينه ، وهذا يقودنا لأن نعتبر المضارع المتصل بنون التوكيد منصوباًلامبانيا على الفتح ، حتى تجانس بين حالة نصبه وحالة بنائه ، أو نعتبره في الحالتين مبنياً حتى يتم التنسيق . ومثل ذلك المضارع المتصل بنون الإناث ينبغي أن نضعه إلى المضارع المجزوم ، ونسميه في الحالتين مضارعاً ساكناً أو مسكوناً ، ولا داعي لأن نسمى سكونه مرة جزماً ومرة بناء ، ومعنى ذلك أنه ينبغي أن نسمى الحالة باسم واحد ، وأن لا نوزعها على أبواب ، ولنصنع ذلك حتى لو لوحظ بعض الاختلاف أحياناً، فإن الفعل المتصل بنون التوكيد يستمر منصوباً مع الجوازم ، ولكن هذا لا يغير من القاعدة العامة في تنصيب المضارع ، فهو ينصب بعد (أن وأخواتها) وإذا اتصل بنون التوكيد حتى ولو سبقته أدوات الشرط^(١٩) .

(١٩) انظر : الرد على النحاة من ٤٩ وما بعدها .

ومبدأ التجانس في التبوب يفيدنا في تنسيق الأبواب كما نريد ، ومثال ذلك الأسماء التي لا تكون مثل الممنوع من الصرف والمنادى المفرد واسم لا النافية للجنس التي يدرسها النحاة في أبواب متبااعدة ؛ فينبغي أن يضم بعضها إلى بعض ويقرن بعضها ببعض ؛ لأنها تعالج حالة واحدة هي حرمانتها التنوين ، ويترتب على ذلك أن توحد التفسير للظاهرة ، كأن نجعل هذه الأسماء كلها معربة أو مبنية .

ولأن مبدأ التجانس - كما يرى د/ ضيف - يقودنا كذلك إلى التنسيق الداخلي لأحوال الباب الواحد ، بحيث تجمع فيه كل صوره وصيغه ، ولنضرب مثلاً بباب الفاعل ، فإن النحاة يقونون عند صيغه العامة المعروفة ، لكن قلما وقفوا عند صيغته التي يخرج منها من حالة الرفع إلى حالة الجر حينما يسبق بـ (من والباء الزائدتين) كما في قوله تعالى : (كفى بالله شهيداً) و (أسمع بهم وأبصراً) ^(٢٠) .

والباحث يحمد له مبدأ التجانس ، فجمع الأحوال المختلفة للباب الواحد في مكان واحد يعد مظهراً من مظاهر تيسير الدرس النحوى ، غير أن المثال الذى ساقه د/ ضيف يجعلنا نستفسر : هل المضارع المؤكّد الذى اعتبره مضارعاً منصوياً هو المضارع المستند لفاعل مفرد مذكر أن يشمل المضارع المؤكّد المتصل بـ (بـ او جـ) وألف الاثنين وـ (ـيـ)اء المخاطبة ؟ وهو في الحالة الأولى مبني وفي الثانية معرب مرفوع ، فإن كان يقصد المضارع في الحالة الأولى ، فإن ذلك يؤدي إلى خلل في القاعدة ؛ لأن أدوات النصب تتنصب المضارع في الحالتين وإن اختلفت علامات النصب ، وإن كان قصد المضارع في الحالتين فقد اعتبر نون التوكيد حرف نصب - مثل (إنَّ المشددة) مع الأسماء - وهذا يحدث خللاً في القاعدة من ناحية أن نون التوكيد تتحقق فعل الأمر ، وهو مبني في جميع حالاته أو مجرزاً حسب اختلاف النحاة ، فكيف تؤثر في المضارع ولا تؤثر في الأمر ؟ وكذلك دمج المضارع المتصل بـ (ـيـ)اء المضارع المجزوم يحدث خللاً أو اضطراباً ؛ لأنه في الحالة الأولى مبني على السكون ولا يتغير هذا البناء ، بينما هو في الحالة الثانية معرب مجزوم ، وتتغير حالته إذا اتصلت به نون التوكيد ، فيصبح السكون ثابتاً في حالة متغيراً في حالة أخرى ، وبالتالي فالقاعدة

(٢٠) انظر : الرد على النحاة من ٥٣ وما بعدها .

غير مستقيمة ، وهذا ما يجعلنا نحكم بأن توزيع النحوة للفعل على أبواب ما بين مبني ثابت ومعرب متغير - وفقاً لقواعد محددة - أمر جيد يدل على دقتهم في المنهج .

كذلك ضم الأبواب التي تحرم التنوين بعضها إلى بعض واعتبارها جميعاً معربة أو مبنيّة أمر يحدث خللاً في القاعدة ؛ لأن حرمان التنوين في المتنوع من الصرف مرتبط ببنية الصرفية ، أما في المزدوجي وأسم لا النافية للجنس فمرتبط بوظيفته النحوية في التركيب ، فإذا شغل وظيفة أخرى اكتسب التنوين . إضافة إلى هذا فإن المبنيات ملزمة حركة بناء واحدة، أما المتنوع من الصرف فمتغير الحركة وفقاً لوظيفته في الجملة . ومن ثم فهذه الرؤية تحتاج إلى إعادة نظر ، وهذا ما يجعلنا نؤيد النحوة فيما قالوه بصدر هذه الأسماء .

ويقرر د/ ضيف أن التصنيف الجديد للنحو يلغى كثيراً من أبواب النحو ، مثل أبواب كان وأخواتها وكاد وأخواتها وظن وأخواتها وأعلم وأخواتها و (ما ولا وإن) العاملات عمل ليس ، غير أن صور أمثلتها التي تمثل الواقع اللغوي لم تخرج من كتب النحو ، حيث أدمجت في أبواب أخرى أساسية فالنواصخ الفعلية نقلت إلى الجملة الفعلية - كما يقول الكوفيون - على اعتبار أن أفعالها تامة ، والمرفوع بعدها فاعل والمنصوب حال أو مفعول وفقاً لنوع الفعل من حيث التعدي واللزوم ، أما (ما ولا وإن) فتدخل في باب المبden والخبر ولا تؤثر فيهما ، ونصب الخبر في جملتها مثل نصبه في قولهم (ضربي العبد مسيئاً) ، فـ (مسيناً) خبر لا حال كما يقول النحوة ؛ تعنيما للقواعد . وأما (إن وأخواتها ، ولا النافية للجنس) فالاسم بعدها يعرب متبدأ منصوباً ، كما يجر بعد (رب وأخواتها ومن والباء الرائدتين) (٢١) .

والباحث يرى أن كون جملة الأفعال الناقصة جملة فعلية ليس متربتاً على إلغاء نظرية العامل ، بدليل أن النحوة قد اختلفوا فيها ، فيبينما عدها البصريون جملة اسمية عدها الكوفيون جملة فعلية دون التعرض لمسألة إلغاء نظرية العامل . والباحث يوافق د/ ضيف على دمج أفعال (كاد وأخواتها ، وظن وأخواتها وأعلم وأخواته) في الجملة

(٢١) انظر : الرد على النحوة من ٥٠ وما بعدها .

الفعالية أو في المفعول به كما فعل هو ، لأنها أفعال تحمل أحداً أو معانٍ موضوعة في إطار زمني ، لكنه لا يوافق على أن تكون جملة (كان وأخواتها) جملة فعلية ؛ لأنها أفعال تدخل على الجملة الاسمية ، فتؤثر عليها من ناحية التركيب ؛ حيث تكون عوامل رفع للمبتدأ ونصب للخبر ، ويسمى المبتدأ اسمها ويسمى الخبر خبراً ، وتؤثر عليها من ناحية الدلالة ؛ حيث تضع الجملة الاسمية في إطار زمني محدد^(٢٢) ، وتتصبح الجملة حاملة دلالة التغيير بدلاً من دلالة الثبات التي هي صفة الجملة الاسمية ؛ ولذلك فهي تسمى أفعال الوجود "verbes d'existence"^(٢٣) أو "الأفعال الناقصة"^(٢٤) أو "أفعال العبارة"^(٢٥) وقد تناول سيبويه هذه الأفعال في أكثر من موضع من كتابه ، منها قوله الذي يوضح أن هذه الأفعال لا وظيفة لها إلا أنها تحمل زمناً ما ولا معنى فيها : .. كان ويكون وصار ومadam وليس وما كان نحوهن من الفعل مما لا يستغنى عن الخبر يقول : كان عبد الله أخاك ، فإنما أردت أن تخبر عن الإخوة ، وأدخلت كان لتجعل ذلك فيما مضى ..^(٢٦) . ويضيف مؤكداً أن الخبر في جملتي (كان وأخواتها)

(٢٢) انظر : Blachère : *Grammaire de l'arabe classique* p. 391, 395

(٢٣) انظر : A. Roman : *Grammaire de l'arabe PP.* 104, 105

(٢٤) هي أفعال ناقصة عند البصريين وسميت ناقصة عندهم لعدم دلالتها على الحدث وتجريدها للزمن فقط ، يقول ابن السراج .. والفعل حقيقي وغير حقيقي ... وغير الحقيقي ثلاثة أضرب : أحدها أفعال مستعارة للاختصار ، ففاعلوها مفعولون في الحقيقة نحو (مات زيد) والثانية أفعال في اللفظ وليس بافعال حقيقة ، وإنما تدل على الزمان فقط ، كقولك : كان عبد الله أخاك ، وأصبح عبد الله عاقلاً ، ليست تخبر بفعل فعله ، إنما تخبر أن عبد الله أخوك فيما مضى ، وأن الصباح أتي عليه وهو عاقل .. وهي أفعال تامة عند الكوفيين ومرفووعها قاعل ومنصوبوها حال . انظر ابن السراج الأصول ١/٧٤، ٧٢ والمختصرى : المفصل ٢٦٣ والسيوطى : الهمج ١١٠/١ .

(٢٥) انظر : ابن يعيش : شرح المفصل ٨٩/٧ .

(٢٦) انظر : الكتاب ١/٤٥ وهذا النص يؤكد أن (كان) إنما تجيء لتحديد زمن الجملة الاسمية ، وليس لها دلالة حديثة . وبعد المستشرق الفرنسي بلاشير وظائف كان وأخواتها ، فيذكر أنها أفعال تدخل على الجملة الاسمية لتحديد الزمن ، وكذلك إذا أردت دلالة النفي prohibition ، أو النهي negation ، أو التبعية subordination : حيث إن الجملة الاسمية بمفرداتها لا تمتلك أن تعبّر عن ذلك .. ويدخلون (كان) على الجملة الاسمية تصير جملة فعلية بحيث إن المسند وضع في حالة تصب كمّي مفعول معتاد

انظر : Blachère : *Grammaire de l'arabe classique*, pp. 391, 395

وينظر برجشتراسر أن إدخال (كان) على اختلاف صيغه في الجملة الاسمية هو الاحتياج إلى تنويعها على الأوقات ، والتفرق بين الماضي والحاضر والمستقبل .. لأن الجملة الاسمية مبهمة من جهة الأوقات .

انظر : التطور النحوى ١٣٥ .

و (إن وأخواتها) كالخبر في الجملة الاسمية النواة (المبتدأ والخبر) ، وذلك في قوله : .. وما يكون بمنزلة الابتداء قوله : كان عبد الله منطلقًا وليت زيداً منطلق : لأن هذا يحتاج إلى ما بعده كاحتياج المبتدأ إلى ما بعده^(٢٧) . ويقول أيضًا : وأعلم أنه إذا وقع في هذا الباب نكرة ومعرفة فالذى تشغله كان المعرفة : لأنه حد الكلام : لأنهما شيء واحد ، وليس بمنزلة قوله : ضرب رجل زيداً : لأنهما شيئاً مختلفان ، وهما في كان بمنزلتهما في الابتداء إذا قلت : عبد الله منطلق^(٢٨) .

ويؤكد سيبويه أن هذه الأفعال ليست كسائر الأفعال ولا تقوى قوتها في إسنادها لضمائر النصب المتصلة ، فلا يجوز إسنادها لها ، يقول^(٢٩) : فلأن نقول : كأنه ، بل نقول : كان إيماء : لأن كأنه قليلة ولم تستحكم هذه الحروف هاهنا ، لا نقول : كأننى وليسنى ولا كأنك ، فصارت إيماء هنا بمنزلتها في ضربني إيماك . ويضيف قائلاً : وتقول : أتونى ليس إيماك ولا يكون إيماء : لأنك لا تقدر على الكاف ولا الهاء هاهنا ، فصارت (إيماء) بدلاً من الكاف والهاء في هذا الموضوع .

ولم يفت سيبويه أن يشير إلى (كان التامة) التي تحمل معنى الوجود أو الخلق ، وذلك في قوله : وقد يكون لكان موضع آخر يقتصر على الفاعل فيه ، تقول : قد كان عبد الله أى خلق . وقد كان الأمر أى وقع الأمر ، وقد دام فلان أى ثبت .. كما يكون أصبح وأمسى مرة بمنزلة كان ومرة بمنزلة قوله : استيقظوا وناموا^(٣٠) .

(٢٧) انظر : الكتاب ٢٣/١ .

(٢٨) انظر : المرجع السابق ٤٧/١ .

(٢٩) انظر : الكتاب ٣٥٨/٢ .

(٣٠) انظر : المرجع السابق ٤٦/١ .

ويصنف إميل بنتفيست الجمل ثلاثة أصناف : الجملة الفعلية *phrase verbale* ، والجملة الاسمية *phrase nominale pure* ، والجملة المبوبة بفعل الkiniyah ثم يردها إلى التقسيم الثنائى المعروف عند التحويين العرب : الجملة الاسمية والجملة الفعلية ، مقرراً أن الجملة المبوبة بفعل الkiniyah هي جملة فعلية فى شكلها ، ولا تتناقض فى دلالتها مع الجملة الاسمية ، ويضيف أنه عند تحليل الجملة المبوبة بفعل الkiniyah يجب أن نحللها على أنها جملة اسمية ، مستبعدين الدلالات المعجمية لفعل الkiniyah . انظر :

= Emile Benveniste : *Problèmes de la linguistique générale*, pp 156, 157, 159.

ومن ثم يرى الباحث أن جملة (كان وأخواتها) جملة اسمية موضوعة في إطار زمني ، وأن فعل الكيونة عنصر توسيع لها ، بدليل أنه أحياناً يفقد وظيفته التحوية ، فلا يرفع مبتدأ ولا ينصب خبراً ، وذلك في حالة مجده زائداً ، ولم يفت سيبويه أن يشير إلى هذا ، فذكر أنها تأتي زائدة ملفاً ، فلا عمل لها ، ونقل عن الخليل قوله : إن من فضلهم كان زيداً ، على إلغاء كان^(٢١) .

وأما اعتبار مثل (مسيناً) في جملة (ضربي العبد مسيناً) خبراً منصوباً لا حالاً ، ونصب الخبر في مثل (ما أنت بشرًا) ونصب المبتدأ في جملة (إن وأخواتها ولا النافية للجنس) بدون تأثير من الحرف ، فهو أمر يؤدي إلى الاضطراب والخلل : لأنه يفقد القاعدة إحكامها ، فلا تكون هناك قاعدة ثابتة محددة لجئ المبتدأ أو الخبر مرفوعاً أو منصوباً ، واحتجاج د/ ضيف بأن المبتدأ أو الخبر يأتي مجروراً أحياناً احتجاج مربود : لأن المبتدأ أو الخبر يجر بتأثير من الحرف ، أى أن الحرف يعمل فيه الجر ، وبالتالي لابد أن ينصب بتأثير من الحرف ، وحينئذ تكون متتفقين مع النحاة ، وينحصر الخلاف بين د/ ضيف والمصلح في إطلاق المصطلح ، فبينما يطلق النحاة على المبتدأ - مثلاً - اسم إن منصوباً ، يطلق عليه د/ ضيف مبتدأ منصوباً ، أما لو كان د/ ضيف يرى أن المبتدأ أو الخبر منصوب بدون تأثير عامل عمل فيه التنصيب فمربود : لأن ذلك يطعن بالقواعد التي أرساها النحاة ، وهذا يمنعنا من رفض نظرية العامل رفضاً مطلقاً . ورأى د/ ضيف في أن (لا النافية للجنس) تدرس في باب المبتدأ والخبر يتعارض مع رأيه في أن الأسماء المحرومة من التنوين - ومنها اسم لا النافية للجنس

= وينذر الفرنسي هنري فيليش أن هذه الأفعال أفعال إسنادية verbes prédictifs كسائر الأفعال ، وجملتها فعلية ، ثم يعود فيذكر أن هذه الأفعال غير إسنادية ولكنها تحول الجملة الاسمية إلى جملة فعلية . انظر Fleisch : *L'arabe classique* p. 181

وينذر جون ليونز أن فعل الكيونة (verbe être, verbe to be) في اللغة الانجليزية والفرنسية يقوم بوظيفة الربط ، فهو رابط copule بين المسند والمسند إليه . كما يقوم بوظيفة تحديد الزمن التحوي temps grammatical الذي تحدث فيه الجملة ، وتخلو بعض اللغات من هذا الرابط .

انظر : Lyons : *Sémantique, Linguistique* p. 105 . J. L.

(٢١) انظر . الكتاب ١٥٣/٢ .

- ينبغي أن يضم بعضها إلى بعض وتدرس تحت باب واحد ، ومثل هذا الأمر قد يحدث خلأً في المنهج .

وينتقل د/ ضيف إلى باب التعدي واللازم مقرراً أنه مما يجب أن يسحب من النحو فكرة التعدي واللازم ؛ لأنه يدل على العمل ، واقتصر أنختار مصطلحاً آخر مما ذكره بعض النحاة مثل (أفعال واقعة وغير واقعة) أو (أفعال مجازة وغير مجازة) أو (أفعال مؤثرة وغير مؤثرة) . وأنا أتساءل : إذا كان الهدف من صنع د/ ضيف هذا هو تيسير النحو العربي ، فإنَّ التيسير من استبدال مصطلح بمصطلح آخر ؟ ! ألم تشتراك هذه المصطلحات جميعاً في دلالاتها وتاثيرها على ما بعدها ؟

ومن الأبواب التي لفتت انتباه د/ ضيف - وبالباحث على وفاق معه - باب التمييز ؛ إذ لاحظ أن النحاة يدرسونه في أبواب متبااعدة كـ (باب العدد وباب اسم التفضيل ، وباب التعجب وباب المدح والذم وباب كم وكذا وباب الفعل اللازم والصفة المشبهة) ، فهذه الأبواب ينبغي أن تدرس في باب واحد يجمعها مع صور المكاييل والموازين بالإضافة إلى صورة الاختصاص في مثل (نحن العرب أكرمُ الناس) ؛ حتى يفهم الباب ولا يمزق هذا التمييق في كتب النحو . وعلى هذا النمط نستطيع أن نصنف النحو تصنيفاً جديداً قائماً على الدقة في التبوييب من جهة ، ثم على جمع صور الباب فيه وتصنيفه وأنحواله من جهة أخرى^(٣٢) .

المبدأ الثاني : منع التأويل والتقدير في الصيغ والعبارات :

هذا هو الأصل الثاني - كما يقول - الذي ينبغي أن نتکئ عليه في تصنيف النحو تصنيفاً جديداً وهو يعد ضرورة من ضرورات فهم الأساليب العربية فهما دقيقاً . وتطبيق هذا الأصل أو المبدأ يريحنا من ثلاثة أشياء : أضمار المعمولات وحشف العوامل وبيان محل الجمل والمفردات المقصورة والمتقوصة والمبينة .

(٣٢) انظر . الرد على النحاة من ٥٤ ، ٥٥ .

أما أضمار المعمولات فنقصد بها الفاعل المضمر الذي يقدر النهاة مستترًا جوازًا أو وجوبًا ، وهو استثار وهمي لا دليل عليه ، ففي جملة (زيد قام) نجد أن من التكفل اعتبار (قام) بها فاعل مستتر يعود على (زيد) وزيد معنا في الجملة ، فلا داعي لتقديره مع وجوده ، فال فعل يدل بماته على الفاعل كما يدل على الحدث والزمن ، ويتبين هذا في الصيغ (أعلم وتعلم وتعلّم) ، فلماذا نقدر فاعلاً مستترًا وجوبًا في الصيغ الثلاث هو (أنا ، نحن ، أنت) ، بل ينبغي ألا نتحدث عنه مادام لا يمكن ظهوره ، وخير من ذلك أن نقول : إن (أعلم) فعل مضارع للمتكلّم ، ونسكت ، وليس من الضروري أن يكون لكل فعل فاعل ، فقد يوجد الفاعل مع فعله وقد يحذف : لأن الفعل يدل عليه بنفسه ، ويتبين هذا أكثر في فعل التعجب وأفعال الاستثناء (خلاف ، عدا ، حاشا) وفي (نعم وبئس) وفي باب التنازع مثل (قام وقعد الناس) ، فالفاعل المضمر غير معروف ، ومن ثم ينبغي ألا نتحدث عنه : حتى لا نحيل على أشياء لا يراها الناس في الصيغة التي يقرءونها^(٢٢) .

والباحث يختلف مع د/ ضيف في رأيه بإلغاء الفاعل المضمر في الفعل وفي رأيه بأن (زيداً) في جملة (زيد قام) هو الفاعل ، ولا داعي لتقديره ثانية ؛ والباعث على الخلاف أن الباحث يرى أن بنية الجملة العربية - اسمية أو فعلية - قائمة على عنصرين أساسين - مع إفادتها معنى تاماً - وهذا العنصران هما المسند والمسند إليه ، والأول يمثل الفعل والخبر والثاني يمثل الفاعل والمبتدأ ، وهذا يعني ضرورة وجود العنصرين لتكوين الجملة حتى ولو حذف أحدهما أو أضمر ، وما يجوز حذفه وتقديره هو المبتدأ أو الخبر ، أما الفعل والفاعل فلا يجوز أن يحذف أحدهما دون الآخر ، وإنما يختلفان معًا أو يبيقيان معًا . وبينما أن تفرق بين نوعين للفاعل : فعال نحوه وفاعل دلالي^(٢٤) ، وإن لم يفرق النهاة بينهما ؛ فالفاعل في مفهومهم هو ذلك الاسم

(٢٢) انظر : الرد على النهاة من ٥٦ : ٥٨ .

(٢٤) فرق برجشتراوس بين الفاعل التحوي والفاعل الدلالي في حديثه عن الفعل المبني للمفعول ؛ إذ يقول : أما الأول فهو فعل ما لا يسمى فاعله ، نحو (ضرب زيد) فهو معلوم الفاعل وليس بمعلوم المسند إليه ، فنراه أنسد إلى (زيد) وهو مفعوله . انظر . التطور التحوي من ١٤٠ .

المرفوع المسند إليه الفعل ، وقد يحل محله ضمير ، والضمير نوعان مستتر وظاهر ، والمستتر نوعان : لازم ، وذلك إذا كان الفعل مسندًا للمتكلّم (أفعل ونفعُل) والمخاطب (تفعلُ وافعلُ) ، وغير لازم وذلك إذا كان الفعل مسندًا للغائب المذكُر والمؤتَّ (ي فعل وتفعلُ) ^(٢٥) .

ولم يختلف المحدثون كثيراً ^(٢٦) عن القدماء في مفهومهم للفاعل ، غير أن الباحث لا يذهب مذهبهم : إنما يرى ^(٢٧) أن الفاعل النحوى هو الضمير الملزِم للفعل pronom sous-entendu du verbe ويتمثل في سوابق المضارع préfixes (حروف أنت) ، ولو باحِق الماضى suffixes في حالة التكلُّم والخطاب (باء الفاعل ونا الفاعلين) ، أما في حالة إسناد الفعل للضمير الشخصى الثالث (ضمير الغائب) ، فالفاعل هو العلامة الصفرية (0) zéro ؛ لأن غياب العلامة علامة ^(٢٨) ، وعلى هذا فال فعل العربي يمثل جملة تامة ^(٢٩) énoncé complet تسمى بالجملة النواة phrase nucléaire أو الجملة الدنيا sujet syntaxique عنصرها الفعل verbe وفاعله النحوى ^(٣٠) .

(٢٥) انظر ابن السراج الأصول ١١٥/٢، ١١٦، الزمخشري . المفصل ١٣٢ و ٢٤٤ .
وابن الحاجب . الأمالي النحوية ٤/٧٧ .

(٢٦) انظر على سبيل المثال :

Blachère : Grammaire de l'arabe classique p. 391.

Fleisch : L'arabe classique pp. 169, 170.

Traité de philologie arabe pp. 2/120,121.

(٢٧) انظر في ذلك .

A. Roman . Grammaire de l'arabe p. 41, 42, 86 : 89, 100.

H. Hamzé : La position du sujet du verbe dans la ponsée des grammairiens arabes université Lyon 2.

(٢٨) غياب العلامة علامة هذا هو تعبير ابن السراج . انظر . الأصول ١١٥/٢
(٢٩) لا يوجد فعل بدون فاعل ، وقد أدرك النحوين هذا ، يقول السيرافي . إن قال قائل . لمْ لمْ يجعل الواحد علامة وجعل للاثنين والجماعة ؟ قيل . لأنه معلوم أن الفعل لابد له من فاعل لا يخلو منه ، وقد يخلو من الاثنين والجماعة ، فذلك جعل لها علامة ثالثة يقع ليس ، واكتفى بما تقدم في العقل من حاجة الفعل إلى فاعل عن علاقة ظاهرة ، وإذا قيل : زيد قام هو ، فالضمير الذي قام في النية و (هو) توكيده .

انظر . الكتاب هامش ٢/٢٨ . ت . عبد السلام هارون .

فلا فرق بين الجمل (كتبَ كتبتُ ، كتبت) : فثلاثتها تحتوى على عنصرى الجملة النواة الفعل والفاعل :

كتبَ 0 + (هو) = il a écrit

كتبتُ = j'ai écrit

كتبَ tu as écrit

ووفقاً لهذا التحليل ، فإن وظيفة الاسم المرفوع بعد الفعل أنه عنصر توسيعى يصف الفاعل الضمير أو يؤكده ؛ ولذا يسمى élément d'expansion d'identité أي العنصر التوسيعى المؤكد للفاعل ، وهو أيضاً الفاعل الدلالى .

والاسم الظاهر (العنصر التوسيعى) مثله مثل الضمير المنفصل فى جملة (فعل هو) فهذا الضمير لا يمكن أن يكون فاعلاً وحينما نحلل الجملة ، يكون التحليل على هذا الأساس :

" فعل + 0 + هو "A fait + il + lui

ولو لم يكن الفاعل كامناً فى الفعل لجاز أن تنسد هذا الفعل للضمير المنفصل المتكلم والمخاطب فنقول :

" فعل أنا "Ai fait je

" فعل أنت "As fait tu

فهل يجوز هذا التركيب فى اللغة ؟ هل يجوز أن يأتي الضمير "أنا أو أنت" فاعلاً (فعل) ؟ لاشك أن هذا التركيب غير مستقيم مع نظام الجملة العربية ؛ ومن ثم فالضمير (هو) لا يمكن أن يكون فاعلاً (فعل) ، وإنما هو يقوم بذات الوظيفة التى يقوم بها الضميران (أنا وأنت) إذا تليا الفعل ، ومن ناحية أخرى فإن الضمير (هو) يحل محل الاسم الظاهر ، إذ إننا نقول : كتب هو ، وكتب زيد ، وعلى ذلك فالاسم الظاهر يقوم بنفس الوظيفة التى يقول بها الضمير الدال عليه ومن ثم فهذا دليل واضح على أن الاسم الظاهر بعد الفعل ليس فاعلاً نحوياً sujet syntaxique .

وَثَمَةُ دَلِيلٍ ثَانٍ يَتَمَثَّلُ فِي الْعَطْفِ، فَفِي حَالَةِ عَطْفِ اسْمِ ظَاهِرٍ عَلَى اسْمِ الْمَرْفُوعِ بَعْدِ الْفَعْلِ نَجِدُ أَنَّ اسْمَ الْوَاقِعِ بَعْدِ الْفَعْلِ لَا يَحْلِ محلَّ ضَمَائِرِ الْوَصْلِ الْفَاعِلِيَّةِ *pronoms conjoints du sujet* المُوجُودَةِ فِي (كَتَبَتْ *katabtu* وَكَتَبَتْ *pronom disjoints* الْمُلْحَقَةُ بِالْجَمْلَةِ الْفُطْلِيَّةِ)، فَنَقُولُ:

كَتَبَتْ أَنَا وَبَكْرٌ *ai écrit, moi et Bakr* ولا نَقُولُ: كَتَبَتْ وَبَكْرٌ

كَتَبَتْ أَنْتَ وَبَكْرٌ *Tu as écrit, toi et Bakr* ولا نَقُولُ: كَتَبَتْ وَبَكْرٌ

كَتَبَ هُوَ وَبَكْرٌ *Il a écrit, lui et Bakr* ولا نَقُولُ: كَتَبَ وَبَكْرٌ

كَتَبَ زَيْدٌ وَبَكْرٌ *a écrit, Zayd et Bakr* || ولا نَقُولُ: كَتَبَ وَبَكْرٌ

فَالْتَّرْكِيبُ الثَّانِي مِنْ كُلِّ مَثَالٍ غَيْرِ سَائِعٍ لِاستِعْمَالِهِ، إِنْ لَمْ يَكُنْ مَرْفُوضًا مِنْ قِبَلِ النَّظَامِ الْلُّغُوِيِّ؛ وَمِنْ ثُمَّ اسْتَوْقَفَ سَيِّبُوْيِهِ كَثِيرًا، فَعَقَدَ لَهُ بَابًا أَسْمَاهُ "بَابُ مَا يَحْسُنُ" أَنَّ يَشْرُكَ الْمَظْهَرُ الْمُضْمِرُ فِيمَا عَمِلَ وَمَا يَقْبِحُ أَنَّ يَشْرُكَ الْمَظْهَرُ الْمُضْمِرُ فِيمَا عَمِلَ فِيهِ قَائِلًا: "وَأَمَّا مَا يَقْبِحُ أَنَّ يَشْرُكَهُ الْمَظْهَرُ فَهُوَ الْمُضْمِرُ فِي الْفَعْلِ الْمَرْفُوعِ" ، وَذَلِكَ قَوْلُكَ: فَعَلْتُ وَعَبْدَ اللَّهِ ، وَأَفْعَلْتُ وَعَبْدَ اللَّهِ .. فَإِنْ نَعْتَهُ أَنَّ يَشْرُكَهُ الْمَظْهَرُ ، وَذَلِكَ قَوْلُكَ: ذَهَبَتْ أَنْتَ وَزَيْدٌ ، قَالَ تَعَالَى: (فَأَذْهَبْتَ أَنْتَ وَرِبِّكَ) وَ(وَاسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجَكَ الْجَنَّةَ) ، وَذَلِكَ أَنْكَ لَمْ وَصَفْتَهُ حَسْنَ الْكَلَامِ حِيثُ طَوَّلْتَهُ وَأَكَدْتَهُ ..^(٤٠) ، وَيَقُولُ أَيْضًا: "... وَإِنْ حَمَلَتِ الثَّانِي عَلَى اسْمِ الْمَرْفُوعِ الْمُضْمِرِ فَهُوَ قَبِيْحٌ" لِأَنَّكَ لَوْ قَلْتَ: أَذْهَبْتَ وَزَيْدٌ ، كَانَ قَبِيْحًا حَتَّى تَقُولَ: أَذْهَبْتَ أَنْتَ وَزَيْدٌ^(٤١). وَيَقُولُ فِي مَوْضِعٍ آخَرَ: "... لَوْ قَلْتَ: أَقْعَدْتَ وَأَخْوَكَ كَانَ قَبِيْحًا حَتَّى تَقُولَ: أَنْتَ؛ لَأَنَّهُ قَبِيْحٌ أَنْ تَعْطُفَ عَلَى الْمَرْفُوعِ الْمُضْمِرِ"^(٤٢).

كَذَلِكَ يَمْكُنُنَا أَنْ نُضِيفَ دَلِيلًا ثَالِثًا، يَتَمَثَّلُ فِي التَّوْكِيدِ الْمَعْنَوِيِّ، فَحِينَما تُؤَكِّدُ (زَيْدًا) فِي جَمْلَةِ "كَتَبَ زَيْدٌ" نَقُولُ: كَتَبَ زَيْدٌ نَفْسَهُ، فَإِذَا كَانَ زَيْدٌ هُوَ الْفَاعِلُ، فَيَنْبَغِي أَنْ تَسْتَقِيمَ الْقَاعِدَةَ حِينَما يَحْلِ ضَمِيرُ مَحْلِ زَيْدٍ، وَلَا خَلَافٌ بَيْنَ النَّحْوَيْنِ عَلَى أَنَّ

(٤٠) انظر . الكتاب . ٢٧٧/٢ ، ٢٧٨ .

(٤١) انظر . المرجع السَّابِقِ . ٢٧٨/١ .

(٤٢) انظر . المرجع نَفْسَهُ . ٢٩٨/١ .

(كتبتُ وكتبَتْ وكتبَ زيد) جمل فعلية تتكون من فعل وفاعل ، فهل سائِنَّ قولنا : كتبَتْ نفسَى وكتبَتْ نفسَك ، كما نقول ”كتبَ زيدَ نفسه“ ؟ .

أزعم أن التركيبين الأول والثاني لا يستقيمان ونظام الجملة العربية ؛ ولذا لجأ النحويون إلى إثبات ضمير متصل يحمل دلالة الضمير المتصل ، إذ يقول سيبويه . ”اعلم أنه قبيح أن تصف المضمر في الفعل بنفسك وما أشبهه ؛ وذلك أنه قبيح أن تقول : فعلتَ نفسُك ، إلا أن تقول : فعلتَ أنت نفسُك ..“^(٤٢) ، ويقول في موضع آخر : ”.. لو قلت : اذهب نفسُك ، كان قبيحاً حتى تقول : اذهب أنت نفسُك“^(٤٣) .

ومن ثم فهذا يؤكد لنا أن ”زيداً“ ليس فاعلاً نحوياً وإنما هو عنصر توسيعى وصف أو توكييد élément d'expnition d'identité للفاعل النحوى sujet syntaxique ، مثله مثل الضمير المتصل المؤكّد للفاعل .

من ناحية أخرى إذا وضعنا في الاعتبار رؤية بعض النحويين في أنه يجوز تقديم الفاعل على فعله ، فيشغل ”زيد“ وظيفة الفاعل في هاتين الجملتين ”قام زيد ، زيد قام“ ، وهذا يعني أنه يقوم بوظيفة الضمير المتصل بالفعل في حالتي التكلم والخطاب كما في ”قمتُ وقمتَ“ ، فهل يجوز أن نقدم ذلك الضمير على فعله كما جاز مع زيد ، فنقول :

كتبَتْ زيد زيد كتب

كتبَ أنا كتبت

كتبَ أنت كتب

لاشك في أن هذا التركيب خارج على نظام الجملة العربية ، ولزيادة من التأكيد على هذا الرأي نستمع لحديث سيبويه على هذا الصدد ؛ حيث يقول : ”.. لا يقع (أنا) في موضع الناء التي في (فعلت) ، لا يجوز أن تقول : (فعل أنا) ؛ لأنهم استغفروا بالناء عن أنا ، ولا يقع (نحن) في موضع (نا) التي في (فعلنا) ، لا تقول : (فعل نحن) ..

(٤٢) انظر . المرجع نفسه ٢٧٩/٢

(٤٣) انظر . المرجع نفسه ١/٢٧٧ .

واعلم أنه لا يقع (أنت) في موضع التاء التي في (فعلت) ، ولا (أنتما) في موضع (ثم) التي في (فعلتم) ألا ترى أنك لا تقول : (فعل أنتما) ، ولا يقع (أنتم) في موضع (ثم) التي في (فعلتم) ، ولو قلت : (فعل أنتم) لم يجز .. ولا يقع (هو) في موضع المضمر الذي في (فعل) ، ولو قلت : (فعل هو) لم يجز إلا أن يكون صفة ولا يجوز أن يكون (هما) في موضع الألف التي في (ضربا) والألف التي في (يضربان) ، ولو قلت : (ضرب هما أو يضرب هما) لم يجز ، ولا يقع (هم) في موضع الواو التي في ضربوا ولا الواو التي مع النون في (يضربون) ، ولو قلت : (ضرب هم أو يضرب هم) لم يجز ، وكذلك (هي) لا تقع موضع الإضمار الذي في (فعلت) : لأن ذلك الإضمار بمنزلة الإضمار الذي له علامة ، ولا يقع (هن) في موضع النون التي في (فعلن ويفعلن) ، ولو قلت : (فعل هن) لم يجز إلا أن يكون صفة ، كما لم يجز ذلك في المذكر ، فالمؤنث يجري مجرى المذكر^(٤٥).

وهذا دليل آخر تؤكد به أن الاسم الظاهر المرفوع بعد الفعل المسند لضمير الغائب ليس فاعلاً نحوياً وإنما هو عنصر توسيعى نعت أو توكييد لفاعل الضميرى *sujet sémantique* وإن كان هو الفاعل الدالى *sujet intérieur*

ولعل حديثاً للدكتور / شوقي ضيف في موضع آخر يدل بوضوح على أنه تراجع عن رأيه هذا ومال إلى رأي النحاة من ناحية وبعض المحدثين من ناحية أخرى، إذ يقول معلقاً على ابن مضاء واللجنة العلمية والمجمع في ذلك : "رأى أنه كان حريراً بابن مضاء واللجنة والمجمع لا يقرروا هذه القاعدة التي تلقي الضمائر المستترة وتحيل ضمائر الرفع المتصلة البارزة حروف إشارة ، كما تحيل ألف الاثنين وواو الجماعة ونون النسوة علامات عدد ؛ لأن ذلك من شأنه أن يخلخل قاعدة الفاعل ، إذ تارة يكون للفعل فاعل في مثل (زيد سافر إخوته) وتارة لا يكون له فاعل في مثل (زيد سافر) ، والأصل في قواعد العلوم أن تكون مطردة ، على أن من يتأمل ضمائر الرفع المتصلة البارزة مع الماضي يرى أنها مقطعة من ضمائر منفصلة مقابلة لها ..

(٤٥) انظر الكتاب ٢٥١/٢ ٢٥٠ .

ونستطيع أن نلاحظ أن مضارع المتكلم يبدأ بالهمزة الموجودة في الضمير (أنا) بينما مضارع المتكلمين مثل (نقوم) يبدأ بالنون الموجودة في (نحن) ، وكذلك مضارع المخاطب يبدأ بالباء الموجودة في (أنت) ، ولعل في ذلك ما يدل على أن النهاة كانوا في منتهي الدقة العلمية حين عدوا الباء في (قمت) ضمير رفع متصل بارز فاعل ، وكذلك حين ذهبا إلى أن مضارع المتكلم في مثل (نقوم) يحمل ضمير رفع مستتر وجوباً على أساس أنها جميعاً ضمائر لا حروف ، ولذا كنت أرى الإبقاء في النحو التعليمي على فكرة الضمائر المستتر جوازاً ووجوباً ... وأن تعرب جميعاً فواعل^(٤١) .

وعود لحديث د/ ضيف عن حذف العوامل ، فيذكر أنها تتضح في قولنا : (زيد في الدار) ، فقد زعم النهاة أن الجار وال مجرور متعلق بمحنوف تقديره (استقر أو مستقر) هو الخبر ، وهذا زعم - كما يقول ابن مضاء - لا داعي له ، وينبغي أن نقرر أن الجار وال مجرور هو الخبر . وكذلك الأمر نجده في نواصب المضارع في نحو (ما تأتينا فتحدثنا) إذ يرى النهاة أن الفعل الثاني منصوب بـ (أن) مضمورة وجوباً ، وهو تقدير لا دليل عليه .

وأكثر من هذا أن إلغاء العوامل المحنوفة يريحنا من باب مثل باب الاشتغال ، ففي جملة (زيداً ضربته) نعرب زيداً مفعولاً به منصوباً ولا تقدر العامل المحنوف ، ويكتفى أن يعود عليه ضمير منصوب . وكذلك الأمر في أبواب الإغراء والتحذير والندا ، والمصادر النصوية ، فلا داعي لأن نقدر عاملاً محنوفاً عمل فيها التنصب ، وهذا العامل لا يظهر ، وهذا ما يلفتنا إلى ظاهرة مهمة في العربية ، وهي أنها لغة موجزة ، فلا داعي للتقدير ما زاد المقدر لا يظهر في الجملة ولا يحتاجه المتنقى ولا يعنيه المتكلم . ويقترح د/ ضيف أن كل الصيغ التي قدر لها النهاة عوامل محنوفة تتم بها الجملة يضم بعضها إلى بعض ، ويفرد لها باب خاص نسميه (باب الصيغ الشاذة) أو نسميه (باب شبه الجملة) ، فمثلاً في إعراب (لولا دعاوكم ..) لا نعرب (دعاوكم) مبتدأ مرفوعاً والخبر محنوف تقديره موجود ، بل يكتفى أن نقول (دعاوكم) شبه جملة مرفوعة .

(٤٦) انظر : تيسير النحو التعليمي من ٤٢ ، ٤٣ .

ويرى د/ ضيف أن هذا الأمر يتبع لنا أن نجمع كل الصيغ التي على هذه الشاكلة ونسميها (شبه الجملة) وتقسم ثلاثة أقسام : شبه جملة مرفوعة وشبه جملة منصوبة وشبه جملة مجرورة . ومن أمثلة شبه الجملة المرفوعة في الصيغ : بعد لولا وفي جواب الاستفهام مثل (من قام ؟ فيقال : زيد) وفي جواب الشرط مثل (إن تصنع ذلك فخير) وفي القسم (العمرك لأفعلن) وفي المصادر المرفوعة مثل (قصير جميل) وفي المتعاطفين المرفوعين المكتفين بذاتها مثل (كل رجل وعمله) وفي صيغة النداء المرفوعة (يا زيد) . وشبه الجملة المنصوبة تتقاسى في مثل الصيغ : الاشتغال والتحذير والإغراء والنداء المنصوب وبعد لات وفي المتعاطفين المنصوبيين المكتفين بذاتها (أهلك واللليل) وفي المصادر المنصوبة (ح마다 وشكرا وسبحانك) وغير هذا . وشبه الجملة المجرورة تتقاسى في مثل : القسم (والله) والضمير بعد لولا (لولاك) وبعد هل (هل من رجل) وهذا . ولا يضير اللغة أن نحمل التأويل والتقدير وأن نضع كل هذه الصيغ ومثلها تحت باب (شبه الجملة) أو باب (الصيغ الشاذة) وندرسها .

وبالباحث يرى أن د/ ضيف محق في عدم تقدير عامل محنوف يتعلق به الجار والمجرور في قولنا (زيد في الدار) على اعتبار أن الجار والمجرور قد شغل وظيفة الخبر دون تقدير لا حاجة لإظهاره ، غير أن الرأى ليس جديداً ، فقد ذهب إليه بعض النحاة وفي مقدمتهم سيبويه ، إذ يقول : " وأعلم أن المتبدأ لا بد له من أن يكون المبني عليه شيئاً هو أو يكون في مكان أو زمان ، وهذه الثلاثة يذكر كل واحد منها بعد ما يبتدأ ..." (٤٧) فالمكان والزمان يمثلان الطرف المستقر . ومن الأمثلة التي ساقها سيبويه للطرف قوله : "... وأما قولهم : داري خلف دارك فرسخاً ، فانتصب لأن خلق خبر للدار ، وهو كلام قد عمل بعضه في بعض واستفني" (٤٨) .

كذلك يوافق الباحث على ما ذهب إليه فيما يخص باب الاشتغال ، فلا داعي أن نقدر عاماً نصب (زيدا) في جملة (أزيدا ضربته) يفسره الفعل الموجود ؛ لأنه

(٤٧) انظر الكتاب ١٢٧/٢.

(٤٨) انظر : المرجع نفسه ٤١٧/١.

لم يظهره العرب في كلامهم . أما المصطلح الجديد (شبه الجملة) والذي أطلقه د/ ضيف على الصيغة التي لا تكون جملأ إلا بتقدير عنصر متم للعنصر الذي تمثله الصيغة الموجودة، وجمع تحته صيغًا كثيرة مرفوعة ومنصوبة ومجرورة فيحتاج إلى إعادة نظر؛ لأنّه يحدث خلطًا ولبسًا مع الجملة الاسمية التي يحذف فيها البتداً أو الخبر وجوابًا أو جوابًا ، أما الصيغة الفعلية التي حذف منها الفاعل - من وجهة نظره - فلا توافقه عليه ؛ لأن الفاعل لا يحذف ، فهو ضمير ملازم للفعل ظاهر أو مستتر . ومصطلح (شبه الجملة) بهذه الدلالة الجديدة لم يكن د/ ضيف بداعا فيه ؛ إذ أشار إليه برجشتراسر في قوله : "من الكلام ما ليس بجملة بل هو كلمة مفردة أو تركيبات وصفية أو إضافية أو عطفية غير إسنادية ، مثل لذلك النداء ؛ فإن (يا حسن) ليس بجملة ولا قسم من الجملة ، وهو مع ذلك كلام ويشبه الجملة في أنه مستقل بنفسه لا يحتاج إلى غيره مظهراً كان أو مقدراً ، بخلاف مثل قولنا (أمس) جواباً عن السؤال (متى جئت) ، فإن تقديره (جئت أمس) ، فـ (أمس) وأمثالها جمل ناقصة ، والنداء وأمثاله نسماها (أشباه الجملة) ، ويشبه الجملة اسم في أكثر الحالات ، ولا يمكن أن يكون فعلاً ؛ لأن الفعل يساوى الجملة الكاملة^(٤٩) .

ويبدو أن كلام برجشتراسر أكثر دقة من كلام شوقي ضيف ؛ لأنّه فرق بين شبه الجملة والجملة الناقصة ، فشبه الجملة يطلق على تركيب يؤدي معنى وليس بجملة كاملة ولا يحتاج إلى محفوظ مقدر ، والجملة الناقصة هي التي يحذف عنصرها الأساسيان أو أحدهما ، كما وضح أن الفعل لا يدخل في أشباه الجملة ، إنما هو جملة كاملة ؛ لأن به الفاعل وإن لم يكن ظاهراً .

ويحتمل أن يكون د/ ضيف قد أخذ المصطلح من برجشتراسر ، ويزيد هذا الاحتمال إذا علمنا أن المثال الذي استشهد به د/ ضيف وهو (لولا دعاؤكم) قد ورد عند برجشتراسر وقال عنه : "أى لولا أن وجد دعاؤكم"^(٥٠) . ولمَ لا ويرجشتراسر قد

(٤٩) انظر : التطور النحوى ١٢٧ .

(٥٠) انظر : التطور النحوى ١٢٧ .

القى محاضراته بجامعة القاهرة فى عام ١٩٢٩ ، وشوقى ضيف حق كتاب الرد على
النحو فى ١٩٤٧

والباحث يطرح رأياً آخر في النداء ، وهو أنه يمثل جملة مستقلة تامة تحتوى على عنصريها الأساسين المسند والمسند إليه ، على أن حرف النداء يمثل المسند ، والمنادى هو المسند إليه . فما الذى يمنع من ذلك ؟ وعلى كل فإن الباحث يرى أن ما قدمه د/ ضيف فيما يختص بحذف العوامل - باستثناء متعلق الظروف والجار والمجرور - لا يقدم تيسيراً للنحو العربى ؛ لأنه يؤدي إلى هدم شطر كبير من الجمل العربية الكاملة بسبب استبعاد الجمل الناقصة من الجمل الكاملة ودخولها فى أشباه الجمل .

ثم ينتقل د/ ضيف بعد ذلك إلى الجانب الثالث الذى نكتبه من وراء منع التأويل والتقدير فى الصيغ والعبارات ، وهو جانب التأويل فى محل الجمل والمفردات المقصورة والمتقوصة والمبينة ، فمثلاً فى جملة (زيد يسافر أبوه) يقول النحو بأن جملة (يسافر أبوه) فى محل رفع خبر لـ (زيد) ، وفي جملة (جاء الذى رأيناه أمس) يقولون : إن جملة (رأينا أمس) لا محل لها من الإعراب ، فهم يقسمون الجمل إلى جمل لها محل وجمل ليس لها محل من الإعراب ، ويعددون النوعين على النحو المعروف فى كتب النحو ، وأولى من ذلك أن نقول : إن هذه الجملة خبر أو نعت أو حال . ويدخل فى منع التأليل الجمع الذى أولوها النحو بمصدر ، وهى الجمل التى بعد (أن ، أن ، لو ، ما) مثل (يعجبنى أنك سافرت) فالتقدير عند النحو (يعجبنى سفرك) ، وهذه التأويلات كلها لا داعى لها ، بل يجب أن تنفيها من النحو ، ويكتفى أن نقدر فى كل باب أنه يأتى مفرداً ويأتى جملة^(٥١) ، والباحث يرى أن د/ ضيف محق فى ذلك ويوافقه الرأى ، ويرى أن النحو اعتمدوا بالجانب الشكلى الخاص بالإعراب أكثر من اعتنائهم بالجانب الوظيفى للجملة داخل جملة أخرى ، واعتمدوا بالوظيفة النحوية للفظة المفردة أكثر من اعتنائهم بوظيفة الجملة ؛ ومن أجل هذا رفضوا أن يأتى الفاعل جملة .

(٥١) انظر : الرد على النحو من ٦٣ ، ٦٤ .

كذلك ينبغي أن نمنع التأويل في المفردات المقصورة والمنقوصة والمبنيّة حين تقع مبتدأت أو أخباراً أو فاعلات أو مفعولات أو غير ذلك ، ويكتفى أن نبين الوظيفة النحوية الكلمة في الجملة ولا نستمر ، فنقول في مثل (هذا محمد) : هذا مبتدأ مبني ، وهذا يقودنا إلى أن نستفني عن إعراب أي كلمة لا توجد حاجة إلى إعرابها ، ويتبين هذا في أدوات الشرط الاسمية ، فإن إعرابها لا يفيد شيئاً ، فماذا يفيد إعراب (من) في جملة (من يقم أقم معه) بأنها مبتدأ ؟ ومما ينبغي أن لا نعرّيه ؛ لأن إعرابه لا يفيد (كم) الاستفهامية والخبرية و(أن) المخفة من الثقلة التي يقدر النهاة اسمها ضمير شأن محنوف .

ويتحقق د/ شوقي عن هدفه من ذلك بأن الإعراب ليس غاية في ذاته ، وإنما هو من أجل تصحيح لساننا ونطقنا ، ومادام إعراب أداة لا يفيدها شيئاً في لساننا ولا في نطقنا فينبغي أن لا نقف عنده ولا نفكّر فيه ، وينبغي أن ينفي من النحو^(٥٢) .

والباحث يتافق مع د/ ضيف في منع التأويل في المفردات المقصورة والمنقوصة والمبنيّة ، إذ يكتفى أن نبين وظيفة الكلمة داخل الجملة ، لكنه تتساءل : لماذا لم يطبق د/ ضيف مبدأ التجانس على الأسماء المقصورة والمنقوصة والمبنيّة ، فيجعلها في باب واحد مبنيّة أو معرّبة ؛ إذ تشتراك جميعاً في عدم ظهور الحركة ، كما دعا إلى ذلك في الأسماء التي تحرم التنوين ؟ فتطبيقات أساس ما أو مبدأ ما في موضع دون موضع يخل بالمنهج العام . أما الدعوة إلى الاستغناء عن إعراب أسماء الشرط وغيرها مما ذكره د/ ضيف بحجة أن ذلك لا يفيد شيئاً في تقويم اللسان وتصحيح النطق فذلك أمر يحتاج إلى نظر ؛ لأن هناك فرقاً بين بيان وظيفة الكلمة في الجملة وعلامة الإعراب التي تستحقها ، فلو كان د/ ضيف يقصد الاستغناء عن وظيفة الكلمة النحوية لوجب أن يسحب ذلك على كل الأسماء المقصورة والمنقوصة والمبنيّة ؛ فكلها لا تظهر عليها علامات إعراب تساعده على النطق السليم ، غير أنه لم يفعل ذلك ، ولتساؤل : لماذا نقول في (هذا محمد) : هذا مبتدأ مبني ، ولا نقول ذلك في (من) من قولنا ؛ (من يقم أقم معه) ؟

(٥٢) المرجع السابق ص ٦٤ - ٦٦ .

ولا فرق بينهما في تقويم اللسان وتصحيح النطق . ومن ناحية أخرى فإن الاستغناء عن إعراب أسماء الشرط ينبغي أن يسحب على أسماء الاستفهام تعبيماً للقاعدة ، لأن كثيراً منها مشترك . أما لو كان قصده الاستغناء عن قولنا في (من يقم أقم معه) : من اسم شرط مبني على السكون في محل رفع مبتدأ ، ويكتفى ببيان أنها اسم شرط مبني مبتدأ ، لاتفاقنا معه ، وحيثئذ تدخل أسماء الشرط في قاعدة الأسماء المبنية والمقصورة والمنقوضة .

تعليق :

بعد هذا العرض الموجز لمدخل د/ شوقي ضيف الذي صدر به كتاب الرد على النحاة لابن مضاء يمكن أن نسجل الآتي :

- هذا المدخل يعد تحليلًا وافيًا لآراء ابن مضاء مع التأييد الكامل من د/ ضيف والاستجابة لآرائه الجديدة التي تمثل في إلغاء بعض الأسس التي قام عليها البناء النحوى بصورة المرفوضة من قبل ابن مضاء ، وهذه الأسس هي :

- ١ - إلغاء نظرية العامل .
- ٢ - إلغاء العلل الثانى والثالث .
- ٣ - إلغاء القياس .
- ٤ - إلغاء التمارين غير العملية .

وياماً يفك ابن مضاء حاول د/ ضيف أن يضع تصوراً لتصنيف النحو تصنيناً جديداً ييسره ويذلل صعوباته ، وينقيه من الشوائب التي تعيق نون فهمه ، وأقام تصوره في رسم تصنيفه الجديد على ثلاثة أسس هي :

- ١ - تنسيق أبواب النحو تنسيقاً يؤدى إلى الاستغناء عن بعض أبوابه بربتها إلى أبواب أخرى ؛ اعتماداً على مبدأ التجانس بين أبواب النحو .
- ٢ - إلغاء الإعراب التقديرى في الجمل والمفردات المقصورة والمنقوضة والمبينة .
- ٣ - إهمال الإعراب ما لم يفد شيئاً في تصحيح الكلام وسلامة النطق .

وقد خلص د/ ضيف إلى هذه الأسس من خلال مبدأين رئيسيين دعا إليهما ، نتيجة هضمه واستيعابه لفكرة ابن مضاء ، وهما :

- ١ - الانصراف عن نظرية العامل .

٢ - منع التأويل والتقدير في الصيغ والعبارات .

وحاول د/ ضيف أن يطبق أساس منهجه الجديد على بعض أبواب النحو في هذا المدخل ، وقد وُفق في كثير منها ، وبعضها لم يوفق فيه ؛ فلم يطبقه - من وجهة نظر الباحث - وقد بَيَّنَ ذلك في موضعه .

- هذا المدخل يعد ثورة من د/ ضيف على النحو العربي بصورته المبثوثة في مصادر النحو القديمة منذ سيبويه ، كما كان كتاب ابن مضاء أكبر ثورة على النحو العربي ونحوة المشرق ، وهذا يعود إلى أن د/ ضيف نهج ابن مضاء واهتدى بأرائه في رفضه للنحو العربي بصورته عند سيبويه ومن تلاه من النحاة .

- ينبغي ألا ننسى أن د/ ضيف قد حقق كتاب ابن مضاء (الرد على النحاة) في سنة ١٩٤٧ ، وهذا يعني أن ما انتهى إليه من جديد يمثل فكره في تلك الفترة ، وهو يعد فكراً ناضجاً نتيجة فهم جيد لفكرة ابن مضاء وتفثل لآرائه تمثلاً لأجود . وهذا يقودنا لطرح هذا السؤال : هل توقف فكر د/ ضيف عند هذا الحد طوال السنوات التالية ؟ أو تطور في نفس الاتجاه ؟ أو أخذ اتجاهًا مغایرًا نحو إعادة تصنيف النحو تصنيفاً جديداً ؟ هذا ما نحاول أن نجيب في السطور القادمة .

منهج شوقي ضيف كما يصوّره مدخل (تجديد النحو) :

كان نشر كتاب (الرد على النحاة) باعتماد الدكتور/ شوقي ضيف على التفكير في تجديد النحو بعرضه عرضاً حديثاً على أساس قويمه تصفيه وتنقيه وتجعله دانى القطوف للناشئة . وقد اعتمد د/ ضيف في إعادة بناء النحو بناءً جديداً على ستة أساس : ثلاثة منها انتهى إليها فكره عند تحقيق كتاب (الرد على النحاة) ، والثلاثة الأخرى اهتدى إليها نتيجة فكر متجدد وعمل دءوب ورغبة ملحة في تجديد النحو

العربي طيلة السنوات التالية لتحقيق كتاب الرد على النحاة ، فقد قدم لمجمع اللغة العربية مشروعًا في ١٩٧٧ لتيسير النحو معتمداً فيه على الأسس الثلاثة السابقة مع أساس رابع اهتدى إليه آنذاك ، وفي ١٩٨١ اهتدى إلى أساسين آخرين نتيجة سمو فكره وحرصه الشديد على تجديد النحو وتيسيره ، فصار يمتلك ستة أسس يستطيع بها أن يعيد تصنيف النحو تصنيفاً جديداً ييسره ويذلل صعوباته للدارسين ، فيفهمونه وبالتالي يفهمون أساليب العربية المحسدة في القرآن الكريم والحديث الشريف والتراجم الأدبي . وأسس الستة هي :

- ١ - إعادة تنسيق أبواب النحو بالاستغناء عن طائفة منها بريدها إلى أبواب أخرى .
- ٢ - إلغاء الإعرابين التقديرى والمحلى فى الجمل والمفردات المقصورة والمنقوصة والمبينة .
- ٣ - الإعراب لصحة النطق . (إهمال الإعراب ما لم يُفِدْ في سلامة النطق) .
- ٤ - وضع تعريفات وضوابط دقيقة لبعض أبواب النحو .
- ٥ - حذف زوائد كثيرة من أبواب النحو تُعرض فيه دون حاجة إليها .
- ٦ - زيادة إضافات لبعض الأبواب ؛ لتمثل الصياغة العربية وأوضاعها تمثلاً يقيناً .

واستطاع د/ ضيف بفضل هذه الأسس أن يعيد تبويب النحو وتصنيفه تصنيفاً جديداً ، وقدمه للدارسين وقراء العربية في كتاب أصدره سنة ١٩٨٢ بعنوان (تجديد النحو) مكوناً من مدخل وستة أقسام: قسمين للصرف وأربعة للنحو .

ويعد هذا المدخل استكمالاً لنهجه السابق في التصنيف الجديد للنحو ، والذي بدأه بمدخل مماثل صدر به كتاب (الرد على النحاة) وهذا المدخل فصل فيه د/ ضيف الحديث عن الأسس الستة التي استند إليها في تصنيفه الجديد للنحو ؛ ومن ثم نقف عند هذا المدخل - كما وقفتنا عند سابقه - لنبرز أهم ما فيه من فكر جديد لصاحبته نحو إعادة تصنيف النحو تصنيفاً جديداً ، مع نقاشه - ما احتجنا إلى النقاش - في بعض آرائه وتسجيل وجهة نظر الباحث وفاقاً أو خلافاً معه ، علمًا بأن الخلاف لا ينقص من فكر الآخر ورؤيته ، كما أنه لا يفسد للود قضية .

أسس جديد النحو في الكتاب

الأساس الأول : إعادة تنسيق أبواب النحو^(٥٢) :

هذا التنسيق الجديد لأبواب النحو جعل الكتاب في ستة أقسام ، شملت العديد من المباحث ، وقد بدأها صاحبها بمبحث في نطق الكلمة وهو مقتبس من علم التجويد، ثم أعقبه بمحاجة صرفية حول أبنية الفعل وأقسامه وتصارييفه وأنواع الحروف وأقسام الاسم المتعددة تنوعاً واسعاً ، ولم يعن بفكرة الموازين ولا بباب الإعلال ؛ لأن ذلك يدخل على المباحث الصرفية تعقيداً وصورةً للكلامات مفترضة لم تجر على الألسنة ، ثم انتقل بعد ذلك إلى المباحث التحوية ، فتحدث عن المرفوعات بادئاً بالمبتدأ والخبر ركناً الجملة الاسمية ثم إن وأخواتها ولا النافية للجنس والفاعل ونائبه ، ثم انتقل إلى المنصوبات فتحدث عن المفعولات والاستثناء والحال والتمييز والنداء على التوالى ، ثم صيغ الفعل ثم العدد ثم الممنوع من الصرف ثم عمل المصادر والمشتقات ثم حروف الزيادة ، ثم انتقل بعد ذلك إلى الإضافات كالذكر والحذف والتقديم والتأخير وأنواع الجمل .

وفي ضوء هذا التنسيق الجديد ألغى د/ ضيف من أبواب النحو ثمانية عشر باباً هي : باب كان وأخواتها ، وباب ما ولا ولاات العاملات عمل ليس ، وباب كاد وأخواتها ، وباب ظن وأخواتها ، وباب أعلم وأخواتها ، وباب التنازع ، وباب الاشتغال ، وباب الصفة الشبهة ، وباب اسم التفضيل ، وباب التعجب ، وباب المدح والذم ، وباب كتابيات العدد ، وباب الاختصاص ، وباب التحذير ، وباب الإغراء ، وباب الترخيص ، وباب الاستفائية ، وباب الندبة ، ونقل باب الإضافة وباب التوابع إلى تسميات الاسم في القسم الثاني من الكتاب .

واللغاء هذه الأبواب لا يعني خروجها أو خروج أمثلتها من كتب النحو ، بل أدمجت في أبواب أخرى رأها د/ ضيف أحق بها ، فأنبوب (كان وكاد وظن وأعلم) انتقلت إلى

(٥٢) انظر : د/ شوقي ضيف . تجديد النحو من ١١ - ٢٢ وتنيسير النحو من ٤٩ - ٥٣ (يتصرف) .

باب المفعول به على اعتبار أنها أفعال تامة ، ومرفووعها فاعل ومنصوبها حال أو مفعول وفقاً لنوع الفعل من حيث التعدي واللزوم ، وترتبط على ذلك إلغاء باب (ما ولا ولات) لأنها مشبهات بـ (ليس) وقد انتقلت إلى باب المفعول ، وقرر د/ ضيف إلغاء (لا) لأنها ليس لها نماذج ، وأما (لات) الواردة مرة واحدة في القرآن الكريم فقد رأى أنها حرف لنفي الظرف ، وتدخل فيما أسماه بـ (شبة الجملة) ، وأما (ما) التي ورد لها أكثر من نموذج قرآني فقد رأى أن ما بعدها مبتدأ مرتفع وخبر منصوب بتنزع الخافض وليس بتائير من (ما) .

والباحث يحمد للدكتور / ضيف رأيه في إلغاء أبواب (كان وكاد وظن وأعلم) واندماجها في باب المفعول به ، على الرغم من خلافه معه في أن جملة (كان وأخواتها) جملة فعلية ، كما يوافقه على إلغاء (لا) العاملة عمل ليس : لكنه يختلف معه في (ما ولات) ، وتعليقه لنصب الخبر مع (ما) بتنزع الخافض غير مقبول ؛ لأن الأصل في الخبر أن يأتي بدون خافض ، ثم يسبقه الخافض لدلالة التوكيد ، كما تدخل (من) الزائدة على المبتدأ ، وأما تحويل جملة (لات) إلى شبه جملة من أجل إلغاء (لات) فهو خلل في نظام الجملة القائم على عنصرين أساسين ، ويصعب أن نفهم قوله تعالى (فنابوا ولات حين مناص) إلا إذا قدرنا عنصرًا محنوفًا في جملة (لات) ؛ وأرى أن يلحق الحرفان بالمبتدأ والخبر ، مع الإقرار بتائيرهما على رفع المبتدأ ونصب الخبر ، كما يؤثر الخافض فيهما .

وفي تبريره لإلغاء باب التنازع عرض د/ ضيف لرأيتي البصريين والkovfien في الفعل العامل في الفاعل أو المفعول ، ورأى البصريين أن العمل للفعل الثاني لقريبه ومفعول الأول مضمر ، ورأى الكوفيين أن الفعل العامل هو الأول لسبقه ومفعول الثاني مضمر ، ثم خطأ د/ ضيف كلا الرأيين محتاجاً بأن النصوص العربية الموثوقة تشهد بأن الفعلين يتسلطان على المعمول دون إضمار في الأول ولا في الثاني ، ثم ذهب مذهب سيبويه في أنه لا يوجد تنازع بين عاملين على معمول واحد ، بل دائمًا العمل للفعل الثاني ، ورأى د/ ضيف أن النحاة افترضوا صوراً للتنازع لم يشهد لها الواقع اللغوي ، ومن ثم يجب أن تلغى من النحو ، ولا يبقى إلا ما له نماذج في الاستعمال اللغوي الموثوق ، ونقل هذه النماذج في باب الذكر والمحذف موزعة على مبحثي حذف الفاعل ومحذف المفعول ، تبعاً للمعمول المحنوف .

والباحث يتفق مع د/ ضيف في إلغاء باب التنازع وتوزيع صوره المستعملة في اللغة على أبواب أخرى ، غير أنه يختلف معه في حذف الفاعل ، فالفاعل من وجهة نظرى لا يحذف وإنما هو ملازم للفعل مضمر فيه ، وعلى ذلك توضع صورة التنازع الخاصة به في باب الفاعل المضمر أو الضميري ، هذا من ناحية ومن ناحية أخرى ليس هناك دليل بين على أن العمل للفعل الثاني ، فلم لا يكون العمل للأول ومعمول الثاني مضمر ؟ وهذا ما قرره الكوفيون ، وفي نظرى أن رأيهم أقرب : لأن الإضمار بعد الإظهار أفضل وأولى منه قبل الإظهار ، وعلى هذا جاءت لغة القرآن الكريم في مثل قوله تعالى : « مَا وَدَعْكَ رِبُّكَ وَمَا قَلَى » الضحى ٣ فالمعنى نكر مع الفعل الأول وقدر مع الفعل الثاني . وفي تبريره لإلغاء باب الاشتغال ذكر د/ ضيف أن كثيراً من صور الاشتغال مصيطنعة من النحاة وليس لها واقع لغوی ، بل ليس له إلا صورة واحدة هي التي وردت في القرآن كثيراً ، كما في قوله تعالى : (والأنعام خلقها) ، وهذه الصورة إما أن تساق في باب المبتدأ والخبر على اعتبار أن الاسم مرفوع مبتدأ والجملة الفعلية خبر ، أو تساق في باب المفعول به الذي حذف فعله .

والباحث يتفق مع د/ ضيف في رأيه هذا ، ويذكر بأمر مهم ، هو أن د/ ضيف خالف هنا رأيه بإلغاء نظرية العامل ومنع التأويل والتقدير : لأنه قد فعلاً محنوفاً عمل في الاسم المفعول النصب ، وهذا يحدث خللاً في تطبيق المنهج الذي دعا إليه ، لاسيما أنه قرر سلفاً أن (زيداً) في جملة (زيداً ضربته) مفعول به ولكن لا تقدر له عاملًا محنوفاً^(٤) . ولو كان د/ ضيف قد فعل ذلك قصداً ، فائناً أو زيده في رأيه بأن الاسم المتصوب مفعول به لفعل محنوف . وحسبه من التيسير أنه حذف الصور المفترضة من النحاة في هذا الباب ، والتي ليس لها واقع لغوی في الاستعمال ، بل حذف الباب برمته ونقل صوره المستعملة إلى باب آخر ، فهذا يخفف من العبء .

أما أبواب التفضيل والتعجب والصفة المشبهة والمدح والذم وكثنيات العدد والاختصاص فألغيت وأدمجت أمثلتها بمناقشتها في باب التمييز الذي نسقه

(٤) انظر . الرد على النحاة . ٥٩ .

د/ ضيف تنسيقاً جديداً يحمد له ، وضمّ بابا التحذير والإغراء إلى باب الذكر والخذف على اعتبار أنهما مفعولان حذف فعلاهما ، والباحث يعود فيذكر بأن د/ ضيف عدل عن رأيه بإلغاء نظرية العامل ومنع التقدير والتؤليل ؛ إذ قدر هنا فعلاً محفوظ عمل في الاسم المفعول النصب ؛ وهذا يؤكد حلوث خلل في المنهج ، لاسيما أن د/ ضيف دعا إلى إطلاق مصطلح (شبه الجملة) على عدة تراكيب في العربية ؛ منها تركيبة التحذير والإغراء^(٥٥) .

وأما باب الاستفاثة والنسبة فقد ألقى بباب النداء دون حاجة إلى إعرابهما ، وأما باب الترخييم فاللغي لأنه ليس له صور حية في اللغة ، إنما هو لهجة قديمة مهجورة . والباحث لا يمانع من ذلك ، وإن كان التراث الشعري قد حفظ لنا صورة الترخييم^(٥٦) .

أما نقل باب الإضافة وباب التوابع إلى تقسيمات الاسم فلا تتوافق عليه ؛ لأن الإضافة والتوابع موضوعات نحوية تمثل أنماطاً وصوراً من صور التراكيب العربية ، فكيف تعالج في القسم الصرفى الذى يعالج بنية الاسم ؟ إن هذا الأمر يؤدى إلى الاضطراب لدى الدارسين ؛ لأنه يحدث خلطًا بين أهداف الدرس نحوى والدرس الصرفى ؛ ومن ثم ينفي أن يدرجها في القسم نحوى ؛ فهو بهما أولى .

ومن الأبواب التي دعا إلى إلغائها في مدخل الرد على النحوة ، ولم يلغها ولم يدمجها في باب آخر في تطبيق منهجه في كتاب تجديد النحو باب (إن وأخواتها) و (باب لا النافية للجنس) ؛ حيث قرر في المدخل الأول أن يلغى هذا الباب ، وتدمج أمثلته في باب المبتدأ والخبر على أن يعرب الاسم المنصوب مبتدأ منصوباً ، ولم لا والمبتدأ يجر بعد رب وأخواتها ؟ إذن فلا مانع من أن ينصب كما يجر^(٥٧) .

(٥٥) انظر : الرد على النحوة من ٦١ .

(٥٦) من صور الترخييم قول أمرى القيس فى معلقته :

أقاطم مهلا بعض هذا التلل وإن كنت قد أمعت صرمى فاجملى

(٥٧) انظر : الرد على النحوة من ٥١ ، ٥٢ .

والباحث سبق أن أعلن رأيه المخالف لرأى د/ ضيف هذا . وفي عودة د/ ضيف عن رأيه هنا إلى آراء النحاة تأييد لرأى الباحث ، غير أن في ذلك هدماً لمنهجه الذي أرساه في مدخل الرد على النحاة .

وعلى الرغم من الخلاف في الرأي مع د/ ضيف أحياناً ، فإن من ينظر في أبواب النحو التي سجلها د/ ضيف في كتابه يلحظ أن التحوّل في التصنيف الجديد محافظاً على هيكله العام مع عرض الصيغ المتتوعة للعربية عرضاً تفصيلياً ، وأن الأبواب التي الغيت لم تتحذف صورها ، فهو مثبتة في أبواب أخرى ، وأعتقد أن رجوع د/ ضيف عن بعض آرائه عن قصد أو غير قصد قد أفسهم في تشكيل أبواب الكتاب على النحو الذي نراه فيه ، وفي هذا التشكيل ما ييسر النحو للدارسين .

الأساس الثاني إلغاء الإعرابين التقديرى والمحلى^(٥٨) :

هذا هو الأساس الثاني الذي دعا إليه د/ ضيف باهتماء من ابن مضاء واللجنة الوزارية في مقترناتها سنة ١٩٣٨ ، فرأى أن يقال في (جاء الفتى) : الفتي فاعل محله الرفع ، وفي (هذا زيد) : هذا مبتدأ محله الرفع ، وفي ذلك تعليم المصطلح ، وفي (زيد يكتب) : يكتب جملة فعلية خبر فتعين وظيفة الجملة دون ذكر محلها من الإعراب . ورتب د/ ضيف على إلغاء هذا الإعراب :

- ١ - إلغاء تقدير متعلق الظرف والجار والجرور : فهما اللذان يشغلان الوظيفة النحوية ، ولا يتعلكان بمحنوف تقديره مستقر أو استقر كما زعم النحاة ، فنقول في (زيد عندك) : خبر ، ولا نقول بأنه متعلق بمحنوف خبر .
- ٢ - إلغاء عمل (أن) المصدرية مقدرة : اعتبر ابن مضاء على تقدير (أن) الناصبة بعد فاء السبيبية وواو المعية ، ورأى أن المضارع منصوب بالحرف مباشرة ، وبذلك أخذ د/ ضيف في الكتاب .
- ٣ - إلغاء العلامات الفرعية في الإعراب : وهذا يعني أن كل علامة أصلية في موضعها ، ولا تنوب علامة عن علامة ، وطبق د/ ضيف هذا المبدأ في الكتاب .

(٥٨) لمزيد من التوضيح راجع تجديد النحو ص ٢٤ - ٢٦ و تيسير النحو ٥٦ - ٥٨ .

الأساس الثالث : الإعراب لصحة النطق^(٥٩) :

انطلق د/ ضيف في هذا الأساس من مبدأ أن الإعراب ليس غاية في ذاته ، وإنما هو وسيلة لصحة النطق ، فإن لم يصح نطقاً فلا فائدة منه ، ورتب على ذلك إلغاء/ إعراب (لاسيما وبعض أدوات الاستثناء وأدوات الشرط الاسمية وكم الاستفهامية والخبرية وأن المخفة من الثقلة وكأن المخفة) .

وهو يرى أن (أن) المخفة في مثل قوله تعالى (أفلا يرون أن لا يرجع إليهم قولاً ولا يملأ لهم نفعاً ولا ضراً) هي أداة ربط لا أكثر ولا أقل ، مثّلها مثل (أن) في الآية (فأوحينا إليه أن أصنع الفلك) ، ومثّلها كأنُ الخفيفة^(٦٠) .

وأما (لاسيما) فقد تکلف النحاة عناً شديداً ، ولا داعى له ؛ لأن ما بعدها يجوز فيه الرفع والنصب والجر ، فلم العناء فيما لا يفيد ؟ وطبعي أن يلغى إعرابها .

كذلك ينبغي أن يلغى إعراب أفعال الاستثناء ، وخير لنا أن نعربها أدوات استثناء وما بعدها مستثنى منصوب^(٦١) . وكذلك ينبغي أن تعرب (غير ، سوى) في الاستثناء حالاً^(٦٢) . كذلك ينبغي أن يخرج الاستثناء المفرغ من باب الاستثناء ؛ لأنه قصر وتخسيص وليس استثناء عملاً بقرار اللجنة الوزارية .

(٥٩) انظر . تجديد النحو ٢٦ - ٢٠ و تيسير النحو ٥٨ - ٦٠ .

(٦٠) أعتقد أن د/ ضيف ليس بداعياً في ذلك ، فقد ذكر من قبل الفرنسي بلاشير أن العربية الفصحى l'arabe classique عرفت بناء لغويًا استخدمته في اللغة الأدبية يقوم على الربط بالتبعية بين الجملة الأساسية والجملة التابعة ، وأنواع الربط لم تخرج عن "أن المخفة" ، وأن "الشدة" وكذلك التراكيب التي تتخلان فيها مثل على أن ، حتى أن ، طال أن ، كثر أن ... وتستخدم أن الخفيفة للتعبير عن الرغبة والنية كما في قولك "أريد أن أنهب" وتستخدم الأخرى للتعبير عن الحقائق والتوكيد . انظر . Blachère : Grammaire de l'arabe classique p. 432

(٦١) جدير بالذكر أن د/ ضيف أقر فيما بعد بأنها أفعال حذف ، فاعتبرها ؛ حيث عقد مبحثاً بعنوان (استثناء الفعل الثلاثي البنى للمعلوم بمادته عن الفاعل في صيغ مطردة) وذكر أن من ذكر أفعال الاستثناء . انظر له تيسيرات لغوية ص ٣٠ .

(٦٢) أكد د/ ضيف رأيه بأن (غير و سوى) ينبغي إخراجهما من باب الاستثناء إلى باب الحال ، وذلك في كتابه تيسيرات لغوية ص ١٢٢ وما بعدها .

على هذا ينبغي إلغاء إعراب (كم) الاستفهامية والخبرية ، ويكتفى ببيان أنها استفهامية أو خبرية^(٦٢) . وكذلك أسماء الشرط (من ما مهما أى أين أنى حيئما متى إذا كيما) ينبغي أن يلغى إعرابها ؛ لأن إعرابها لا يفيد شيئا في صحة النطق^(٦٤) .

والباحث يتفق معه في ضرورة إلغاء إعراب (السيما) واعتبار (أنْ وكأنْ) المخففتين مجرد أداتي ربط ومثله (كأن)، كما يتفق معه في إلغاء إعراب أفعال الاستثناء ، وعلى إخراج الاستثناء المفرغ من باب الاستثناء ، لكنه يرى الإبقاء على إعراب (غير وسوى) في باب الاستثناء كما ذكر النحاة، أما الدعوة إلى إلغاء إعراب (كم) الاستفهامية والخبرية وأسماء الشرط ، فللباحث رأى آخر ، سلف ذكره ، ونبذه هنا تأكيداً ، فالدعوة إلى الإلغاء بحجة أن ذلك لا يفيد شيئا في تقويم اللسان وتصحيح النطق فذلك أمر يحتاج إلى نظر ؛ لأن هناك فرقا بين بيان وظيفة الكلمة في الجملة وعلامة الإعراب التي تستحقها ، فلو كان د/ ضيف يقصد الاستغناء عن وظيفة الكلمة النحوية لوجب أن يسحب ذلك على كل الأسماء المقصورة والمتقوصة والمبنية ؛ فكلها لا تظهر عليها علامات إعراب تساعد على النطق السليم ، غير أنه لم يفعل ذلك ، ولننسأل : لماذا نقول في (هذا محمد) : هذا مبتدأ مبني ، ولا نقول ذلك في (من) من قولنا : (من يقم أقم معه) ؟ ولا فرق بينهما في تقويم اللسان وتصحيح النطق . ومن ناحية أخرى فإن الاستغناء عن إعراب أسماء الشرط ينبغي أن يسحب على أسماء الاستفهام تعديماً للقاعدة ، لأن كثيرا منها مشتركة . أما لو كان قصده الاستغناء عن قولنا في (من يقم أقم معه) : من اسم شرط مبني على السكون في محل رفع مبتدأ ، ويكتفى ببيان أنها اسم شرط مبني مبتدأ ، لا تفتنا معه ، وحينئذ تدخل أسماء الشرط

(٦٢) لم يستقر على رأيه هذا ، حيث عاد فذكر أن (كم) تعرب كما أعتبرها النحاة ، وذلك تعليقه على قوله تعالى ﴿أَلَمْ يَرُوا كُمْ أَهْلَكَنَا قِبْلَهُمْ مِنَ الْقَرُونِ﴾ ؛ إذ قال - لا نعرب (كم) مفعولاً به للفعل (يروا) السابق لها ، وإنما تعرب مفعولاً به لل فعل التالي لها (أهلنا) انتظر . تيسيرات لغوية من ١٠٣ .

(٦٤) كذلك هنا لم يستقر د/ ضيف على رأيه هذا ، حيث عاد فذكر تحت باب عقده باسم (الصدارة) لأسماء الاستفهام والشرط أن أنواع الشرط كانوا استفهام لا يعمل فيها عامل قبلها إلا إذا وقعت بعد حرف جر أو اسم مضارف ، فإنها تجر مثل قولنا (من تستعن أستعن) ، ثم قال - أما (من) فبحسب مواقعها من الكلام ، فقد تكون مبتدأ في مثل (من يقم أقم معه) وقد تكون مفعولاً به كما في (من يضل الله فلا هادي له) ... انتظر . تيسيرات لغوية من ١٠٩ .

في قاعدة الأسماء المبنية والمقصورة والمنقوصة . وعلى كل فقد عدل عن رأيه في (أفعال الاستثناء وكم وأسماء الشرط) في موضع آخر^(٦٥) ، ولا أدرى فهو فعل ذلك بقصد أم بدون قصد ؟ وعدهله عن رأيه يحدث خللاً في المنهج الذي رسمه لإعادة تصنيف النحو ، غير أنني أحمد له ذلك في بعض الآراء ، ففي عدله وتراجعه الخير للنحو .

الأسس الرابع - وضع تعريفات وضوابط دقيقة^(٦٦) :

هذا الأساس أضافه د/ ضيف إلى الأسس الثلاثة السابقة في سنة ١٩٧٧ حينما قدم مشروعه إلى المجمع لتيسير النحو ، وهو وضع تعريفات وضوابط دقيقة لبعض أبواب النحو التي لم يتيح لها أن تُعرف تعريفاً سيدينا من النحاة . ووقف د/ ضيف في هذا الأساس عند المفعول المطلق والمفعول معه والحال . ثم عرض لتعريف ابن هشام للمصطلحات الثلاثة^(٦٧) مبيناً أنها مضطربة وغير دقيقة ، ثم وضع هو تعريفاً لكل منها على النحو التالي :

- المفعول المطلق : هو عند ابن هشام "اسم يؤكد عامله أو يبين نوعه أو عدده" ، وعند د/ ضيف هو "اسم منصوب يؤكد عامله أو يصفه أو يبينه ضرباً من التبيين" وتدخل في كلمة (ضرباً من التبيين) جميع الصيغ التي تتوب عن المفعول المطلق .
- المفعول معه : هو عند ابن هشام "اسم فضلة تالٌ لواو بمعنى (مع) تالية لجملة ذات فعل أو اسم فيه معناه وحرفه" ، وعند د/ ضيف هو "اسم منصوب تالٌ لواو غير عاطفة بمعنى مع" .

- الحال : هو عند ابن هشام "وصف فضلة مذكور لبيان الهيئة" ، وعند د/ ضيف هو "صفة لصاحبها نكرة مؤقتة منصوبة" .

والباحث لا يختلف مع د/ ضيف في تعريف المصطلحات الثلاثة ، غير أنه يود أن يكون تعريف الحال هكذا : "اسم نكرة منصوبة صفة مؤقتة لصاحبها" ، هذا من

(٦٥) انظر د/ ضيف . تيسيرات لغوية ص ١٠٣ : ١٠٩ .

(٦٦) انظر تجديد النحو من ٢٠ : ٣٤ و تيسير النحو من ٦٠ . ٦١ .

(٦٧) اعتمد د/ ضيف في تعريف ابن هشام للمصطلحات الثلاثة على كتابه أوضح المسالك .

ناحية ، ومن ناحية أخرى فإن تعريفه للمفعول المطلق يؤكد على العودة إلى نظرية العامل : إذ يقول : "اسم يؤكد عامله .. أى فعله الذى عمل فيه النصب .

الأساس الخامس - حذف زوائد كثيرة^(٦٨) :

رأى د/ ضيف أن من تيسير النحو وتجديده حذف بعض الزوائد التي لا تخل بالقواعد العامة ، فرأى أن تحذف شروط اسم التفضيل وشروط فعل التعجب : فالأمثلة فيها تغنى عن ذكر الشروط ، وقواعد اسم الآلة : لأنه يعتمد على السماع ، وشروط التصغير وصيغة التي لا تجرى على الألسنة كتصغير فعل التعجب ، ومعظم قواعد النسب التي لا حاجة لنا بها الآن ، وأكثر شروط تقديم المبتدأ وجوباً وتقديم الخبر وجوباً ، وجعل ذلك في باب التقديم والتأخير ، وكذلك شروط حذف المبتدأ وحذف الخبر ، وجعل ذلك في باب الذكر والحذف ، وحذف إعمال ليت مع (ما) الكافية ، لعدم استعمالها في الواقع اللغوي ، وحذف ما يسمى بالاعطف على (إن واسمها) ، ورأى أنه مبتدأ خبره محظوظ لدلالة السياق عليه ، وكذلك ما قرره النحاة من أن نعت (اسم إن) و (اسم لا النافية للجنس) أو توكيده أو البديل منه يجوز فيه الرفع والنصب ، فحذف وجه الرفع مكتفياً بالنصب تيسيراً على الدارسين ، وحذف من الكتاب وجودة الإعراب المتعددة في (لا حول ولا قوة إلا بالله) ، كما حذف شروطاً وأحوالاً كثيرة للمفعول معه ، كما حذف كثيراً من كلام النحاة عن تابع المبتدأ وما يجوز فيه من رفع ونصب بحجة أن كل أمثلته من اصطلاح النحاة ، علمًا بأن القرآن يقول : (يا جبال أوبى معه والطير) ، كما حذف عمل المصدر منكراً ومعرفاً بـ (ال) : لأنه غير مستعمل في اللغة ، وكذلك إضافة المصدر لمفعوله قبل الفاعل ، كما حذف ما أسماه النحاة بـ (فاعل سد مسد الخبر)^(٦٩) : لأن أمثلته غير موثوقة ولم ترد في القرآن وغير مستعملة في اللغة . والباحث يوافقه الرأى في كل ذلك : تيسيراً للنحو على الدارسين .

(٦٨) انظر : تجديد النحو من ٢٤ . ٤١ و تيسير النحو من ٦١ . ٦٢ .

(٦٩) إعراب (الزيдан) في جملة (أقامت الزيدان) فاعلاً سد مسد الخبر من فساد رأى النحاة : حيث اجتمع في الجملة عنصران كلاهما مستند إليه (المبتدأ والفاعل) وغاب المستند (الخبر) عن الجملة .

الأساس السادس - إضافات متنوعة^(٧٠) :

هذه الإضافات كثيرة ومتنوعة؛ هدفها توضيح الصياغة العربية في نفس دارس النحو، ومن تلك الإضافات المبحث الخاص بقواعد النطق، وعلته في ذلك أن قواعد النطق كانت تدرس للناشئة قديماً مع حفظهم للقرآن الكريم، أما الآن والناشئة لا يهتمون بحفظ القرآن فلابد أن يتعلمونها من خلال كتاب النحو. وقد شملت هذه الإضافات الحديث عن تاء التأنيث ودلائله المتنوعة ونونى الجمع والمثنى على أنهما بدل من التنوين في المفرد، والفرق بين اسم الجمع واسم الجنس الجمعي^(٧١)، ونون الوقاية، وتحدث عن المضاف والمضاف إليه والتابع والمتبوع في القسم الصرفى، كما أشار في الأقسام النحوية إلى أن جمع ما لا يعقل في الكون والطبيعة والأشياء يعامل مع الخبر والنعت والفعل معاملة الكلمة المفردة، وهذه الإضافة جديدة وإن كان ذلك معروفاً في الاستعمال اللغوى، لكن النحويين لم يفردوا لذلك باباً أو فصلاً، وأضاف في الممنوع من الصرف صيغ (آخر، أحد، موحد)، كما اعتبر تخصيص باب للذكر والمحذف، والتقديم والتأخير من الإضافات، وأنا أخالفه الرأى؛ لأن النحاة ذكرروا ذلك كلاماً في موضعه مثلاً فعل هو مع باب التنازع؛ حيث لغاه وذكر صوره المستعملة في باب الفاعل والمفعول. فهو يدعو إلى التخفيف من أبواب النحو في بداية الكتاب ويعد ذلك تيسيراً ثم يزيد هو أبواباً !! فهذا تناقض في المنهج ويمثل ثقلًا على الدارسين.

(٧٠) انظر . تجديد النحو ٤٢ وقد جاء هذا الأساس في موضع آخر بعنوان (استكمالات لتوافق ضرورية) انظر . تيسير النحو من ٦٣ - ٦٤ والدلالة ليست واحدة في العنوانين ، فبينما تقيد في تيسير النحو أن نحونا بحاجة ماسة لهذه الاستكمالات تقيد في تجديد النحو أن هذه الإضافات من قبيل النافلة ، لكن د/ ضيف يرى أهمية هذه الإضافات للنحو ، ومن ثم فالعنوان في تيسير النحو أكثر دقة .

(٧١) ذكر د/ ضيف أن اسم الجمع يحمل دلالة الجمع ، غير أنه لا واحد له من لفظه ، وهو يجمع ويثنى مثل (أمة/أم ، شعب/شعوب) ، واسم الجنس الجمعي يأتي من مفرده بحذف تاءه أو ياءه ، وهو يثنى ويجمع مثل (شجرة / شجر / أشجار ، تركى / ترك / أتراك) . و (أشجار وأتراك) جمع تكسير . راجع تجديد النحو من ٩٨ .

- بعد هذا العرض لمنهج د/ ضيف في مدخل تجديد النحو يمكن أن نسجل الآتي :
- أضاف ثلاثة أسس أخرى إلى الثلاثة الأولى : لتصبح ستة أسس لا غنى عنها في التصنيف الجديد للنحو العربي .
 - ترتب على هذه الأسس إلغاء ثمانية عشر بابا من النحو ، ودمج أمثلتها في أبواب أخرى إلا قليلاً جدا منها رأى حذفها لعدم وجود لها في الواقع اللغوي .
 - قليل مما دعا إليه في مدخل الرد على النحاة تراجع عنه في مدخل تجديد النحو ، مثل دعوته إلى إلغاء باب (إن وأخواتها) . وفي ذلك حمد له .
 - إلغاء الأعراب التقديري والمحلى في الجمل والمفردات المقصورة والمتقوصة والمبنيّة ، وإلغاء متعلق الظرف والجار والمجرور ، وإلغاء (أن) مقدرة ناصبة للمضارع بعد أدوات أخرى مثل فاء السبيبية .
 - جعل الإعراب لصحة النطق ، فيما لم يصح نطقا فلا حاجة له ؛ ولذا دعا إلى إلغاء إعراب أفعال الاستثناء ولاسيما وأن المخفة من الثقلية وكما الاستفهامية والخبرية وأسماء الشرط .
 - وضع تعريفات جديدة لبعض الأبواب النحوية ، ترتب عليها إلغاء شروط وقواعد كثيرة للنحاة لإحكام تلك الأبواب . كما دعا إلى حذف كثير من القواعد والشروط التي وضعها النحاة في معظم الأبواب ولا حاجة للدرس بها .
 - دعا إلى تزويد الكتاب بمجموعة إضافات متعددة رأى أهميتها لاستكمال منهجه .
 - على الرغم من تواجد نقاط خلاف بين الباحث وصاحب هذا المنهج الجديد ، فإن ذلك لا يمنع من القول بأن المنهج بهذا الشكل منهجه محمود يحمل تيسيرا للنحو وتجديدا في تبويبه ، وهو يعد استكمالاً لمنهجه في مدخل الرد على النحاة ، بصرف النظر عن تراجعة في بعض آرائه التي ذكرها في المدخل الأول ، وهذا يؤكد أن د/ شوقي ضيف نو فكر متجدد ورؤيه علمية ثاقبة معمقة .
- ولكن هل نجح د/ ضيف في تطبيق هذا المنهج بصورة الأخيرة في كتابه (تجديد النحو) ؟ وما مدى هذا النجاح ؟ هذا ما نحاول أن نجيب عنه فيما يستقدم .

تطبيق المنهج في كتاب تجديد النحو :

النحو التطبيقي في الكتاب موزع على ستة أقسام على النحو التالي :

القسم الأول^(٧٣) : في نطق الكلمة وأقسام الفعل وتصارييفه وأنواع الحروف . ونطق الكلمة هو أحد المباحث التي أضافها د/ ضيف إلى الدرس النحوى ، وللباحث امتناع على دمج بحث نطق الكلمة و (ال) الشمسيّة والقمرية في القسم الخاص بالفعل ، وكان الأفضل أن يستقل نطق الكلمة بقسم مستقل ، وهي ليست أقرب للفعل منها للاسم . وفي بحث نطق الكلمة وضع د/ ضيف عنواناً جانبياً باسم (مخارج الحروف) ، وكان الأولى أن يسميه (مخارج الأصوات) : لأن الحرف هو الرمز المكتوب للصوت المنطوق ، لكن د/ ضيف سار على نهج القدماء في المصطلح رغم دعوته إلى مخالفتهم واعتراضه على منهجهم النحوى . وفي (أنواع الحروف) تحدث عن حروف المعاني فقط دون الإشارة إلى المصطلح ، وكان ينبغي أن يشير إلى حروف المباني التي تبني منها الكلمات كما فعل القدماء ، لكنه لم يفعل فعلهم ! وكونه يدمج الدراسة الصوتية في الدرس النحوى هو منهج القدماء ، والفرق بينه وبينهم أنهم كانوا يعرضون للجانب الصوتى بعد الانتهاء من الدرس النحوى والصرفى ، وإنما هو جعل الدراسة الصوتية في مقدمة الدراسة الصرفية والنحوية ، وهذا هو منهج المحدثين . وهذا التنوع يحدث خلافاً في المنهج .

وحيثما تعرض لل فعل المضف مثل (صدّ وارتدى) لم يقدم تفسيراً للإدغام وفك الإدغام ، واكتفى بقوله : إنهما "يحتاجان إلى نظر"^(٧٣) ، وفي عرضه لبناء الفعل المضارع وإعرابه رفعاً ونصباً وجزماً لم يخرج فيه عن المأثور النحوى ، وبالتالي لم يطبق منهجه الذي دعا إليه بتصدي هذا الشأن ، وهو أن المضارع المبني على الفتح يضم إلى المضارع المنصوب ، والمضارع المبني على السكون يضم إلى المضارع المجزوم ، ويكون كلاماً مجزوماً أو مبنياً^(٧٤) .

(٧٢) انظر تجديد النحو من ٤٧ . ٤٣ .

(٧٣) انظر المرجع السابق من ٦٨ .

(٧٤) انظر الرد على النحاة من ٥٠ .

القسم الثاني^(٧٥) . في أقسام الاسم وتصارييفه وأنواعه ، وفيه تحدث عن أبنية الاسم وأنواعه من حيث التعريف والتذكير ، والتذكير والتأنيث ، والصحة والاعتلال ، والإفراد والتشيية والجمع ، وفرق بين نونى المثنى والجمع ونون الأفعال الخمسة ، ودلل على أن النون في المثنى والجمع بدل من التنوين في المفرد . ثم تحدث عن اسم الذات واسم المعنى وبالتالي تحدث عن المصادر والمشتقات وأنواعها ، ثم تحدث عن الإعراب والبناء وعلامات الإعراب وأنواع المبنيات ، ثم تحدث عن الاسم المضاف وغير المضاف وأنواع الإضافة ، والتابع والمتبوع وأنواع التوابع ، ثم التصغير والنسب .

لاحظ الباحث أن في حديث د/ ضيف عن الضمائر لم يخرج عما جاء في كتب النحو ، وردد مصطلحاتهم ، واستوقف الباحث مصطلح (ضمير مستتر جوازا) الذي لم يلف انتباه د/ ضيف، فهذا المصطلح غير دقيق ؛ لأن معناه أنه يجوز ظهوره ، وليس هذا هو المقصود، فإن ظهر فلن يعرب فاعلا ، إنما يعرب توكيدا للفاعل المستتر ، كما في الآية (فإن كان الذي عليه الحق سفيها أو ضعيفا أو لا يستطيع أن يملأ هو فليملأ وليه بالعدل - البقرة ٢٨٢) والمقصود به أن الاسم الدال عليه يمكن أن يظهر ؛ ولذا فالمصطلح غير متواافق مع المقصود منه ؛ ومن ثم ينبغي أن نبحث عن مصطلح يتواافق مع مقصوده النحوي . كما استوقف الباحث رأى د/ ضيف في أن جملة (خالد ثيابه نظيفة) من بدل الاستعمال^(٧٦) ، على أن المبدل منه المبتدأ ، والباحث يرى أن هذه الجملة مركبة من اسم مفرد وخبر جملة اسمية ، وهذا هو المألوف في كتب النحو ، ود/ ضيف نفسه ذكر ذلك في حديثه عن أقسام الخبر ، فهو يأتي مفردا وجملة فعلية وجملة اسمية مثل (زيد شعره جيد)^(٧٧) .

ويمكن القول بأن د/ ضيف في كل هذا لم يخرج عن مألوف النحو إلا أنه ضم بعض المباحث النحوية إلى القسم الصرفي ، مثل البناء والإعراب والإضافة والتوابع ، وأنا أرى أن دمج هذه الأبواب في زمرة الدرس الصرفي أمر يحدث/ خلطا واضطربابا

(٧٥) انظر تجديد النحو ص ٨٥ - ١٣٣ .

(٧٦) انظر المرجع السابق ص ١٣٠ .

(٧٧) انظر المرجع نفسه ص ١٣٩ .

لدى الدارس بين الدرس الصرفي والدرس النحوى ، وغنى عن القول أن الصرف يعالج بنية الكلمة ، والنحو يعالج وظيفة الكلمة داخل الجملة وما يطرأ عليها من علامات إعراب وفقاً لوظيفتها النحوية في الجملة .

القسم الثالث في المرفوعات^(٧٨) ، وقد بدأها بالمبتدأ والخبر ثم إن وأخواتها ولا التافية للجنس ، ثم الفاعل ونائبه ، وتحدث عنها حديث النهاة - إلا قليلاً - من تعريف للمبتدأ والخبر ومجئ المبتدأ نكرة ومضيرها متصلاً ، وتطابق المبتدأ والخبر وأنواع الخبر وتعدده ومجئ الخبر لجمع ما لا يعقل مفرداً مؤنثاً والربط بين المبتدأ وجملة الخبر ، وحذف المبتدأ والخبر ويقدم الخبر على المبتدأ ، ولام الابتداء وموضع كسر همزة (إن) وفتحها ، ودخول (ما) الكافة على إن وأخواتها ، وحذف خبر لا التافية للجنس والفرق بين لا التافية للجنس ولا التافية للواحد ولا المكررة ، وتعريف الفاعل وتتأخره عن فعله ظاهراً أو ضميراً ، والجمع بين الضمير والاسم الظاهر ، وتذكر الفعل وتتأتيه مع الفاعل وحذف الفاعل ومجيئه جملة ومجيئه مجروراً لفظاً ، وهكذا . والحديث بهذا الشكل المثبت في الكتاب يدعو الباحث إلى التوقف قليلاً ليسجل الآتي :

- د/ ضيف لم يتحدث عن خبر المبتدأ المنصوب بعد (ما) العاملة عمل (ليس) عند النهاة ، وهو قد دعا في منهجه إلى إلغائها ودمج أمثلتها في باب المبتدأ والخبر .

- ذكر أن المبتدأ يأتي ضميراً متصلة ، وساق له أمثلة : منها (لو لاك ولو لاه) كما نقول (لولا أنت) ، فالكاف والماء مبتدآن^(٧٩) ، وهذا مخالف لمنهجه الجديد الذي اقترح فيه أن الاسم بعد لولا مثل (لولا دعاؤكم) لا يعرب مبتدأ ، وإنما يعرب شبه جملة مرفوعة ، وإذا كان بعد لولا ضمير متصل مثل (لو لاه ولو لاك) فهو شبه جملة مجرورة^(٨٠) . فإن كان تراجعاً مقصوداً فأنما أحمد له ذلك ، وإلا فهو إخلال بالمنهج .

(٧٨) انظر تجديد النحو من ١٣٥ - ١٦٠ .

(٧٩) انظر . المرجع السابق من ١٣٩ .

(٨٠) راجع كتاب الرد على النهاة من ٦٠ .

- فى معرض حديث عن أقسام الخبر ذكر د/ ضيف أن الخبر يأتى جملة فعلية مثل (زيد يذاكر) ، وفي سياق حديثه عن الربط بين المبتدأ وجملة الخبر قال : "تحتاج جملة الخبر فعلية أو اسمية إلى رابط يربطها بالمبتدأ ، وهو غالبا ضمير مثل (الفضيلة تزين الإنسان) ففى (تزيين) ضمير مستتر تقديره (هو) فاعل يعود على المبتدأ الفضيلة" وأنك رأيه هذا فى مواضع أخرى^(٨١) ، منها حديثه عن الفاعل بأنه لا يتقدم على فعله ، وإذا تقدم يصبح مبتدأ ويخلفه مع الفعل ضمير يعود عليه من ضمائر الرفع المتصلة مستترة أو بارزة ، مثل : (زيد عرف والزيتون عرفوا)^(٨٢) . ورأيه هذا يناقض رأيه السابق المؤيد لابن مضاء فى عدم تقدير فاعل مستتر فى الفعل فى مثل (زيد يسافر)^(٨٣) ، وهذا ما يجعلنا نؤكد ما ذكرناه سابقاً من أن ذلك يعد إخلالا بالمنهج وهدما لبعض أساسه : إن لم يكن قد قصد التراجع عن رأيه الأول ، وهو تراجع محمود ، غير أننا لا نملك دليلاً على ذلك .

- فى حديثه عن الربط بين المبتدأ والخبر ذكر د/ ضيف أن الربط يكون بالفاء والواو ، وساق مثلاً للواو من العامية هو (كل فولة ولها كيال) وقد صرخ هو بذلك فى قوله : "ولغتنا العامية تحل الواو محل الفاء فى هذا التعبير"^(٨٤) . وأنا لا أتفق على ذلك؛ لأنني يحدث اضطراباً لدى الدارس وخلطاً بين تراكيب الفصحي وتراكيب العامية، ومعروف أن كتب النحو تعالج تراكيب الفصحي ، ود/ ضيف نفسه يؤيدنى فى رأىي

(٨١) انظر تجديد النحو ص ١٣٩ ، ١٤٢ ، ١٤٦ ، ١٤٨ .

(٨٢) انظر المرجع السابق ص ١٥٣ .

(٨٣) انظر الرد على النحاة ص ٥٧ .

(٨٤) انظر . تجديد النحو ص ١٥٣ وربما يكن د/ ضيف قد تأثر فى رأيه هذا بالمستشرق الانجليزى بروجشتراسر ، إذ يقول الأخير : إن إحلال الواو محل الفاء فى الجملة الاسمية بين المبتدأ والخبر أمر معروف فى اللهجات العربية الدارجة ، نحو (كل بلاد ولها زنى) وهذه الواو قريبة من واو الحال . انظر : التطوير النحوى ص ١٢٨ .

في مكان آخر ، يقول فيه : "وضع القواعد في الفصحي على أساس ما يجري في الألسنة العامة غير مقبول" ^(٨٥) .

- في حديثه عن (ما) الكافية لـ (إن وأخواتها) لم يزد د/ ضيف عما سجله النحاة من أن (ما) تكف هذه الحروف عن العمل . وكتبت أتمنى أن يزيد فيوضعي دلالة (ما) في الجملة ، خصوصا أنها وردت في القرآن ، ولا أعتقد أنها وردت في القرآن لتکف الحرف عن العمل ، وإنما دخلت لتضع جملة (إن) في نطاق المبالغة والمزيد من التوكيد من خلال القصر والحصر ، فكان (ما) أضافت إلى توكيد الجملة بـ (إن) توكيدها آخر ، كما في قوله تعالى ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ (الحجرات ١٠) .

- على الرغم من أن د/ ضيف اتفق مع ابن مضاء في أن (ألف الاثنين) وواو الجماعة ونون النسوة علامات عدد مثلها مثل تاء التائيث في (قالت) ، وليست ضمائر فاعلية ، واستدل على رأيه بأن هذه العلامات ترد مع الفاعل في الجملة ، وهي لغة قرآنية معروفة عند العرب ^(٨٦) ، أقول : على الرغم من ذلك فإن د/ ضيف يقرّ بأن (ألف الاثنين) وواو الجماعة ونون النسوة) ضمائر فاعلية ، ثم يصف اللغة التي تجمع فاعلا ظاهرا مع فاعل ضميري بأنها لغة شاذة خارجة على قواعد النحو ، وينبغي إهمالها ^(٨٧) . وأنا أعجب له من هذا الوصف !! وكتبت أتمنى لا يتراجع عن رأيه المؤيد لابن مضاء ، ففي تراجعه إخلال بالمنهج ، فضلا عن أنه وصف لغة قرآنية بأنها لغة شاذة ينبغي إهمالها لإهمال قاعدتها .

(٨٥) انظر . تيسيرات لغوية من ١٠٦ ورأى د/ ضيف هذا ناتج من حرصه الشديد على الفصحي لغة القرآن الكريم ، فهو يرى أن العالمية تقطع الروابط والصلات بين العرب ، لأن لغة محلية لا يفهمها سوى أفراد شعبها ، ولعل هذا ما جعله يشيد بالاقسام العربية من الإذاعات الأجنبية في تسكعها بالعربة الفصحيه دون لحن ، على العكس تماماً من وسائل الإعلام العربية (المسموعة والمرئية) ، فهي تسهم بشكل كبير في قطع الصلات والروابط بين أبناء العربية بفضل استعمالها العاميات المحلية بدلاً عن الفصحي لمزيد من ذلك انظر : شبكة الانترنت (شوقى ضيف - مواقفه في الحفاظ على اللغة) .

(٨٦) انظر : الرد على النحاة من ٣٠ ومن أمثلتها في القرآن قوله تعالى ﴿لَمْ يَعْرُوا وَصَمُوا كَثِيرٌ مِّنْهُمْ﴾ المائدة ٧١ وقوله تعالى ﴿وَأَسْرَوْا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا ..﴾ الآية ٢ .

(٨٧) انظر تجديد التحوم من ١٥٢ ، ١٥٤ .

- في حديثه عن الفاعل عقد عنوانا باسم (حذف الفاعل) ، وذكر فيه أن الأصل أن كل فعل لابد له من فاعل ، إما إسم ظاهر أو ضمير مستتر أو بارز ، غير أنه جاء في اللغة فعلان يليهما فاعل واحد ، مثل (أقبل وتكلم زيد) ، فزيد فاعل للفعل الثاني وحذف من الفعل الأول لدلالة السياق عليه^(٨٨) . والباحث يرى أن د/ ضيف هنا خالف رأيا سابقا له يقول : "ليس من الضروري أن يكون لكل فعل فاعل .."^(٨٩) وأننا اتفق معه في رأيه الأخير ، ومن ثم فلا يوجد فعل بدون فاعل ، ولا يحذف الفاعل ، وإنما يكون ضميرا مستترًا في الفعل .

- في حديثه عن نائب الفاعل ، ذكر د/ ضيف مصطلحي (مبني للمعلوم) و (مبني للمجهول) ، وكانت أنتظر منه أن يستخدم مصطلحي (البناء للفاعل) و (البناء للمفعول)؛ لأن البناء يعني الإسناد . وحينما يحذف الفاعل الدلالي يسند الفعل للمفعول ، ويصبح المفعول مستدا إليه أو فاعلا نحويا^(٩٠) .

القسم الرابع في المنصوبات^(٩١) ويدأها بالمفعول به ، وقد أدرج فيه أمثلة (كان وأخوانها ، وكاد وأخواتها ، وظن وأخواتها ، وأعلم وأخواتها) ، وذلك في حديثه عن الأفعال اللاحزة والأفعال المتعددة ، وتحدث عن الترتيب بين الفاعل والمفعول ، وحذف المفعول ، ومجئ المفعول «جريحاً» بمقتضى النصب ، ومجئه منصوباً وحده الجر . ثم تحدث بعد ذلك عن المفعول الطلق وما يتوب عنه ، ثم المفعول فيه وأفاض في الحديث عن أنواع الظروف المعربة والمبينة ، ثم تحدث عن المفعول له ، ثم المفعول معه ، ثم انتقل إلى باب الاستثناء وتحدث عن أدوات الاستثناء وفقا لما جاء عن النحوة ، ثم انتقل إلى باب الحال وأفاض في الحديث عنه وفقا للتعریف الذي وضعه له ، ثم تحدث بعد ذلك

(٨٨) انظر المرجع السابق ص ١٥٦ .

(٨٩) انظر الرد على النحوة ٥٧ .

(٩٠) فرق برجشتراسر بين الفاعل الدلالي والفاعل التحوي (المسند إليه) تعریضاً دقیقاً في حديثه عن الفعل المبني للمفعول ، حيث يقول . أما الأول فهو فعل ما لا يسمى فاعله ، نحو (ضرب زيد) فهو معذوم الفاعل وليس معذوم المسند إليه ، فتواء أنسد إلى (زيد) وهو مفعوله التطور التحوي . ١٤٠ .

(٩١) انظر تجديد التحوى من ١٦١ : ١٩٧ .

عن التمييز بصورةه الجديدة المنسقة تنسيقاً جيداً ، حيث أدرج تحتها كل الأبواب التي دعا إلى إلغائها ووضع أمثلتها في باب التمييز ، ثم انتقل إلى النداء فتحدث عنه بيايجاز وفقاً لمنهج النحاة .

وللباحث تعليق على قسم المنصوبات يخلص في الآتي :

- في عرضه للمفعول به اتبع د/ ضيف منهجه الجديد في النحو؛ حيث تناول فيه ما أسماه النحاة بـ (الأفعال الناقصة) . كما طبقه في المفعول معه والحال ، وطبقه بدقة في باب التمييز؛ حيث أدرج فيه الأبواب التي رأى أن تلغى وتدمج فيه ، كالتفضيل والتعجب والعدد وغيره .

- في باقي الأبواب اتبع منهجه النحاة ، وخالف منهجه الجديد في إطلاقه مصطلح (الأفعال اللاحزة والأفعال المتعدية)؛ حيث دعا من قبل إلى إلغائه و اختيار مصطلح آخر من مصطلحات النحاة (أفعال واقعة وغير واقعة ، أو أفعال مجازة وغير مجازة ، أو أفعال مؤثرة وغير مؤثرة) ، كما خالقه في اعتبار (غير وسوى) أداته استثناء ، يعرّيان إعراب ما بعد (إلا) وقد قرر من قبل أنهما حال ، وحجه في ذلك اتباع جمهور النحاة . وهي حجة غير مقبولة تخلل المنهج الجديد ، ورغم ذلك فرأيه الموفق لجمهور النحاة أفضل .

القسم الخامس^(١٢) وهو تكملات لأبواب النحو السابقة ، وفيه تحدث عن صيغ الفعل الثلاثة ودلائلها الزمنية ، والإعراب والبناء فيها وسبقه هذا للحديث عن الشرط وأدواته ، ثم انتقل بعد ذلك للعدد ، ثم إلى الممنوع من الصرف ، ثم عمل المصادر والمشتقات عمل الفعل ، وختم القسم بحديث عن حروف الزيادة .

والحديث في موضوعات هذا القسم جاء على نسق حديث النحاة؛ ومن أهم ما لفت نظر الباحث فيه :

(١٢) انظر . تجديد النحو من ١٩٩ - ٢٣١ .

- أَنْ د/ ضيف لم يطبق مبدأ التجانس الذي دعا إِلَيْهِ فِي مُنْهَجِهِ ، وساق لِهِ مَثَلًا بالمضارع المتصوب والمضارع المبني المتصل بِنُون التوكيد ، وكذاك المضارع المجزوم والمضارع المبني مع نون النسوة ؛ وَقَالَ فِيهِمَا : "فِي الْبَابِ مِثْلُ الْفَعْلِ الْمُضَارِعِ الْعَرَبِ تَجْمَعُ فِيهِ الْأَحْوَالُ الْمُشَابِهَةُ مِنْ مِثْلِ بَنَائِهِ عَلَى الْفَتْحِ وَتَسْكِينِهِ ، وَإِنْ مُجْرِدَ جَمِيعِنَا لِمُثْلِ ذَلِكَ لِيَجْعَلُنَا نَلْتَفِتُ إِلَى أَنَّ الْفَعْلِ الْمُضَارِعِ الْمُتَصِّلِ بِنُونِ التوكيد يَنْبَغِي أَنْ لَا نَعْتَبِرُهُ مِبْنِيًّا عَلَى الْفَتْحِ ، وَإِنَّمَا نَعْتَبِرُهُ مِنْصُوبًا حَتَّى نُجَانِسَ بَيْنَ حَالَةِ نَصِبِ الْمُضَارِعِ وَحَالَةِ بَنَائِهِ مَعْ نُونِ التوكيد ، أَوْ نَعْتَبِرُهُ فِي الْحَالَتَيْنِ مِبْنِيًّا حَتَّى يَتَمَّ التَّسْسِيقُ فِي الْبَابِ . وَمِثْلُ ذَلِكَ الْفَعْلِ الْمُضَارِعِ الْمُتَصِّلِ بِنُونِ الْإِتَّاثِ يَنْبَغِي أَنْ نَضْمِهِ إِلَى الْمُضَارِعِ الْمُجْزُومِ ، وَنُسَمِّي الْمُضَارِعَ فِي الْحَالَيْنِ مُضَارِعًا سَاكِنًا أَوْ مُسْكَنًا ، وَلَا دَاعِيٌّ لِأَنْ نُسَمِّي سُكُونَهُ مَرَةً جَزَمًا وَمَرَةً بَنَاءً ، وَهَذَا يَعْنِي أَنَّنَا نُسَمِّي الْحَالَةَ بِاسْمِ وَاحِدٍ وَلَا نُوزِّعُهَا عَلَى أَبْوَابٍ" ^(١٣) . وَعَلَى الرَّغْمِ مِنْ خَلْفَنَا مَعَهُ فِي هَذَا التَّصْوِيرِ إِلَّا أَنْ عَدَمَ الْأَخْذِ بِهِ فِي التَّطْبِيقِ هَنَا يَعْدُ إِخْلَالًا بِالْمُنْهَجِ .

- حديث د/ ضيف عن الجملة الشرطية حديث طيب موجز ، غير أنه لم يشر إلى النمط الذي يتقدم فيه اسم ظاهر على الفعل في جملة الشرط ، كما في قوله تعالى : "إِنَّ أَحَدَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَنْجَرْهُ" ، وللنحو حديث طويل ، فمنهم من اعتبر الاسم فاعلاً مقدماً ، ومنهم من اعتبره فاعلاً حذف فعله يفسره الفعل الذي بعد ^(١٤) ، وبالباحث يتسائل : لَمْ لَا يعرب الاسم المتقدم مبتدأ والفعل مع فاعله الخميري خبر ؟ ومن ثم كنت أتمنى أن يخوض د/ ضيف في هذا الحديث ؛ ليقول كلمته التي يراها وفقاً لمنهجه الجديد .

- اعتبار د/ شوقي أن (إن ولو) في تركيب مثل (أفعال الخير وإن لم يقدر لك) ، و (أحب الناس ولو آنوك) أداتي يصل لا يحتاجان إلى جواب ؛ لأنهما خرجا عن شرطيتهما ^(١٥) . وهو رأي جيد .

(١٢) انظر الرد على النحوة من ٥٠ .

(١٤) انظر - ابن يعيش - شرح المفصل ج ٩/٩ : ١٠ .

(١٥) انظر تجديد النحو ص ٢١١ ومن اللغويين الذين أخرجوا هذه التراكيب من الجملة الشرطية الفرنسي بلاشير وأطلق عليها الجملة الإضرابية . *proposition concessive* .

انظر . Blachère . *I did p. 467* .

القسم السادس^(٦٦) وهو قسم خاص بالإضافات المتنوعة التي رأى د/ ضيف من الضروري إضافتها إلى الدرس النحوى وفقاً لمنهجه الجديد ، وهذه الإضافات شملت الحديث عن الذكر والمحذف ، كمحذف المبتدأ والخبر والفاعل مع فعله وبدون فعله ومحذف المفعول ومحذف كان وفاعلها والتمييز والمضاف إليه ومحذف جواب الشرط أو القسم بقرينة أو لدلالة السياق عليه . ثم الحديث عن التقديم والتأخير بين المبتدأ والخبر ، وبين المفعول والفعل وفاعله ، ثم الحديث عن أنواع الجمل في العربية وفقاً للوظيفة النحوية للجملة وقد وزعها توزيعاً جديداً مغايراً لتوزيع القدماء للجمل ، وهو توزيع جيد ؛ حيث قسمها إلى جمل مستقلة وجمل خاصة ، والأولى تشمل الجملة المستأنفة والجملة الحوارية والجملة المعترضة والجملة المفسرة والجملة المعطوفة على إحدى هذه الجمل ، والثانية تشمل جملة الخبر وجملة الفاعل أو نائبـه وجملة المفعول وجملة الحال وجملة التابع وجملة الصلة وجملة المضاف إليه وجملة جواب الشرط وجملة جواب القسم .

وقد لفت نظر الباحث عدة أمور :

- عدد د/ ضيف مواضع المحذف والتقديم والتأخير في المبتدأ والخبر ، وفي ذلك مخالفة لمنهجه الذي دعا فيه التخلص من زيادات كثيرة منها شروط المحذف والتقديم والتأخير في المبتدأ والخبر .

- في حديثه عن حذف المبتدأ ذكر أنه يمحى إذا دل على العموم مثل (من أحسن فلنفسه) أو (فإحسانه لنفسه ، وهذه الصور تكثر في العربية مثل (إن تعف عنه فابنك) أو (فهو ابنك بمحذف المبتدأ ، وفي حديثه عن حذف الخبر ذكر أنه يمحى مع (لولا) دلالـة السياق عليه مثل (لولا النيل لـكانت مصر صحراء) أو (لولا النيل موجود) . وهنا نلاحظ أنه تراجع عن رأيه في أن الصيغ مثل (فلنفسه) و (فابنـك) و (لولا النـيل) لا تعتبر جملـاً ، وإنما هي شبه جملـة مرفوعـة^(٦٧) . وهذا التراجع نراه في مواضع كثيرة للمحذف

(٦٦) انظر : تجديد النحو من ٢٣٣ - ٢٦٤ .

(٦٧) انظر : الرد على النـحة من ٦٠ - ٦١ .

سواء في الجملة الفعلية أو الجملة الاسمية ، وعلى الرغم من ذلك ففي التراجع خير للنحو وللدارسين ، غير أنه يخلخل المنهج الذي أرساه لتجديد النحو وتسويقه .

- ويمكننا القول بأن حديث د/ ضيف عن (الذكر والمحذف) ينافق أساساً قوياً من أسس منهجه الجديد وهو منع التأويل والتقدير، حيث جاء حديثه متوافقاً مع حديث النحاة ، غير أنه أوجز وأبأب في صورة مختصرة ما أفرد له النحاة صفحات كثيرة .

- ذكر د/ ضيف أن الفاعل يحذف مع فعله وبينون فعله ، وأننا أوافقه على الأولى ولا أوافقه على الثانية ، وقد بيّنت من قبل أن الفاعل ملازم لفعله لا يغادره لا يفارقه .

- في باب المفعول المطلق ذكر أن (حقاً) في مثل (هذا هو الرأي حقاً) تعرب مفعولاً مطلقاً مؤكداً لفعله^(١٨) ، ومن قبل ذكر أن (حقاً) في مثل (هو أبوه حقاً) تعرب حالاً^(١٩) ، فائي الرأيين صواب فيأخذ به الدارس ؟ لا يحدث هذا اضطراباً لديه ؟!

- ذكر في إشارة سريعة أن نون المضارع (يكون) تحذف أحياناً حين تجزم مثل (لم يك مخلصاً)^(٢٠) ، وكانت أتمنى أن يعرض لشروط حذفها ولو بإيجاز ، حتى تتضح الصورة كاملة أمام الدارس .

- في حديثه عن الجملة التابعة ذكر أن الجملة تعطف على جملة مثل (زيد يعمل ويتقن عمله) فجملة (يتقن) معطوفة على جملة (يعمل)^(٢١) ، وهذا الرأي مخالف لرأي سابق له يقول بأن الأفعال يعطف بعضها على بعض مثل (ذاكر محمد واجتهد فتفوق)^(٢٢) . وهذا الأمر يحدث خلطًا واضطراباً لدى الدارس ؛ لأن أحد رأيه صواب والآخر خطأ ، ومن وجہة نظرى أن الأول هو الصواب ؛ لأنه لا يوجد ما يسمى بعطف فعل على فعل حتى لو ذكره النحاة ؛ لأن لا يوجد فعل بين فاعل ، فكل فعل يمثل جملة تامة ، ومن هنا فالصواب أن نقول : عطف جملة على جملة ، ولا نقول عطف فعل على فعل .

(١٨) انظر تجديد النحو ص ٢٤٠ .

(١٩) المرجع السابق ص ١٨٤ .

(٢٠) انظر المرجع نفسه ص ٢٤٣ .

(٢١) انظر نفسه ص ٢٦١ .

(٢٢) انظر نفسه ص ١٢٧ .

وختاماً : يسجل الباحث أهم ما انتهى إليه من نتائج تمثل وجهة نظره ، وهي :

- التفكير في تجديد النحو يعود إلى أن د/ شوقي ضيف قد لاحظ أن جميع البلاد العربية تشكو من الشكوى من أن الناشئة فيها لا تحسن النحو ، بل لا تحسن النطق بالعربية نطقاً سليماً ، ورأى أن مرجع ذلك هو النحو الذي يرهق المتكلّي لكثرة أبوابه وتفرعياته وأبنيته وصيغه الافتراضية التي لا تجري في الاستعمال اللغوي ، وهو مع ذلك يخفل شطرًا كبيراً من تصاريف العربية وأنواعها وصياغاتها ؛ مما يجعل الناشئة لا تتبين كثيراً من أوضاع اللغة واستعمالاتها الدقيقة .

- بدأت الدعوة إلى تجديد النحو وإعادة تصنيفه وتبسيطه بشكل جديد عند د/ شوقي مع تحقيقه كتاب الرد على النحاة في سنة ١٩٤٧ ، وكان المنطلق الفكري لشوقي ضيف هو تأثره برواية ابن مضاء الرافضي للنحو العربي بتصوراته المشرقية ، واستمرت فكرة التجديد قائمة متطورة حتى استوت على سوقها في ١٩٨٢ حيث بلورها د/ ضيف وأخرجها في كتابه تجديد النحو .

- مرت فكرة التجديد حتى إخراجها بثلاث مراحل : المرحلة الأولى يمثلها مدخل الرد على النحاة في ١٩٤٧ والمرحلة الثانية تمثلها الفترة ما بين ١٩٧٧ - ١٩٨١ حيث قدم للمجمع مشروعًا لتيسير النحو ، والمرحلة الثالثة هي خلاصة ما سبق منذ ١٩٤٧ حتى ١٩٨٢ ويمثلها مدخل (تجديد النحو) ثم التطبيق .

- مدخل كتاب الرد على النحاة يعد تحليلاً وافياً لأراء ابن مضاء مع التأييد الكامل من د/ ضيف والاستجابة لأرائه الجديدة التي تتمثل في إلغاء بعض الأسس التي قام عليها البناء النحوي بتصوراته المرفوضة من قبل ابن مضاء ، وهي : إلغاء نظرية العامل ، وإلغاء العلل الثوانى والثالث ، وإلغاء القياس وإلغاء التمارين غير العملية .

وإيماناً بفكر ابن مضاء وضع د/ ضيف تصوّراً لتصنيف النحو تصنيفاً جديداً بيسراً ، وينقيه من الشوائب التي تعوق نون فهمه ، وأقام تصوّره على ثلاثة أسس :

١ - تنسيق أبواب النحو تنسيقاً يؤدي إلى الاستغناء عن بعض أبوابه بربتها إلى أبواب أخرى ؛ اعتماداً على مبدأ التجانس بين أبواب النحو .

٢ - إلغاء الإعراب التقديرى فى الجمل والمفردات المقصورة والمتقوصة والمبينة .

٣ - إهمال الإعراب ما لم يفد شيئاً فى تصحيح الكلام وسلامة النطق .

وقد خلص د/ ضيف إلى هذه الأسس من خلال مبدئين رئيسين دعا إليهما ، نتيجة هضمه واستيعابه لفكرة ابن مضاء ، وهما : الانصراف عن نظرية العامل ، ومنع التأويل والتقدير فى الصيغ والعبارات .

وحاول د/ ضيف أن يطبق أسس منهجه الجديد على بعض أبواب النحو فى هذا المدخل ، وقد وفق فى كثير منها ، وبعضها لم يوفق فيه ؛ فلم يطبقه - من وجهة نظر الباحث - وقد بينا ذلك فى موضعه .

- هذا المدخل يعد اعتراضاً بالرفض - أو ثورة - من د/ ضيف على النحو العربى بصورته المثبتة فى مصادر النحو القديمة منذ سيبويه ، كما كان كتاب ابن مضاء أكبر ثورة على النحو العربى ونحاة المشرق ، وهذا يعود إلى أن د/ ضيف نهج نهج ابن مضاء واهتدى برأته فى رفضه للنحو العربى بصورته عند سيبويه ومن تلاه من النحاة .

- فى مدخله الثانى لكتاب تجديد النحو أضاف د/ ضيف ثلاثة أسس أخرى هي:

٤ - وضع تعريفات وضوابط دقيقة لبعض أبواب النحو .

٥ - حذف زوائد كثيرة من أبواب النحو تُعرض فيه دون حاجة إليها .

٦ - زيادة إضافات لبعض الأبواب : لتمثيل الصياغة العربية وأوضاعها تمثلاً دقيقاً .

وبذلك تصبح الأسس ستة لا غنى عنها فى التصنيف الجديد للنحو العربى من وجهة نظره ، وقد ترتتب عليها :

- إلغاء ثمانية عشر باباً من النحو ، ودمج أمثلتها فى أبواب أخرى إلا قليلاً جداً منها رأى حذفها لعدم وجود لها فى الواقع اللغوى .

- كما ترتب عليها إلغاء الإعراب التقديرى والمحلى فى الجمل والمفردات المقصورة والمنقوصة والمبينة ، وإلغاء متعلق الظرف والجار وال مجرور ، وإلغاء (أن) مقدرة ناصبة للمضارع بعد أدوات أخرى مثل ظاء السبيبية .

- جعل الإعراب لصحة النطق ، فما لم يصح نطقاً فلا حاجة إليه ؛ ولذا دعا إلى إلغاء إعراب أفعال الاستثناء ولا سيما وأن المخفة من الثقلة وكم الاستفهامية والخبرية وأسماء الشرط .

- وضع التعريفات الجديدة لبعض الأبواب النحوية ، ترتب عليها إلغاء شروط قواعد كثيرة للنحوة لإحكام تلك الأبواب . كما دعا إلى حذف كثير من القواعد والشروط التي وضعها النحوة في معظم الأبواب ولا حاجة للدارس بها .

- دعا إلى تزويد الكتاب بمجموعة إضافات متنوعة رأى أهميتها لاستكمال منهجه .

- قليل مما دعا إليه في مدخل الرد على النحوة تراجع عنه في مدخل تجديد النحو ، وفي ذلك حمد له وخير للنحو .

- منها يكن من خلاف مع د/ ضيف فإن منهجه بهذا الشكل منهجه محمود يحمل تيسيراً للنحو وتجدیداً في تبويه ؛ مما يؤكد أن د/ شوقي ضيف ذو فكر متعمق ورؤى عملية ثاقبة .

- فإذا ما وصلنا إلى التطبيق نجد أن المنهج الذي دعا إليه قد طبقه جيداً بشكل عام من حيث التبويه والتصنیف الجديد ، وفقاً للأسس التي استند إليها في إعادة التصنیف ، أما في التحليلات الداخلية للموضوعات فلم يطبق منهجه في كثير مما دعا إليه ، فمثلاً لم يستطع الخروج من تأثير نظرية العامل في تطبيق منهجه على الرغم من النقد الشديد الذي وجهه لها ودعا إلى إلغائها ، كما لم يطبق مبدأ التجانس بين أبواب النحو حتى على الفعل المضارع الذي ساقه مثلاً عليه في حديثه عن المنهج . وقد تراجع أثناء التطبيق عن كثير من آرائه في المنهج ، فتراجع - أو لم يطبق - عما أسماه بـ (شبه الجملة) فلم نجد له أثراً يذكر في التطبيق ، كما جاء حديثه عن الذكر

والحذف مناقضاً لأساس قوى من أسس منهجه هو ومنع التأويل والتقدير فى الصيغ والعبارات . بل إنه تراجع فى مدخل تجديد النحو عن بعض آرائه التى طرحتها فى مدخل الرد على النحوة . وفى تراجعه خير له وللنحو ، على الرغم من أنه يخل بالمنهج إن لم يفسده . ولعل من المصادفة أن معظم اختلاف الباحث معه كان فى الآراء التي تراجع عنها فى التطبيق ؛ ولذا حمدت له ذلك .

- بصفة عامة وإنصافاً للمنهج وصاحبـه يمكن القول بأن كتاب تجديد النحو يقدم تصنيفًا جديداً محافظاً على البناء الأساسي لأبواب النحو العربـى ، ويـسـهم بشـكـل ما فى تيسير النـحو واستيعابـه من قبل الدارـسين بجهـود مـحدـودـ، وحسبـه أنه خـفـضـ عدد الأبوابـ النـحوـية دون حـذـفـ، ورفعـ عن الدارـسين إـصرـ الشـروـطـ والـقـوـاعـدـ التـيـ مـلـأـتـ كـتـبـ النـحوـ والـتـراكـيبـ والـصـورـ النـحوـيـةـ المصـطـنـعـةـ من قبلـ النـحةـ دونـ إـخـالـ بالـقـوـاعـدـ الأساسيةـ التـيـ يـلـزـمـ الدـارـسـ مـعـرـفـتهاـ .

- ومع ذلك فإنى أرى أن هذا التصـنـيفـ الجـديـدـ لـالـنـحـوـ لمـ يـؤـتـ ثـمـارـهـ حتـىـ الـآنـ ، فـماـزالـ النـحـوـ يـدـرسـ فـيـ المـدارـسـ وـفقـاًـ لـمـنهـجـ النـحـوـ بـيـنـ الـقـدـماءـ وـبـخـاصـةـ الـبـصـرـيـونـ ، وبـالـتـالـىـ فـهـوـ لـمـ يـسـهمـ فـيـ النـطـقـ السـلـيمـ لـالـعـرـبـيـةـ وـفـهـمـهـاـ فـهـمـاـ جـيدـاـ كـمـاـ رـجاـ مـنـهـ صـاحـبـهـ ، وـلـعـلـنـ لـأـبـالـغـ إـذـ قـلـتـ بـأـنـ هـذـاـ الكـتـابـ بـمـنـهـجـهـ الجـديـدـ فـيـ النـحـوـ لـاـ يـعـرـفـ إـلـاـ المـتـخـصـصـوـنـ فـيـ الـدـرـاسـاتـ الـلـغـوـيـةـ الـعـرـبـيـةـ .

د. علاء إسماعيل الحمزاوي

كلية الآداب - جامعة المنيا

قائمة المصادر والمراجع

أولاً - المصادر :

- د/ شوقي ضيف :
- ١ - تحقيق كتاب الرد على النحاة لابن مضاء . ط/ دار المعرف ١٩٨٢ .
- ٢ - تجديد النحو . ط/ دار المعرف - مصر ١٩٨٢ .
- ٣ - تيسير النحو التعليمي مع نهج تجديده . دار المعرف ١٩٨٦ .

ثانياً - المراجع :

- برجشتراسر :
- ٤ - التطور النحوي للغة العربية ط/ الخانجي مصر ١٩٨٢ .
- ابن الحاجب :
- ٥ - الأمالى النحوية . تحقيق هادى حسن حمودة ط ١ / بيروت ١٩٨٥ .
- الزمخشري :
- ٦ - المفصل فى علم العربية . ط ٢ / بيروت . بدون تاريخ .
- ابن السراج :
- ٧ - الأصول فى النحو . تحقيق : عبد المحسن الفتنى ط ٢ / بيروت ١٩٨٨ .
- سيبويه : الكتاب . ت : عبد السلام هارون ط ج ١ / ١٩٧٧ ج ٢ / ١٩٦٨ ج ٣ / ١٩٧٣ .
- السيوطي :
- ٩ - فمع الهوامع . ط/ بيروت . بدون تاريخ .

- د/ شوقي ضيف :

. ١٠ - تيسيرات لغوية ط/ دار المعارف مصر ١٩٩٠.

- د/ طه وادى وأخرون :

. ١١ - شوقي ضيف سيرة وتحية ط/ دار المعارف مصر ١٩٩٢.

- عباس حسن :

. ١٢ - اللغة والنحو بين القديم والحديث ط ٢ / دار المعارف ١٩٧١.

- د/ مازن المبارك :

. ١٣ - العلة النحوية نشأتها وتطورها ط ٣ / دار الفكر ١٩٨١.

د/ محمد إبراهيم البنا :

. ١٤ - تحقيق كتاب الرد على النحاة لابن مضاء ط أولى ١٩٧٩.

- ابن يعيش :

. ١٥ - شرح المفصل .

16 - André Roman :

Grammaire de l'arabe. 1990.

17 - Blachère :

Grammaire de l'arabe classique . Paris 1975.

18 - Emile Benveniste :

Problèmes de linguistique générale V. 1. Gallimard 1996.

19 - Hassan Hamzé :

La position du sujet du verbe dans la pensée des grammairiens arabes. Lyon 1997.

22 - Fleisch :

L'arabe classique . Beyrouth 1968.

Traité de philologie arabe. Beyrouth 1961.

22 - John Lyons :

Sémantique et linguistique. Paris 1990.

٣٠ - فَصَائِد .. فِي حُبّ شَوْقِي ضَيْفٍ فِي تَكْرِيمِ الْأَسْتَاذِ شَوْقِي ضَيْفٍ رَئِيسِ الْجَمْعِ الْلُّغُوِيِّ

شِعْرٌ : الأَسْتَاذُ الدَّكْتُورُ / عَبْدُ اللَّهِ الطَّيْبُ

لِشَوْقِي ضَيْفٍ يَا جَلَالَ وَتَوْقِيرِ
بِهِ رَئِيسًا وَقُلْبِي جَدُّ مَحْبُورٍ
مِنَ الْعِظَامِ أُولَى الْفَضْلِ الْمَاهِيْرِ
هَنَّاتِ أَسْتَاذًا أَجْبَالَ الْجَمَاهِيْرِ
يُلْفُوهُ يَالَّوْ وَلَا يُرْمَى بِتَقْصِيرِ
فَانَّا بِمَا فِيهِ مِنْ مَبْدُ وَتَحْرِيرِ
مُرَابِطًا فِي جِهَادِ ثَمَّ مَبْرُورٍ
دَرْسًا دَقِيقًا بِتَوْثِيقٍ وَتَسْبِيرِ
طُوطِ مُعَلَّمٍ مُخْتَارٍ وَمَأْتُورٍ
حُسْنُ النَّقاشِ بِعَطْفٍ لَا يَتَحْقِيرِ
ذَوقِ أَفَادَ بِتَقْدِيمٍ وَتَأْخِيرِ
عَمِيقَةً لِيَسَ فِيهَا هَذَرَ تَقْعِيرِ
مِنَ الرِّجَالِ لَطِيفٌ غَيْرُ مَغْرُورٍ

أَهْدَى قِوافِي مِنْ شِعْرِي بِتَهْنِشَةٍ
بِلْ حَقَّ مَجْمَعِنَا أَنِي أَهْتَهُ
قَدْ مَجْمَعَ الْعَرَبِ أَسْتَاذَنَا بِلَا شَبَهٍ
وَإِذْ أَهْتَهُ أَدْرِي بِأَنِي قَدْ
جَاءَوْهُ مِنْ كُلِّ أَقْطَارِ الْعَرَوِيَّةِ لَمْ
تَواصِعَا وَاهْتَمَّا بِالشَّبابِ وَعِزِّ
مُوَاظِبَا مُطْمَئِنَّ النَّفْسِ مُجْتَهِدًا
مُشَارِكًا فِي عِلُومِ الضَّادِ أَجْمَعَهَا
مُحَلَّلًا لِأَسَالِيبِ مُحَقَّقِ مَخْ
وَنَاقِدًا قَدْ عَهِدْنَا فِي بَرَاعَتِهِ
مُصَاحِبًا أَدْبَاءَ الْعَصْرِ حُجَّةً ذِي
مُؤْلَفًا وَمُبْيَنًا فِي مَحَاضِرَةٍ
مُهَذِّبًا فَطَنًا حُلُوًّا مُعَاشَرَةً

وَعَالِمًا وَوُدُودًا ذَا مُجَامِلَةٍ
وَقَدْ وَجَدْنَا لِدِيهِ الشَّاطِئِيَّ مَعَ الدَّ
وَعَارِفًا بِالْمَعْانِي وَالْبَيَانِ مَعًا
وَجَيِّدُ الْخَطَّ حَتَّى أَنْ رَفَعَنَهُ
فَسَأَلُ اللَّهَ - تَذْلِيلَ الصَّعَابِ لَهُ
وَأَنْ يُمَدِّعُ عَمَرٌ يَحْفُظُ بِهِ
ثُمَّ الصَّلَاةُ لِكِيمَا يُسْتَجَابُ لَنَا
عَلَى النَّبِيِّ وَآلِ الصَّحَابِ وَتَسْ—

للْوَافِدِينَ بِلَا أَيْنَ وَتَفْتَسِيرٍ
(م) انِي وَحِزْبٌ مِنَ الْقُرَاءِ مَنْصُورٍ
وَفِتْنَةُ ابْنِ هِشَامٍ بَابِنِ عَصْفُورٍ
يَكَادُ يُشْرِقُ مِنْهَا نُورٌ مَسْنُطُورٍ
وَيُمْنَ مَرْضَاهُ ذِي أَمْرٍ وَمَأْمُورٍ
فَؤَادُ كُلَّ قَرِيرِ الْعَيْنِ مَسْنُورٌ وَ
هَذَا الدُّعَاءُ بِتَمْجِيدٍ وَتَكْبِيرٍ
لِيَمِ عَلَيْهِمْ بِمَدَّ غَيْرِ مَخْشُورٍ

الأستاذ الدكتور / عبدالله الطيب
أستاذ الأدب العربي
جامعة الخرطوم
جمهورية السودان

نَبْضَةٌ وفَاءٌ

شعر : الأستاذ / عبد المنعم عواد يوسف

فَعَادَ فِي كُفَّهِ تَضْوَى لَأَلْبِهِ
أَسْمَى الْكَنْوَزِ ، فَلَا جَهْدٌ يُجَارِيهِ
بِكُلِّ رَاقٍ نَفَبِسٍ مِنْ مَجَالِيهِ
فِيمَا إِلَيْهِ قَدْ امْتَدَّتْ مَسَاعِيهِ
مِنَ الشَّقَاتِ ، وَلَا تُحْصَى نَوَاحِيهِ
يَصْدُدُ عَنْهَا أَذَى عَادٍ وَيُرْدِيهِ
وَمَا يَزَالُ بِمَاضِي الْعَزْمِ يُعْلِيهِ
كَمَا تَلُوحُ عَقُودُ الدُّرُّ فِي تِيهِ
عَنْ كُلِّ غَضْرَشِيقٍ مِنْ مَعَانِيهِ
وَالْعَالَمُ الْفَذُّ تُحْصَى مَرَامِيهِ

غَوَّاصٌ دُرَّ سَعَى مِنْ أَجْلِ غَالِبَةِ
فِي بَحْرِ آدَابِنَا قَدْ غَاصَ مَكْتَشِفًا
خَمْسَونَ سِفَرًا بِهَا أَثْرَى ثَقَافَتَنَا
فَمَهْلِكَيْدَانِهِ صِنْوُ بِقَارَبُهُ
وَكُلَّ جَهْدِهِ يَغْسِيَ بِهِ نَفْرَهُ
مَا أَسْعَدَ الضَّادَ إِذْ أَلْفَتْ بِهِ حَصَنَاهُ
حَتَّى أَقَامَ لَهَا صَرْخَاهُ يُكَافِئُهَا
الْجَمْعِيُّ الَّذِي لَاحَتْ فَرَائِدُهُ
وَالْأَلْمَعِيُّ الَّذِي شَفَتْ خَواطِرَهُ
هُوَ الْأَدِيبُ الَّذِي سَاغَتْ بِلَاغَتُهُ

*

*

*

هذا النجيبُ ويسقى من مساقيهِ
من الجهدِ وجليلِ راحَ ببنيهِ
فليسَ من جاحدٍ فينا أياديهِ
ولم يزل ناهلاً من عذبٍ ما فيهِ
ويستطيعُ شذاهُ الحلو حاميهِ
حقَّ الجزاء ، فلا شكرٌ يكافيءِ
صوتُ الوفاء على الإنسانِ يُملئهِ
فذاك شوقى إمامُ التأثرِ يُنشيءِ
حتى يُتمَّ صرحاً عاش يُعليهِ

كم يفخرُ المرءُ أنْ قد كان رائداً
أستاذنا كان ، لم ينخلُ بضافيةِ
أهدى لنا العلمَ في نصيحةٍ وتضحيَةٍ
من نبيهِ الشَّرِّ رَوَى النَّفْسَ ظامِنَةً
والمرورُ العذبُ كم تخلو مشاربهُ
أنْ حاضتهُ الحمدَ ، لكنْ لستُ مُوفيهِ
لكنْ أقولُ بصدقٍ خالصٍ قَوْلًا
إنْ كان شوقى أميرُ الشَّعْرِ يُندِعُهُ
واللهُ أَسْأَلُ أَنْ يُسْقِيَهُ مُؤْتَلَقاً

الشاعر/ عبد المنعم عواد يوسف

من سواه أحق بالتكريم

شعر : الأستاذ الدكتور / سعد ظلام

عميد كلية اللغة العربية - جامعة الأزهر

مَنْ سِوَاهُ أَحَقُّ بِالْتَّكْرِيمِ؟ مِنْ أَدِيبٍ .. وَنَافِدٍ .. وَعَلِيمٍ
كَرَمُ الْحَرْفَ فِي مَنَابِهِ الشَّمْ (م) فَأَرْسَى قَواعِدَ التَّكْرِيمِ
كَرْمُوهُ أَبَا جَلِيلٍ عَظِيمٍ قَدْ تَلَقَّى عَلَى إِمَامٍ عَظِيمٍ
كَرْمُوهُ مَجَاهِدًا عَبْرَرِيًّا رَفِدَ الْفَكَرَ بِالْقَوْمِ - الْقَوْمِ
كَرْمُوا فِيهِ مِهْرَجَانَ الْقَضَايَا
يَسْجُلُ مِنْ خَلْفِ رَأْيٍ قَدِيمٍ كَرْمُوا فِيهِ كُلَّ رَأْيٍ جَدِيدٍ
تَصْدِيَ لِكُلِّ فَكِيرٍ عَقِيمٍ كَرْمُوهُ كَمَا تَشَاءُ الْمَشَانِي
وَاطْلَاعٌ .. وَحِيلَةٌ .. وَرَسِيمٌ كَرْمُوا فِيهِ كُلَّ جُهْدٍ وَصَابِرٍ
تَفَانَى مِنْ أَجْلِ تَبْضِيرِ رَخِيمٍ كَرْمُوا عُمرَةَ الْمَدِيدَ شُمُوعًا

*

*

*

في سلافِ من اللبابِ الصَّميمِ
 من طُيوبٍ .. ومن شَفيفِ الرَّبِّيْمِ
 مِـ ووْشىٌ مِـ مِـ العُقُولِ النُّجُومِ
 وإضافاتُ سانفاتُ الطُّعُومِ
 كُلَّ رُوحٍ سَمَا .. وَكُلَّ أَدِيمٍ
 مُـ شـرـقـ اللـهـنـ فـوـقـ مـثـنـ السـلـيمـ
 قـ فـيـ شـرـيـ الحـيـاـةـ بـالـتـفـيـمـ
 كـ عـنـاقـ الـحـمـيمـ صـذـرـ الـحـمـيمـ
 وـ جـعـلـتـ التـسـفـوـيـمـ لـلتـقـوـيـمـ
 دـابـ وـالـبـحـثـ .. بـالـعـطـاءـ الـكـرـيمـ
 كـيـفـ رـوـأـهـ مـنـ قـطـافـ الـكـرـيمـ
 ضـ وـسـقـيـاـ نـديـمـ .. وـنـديـمـ
 التـزـامـاـ مـثـلـ التـزـامـ "الـحـطـيمـ"
 رـيـؤـدـيـ لـهـ اـطـوـافـ الـقـدـومـ
 دـوـخـ مـنـسـقـ التـنـفـيـمـ (مـ) وـ دـوـخـ مـنـسـقـ التـنـفـيـمـ
 لـ تـضـيـءـ الـظـلـامـ بـالـتـهـوـيـمـ
 إـيـهـ "شـوـقـيـ" وـنـحنـ ضـيـفـكـ دـوـمـاـ
 وـقـرـاكـ المـدـودـ لـلـضـيـفـ أـشـهـيـ
 جـذـوـةـ مـنـ شـرـيفـ أـزـهـرـنـاـ الضـخـ
 أـنـتـ مـاـ أـنـتـ ؟ نـهـضـةـ .. وـانـطـلـاقـ
 نـضـرـتـ وـجـهـ عـصـرـنـا .. وـأـضـاءـتـ
 فـيـ مـحـارـبـهـاـ صـلـاـةـ كـمـانـ
 يـضـدـقـ الـحـرـفـ حـينـ يـشـهـجـ الـصـدـ
 وـهـوـ أـثـرـىـ إـذـاـ تـوـلـاهـ صـدـقـ
 أـنـتـ أـثـرـيـتـ بـالـعـارـفـ عـصـرـاـ
 أـنـتـ وـجـهـ هـنـتـ لـلـفـنـونـ وـلـلـآـ
 فـسـلـلـواـ أـيـ بـاحـثـ .. أـوـ أـدـيـبـ
 فـهـوـ الـفـجـرـ فـيـ زـمـازـمـ الـبـيـ
 وـمـوـاقـيـتـ لـلـحـجـيجـ اـقـتـفـوـهـاـ
 وـاحـتـشـادـ كـأـنـهـ كـعـبـةـ الـفـكـ
 وـهـوـ الـخـلـقـ فـيـ تـوـاضـعـيـهـ الـجـمـ
 مـاـ تـرـىـ الشـمـعـةـ الـمـضـيـنـةـ تـذـوـيـ

وَرَاعَ مُضْرِبَ الْكَلِمِ
لِيُجَلِّ أَزَاهِرِي وَكُرُومِي
وَأَنَّاءٌ .. خَضِيلَةٌ وَعَزِيزٌ
إِي .. وَرَبِّي بِلَاغَةُ النَّقْدِيْمِ

ما ترى العين يسهرُ السُّهُدُ فِيهَا
ما ترى العود يستحِمُ بعطرِ
فِي شَمْوِلِ رَاعِي الْمَسْبِرِ الذَّكِيِّ
هَذِهِ عُنْدَةُ الْأَدِيبِ .. وَهَذِهِ

*

*

*

أطْلَغَتْنَا عَلَى تُرَاثِ عَظِيمٍ
فِي تَضَاعِيفِهِ كَعَيْشِ التَّعَيْمِ
كُنْجُومُ مُضَوَّاتِ التَّخْوِمِ
بِأَقْـاـوـيـقـ مـنـ سـنـاكـ الـعـمـيـمـ
شـاعـرـ الـعـصـرـ وـالـأـمـيرـ الزـعـيمـ
لـؤـ وـالـثـبـرـ فـي كـنـوزـ الـعـلـومـ
ظـافـرـ بـالـبـدـيـعـ مـنـ مـهـجـ الـفـنـ (م)
وـوـفـاءـ لـكـلـ مـعـنـىـ يـتـبـيـمـ
هـىـ فـيـنـاـ .. وـأـنـتـ كـالـتـشـبـيـمـ
وـثـمـارـ الـإـبـدـاعـ وـالـتـرـزـيـمـ
وـهـبـوـطـاـ مـجـنـحـاتـ الرـسـوـمـ

إِيـهـ "شـوقـىـ" وـأـيـنـ مـنـ جـهـهـوـدـ
عـرـضـتـهـ عـرـضـ السـخـىـ .. فـعـيـشـنـاـ
فـرـأـيـنـاـ آـبـاءـنـاـ فـيـ سـمـاءـ
وـشـرـبـنـاـ هـذـاـ الـعـصـيرـ ، فـهـمـنـاـ
مـنـ شـطـوـطـ "الـضـلـلـ" تـسـيـحـ حـتـىـ
مـاهـرـ الـغـوـصـ فـيـ الـمـحـارـ وـفـيـ الـلـؤـ
ظـافـرـ بـالـبـدـيـعـ مـنـ مـهـجـ الـفـنـ (م)
فـيـ اـصـطـبـارـ لـكـلـ مـعـنـىـ شـمـوـسـ
ثـُمـ كـانـ الـحـصـادـ خـمـسـيـنـ سـفـرـاـ
وـمـرـأـيـاـ نـرـىـ عـلـيـهـاـ عـهـوـدـاـ
وـتـوارـيـخـ لـلـمـوـاهـبـ صـفـدـاـ

فَدِرَاسَاتُكَ الْفِصَاحُ جُسُورٌ
لِمُصُورٍ مِنَ النُّبُوغِ الْقَوِيمِ
أَضَاءَتْ كَمَا تَبَدَّلَ شُمُوسُ
وَأَضَاءَتْ مِثْلَ الصَّبَاحِ الْوَسِيمِ

*

*

*

بِالذِّي جَاهَ فِي صَمِيمِ صَمِيمِي
مِنْ جَدِيدِ مَرَاهِقِ مَرْزُعُومِ؟
بِالْجَسْرِ الْبَيْمِ وَالْقَضَا الْمَحْتَوِمِ
فَهُوَ يَهْنِي كَلَوْنَةَ الْمَخْمُومِ
مِنْ غَرِيبٍ عَلَى الْفَؤَادِ السَّلَبِيْمِ
فِي خِيَالٍ مُرَأَوِيْغِ .. وَسَقِيمِ
وَرْكَامِ مِنَ الضَّبَابِ الْبَهِيْمِ
وَالْتَّسْعَدِيِّ وَهُوَةَ التَّسْطُعِيْمِ؟
كَيْفَ كَانَتْ جَنَابَةُ التَّكْمِيمِ؟
كَيْفَ كَانَتْ ضَلَالَةُ التَّعْقِيمِ؟
فَتَوَقَّفتَ عِنْدَ سَفْحِ الْهُمُومِ
ثُورَةُ الْجَاهِلِ وَالْجُنُوحُ الْأَثِيمِ
لَا .. لَا مَرْهَى وَلَا تَنْفِيْمِي

لَا تَلْمِنِي إِذَا بَثَكَ شَبَيْنَخِي
أَئِ هَذَا الذِّي وَصَلَّنَا إِلَيْهِ
كَجَدِيدِ مِنَ الْمَنَابِي .. مُحَلِّي
أَدْبُ عَاجِزُ الرُّؤْيَ مَأْزوْمِ
مُسْتَرَابُ الْإِيقَاعِ مُضْطَرِبُ الْلَّهَـ
لُغَةُ مُرَأَةٍ، وَلَخْنُ كَشِيبُ
يَتْسَجِي بَلِيلٍ مَوْتٍ بِلِيدِ
عَمْرَكَ اللَّهِ كَيْفَ كَانَ الْحَدَى
كَيْفَ كَانَتْ تَفَاهَةُ التَّرْمِيمِ؟
كَيْفَ كَانَتْ سَفَاهَةُ التَّغْتِيمِ؟
قَدْ تَرَفَعْتَ أَنْ تَرَى فِيهِ شَبَيَا
إِنَّهَا مِسْخَةُ الْمَرْوُقِ .. وَهَذِي
لَا شُعُورِي وَلَا أَحَاسِيسُ نَفْسِي

فِي وَضْوَحٍ .. وَمَقْصِدٌ مُسْتَقِيمٌ
 أَيْنَ حِسْنٌ مُجَلِّجًا وَهَزِيمٌ
 وَعَلَيْهِ تَوْهِيجٌ وَغُبْرٌ وَمَى
 سَنْ وَوْقَعُ مُشَابِرٌ مُتَفَسِّومٌ
 جَنَبَ اللَّهُ مَنْ أَحَبَ هُمُومَى

لَا .. وَلَا لِهَجَةُ الْأَعَارِبِ فِيهِ
 أَيْنَ شِعْرًا أَنَا وَأَيْنَ شُعُورًا ؟
 أَيْنَ نَبْضِي ؟ عَلَيْهِ تَوْقِيعُ دَاتِي
 وَرَفِيفُ الْفِنَاءِ يَفْهَمُ بِاللَّهَخَ
 كَانَ مَا أَشْتَكِيهِ بَعْضَ هَمُومِى

*

*

*

وَقَدِيمَ الْمُجَدِّدِينَ الْقُدَامَى
 وَأَغْسَانِي تَكْرِيمُكُمْ تَكْرِيمِى
 مَنْ أَدِيبٌ .. وَنَاقِدٌ .. وَعَلِيمٌ ؟

يَا إِمَامَ الْمُجَدِّدِينَ الْقُدَامَى
 مَنْ سَوَاقَ عِلْمِكُمْ تَعْلِيمَى
 مَنْ سِواكُمْ أَحَقُّ بِالتَّكْرِيمِ

الشاعر الأستاذ الدكتور / سعد ظلام
 عميد كلية اللغة العربية
 جامعة الأزهر الشريف

قصيدة للأستاذ حسن عبدالله القرشى

في حفل تكريم الأستاذ الدكتور شوقي ضيف

وتَرَاءَيْتَ مَوْكِبَ الْخَالِدِينَا؟ .
وهو في الحُفَلِ زِينَةُ النَّاظِرِينَا
يَعْتَلِي ذِرْوَةَ الْفَخَارِ مَكِينَا .
أَمْ خِيَالٌ مِنْ سِخْرِهِ حَلَّ فِينَا؟ ! .
لَى وَمَنْ عَاشَ شَامِخًا لَنْ يَلِينَا
نَحْطَابَاتِ الْحُسْنَى بْنُ سِينَا .
قَبِيسٌ يَصْبَغُ الْمَرَائِي فُتُونَا .
نِ كِشْمِسٍ نَجَلو الدِّيَارَ فُتُونَا .
بَتَّبَاهِي بِكَ الرَّفَاقُ سِينَا .
وَلَكَ الْفَضْلُ بِاذْخَالِنِ يَهُونَا

هَلْ تَلْفَتَ يَسْنَرَةً وَيَمِينَا
وَتَرَاءَتْ عَيْنَاكَ تَرْقُبُ (شَوْقِي)
وَتَرَاءَتْ عَيْنَاكَ تَرْقُبُ (شَوْقِي)
أَوْ شَوْقِي الَّذِي نَرَاهُ عَيْنَا
مَرْحَبَا يَا مَنَارَةَ الْأَدَبِ الْعَالَمِ
مَرْحَبَا جَاحِظَ الْقَافَاتِ سَخْبَا
مَرْحَبَا مَنْ لَهُ بِكُلِ دِيَارٍ
هُوَ هَذَا شَوْقِي يَطْلُبُ عَلَى الْكَوَافِرِ
يَا مِثَالَ الْأَخْلَاقِ فِي كُلِّ حِينٍ
عِشْتَ لِلْعِلْمِ مُشَرِّبَ الْمَوَاسِي

الشاعر : حسن عبدالله القرشى
المملكة العربية السعودية

شوقي ضيف ... جناحا المجد

شعر : الأستاذ الدكتور / صلاح عبد

أستاذ الأدب العربي

وكلٌ بالغٌ منها مُرَادَة
فَلَا ننفكُ فِي طَلَبِ الْزِيَادَةِ
وَفِي هَذَيْنِ لِلأَمْمِ السَّيَادَةِ
فَقَدْ أَلْقَى الزَّمَانُ لَنَا قِبَادَةً
وَحِيثُ مَكَارِمُ الْأَخْلَاقِ عَادَةً
لَهُ فِي مِصْرَ وَالشَّرْقِ الرِّيَادَةُ
بِهِ أَغْلَى الدُّرُوسِ الْمُسْتَفَادَةُ
يُواصِلُ فِي أَعْالَيْهِ اِتْقَادَةً
تَرَى فِينَا وَمَا نُعْطِي جِهَادَةً
كَمَنْ نَالَ الْوِسَامَ أَوِ الْقِلَادَةُ
وَقَدْ جَسَدَنَا فِي الْأَدْبِ اِجْتِهادَةً

بِحَمْدِ اللهِ تَحْمِلُونَا السُّعَادَةَ
وَلَكُنَّ الْأَطْمَرَوْحَ بِلَا حُسْدُودَ
أَرَاهَا كُلَّهَا أَدَبًا وَعِلْمًا
جَنَاحَا المَجَدِ ، إِنْ قَوْبَا وَطَالَا
حَسِيثُ الْفَكْرُ لِذَذَةِ كُلِّ عَقْلٍ
وَنَحْنُ الْآنَ فِي أَعْلَى مَكَانٍ
تَلَقَّيْنَا عَلَى نُجُبِ كَرَامٍ
تَلَقَّ فِيهِ شُوقي ضَيْفٌ نُجْمَاءُ
نُحْبِطُ بِهِ تَلَامِيذَا وَأَهْلَا
نُفَاسِخِرُ أَنَا عَنْهُ أَخْلَنَا
وَتَذَهَّبُ كُثُبُهُ فِي كُلِّ صَوْبٍ

يُوشِّي الشَّغْرَ وَالثَّنَرَ امْتَدَادَهُ
إِذَا بِجَذْوِرِهِ أَجْرَى مِدَادَهُ
وَيَخْعُلُ ذَاهِلًا عَلَى هَذَا شَهَادَهُ
تَرَى التَّارِيخَ عَنْهُمَا عِنْسَادَهُ
يُقْسِمُ الْمَنْطَقَ الرَّاقِي عِمَادَهُ
كَمَا الْعَظَمَاءُ رَوَادَهُ وَقَادَهُ
فِي الْأَسْلَوبِ لَا تُخْطِي افْسَرَادَهُ
وَإِخْلَاصًا كِإِخْلَاصِ الْعِبَادَهُ
وَجَدًّا فِيهِ أَدَى لِلْإِجَادَهُ
وَجَمِيلًا التَّسْوِاصُ وَالزَّهَادَهُ
خَمِيلَتِهِ وَسَاقِيهِ عِهَادَهُ
وَتَجَمَّعَنَا وَإِيَاهُ السَّعَادَهُ

تَرَى التَّارِيخَ عَصْرًا بَعْدَ عَصْرٍ
يَعُودُ النَّصُّ مُخْضَرًا نَضِيرًا
يَصْوُرُهُ مِنَ التَّارِيخِ جُزْءَهُ
وَحَتَّى فِي الْبَلَاغَهُ أَوْ أَخْيَهَا
وَيُضْدِرُهَا هُنَاكَ حُكْمَهُ
كَبِيرٌ شَامِخٌ فِي كُلِّ شَيْءٍ
وَإِنْ أَخَذَ الرِّيَادَهُ عَنْ كِبَارٍ
نُحَسِّي الْيَوْمَ عِلْمَانِ ثمَّ خُلُقَاهُ
وَفَيْضًا مِثْلَ نَهَرِ النَّيلِ مِنْهُ
وَأَخْلَاقًا عَلَتْ وَحَلَتْ وَجَلَتْ
نُشَكَّلُ باقِهَةَ تُهَدَى لِرَاعِي
فَعَاشَ بِصِحَّهِ يُعْطَى وَيُعْطَى

الشاعر الأستاذ الدكتور / صلاح عبد
أستاذ الأدب العربي
ووكيلاً كلية التربية ببور سعيد

شوقى ضيف .. معزوفة حبٌ وطنية

شعر : الدكتور / عبد الفتاح الشطري

يا راية حبٌ وطنية

لک من قلبی ألف تحیه

بسحوق الأهرام ، ونبض النيل الخافق بالإيمان والحرية

يا راية حبٌ عربية

تحفُّر في التاريخ جذوراً عَبَقِيَّةً

تستصنfi أغلى ما رَنَمَ الإنسانُ العربيُّ وفجَّرهُ للبشرية

أنواراً ، أنهاراً قدسية

أنغاماً خالدة ، وتراثِمِ آيةٍ

يا واحة حبٌ مصرية

تنبعُ ، تدفىءُ ، وتُظلِّلُ بمحرابك أبناءَ العربية

يا مانح كلَّ الألقاب العلمية

دونكَ كُلُّ الأسماء ، وكلُّ الألقاب

فلأنتَ بصدرِي الخافق ،

في قلبِ جماهيرِكَ جوهرةٌ إيمانية

علمُ للموسوعيَّين ، وللموسوعيَّة ..

دفقاتُ من تاريَّخ ، من علمٍ ، ومضاتُ قرآنِيَّة

إشاراتُ ملائكة الرحمٰنِ تزفُ إليك من الله تحية عبقيه .

أهواكَ ، فاحتضنَ القرآنَ ، وعلَّمَ بلادي ودَّاولينَ العربيةَ .

أهتفُ بآبئي الطَّيْبِ ، بآبئي نَامِ

بالعربيِّ الظافرِ في فتحِ "عموريَّة" ...

يا شوقي ضيفُ الرائدُ :

كيف نحييكَ ، وأنتَ على صدرِ التاريخِ تحيةَ

ميلادٌ يتجلَّدُ للعربيةِ

للشَّادينَ ، وللنَّاثينَ لكلَّ البشريةِ

لسنا نُسميكَ إجلالاً وتكرمةً

وقدركَ المعلى عند ذاكَ يُغتنينا

يا شوقي ضيفُ الرائدُ :

كيف نحييكَ ، وأنتَ على صدرِ التاريخِ تحية عبقيَّة ...

أهواكَ ، فأهوى مصرَ ، وأعشقَ أمتنا العربيةَ ،

إسلامية

ومسيحية ،

إنسانية ...

وأنادي قممَ بلادي الفكريةَ .

سامی البارودی، هیکل، طه، حافظ، صبری، شکری والعقاد، وموسى،
والشمروريَّة.

وكفاحاً فوقَ ثرى بلدى الطاهر
وأناجى شوقى الشاعرَ فى سبّحات علويه :

وطني ، لو أنى أشغل عنك بخلد
ما آثرت سوى الحبة

أن تبقى رأينا الطاهرة تُرْفَفُ مصريّة

١٢

اسلامیہ

نسانیہ

لِلْقَهْرِ ، وَلَا لِلْأَحْقَادِ الشَّيْطَانِيَّةِ
وَنَعَمْ لِلْطَّفَلِ يُرَنِّمْ بِالْقُرْآنِ
بِطَالِعْ آيَاتِ اللهِ الْأَبْدِيَّةِ

وینچنی

"لَكَ يَا مِصْر سَلَامًا، وَسَلَامًا لِلدِّيْقِرَاطِيَّةِ"

وطني لو أتى أشغل عنك بخلد
ما آثرت سوى الحرية.

فَإِلَيْكُ تَحْيَا تَحْيَاتُ الْأَجِيَالِ ، وَإِجْلَالٌ بِلَادِي

للرائد ، للعالم ،

للورع ، وللموسوعة
وإليك أزاهير الماضي ، والحاضر
يلقيان على صدرِ وَسِعِ الإنسانية
وأنا أهتفُ فيك بأبياتِ أمير الشعراء
وأنهُدِي سيرتكم لشبابِ العربيةِ :
كأنَّ اللهَ إِذْ قسمَ المَعَالِ
لأهلِ الواجبِ ادْخُرَ الْكَمَالَا
ترى جداً ، ولستَ ترى عليهم
ولوعاً بالصغارِ واشتغالاً
وليسوا أرْغَدَ الْأَحْيَاءِ عِيشَا
ولكنْ : أَنْعَمُ الْأَحْيَاءِ بِالْأَ
إِذَا فَعَلُوا فَخِيرُ النَّاسِ فَعَلَا
وإنْ قالُوا فَأَحْسَنُهُمْ مَقَالَا
وإنْ سَأَلُوكُمُ الْأَوْطَانُ أَعْطَوْا
دَمًا حَرًّا ، وَأَبْنَاءً وَمَالًا
هذا شوقي ضيف الرائد يشمخُ فوقَ الألقابِ
قدْ خطَّ التاريخُ بصفحاتِ التُّورِ اسمك
في قاموسِ الأبدية
شوقي ضيف الأعظم

أهدي سيرتهُ
عطرًا
لشباب بلادي
وردًا
لشيخوخ بلادي
نبراساً ، وتحيةٌ
عقبيةٌ ...

دكتور/ عبد الفتاح الشطى
قسم اللغة العربية
كلية الآداب - جامعة القاهرة
فرع الخرطوم

بُورٌتريه لشموقى ضيف

شعر : الدكتور / يسرى العزب

سرنديب تهديك ذكرى الحديث عن الشّعر
ودمياط أحلى تحايا الوداد الجميل

إلى النيل تمنح أيامك هذى

أحضرار الجزيرة

أورثنتى حبها

من أدب الشرق أعطيتنا تفاحة الازدهار

هنا تقبع الجاهلية في الرمل

ليته النَّفَطُ لم يجئ

عصفورة الشرق طيرتها حدأت الطوائف

عند الغروب

أنت في الأرض مازلت واقف

وأنا من دُولَاتِ ضعفى أعاصر

كُلَّ الزَّواحف

كان شيطان شِعْرى يُعاندُ نقدك ،

أحول ظلمتهم للنهار
وأمضى إليك لأشحن بطاريةَ القلب
بالدفءِ والعقلِ بالأخضرار
أشار كُكَ اللقمةَ الواحدة
وحصوةَ ملْحٍ جاءتك زواجه
من "أولاد حمام"
بعينِ الصبورِ تُعيدُ القطبيعَ إلى
الدربِ تُهدي الطوائفِ
تهدي تُعيدُ إلى الصخرِ
في الغربِ المسلطاتِ
المسلطاتُ وجهها عَرَبِيٌّ
وقلُبها حال منَ الزيتِ لكنه عَرَبِيٌّ
عقلُها أكبرُ أن ينفلُصَ إنَّه عَرَبِيٌّ
يكبرُ في شفتيِ ابتساماً ويحضرُ
فوقَ حَدَائقَ النصرِ (دمياط) أكبرُ ، يكبرُ في
شاطئيك الفرجِ .
أنتَ تعرفُ نقدي وشعرى الذي أبقيتهُ للذى
سيجيءُ
أراهنُهم ، وأنتَ الجمودُ الخُرافِيُّ أَنَّا طَالِعَانِ

وأنَّ الذِّي تَرَى مِنْ سَنِين

تَحَقَّقَ فِيَنَا ، وَبَانَ

وَجُودًا مِنَ الْحَقِّ شَكْلٌ بَيْنَ سُطُورِكِ

أُوراقَ نُورٍ وَشَوْقٍ إِلَى وَشَوَّشَاتِ

الْحَقِيقَةِ فِي شَفَتِيكِ وَأَنْتَ تَهْمِمُ :

إِنِّي أَرَاهَا وَلَا يَسْمَعُونَ

يَقْرَأُوا الضَّيْفَ بَيْنَ يَدِيكَ ، تُضَيِّفُ إِلَيْهِ

الكَثِيرُ مِنَ الرُّوحِ ، تَبَعِثُ فِيَنَا جَفْفَهُ

السَّنَوْنَ

يَخَافُونَ

يَخَافُونَ نُورَكَ يَبْتَعِدُونَ

وَأَدْنُوكَ إِلَيْكَ فَأَصْبِحُ نُورًا

وَالذِّي نَبْغِيهِ يَجْعَلُ الذِّي

أَبْتَغِيهِ يَجْعَلُ الذِّي

نَبْغِيهِ ...

دكتور/ يسرى العزب

قسم اللغة العربية

كلية أداب بنها – جامعة الزقازيق



شوقى .. شمس لا تغيب

شعر : خالد محمد مصطفى

كُلَّتْ عَصْرُورَا يَا شَوْقِي
غَذَيْتْ عُقْوَلًا بِالْأَدْبِ
وَطَرَقْتَ فُنُونَ الْعِلْمِ
وَبَنَيْتَ الْجَهَدَ لِأَمْرِنَا
نَسَمَاتُ سِمَائِكَ أَضْرَوْهَا
فَرَأَكَ النَّاسُ كَإِلِيَّاسِ
مَا أَكْثَرَ مَنْ رَأَمَ الْفَسِيلَ
أَغْنَيْتَ الطَّالِبَ عَنْ جَمِيعِ
أَسْلُوبِكَ يَسْنُرِي فِي النَّفْسِ
نَفَمَائِكَ فَاقَتْ خَمْسِينَا
يَسَّرَتِ النَّحْوُ بِتَجَدِيدِ

بِشَمَارِ مَلِءِ الْبُشْرَى
فَتَسْخَتَ بِرَاعِمِ أَفْنَانِ
فَأَضَاءَتْ لَيْلَ الْأَكْوَانِ
وَرَفَعْتَ عِمَادَ الْبُنْيَانِ
قَلْبُ قَدْفَاضِ بَإِيمَانِ
وَبَلَغْتَ بَلَاغَةَ سَخْبَانِ
فَأَجَبْتَ الْكُلَّ بِإِحْسَانِ
أَطْفَلَتْ لِهَبِيبَ الصَّدِيَانِ
وَكَائِكَ عَازِفُ الْخَانِ
حَضَنْتَ تَارِيخَ الإِنْسَانِ
فَسَرَّتْ كِتَابَ الرَّخْمَنِ

كَالنَّهْرِ تَفَيَضُ بِأَفْكَارٍ
 فَعَطَاوَكَ كَنْزٌ لَا يَفْتَنِي
 وَسِامُ مُبَارِكٍ آتَيْكُمْ
 سَيَقُولُ وَفِي زَهْوٍ عَنْكُمْ
 هَرَمٌ مَصْرَىٰ عَصْرَىٰ
 نُهَدِيكُ الرُّوحُ طَوَاعِيَّةٌ
 تُبَدِي إِعْجَازَ الْقُرْآنِ
 لَنْ يُذْرِجْ طَىَ النَّسْبَانِ
 خَجْلًا مِنْ غَيْبِ الْإِيمَانِ
 مِنْ بَغْدَادِ مَرَأَةٍ كِشْمَانِ
 مَوْسُوعَةٌ كُلُّ الْأَزْمَانِ
 يَا حُبَّا مِلءَ الْوَجْدَانِ

(*) نشرت هذه القصيدة بجريدة اللواء الإسلامي بتاريخ ١٧ من يوليو ٢٠٠٣ م.

فهرس الكتاب

٥	ما قبل البعد
٧	خطبة الطبعة الثانية
١٥	مقدمة الطبعة الأولى
١٩	١ - شوقي ضيف - سيرة عالم .. ومسيرة إنسان - د. طه وادي
	٢ - معنى والسير الذاتية أو شوقي ضيف في تاريخ حياته -
٨٥	د. ماهر حسن فهمي
١٠٧	٣ - تحية لشوقي ضيف - قداسة البابا شنودة الثالث
	٤ - شوقي ضيف .. والأخلاق الموسيقية - رجاء النقاش
١١٢	٥ - الأندلس في نتاج شوقي ضيف - د. محمود على مكى
١٢٢	٦ - منهج شوقي ضيف في الدراسات الأدبية - د. يوسف حسن نوبل
١٣٧	٧ - منهج شوقي ضيف في دراسة العصر العباسى - د. حصمة عبد الله غوشة ..
١٤٩	٨ - الرؤية الشمولية في تاريخ الأدب عند شوقي ضيف - د. حلمى بدير
٢٠٧	٩ - جهود شوقي ضيف في الدراسات اللغوية - د. محمود فهمي حجازى
	١٠ - جهود الدكتور شوقي ضيف في تيسير النحو العربي -
٢١٧	د. إيمان السعيد جلال
٢٢٢	١١ - شوقي ضيف الإنسان والعالم - د. محمد حسن عبد العزيز
٢٢١	١٢ - منهج شوقي ضيف في كتاب « المدارس النحوية » د. محمود ياقوت

- ١٢ - ذكرياتى مع الدكتور شوقي ضيف - د. أحمد عبد الستار الجوارى ٢٦٣
- ١٤ - رحلة نحوية مع أستاذى الكبير شوقي ضيف - د. مازن المبارك ٢٦٧
- ١٥ - مع إسلاميات شوقي ضيف للاستاذ الدكتور / محمود على مكي ٢٧٧
- ١٦ - إسلاميات شوقي ضيف - د. النعمان القاضى ٢٩١
- ١٧ - **شوقي ضيف والتراث العربى والإسلامى** -
د. كمال الدين عبد الفنى المرسى ٣٠٧
- ١٨ - منهج شوقي ضيف فى « البلاغة تطور وتاريخ » د. منير سلطان ٣١٥
- ١٩ - الأصول الجمالية فى الدراسات النقدية عند شوقي ضيف -
د. محمد عزيز نظمى ٣٢٩
- ٢٠ - منهج شوقي ضيف فى دراسة شاعر العصر الحديث -
د. أمين موسى الخطيب ٣٣٧
- ٢١ - التشر العباسى فى دراسات شوقي ضيف - د. سعيد منصور ٣٥٥
- ٢٢ - « ابن الرومى » بين يدى الدكتور شوقي ضيف -
د. أحمد محمد عبیدان ٣٦٩
- ٢٣ - شوقي ضيف وعصر التول والإمارات - د. سعد شلبى ٣٨٧
- ٢٤ - عصر التول والإمارات - الأندرس - د. عاطف العراقي ٣٩٥
- ٢٥ - البحث عن الشخصية المصرية عند شوقي ضيف - د. أحمد يوسف ٤٠٧
- ٢٦ - شوقي ضيف والدراسات الأندرسية - د. جمال عبد الكريم ٤٢١
- ٢٧ - شوقي ضيف .. الحقيقة والرمز - د. ماهر شفيق فريد ٤٢٥
- ٢٨ - منهج الدكتور شوقي ضيف وأراؤه فى التليم - أ.د. على الحيدى ٤٣٩
- ٢٩ - موقف شوقي ضيف من الدرس النحوى - دراسة فى المنهج والتطبيق
د. علاء الحمزوى ٤٦١

- ٢٠ - قصائد .. في حب شوقي ضيف - في تكريم الأستاذ شوقي ضيف -
 رئيس المجمع اللغوي شعر الأستاذ الدكتور / عبد الله الطيب ٥٢١
- نبضة وفاء - شعر الأستاذ / عبد المنعم عواد يوسف ٥٢٢
- من سواه أحق بالتكريم - شعر أ.د. سعد ظلام ٥٢٥
- قصيدة للأستاذ حسن عبد الله القرشى فى حفل تكريم
 الأستاذ الدكتور / شوقي ضيف ٥٣١
- شوقي ضيف .. جناحا المجد - شعر الأستاذ الدكتور / صلاح عبد
 أستاذ الأدب العربي ٥٣٢
- شوقي ضيف .. معزوفة حب وطنية - شعر د. عبد الفتاح الشطى ٥٣٥
- بورتريه لشوقي ضيف - شعر د/ يسرى العزب ٥٤١
- شوقي .. شمس لا تغيب - شعر : خالد محمد مصطفى ٥٤٥

طبع بالهيئة العامة لشئون المطبع الأميرية

رقم الإيداع ٢٠٠٣ / ١٧٧٢٦